

إبراهيم الأبيسي



ترجمة: تيسير كبري جيتو

الطبعة الثانية

نصدهم مختارة من نولس توي
المقام: دودو توفيسكي
اعتزاف شتيف الليل: جورج ديكاس
وحنا: إلفان تورجينف

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

– العدد: ١٦٩ / ٢

– إبداعات أدبية

– نخبة

– شكرى عياد

– الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة:

مجموعة مختارة من الإبداعات الأدبية
من أعمال دستوفسكى وتولستوى
و ديهامل وتورجينييف

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

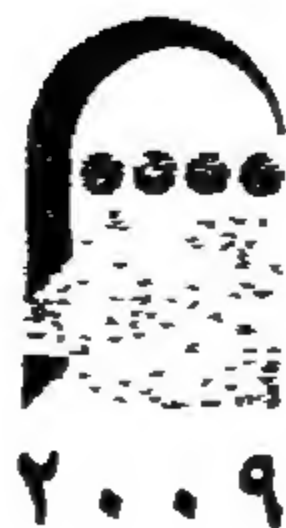
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

إبداعات أدبية

نصوص مختارة من تولستوى
المقام ——— ر: دستويشكى
اعتراف منتصف الليل: جورج ديهامل
دخ ——— ان: ايقان تورجينيڤ

ترجمة: شكري عياد



رقم الإيداع: ١١٨٩٢ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولي: 1 - 416 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز .

الكتاب الأول

نصوص مختارة من تولستوى

تقديم

ستيفان تسفايج

ترجمة

شكري محمد عياد

مراجعة

على أدهم

مقدمة

ولد الكونت ليوتولستوى فى منزل أسرته " بياسنايا پوليانا " بروسيا فى التاسع عشر من سبتمبر سنة ١٨٢٨ .

وكان ينحدر من أسرة عريقة ، وكان مستهتراً فى شبابه ، ثم دخل الجيش واشترك فى حرب القرم ، وبدأ يكتب وهو فى الجنديّة . وعندما انتهت الحرب كان قد اكتسب شهرة ، وكانت أفكاره تتجه شيئاً فشيئاً وجهة اشتراكية جادة ، متأثرة بالسياسة التقدمية التى اتبعها القيصر الإسكندر الثانى ، وفى سنة ١٨٦٢ تزوج ووفق فى زواجه ، وشهدت السنوات العشر التالية ظهور روايتيه الكبيرتين "الحرب والسلام" و"أنا كارنينا" وأمضى بقية حياته فى ضيعته ، مشغولاً بأعمال الخير ، وملتزماً بالبساطة المتزايدة فى عيشته ، حتى مرض فجأة ومات فى العشرين من نوفمبر سنة ١٩١٠ .

تولستوى

لستيفان تسفايج

فى السابع والعشرين من يولية سنة ١٨٨٣ ، بعث الكاتب الروسى تورجنيف - وهو أعظم كتاب قومه بعد تولستوى - بخطاب مؤثر إلى صديقه تولستوى فى ياسنايا پوليانا .

لقد ظل سنوات عدة ينظر فى قلق إلى تولستوى الذى كان يعده أعظم كتاب بلاده ، وهو ينصرف عن الأدب ليستغرق فى "خلقية صوفية" هذا الرجل الذى بذ الجميع فى تصوير الطبيعة والإنسان لم يعد على مكتبه الآن إلا كتب اللاهوت والكتاب المقدس ، وكان تورجنيف يخشى أن يضيع تولستوى أهم سنوات نضجه الفنى فى تأملات دينية بعيدة عن العالم كما فعل جوجول .

ولذلك تحامل على نفسه وهو فى مرضه الأخير ليمسك ريشته - أو قلمه على الأصح لأن يده الضعيفة لم تعد تقدر أن تمسك الريشة - ويكتب إلى أكبر عبقرى عالمى فى بلاده نداءً مؤثراً .

لقد كان هذا النداء - كما قال - الرغبة الأخيرة الحارة لرجل يموت : "عد إلى الأدب ! إنه موهبتك الحقيقية . أيها الشاعر العظيم ، يا شاعر أرضنا الروسية ، اسمع دعائى !"

لم يجب تولستوى من فوره على تلك الصيحة المؤثرة من فراش الموت (كان الخطاب مقطوعاً فى وسطه ، وقد كتب تورجنيف أن قوته خانتة) ؛ وعندما عزم على الكتابة أخيراً كان الوقت قد فات ومات تورجنيف دون أن يعلم أن رغبته قد وجدت أذنًا صاغية، ولكن لعله كان من العسير على تولستوى أن يجيب صديقه وينصاع له ؛ فإن الذى كان يدفعه فى طريق العكوف والبحث عن الله لم يكن غروراً ولا رغبة متأملة فى الاستطلاع ؛ ولكنه كان يشعر أنه مجتذب إلى هذا الطريق على غير إرادة منه ، بل برغم إرادته فى الحقيقة . إن تولستوى الذى كان رجلاً دينوياً ملتصقاً بالأرض ، والذى رأى الجانب الحسى من عالمنا وشعر به أكثر من أى إنسان آخر ، لم يسبق له قط فى حياته كلها أن أبدى ميلاً إلى الميتافيزيقا ، ولم يكن قط مفكراً لدافع أصيل نحو التفكير أو للذة التفكير ؛ ولقد كانت العناصر الجسدية فى الحياة ، هى التى شغلت الجانب

الأكبر من اهتمامه فى فنه الملحمى . وإذن فهو لم يتجه إلى التأمل عن قصد ، ولكنه تلقى - على حين غرة - ضربة مفاجئة : ضربة من مكان ما فى الظلام ، جعلت هذا الرجل القوى الركين الصحيح البدن ، الذى اقتحم الحياة دائماً منتصب القامة واثقاً من نفسه، يترنح ويلتمس بيديه سنداً يقبض عليه .

هذه الصدمة الداخلية التى تلقاها تولستوى وهو فى نحو الخمسين ليس لها اسم ولا سبب ظاهر على الحقيقة ، فكل ما يمكننا أن نظنه ضرورياً للحياة السعيدة قد جاءه منقاداً فى هذه الفترة من حياته.

كان تولستوى صحيح الجسم ، بل كان أقوى جسماً من أى رجل من معاصريه ، وكان فى عنفوان قواه الفكرية ، وفى نضارة قدرته الفنية ، وكان سيد ضيعة كبيرة ، فلم يكن يزعجه شئ من المتاعب المادية ، وكان ذائع الصيت لأنه أولاً سليل أسرة من أعرق الأسر الأرستقراطية ، ولأنه ثانياً - وهذا هو الأهم - أعظم كاتب فى اللغة الروسية ، وروائى ذو شهرة عالمية ، وكانت حياته المنزلية يسودها الوفاق التام ، فله زوجة وأولاد ، وليس ثمة ما يشير إلى سبب واحد ظاهر يمكن أن يؤدى إلى أقل سخط على الحياة .

وفجأة جاءت هذه الضربة من الظلام ، واستطاع تولستوى أن يشعر بأنه شيئاً مخيفاً قد حدث له ، "لقد توقفت الحياة عن الحركة ، واستحالت كئيبة منذرة . " وكأنما كانت كل جوارحه تسأله عما حدث : لماذا هذه السوداوية المفاجئة ، وهذه النوبات من الرعب ، ولماذا لم يعد شئ يسره أو يحركه ؟ لم يكن يشعر إلا بأن العمل يبعث حنقه ، وأن زوجته تبدو له غريبة ، وأولاده لا يحركون شعوره لقد استولى عليه اشتئزاز من الحياة ، وملل من العيش ، وأخفى بنديقية صيده فى درج مغلق مخافة أن يصوبها إلى نفسه يأساً ، وهو يصف هذه الحالة فى صورة فنية رسمها لنفسه . صورة "ليقين" فى "أنا كارنينا " ، فيقول : "فى ذلك الوقت تجلّت له - لأول مرة - فكرة أن كل حي ليس أمامه شئ يتوقعه إلا العذاب والموت والفناء الأبدى ؛ وهذا شأنه هو نفسه أيضاً فقرر أنه لا يمكنه المضى فى الحياة على هذا النمط ؛ فإما أن يجد تفسيراً للحياة وإما أن يضرب نفسه بالرصاص ."

ومن العيب أن نضع اسماً لهذه الفورة الباطنية التى أحالت تولستوى إلى متأمل ومفكر ومعلم حياة ، ولعلها لم تكن إلا تحولاً فى نشاطه الجسمى ، أو خوفاً من الشيخوخة ، أو خوفاً من الموت ، أو كتابة عصبانية أدت إلى شلل روحى عابر ، ولكن

طبيعة الإنسان المفكر ولا سيما الفنان ، هي أنه يلاحظ أزماته الداخلية ويحاول التغلب عليها ، وقد استولى على تولستوى فى أول الأمر قلق مبهم ، وأراد أن يعرف ماذا حدث له ، ولماذا غدت الحياة فجأة ضحلة لا معنى لها ، وهى التى كانت تبدو له من قبل معقولة جداً ، غنية جداً ، خصبة جداً ، متنوعة جداً ، وكما شعر "إيفان إيليتش" فى قصته الرائعة بمخالب الموت لأول مرة وسأل نفسه فزعاً : « أترانى لم أعش كما كان ينبغى أن أعيش ؟ » أخذ تولستوى يمتحن نفسه يوماً بعد يوم عن حياته ، وعن معنى الحياة .

فكان باحثاً عن الحقيقة وفيلسوفاً ، لاعتن لذة فطرية فى التأمل ولا عن حب استطلاع فكري ، ولكن من أجل المحافظة على النفس ونتيجة لليأس . فتفكيره كتفكير بسكال ، فلسفة على حافة الهاوية أو خارجة منها ؛ لقد كان يبحث عن الحياة فى خوفه من الموت والعدم ، ولدينا من تولستوى وثيقة غريبة ترجع إلى هذه الفترة : قصاصة ورق أحصى عليها "الأسئلة المجهولة" الستة التى كان يجب أن يجيب عنها :

(أ) لماذا أعيش ؟

(ب) ما سبب وجودى ووجود كل إنسان غيرى ؟

(ج) ما الغرض من وجودى أو من أى وجود آخر ؟

(د) ما دلالة الخلاف الذى أشعر به فى داخلى بين الخير والشر ، ولأى غرض يوجد هذا الخلاف ؟

(هـ) كيف يجب أن أعيش ؟

(و) ما الموت - كيف يمكننى أن أصل إلى النجاة ؟

ولقد كانت الإجابة عن هذه الأسئلة - كيف يحيا هو وغيره الحياة الصحيحة - هى معنى سيرة تولستوى وغرضها فى الثلاثين سنة التالية ، أكثر مما كان عمله الأدبى .

وجاءت المرحلة الأولى من هذا البحث عن معنى الحياة نتيجة طبيعية تماماً . فعلى الرغم من أن تولستوى كانت لديه بعض النزعات العدمية ^(١) وأهم مظهر لها هو فلسفته التاريخية فى « الحرب والسلام » فإنه لم يكن قط شكاكاً . فقد عاش فى الظاهر

(١) العدمية nihilism ، حركة فكرية ظهرت فى روسيا فى العقد السابع من القرن التاسع عشر ، مدارها الثورة على استبداد السلطة ، ومناقشة كل مبدأ عام أو قيمة مثالية (المترجم) .

والباطن عيشة مطمئنة ، حرة ، أبيقورية ، نشيطة ، وعندما تحول فجأة إلى الفلسفة بدأ بالرجوع إلى الثقافات لمعرفة رأيهم فى أى شئ يعيش الإنسان من أجله . فشرع يقرأ الكتب الفلسفية على اختلاف نزعاتها : شوبنهاور وأفلاطون ، وكانت ويسكال ، طالباً منها أن تفسر له معنى الحياة . ولكن لا الفلاسفة ولا العلوم قدمت إليه جواباً ، وساء تولستوى أن وجد آراء هؤلاء الحكماء « لا تكون واضحة دقيقة إلا حيث لا تتناول الأسئلة المباشرة فى الحياة » ، أما إذا طلبت منها نصيحة مقررّة ومعونة واضحة فإنها تتجنب الإجابة تجنباً ؛ ولم يجد فلسفة واحدة منها قادرة على أن تفسر له هذا الأمر الذى كان يعتقد هو أنه مهم : « ما معنى حياتى ، من حيث الزمن ، والسبب ، والمكان ؟ » .

ومن ثم تحول - فى المرحلة الثانية - عن الفلسفة إلى الأديان - ملتمساً فيها العزاء . لقد عزت عليه المعرفة ، فبحث عن الإيمان ، ودعا : « رب هبنى إيماناً وهب لى أن أساعد غيرى ليجدوه » .

وإذن فلم يكن تولستوى فى هذه المرحلة المضطربة قد عنى بعد بمبدأ كونى ؛ لم يكن مبشراً ولا ثائراً روحياً ، وإنما كان يريد أن يجد لنفسه طريقاً وهدفاً ، له هو ذلك الفرد الحائر ، ليوتولستوى كى يستعيد سلامه النفسى ، وكان على حد قوله لا يريد إلا أن « ينجو » من تفكيره العدمى ، وأن يجد معنى للوجود عوضاً عن خلوه من المعنى . ولم يكن إذ ذاك يفكر أو يحلم بإعلان إيمان جديد ولا يرغب فى أن يخرج عن حدود المسيحية الأرثوذكسية المتوارثة القديمة . بل على العكس ، راح يقترب من الكنيسة من جديد ؛ كان قد ترك الصلاة والذهاب إلى الكنيسة وتناول القربان حين بلغ سن العاشرة ، فجهد ما استطاع ليكون كامل التقوى ، واتبع كل أوامر الكنيسة ورسومها ، وصام، وحج إلى الأديرة ، وركع أمام الأياقين ، وناقش الأساقفة والقسس وأهل الفرق، وعنّى قبل كل شئ بدراسة الأناجيل .

وعندئذ حدث له ما يحدث دائماً لطلاب الحقيقة الذين لا يهدءون وجد أن شرائع الأناجيل وأوامرها قد أهملت ، وأن ما تدعو إليه الكنيسة الأرثوذكسية الروسية على أنه تعاليم المسيح لم يكن قط هو التعليم الأصيل « الحق » للمسيح وهنا اكتشف مهمته الأولى : أن يشرح المعنى الحقيقى للإنجيل ، وأن يعلم هذه المسيحية للجميع « على أنها

فهم جديد للحياة ، لا على أنها عقيدة صوفية . وأخذ اليأس الشخصى يتشكل عقيدة ذات سلطات ، وتجديداً لكل تفكير عقلى وخلقى ، ونظرية جديدة فى علم الاجتماع أيضاً . وأخذ ذلك السؤال الأول الفرع الذى ألقاه على نفسه رجلٌ وحيد : « لماذا أعيش؟ وكيف أعيش ؟ » أخذ يتحول إلى دعوة عامة للإنسانية : « هكذا يجب أن تعيشوا! » .

وكانت الكنيسة قد اكتسبت من تجربة ألف سنة حساً مرهفاً بالخطر الذى يكمن فى كل تفسير فردى للأناجيل . فالكنيسة تعلم أن كل من يأخذ فى تشكيل حياته وفقاً لنص الكتاب المقدس لابد أن ينتهى إلى صراع مع نظم الكنيسة وقوانين الدولة . وقد منعت الرقابة أول كتاب لتولستوى فى المبادئ "اعترافى" كما منع المجمع المقدس كتابه الثانى «إيمانى» وعلى الرغم من تردد الكنيسة فى اتخاذ الخطوة الأخيرة - احتراماً للكاتب العظيم - فقد لجأت أخيراً إلى إصدار قرار الحرمان ضد تولستوى . ذلك أن تولستوى وقد جاش إلى أعماق الوجود بدأ يزيل الأرض من تحت جميع الأسس التى قامت عليها الكنيسة والدولة والسلطان الزمنى ، وسار تولستوى فى الطريق الذى كان لا بد أن يؤدى به إلى أن يصبح ألد خصم للدولة وأعنف فوضوى خارج على الجماعة فى العصر الحديث ، شأنه فى ذلك شأن شيعة « والدو » وعصاة « ألبى » ومنكرى التعميد^(١) ودعاة الثورة الفلاحين ، وكل من حاول أن يرد المسيحية إلى أصلها الأول ، وأن يعيش طبقاً لنص الكتاب المقدس وحده .

واجتمعت قوته وتصميمه وجلده وشجاعته فدفعته إلى مدى أبعد مما بلغه أشد المصلحين الدينيين حمساً مثل لوثر وكلفن من ناحية ، كما دفعته فى الناحية

(١) شيعته « والدو » Waldensians فرقة ظهرت فى جنوب فرنسا فى القرن الثالث عشر ، أتباع «بيتر والدو» وهو تاجر غنى من أهل ليون باع أملاكه وأعطاهم للفقراء ، أنكروا حق السلطة المدنية فى توقيع عقوبة الإعدام كما أنكروا الكنيسة الرومانية وأجازوا أن يقوم بالطقوس الدينية رجل من غير رجال الكنيسة . وعصاة ألبى Albigensians فرقة ظهرت فى جنوب فرنسا فى العصر نفسه ، خرجت على الكنيسة الرومانية ، وانتقدت فساد رجال الدين .

أما « منكرى التعميد » anabaptists (ومعناها الحرقى مكررو التعميد) ففرقة ظهرت فى ألمانيا على أثر حركة مارتن لوثر ؛ أنكرت قيمة التعميد كما كانت تقوم به الكنيسة الرومانية ، لأن التعميد فى رأيهم لا يجوز إلا إذا كان المعمد مدركاً (المترجم) .

الاجتماعية إلى مدى أبعد ما ذهب إليه أجراً الفوضويين وهم شترنر^(١) ومدرسته. ولم يمض وقت طويل حتى وجدت المدينة الحديثة ووجد المجتمع المعاصر - مجتمع القرن التاسع عشر بكل ما فيه من عدالة وظلم - فى أعظم فنانى الأدب لذلك العصر خصماً لا يفوقه خصم فى اللد والخطورة . ولم يوجد ناقد للمجتمع أشد تدميراً من الرجل الذى بنى لعصره أعظم بناء فنى .

على أن الكنيسة والدولة تعرفان خطر هؤلاء الفرديين المتعصبين ، وتعلمان أن التفكير النظرى مهما يكن نظرياً صرفاً فإنه يدخل بالتدريج فى حيز العمل ؛ وأعظم المصلحين أمانة وأعلاهم موهبة هم بالتحديد أولئك الذين يسببون أعظم ما يكون من الاضطراب على هذه الأرض . والكنيسة والدولة تعلمان أن المسيحية الأولى ترمى إلى مملكة سماوية لا إلى مملكة أرضية ، وأن من أوامرها ما هو من وجهة نظر الدولة هدام عناقض للحكومة ، لأن الاتقياء مطالبون بأن يضعوا المسيح فوق قيصر ؛ ومملكة السماء فوق مملكة الأرض ، ولا بد من ثمة أن يخالفوا عن واجبات الرعايا المخلصين ، وعن قانون الدولة وبنائها ، ولكن تولستوى لم يدرك إلا شيئاً فشيئاً أية غابة من المشكلات سيبلغ ببحثه وتحسسه .. فقد كان يظن أولاً أنه إنما يحاول أن ينظم حياته الخاصة ، وأن ينال اطمئنان الروح بإخضاع موقفه الشخصى - جهد الطاقة - لأوامر الكتاب المقدس ؛ ولم يكن يرمى إلى أكثر من أن يعيش فى سلام مع الله وفى سلام مع نفسه .

ولكن السؤال الأول : « ما الخل الذى أصاب حياتى ؟ » نما إلى أن أصبح هذا السؤال العام : « ما الخل الذى فى حياتنا جميعاً ؟ »

وبذا أصبح نقداً للعصر . وبدأ ينظر حوله فلاحظ أمراً لم يكن عسير الملاحظة ولا سيما فى روسيا تلك الأيام : لاحظ انعدام المساواة فى الأحوال الاجتماعية ، والتناقض بين الغنى والفقر ، وبين الترف والشظف ، ورأى من وراء أخطائه الخاصة الظلم العام الذى يمارسه أنداده من الطبقة العليا ، فجعل أول واجباته أن يناهض هذا الظلم بكل قوته . وهنا أيضاً بدأ يسير ببطء شديد ، وكان لا بد أن يمضى الطريق بذلك الرجل

(١) ماكس شترنر (١٨٠٦ - ١٨٥٦) مفكراً اشتراكى ألماني ، أكد حرية الفرد وأن الإيمان بشئ من النظم خارج عن الفرد إنما هو ضرب من الاعتقاد فى الخرافات ، وأن على الفرد أن يحدد واجباته ، ويكون سيد نفسه (الترجم) .

الصارم ذى اللماحية العجيبة شوطاً طويلاً ، ولكنه بدأ داعياً للخير ونصيراً للحرية قبل أن يغدوا فوضوياً وثورياً قحاً بزمناً طويلاً ، وقد لمس المسألة الاجتماعية لأول مرة فى زيارة عابرة لموسكو سنة ١٨٨١ ، وهو يصور هذا اللقاء الأول للبؤس الشامل فى مدينة كبيرة تصويراً مذهلاً فى كتابه « ماذا يجب أن نعمل؟ » ولا شك أن عينه اليقظة قد رأت الفقر ألف مرة من قبل فى أسفاره وجولاته ، ولكنه لم يكن إلا الفقر الفردى فى القرى والريف ، لا الفقر البروليتارى المركز فى المدن الصناعية ، الفقر كإنتاج للعصر ، إنتاج "آلى" لمدينة "آلية" ووضع تولستوى موقفه من الكتاب المقدس فى حيز التطبيق ، فحاول أولاً أن يقلل من الشقاء بالهبات والتبرع وتنظيم أعمال الخير ؛ ولكنه سرعان ما رأى ألا فائدة من أى عمل فردى ، « أن المال وحده لا يمكن أن يجدى هنا فى تغيير الحياة الرهيبة التى يحياها هؤلاء الناس » . وإنما يمكن إحداث تغيير حقيقى بإعادة بناء النظام الاجتماعى الحاضر كله من جديد . وهكذا يكتب نذيراً من نار على حائط الزمن : « إن بين الأغنياء والفقراء منا دائماً سوراً من التربية الخاطئة ، وقبل أن نستطيع مساعدة الفقراء يجب أن نهدم هذا السور ، لقد وجدتني مسوقاً إلى هذه النتيجة : أن ثروتنا هى السبب الحقيقى لشقاء العامة . » هناك خلل فى البناء الاجتماعى الحاضر ، هذا ما تبينه فى أعماق روحه ، ومنذ ذلك اليوم كان لتولستوى غرض واحد : أن يعلم الناس ويحذرهم ويربيهم حتى يعملوا بمحض إرادتهم على إصلاح هذه الحقيقة : حقيقة أن الناس مقسمون إلى طبقات منفصلة كل الانفصال عن بعضها البعض .

وينبغى أن يصدروا فى ذلك عن إرادتهم الحرة ، وعن بصيرة خلقية خالصة . وهنا يبدأ المذهب التولستوى . فإن تولستوى لم يكن يرمى إلى ثورة عنيفة ، بل إلى ثورة خلقية ، تحقق هذه التسوية فوراً ، فتجنب الإنسانية الثورة الأخرى الدموية .

لقد أرادها ثورة مؤسسة على الضمير ، ثورة ناتجة عن تخلى الأثرياء عن ثرواتهم والمتبطلين عن بطالتهم طوعاً واختياراً ، وإعادة تقسيم العمل تَوْأً على المعنى الطبيعى الذى جعله الله : ألا يجوز أحد على عمل آخر ، وأن يكون لكلٌ مثلٌ ما لغيره من الحاجات ، وأصبح منذ الآن يرى الترف زهرة سامة لذلك الخمول الذى يجب اقتلاعه كي يصبح الناس سواسية .

ومن هذا الاعتقاد بدأ تولستوى هجومه على الملكية بمرارة أشد مائة مرة مما هاجمها كارل ماركس وبرودون . "الممتلكات اليوم هى أصل الشرور جميعاً ، فهى

مصدر العذاب لأولئك الذين يملكون وأولئك الذين لا يملكون . ولا سبيل إلى تجنب الصدام بين من يملكون أكثر مما ينبغي ومن يعيشون في فقر » . الشر كله أوله الملكية، وما دامت الدولة معترفة بمبدأ الملكية فهي – في نظر تولستوى – غير مسيحية وغير اجتماعية معاً ، وهي مشتركة في الذنب ، بل أكبر شريك فيه (بما أن تولستوى يعتبر الملكية نوعاً من الدين) ، « فالدول والحكومات تتآمر وتشن الحروب من أجل الملكية ، مرة طعماً في ضفاف الرين ، ومرة في أراضى إفريقية ، ومرة في الصين والبلقان ، ورجال المال والتجار ورجال الصناعة وملاك الأراضي يعملون ويدبرون الخطط ويعذبون أنفسهم وغيرهم للملكية ولا شيء غير الملكية ، والموظفون يختصمون ويغشون ويظلمون ويعذبون أنفسهم كل ذلك من أجل الملكية وحدها . ومحاكمنا وشرطتنا تحمي الملكية . ومستعمرات النفي والسجون وكل الفظائع التي تنتسب إلى ما نسميه مكافحة الإجرام إنما تقوم لحماية الملكية » .

ففي رأى تولستوى إذن أن هناك مستملاً واحداً كبيراً للبضائع المسروقة ، يحمي كل ما في مجتمع اليوم من مظالم ، وهذا المجرم هو الدولة . وعنده أنها لم ت اخترع إلا لحماية الملكية ؛ فلهذا الغرض وحده أقامت نظامها المتشابك المبني على القوة ، المجهز بالقوانين والمحققين والسجون والقضاة ورجال الشرطة والجيش .

ولكن أفظع مفسد الدولة وأشدّها كفراً في اعتقاد تولستوى كان اختراعاً جديداً في بلاده وهو التجنيد الإجباري العام .

فلم يكن ثمة حافز – في نظره – للرجل المسيحي أن يخون وصايا المسيح وأوامر الأنجيل مثل خضوعه لأمر من الدولة يسمح بأن توضع في يديه قهراً آلة من آلات الإجرام ليقتل رجلاً غريباً عنه تماماً من أجل شعار عابر : كالوطن أو الحرية أو الدولة. فليس لهذه الشعارات من غرض – هكذا ظل تولستوى يصرح – إلا حماية ممتلكات لا يملكها ، ورفع فكرة الملكية قهراً إلى قانون خلقى سام ، وقد كتب تولستوى المئات بعد المئات من الصفحات ليؤكد هذا التناقض : أن ما يسمى بالمدنية (التي لم يكن يرى فيها إلا غطاءاً للانحلال الخلقى) قد صارت إلى حالة تسمح بإجبار الناس على ذبح بعضهم بعضاً بأمر من الدولة ، وهذا مخالفة لأوامر الله ووحى الضمير ، إذا بها تدفع إنسان رغماً عنه إلى موقف ينفر منه وجدانه ” .

وهكذا انتهى تولستوى الباحث عن الإنجيل الذى انقلب فوضوياً متحمساً وبقي كذلك .. انتهى إلى أن واجب كل إنسان يرمى الخلق فى بصيرة وذكاء أن يقاوم الدولة إذا تطلبت شيئاً « لا يتفق مع المسيحية » وهو الخدمة العسكرية ، على ألا يكون ذلك بالقوة بل بالمقاومة السلبية ؛ وعليه فوق ذلك أن يتخلى عن كل نشاط يعتمد على استغلال عمل غيره ، وعلى الرجال الشرفاء أن يفكروا ويعملوا لا بدافع وطنى بل بدافع إنسانى .

ولا ينفك تولستوى يشير إلى الحق الأقدس للفرد فى أن يعرض عن أمور بناء على يقينه الداخلى ولو كانت مباحة أو حتى مطلوبة قانوناً ، وفى أن يعصى كل حكم للدولة لا يراه متفقاً مع الخلق .

ولهذا ينصح لكل مسيحي أن يتجنب التدابير والنظم جميعها بقدر استطاعته ، وألا يذهب إلى المحاكم ، ولا يقبل وظيفة من الوظائف ، ليظل نقي النفس . ولا ينفك تولستوى يشجع الفرد على ألا يخشع أمام "مبدأ القوة " الزائف المناقض للأخلاق ، وإن تسمى بقوة القانون والنظام ، لأن الدولة بشكلها الراهن هى المدافع والمحامى ومنفذ الأحكام عن ظلم مستتر ؛ بل إن الجرائم الفوضوية التى يرتكبها الأفراد لا تبدو لتولستوى مفسدة كنظم ذلك العدو الأكبر التى تبدو مُحكمة رامية إلى خير الإنسانية . إن اللصوص والشُّطَّار والقتلة والنصابين مثلاً لما يجب على المرء ألا يعملهم ، وهم يبعثون فى نفوس الناس استفظاعاً للجريمة ، ولكن الناس الذين يرتكبون أعمال السرقة والنهب والقتل والجلد ويذهبونها بمبرر دينى أو علمى أو تحررى . أولئك الذين يرتكبون هذه الأعمال بوصفهم ملاكاً أو تجاراً أو رجال صناعة ، يزينون أعمالهم لغيرهم ، فلا يقتصر ضررهم على من يصيبه بل يشمل الألف والملايين من الناس الذين تدمر خلقياتهم بتحطيم الفارق بين الخير والشر فى عقولهم .. إن حكماً واحداً بالإعدام ينفذه رجال بعيدون عن تأثير العاطفة ، رجال متعلمون ناجحون فى حياتهم ، يشجعهم ويساعدهم قسيسون مسيحيون ، لأشد إفساداً للبشرية ونزولاً بها إلى مرتبة الوحشية من مئات وألوف من جرائم القتل التى يرتكبها عمال غير متعلمين ، وهم فى ثورة الغضب عادة . وكل حرب حتى أقصرها أمداً ؛ بكل ما يصاحبها من خسائر وسرقات واستباحة للحرمان ونهب وقتل ، مع تبرير ذلك - فى زعمهم - بأنه ضرورة وعدل ، والثناء على الأعمال الحربية وتمجيدها ، والدعاء للعلم والوطن ، والقلق المنافق

على الجرحى لتفسد الناس فى عام واحد أكبر مما تفسدهم الملايين من جرائم السلب والإحراق العمد والقتل التى يرتكبها أفراد تحت سيطرة العاطفة على مدى مئات السنين . " أو بعبارة أخرى إن الدولة والنظام الاجتماعى الراهن هما المجرم الرئيسى والمسيخ الدجال حقاً والصورة المجسمة للشر ؛ وتولستوى يلطم وجهها بصيحته الصارمة : « امحو هذا العار! » .

ولكن إذا كانت الدولة بوصفها جهاز المجتمع الإنسانى هى الشر مطلقاً ، وصورة المسيخ الدجال فى أعجب تنكر لها على الأرض ، فإن الواجب الطبيعى للرجل المسيحى فى نظر تولستوى هو أن ينأى بنفسه عن مطالب هذا الشبح الشيطانى ومغرياته جميعاً يجب على المسيحى الحر ألا يبالى بروسيا بوصفها دولة كما لا يبالى بفرنسا أو إنجلترا ؛ ويجب ألا يفكر فى أمم بل على أساس إنسانى عام . لقد ابتعد تولستوى بروحه عن الدولة كما ابتعد عن الكنيسة الأرثوذكسية ، معلناً : "إننى لا أستطيع الاعتراف بالدول ولا بالأمم ؛ ولا أن أشترك فى المنازعات التى تقوم بينها بالكتابة فى ذلك أو بخدمة دولة واحدة . إننى لا أستطيع المشاركة فى شئ يعتمد على الفرق بين الدول ، كالجمارك أو جباية الضرائب أو صناعة المتفجرات والأسلحة أو أى نوع من الاستعدادات الحربية " ، ويستطيع الرجل المسيحى ألا يحاول الحصول على منفعة ما من مؤسسات الدولة ، وعليه ألا يسعى إلى الإثراء فى حمايتها أو بناء مستقبله بالخطوة لديها ، وعليه ألا يذهب إلى المحكمة ولا يستعمل شيئاً من المنتجات الصناعية ولا يستخدم فى حياته شيئاً يأتى من عمل غيره ، ويجب ألا يجرز ملكاً ويحمل به أن يتجنب التعامل بالنقود ، وألا يسافر بالقطار أو الدراجة وينبغى ألا يدلى بصوته فى انتخاب ولا أن يشغل وظيفة عامة أبداً . ويجب عليه ألا يقسم يمين الولاء للقيصر ولا لأية سلطة أخرى ، لأن طاعته لا تكون إلا لله وكلمته المنزلة فى الأناجيل .

ويجب ألا يعترف بقاوض سوى ضميره هو نفسه . ويجب على « الرجل المسيحى » بالمعنى الذى أراده تولستوى - والحق أنه يمكننا الاستعاضة عن هذه التسمية دائماً بقولنا « الفوضوى الكامل » - أن ينكر الدولة ، وأن يعيش عيشة تتفق مع الأخلاق خارج نطاق هذه المؤسسة المفسدة للأخلاق . وليس ثمة فارق يميزه عن الثورى السياسى الذى يكره الدولة بدلاً من أن يتجاهلها سوى هذا الموقف السلبي الخالص ، الخالى من الثورة الذى يتقبل راضياً كل عذاب .

ومعنى ذلك أننا يجب أن نفعل عن التضاد فى المبادئ بين تولستوى ولنين . فالتولستوية ترفض كل مقاومة عنيفة للنظام الاجتماعى ، بنفس القوة والإصرار اللذين تدين بهما النظام الراهن للمجتمع ، لأن الثورة لا بد لها أن تحارب الشر بشر آخر وهو العنف . " ولا يجوز أن نحارب الشيطان ببعلزبول " (١) وتتبع تعاليم تولستوى مبدأه الأسمى والأعمق : " لا تقاوموا الشر بالقوة " فتعد المقاومة الفردية المنفعلة هى الشكل الوحيد المقبول من أشكال الصراع ، بخلاف الطريق الثورى الفعال ، فالرجل المسيحى يجب أن يتعذب ويتجرع كل ظلم ترتكبه الدولة فى حقه ، دون أن يؤدى به ذلك إلى الاعتراف بالدولة . ويجب ألا يستخدم القوة أبداً ليقاوم القوة ، لأن لجوئه هو نفسه إلى العنف معناه الاعتراف بالقوة ومبدأ الشر على أنهما جائزان . إن الثورى التولستوى لا يضرب أبداً ، بل يدع نفسه يضرب ؛ ولا يحاول الحصول على مركز من مراكز القوة الخارجية ، ولكن لا يُزحزح بأى عنف عن موقفه الداخلى من عدم اللجوء إلى العنف ، ويجب أن لا يستولى على "السلطة" أو "الدولة" بل ينبذهما على أنهما أمران لا يعنيه ، ولا ينتمى إليهما فى داخل نفسه ، ولا يمكن أحداً أن يجبره على إخضاع ضميره لهما .

وإذن فتولستوى يحدد الفرق واضحاً بين مقاومته الدينية لكل سلطان ، تلك المقاومة الشبيهة بالمسيحية الأولى ، وبين الصراع الطبقي الفعال القائم على الاحتراف . "عندما نقابل الثوريين نخطئ فى كثير من الأحيان فنحسب أننا نتفق وإياهم على بعض النقاط . فكلانا يصيح (لا دولة ، ولا ملكية ، لا ظلم) إلى كثير غير ذلك . ولكن هناك فرقاً كبيراً . فعند المسيحى لا وجود لدولة ما ، أما هؤلاء الناس فإنهم يرغبون فى القضاء على الدولة . وعند المسيحى لا وجود للملكية أما هم فيريدون إلغائها . وعند المسيحى كل الناس سواسية ، أما هم فيريدون القضاء على عدم المساواة . إن الثوريين يكافحون الدولة من الخارج ، أما المسيحية فلا تكافح مطلقاً ، بل تحطم أسس الدولة من الداخل . " ولو أن ألوفاً متزايدة من الناس أبوا الخضوع بناء على اليقين الشخصى لكل منهم ، وفضلوا أن يرسلوا إلى سيبيريا ويجلدوا ويسجنوا ، لأثمرت انفعاليتهم البطولية – فى رأى تولستوى – أكثر مما يثمر تكتل الثوريين العنيف . ولهذا

(١) اسم للشيطان ، ورد فى العهدين القديم والجديد . وفى سفر الملوك ١ ، الإصحاح الأول : بعلزبول اسم إله من آلهة الوثنيين أو أحد الطواغيت .

السبب وحده يمكن أن تصبح الثورة الدينية باتباع مبدأ المقاومة السلبية اتباعاً دقيقاً - أخطر وأشد تدميراً للدولة على طول المدى من الانتفاضات والجمعيات السرية. لكى يمكن تغيير نظام العالم يجب تغيير الناس أنفسهم. أى أن ما يحلم به تولستوى هو ثورة من الداخل ، ثورة ضمير لا يتزعزع لكن يتقبل كل عذاب لا ثورة القبض الحديديّة ؛ ثورة نفوس لا ثورة أيد .

هذا « المبدأ المناهض للدولة » عند تولستوى - وهو يذكرنا بمقالة لوثر عن « حرية الرجل المسيحى » - مباشر وقوى إلى درجة عظيمة فى حد ذاته ، وإنما يظهر عيب هذا المذهب حين يحاول تولستوى أن يحول مطلبه فى حرية الاختيار إلى نظرية إيجابية فى الدولة. فالإنسان لا يعيش فى فراغ خارج عصره ، وحيث يحتشد ملايين الأفراد على مستويات عدة ، وتتشابك المواهب والحرف فى الحياة العامة ، يلزم أن يقام تنظيم محدد للحياة ، حتى لو بترنا تلك الدولة المجرمة ؛ ومن ثم يجب أن يقام « حق » مناقض لذلك الباطل القديم ، خير مناقض للشر . وهنا نكتشف للمرة الألف فى تاريخ البشرية مبلغ الصعوبة فى بناء المجتمع بالقياس إلى نقده . فإن تولستوى لا يكاد يتحول من التشخيص إلى العلاج ، فيضع مقترحات لمجتمع إنسانى مستقبل أفضل ، بدلاً من أن ينكر النظام الاجتماعى الحاضر ويدينه - لا يكاد يفعل ذلك حتى تصبح مفاهيمه سديمية وأفكاره مخططة . ففى مكان بناء الدولة المستقر الموحد بسلطانه وقوانينه وأجهزته التنفيذية ، لا يوصى تولستوى بأكثر من "الحب" والأخوة " و "الإيمان" و "العيش فى المسيح" وسيلة للتأليف بين جميع المصالح المتضاربة ؛ وقد يدهشنا أن نسمع ذلك من رجل فتش كل غور من أغوار النفس الإنسانية كما لم يفعل أحد قبله تقريباً ، فعند تولستوى أن الهوة الضخمة التى توجد اليوم بين الطبقات المالكة - أطفال الحضارة المدللين - وبين الطبقات الفقيرة لا يمكن عبورها إلا إذا نزلت الطبقات المالكة عن امتيازاتها طوعاً ، وكفت عن مطالبتها المسرفة من الحياة . لينزل الرجل الغنى عن ثروته ، والمتقف عن كبريائه ؛ لينشئ الفنان خلقه غير قاصد إلا إفهام الجماهير ؛ ليعيش كل إنسان من عمل يديه فقط ، ولا يتلق فى مقابله أكثر مما يحتاج إليه لهذه العيشة اليسيرة . هذه هى فكرة تولستوى الرئيسية : ألا تتم التسوية الاجتماعية من أسفل كما يريد الثوريون . بانتزاع كل ما يمتلكه الملاك ، بل من أعلى برضى تلقائى من الطبقات المالكة .

وكان تولستوى يدرك بوضوح أن مثل هذا النزول إلى أشكال العيشة البدائية الفلاحية سيحطم كثيراً من قيمنا الحضارية ولكى يجعلنا أكثر استعداداً لقبول ذلك

كتب رسالة عن الفن ، عاب فيها مبتدعات أعظم فنانينا ، حتى شكسبير وبيتهوفن ، لأنها لم تكن مفهومة للشعب كما ينبغي . فلم يكن شيئاً أهم من القضاء على ذلك الفاصل المروع بين الفقراء والأغنياء ، الذي يسمم العالم اليوم . ففي رأيه أن تساوى الحاجات أو على الأصح بساطة الحاجات إذا ماعدت الوحدة بين الناس لم تستطع غرائز احسد والكراهية أن تجد أهدافاً جديدة لتهاجمها ، فلا يحتاج الأمر إلى خلق سلطات خاصة واستخدام القوة للمحافظة عليها . وستبدأ مملكة الله الحقيقية على الأرض حالماً تمحى جميع الأمجاد الاجتماعية والتبقيات الاجتماعية ويتعلم الناس مرة أخرى أن يكونوا مجتمعاً واحداً متآخياً .

ولقد كان لهذا الفكرة من الجاذبية في بلاد اشتدت فيها الفروق الاجتماعية وكان لتولستوى من التأثير في زمنه ما جعل كثيراً من الناس يرغبون في تحقيق الفكرة التولستوية الجديدة عن المجتمع تحقيقاً عملياً ، ووجد في بعض الأمكنة أناس حاولوا أن يختبروها بتأسيس مستعمرات على مبدأ عدم الملكية وعدم العنف . ولكن هذه المحاولات انتهت بالفشل الذريع ؛ ولم ينجح تولستوى في إقامة مبادئ التولستوية الأساسية حتى في منزله وأسرته فقد جاهد سنوات ليحدث توافقاً بين حياته الخاصة ونظرياته ، فترك رياضة الصيد المحببة إليه حتى لا يقتل الحيوانات ، وتجنب استعمال السكة الحديدية ما استطاع ، وحول دخله من كتاباته إلى أسرته أو إلى أغراض الإحسان ، وأبى أن يأكل اللحم لأنه يستلزم قتل كائنات حية ، وكان يفلح الأرض بنفسه ، ويلبس معطفاً خشناً مما يلبسه الفلاحون ، ويثبت النعل في حذائه بيديه .

ولكنه لم يستطع أن يتغلب على مقاومة الواقع لأفكاره ، ولا سيما في أسرته ، بين أقرب الناس إليه وأعزهم عليه ؛ وهذه هي أعمق مأساة في حياته ، فتباعدت عنه زوجته ، ولم يستطع أبناؤه أن يفهموا لماذا يجب عليهم هم بالذات أن ينشئوا كالحلّابات وأبناء الفلاحين من أجل نظريات أبيهم ؛ وتشاجر كتابه ومترجموه كالحوزية السكارى حول "ملكية" كتابات تولستوى . ولم ير إنسان واحد ممن حوله في حياة هذا الوثني الرائع حياة مسيحية حقّة ، وعرف هو نفسه آخر الأمر ، كما يظهر من مذكراته ، أن ثقافته وكبريائه كانت تجعلانه أبعد من أي إنسان آخر عن تحقيق المثل الأعلى الذي دعا إليه بإصرار ، وإنا لنهتز إذ نقرأ هذا السؤال في مذكراته : « يا ليو تولستوى ! هل تعيش وفقاً لمبدئك ؟ » ثم الجواب المر : إنني أموت خجلاً .

إنى مذنّب وخليق بالاحتقار " . وحين يشعر الشيخ ذو الثلاثة والثمانين عاماً باقتراب الموت يفر من منزله ليل ويموت فى محطة صغيرة للقطارات ، وحيداً مفجوعاً فى غرضه الأسمى .

وعلى أنه من التعقيبات الرخيصة أن نلاحظ باستعلاء استحالة تحقيق مذهب تولستوى الاجتماعى والدينى ، كاستحالة تحقيق جمهورية أفلاطون الطوبوية أو نظام جان چاك روسو الاجتماعى . ومن السهولة الصبغانية أيضاً أن نكتشف أن كتاباته النظرية قلما تلمع وتقعن كما يلمع قصصه ويقنع . وحسبنا أن نقارن (كما حاولنا أن نفعل فى هذه المختارات) حماسه الصارخة فى كتاباته النظرية بحكاية أو اثنتين من حكاياته الشعبية التى يعالج فيها الأفكار نفسها لنشعر بالفرق . فهو فى الحكايات الشعبية التى يمكن أن يُضم أروعها إلى الكتاب المقدس مع قصتى أيوب وراعوث ، موجز خلاق بارع ؛ فى حين أن فلسفته كثيراً ما يغلب عليها عدم التماسك والتأكيد ، فوق ثقلها فى كثير من الأحيان لما فيها من ادعاءات متعسفة ، كأنما كان هو ، ليو تولستوى ، أول رجل فى ألف وثمانمائة وثمانين سنة يقرأ الأناجيل "كما ينبغى" وكأن أحداً قبله لم يفكر تفكيراً ناقداً فى مشكلات المجتمع البشرى . وكثيراً ما نشعر بالميل إلى أن نردد رجاء تورجنيف حين دعا تولستوى إلى التحول عن المقاولات غير المتماسكة « ماذا يجب أن نعمل ؟ » و "مملكة الله فينا " وشروحه العقيمة للكتاب المقدس إلى عالم الخلق الفنى ، حيث لم يكن مجرد متأمل بين كثير من المتأملين بل الأستاذ الذى لا يبارى ، أعظم مصور لشعبه ، إن لم نقل لقرنه . على أننا نجور إذا أنكرنا الآثار القوية بل الحاسمة التى يدين بها العالم لنظرية تولستوى فى الحياة ؛ ومن المحقق أننا لا نبالغ إذا قلنا إن أحداً من المفكرين المعاصرين له لم يهز نفوس الملايين والملايين من الناس كما فعل ، حتى ولا كارل ماركس أو نيتشه ، وإن كانت تأثيراتهم مختلفة فى الاتجاه كل الاختلاف . فكما تفيض أنهار الفردوس من الوسط فى اتجاهات متضادة ، كانت أفكار تولستوى - وهذا هو الأمر العجيب - تُخصب أشد الحركات الفكرية تناحراً فى القرن العشرين . فقد لا يكون ثمة شئ أبعد من البلشفية المنظمة ، التى تبدأ بطلب القضاء على عدوها (فى حين يطلب هو التصالح عن طريق الحب) ؛ والتى جعلت للدولة - طاغوت تولستوى - سلطاناً ، لم يكن أحد يحلم به على الفرد ؛ والتى تؤكد بتركيزها للسلطات جميعها ، وإلحادها، وعزمها على إثارة الجماهير من سباتها ، عكس ما قاله تولستوى بالضبط فى "هكذا يجب أن تعيشوا " . ومع ذلك فلم يكن بين الثوريين الروس فى القرن التاسع عشر من مهد السبيل للنين وتروتسكى

مثل هذا "الكونت" المناهض للثورة ، الذى كان أول من تحدى القيصر ، والذى خرج من الكنيسة تتعقبه لعنة المجمع المقدس ، والذى حطم كل سلطة قائمة بضربات مطرقة، والذى طالب بالتصالح الاجتماعى على إنه الشرط الضرورى لعالم جديد أفضل . وكانت أعماله التى تصادرها الرقابة تنسخ باليد ، وتصل إلى مائة ألف قارئ ، فتذيع على الملأ مطالبة بإلغاء الملكية فى حين كان غلاة الاشتراكيين الثوريين لا يزالون قانعين بعلاجات وإصلاحات تحريرية ، فلم يكن لكتاب ولا لرجل مثل ما كان لتطرف تولستوى الفكرى من نصيب فى جعل روسيا متطرفة ولم يشجع أحد بنى وطنه كما شجعهم على ألا يحجموا عن عظيم من الأمر ، وعلى الرغم من كل "مقاومته الداخلية " فإنه يستحق تمثلاً فى الميدان الأحمر . فكما كان روسو أبا للثورة الفرنسية ، كذلك كان تولستوى (ربما على غير رغبة منه كهذا الفردى المتطرف الآخر تماماً) هو "إرهاص " الثورة الروسية العالمية وسلفها الحقيقى .

ولكن من العجيب أن مبدأه كان له فى الوقت نفسه تأثير مضاد تماماً فى ملايين أخرى من الناس ففى الطرف الآخر من الدنيا ، فى الهند ، تلقى غاندى غير المسيحي رسالة المسيحية الأولى من تعاليم تولستوى . بينما استحوذ الروس على خصلة التطرف فى هذه التعاليم ، أخذ غاندى مبدأ عدم المقاومة وكان أول من نظم أسلوب المقاومة السلبية مع قومه الذين يبلغون ثلاثمائة مليون ، وقد استخدم فى هذا الصراع أيضاً سائر الأسلحة غير الدموية التى أوصى بها تولستوى على أنها الأسلحة الوحيدة المقبولة : هجر الصناعة : العمل المنزلى ، كسب الاستقلال الداخلى والسياسى باختصار الحاجات الخارجية إلى الحد الأقصى . وإذن فقد اعتنق مئات الملايين ، بعضهم فى ثورة روسيا الإيجابية وبعضهم فى ثورة الهند السلبية ، أفكار هذا الثورى الرجعى أو هذا الرجعى التأثير – وإن فعلوا ذلك بطريقه كان صاحب هذه الأفكار جديراً بأن يستفظعها أو ينكرها .

على أن الأفكار ليس لها فى ذاتها اتجاه ما ؛ وإنما تُدفع كالشرع أمام الريح حين يمسك بها الزمن . الأفكار فى ذاتها ليست إلا قوى محرّكة ، تنتج الحركة دون أن تعرف هدف هذه الحركة وهذا الهياج . ولا عبرة بكون أفكار تولستوى عرضة للنقد فى جانب كبير منها ، فما دامت قد صنعت التاريخ – ولا شك فى ذلك – على نطاق عالمى ، فستحتل كتاباته النظرية ، مكانها دائماً بين أهم مكونات عصرنا الفكرية والاجتماعية ، بل إنها لا تزال إلى اليوم قادرة على أن تعطى القارئ الفرد الشئ الكثير .

فالمكافح من أجل السلم والتفاهم الهادئ بين الناس لن يجد مثل هذه «الترسانة» الفنية المنظمة من الأسلحة ضد الحرب . والرجل الذى يثور ضميره على ما شاع اليوم من تأليه الدولة على أنها الغرض السليم الوحيد من تفكيرنا وجهدنا ، والذى يرفض أن يشارك فى هذه العبادة التى تقوم على التضحية الكاملة ، حرى أن يستمد قوة عجيبة من هذا الخارج على دين الوطنية كله . وكل رجل دولة وكل دارس لعلم الاجتماع سيكتشفان نظراً بعيداً متنبئاً بالمستقبل فى نقده الأساسى لعصرنا ؛ وكل فنان لابد أن تلهمه قدوة هذا الشاعر العظيم ، الذى عذب روحه حتى يفكر لغيره ، ويحارب الظلم على الأرض بقوة كلماته . وإنها لسعادة عظيمة أن تستطيع النظر إلى فنان عملاق على أنه قدوة خلقية أيضاً ، رجل لم يستعل بشهرته ، بل جعل نفسه خادم الإنسانية ، ولم يخضع - فى صراعه لبلوغ خلقية جديدة - إلا لسلطة واحدة من بين جميع السلطات الأرض :

ضميره الذى لا يمكن أن يتطرق إليه الفساد .

اختار ستيفان تسفايج لباب تفكير تولستوى ونظمه من الأعمال الآتية :

اعترافى

مملكة الله فىنا

الحرب والسلام

نيكولاى بالكين

ثلاثة أمثال

الملك أسر حدون

مابه حياة الناس^(١)

١ - اختارت سلسلة The Living Thoughts Library فى طبعتها الإنجليزية ترجمة Nathan Has- kell Dole لتتقل منها هذه المختارات . وقد نقلنا عنها الترجمة العربية ، وراجعنا القطعة المختارة من "اعترافى" على ترجمة Aylmer Maude فى سلسلة The World's Classics . (المترجم)

أعمال
ليونيكولايفتش تولستوى
(١٨٢٨ – ١٩١٠)

- الطفولة (١٨٥٢) ، الصبا (١٨٥٤)
الشباب (١٨٥٥ – ١٨٥٧) ثلاث ميئات (١٨٥٩)
القوزاق (١٨٦٣)
الحرب والسلام (١٨٦٤ – ١٨٦٩)
أنا كارنينا (١٨٧٣ – ١٨٧٧)
اعترافى (١٨٧٩ – ١٨٨٢)
مابه حياة الناس ، وقصص أخرى (١٨٨١)
سلطان الظلام (١٨٨٥)
أنشودة كرويتزر (١٨٩٠)
مملكة الله فينا (١٨٩٣)
ما هو الفن ؟ (١٨٩٨)
البعث (١٨٩٩)
العبودية فى عصرنا ، وفصول أخرى (١٨٩٩)

سبيل تولستوى

إلى ذاته الباطنة *

ولقد عُمِدْتُ ونشئت على الدين المسيحى الأرثوذكسى ؛ وعلمته فى طفولتى وصباى وشبابى . ولكننى حين تركت الجامعة فى السنة الثانية ، وأنا فى سن الثامنة عشرة ، كنت قد نبذت الاعتقاد بكل ما علَّمته .

اختلفى لدى الاعتقاد الذى أشربته منذ الصغر ، اختلفى تدريجياً كما هو الشأن عند الكثيرين ، ولكن مع هذا الفارق . وهو أن ابتدأت فى قراءة الفلسفة منذ سن الخامسة عشرة جعلنى واعياً بكفرى ، فتركت الصلاة منذ سن السادسة عشرة ، وانقطعت عن شهود الصلوات الكنسية وعن الصوم بناءً على اقتناع ، ولم أعد أدين بإيمان طفولتى ، ولكننى كنت أعتقد فى شئ ما ، وإن لم استطع توضيحه بالضبط . كنت أؤمن بإله - أو على الأصح لم أكن أنكر وجود إله - ولكن أى إله ؟ ذلك ما لم أكن أستطيع بيانه ؛ ولم أنكر المسيح ولا تعاليمه ، ولكننى لم أكن لاستطيع أن أقول مم كانت تتألف هذه التعاليم .

وحين أفكر الآن فى ذلك الزمن ، أرى بوضوح أن كل ما كان لدى من إيمان ، أن الاعتقاد الوحيد الذى سيطر على حياتى إذا نحينا جانباً الغريزة الحيوانية الصرفة ، هو الاعتقاد بإمكان الكمال ، وإن لم استطع معرفة ما هو فى ذاته ، ولا ماذا عسى أن تكون نتائجه .

حاولت أن أبلغ الكمال ذهنى ؛ فوسعت دراساتى فى كل اتجاه أتاحته لى الحياة ؛ وحاولت أن أقوى إرادتى بأن اصطنعت لى قواعد ألزمت نفسى بإتباعها ؛ وبذلت غاية جهدى فى تنمية قوى الجثمانية بكل تمرين قصد به أن يكسب القوة والمرونة ، وبتعويد نفسى طول الاحتمال ؛ وأخذت نفسى متطوعاً بكثير من الشدائد وألوان من الحرمان . وكنت أرى ذلك كله ضرورياً للحصول على الكمال الذى كنت أنشده . وطبيعى أن الكمال الخلقى كان يبدو لى ، أول الأمر ، هو الغاية العليا ، (*) من « اعترافى » .

ولكننى لم ألبث أن وجدتتى أطلع - عوضاً عن ذلك - إلى مثل أعلى من الكمال العام ،
أو بعبارة أخرى رغبت أن أحسن لا فى عينى ولا فى عين الله بل فى أعين الناس . ثم
لم يلبث هذا السعى إلى أن أحسن فى أعين الناس حتى تحول إلى شئ آخر : الرغبة
فى أن أكون أقوى من غيرى ، أن أحرز نصيباً أكبر من الشهرة ، ومن الظهور فى
المجتمع ، ومن الثراء .

وقد أروى قصة حياتى فيما بعد ، وأبسط تفصيل الحوادث التى أثرت فى عواطفى
وأفكارى عندما كنت شاباً . وأحسب أن كثيرين وكثيرين قد عانوا مثل ما عانيت . كنت
أرغب من كل نفسى أن أكون خيراً ؛ ولكنى كنت شاباً ، تحدونى نوازع قوية ، وكنت
وحيداً منقطعاً فى بحثى عن الخير ، فكنت كلما حاولت أن أعبر عما يتوق إليه قلبى من
أن أكون ذا خلق خير لقيت الاحتقار والاستهزاء ، فإذا ما خليت السبيل لشهواتى
الوضيعة وجدت الثناء والتشجيع .

كان الطموح وحب السلطان وحب الكسب وشهوة الجسد والكبرياء والغضب
والانتقام تحل أعلى مكان من الاحترام .

ولما خليت السبيل لهذه الشهوات أصبحت مثل من يكبروننى ، وشعرت بأنهم
رضوان عنى . وكانت لى عمة شقيقة ، امرأة طيبة حقاً ، كنت أعيش معاً ، وقد اعتادت
هذه العمة أن تقول لى إن هناك شيئاً واحداً تتمناه لى فوق كل شئ : غرام مع امرأة
متزوجة ، « فلا شئ ينضج الشاب مثل علاقة مع امرأة كاملة » . وكان من بين
أمنياتها لسعادتى أن أصبح ياوراً ، وحبذا لو أكون ياوراً للإمبراطور ؛ وكان الحظ
الأوفى عندها أن أوفق إلى عروس غنية ، تكون بانيتها إلى تأتينى بها أكبر عدد ممكن
من الرقيق ولا أستطيع الآن أن أتذكر تلك الأيام دون أن يعرول شعور أليم من النفور
والاشمزاز .

لقد قتلت الرجال فى الحرب ، وبارزت لأذبح آخرين ، وخسرت فى لعب الورق ،
وأضعت أموالى التى انتزعتها من عرق الفلاحين ، وعاقبت هؤلاء بقسوة ، وعربدت
وخدعت الرجال . كذب ، وسرقة ، وفساد خلقى من كل نوع ، وسكر واعتداء ، وقتل ...
لم تكن ثمة جريمة لم أقترفها ، ومع ذلك فإن أندادى ظلوا يعتبرونى رجلاً حسن
الأخلاق بالقياس إلى غيرى .

تلك كانت حياتى مدى عشر سنين .

وفى تلك الأثناء بدأت أكتب ، يحدوني الغرور وحب الكسب والكبرياء. وسرت كاتباً على النهج الذى اخترته إنساناً فلكي أنال الشهرة والمال اللذين أكتب من أجلهما ، كنت مضطراً أن أخفى ما كان خيراً وأقول ما كان شراً وهذا ما فعلته . وما أكثر ما قدحت ذهني وأنا أكتب لأخفى تحت قناع من عدم المبالاة أو الهزل تلك المشاعر التى كانت تؤلف حقيقة تفكير حياتي من الحنين إلى شئ أفضل . وقد نجحت فى هذا أيضاً وكسبت حمداً .

وعندما بلغت السادسة والعشرين قدمت إلى بطرسبرج ، وقد انتهت الحرب ، ولقيت كتاب العصر ، واستقبلت بترحاب حار ، وملق كثير .

وما هى إلا أن أصبحت المزاعم الشائعة بين كتاب الطبقة التى انتميت إليها ونظراتهم إلى الحياة هى مزاعمى ونظراتى ، ووضعت حداً نهائياً لجميع جهودى السابقة نحو حياة أفضل . وخضعت هذه الآراء لحياتى المتحولة فأمدتنى بنظرية تبررها .

كانت النظرة إلى الحياة التى يأخذ بها زملائي الكتاب هى أن الحياة تطور ، وأن الدور الرئيسى فى هذا التطور تلعبه نحن المفكرين ، وأن أصحاب التأثير الأكبر من بين المفكرين هم - مرة أخرى - نحن الفنانين والشعراء ، فرسالتنا هى تعليم الناس . ولتجنب الإجابة عن هذا السؤال الطبيعى جداً ، وهو : ماذا «أعرف» ، وماذا يمكننى أن أعلم ؟» جعلت النظرية المذكورة متضمنة لقاعدة هى أنه لا يلزم معرفة ذلك ، ولكن الفنان والشاعر يعلمان بطريقة غير واعية .

وكنت أنا أعد نفسى فناناً شاعراً مبدعاً ، ولهذا كان طبيعياً جداً أن اعتنق هذه النظرية . أنا الفنان الشاعر كنت أكتب وأعلم ما لا أعلمه . وكنت أنال على هذا العمل ما لا ، وكانت لى مائدة فاخرة ، ومنزل فخم ، ونساء ، ومجتمع ؛ وكانت لى شهرة ، وكان طبيعياً أن ما أعلمه حسن جداً .

وعندما أفكر الآن فى ذلك الزمن ، وأتذكر حالتى العقلية وحالة هؤلاء الناس (وهى حالة لا تزال شائعة إلى حد كبير بين الألفوف) تبدو لى حقيرة مفزعة مضحكة ؛ إنها تثير المشاعر التى تستحوذ علينا حين نمر داخل مستشفى مجاذيب .

كنا مقتنعين جميعاً آنذاك أننا ينبغي أن نتكلم ونكتب ونطبع أكثر ما نستطيع ، بأسرع ما نستطيع ، وأن خير البشرية متوقف على هذا . وكان الآلاف منا يكتبون ويعلمون ، وهم خلال ذلك يسفه بعضهم بعضاً ويسب بعضهم بعضاً .

وغفلنا تماماً عن أننا لا نعلم شيئاً نحن أنفسنا ، ولا نجد جواباً عن أيسر مشكلات الحياة - ما الخير وما الشر - فمضينا نتكلم معاً ولا أحد يسمع ، وأحياناً يشجع بعضنا بعضاً ويثني بعضنا على بعض ، بشرط أن نتلقى تشجيعاً بتشجيع وثناءً بثناء ، ثم نعود فنتقلب بعضنا على بعض فى حلق . باختصار كنا نعيد تمثيل مناظر مستشفى المجاذيب .

وكان ألوف العمال يشتغلون ليل نهار ، باذلين أقصى جهدهم فى صف الحروف وطبع ملايين الكلمات لينشرها البريد فى أنحاء روسيا ، ونحن نعلم ، ولا نشبع من تعليم ، ومع ذلك نجار بالشكوى من أن الناس لا يحسنون الاستماع إلينا .

حالة غريبة بلا شك ، ولكننى استطيع فهمها الآن . فقد كان الدافع الحقيقى وراء كل تفكيرنا هو الرغبة فى المال والمديح ، ولم نكن نعرف طريقاً للحصول عليهما سوى كتابة الكتب والصحف وهذا ما كنا نعمله . ولكننا لتتشبث بالاعتقاد أننا أناس ذوو شأن عظيم فى حين أننا نشغل بهذه الأعمال غير الطائله ، كان ضرورياً أن نبرر وجودنا لأنفسنا بطريقة أخرى . وهذه هى النظرية التى اعتنقناها :

كل ما هو كائن فهو حق ؛ وكل ما هو كائن فممنشؤه التطور ؛ والتطور يأتى من المدنية ؛ ومقياس المدنية هو انتشار الكتب والصحف ؛ ونحن نؤجر ونحترم للكتب والصحف التى نكتبها ، فنحن إذن أنفع الناس وأفضلهم !

ولو أجمعنا أمرنا لجزمنا بهذه الحجج ؛ ولكن لما كان كل رأى يديه أحدنا يظهر له على الفور نقيض يقابله على خط مستقيم ، فقد اضطررنا أن نتردد قبل التسليم بها ، إلا أننا لم ننتبه إلى ذلك ، ومضينا نتسلم النقود ، ونتلقى المديح من الفريق الذى ننتمى إليه ، ومن ثم فقد كان كل واحد منا يرى أنه على حق .

لقد وضح لى الآن أنه لم يكن ثمة فارق بيننا وبين سكان مستشفى المجاذيب : أما فى ذلك الزمن فلم أكن أشعر بهذا إلا شعوراً مبهماً ، وكنت ككل المجانين أحسب أن الجميع مجانين إلا إياى ...

عشت هذه العيشة التى لا معنى لها ست سنين إلى وقت زواجى . وفى أثناء ذلك ذهبت إلى الخارج ، وأكدت معيشتى فى أوروبا ومعرفتى بكثير من الأجانب البارزين المتقدمين فى العلم والثقافة إيمانى بمبدأ إمكان الكمال العام ، فقد وجدت النظرية نفسها سائدة بينهم . وأخذ هذا الاعتقاد والشكل الشائع بين معظم المثقفين فى أيامنا . وكان يُعبر عنه بكلمة "التقدم" خلت آنذاك أن لهذه الكلمة معنى حقيقياً ، ولم أفهم أنتى

حين أجيب عن هذا السؤال الذى يعذبنى كما يعذب كل إنسان : "كيف أحيا حياة أفضل ؟" بأتى يجب أن أعيش من أجل التقدم ، ولم أكن إلا مردداً لإجابة الرجل الذى تحمل زورقه الأمواج والرياح حين يجيب عن السؤال الهام الوحيد الذى يواجهه : "أين ينبغي أن نتجه ؟" بقولة : "إننا نحمل إلى مكان ما " .

لم أكن أرى ذلك وقتئذ ؛ إلا أن مشاعرى - لاعقلى .. كانت تثور أحياناً على خرافة عصرنا الشائعة ، التى تقود الناس إلى الجهل بجهلهم للحياة .

ففى أثناء إقامتى فى باريس ، كشف لى تنفيذى على لحكم الإعدام عن ضعف اعتقادى الخرافى فى التقدم . فغندما رأيت الرأس مفصلاً عن الجسد ، وسمعت صوت سقوطهما منفصلين فى الصندوق ، فهمت - لا بعقلى ، بل بكيانى كله - أن أية نظرية عن حكمة الأشياء المقررة جميعها ، أو عن التقدم ، لا يمكن أن تبرر مثل هذا العمل ، وأنه إذا كان أهل الأرض جميعاً منذ بدء الخليقة قد وجدوا هذا الشئ ضرورياً مهما تكن نظريتهم فى ذلك ، فقد كنت أعلم أنه غير ضرورى ، وأنه شر ، وإذن فيجب ألا أحكم على .. هو ضرورى وخير بما يقوله الناس ويفعلونه ، أو بالتقدم ، بل بما أشعر فى قلبى أنه حو .

ولما عدت من الخارج أقمت فى الريف ، واشتغلت بتنظيم المدارس للفلاحين ، وقبلت وظيفة قاضى تحكيم^(١) وأخذت أعلم الشعب غير المتعلم فى المدارس والطبقات المتعلمة فى الصحيفة التى بدأت أصدرها ، وبدأ كائن الأمور تسير سيراً حسناً ، ولكنى شعرت بأن عقلى لم يكر فى حالة عادية ، وبأتى مقبل على تحول . ولقد كان من الممكن أن أصل فى ذلك الوقت نفسه إلى حالة اليأس التى بلغتها بعد خمسة عشر عاماً لولا تجربة جديدة فى حياتى لوحت لى بالأمان ، وأعنى الحياة الزوجية .

شغلت عاماً بقضايا التحكيم ، وبالمدارس ، وبصحيفتى واضطرب أمرى حتى عييت به ؛ فقد كان التحكيم شاقاً على ونشاطى فى المدارس غير ظاهر الجدوى ، وحركتى فى الصحيفة بعيضة إلى نفسى ، إذ كانت تقوم على شئ واحد وهو الرغبة فى أن أعلم الناس جميعاً وأنا أخفى جهلى كيف أعلم أو ماذا أعلم . ؟ فمرضت وكان مرضى نفسى أكثر مما كان جسمياً ، وتركت كل شئ وذهب إلى مراعى "البشكير" لاستنشاق الهواء النقى وأشرب "الكوميس"^(٢) وأعيش عيشة حيوانية صرفة .

(١) وظيفة شرفية أنشئت فى روسيا عقب تحرير الرقيق (سنة ١٨٦١) ، ومهمة صاحبها التوفيق بين الملاك والفلاحين . (المترجم)

(٢) شراب مخمر يشربه التتر ، ويصنعه من لبن الفرس . (المترجم) .

وبعد عودتي تزوجت . وصرفتني الأحوال الجديدة لحياة أسرية سعيدة صرفاً تاماً عن البحث وراء معنى للحياة بأجمعها . وكانت حياتي عندئذٍ مركزة في أسرتي ، وفي زوجتي وأطفالي وتبعاً لذلك في العناية بزيادة وسائل الحياة ، وبعد أن اشغل السعي نحو التقدم العام مكان الجهد لتحقيق كمال الفردى ، عدت فحولته ثانية إلى جهد لتحقيق السعادة لأسرتي بالذات .

وعلى هذا النحو مرت خمسة عشر عاماً ، وعلمت في كتاباتي ما كان هو الحقيقة الوحيدة عندي : أن غاية الحياة ينبغي أن تكون السعادة الكبرى لنا ولأسرتنا .

هكذا عشت ؛ ولكن حالة عقلية غريبة بدأت تستحوذ على منذ خمس سنين ، كانت تمر بى لحظات من الحيرة ، وكأن الحياة قد توقفت ، وكأنى لا أدري كيف يمكن أن أعيش ، ولا ماذا يمكن أن أفعل . وبدأت أشعر بالضيق والاكتئاب . ولكن هذه الحالة مرت ، وعدت أعيش كما كنت أعيش . ثم بدأت فترات الحيرة تعاودنى من جديد ، وكثرت ، واتخذت شكلاً واحداً فى جميع الأحيان فكانت تتمثل لى دائماً فى هذين السؤالين لماذا ؟ وإلى أين ؟

وكان يبدو لى أول الأمر أن هذين السؤالين لا هدف لهما ولا معنى ؛ وكان يبدو لى أن كل ما يسألان عنه معروف حق المعرفة ، وما دمت أستطيع أن أجيب عنهما فى أى وقت أشاء دون صعوبة كبيرة ، فلا حاجة لأن أزعج نفسى بهذا الأمر فى الحال ، وسوف أجد الجواب متى فرغت للتفكير فيهما . ولكن هذين السؤالين ازدادا مثولاً لذهنى ، وإلحاحاً فى طلب الجواب ، وتجمعاً كنقطتين فى بقعة كبيرة سوداء .

وحدث لى ما يحدث فى كل مرض باطنى مهلك : تظهر أولاً أعراض توعدك بيسيرة يهملها المريض ، ثم تتكرر هذه الأعراض بانتظام متزايد ، حتى تستحيل المأ متصلاً ، وتشدد الآلام وإذا المريض مواجه بأنه ما حسبه وعكة قد أصبح أهم لديه من كل شئ آخر على الأرض ، إنه الموت !

وهذا هو ما حدث لى بالضبط ، وأدركت أن الأمر لم يكن وعكة طارئة بل شيئاً خطيراً جداً ، وأن هذين السؤالين إذا استمرا يترددان فعلى أن أجد جواباً عنهما . وقد حاولت أن أجيب عنهما . وكان السؤالان يبدوان أبليهن سانجين صبيانين ولكنى لم أكد أعكف عليهما وأحاول أن أنتهى إلى قرار فيهما حتى اقتنعت بأمرين : الأول أنهما لم يكونا صبيانين ولا فارغين ؛ بل كانا يتناولان أعرق مشكلات الحياة ؛ والثانى أنى لم أكن قادراً على الوصول إلى قرار فيهما مهما كدت ذهنى فى المحاولة .

وقبل أن أشغل نفسي بضيعتي في "سماراً" وبتربية ولدي ، وكتابة الكتب ، كان يجب أن أعلم لماذا أعمل هذه الأشياء . وما دامت لا أعلم "لماذا؟" فلن أستطيع أن أعمل شيئاً ، ولن أستطيع أن أعيش ، فبينما كنت أفكر في إدارة منزلي وضيعتي - وكان ذلك يشغل الكثير من وقتي في تلك الأيام - كان يقوم في رأسي فجأة هذا السؤال :

"حسناً حسناً ، قد أصبحت مالكة لستة آلاف دسياتينا ^(١) في حكومة سمارا ، وثلاثمائة من الخيل ، ولكن ماذا بعد ذلك ؟ ."

فأجزع وتضطرب أفكاري . وقد أكون مشغولاً بالتفكير في أمر تربية أبنائي ، فأسال نفسي : "لماذا ؟" وتارة أكون عاكفاً عن البحث في خير الوسائل لتحسين أحوال الفلاحين ، وإذا أنا أسأل نفسي : "لكن ما شأنني بهم ؟" وربما فكرت في الشهرة التي أنالها من كتبي فأقول لنفسي :

"حسناً فلا كن أشهر من جوجول أو پوشكين أو شكسبير أو مولير ، أو من جميع كتاب العالم ، فماذا بعد ذلك ؟"

ولم أكن أجد جواباً ، ولم تكن تلك الأسئلة لتحتمل انتظاراً ، كان لابد لها من جواب سريع ، وكان من المستحيل أن أعيش إن لم استطع الجواب عنها ، ولكن لم يكن ثمة جواب .

وشعرت بأن الأرض التي أقف عليها تنهار ، ويأتني لا أجد ما أستند إليه ، ويأن ما عشت من أجله لم يكن شيئاً ، ويأن ليس ثمة ما يدعوني للحياة ..

لقد انتهت حياتي إلى جمود كنت أستطيع أن أتتفس وأكل وأشرب وأنام ، ولم يكن لي بد من التنفس والأكل والشرب والنوم ؛ ولكنني عذمت الحياة الحقيقية لأنني لم أجد رغبة واحدة أشعر بأن تحقيقها متفق مع العقل ، كنت إذا رغبت في شيء أعرف سلفاً أنني إن حققت الرغبة أو لم أحققها فلن يكون لذلك أثر ما . ولو ظهر لي جنى وقال لي لبيك لما عرفت ماذا أقول ، وإذا شعرت في لحظات النشوة بشيء لا أسميه رغبة بل عادة خلقتها الرغبات القديمة - فقد كنت أعمل في أوقات الهدوء أنه كان وهماً ، وأني في الحقيقة لا أرغب في شيء ما ، بل إنني لم أكن أرغب حتى في معرفة الحقيقة ، لأنني كنت أحس محتواها .

(١) الدسياتينا تساوي $2\frac{3}{4}$ فدان تقريباً . (المترجم) .

كانت الحقيقة أن الحياة لا معنى لها ، كأنما كان كل يوم من أيام الحياة وكل خطوة من خطواتها يقربني من الهاوية ، فأرى بجلاء أنه ليس أمامي إلا الهلاك . وكان الوقوف مستحيلاً ؛ وكان الرجوع مستحيلاً وكان مستحيلاً أن أغض عيني كي لا أرى أنه لا شيء أمامي إلا العذاب والموت الزؤام والبوار التام .

وهكذا انتهيت أنا الرجل السليم السعيد إلى الشعور بأنني لا أستطيع الاستمرار في الحياة . كانت قوة لا تقاوم تدفعني إلى التخلص من الحياة بطريقة ما ، ولست أعني أنني "رغبت" أن أقتل نفسي ، فقد كانت القوة التي تجذبني بعيداً عن الحياة أقوى وأكمل وأرحب من كل رغبة .. كانت قوة أشبه بقوة تعلقي السابق بالحياة . إلا أنها تسير في اتجاه مضاد . كنت أجاهد بكل قوتي للابتعاد عن الحياة . وكانت فكرة الانتحار تخطر لي كشئ طبيعي ، مثلما كنت أفكر من قبل في تحسين حياتي ، وبلغ من إغراء هذه الفكرة لي أنني اضطررت إلى مخادعة نفسي حتى لا أعجل بتنفيذها . وما كانت رغبتني في التعجل إلا لأنني أردت أن أستخدم كل قواي في جلاء أفكارى . فإن لم أستطع جلاءها فالانتحار ميسور في كل وقت . ومن ثم كنت تراني - أنا الرجل المجدود - أخفى عن نفسي حبلاً خشية أن أعلق نفسي به في عارضة مخدعي ، حيث كنت أخلع ملابسي وحيداً كل مساء ، وكففت عن الخروج للصيد بينديقية لأنها كانت تهين لي طريقاً سهلاً للتخلص من الحياة ؛ لم أكن أعرف ماذا أريد : كنت خائفاً من الحياة ، وكنت أجاهد للابتعاد عنها ، ولكني لم أزل أمل في شئ منها .

كانت هذه هي الحالة التي وصلت إليها بينما كل ما يحيط بي يُحسب من كمال الحظ . فلم أكن قد بلغت الخمسين ، وكانت لي زوجة صالحة تحبني وأحبها ، وأبناء نجباء . وضيفة واسعة تنمو وتتقدم دون جهد كبير مني . وقد ازداد احترام أصدقائي ومعارفي لي أكثر من ذي قبل ، ونلت ثناء الآخرين ، وكان في وسعي أن أزعم - دون كثير من خداع النفس - أنني أصبحت ذا اسم مشهور . ثم إنني لم أكن مجنوناً ولا مختلط العقل ، بل على العكس كنت على حظ من قوة العقل والجسم قلماً وجدت نظيرها في الرجال الذين يشبهونني في الطبقة أو المنازع ، فكنت أستطيع أن أجارى فلاحاً في الحصاد ، وأن استمر في عمل عقلي ثمانى ساعات أو عشر ساعات متصلة دون أن يكون لهذا الجهد عاقبة وخيمة . وبينما أنا كذلك وجدتنى لا أستطيع أن أعيش واضطررت من خوف الموت أن أحتال على نفسي حتى لا أضع حداً لحياتي ..

وكننت خائفاً مما ينتظرني ؛ وكننت أعلم أن هذا الخوف أشد مما أنا فيه ، ، ولكن لا
استطيع أن انتظر النهاية فى صبر ، ومهما وجدت من إقناع فى المجادلة بأنه لا بد
على كل حال أن يتمزق عرق فى قلبى أو ينفجر شئ ما وينتهى الأمر ، فإننى لم استطع
أن أنتظر النهاية صابراً ، كان الخوف من الظلام أعظم من أن أحتمله ، وكننت أتوق
إلى الخلاص منه كأسرع ما استطيع بحبل أو رصاصة ، كان هذا هو الشعور الذى
اجتذبنى بأعظم قوة إلى التفكير فى الانتحار ...

سألت نفسى : "أم ترانى غفلت عن شئ ما ، أو أخطأت فهم شئ ما ؟ فما يجوز أن
تكون هذه الحالة من اليأس طبيعية للإنسان ! " .

وبحثت فى كل فرع من فروع المعرفة الإنسانية عن شرح للأسئلة التى عذبتنى :
بحثت عن ذلك الشرح بحثاً أليماً طويلاً ؛ لم أكن أنشده لطرافة المعرفة ولا أبحث عنه
فى تراخ ، بل كننت أبحث بعناء وعناد ، ليل نهار ، كننت أبحث عنه كما يبحث الرجل
الهالك عن النجاة ولا أجد شيئاً .

بحثت عنه فى كل فروع المعرفة ، ولم أعجز فحسب ، بل اقتنعت أن كل من بحثوا
مثلى خرجوا بغير طائل كما خرجت ؛ ولم يخرجوا بغير طائل فحسب ، بل انتهوا كما
انتهيت إلى الإقرار العاجز ، بأن المعرفة المطلقة الوحيدة التى يستطيعها الإنسان هى
هذه : أن الحياة لا معنى لها .

طرقت كل سبيل . وبفضل حياة أنفقت فى الدرس ، وبفضل اتصالى بأهل العلم ،
كان قد مقدروى الرجوع إلى أكبر الأساتذة فى شتى فروع المعرفة ، ولم يضمنوا على
بفتح جميع ينابيع المعرفة فى الكتب وفى أحاديثهم الشخصية ، فعرفت كل ما يمكن أن
يجيب به العلم عن هذا السؤال : "ما الحياة ؟ " .

وضللت طريقى فى غابة المعرفة الإنسانية ، وفى ضوء العلوم الرياضية والتجريبية
التي فتحت لى أفاقاً مشرقة إلا أنها لا سكن فيها ، وفى ظلام الفلسفة الذى كننت أزداد
غوصاً فى دياجيره كلما تقدمت خطوة ، إلى أن اقتنعت أخيراً أنه ليس ثمة مخرج ،
ولا يمكن أن يكون .

* * *

رأيت أنى حين اتبعت ما بدا لى أنه نور العلم المشرق ، لم أزد على أن حولت وجهى عن السؤال الحقيقى ، فمهما يكن فى الآفاق التى تفتحت أمامى من فتنة وصفاء ، ومهما يكن فى الغوص فى تلك العلوم التى لا حدود لها من إغراء ، فقد رأيت أنها كلما ازدادت وضوحاً بعدت عن أن تسد حاجتى وتجيب عن سؤالى .

وكذلك لم تعجز جولاتى فى ميادين المعرفة عن شفاء يأسى فحسب ، بل زادت تفاقماً فكان أحد فروع المعرفة لا يجيب عن مشكلة الحياة جواباً ما ، وكان فرع آخر يجيب إجابة مباشرة تؤكد يأسى ، وثبتت أن الحالة التى وصلت إليها لم تكن نتيجة ضلال أو جنة ، وأنى كنت أفكر تفكيراً صحيحاً ، وأنى طابقت ، النتائج التى وصلت إليها أقوى العقول البشرية .

لم أستطع أن أخدع نفسى . كل شئ باطل . سعيدٌ من لم يولد . الموت خير من الحياة ، والحياة عبء يجب أن يطرحه المرء عن كاهله .

كنت فى موقف مروع ، كنت أعلم أنى لن أحصل من المعرفة التى منحها العقل للإنسان إلا على إنكار الحياة ، ولن أحصل من الإيمان إلا على إنكار العقل ، وهو أشد تعذراً على من إنكار الحياة . فقد ثبت من المعرفة المؤسسة على العقل أن الحياة شر والناس يعلمونها كذلك ، وأن للناس أن يكفوا عن الحياة إن شاءوا ولكنهم قد عاشوا وما زالوا يعيشون - وأنا نفسى مازلت أعيش وإن كنت قد عرفت منذ زمن بعيد أن الحياة لا معنى لها وأنها شر . فإن تبعت الإيمان وجدت أن فهم معنى الحياة يقتضى إنكار عقلى وهو هو ذلك الجزء منى الذى كان يطلب معنى الحياة !....

وعندما وصلت إلى هذه النتيجة أدركت أن من العبث أن ألتمس جواب سؤالى فى المعرفة القائمة على العقل ، وأن الجواب الذى يعطيه هذا النوع من المعرفة ليس إلا إشارة إلى أن الحصول على الجواب غير ممكن إلا أن يوضع السؤال فى صورة أخرى، بحيث يكون شاملاً للعلاقة بين المحدود واللا محدود ، وكذلك أدركت أنه مهما تكن الأجوبة التى يقدمها الإيمان شاذة ومخالفة للعقل فإن لها هذه الفضيلة وهى أنها تدخل فى كل سؤال العلاقة بين المحدود واللا محدود ، وبغير ذلك لا يمكن أن يكون جواب .

فمهما وضعت السؤال كانت هذه العلاقة تظهر فى الجواب : كيف أحيا ؟ - على شريعة الله ، ما الغاية الحقيقية من حياتى ؟ - العذاب الأبدى أو النعيم الأبدى . أى معنى فى الحياة لا يمكن أن يمحوه الموت ؟ الاتحاد بالله الدائم الفردوس .

وكذلك اضطررت أن أعترف بأن مع المعرفة العقلية التي كنت من قبل أحسبها المعرفة الحقيقية الوحيدة ، هناك فى كل إنسان حى نوعاً آخر من المعرفة : نوعاً غير عقلى ، هو الإيمان الذى يجعل الحياة ممكنة .

أصبحت مستعداً لأن أقبّل أى إيمان لا يقتضى منى إنكار العقل إنكاراً مباشراً ، لأن ذلك يكون تزيفاً فدرست البوذية والإسلام فى كتبهما ، ودرست المسيحية بوجه خاص ، فى كتبها وفى حياة أهلها الذين أعيش بين ظهرانهم .

وكان طبيعياً أن أتجه أولاً إلى المؤمنين الذين هم ألصق بى : إلى العلماء ورجال الدين والرهبان ، إلى الأتقياء الذين اعتنقوا مذهباً جديداً وسموا بالمسيحيين الجدد ، وأقاموا دعوتهم على الخلاص عن طريق الإيمان بمخلص . اتجهت إلى هؤلاء المؤمنين وسألتهم عما يؤمنون به ، وعما يجعل للحياة معنى فى نظرهم .

ولم تكن المجادله لتقنعنى بصدق إيمان هؤلاء الناس . ما كنت لأقتنع إلا بالأعمال التى تثبت أن نظرتهم إلى الحياة . قد محت من نفوسهم خوف الفقر والمرض والموت الذى أجده رهيباً فى نفسى . ولم أجد مثل هذه الأعمال بين شتى المؤمنين المحيطين بى . بل على العكس كنت أجد هذه الأعمال عند أشد الناس المحيطين بى إلحاداً ولا أجدها أبداً عند من يدعون بالمؤمنين .

فعرفت أن إيمان هؤلاء الناس ليس هو الإيمان الذى أبحث عنه ؛ وأنه ليس بإيمان البتة بل هو نوع من العزاء الأبيقورى وعرفت أن هذا الإيمان إن لم يكن فيه عزاء حقيقى فقد يصلح على الأقل تسلية لسليمان نادم على فراش موته ؛ ولكنه لا يصلح للسواد الأعظم من البشر الذين يولدون لا يستمتعوا بجهد غيرهم بل ليخلقوا حياة لأنفسهم . كان لابد لهذه الألوف من الملايين من فهم آخر للإيمان – فهم صادق للإيمان ؛ حتى تعيش البشرية – حتى تستمر البشرية فى الحياة وتفهم معنى حياتها . وكذلك لم تكن حقيقة أن سليمان وشوينهور وإياى لم نقتل أنفسنا هى التى أقنعتنى بوجود الإيمان ، بل حقيقة أن هذه الألوف من الملايين قد عاشت وما زالت تعيش ، حاملة معها على تيار حياتها سليمان وإياناً .

فبدأت أقرب من المؤمنين فى الشعب الفقير الساذج الأمل : من الحجاج والرهبان والأنصار والفلاحين. وكان هؤلاء العوام يؤمنون بالمسيحية كأولئك الذين كانوا يدعون

بالمؤمنين فى طبقتى، وكانت حقائق المسيحية مختلطة عندهم أيضاً بكثير من الخرافات، ولكن مع هذا القارق : وهو أن خرافات المؤمنين فى طبقتنا ليست بذات ضرورة لهم ، ولا تأثير لها فى حياتهم إلا باعتبارها نوعاً من التسلية الأبيقورية ، فى حين أن خرافات الطبقة العاملة المؤمنة متشابكة مع نسيج حياتهم إلى حد يستحيل معه تصورهم بدونها . فهى شرط ضرورى لحياتهم ، كانت كل حياة المؤمنين فى طبقتنا متناقضة تناقضاً تاماً مع إيمانهم ، وكانت كل حياة المؤمنين من الشعب مؤكدة لمعنى الحياة الذى منحهم إياه إيمانهم .

وكذلك بدأت أدرس حياة الشعب ومعتقداته . وكلما ازددت تأملاً ازداد يقينى بأن فيهم إيماناً حقيقياً ، وأن إيمانهم أمر ضرورى لهم ، وأنه هو وحده الذى يجعل لحياتهم معنى ، ويجعل فى إمكانهم أن يحيوها . ورأيت فيهم نقيض ما رأيته فى طبقتنا ، حيث يستطيع المرء أن يحيا بلا إيمان ، وحيث لا يتخذ شعار الإيمان إلا واحد من ألف ، فإننى لم أجد بين الشعب ملحداً واحداً فى الألف ، ورأيت فيهم نقيض ما رأيته فى طبقتنا ، حيث تمضى الحياة كلها فى كسل ولهو وضجر ؛ فقد رأيت حياة الشعب كلها تمضى فى كدح شاق ورضا قانع ، ورأيت فيهم نقيض ما رأيت فى طبقتنا من تمرد على القدر وشكوى منه لما يجدونه من حرمان وآلام ؛ فقد رأيت الشعب يتقبل المرض والحزن بلا تذمر ؛ فى إيمان هادئ راسخ بأن ذلك كله يجب أن يكون ولا يمكن أن يكون غيره ، وأن ذلك كله خير . ورأيت أولئك القوم على النقيض منا نحن الذين نزداد بعداً عن فهم معنى الحياة كلما ازدادنا حكمة ، ولا نرى فى عذابنا وموتنا إلا سخرية خبيثة ؛ فإنهم يعيشون ، ويتعذبون ويدنون من الموت مطمئنين بل سعداء فى معظم الأحيان . وبينما تعد الميته الهادئة التى لا فزع فيها ولا يأس استثناء نادراً فى طبقتنا ، فإن أندر استثناء بين الشعب هو الميته القلقة المثيرة الحزينة .

هؤلاء القوم الذين حرموا من كل ما يعد عندنا وعند سليمان الخير الأوحد فى الحياة والذين يتمتعون مع ذلك بالسعادة العظمى ، هم السواد الأعظم من البشر : نظرت حولى نظرة أوسع ودرست حياة الكتل البشرية فى الماضى والحاضر ، ورأيت أن الذين فهموا معنى الحياة بحيث استطاعوا أن يعيشوا وأن يموتوا لم يكونوا اثنين ولا ثلاثة ولا عشرة بل مئات وألفاً وملايين . كل هؤلاء القوم على اختلاف عاداتهم وقواهم العقلية وتعليمهم ومكانتهم كانوا على النقيض من جهالتى يعرفون معنى الحياة

والموت حق المعرفة ، يكدحون فى هدوء ويصبرون على الحرمان والعذاب ، ويعيشون ويموتون، ولا يرون ذلك باطلاً بل خيراً . وتعلمت أن أحب هؤلاء الناس : وكلما ازدادت معرفة بحياتهم بأحيائهم وموتاهم الذين قرأت عنهم وسمعت بهم ، ازدادت حباً لهم ، وسهل على أن أحيي كما يحيون . وكذلك عشت قرابة عامين ، وتم فى نفسى تغير ظل يعتمل فيها طويلاً ، وكنت أحس إرهاباته دائماً ، فلم تصبح الحياة فى بيتى الغنية المتعلمة منفرة لى فحسب، بل فقدت كل معنى، وبدأ لى كل ما لدينا من أعمال وأفكار ، من علم وفن فى ضوء جديد . عرفت أن ذلك كله عبث أطفال ، وأن من المحال العثور على معنى فيه . بينما رأيت حياة الشعب الكادح ، حياة البشرية جمعاء ، حياة الذين يخلقون الحياة – رأيتها فى قيمتها الحقيقية فعرفت أن هذه هى الحياة بعينها ، وأن المعنى الذى يعطى لهذه الحياة حق ، فقبلته ...

وحين تذكرت كيف كنت أنفر من هذه المبادئ وأراها عديمة المعنى إذ يعلنها أناس يمضون فى سيرتهم على نقيضها ، وكيف اجتذبتنى هذه المبادئ وبدأت لى حكمة حين رأيت أناساً يحيون طبقاً لها ، عرفت لماذا رفضتها من قبل وظننتها خلواً من المعنى ، ولماذا اعتنقتها الآن ورأيتها حافلة بالمعنى . وعرفت أنى كنت مخطئاً . وكيف كنت مخطئاً فلم أكن مخطئاً لأنى فكرت تفكيراً غير صحيح بقدر ما كنت مخطئاً لأنى عشت حياة غير صحيحة . وعرفت أن الحق لم يكن محجوباً عنى لضلال عقلى بقدر ما كان محجوباً عنى لأنى عشت حياتى فى ظروف شاذة من الإشباع الأبيقورى لشهوات الجسد وعرفت أن سؤالى : "وما حياتى ؟" وجوابه : « أنها شر » كانا متفقين مع الحقيقة ، وإنما كان الخطأ فى أنى سحبت على الحياة عامة جواباً كان يخص حياتى وحدها . لقد سألت نفسى ما حياتى وتلقيت الجواب أنها شر وسخافة . وكذلك كانت حياتى المتهالكة على الملذات سخافة وشرّاً ، ومن ثم كان الجواب "الحياة سخافة وشر" متعلقاً بحياتى أنا لا بالحياة البشرية على العموم .

وعرفت الحق الذى وجدته بعد ذلك فى الإنجيل :

"وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة ، لأن كل من يعمل السيئات يبغض النور ولا يأتى إلى النور لئلا تُوبَّخ أعماله " .

عرفت أن فهم معنى الحياة يقضى أولاً ألا تكون الحياة شريرة . خالية من المعنى وأن يأتى نور العقل بعد ذلك لفهمها . وعرفت لماذا ظللت أدور طويلاً حول الحقيقة

البديهة بون أن أدركها ، وأنتا إذا أردنا أن نفكر فى حياة البشرية ونتكلم عنها فيجب أن نفكر فى هذه الحياة ونتكلم عنها جمعاء لا عن حياة بعض الطفيليات التى تعيش عليها .

كانت هذه الحقيقة دائماً حقيقة كما أن مضروب اثنين فى اثنين يساوى أربعة ، ولكنى لم أقبلها لأن تسليمى بأن مضروب اثنين فى اثنين يساوى أربعة لا بد أن يستتبع التسليم بأنى شرير . وقد كان الشعور بأنى خير أهم لى وألزم لى من التصديق بأن مضروب اثنين فى اثنين يساوى أربعة ، وتعلمت أن أحب الأختيار وكرهت نفسى واعترفت بالحقيقة وتبين لى كل شئ

لقد ساعدنى إدراكى لخطأ المعرفة العقلية على أن اتخلص من إغراء المنطق الفارغ . وأدى بى يقينى أن معرفة الحقيقة لا يمكن أن تنال إلا بالحياة إلى الشك فى استقامة حياتى ، ولكن كان يجب أن أخرج من إसार تفردى وأنظر حولى إلى الحياة الساذجة التى يحياها الشعب العامل لأعرف أن هذه الحياة هى وحدها الحياة الحقيقية ، وعرفت أنى إذا أردت أن أفهم الحياة ومعناها فيجب ألا أحيا حياة طفيلية بل حياة حقيقية ، وأن أقبل المعنى الذى أعطته لها البشرية الحقيقية وأندمج فى حياتهم لأمحس ذلك المعنى .

وهذا ما حدث لى فى الوقت الذى أتكلم عنه :

طوال ذلك العام الذى كنت أسائل نفسى فيه ، كل لحظة تقريباً ، أيجمل بى أم لا يجمل أن أنهى الأمر كله بحبل أو مسدس ؛ وبينما كان عقلى مشغولاً بالأفكار التى وصفتها - كان يثقل قلبى شعور مؤلم لا أستطيع أن أصفه إلا بأنه بحث عن الله .

لم يكن هذا البحث عن الله عملاً عقلياً بل شعوراً ، وأقول هذا عن بينة لأنه كان مضاداً لطريقتى فى التفكير ؛ لقد كان يأتى من القلب . كان شعوراً بالخوف أو اليتم ، بالوحدة بين عالم غريب ، والأمل فى عون لا أدري مصدره .

وأذكر يوماً فى مستهل الربيع ، وكنت وحيداً فى الغابة أصغى لأصواتها ، ولا أفكر إلا فى شئ واحد هو بعينه مالم يبرح فكرى طوال عامين . كنت لا أزال أبحث عن الله .

ودار فى نفسى هذا الحوار : "حسناً ليس ثمة إله ، ليس ثمة إله له حقيقة خارج خيالى ، إله حقيقى مثل حياتى نفسها . ليس ثمة هذا الإله ، ولا شئ يمكن أن يثبت وجوده ، ولا معجزة لأن المعجزات لا توجد إلا فى خيالى الذى ينكره العقل " .

ثم سألت نفسى : "ولكن من أين جاءت فكرتى عن الله الذى أبحث عنه ؟ "

وعند هذه الفكرة انتعشت مرة أخرى أمواج الحياة الجذلانة وبدأ كل ما حولى
يصحو ويكتسب معنى جديداً ، ولكن فرحى لم يدم طويلاً فقد مضى العقل فى عمله :

"إن فكرة الله ليست الله ، الفكرة هى ما يجرى فى باطن نفسى ، وفكرة الله هى
فكرة أستطيع أن أوقظها فى نفسى أولاً أوقظها كما أشاء ، إنها ليست ما أبحث عنه ،
ليست الشئ الذى بدونه لا يمكن أن تكون الحياة . "

وهنا بدا كأن كل شئ يموت من حولى وفى باطنى مرة أخرى ، ووددت مرة أخرى
لو أقتل نفسى .

وبعد ذلك بدأت استعيد ما جرى فى باطنى : الهمود والصحو اللذين تكررا مائة
مرة . وتذكرت أنى لم أكن أحيا إلا حين أومن بالله . وكما كان من قبل فهذا ما يكون
الآن : على أن أعرف الله فأحيا ؛ على أن أنساه أو لا أومن به فأموت .

ماذا كان هذا الهمود والصحو ؟ أنا لا أحيا حين أفقد الإيمان بوجود إله ، ولولا
أمل غامض فى أن أجده لقتلت نفسى منذ أمد بعيد . أنا لا أحيا إلا حين أشعر به
وأبحث عنه ، وكأنما صرخ صوت فى باطنى : " وماذا تطلب عن مزيد ؟ هذا هو الذى
لا حياة بدونه سواء أن تعرف الله وأن تحيا ، فالله هو الحياة . "

عش باحثاً عن الله ، فلن تحيا بدون الله ، وصحت الحياة فى باطنى ومن حولى
أقوى من كل مرة . ولم يهجرنى النور الذى أضاء لى عند ذاك ، لم يهجرنى بعد ذلك
قط .

نقد تولستوى لعصره *

حياة الإنسان كلها نقض متسمر لما يعلم أنه واجبه ، وهذا التناقض يسيطر على جميع نواحي الحياة ، اقتصادية كانت أو سياسية أو دولية وكأنما نسي ذكاؤه وكشف إيمانه - إذ لا بد له من إيمان وإلا لم يكن لحياته دوام - فهو يتصرف على عكس ما عليه ضميره وبصيرته .

فنحن فى علاقاتنا الاقتصادية والدولية نسترشد بالمبادئ الأساسية للعصور الخالية ، وهى مبادئ مناقضة كل المناقضة لاتجاهنا العقلى وظروف حياتنا الحاضرة .

كان الإنسان الذى يؤمن بفطرة العبودية وضرورتها يرى من الصواب أو يعيش فى علاقة السيد بعبيده ، ولكن هل هذه الحياة ممكنة فى هذه الأيام ؟ قد يؤمن إنسان العصر القديم أنه محق إذ يستغل أخاه الإنسان ويظلمه على مدى الأجيال ، لا لشئ إلا أنه يؤمن باختلاف الأصل ، فنبيل أو حقير ، منسوب إلى حام أو يافث ، فليس يقتصر الأمر على أن أعظم فيلسوفين فى العصور القديمة، معلمى البشرية أفلاطون وأرسطو ، قد بررا وجود العبودية ونسقا البراهين على شرعيتها ، بل إن من وصفوا الحالة المثالية للمجتمع منذ فترة لا تتجاوز ثلاثة قرون لم يستطيعوا أن يصوروه بغير عبيد .

وفى العصور القديمة بل فى العصور الوسطى أيضاً كان الرأى الذى لا يتهم : أن الناس لم يولودا أكفاء ، وأن الناس الجديرين بالاحترام هم الفرس وحدهم ، أو الإغريق وحدهم أو الرومان وحدهم ، أو الفرنسيون وحدهم ، ولكن لا أحد يصدق ذلك الآن، ولا يستطيع المدافعون المتحمسون عن مبادئ الأرستقراطية والوطنية فى أيامنا هذه أن يؤمنوا بما يقولون .

وكلنا نعلم - ولا مفر لنا من أن نعلم ، وإن كنا لم نسمع القضية محددة قط ، ولا حاولنا أن نحددها بأنفسنا - أن فى أعماق قلوبنا جميعاً يقيناً راسخاً بصدق المبدأ الأساسى فى المسيحية القائل بأننا جميعاً أبناء أب واحد ، أجل ، كل واحد منا ، حيثما نعش ومهما تكن اللغة التى نتكلمها ، أننا جميعاً إخوة لا نخضع إلا لقانون الحب الذى غرسه فى قلوبنا أبوانا جميعاً .

(*) من «مملكة الله» .

ومهما تكن العادات العقلية للرجل المعاصر أو درجة تعليمه ، سواء أكان لبراليا مثقفاً على أي لون من ألوان الرأي ، أم فيلسوفاً على أي مذهب من المذاهب ، أم اقتصادياً من أية مدرسة من شتى المدارس ، أم تابعاً غير متعلم لأية عقيدة دينية ؛ فكل إنسان في هذه الأيام يعلم أن الناس جميعاً متساوون في الحقوق في أمور الحياة ومتاع الدنيا ؛ فلا أحد أفضل من سائر البشر ولا أقل منهم ، ولكن الناس جميعاً ولدوا أحراراً متساوين . وكل إنسان يوقن بهذه الحقيقة يقيناً غريزياً ، ولكنه يجد أبناء جنسه مقسمين طبقتين ، إحداهما في فقر ومتربة تكدر وتقاسى الظلم ، والأخرى فارغة مستبدة مترفة . وهو لا يرى هذا كله فحسب ، بل إنه كذلك يندرج في أحد القسمين شاء أم لم يشأ - وتلك خطة ينفر منها عقله . ومن ثم فهو معذب لا محالة لشعوره بالظلم من ناحية ، ومشاركته فيه من ناحية أخرى .

وسواء أكان الإنسان في هذه الأيام سيداً أم عبداً فهو محاصر أبداً بذلك التنافر المحزن بين مثله الأعلى وبين الحقيقة الواقعة ، وليس في مقدوره أن يتجاهل الآلام التي تنتج من ذلك .

وجماهير الشعب - أي السواد الأعظم من البشرية ، الذين يتعذبون ويكدحون في حياة راكدة كالحية ، لا ينعشها شعاع من نور متحملين ما لا يحصى من ألوان الحرمان - هؤلاء هم أوضح الناس إدراكاً للتناقض الشديد بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون ، بين أقوال البشر وأفعالهم .

فهم يعلمون أنهم يعملون كالعبيد ، ويموتون في عوز وظلام ، ليوفروا للأقلية ملذاتها، وهذا الشعور هو الذي يضاعف مرارتهم ، بل هو أصل عذابهم .

كان العبد في العصور القديمة يعلم أنه ولد عبداً ، أما العامل في أيامنا هذه فيشعر أنه عبد ويعلم أنه ينبغي ألا يكونه ، ويتعذب عذاب "تنتالوس" ^(١) لشوقه إلى ما يمكن أن يُعطى له ، بل إلى ما هو حقه في الواقع . ويتضاعف عذاب الطبقات العاملة الناشئ من تناقضات نصيبهم عشرة أضغاف بالحسد والحقد اللذين هما الثمرتان الطبيعيتان للشعور بهذه التناقضات .

(١) ملك من ملوك الأساطير عند اليوناني ، أفشى أسرار الآلهة فعذب في الجحيم بأن بقي مغموراً في الماء إلى ذقنه وعناقير الفاكهة متدلية أمامه ، فإذا انحنى ليشرب ابتعد الماء عنه ، وإذا مد يده ليتناول الفاكهة فرت من قبضته ... (المترجم) .

والعامل فى عصرنا وإن كان عمله أقل إرهاقاً من جهد العبد القديم ، وإن نجح فى الحصول على ثماني ساعات ليوم العمل واثنى عشر ينساً ونصف ينس لأجر اليوم ، لا يزال مظلوماً لأنه يصنع أشياء لن يستمتع بها أبداً ؛ فهو لا يعمل لنفسه ، بل يعمل ليمتع المترفين الذين لا يعملون ، ليضاعف ثروة الرأسمالى أو صاحب المصنع أو المنتج. وهو يعلم أن ذلك كله يجرى فى عالم يعترف أهلوه جميعاً بمبادئ كالمبدأ الاقتصادي القائل بأن العمل ثروة ، وأن من الظلم استخدام جهد آخر ليبنى المرء فائدة لنفسه ، وأن العمل غير المشروع يعاقب عليه القانون ؛ بل فى عالم يقول بمبدأ المسيح الذى يعلمنا أن الناس جميعاً إخوة ، وأن واجب الإنسان أن يكون عوناً لجاره ولا يستغله استغلالاً ظالماً .

هو يدرك كل هذا فلا بد أن يحزن فى نفسه: الألم للتناقض المذهل بين العالم كما ينبغى أن يكون وبين العالم كما هو ، يقول العامل لنفسه: "إن صح ما يُقال لى وما أسمع الناس يعلنونه فيجب أن أكون إنساناً حراً مساوياً لأى إنسان آخر ومحبوياً من الناس ؛ وهأنذا عبد مكروه محتقر . " ثم يمتلئ كراهية هو بدوره ، ويحاول الخلاص من حالته ، بأن يصرع العدو الذى يظلمه ، وينتزع السلطان لنفسه .

يقولون : "ينبغى للعامل ألا يطمح إلى مكان الرأسمالى ، ولا للرجل الفقير أن يحسد الغنى . " ولكن هذا زور فلو كنا فى عالم جعل الله فيه سادة وعبيداً ، أغنياء وفقراء ، لما كان للعامل أو الفقير أن يتمنى حظ الغنى . ولكن الأمر على خلاف ذلك. فهو يتمناه فى عالم يقول بتعليم المسيح ، الذى يتمثل أول مبادئه فى العلاقة بين الابن والأب ، ومن ثم فى الإخاء والمساواة .

ولا يستطيع الناس - وإن لم يسارعوا إلى الإقرار بذلك - أن ينكروا أن الحب شرط من الشروط الأولى للحياة المسيحية، الحب الذى لا تعبر عنه الكلمات بل الأفعال.

والرجل المتعلم أشد: أماً لهذه المتناقضات ، فإن كان يؤمن بشئ ما فلعله يؤمن بالإخاء - أو على الأقل بعاطفة إنسانية ؛ وإلا فبالعدالة ، وإلا فبالعلم لا محالة ، وهو لا يستطيع أن يتجاهل على كل حال أن ظروف حياته مناقضة لكل مبدأ من مبادئ المسيحية والإنسانية والعدالة والعلم .

هو يعلم أن عادت الحياة التى نشأ عليها والتى يكلفه التخلي عنها كثيراً من العناء لا يمكن أن تعتمد إلا على الجهد المضنى - بل المهلك أحياناً - من الطبقة العاملة

المضطهدة ، أى على خرق مبادئ المسيحية والإنسانية والعدالة والعلم أيضا (علم السياسة) التى يزعم أنه يؤمن بها ، وهو يؤكد إيمانه بمبادئ الإخاء والإنسانية والعدالة وعلم السياسة ، ومع ذلك فإن اضطهاد الطبقة العاملة عنصر لا غنى عنه فى حياته اليومية ، وهو لا ينى يستخدمه لتحقيق أغراضه على الرغم من مبادئه وهو لا يكتفى بأن يعيش على هذا النمط بل يوجه كل طاقاته نحو المحافظة على نظام يناقض كل ما يؤمن به مناقضة تامة .

نحن إخوة ؛ ولكن أخى أو أختى يؤدى لى أحقر الأعمال كل صباح . نحن إخوة ؛ ولكنى لا أستغنى عن سيجارى فى الصباح ، أو عن سكرى أو عن مرأتى ، أو ماشئت من أشياء كثيراً ما يكلف صنعها إخوتى أو أخواتى صحتهم . ولكن ذلك لا يدعونى إلى الامتناع عن هذه الأشياء ؛ بل على العكس إنى أطلب بها ، نحن إخوة ، ومع ذلك فأنا أعول نفسى بالعمل فى مصرف أو مؤسسة تجارية أو متجر ، وأحاول دائماً أن أدفع ثمن ضروريات الحياة لإخوتى وأخواتى . نحن إخوة ، ومع ذلك فأنا أقبض مرتباً على محاكمة اللص أو المومس أو إدانتهم وعقابهما ، فى حين أن وجودهما نتيجة طبيعية لنظام الحياة الذى أعيش عليه ، وفى حين أعلم أنى لا ينبغى أن أدين ولا أن أعاقب ، نحن جميعاً إخوة ؛ ومع ذلك فأنا أكسب عيشى بجباية الضرائب من الفقراء ، حتى يعيش الأغنياء فى ترف وفراغ . نحن إخوة ؛ ومع ذلك فأنا أقبض مرتباً للدعوة إلى تعليم يسمى زوراً بالتعليم المسيحى ، ولا أؤمن به أنا نفسى ، وبذلك أمنع الناس مع اكتشاف التعليم الحقيقى ؛ إننى أقبض مرتباً بوصفى قسيساً أو أسقفاً لأخدع الناس فى أمر ذى أهمية حيوية لهم . نحن إخوة ؛ ومع ذلك فأنا أجعل أخى يدفع لى أجراً لقاء كل خدمة أقدمها إليه ، سواء أكنت أكتب له كتاباً ، أم أعلمه ، أم أصف له دواء ، نحن جميعاً أخوة . ولكننى أقبض مرتباً على إعداد نفسى لأكون قاتلاً ، على تعلم فن الحرب ، أو على صناعة الأسلحة والذخائر أو بناء القلاع .

إن معيشة طبقاتنا العليا متناقضة كلها تناقضاً تاماً ، وعلى قدر حساسية الإنسان يتألم لهذا الاعوجاج .

فالرجل ذو الضمير الحساس لا يمكنه أن يتمتع براحة بال فى مثل هذه الحياة . ولئن نجح فى خنق صرخات ضميره ، إنه لن ينجح فى التغلب على مخاوفه .

فأولئك الرجال والنساء فى الطبقات السائدة ، الذين قست قلوبهم ، واستطاعوا إسكات ضمائرهم ، ليسوا بمنجاة من العذاب لخوفهم من البغضاء التى أثاروها . فهم

عالمون حق العلم بوجودها بين الطبقات العاملة ، عالمون أنها لا يمكن أن تموت ، عالمون أن العمال يدركون ما يمارس معهم من خداع ، وما يحُمّل عليهم من مظالم؛ وأنهم قد بدءوا ينظمون أنفسهم ليلقوا بالنير عن كواهلهم ، وينتقموا من ظالمهم ، إن سعادة الطبقات العليا مسممة بالخوف من الكارثة المحدقة ، التي تبدو نذرها في النقابات والاضرابات ومظاهرات أول مايو . وإذا يدركون الكارثة التي تتهددهم يتحول خوفهم إلى تحدٍّ وكره . فهم يعلمون أنهم إن تهاونوا لحظة في هذا الصراع مع المضطهدين فهم ضائعون ، لأن عبيدهم الحاقدين يزدادون حقداً مع كل يوم من أيام الاضطهاد . وقد يرى المضطهدون ذلك ولكنهم لا يستطيعون أن يكفوا عن اضطهادهم . فهم يدركون أنهم هم أنفسهم مقضى عليهم إذا ما خففوا ذرة واحدة من قسوتهم . ولذا يمشون في خطة الاضطهاد على الرغم من دعواهم أنهم معنيون برخاء العمال وينظم الثماني الساعات وبالقوانين التي تحدد عمل النساء والأطفال والمعاشات والمكافآت . فهذا كله محض ادعاء ، أو - على أحسن تقدير - اهتمام طبيعي من السيد الذي يريد أن يبقى عبده في حال صالحة ولكن لا يزال العبد عبداً ، والسيد - الذي لا يستطيع أن يعيش بدون العبد - أقل استعداداً مما كان في أي وقت مضى لأن يطلق سراحه . وتجد الطبقات الحاكمة نفسها في موقف من العمال أشبه بموقف الرجل الذي صرع غريمه وظل ملصقاً إياه بالأرض لا لأنه غير راغب في تركه يهرب بل بالأحرى لأنه يعلم أن لو أرخى قبضته عنه لحظة لفقد هو حياته ، لأن الرجل المدحور يحتدم غضباً ويمسك في يده خنجراً .

وكذلك لا تستطيع طبقاتنا الغنية - رقت ضمائرهما أم قست - أن تستمتع بالمزايا التي انتزعتها من الفقراء ، كما استمتع الأقدمون الذين كانوا موقنين بعدالة موقفهم . فكل ملذات العالم مسممة إما بالندم أو بالخوف .

هذا هو الاعوجاج الاقتصادي . وأظهر منه اعوجاج السلطة المدنية .

فالإنسان يُدرَّب قبل كل شيء على عادات الخضوع لقوانين الدولة ، وكل عمل من أعمال حياتنا في الوقت الحاضر يقع تحت إشراف الدولة ، والرجل يتزوج ويطلق ويربى أبناءه طبقاً لأوامرها ، وفي بعض البلاد يعتنق الدين الذي تتخذه . فما هذا القانون الذي يحكم حياة البشر ؟ هل يؤمن به الناس؟ وهل يرونه صحيحاً ؟ كلا ، بل هم في معظم الأحيان يعرفون ظلمه ، ويحتقرونه ، ولكنهم يطيعونه . لا عجب أن اتبع القدماء قانونهم ، فقد كان أساسه الدين ، وكانوا يؤمنون إيماناً صادقاً بأنه هو وحده

القانون الصحيح الذى يجب أن يدين له الناس جميعاً بالطاعة ، فهل هذا هو الشأن معنا ؟ إننا لا نستطيع إلا أن نعترف بأن قانون دولتنا ليس هو القانون الخالد ، بل واحد من قوانين كثيرة ، تتساوى جميعها فى أنها ناقصة ، وربما بنيت على الزيف والجور .. قانون تناولته الصحافة بالمناقشة العلنية من جميع نواحيه ... لا غرو أن كان العبرانى يتبع قوانينه فإنه لم يشك قط أن إصبع الله نفسه قد خطها ؛ ولا غرو أن اتبع الرومانى قوانينه ، فقد كان يعتقد أنه تلقاها من الحرية إيجيريا ، بل لا غرو أن اتبعت قوانين الدولة بين تلك الشعوب التى كانت تؤمن بأن حكامها الذين يضعون القوانين مختارون من الله ، أو بأن المجالس التشريعية تملك الإرادة والقدرة على سن خير ما يمكن من القوانين ، ولكننا نعلم أن القوانين وليدة الصراع الحزبى والخداع والجشع ، وأنها ليست مستقر العدالة الصحيحة ولا يمكن أن تكون كذلك ؛ ومن ثم يستحيل على الناس فى العصر الحاضر أن يؤمنوا بأن الطاعة للقوانين المدنية أو لقوانين الدولة يمكن أن ترضى النزعة العقلية فى الطبيعة البشرية . وقد أدرك الناس منذ أمد طويل أن لا حكمة فى طاعة قانون متهم فى أمانته ، وذلك يتعذبون لا محالة حين يخضعون له مع إنكارهم لسلطانه بينهم وبين أنفسهم . وعندما تكون حياة المرء كلها موثقة بقوانين يتبين فى جلاء أنها جائرة قاسية مصطنعة ، ولكنه يلزم طاعتها خوفاً من العقاب ، فلا بد أن يتعذب ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك .

نحن نعرف مضار الجمارك والمكوس ، ولكننا مضطرون أن ندفعها ، ونرى حماقة الإنفاق على محكمة بموظفيها الكثيرين ، ونسلم بما للوعظ الكنسى ، من تأثير سيئ ولكننا مضطرون للإنفاق عليهما ، ونحن نعترف كذلك بما فى العقوبات التى توقعها المحاكم من قسوة وجور ، ولكننا نأخذ بنصيننا من توقيع هذه العقوبات ، ونحن نقر بأن توزيع الأرض ظلم وشر ، ولكننا ملزمون أن نخضع له ، ونحن ننكر ضرورة الجيوش والحرب ، وعلى الرغم من ذلك نجبر على تحمل الأعباء الباهظة التى يستلزمها الاحتفاظ بالجيوش وشن الحروب .

على أن هذه التناقضات ليست شيئاً إذا قورنت بذلك التناقض الذى يواجهنا فى مشكلة علاقاتنا الدولية ، والذى يصرخ طالباً الحل ، لأن العقل البشرى والحياة الإنسانية معاً رهينان بحله ، وذلك هو التناقض بين الدين المسيحى وبين الحرب .

فنحن الأمم المسيحية التي تحيا حياةً روحية واحدة ، وترحب في فرح وفخر بمولد كل فكرة صالحة في أى ركن من أركان الأرض ، دون نظر إلى الجنس والعقيدة .. نحن الذين نحب الشعراء والفلاسفة والعلماء كما نحب أهل الخير في غير بلادنا .. نحن الذين نفخر ببطولة رجل كالآب داميان ^(١) كما لو كانت بطولتنا .. نحن الذين نحب الفرنسيين والألمان والأمريكيين والإنجليز ، ولا نقدر فضائلهم فحسب بل نرحب بلقائهم في حرارة وود .. نحن الذين ننفر بل نذعر لو صورت لنا الحرب معهم على أنها مغامرة لابد أن تقشعر جلودنا حين نتصور إمكان أن يقوم بيننا يوماً في المستقبل نزاع لا يمكن فضه إلا بالقتل وأن كل واحد منا قد يدعى ليؤدى دوره في المأساة المحتومة .

إن أوروبا تحتفظ في الوقت الحاضر بعدد من الجنود تحت السلاح أكبر من العدد الذي كان في ميدان القتال في أثناء حروب نابليون الكبيرة ، وكل مواطن في قارتنا - فيما عدا القلة النادرة - ملزم بأن يقضى بضع سنوات في المعسكرات ، وثمة تحصينات وترسانات وبوارج تبني ، وأسلحة نارية حديثة تخترع ، ولا تلبث أن تستبدل بها أخرى ، لأن العلم الذي يجب أن يوقف دائماً على زيادة رخاء البشرية يوجه إلى تدمير البشرية ، باختراع وسائل جديدة في كل حين لقتل أعداد أكبر من الناس في أقصر وقت ممكن ، وهذه حقيقة لابد أن نعترف بها أسفين .

وعلى هذه الاستعدادات الهائلة للتذبيح ، وهذه الأعداد الضخمة من الجنود ، تصرف ملايين الجنيهات كل عام .. أموال كانت تكفى لتثقيف جماهير الشعب ، وتنفيذ أهم أعمال الإصلاح العام ، فتساعد بذلك على تحقيق حل كامل للمشكلة الاجتماعية .

ولذلك تجد أوروبا نفسها - على الرغم من كل انتصاراتنا العلمية - في منزلة لا تفضل في شيء ما كانت عليه في أشد أيام العصور الوسطى بربرية . ويأسف كل إنسان على تلك الحالة التي لاهى بحرب ولا هى بسلم ، ويتوق إلى الخلاص منها . ويؤكد رؤساء الحكومات تأكيداً جازماً أنهم يرغبون في السلم ، ويتنافسون تنافساً حاراً في تصريحاتهم السلمية ، ولكنهم يقدمون بعد ذلك - دون تمهل - اقتراحات إلى الجمعيات التشريعية لزيادة التسليح ، محتجين بأنهم يلجئون إلى هذه الاحتياطات للمحافظة على السلام .

(١) الأب داميان (١٨٤٠ - ١٨٨٩) راهب بلجيكي ذهب إلى جزر الهند الغربية وتطوع بأن يرعى المصابين بالجذام من أهل تلك البلاد ، وكانوا ينفون إلى جزيرة صغيرة ، وبعد أن أقام بينهم اثني عشر عاماً أصيب بالجذام ، وظل بينهم إلى أن مات . (المترجم)

ولكن هذا السلام ليس هو السلام الذى ننشده ، والشعوب لا تخدع به . فالسلام الحقيقى يقوم على أساس من الثقة المتبادلة ، أما هذا التسليح الرهيب فإنه يدل على شك مضمّر بين الشعوب المختلفة ، إن لم يكن دالاً على عداوة صريحة ، وماذا عسانا نقول عن رجل يبتغى إظهار صداقته لجاره فيدعوه إلى دراسة خطة ما ، ويبسطها أمامه وهو ممسك بمسدس محشو ؟

إن هذا التناقض الفظيع بين ما تؤكده الحكومات من رغبة فى السلام وما تنتهجه من سياسة الحرب ، هو ما يود المواطنون الصالحون أن يضعوا له حداً مهما يكن الثمن .

ولقد يدهش المرء حين يعلم أن ٦٠,٠٠٠ حادثة انتحار تسجل سنوياً فى أوروبا ، ولا تدخل فى هذا الإحصاء تركيا وروسيا وهذه الحالات كلها مؤكدة بالقرائن ولكن الأمر كان يكون أدعى للعجب لو كان العدد أقل ، فكل رجل فى هذا العصر يفكر فى التضاد بين معتقداته وأعماله يجد نفسه فى أزمة مظلمة ولو تركنا التناقضات الكثيرة الأخرى بين الحياة العملية والاعتقاد ، تلك التى تمتلئ بها حياة الإنسان فى العصر الحاضر فإن النظر إلى الموقف العسكرى فى أوروبا فى ضوء المسيحية التى تتظاهر بها لكاف لجعل الإنسان يشك فى وجود العقل البشرى ، ودفعه إلى الخلاص من عالم بربرى مجنون بأن ينهى حياته بيده .

حسب المرء أن يدرك ذلك حق الإدراك ليدفع إلى الجنون والانتحار ، وليس هذا إلا أمراً عادياً ولا سيما بين الجنود ،

وقليل من التأمل يثبت لنا حتمية هذا الاستنتاج .

فهو يفسر إمعان الناس فى جميع المفاسد ، من خمر وتبغ ولعب ورق وقراءة صحف وأسفار إلى سائر أنواع الملاحى والملاذ . إنهم يقبلون على جميع هذه المتع إقبال المستमित ، كأنما هى أعمال جادة ، والحق أنها كذلك ، فلو لم يكن لدى الناس تسلية واحدة من هذه التسلّيات لقتل نصفهم أنفسهم دون تردد ، لأن الحياة التى تقوم على متناقضات حياة لا يمكن أن تحتل ، وهذه هى الحياة التى يحياها معظمنا فى العصر الحاضر . إننا نعيش فى تناقض تام مع أعمق معتقداتنا . وهذا التناقض ظاهر فى العلاقات الاقتصادية والسياسية على السواء ، ظاهر لا يحتمل الشك فى

التعارض بين الاعتراف بالسنة المسيحية في الحب الأخوي وبين التجنيد الإجباري الذي يجبر الناس على أن يهيئوا أنفسهم لانتزاع أرواح بعضهم البعض ، أو باختصار في كون كل رجل مسيحياً ومصارعاً في الوقت نفسه ..

وبينما تتزايد الجهود التي يبذلها مثقفو الطبقات العليا لإسكات الوعي النامي بأن نظام الحياة الحاضرة يجب تغييره ، تمضى الحياة في تطورها وتعقدها دون تغيير اتجاهها ، فتزيد الحياة البشرية اعوجاجاً وألماً حتى تدفع الناس إلى الحد الأقصى من هذا التناقض . والتجنيد الإجباري العام مثل من أمثلة هذا الحد الأقصى .

يقال عادة إن هذا التجنيد الإجباري مثل زيادة التسليح وما يترتب عليها من الإكثار من الضرائب والقروض الوطنية في جميع الأقطار . كلها نتائج عرضية لأزمة معينة في العلاقات الأوربية يمكن علاجها بتشكيلات سياسية معينة ، دون تغيير في الحياة الداخلية .

وهذا خطأ مطلق ، فالتجنيد الإجباري ليس إلا تناقضاً داخلياً زحف إلى التصور الاجتماعي للحياة ، ولم ينكشف أمره إلا لأنه بلغ حده الأقصى في فترة وصل فيها الناس إلى درجة من التطور المادي .

فالتطور الاجتماعي للحياة ينقل قيمة الحياة من الفرد إلى البشرية عامة ، عن طريق سلسلة متصلة من الأسرة والقبيلة والدولة .

وبناء على التصور الاجتماعي للحياة يقال إنه لما كانت قيمة الحياة في المجموع الكلي للبشرية فيجب على كل فرد أن يضحي مصالحه لمصالح المجموع من تلقاء نفسه ، وقد كان ذلك هو الشأن فعلاً في تشكيلات اجتماعية معينة كالأسرة أو القبيلة .

ولكن ازدياد تعقد المجتمعات واتساعها – ولا سيما أن الغزو يساعد على ضم الناس في منظمات اجتماعية – يستتبع ازدياد الأفراد الذين يحاولون الوصول إلى أغراضهم على حساب إخوانهم . ومن هنا كثرت الحالات التي يلزم فيها الإخضاع بالقوة أو العنف .

ويحاول المدافعون عن التطور الاجتماعي للحياة أن يربطوا فكرة السلطة أو العنف بفكرة السلطان الأخلاقي ، ولكن هذا الربط مستحيل كل الاستحالة .

فتأثير السلطان الأخلاقي في الإنسان هو تغيير رغباته ، بحيث ينصاع بإرادته لما يُطلب منه ، والرجل الذي يستجيب للسلطان الأخلاقي يُسرّ بإخضاع أفعاله للقوانين الأخلاقية ، أما السلطة كما يفهم منها عادة فهي وسيلة للقهر ، يجبر بها الرجل على أن يعمل بما يعارض رغباته . فالرجل الذي يخضع للسلطة لا يفعل ما يُسرّ بفعله بل يستسلم للضغط ، ولا بد من التهديد باستعمال العنف المادي أو استعماله فعلاً كي يجبر الرجل على عمل ما لا يرغب ؛ فقد يحرم حرّيته أو يجلد أو يشوّه ، أو يهدّد بهذه العقوبات ، وهذا هو معنى السلطة قديماً وحديثاً .

وعلى الرغم من جهود الحكام الدائبة لإخفاء هذه الحقائق وإضفاء معنى آخر على السلطة فإنها لا تعنى إلا الغل والسلسلة اللذين بها يوثق الرجل ويُسَجَب ، والسوط الذي به يجلد والسكين أو الفأس التي بها تقطع أطرافه أو يجذع أنفه أو تصلم أذنه أو يحز رأسه ، السلطة إما تهديد بهذه الأفعال وإما مباشرتها : كانت هذه هي العادة الجارية في أيام نيرون وجنكيزخان . ولا تزال متبعة حتى في أكثر الحكومات تحراً ، كجمهوريتي فرنسا وأمريكا ، وإذا كان الناس يخضعون للسلطة فما ذاك إلا لخوفهم أن يؤخذوا بالشدة إن هم قاوموا ، وكل ما تطلبه الدولة من دفع ضرائب أو أداء واجبات عامة أو خضوع لعقوبات النفي والغرامة إلخ ، مما يبدو أن الناس يستسلمون له بإرادتهم - كل ذلك يفرض دائماً بالتهديد الجسمي أو بحقيقة العقاب الجسمي .

إن العنف المادي هو أساس السلطة .

والتنظيم العسكري الذي يجعل القوة المسلحة كلها تتصرف تصرف رجل واحد وتخضع لإرادة واحدة ، هو الذي يجعل تنفيذ العنف المادي ممكناً . فهذه الجماعة من الرجال المسلحين الخاضعين لإرادة واحدة يكونون ما يسمى الجيش ، وقد كان الجيش دائماً وما زال أساس السلطة الممثلة في قواده ، وكان الشغل الشاغل لجميع الملوك من القياصرة الرومان إلى الأباطرة الروس والألمان أن يحموا الجيش ويتملقوه ، فهم يدركون أنه إذا كان الجيش معهم فالسلطة في أيديهم .

وتدريب الجيوش وزيادتها للمحافظة على السلطة هو ما أدخل في التصور الاجتماعي للحياة عنصر الانحلال .

فسلطة الدولة قد تقضى على العنف الداخلي ، ولكنها بازدياد قوتها تبعاً لاستمرارها تدخل في الحياة أنواعاً أخرى جديدة من العنف ، لا تفتأ تتزايد شدتها

ومع أن عنف السلطة فى الدولة أقل لفتاً للأنظار من عنف أفراد المجتمع إزاء بعضهم البعض ، لأن مظهره الرئيسى هو القهر لا الصراع ، فإنه قائم على الرغم من ذلك ، بل هو عنف بليغ .

ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ، فإن الاستحواذ على السلطة لا يفسد الرجال فحسب ، بل إن الحكام يحاولون دائماً - عن وعى وتدبير أو عن غير وعى وتدبير - أن ينزلوا رعاياهم إلى أدنى درجات الضعف ؛ لأن الرعاية كلما ضعفت قل الجهد اللازم لإخضاعها .

ولذلك فإن استخدام العنف ضد المظلومين يبلغ حده الأقصى الذى ليس بعده إلا قتل الدجاجة ذات البيضة الذهبية ، أما إذا انقطعت الدجاجة عن وضع بيضتها كما هى الحال بالنسبة إلى هنود أمريكا أو سكان جزر فيجى أو الزوج فإنها تقتل على الرغم من احتجاج دعاة الإنسانية على طريقة القتل .

والدليل القاطع على صحة هذه القضية فى الوقت الحاضر هو مركز العمال الذين لا يعدون فى الحقيقة أن يكونوا رجالاً مقهورين .

فعلى الرغم من كل الجهود المزعومة من جانب الطبقات العليا للتخفيف عنهم ، فإن عمال العالم جميعاً خاضعون لقاعدة حديدية لا يمكن تعديلها ، مؤداها ألا يحصلوا إلا على الكفاف ، كيما تدفعهم حاجتهم إلى الكدح المتواصل ، الذى يجنى ثمراته سادتهم أو قل أولئك الذين غلبوهم على أمرهم .

والملاحظة التى لا تتخلف هى أنه بعد استمرار السلطان ونموه تقل المزايا التى يحصل عليها من يخضعون له ، فى حين تكثر المضار التى تنزل بهم .

ولكنهم ظلوا غير مدركين لهذه الحقيقة إلى عهد قريب ، وكانوا من السذاجة فى معظم الأحيان بحيث ظنوا أن الحكومات أقيمت لمصلحتهم ، فهى تحميهم من الهلاك ، وأن تصور إمكان العيش بدون حكومات تجديف لا يوصف ، فما هو إلا مبدأ الفوضوية بكل ما تستتبعه من فظائع .

وكان الناس يعتقدون - وكأن الأمر حقيقة ثابتة لا تحتاج إلى برهان جديد - أنه لما كانت جميع الأمم قد تطورت إلى شكل الدولة فيجب أن يبقى هذا الشكل أبداً شرطاً لازماً لتطور البشرية .

وعلى هذا استمرت الحال مئات بل آلافاً من السنين ، وحرصت الحكومات أو ممثلوها - وما زالوا يحرصون - على إبقاء هذا الوهم فى أذهان الشعب .

وكما كانت الحال أيام الأباطرة الرومان ، كذلك تكون الآن ، فمع أن فكرة انعدام فائدة السلطة بل ضررها قد بدأت تتغلغل فى وعى الناس فقد كان من الممكن أن يستمر ذلك الوهم أبداً لو لم تر الحكومات من الضرورى أن تزيد جيوشها لتأييد سلطتها .

والاعتقاد الشائع هو أن الحكومات تزيد جيوشها لأنها وسيلة للدفاع عن نفسها ضد الأمم الأخرى ، وينسى أصحاب هذا الاعتقاد أن الحكومات تحتاج إلى الجيوش أولاً لحماية نفسها من رعاياها المستعبدين .

كان ذلك ضرورياً لها دائماً ، وقد زادت ضرورته بانتشار التعليم ، وازدياد الاتصال بين مختلف القوميات ، وهو فى الوقت الحاضر أشد ضرورة إزاء الحركات الشيوعية والاشتراكية والفوضوية والعمالية ، والحكومات تدرك هذه الحقيقة ، وتزيد وسيلتها الأساسية للدفاع وهى الجيش المنظم .

إذا كان العامل لا يملك أرضاً ، إذا كان محروماً من الحق الطبيعى لكل إنسان فى استخراج وسائل معيشته ومعيشة أسرته من الأرض ، فليس هذا لأن الشعب يعارض ذلك بل لأن الحق فى منح العمال هذه الميزة أوجرمانهم منها قد أعطى لأفراد معينين ، وهم ملاك الأرض ، والجيش يسند هذا النظام غير الطبيعى ، وإذا كانت الثروة الضخمة التى يكسبها العمال ويدخرونها لا تعد ملكاً مشاعاً ، بل شيئاً لا ينبغى أن تتمتع به إلا القلة المختارة ؛ وإذا كان لأناس معينين سلطة جباية الضرائب على العمل وحق صرف ذلك المال فى أى الأغراض يرونها ضرورية ، وإذا كانت إضرابات العمال تقمع ، واتحادات الرأسماليين تشجع ، وإذا كان أناس معينون يسمح لهم بتقرير أمر التعليم الدينى والمدنى وتربية الناشئة ، وأناس معينون آخرون يعطون الحق فى سن القوانين التى يجب أن يطيعها الناس جميعاً ، وإذا كان مخولاً لهم أن يتحكموا فى حياة البشر وممتلكاتهم ، فإن هذا كله ليس سببه رغبة الناس فيه ، أو جريانه على سنة الطبيعة ، بل إن الحكومات تريد ذلك لمصلحتها ومصلحة الطبقات الحاكمة ، وهذا كله يتم بطريق العنف المادى .

وإذا لم يكن كل إنسان قد أدرك ذلك ، فسوف يراه جلياً حيثما بذلت محاولة لتغيير الأحوال الحاضرة .

ومن أجل هذا تحتاج جميع الحكومات والطبقات الحاكمة إلى الجيوش قبل كل شئ ، لتحافظ على نظام للحياة لم ينشأ من حاجات الشعب ، بل على العكس كثيراً ما يضر بهم ، ولا يفيد منه إلا الحكومة والطبقات الحاكمة .

فكل حكومة تحتاج إلى الجيش الذى يفرض طاعتها لتستفيد من عمل رعاياها ، ولكن ليس ثمة حكومة تقوم وحدها ؛ فإلى جانبها تقف حكومة القطر المجاور ، التى تستفيد أيضاً من تسخير رعاياها وتقف دائماً على أهبة الانقضاض على جارتها والاستيلاء على الميزات التى كسبتها هذه من عمل رعاياها ، ومن هنا تحتاج كل حكومة إلى جيش لا لتستعمله فى الداخل فقط بل لتحفظ غنائمها من النهب الخارجى ، وكذلك تجد كل حكومة نفسها مضطرة إلى أن تسبق جارتها فى تضخم جيشها ، وكما قال منتسكيو منذ مائة وخمسين عاماً : «إن زيادة الجيوش عدوى»

فأحدى الدول تزيد جيشها لترهب رعاياها ؛ فتوجس جارتها خيفة وسرعان ما تحذو حذوها .

إن الجيوش لم تبلغ أعدادها الملايين التى بلغت الآن للخوف من الغزو الخارجى وحده ؛ فالذى سبب الزيادة أولاً هو ضرورة إخماد كل محاولة للعصيان من جانب رعايا الدولة وأسباب تضخم الجيوش متعاصرة ، يتوقف الواحد منها على الآخر ، فالجيوش ضرورية لإخماد محاولات الثورة الداخلية كما أنها ضرورية للدفاع الخارجى وكلا الأمرين يتوقف على الآخر ، واستبداد الحكومات يزيد على قدر ازدياد قوتها ونجاحها الداخلى ، كما يزيد عدوانها الخارجى بازدياد استبدادها الداخلى .

والتجنيد الإجبارى العام هو الخطوة الأخيرة فى عملية القهر التى تحتاج إليها الحكومات لتدعيم البناء كله ؛ وهو الحد الأقصى للطاعة بالنسبة إلى الحكوميين . إنه مفتاح العقد الذى يحمل الجدران ، ولو انتزع لا تنتقض الجميع ، ولقد جاء الوقت الذى أصبحت فيه مفاصد الحكومات المتفاقمة ومنازعاتها المتبادلة تقتضى من جميع رعاياها تضحيات روحية إلى جانب التضحيات المادية ، حتى ليقف كل رجل ويسأل نفسه : هل أستطيع أن أقدم هذه التضحيات ؟ ولئن أقدمها ؟ إن هذه التضحيات تطلب منى باسم الدولة .. باسم الدولة يطلب من أن أتخلى عن كل ما يحبب الحياة إلى الإنسان عن السلام ، والأسرة ، والأمن والكرامة الشخصية . فما هذه الدولة التى باسمها أطالب بهذه التضحيات المروعة ؟ وما فائدتها ؟

يقولون لنا إن الدولة ضرورية أولاً لأنه لولاها لما أمن إنسانٌ من العنف واعتداء الأشرار ، وثانياً لأنه لولاها لكنا كالوحوش لا دين لنا ولا أخلاق ولا ثقافة ولا تربية ولا تجارة ولا وسائل للمواصلات ولا نظم اجتماعية ما ، وثالثاً لأنه لولا الدولة لتعرضنا للغزو من الأمم المجاورة .

يقولون لنا : "لولا الدولة لا ستهدفنا للعنف واعتداء الأشرار في عقر دارنا " .

ولكن من هؤلاء الأشرار الذين تنتقدنا الحكومة والجيش من اعتدائهم وهجومهم ؟ إن كل مثل هؤلاء الرجال قد وجدوا منذ ثلاثة قرون أو أربعة ، عندما كان الرجال يفاخرون بمهارتهم الحربية وقوة سواعدهم ، والرجل يثبت شجاعته بقتل إخوانه في الإنسانية ، فإننا لا نجد مثل هؤلاء الرجال في الوقت الحاضر . فرجال عصرنا لا يحملون الأسلحة ولا يستعملونها ، وهم يرغبون في السلم والأمن كرهبتنا فيهما ، لأنهم يؤمنون بمبادئ الإنسانية ومحبة الجار وإذن فلم يبق ثمة وجود لهذه الطبقة العجيبة من المقاتلين الذين يقال إن الدولة تحميها من أذى قد يلحقونه بنا .

بل إن المرء يستطيع أن يقول بعكس ذلك تماماً في أيامنا هذه ، فإن أعمال الحكومات التي تهبط كثيراً عن المستوى العام للأخلاق ، بما تعتمد إليه من وسائل العقاب العتيقة الفاسدة ، من أشغال شاقة وسجون ومشانق ومقاصل - هي أقرب إلى أن تنزل بالمستوى الخلقى منها إلى أن ترفعه ، ومن ثم فهي أقرب إلى أن تزيد عدد المجرمين منها إلى أن تقله .

ويقال : "لولا الدولة لما وجدت نظم تعليمية ولا أخلاقية ولا دينية ولا دولية : ولما وجدت طرق للمواصلات ؛ لولا الدولة لما وجدنا المنظمات الضرورية لنا جميعاً" .

ومثل هذه الحجة كان يمكن أن تستند إلى أساس منذ بضعة قرون ، أما الآن فلا ، فإن كان قد وجد عصرٌ ما قلٌ فيه الاتصال بين الشعوب ولم تألف التعامل ولا تبادل الأفكار فيما بينهما بحيث يمكنها أن تتفق على ما يمس مصالحها العامة من أمور التجارة أو الصناعة أو الاقتصاد دون معونة الدولة ، فإن الأمر الآن بخلاف ذلك ، فقد أدى اتساع وسائل الاتصال ونقل الأفكار إلى هذه النتيجة : إن الإنسان الحديث إذا أراد تأسيس جمعيات أو مجالس أو مؤتمرات ، أو منظمات علمية أو اقتصادية أو سياسية فإنه يستطيع أن يستغنى في يسر عن مساعدة الحكومات ، بل إن الحكومات في معظم الأحيان تعوق السعي نحو هذه الأهداف أكثر مما تعززه .

ولم تزل الحكومات منذ نهاية القرن الماضي تمنع تأييدها عن جل الحركات التقدمية التى يقوم بها البشر ، بل تضع الحوائل أمامها ، هكذا فعلت فى إلغاء العقاب البدني والتعذيب والرق ؛ وهكذا فعلت فى تقرير حرية الصحافة والاجتماع ، وفوق ذلك فإن سلطات الدولة والحكومات فى هذه الأيام لا تكتفى بعدم التعاون فى الأعمال التى يحاول بها البشر إيجاد أشكال جديدة للحياة ، بل تعتمد إلى عرقلة هذه الأعمال ، فعلى قضايا العمل وملكية الأرض ، والمشكلات السياسية والدينية ، لا يلقى تشجيعاً من السلطات الحكومية ، بل إنه يعارض معارضة ظاهرة ،

ويقولون : «لولا الدولة وسلطة الحكومة لوقعت الأمم تحت سيطرة جيرانها » .
وهذه حجة لا تستحق المناقشة ، فإنها تدحض نفسها بنفسها .

فهم يقولنا لنا إن الحكومة وجيوشها لازمة للدفاع عنا ضد الدول المجاورة التى يمكن أن تتغلب علينا ، ولكن جميع الحكومات تقول هذا عن بعضها البعض ، ونحن نعلم مع ذلك أن كل أمة من الأمم الأوروبية تعتقد مبادئ الحرية والإخاء التى تعتنقها سائر تلك الأمم ، ولهذا لا تحتاج إلى دفاع ضد جاراتها ، أما إذا كان الحديث عن الدفاع ضد البرابرة فإن واحداً فى المائة من الجيوش تحت السلاح فى الوقت الحاضر يكون كافياً . إن زيادة القوات المسلحة لا تحمينا من هجوم جيراننا بل تستثير هذا الهجوم الذى تزعم أنها تمنعه .

وهكذا لا يستطيع إنسان يفكر فى معنى الدولة التى يطالب باسمها أن يضحى بسلامه وأمنه وحياته ، لا يستطيع الهرب من اليقين بأنه لم يبق ثمة أساس لهذه التضحيات .

إن الأمم المسيحية فى العصر الحاضر ليست فى حال أقل قسوة من عصور الوثنية ، بل إن حالها قد زادت سوءاً من نواح كثيرة ولا سيما القهر الذى تعانيه . وفى الماضي كان المظهر الخارجى من القسوة والعبودية يطابق الوعى الباطنى عند الناس مطابقة لم يزلها الزمن إلا انسجاماً ، أما فى العصر الحاضر فإن الحالة الظاهرة من القسوة والعبودية تناقض الوعى المسيحى عند الناس مناقضة تامة ، مناقضة لا تزال تبرز عاماً بعد عام .

وما أغنانا عن التعاسة والألم الناتجين من ذلك ، لكأنه مخاض طويل ، فكل شئ مهياً للحياة الآتية ، ولكن لا تظهر حياة .

والموقف يبدو وكأنما لا خلاص منه ، ولقد يكون الأمر كذلك لو لم يكن البشر والعالم من ثمة ، قد منحا القدرة على فهم فيه قدرة التحرير على الفور من جميع الأغلال ، مهما تكن محكمة الإغلاق .

وهذا هو التصور المسيحي للحياة كما أبلغ للناس منذ ألف وثمانمائة عام .

ليس على الإنسان إلا أن يفهم حياته كما تعلمه المسيحية أن يفهمها ، أن يدرك أن هذه الحياة ليست ملكاً له ولا لأسرته ولا للدولة ، بل للذي بعثه إلى العالم ، وأن يعلم - من ثمة - أن واجبه ليس أن يعيش وفقاً لشرعته الشخصية ولا لشرعة أسرته أو دولته ، بل أن يعيش طبقاً للشرعية الأبدية لمن أعطاه الحياة - ذلك حسبه ليُشعر أنه حر مطلق الحرية من كل سلطة بشرية ، فلا يعود ينظر إليها على أنها يمكن أن تكون عقبة أمامه .

ليس على الإنسان إلا أن يدرك أن الغاية من حياته هي العمل بشريعة الله ، فيكون سلطان هذه الشريعة التي تستأثر بكل ولائه ناسخاً بالضرورة لسلطة القوانين البشرية جيمعاً .

والمسيحي الذي يتأمل قانون الحب المركز في كل نفس بشرية ، والذي بعثه المسيح معلم البشر ، يتحرر من كل سلطة بشرية .

وقد يلقي المسيحي إيذاءً ظاهراً ، وقد يحرم حرите الشخصية ، وقد يُستعبد لشهواته - ومرتكب الذنب عبد لذنبه - ولكنه لا يمكن أن يساق أو يجبر بالتهديد على ارتكاب عمل يناقض وجدانه ، لا يمكن إجباره على ذلك لأن الحرمان والآلام التي تؤثر أعظم التأثير فيمن يتعلقون بالتصور الاجتماعي للحياة لا سلطان لها عليه ، فالحرمان والآلام التي تقضى على النعمة المادية وهي هدف التصور الاجتماعي للحياة ، لا تحدث أثراً في نعمة المسيحي التي تقوم على الشعور بأنه يصدع بأمر الله ، بل إنها قد تزيد هذه النعمة إذا ابتلى بها لأنه يصدع بأمر الله .

لهذا فإن المسيحي الذي يطيع القانون الإلهي الباطني لا يصبح عاجزاً فحسب عن تنفيذ أوامر القانون الخارجي إذا تعارضت مع إحساسه بقانون الحب الإلهي ، كما هو الشأن في مطالب الحكومة منه ، بل إنه لا يمكن أن يقر بطاعة فرد ما ، أو بكونه رعية حسبما اصطلح على القول فعند المسيحي أن إعطاء العهد بالخضوع لحكومة ما - وهو ما يمكن أن يعد أساس الحياة في الدولة نقض صريح للمسيحية ؛ لأن الفرد يعاهد

سلفاً على الطاعة الضمنية لكل قانون يستنه البشر يكون كمن شهد بإنكار قطعي للمسيحية ، التي يقوم جوهرها على الطاعة فى كل أمرٍ لذلك القانون الذى يشعر به فى باطنه .. قانون الحب !

إن موقف العالم المسيحى بقلعه ومدافعه ومتفجراته وينادقه وقذائفه وسجونته ومشانقه وكنائسه ومصانعه وجماركه وقصوره لموقف فظيع ، ولكن لا القلاع ولا المصانع ولا البنادق تستطيع أن تشن حرباً بنفسها ، ولا السجون تستطيع أن تغلق أبوابها ، ولا المشانق أن تشنق ، ولا الكنائس أن تُضلل ولا الجمارك أن تطالب بنصيبتها ، ولا القصور والمصانع أن تقيم أركانها .. فكل ذلك يعمل البشر ، وحين يفهم البشر أنهم ليسوا بحاجة إلى عمله فلن يبقى لهذه الأشياء وجود .

وقد بدأ الناس يفهمون هذا ، إن لم يكن الجميع قد فهموه حتى الآن ، فقد فهمه أولئك الذين يتبعهم سائر العالم من بعد ، ومحال أن يعود ما فهم غير مفهوم وإن الجماهير لقادرة على أن تتبع طريق أولئك الذين فهموا ، بل لا بد لها فى النهاية أن تتبع هذا الطريق .

ومن هنا تجى النبوة : أن سيأتى وقت يصفى فيه الناس جميعاً لكلمة الله ، وينسون فنون الحرب ، ويصهرون سيوفهم محاريث وحراهم مناجل ، ومعنى ذلك ، إذا ترجمناه أن جميع السجون والقلاع والمعسكرات والقصور والكنائس ستبقى خالية ، والمشانق والمدافع ستكون بغير عمل . إن هذا لم يعد حلماً طوبوياً بل نظاماً جديداً محدداً للحياة ، تتقدم نحوه البشرية بسرعة تزداد كل حين .

ولكن متى يكون ؟

منذ ألف وثمانمائة عام قال المسيح جواباً عن هذا السؤال ، إن نهاية العالم الحاضر – أى النظام الوثنى – ستأتى حين يبلغ شقاء الإنسان حده الأقصى ؛ وحين تعلن – فى الوقت نفسه – فى أرجاء الأرض بشارة مملكة السماء ، أى إمكان قيام نظام جديد لا يؤسس على العنف .

قال المسيح :

”وأما ذلك فى اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحدٌ ولا ملائكة السماء إلا الرب وحده.... اسهروا إنن لأنكم لا تعلمون فى أية ساعة يأتى ربكم“

متى تأتى الساعة ؟ لقد قال المسيح إننا لا نستطيع أن نعلم . ولهذا السبب نفسه يجب أن نستعد للقائها .

وليس ثمة جواب آخر . فلا يمكن للبشر أن يعلموا اليوم والساعة التى تجى فيها مملكة الله ، لأن مجى هذه الساعة إنما يتوقف على البشر أنفسهم .

الجواب كجواب ذلك الحكيم الذى سأل المسافر كم بينه وبين المدينة ، فقال له : «أمض فى سيرك» .

أنى لنا أن نعلم بُعد الغاية التى تسعى نحوها البشرية إذا كنا لا نعلم كيف يكون سعيها ؟ ذلك يتوقف على البشرية إن مضت قدماً أو توقفت ، إن حثت خطاها أو أبطأت .

وكل ما فى مقدورنا أن نعلمه هو ما ينبغى أن نفعل أو لا ينبغى أن نفعل - نحن الذين تتألف منا البشرية - لتحقيق مملكة الله ، هذه وهذا نعلمه كلنا ، فما على كل منا إلا أن يبدأ فى أداء واجبه ، ما على كل منا إلا أن يعيش وفقاً للنور الذى فى باطنه ، فنتحقق مملكة الله الموعودة التى يحن إليها قلب كل إنسان .

فلسفة التاريخ عند تولستوى

قرب نهاية سنة ١٨١١ بدأت حركة حشد وتركيز للقوات فى غرب أوروبا ؛ وفى سنة ١٨١٢ نُقلت هذه القوات التى بلغت ملايين الرجال ، إذا أدخلنا فى حسابنا أولئك الذين كانوا يعملون فى نقل الجيوش وتموينها - نُقلت من الغرب إلى الشرق نحو حدود روسيا ، حيث كانت القوات الروسية معبأة كما كانت فى العام السابق .

وفى اليوم الرابع والعشرين من يونية ، عبرت قوات أوربا الغربية الحدود الروسية ، وبدأت الحرب ، أو بعبارة أخرى ، وقع حادث مناقض للعقل البشرى والطبيعة البشرية .

فارتكت ملايين الرجال ضد بعضهم البعض ما لا يحصى من الجرائم ، من خداع وخيانة وسرقة وتزوير وتزييف نقود ونهب وإحراق وقتل - عدداً لا يمكن أن تباريه جميع محاكم العالم فى عدة قرون ، ولكن مقترفيها لم يكن يخطر ببالهم - فى ذلك الوقت - أنها جرائم .

كيف وقع ذلك الحادث العجيب ؟

ماذا كانت أسبابه ؟

يقول المؤرخون ، بتصديق سانج ، إن أسباب هذا الحادث ترجع إلى الإهانة التى وجهت إلى دوق أو لدنبرج ، وعدم مراعاة "النظام القارى" وطموح نابليون وحزم ألكسندر ، وأخطاء الدبلوماسيين إلى نحو ذلك .

ولو كان الأمر كما ذكروا لما احتاج وقف الحرب إلا إلى أن يقوم مترنيج أو روميانتسوف أو تاليران ببذل شئ من الجهد بين جلسة وحفلة ، وإظهار البراعة فى تحرير ورقة من أوراق الدولة ، أو أن يكتب نابليون إلى ألكسندر : "سيدى وأخى ، إنتى أوافق على رد الدوقية إلى دوق أولدنبرج ."

ومن اليسير أن نفهم أن الناس فى ذلك الوقت تصوروا الأمر على هذا النحو ، ومن اليسر أن نفهم أن نابليون عزا سبب الحرب إلى مؤامرات إنجلترا (وهذا ما قاله فعلاً (*)) من الحرب والسلام .

فى جزيرة سنت هيلانة) ؛ ومن اليسير أن نفهم أن أعضاء البرلمان البريطانى عزوا سبب الحرب إلى طموح نابليون ؛ وأن أمير أولدنبرج كان يرى أن الحرب نتجت عن الإهانة التى وجهت إليه ؛ وأن التجار اعتبروا "النظام القارى" الذى أضر بالتجارة الأوربية مسئولاً عن هذه الحرب ؛ وأن قدامى الجنود وقواد الجيوش رأوا سببها الرئيسى هو ضرورة البحث لهم عن شئ يعملونه ؛ وأن أنصار الملكية الشرعية فى ذلك الزمن رأوه فى ضرورة المحافظة على المبادئ القوية ؛ والدبلوماسيين فى أن المحالفة بين روسيا والنمسا سنة ١٨٠٩ لم تُخَفَ عن علم نابليون بمهارة كافية ، وأن المذكرة رقم ١٧٨ قد صيغت فى عبارات غير دقيقة .

من اليسير أن نفهم أن هذه العلل وعللاً أخرى لا تحصى ، ولا تتناسب كثرتها إلا مع كثرة وجهات النظر التى لا حد لها - كانت تبدو مقنعة لأهل ذلك الزمن ؛ أما نحن الأجيال التالية ، الذين نجد أنفسنا على بعد كاف لتأمل ضخامة الحادث من أفق أوسع ، والذين نريد أن نسبر معناه البسيط المروع ، فإن مثل هذه العلل لا تبدو لنا كافية ، فنحن لا نستطيع أن نصدق أن ملايين من المسيحيين قتلوا بعضهم بعضاً وعذبوا بعضهم بعضاً لأن نابليون كان طموحاً وألكسندر حازماً ، والسياسة البريطانية ما كرة ودوق أولدنبرج مهاناً . ومن المستحيل علينا أن نفهم العلاقة بين هذه الظروف وبين حقيقة القتل والعنف ذاتها : لماذا ترتب على الإهانة التى لحقت بالدوق أن أُلوفاً من الرجال الطرف الآخر لأوريا قتلوا ونهبوا أهل حكومتى سمولنسك وموسكو وقتلوا بأيدي هؤلاء.

نحن الأجيال التالية ، الذين لسنا بمؤرخين ، ولا تستهويننا العمليات الفكرية البعيدة الاحتمال ، والذين نستطيع بفضل ذلك أن نتأمل الظواهر بنظر صحيح ليست عليه غشاوة ، تبدو لنا أسباب تلك الظواهر فى كثرتها التى لا تحصى ، وكلما تعمقنا الأسباب تفتحت لنا عن عدد أكبر ، ويبدأ كل سبب أو سلسلة من الأسباب على حدة ذا أثر بذاته ككل سبب آخر، عديم الأثر لتفاوته بالقياس إلى ضخامة الحوادث ككل سبب آخر أيضاً ؛ عديم الأثر كذلك لعجزه عن أن ينتج الأحداث التى نتأملها دون معاونة الأسباب الأخرى كلها مجتمعة .

فرفض نابليون أن يسحب جيشه إلى ما وراء القسطنطينية ويعيد دوقية أولدنبرج سبباً له من القيمة فى هذا البحث مثل ما لاستعداد جاويش فرنسى واحد أن يشارك فى المعركة الثانية أو إباطه ذلك ؛ لأنه لو أبى هو ثان وثالث وشاركهم فى الإباء ألف جاويش وجندى لتضاعل جيش نابليون إلى حد تمتنع معه الحرب .

ولو أن نابليون لم يغضب حين طُلب منه سحب قواته إلى ما وراء القسطنطينية ، ولو لم يصدر أوامره إلى هذه القوات ببدء المعركة لما وقعت الحرب ؛ ولكن لو أن جميع ضابط الصف رفضوا أن يخوضوا المعركة لما وقعت الحرب أيضاً ، وكانت الحرب تمتنع أيضاً لولا المؤامرات الإنجليزية ، وأمير أولدنبرج ؛ ولو لم يشعر ألكسندر بالحنق ؛ ولو لم يوجد حكم مطلق في روسيا ؛ ولو لم توجد ثورة فرنسية ولا تبعيتها دكتاتورية ولا إمبراطورية ؛ ولو لم يوجد شيء من الأشياء التي أدت إلى الثورة ، وهلم جرا لو تخلف سبب واحد من هذه الأسباب لما وقعت الحرب وإذن فلا بد أنها جميعاً – أى آلاف الملايين من الأسباب – قد تعاونت لتؤدي إلى هذه النتيجة .

ونخلص من ذلك إلى أنه لا يمكن أن يكون ثمة سبب نهائي واحد لهذه الأحداث ؛ وأن الحادث العظيم قد وقع لأنه كان لا بد أن يقع ، كان لا بد أن يتخلى ملايين الرجال عن مشاعرهم البشرية وعن عقولهم ويسيروا من الغرب إلى الشرق ليقتلوا إخوانهم ؛ تماماً كما حدث منذ عدة قرون أن جحافل من البشر تدفقت من الشرق إلى الغرب ليقتلوا إخوانهم أيضاً .

وما كانت أفعال نابليون وألكسندر ، اللذين يبدو أن هذه الحادثة أو تلك كانت متوقفة على أمرهما . بأقرب إلى التلقائية والحرية من أفعال أى جندي اشترك في الحملة مجنداً أو متطوعاً ليس من ذلك بد ، لأن تنفيذ إرادة نابليون أو ألكسندر – اللذين يبدو أن الحادث كان متوقفاً عليهما – استلزم اشتراك عدد لا يحصى من العوامل ، التي لو تخلف واحد منها لما وقع الحادث ، كان من اللازم أن يوافق ملايين الرجال على تنفيذ إرادة هاتين الوجدتين الإنسانييتين الضعيفتين ، ملايين الرجال الذين كانت في أيديهم كل القوة حقاً ، الجنود الذين حاربوا ، والرجال الذين نقلوا الذخائر والمدافع ، وقد أدى بهم إلى الموافقة عدد لا يحصى من الأسباب المعقدة المتنوعة .

لا مفر من الجبرية في التاريخ إذا أردنا أن نفسر ظواهره غير المعقولة (أى تلك الأحداث التي تفوت علتها إدراكنا) . وكلما حاولنا أن نفسر هذه الظواهر التاريخية بعقلنا بدت لنا أبعد عن المنطق والإدراك .

فكل إنسان يعيش لنفسه ، ويتمتع بحرية كافية لتحقيق أغراضه الشخصية ، ويشعر بجماع وجوده أنه يستطيع أن يقوم من ساعته بعمل من الأعمال أو يأباه ، ولكنه متى فعله فإن هذا الفعل الذي تم في فترة محدودة من الزمان يخرج عن مشيئته ، ويصبح عنصراً في التاريخ ، يحتل مكانه فيه بمعنى مقدر لم يعد فيه مجال للهوى .

ولكل إنسان حياة مزدوجة : حياته الشخصية فى جانب وهى حياة حرة بقدر تجرد مصالحتها ؛ وفى الجانب الآخر حياته بوصفه عنصراً ، نحلة واحدة فى السرب ، وهنا لا مجال للإنسان أن يخرج عن القوانين المفروضة عليه .

والإنسان يعيش لنفسه فى وعيه ، ولكنه فى الوقت نفسه أداة غير واعية لتحقيق أغراض تاريخية واجتماعية ، والعمل إذا تم تحدد ؛ وإذا تلاقى عمل إنسان بغيره - بملايين الأعمال التى تصدر عن أناس آخرين - فإن هذا العمل يكتسب قيمة تاريخية وكلما ارتفع الرجل فى السلم الاجتماعى ، وكثر الناس الذين له بهم صلة ، وعظم تأثيره فى غيره ، وضحت الضرورة الحتمية المقدرة فى كل عمل من أعماله .

قلب الملك فى قبضة الرب .

الملك عبد التاريخ .

فالتاريخ - أى الحياة الكلية اللاشعورية للبشرية فى مجموعها - يستفيد فى كل لحظة من حياة الملك ، بوصفها أداة لتحقيق أغراضه .

ولئن لم يتخيل نابليون قط مثملاً تخيل فى هذا العام من ١٨١٢ إن إراقة دماء شعبه أو حقنها - كما عبر ألكسندر فى كتابه إليه - متوقفان عليه ، إنه لم يكن قط فى حقيقة الأمر أكثر خضوعاً مما كان أنئذ للقوانين الحتمية التى تفرض عليه حتى وهو يعمل وفق إرادته الحرة ، كما يبدو له ، أن يحقق للعالم عامة - للتاريخ ما قدر تحقيقه .

سار رجال الغرب نحو الشرق ليقتل بعضهم بعضاً "وبقانون المصادفات تنكرت أُلوف الأسباب التافهة فى زى أسباب حاسمة ووافقت هذا الحادث ، ففسرت هذه الحركة وهذه الحرب فى الظاهر : السخط لعدم مراعاة "النظام القارى " دوق أولدنبرج؛ " غزو بروسيا الذى لم يكن له من غرض (كما خيل لنابليون) إلا الحصول على سلم مسلح ؛ ولع إمبراطور فرنسا بالحرب وإلفه لها اللذان اتفقا مع مزاج شعبه ؛ إغراء القيام باستعدادات أوسع ، واعتماد الأموال للقيام بهذه الاستعدادات ، والتعويضات التى تفى بهذه الأموال ؛ التكريم المدير للرأس فى درسدن ؛ المفاوضات الدبلوماسية التى أجريت - فى نظر المعاصرين لتلك الأحداث - برغبة مخلص فى المحافظة على السلام، ولكنها لم تزد على أن أساءت إلى كبرياء كلا الجانبين ؛ وملايين الملايين من الأسباب الأخرى اتُخذت عللاً زائفة لهذا الحادث الذى كان لا بد أن يقع ووافقته فى الزمن .

عندما تنضج تفاحة وتسقط - فما الذى يجعلها تسقط ؟ أهى الجاذبية ؟ أم أن غصنها ذوى ؟ أم أن الشمس جففته ؟ أم أنها ثقيلة ؟ أم أن الريح هزتها ؟ أم أن الصبى الصغير الواقف تحتها جائع إليها ؟

ليس ثمة سبب مباشرة ، فالأمر بأجمعه نتيجة لكل هذه الظروف التى يحدث بمقتضاها كل حادث حىً عضوى معقد ، وعالم النبات الذى يقرر أن التفاحة سقطت نتيجة لتحلل النسيج الخضرى مصيب كالصبى الذى يعلن ، وهو واقف تحت الشجرة ، أن التفاحة سقطت لأنه أراد أن يأكلها ودعا بأن ينالها .

مصيب ومخطئ على السواء من يقول إن نابليون ذهب إلى موسكو لأنه أراد أن يذهب ، ودالت دولته لأنه ألكسندر رغب فى أن تدول دولته ، ومصيب ومخطئ على السواء من يزعم أن سقوط جبل يزن ملايين الأطنان ناتج عن آخر ضربة معول أهوى بها آخر عامل . وفى أحداث التاريخ ليس من يسمون بالعظماء إلا بطاقات توصل بالحادث وتعطيه اسماً ، ولا ارتباط لهم بالحادث إلا كارتباط هذه البطاقات .

فكل عمل من أعمالهم وإن بدا صادراً عن إرادتهم الحرة هو فى دلالته التاريخية خارج عن نطاق الإرادة ، ومرتببط بالاتجاه العام للتاريخ ، ومن ثم فهو مقدر منذ الأزل . وكما أن الشمس وكل ذرة من الأثير كون كامل فى ذاته ، وهى فى الوقت نفسه لا تعدو أن تكون ذرة فى الكل العظيم الذى لا يمكن أن يدركه الإنسان ، فكذلك كل فرد يحمل فى داخله أهدافه الخاصة ، ويخدم فى الوقت ذاته الهدف العام الذى لا يمكن أن يدركه الإنسان .

تقف نحلة على زهرة ، وتلسع صيباً ، ويخاف الصبى من النحلة ، ويقول إن غرض النحل هو أن يلسع الناس .

ويتأمل الشاعر النحلة وهى ترشف كأس زهرة ، ويقول لنا أن غرض النحلة هو أن تمتص فى باطنها شذى الأزهار .

ويلاحظ النحال أن النحلة تجمع اللقاح وتعود به إلى الخلية فيقول إن غرض النحل هو صنع العسل .

ويلاحظ نحال آخر عادات السرب ملاحظة أدرك ، فيقول إن النحلة تجمع اللقاح لغذاء صغارها واستغلال الملكة ، وإن غرض النحل هو حفظ النوع .

ويلاحظ عالم نباتي أن النحلة حين تطير بغبار زهرة ختشي إلى ميسم زهرى أخرى، تلقح هذه الزهرة ، فيرى في ذلك غرض النحلة.

ويعنى عالم آخر بملاحظة هجرة النباتات ، فيرى إن النحلة تساعد على هذه الهجرة ، ويقول هذا النظار الجديد إن هذا هو غرض النحلة .

ولكن الغرض الأخير للنحلة ليس منحصراً في أول الأغراض التي يستطيع العقل البشرى اكتشافها ، ولا في ثانيها ولا في ثالثها .

وكما أرتقى العقل البشرى في جهوده لاكتشاف هذه الأغراض وضح أن الغرض الأخير يقوت إدراك الإنسان.

وكل ما يستطيع الإنسان ملاحظته هو الترابط بين حياة النحلة وسائر ظواهر الحياة ، وكذلك الحال بالنسبة إلى أغراض الشخصيات التاريخية والشعوب .

أفكار تولستوى الأخلاقية

(قى قالب الخيال – قصص قصيرة)

نيقولا العصا

(نيكولاى بالكين)

قضى ليلته فى بيت جندى له من العمر خمسة وتسعون عاماً ؛ خدم فى عهدى
ألكسندر الأول ونيقولا الأول .

– ماذا يا أبت ؟ هل تريد أن تموت ؟

– أموت ؟ ليتنى أموت ! كنت أخافه أولاً ، ولكنى الآن لا أسأل الله غير شئ
واحد .. أن ينعم على بالاعتراف والقربان ، فذنوبى كثيرة .

– وماذا عسى أن تكون ذنوبك ؟

– تسألنى ؟ ألا تعلم متى خدمت ؟ وفى أيام نيقولا . وهل كان الجيش أيامها كما
هو اليوم ؟ كيف كانت الحال فى تلك الأوقات ؟ إن بدئك يقشعر حين تفكر كيف كانت .
بل إننى أستطيع أن أتذكر أيام ألكسندر . كان الجنود يذكرون ألكسندر بالخير . وكان
الناس يقولون : لقد كان رحيميا .

ورجعت بذكراتى إلى أيام ألكسندر الأخيرة ، وعندما كان عشرون رجلاً من كل
مائة يجلدون حتى الموت لابد أن نيقولا كان رحيميا حقاً إذا كان ألكسندر قد سمي
رحيميا بالنسبة إليه :

قال الشيخ :

– ثم خدمت فى أيام نيقولا .

– وجاشت نفسه ، وانطلق يتكلم :

– كيف كانت الحال فى تلك الأيام ؟ فى تلك الأيام كانوا يستقلون أن ينزلوا
سراويلهم من أجل خمسين جادة ، مائة وثلاثمائة – كانوا يجلدون الناس حتى الموت! .

قال ذلك برهبة وجزع ، مازجها شئ من الفخر بروائع الماضى .

- وعندما كانوا يستعملون العصا! لم يكن يمر أسبوع دون أن يضربوا رجلاً أو رجلين من الكتيبة حتى الموت ، اليوم لا أحد يعرف ماذا تعنى العصا حقاً. أما فى تلك الأيام فقد كانت الكلمة فى أفواه الرجال دائماً أبداً : "العصا ! العصا ! " .

وأطلق جنودنا على نيقولا لقب العصا ، نيقولا يافلوقتش ، ولكن الناس كانوا يقولون دائماً نقولا العصا ، كان هذا هو اسمه الثانى ، ومضى الشيخ قائلاً .

- عندما تفكر فى تلك الأيام .. العمر انتهى ، والموت قريب ، وعندما تفكر ثانية فى تلك الأيام ينقبض صدرك . كانت الطاعة هى كل شئ ، تضرب مائة وخمسين عصا بسبب جندى (كان الرجل ملازماً وضابط صف ، وقد أصبح الآن فى رتبة رئيس) فتضربه مائتين ، ولا تشفى جروحك بذلك ولكنك تعذبه .. حرام . حرام !

كان الملازم يضرب الجندى حتى الموت ، يظل يدق بكعب البندقية أو بقبضته على موضع واحد ، على صدره أو على رأسه ويموت الرجل . ولا يسأل أحد . يموت الرجل من الضرب ، ويكتب الرئيس : "مات قضاء وقدرأ " وينتهى الأمر ، وهل كنت أعقل ذلك وقتئذ ؟ المرء يفكر فى نفسه فقط ، والآن لا أفعل إلا أن أتقلب على قبة الفرن ، ولا أقدر أن أنام ليلاً ، وأفكر وأفكر ، وأرى كل شئ بوضوح مرة أخرى . سعيد من كتب له أن يتناول القربان كما أوصى المسيح ، وينال المغفرة ، وإلا فإن الفرع يملكك ، عندما تفكر فى كل ما قاسيته ، وما قاساه أناس آخرون بسببك ، لا تحتاج إلى جحيم ، فإن ذلك شر من الجحيم ، والشيطان .

وتمثلت لخيالى الذكريات التى لا بد أن تراود الشيخ الفانى فى وحدته ، وتألّت ، فكرت فى الأشياء المخيفة التى كان لا بد أن يشارك فيها غير الضرب ، كيف كان عليه أن يطارد الناس حتى الموت بجلدهم فى الصف ، ورميهم بالرصاص ، وبالتقتيل ونهب المدن وقت الحرب (كان ممن اشتركوا فى الحملة البولندية) وسألته عن جميع هذه التفاصيل .

سألته عن الجلد فى الصف ، فحدثنى طويلاً عند هذا الإجراء المخيف ، كيف كان الرجل يجرّ مقيداً بين الجنود الذين صفوا صفين متقاربين وفى أيديهم السياط ، وكيف كانوا كلهم يضربون والضباط يمشون خلف الجنود وهو يصيحون : "اضرب بشدة اضرب بشدة ! " .

كان الرجل يصرخ بهذه الجملة فى نبرة الأمر ، فترى أنه يجد فى تذكره لهذه النبرة وإعادته لها نوعاً من اللذة .

وحدثنى عن جميع التفاصيل دون أن يبدو عليه ظلم من ندم ، وكأنه يصف كيف كانت الثيران تُذبح ولحمها يطهى .

ولما حاولت أن أوقف فيه شيئاً من الندم لكل هذه الذكريات استولت عليه دهشة لم تلبث أن تحولت إلى استنكار . قال :

– لا لا . لماذا ؟ لقد كان هذا كله عرفاً متبعاً . هل كنت مذنباً ؟ هكذا كان يقضى القانون .

وأبدى مثل هذا الهدوء والخلو من كل أسف لذكر الفظائع التى اشتراك فيها وراها تجرى ألف مرة فى تركيا وبولندا .

ماذا عسى أن يشعر الشيخ إن فهم الأمر الذى ينبغى أن يتبين له وهو على عتبة الموت : أنه ليس ثمة واسطة – ولا يمكن أن تكون – بين ضميره وبين الله فى هذه اللحظة ، وأنه لم يمكن ثمة وسيط بينهما – وما كان يمكن أن يكون – فى اللحظة التى كان يؤمر فيها أن يعذب الناس ويقتلهم ! ماذا عسى أن يشعر إن فهم أنه ليس ثمة ما يمكن أن يكفر عن البشر الذى أنزله بالناس حين كان فى مقدوره ألا ينزله بهم ! إنه فهم أن هناك قانوناً أبدياً كان يعرفه دائماً وكان لزاماً عليه أن يعرفه – القانون الذى يأمر بالحب والإحسان إلى الناس ؛ وأن ما سماه قانوناً كان خدعة كافرة سافرة ما كان ينبغى أن يخضع لها ! فظيع أن تفكر فى الصور التى تمر بعقله خلال لياليه المؤرقة على قبة القرن ، والقنوط الذى لا بد أن يشعر به لو درى أنه حين كان فى مقدوره أن يفعل الخير أو الشر للناس لم يفعل إلا الشر ، وأنه حين فهم الآن ما الخير وما الشر لم يعد فى مقدوره أن يفعل شيئاً ، إلا أن يشعر بعذاب الندم الذى لا يغنى ! إن آلامه تكون فظيعة لو درى .

ولماذا نريد أن نعذبه ؟ لماذا نوجع ضمير شيخ فان ؟ أليس الأفضل أن نهون عليه؟ لماذا ننثر الناس ونعيد ما مضى وانقضى منذ أزمان ؟

مضى وانقضى ؟ أى شئ مضى وانقضى ؟ أليكون شئ قد انقضى ونحن لم نبدأ بعد فى استئصاله وعلاجه ، بل لم نزل نتردد فى تسميته باسمه الصحيح ؟

نحن لا نشك مطلقاً أن إحراق المتهمين بالإلحاد واللجوء إلى التعذيب في التحقيق كانا قسوة وجنوناً ، وكل طفل يدرك أن هذين العاملين لم يكن لهما جدوى . ولكن رجال تلك الأيام كانوا لا يرون ذلك ، وكان العلماء الأذكىاء يقررون أن التعذيب ضرورة للمجتمع البشرى ، أو شر لا بدمنه كالجلد والرق ، وقد مضى ذلك الزمن ، وأصبحنا لا نكاد نستطيع أن نتخيل كيف كانت عقول أولئك الناس القادرين على مثل هذه الأضاليل . ولكن هذا هو الذى كان فى كل العصور ، وهذا هو الذى يكون فى عصرنا ولا ريب - إلا أننا - مثلهم - عمى عن الفظائع التى نرتكبها .

أين التعذيب عندنا ؟ وأين العبودية ؟ وأين العصا ؟ تبدو لنا هذه الأشياء كما لو كانت غير موجودة . كما لو أنها وجدت مرة ثم ذهبت مع الزمن . ولكن هذا هو ما يبدو لنا فحسب ، لأننا لا نريد أن نفهم الماضى ، بل نغمض عيوننا حتى لا نراه .

إما إذا نظرنا خلفنا إلى الماضى نظرات فاحصة ، فإن موقفنا الحاضر وأسبابه سوف تتبدى لنا ، وإذا ما سمينا الإحراق والوسم والتعذيب وساحات الإعدام والقرعة العسكرية بأسمائها الحقيقية فسوف نجد على الفور الأسماء الحقيقية للسجون والإصلاحيات والتجنيد العام للحرب ، والمدعين العموميين ورجال الشرطة ، وعندما نكف عن القول : لماذا نتذكر الأيام الخالية ؟ سنرى ونفهم ما يجرى اليوم .

عندما نرى من الجنون والقسوة أن نقطع رقاب الناس ، وأن ننتزع الحقيقة من أفواههم بكسر مفاصلهم ، سنرى مثل هذا الجنون وهذه القسوة أو أكثر منهما فى تعليق الناس على أعواد المشانق أو قذفهم فى حبس انفرادى أشبه بالموت أو أشد ، وفى البحث عن الحقيقة عن طريق المحامين المأجورين والمدعين العموميين .

وعندما نفهم أن من الجنون والقسوة قتل رجل ضال ، سنفهم أيضاً أنه أشد جنوناً ، وقسوة أن نلقى هذا الرجل فى إصلاحية للقضاء عليه قضاء مبرماً ، وعندما نفهم أن من الجنون والقسوة حشد الفلاحين للخدمة العسكرية ووسمهم بالنار كالماشية ، سنرى مثل هذا الجنون وهذه القسوة فى دعوة كل رجل فى الحادية والعشرين إلى الجندية وعندما ندرك مبلغ ما هنالك من جنون وقسوة فى نظام الحرس القديم ، سيتجلى لنا كل ما هناك من جنون وقسوة فى نظام الخفراء والدوريات .

عندما نكف أخيراً عن إغماض عيوننا عن الماضى وقول : لماذا نتذكر الأيام الخالية؟ سنرى أن لعصرنا فظائعه أيضاً ، وإن تكن فى أشكال جديدة .

نحن نقول : لقد فرغنا من كل هذا ، لم يبق ثمة تعذيب اليوم لم يبق ثمة مثيلات للداعرة "كماترين" بعشاقها المطلقى السلطان ، لم يبق ثمة عبودية ولا ضرب حتى الموت ، ولكن هذا هو ما يبدو لنا فقط ، فهناك ثلثمائة ألف رجل فى السجون والسخرة ، يُحشرون فى حجرة صغيرة متنتة ، ويموتون ميتة بطيئة جسماً وروحاً . نساؤهم وأطفالهم يتركون للجوع ، وأولئك الرجال محبوسون فى كهوف الظلم فى السجون ومستعمرات المذنبين ، ولا يفيد من الأسر القاسى المجنون إلا الحراس ، والسادة المطلقو السلطان على هؤلاء العبيد .

وهناك عشرة آلاف من "نوى الأفكار الخطرة" فى المنفى يحملون تلك الأفكار الخطرة إلى أقصى أرجاء روسيا وهم يفقدون رشدهم ويشنقون أنفسهم ، وألوف فى القلاع يقتلهم السجنانون سرّاً ويدفعونهم إلى الجنون بالحبس الانفرادى ، وملايين الرجال تُطحن أجسامهم وأرواحهم فى عبودية أصحاب المصانع . ومئات الألوف من الرجال أجسامهم كلٌ خريف يتركون أسرهم وأزواجهم الشواب ويتعلمون القتل ويسيرون بنظام نحو الانحطاط .

لا حاجة إلى ذكاء كثير لكى ترى أن يومنا مثل الأمس ، وأن عصرنا ممتلئ بالفظائع نفسها ، وأنه سيأتى يوم تثير فيها قسوتها وجنونها دهشة الأجيال القادمة . إنه المرض نفسه ، وما هو بمرض أولئك الذين يستفيدون من هذه الفظائع .

فليستفيدوا مائة مرة أو ألف مرة فليبنوا الأبراج والملاعب وليدعوا إلى حفلات الرقص وليمتصوا دماء الشعب . ليُجلد "العصاة" الناس حتى الموت وليشنق "بوييدونستوف"^(١) و«أورزفسكى» المئات سرّاً فى القلاع ، ولكن ليقفوا عند هذا الحد ، لا يُحطمن روح الشعب ولا يخدعنه بإرغامه على الاشتراك فى ذلك كله كما فعل صاحبي هذا الجندى القديم ! .

إن المرض المخيف هو فى الادعاء بأنه يمكن أن يكون ثمة قانون للإنسان أقدم أو أسمى من قانون حب الجار ؛ فى الخدعة التى تخفى عن الإنسان أنه قد يجوز له أن يفعل أشياء كثيرة ليرضى رغبات رجال آخرين ، ولكن هناك شيئاً واحداً يجب عليه بوصفه إنساناً ألا يفعله إرضاءً لرغبة إنسان آخر : وذلك أن يعمل ما نهى الله عنه ، فيعذب إخوته البشر ويقتلهم .

(١) قانونى روسى ، وصل إلى مراكز عالية فى الدولة فى عهد القيصر ألكسندر الثالث ، وأدت أفكاره المحافظة إلى اشتعال حركة الاضطهاد الدينى . (المترجم) .

منذ ألف وثمانمائة عام سأل الفريسيون : هل يجب أن يدفعوا الضرائب لقيصر :
فأجيبوا بهذه الكلمات : أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله .

ولو كان فى الناس أثارة من إيمان ، ولو كانوا يشعرون بأقل ما يجب عليهم نحو
الله لشعروا بواجبهم قبل كل شئ نحو ما علمه الله للناس بالكلمات حين قال : "لا
تقتل" وحين قال : "فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا انتم أيضاً بهم
وحيث قال "تحب جارك كنفسك" بل نحو ما نقشه الله فى قلب كل إنسان : حب الجار
والإحسان إليه ، وكراهة قتل أخيه الإنسان وتعذيبه .

لو كان الناس يؤمنون بالله ما نكلوا عن أول واجباتهم نحوه : ألا يعذبوا ولا يقتلوا ؛
ولكان للكلمات : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله - معنى واضح محدد عندهم ؛
ولقال الرجل المؤمن لقيصر أو لمن يكون : - إلا ما نهى الله عنه .

إن أراد الإمبراطور مالى فليأخذ ، منزلى ، مجهودى ، فليأخذ أطفالى ، نفسى ،
فليأخذ . فلا شئ منها لله ، أما إن أرادنى الإمبراطور على أن أرفع يدي بالعصا
وأهوى بها على ظهر جارى فهذا لله عملى هو حياتى ، هو ما أحاسب عليه أمام الله ،
وما نهانى الله عنه فلن أفعله ولو أرادته الإمبراطور ، لا أستطيع أن أوثق إنساناً أو
أسجنه أو أضطهده أو أقتله - كل ذلك هو حياتى وحياتى لله ، ولا أستطيع أن
أعطيها لغير الله.

إن الكلمات : أعطوا ما لله لله ، تعنى لنا أن نعطي الله شموعاً وصلوات ، كل ما لا
يحتاج إليه أحد فما ظنك بالله ، أما الباقي كله ، حياتنا كلها ، محراب روحنا ، كل ما
لله ، فقد أعطيناه لقيصر ، أى إننا أعطيناه لرجل كريبه بعيد (فكهذا كان اليهود
ينظرون إلى قيصر) .

أليس هذا مخيفاً ؟ أيها الناس ! تدبروا أمركم! .

ثلاثة أمثال

المثل الأول

كان هناك مرج جميل ؛ وقد نبتت فيه الحشائش ، وكان أصحاب المرج يجزونها ولكنها لا تزال تزيد . وذات يوم جاء زارع صالح حكيم إلى أصحاب المرج ونصحهم نصحاً كبيراً نافعاً ، وقال لهم أيضاً إن الحشائش يجب ألا تجزَ فإن ذلك لا يزيدها إلا انتشاراً ؛ لكن يجب أن تنزع من جذورها .

وسواء أنسى أصحاب المرج من بين ما وصاهم به الزارع الصالح وصيته لهم ألا يجزوا الحشائش بل ينزعوها من الجذور ، أم فكروا لأنفسهم ورأوا ألا يتبعوا هذا الأمر ، فانهم على كل حال أهملوا النصيحة ألا يجزوا الحشائش بل ينزعوها من الجذور . وعملوا كأنهم لم يسمعوا هذه النصيحة قط ، واستمروا يجزون الحشائش ويساعدون على نموها بذلك ، ومع أن الناس ظلوا في السنين التالية يأتون ويذكرون أصحاب المرج بنصيحة الزارع الصالح الحكيم ، فإن هؤلاء لم يكفوا عن عملهم ، واستمروا على ما كانوا عليه ، حتى أصبح جز الحشائش عند ظهورها عادة متبعة ، بل شعيرة مقدسة والمرج لا يزال يكتظ بالحشائش حتى غلبت عليه ، وشكا الناس وفكروا في وسائل كثيرة للإصلاح وكانت الطريقة الوحيدة التي لم يستعملوها هي تلك التي نصح بها الزارع الصالح منذ سنين طويلة ، ثم اتفق آخر الأمر أن رجلاً لاحظ ما صار إليه المرج من حال سيئة ، واكتشف بين وصايا الزارع المنسية قوله إن الحشائش يجب ألا تجز بل تقتلع من الجذور ، فأوضح لأصحاب المرج أنهم يعملون عملاً غير رشيد ، وأن الزارع الصالح الحكيم قد بين لهم منذ زمن طويل خطأهم فيما يعملون .

فماذا حدث ؟

لم يختبروا صدق النذير ، ليكفوا عن جز الحشائش إن كان صحيحاً ، أو يثبتوا للرجل فساد زعمه إن كان خطأ ، ولم يقرروا أن وصايا الزارع الصالح الحكيم كانت بغير أساس ، أو أنهم غير ملزمين باتباعها ، لم يفعلوا شيئاً من ذلك ، ولكنهم ضاقوا بالنذير وأغلظوا القول للرجل ، ودعاه بعضهم ملئناً مغروراً لأنه حسب نفسه الوحيد بين البشر الذي فهم وصية الزارع ؛ ودعاه غيرهم متنبئاً أفاكا خبيثاً : ونسى آخرون أنه لم يأت برأى من عنده ، بل ذكر بوصايا الزارع الحكيم الذي يبجله الجميع ،

فزعموه شخصاً خطراً يريد نشر الحشائش وحرمان الناس من مرجهم ، فهو يقول إن الحشائش يجب ألا تجز ، وإذا لم نقض عليها - هكذا كانوا يتكلمون ، متناسين أن الرجل لم يقل إن الأعشاب يجب ألا يقضى عليها ، بل إنها يجب أن تقطع بدلاً من أن تجز - فإن الحشائش سوف تزحم المرج وتلفه إتلافاً ، ولماذا أعطينا المرج إن كنا سنزرعه بالحشائش ؟ .

ورسخ الزعم بأن هذا الرجل ملثث أو أفاك ، أو مرید للبشرية الشر ، فكان كل واحد ينبذه ويستهزئ به ومهما أعلن الرجل لم يرد نشر الحشائش بل على العكس كان يرى القضاء عليها من أول ما ينبغى أن يشتغل به الفلاح ، كما علم الزارع الصالح الحكيم الذى لم يكن هو إلا مردداً لكلماته ، مهما كرر الرجل هذا القول فإن الناس لم يصغوا إليه ، إذ كان قد تقرر أنه يسئ تأويل كلمات الزارع الصالح ، أو إنه شرير يحض الناس على حماية الحشائش وإنمائها بدلاً من القضاء عليها .

كان هذا مئلى حين أشرت إلى وصية الإنجيل : " لا تقاوموا الشر . " لقد علم المسيح هذه الوصية ، علمها من بعده كل تلاميذه المخلصين وسواء أهمل الناس الوصية أم لم يفهموها أم شق عليهم أن يطيعوها ، فقد كانت كلما مر عليها الزمن ازداد الناس لها نسياناً ، وازدادت حياتهم عنها بعداً ، حتى بلغ الأمر ما هو عليه الآن ، فأصبحت هذه الوصية تبدو جديدة لم يسمع بها وغريبة بل حمقاء ولقيت ما لقي الرجل الذى رد الناس إلى الوصية القديمة ، وصية الزارع الصالح الحكيم ، ألا يجزوا الحشائش بل ينتزعوها من الجذور .

وكما تناسى أصحاب المرج أن النصيحة لم تكن بترك القضاء على الحشائش بل بأن يقضوا عليها بطريقة رشيدة ، وقالوا : لن نسمع لهذا الرجل ، إنه ملثث ، يأمرنا ألا نجز الحشائش بل نتركها تنمو - كذلك قال الناس حين سمعوا نذيرى أن تعليم المسيح يقضى ألا يقاوم الشر بالعنف بل يقتلع فروعاً وأصولاً بالحب : لن نسمع لما يقول ، إنه ملثث ، يشير علينا بأن لا نقاوم الشر حتى يتغلب الشر علينا .

لقد قلت إن تعليم المسيح يقضى أن الشر يجب ألا يدفع بالشر ، وإن كل مقاومة عنيفة لا تنتج إلا زيادة الشر ، وإن تعليم المسيح يقضى بأن الشر لا يمحوه إلا الخير ، باركوا لا عنيكم ، وصلوا لأجل الذى يسيئون إليكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، أحبوا أعداءكم فلا يكون لكم عدو .

لقد قلت إن تعليم المسيح يقضى بأن حياة الإنسان كلها ليست إلا صراعاً مع الشر ، ومحاربة للشر بالعقل والحب ، ومن بين وسائل الحرب جميعاً نفى المسيح الوسيلة الوحيدة غير الرشيدة : محاربة الشر بالعنف التى تعنى مقاومة الشر بالشر .

وفهمت كلماتى هذه كما لو كنت قلت إن المسيح علمنا ألا نقاوم الشر ، ووقع هذا التحريف لكلماتى وكلمات المسيح موقع الرضا والترحيب من أولئك الذين بنيت حياتهم على العنف ، وهم من أجل ذلك يعتزون بالعنف ، وسلمت الكافة بأن التعليم : لا تقاوموا الشر ، تعليم خاطئ أحقق كافر خطر من كل وجه ، ومضى الناس ينتجون الشر زاعمين أنهم يقضون عليه .

المثل الثانى

كان الناس يتجرون فى الدقيق والزبد واللبن وسائر المأكولات . وأراد كل رجل أن يربح أكثر من جاره ويثرى فى أقصر وقت ممكن ؛ فجعلوا يخلطوان بضائعهم بشئ العناصر الرخيصة الضارة ؛ يلقون الجبش والجير فى الدقيق ، ويضعون الدهن فى الزبد والماء والطباشير فى اللبن ، وسارت الأمور كما أحبوا ما دامت الأطعمة بعيدة عن الشارين ، فباع التجار بضائعهم لأصحاب الدكاكين ، وباعها أصحاب الدكاكين للباعة الجوالين .

وكانت هناك متاجر ودكاكين كثيرة ، فبدت التجارة رائجة واطمأن التجار ورضوا ، ولكن المشترين فى المدينة - وهو الذين كانوا لا ينتجون لأنفسهم ما يحتاجون إليه ، وكانوا من ثمة مضطرين إلى شراء كل شئ - أصابهم الضرر ، ووجدوا أنفسهم فى ضيق .

كان الدقيق رديئاً ، وكذلك كان الزبد واللبن ، ولكن الشارين فى المدينة مضوا يقبلون هذه البضائع المغشوشة إذ لم يكن فى أسواق المدينة أطعمة غيرها ، وعزوا سوء مذاق الطعام وأضراره إلى أنفسهم وإلى الخطأ فى إعداد ما يأكلون غير أن أصحاب الدكاكين مضوا يزيدون المواد الرخيصة فى بضائعهم .

وطال الزمن على هذه الحال ، وسكان المدينة كلهم يعانون منها ، ولكن أحدهم لا يجرؤ على التصريح بما يعانىه .

ثم جاءت امرأة من الريف كانت تقدم لأسرتها دائماً أطعمة مصنوعة فى البيت ، وكانت هذه المرأة قد قضت عمرها تعد الطعام ، وإن لم تكن طاهية من الطراز الأول فقد كانت على أية حال تعرف كيف تخبز العيش وتطهو وجبة طيبة .

اشتريت هذه المرأة أطعمة من المدينة ، وبدأت تخبز وتطهو . فكان العيش لا يصلح عند الخبز بل يتشقق ويتفتت ، والفطائر المنضجة فى الدهن تخرج كريهة المذاق ، وإذا تركت المرأة اللبن يتخثر ولم تتكون عليه قشدة ، فارتابت المرأة على الفور فى جودة الأطعمة ، وفحصتها بعناية ، فتحقق ارتياها ، إذ وجدت فى الدقيق جيئاً ، وفى الزبد دهناً ، وفى اللبن طباشيراً ولما ثبت لها أن جميع الأطعمة فاسدة ذهبت إلى الدكان ، ووبخت الباعة توبيخاً مرّاً ، وطالبتهم بأن يبيعوا بضائع جيدة صحية غير مغشوشة

أو يتركوا التجارة ويغلقوا دكاكينهم ، ولكن أصحاب الدكاكين لم يبالوا بالمرأة ، وقال لها إن المدينة كلها لم تزل تشتري منهم منذ سنين كثيرة ، بل إنهم ظفروا بالجوائز تقديراً لبضائعهم ، وأشاروا إلى الأوسمة على لافتاتهم .

وأصرت المرأة قائلة : لاحاجة لى بالأوسمة ، إن حاجتى إلى أطعمة جيدة ، حتى إذا أكلت أنا وأبنائى لم تضر معدائنا .

قال أصحاب الحوانيت : مالك يا خالة ؟ لعلك لم ترى فى حياتك دقيقاً جيداً ، ولا زبدة جيدة - وأخذوا يعرضون عليها الدقيق الأبيض الناصع فى صناديقه المدهونة بالزيت - والزبدة المقلدة الحقيرة المنضدة فى أطباق جميلة ، والسائل الأبيض فى القوارير اللامعة الشفافة .

فأجابت المرأة : أنا أعرف حقيقة هذا ، لأنى لم أفعل شيئاً طول حياتى إلا الحصول على طعامى لآكله أنا وأطفالى ، إن بضائعكم مغشوشة وهذا هو البرهان - وأرتهم الخبز الرديئ ، والدهن فى الفطائر ، والطبقة الرأسية فى أسفل اللبن - إن بضائعكم يجب أن ترمى فى النهر ، أو تحرق ، وتحل محلها أشياء صالحة .

وظلت المرأة واقفة أمام الدكان لا تكف عن الصياح ، وكانت تردد الشئ نفسه لكل شارٍ ، يمر ، حتى بدأ الزبائن يساورهم الشك .

ورأى أصحاب الدكاكين أن المرأة الجسور قد تضر بتجارتهم فقالوا للزبائن : أنظروا يا قوم إلى هذه المرأة المجنونة ، تريد أن يموت الناس من الجوع ، تريد أن يرمى الطعام فى النهر أو يحرق وماذا تأكلون إن فعلنا كما تقول ، ولم نعد نبيع لكم طعاماً ؟ لا تسمعوا لها إنها ريفية جاهلة لا تعرف شيئاً عن الأطعمة ، بل تنتقدنا لأنها تحسدنا ، لأنها فقيرة تريد أن يكون كل إنسان آخر فقيراً مثلاً .

هكذا خاطب أصحاب الدكاكين الجمع الذى احتشد ، مخفين أن المرأة إنما أرادت إتلاف الأطعمة لتحل أشياء جيدة محل الرديئة .

وثار الجمع بالمرأة وراحوا يسلقونها بألسنتهم ، ومهما قالت إنها لم ترد إتلاف المؤن بل على العكس إنها أنفقت كل عمرها تعد الطعام لغيرها ولنفسها ، وإنها لم تطلب إلا أن يمتنع الناس الذين تكفلوا بتموين إخوانهم عن تقديم السم لهم فى الأشياء الضارة التى يقدمونها على أنها طعام - مهما تكلمت أو قالت فما كان الناس ليسمعوا ، فقد تقرر أنها تريد أن تسلب الناس أقواتهم .

كان هذا مَثَلِي ومَثَل أفكاري عن العلم والفن في عصرنا . فقد عشت على هذا الطعام عمري ، وجهدت أن أطعم الآخرين منه كلما استطعت متقناً أو غير متقن ، وبما أني أراهما طعاماً لا متجراً ولا ملهى ، فأنا أعرف معرفة لا شك فيها متى يكون الطعام طعاماً ومتى لا يكون طعاماً إلا بمظهره ، وعندما ذقت الطعام الذي يباع في سوق العلم والفن في عصرنا وحاولت أن أطعم منه صغارى وجدت أن معظمه ليس بطعام ، وعندما قلت إن العلم والفن اللذين يبيعهما البائعون في سوق الفكر دهن أو على الأقل مغشوشان بأشياء غريبة عن العلم الحقيقي والفن الحقيقي ، وإنني عرفت ذلك لأن المنتجات التي اشتريتها من سوق الفكر كانت عسيرة الهضم بل ضارة بي وبأهلي- عندما قلت ذلك راح الناس يوبخونني ويشتمونني ويملئون أذني بأنني ما قلته إلا لأنني جاهل لا أعرف كيف أتناول هذه الأشياء الرفيعة ، ولكنني عندما بدأت أثبت أن الناس الذين يتجرون في هذه البضائع الفكرية لا يكفون عن اتهام بعضهم البعض بالغش ، وعندما نبهت إلى أن شتى الأشياء الرديئة الضارة كانت تقدم للناس دائماً تحت اسم العلم والفن ، وأن ثمة خطراً كبيراً في أن يكون الأمر في أيامنا كما كان بالأمس ، وأن الأمر جد كل الجد ، وأن سم الفكر أضر ألف مرة من سم الجسم ، ولذلك يجب أن تُفحص المنتجات الفكرية التي تقدم لنا على أنها طعام أتم الفحص ، وينفى منها كل زائف ضار- عندما قلت ذلك لم يكتب إنسان واحد بياناً واحداً أو كتاباً واحداً ليدحض كلماتي . ولكن الناس في الدكاكين صاحوا بي كما صاحوا بالمرأة : إنه مجنون ! يريد القضاء على العلم والفن وهما حياتنا . احذروه ولا تسعموا له ! تعالوا إلينا ، إن لدينا أحدث البضائع الأجنبية .

المثل الثالث

كان السائحون يقطعون الطريق . ثم اتفق أنهم خرجوا عن الجادة ، وأصبح الممر الذى عليهم أن يسيروا فيه خشناً ، يمر خلال مستنقعات وأدغال وأشواك ، وتعترضه عروق من الخشب ؛ والتقدم لا يفتأ يزداد عسراً .

وهنا انقسم السائحون طائفتين : طائفة قررت أن تواصل السير فى الاتجاه الذى أخذوا فيه ، وقالوا لأنفسهم وللآخرين إنهم لم يضلوا قط عن الوجهة الصحيحة ، وهم لا شك واصلون إلى الغاية من رحلتهم ، وطائفة قررت أنهم يجب أن يبحثوا عن الطريق ، لأن الاتجاه الذى يسيرون فيه قد تبين خطؤه ، ولولا ذلك لبلغوا مقصدهم منذ زمن طويل ، ولكنهم ليجتهدوا عن الطريق يجب أن يسرعوا بقدر ما يستطيعون فى كل اتجاه وهكذا تفرق السائحون على حسب الرأيين : فريقاً قرر أن يمضى قدماً ، وفريقاً قرر أن يتقدم فى كل اتجاه . وكان هناك رجل واحد لم يوافق على أى من الرأيين ، فقال إن عليهم أن يتقدموا فى الاتجاه السابق نفسه . أو يهرولوا فى كل اتجاه أملاً فى العثور على الطريق الصحيح ، عليهم أن يقفوا ليفكروا فى الأمر ، وبعد أن يفكروا فيه يتبعون أحد السبيلين ، ولكن المسافرين كانوا مهتاجين من جَوْلَانِهِمْ جزعين لحالتهم ، شديدي الرغبة فى تعليل أنفسهم بالأمل أنهم لم يضلوا ، بل انحرفوا عن الطريق قليلاً وسرعان ما سيهتدون إليه ؛ وكانوا قبل ذلك كله حريصين غاية الحرص على أن يهدئوا خوفهم بمواصلة السير ، فأنكرت الطائفتان رأى الرجل ، وعنفوه وازدروه وقال جماعة منهم إن هذه النصيحة هى خطة العجز والجبن والكسل .

وقال غيرهم : ما أحسنها طريقة أن نصل إلى غايتنا بالوقوف هنا والكف عن السير ! وقال آخرون : هذا هو معنى أن تكون إنساناً ، لهذا منحنا القوة ، ولكى نحارب ونصل ، ونتغلب على الصعاب بدلاً من أن نخضع ونستكين .

ومهما قال الرجل الواحد الذى خرج على الجماعة إن السير فى الاتجاه الخطأ لن يقربهم من غايتهم بل سوف يبعدهم عنها ، وإن التقلب من وجهة إلى وجهة لن يبلغهم مقصدهم أيضاً ، وأن الطريقة الوحيدة لبلوغ الغاية هى أن يستنبؤوا الشمس والنجوم عن وجهتهم ثم يسيروا فى هذه الوجهة ، وإنهم كى يفعلوا ذلك يجب أن يقفوا - يقفوا لا ليجمدوا بل ليجدوا الطريق الصحيح ثم يتقدموا على هدى فى هذا الطريق ، ولكنهم ليفعلوا كلاً من هذين الأمرين يجب عليهم أولاً أن يقفوا ويفكروا - مهما قال ذلك فإن أحداً لم يصنع إليه .

ومضت الطائفة الأولى فى الاتجاه الذى أخذت فيه ، وانطلقت الطائفة الثانية من ناحية إلى ناحية على غير هدى ، ولكن إحداهما لم تقترب من هدفهم المشترك قليلاً ولا كثيراً بل إنهم لم يخرجوا من الأدغال والأشواك ، وما برحوا يتخبطون بينها .

هذا مَثَلٌ حين حاولت أن أبدى شكى فى أن الطريق الذى أدى بنا إلى حرج المسألة العمالية ومستتقع التسليح المستمر حيث نؤشك أن نتردى لم يكن هو الطريق الذى ينبغى أن نقطعه ، واعتقادى أن من الجائز جداً أن نكون قد خرجنا عن الجادة ، وأننا لذلك يجب أن نتوقف عن الجولان الذى تبين أنه يطوح بنا ، ونسأل أنفسنا قبل كل شئ راجعين إلى الأساس الشامل الخالد من الحق المنزل : هل نحن نسير فى الاتجاه الذى نوبناه ؟

ولم يقدم أحد جواباً عن هذا السؤال ، ولم يقل أحد: "إننا غير مخطئين فى إتجاهنا إننا لا نتخبط على غير هدى بل نحن على ثقة من سبيلنا لكيت وكيت من الأسباب" ، ولم يقل إنسان : "لعلنا أخطأنا السبيل" ولكن لدينا وسيلة لا تخيب لتصحيح أخطائنا دون أن نكف عن السير . " لم يقل أحد شيئاً من هذا ، بل استشاطوا كلهم غضباً ، وأظهروا أنهم جرحوا جرحاً عميقاً ، وأسرعوا يتصايحون ليغرقوا صوتى الوحيد : ألا يكفيننا ما نحن فيه من كد وتعب حتى يأتى رجل يدعو إلى الجمود والخمول وترك العمل ! « بل إن بعضهم أضافوا متعجبين : « الجمود » وصاحت الطائفتان – من أمنت بأن الخلاص فى مواصلة السير فى الاتجاه نفسه مهما يكن ، ومن رأت الخلاص فى التقدم على غير هدى فى كل اتجاه : « لا تسعموا له – تقدموا ! خلفنا ! » .

لماذا نقف ؟ لماذا نفكر ؟ أسرعوا ، سينتهى كل شئ كما ينبغى .

لقد خرجت البشرية عن الجادة ، ولعلك تحسب أن أول جهد وأهم جهد يجب بذله ليس الإسراع فى التقدم الذى أدى بنا إلى ما نحن فيه من شر ، بل الوقوف ، ولعلك تحسب أن الوقوف وحده هو الذى يمكن أن يتيح لنا فهم موضعنا وكشف الاتجاه الذى يجب أن نتبعه لنبلغ السعادة الحقيقية ، لا سعادة الأفراد ولا سعادة جماعة من الجماعات ، بل السعادة الحقيقية الشاملة ، سعادة البشرية التى يسعى إليها كل الناس ، ويتوق إليها قلب كل إنسان ، لكن ماذا يحدث ؟

ينظر الناس فى كل فكرة يمكن أن تخطر على البال ، إلا الفكرة الوحيدة التى قد تكون فيها نجاتهم – أعنى أن يقفوا ولو لحظة ، ولا يمضوا يزيدون متاعبهم ببذل

الجهـد فى اتجاه خاطئ ، يشـعر الناس بتعاسة حالتهم ، ويجربون كل وسيلة للخلاص ، ولكنهم يـأبون كل الإباء أن يفعلوا الشئ الوحيد الذى لا شك أنه ينقذهم ، وإذا نصحتهم أن يفعلوه أسخطهم هذا النصـح مالا يسخطهم أى شئ آخر .

إن كان ثمة بقية شك فى إننا قد ضللنا ، فإن موقف الناس إزاء النذير أن يتدبروا أمرهم ، يثبت بغاية ما يكون من الوضوح مبلغ ضلالنا المؤس ، ورضياعنا المخيف .

الملك أسرحدون

كان الملك أسرحدون ملك أشور قد فرغ من غزو مملكة الملك ليلي ، ونهب كل المدن وأحرقها وحمل جميع السكان إلى بلاده، وقتل المحاربين، ووضع الملك ليلي في قفص .
بينما كان الملك أسرحدون راقداً على سريره ليلاً ، أخذ يفكر كيف يقتل الملك ليلي وفجأة سمع صوتاً بالقرب منه ، ففتح عينيه ورأى شيخاً معمرأ ذا لحية طويلة شهباء وعينين وديعتين قال الشيخ المعمر :

– هل تريد إعدام ليلي ؟

فأجاب الملك :

– نعم ، غير أني لم أهتم بعد إلى القتلة التي سأنزلها به .

قال الشيخ المعمر :

– ولكنك أنت ليلي .

قال الملك :

– هذا غير صحيح ، أنا أنا ، ويلي هو ليلي .

قال الشيخ المعمر :

– أنت ويلي واحد ، إنك مخطئ إن حسبت أنك لست ليلي ، وأن ليلي ليس إياك .

قال الملك :

– أنا مخطئ . ألسن راقداً هنا على سرير وثير ، يحيط بي العبيد الذين يطيعون أمري ؟ ألسن على أن أولم لأصدقائي غداً كما فعلت اليوم ، بينما يقبع ليلي كطائر في قفص ، وغدا يتلوى على خشبة التعذيب ، ويدلع لسانه حتى يموت وتمزق الكلاب لحمه؟ قال الشيخ المعمر :

– إنك لا تستطيع القضاء على حياته .

قال الملك :

- والأربعون ألف محارب الذي قتلتهم وكدستهم كالجبل ؟ إنتى حى وهم لا وجود لهم ، أما ترى أنى قادر أن أقضى على الحياة ؟

- وأنى علمت أنهم غير موجودين ؟

- إنى لا أراهم ، وفوق هذا إنهم قاسوا العذاب وأنا لم أقاسه . كان مصيرهم سيئاً ومصيرى حسناً .

- هنا أيضاً تخطيء . لنفسك سببت الألم لا لهم .

- قال الملك :

- أنا لا أفهمك .

- أتريد أن تفهم ؟

- نعم أريد ذلك .

فقال الشيخ المعمر :

- إذاً تعال ، وأشار إلى حوض ماء .

فنهض الملك وذهب إلى الحوض .

- اخلع ثيابك واخط فى الحوض .

ففعل أسرحدون كما أمره الشيخ المعمر .

قال الشيخ المعمر وقد غرف ماء فى إناء :

- إذا بدأت أصب الماء فوق رأسك الآن فاحن رأسك تحته .

وأمال الشيخ الإناء فوق رأس الملك ، فأحنى الملك رأسه تحته .

وما كاد الملك أسرحدون يحنى رأسه حتى شعر أنه ليس أسرحدون بل شخصاً آخر ؛ وفى اللحظة التى شعر فيها أنه شخص آخر رأى نفسه راقداً على سرير فاخر وإلى جواره امرأة جميلة .

ولم يكن قد رأى هذه المرأة قط ، ولكنه علم أنها زوجته ، ونهضت المرأة وقالت له:

ليلى ، يا زوجى العزيز ، لقد تعبت من عناء الأيام الماضية ، ولذلك نمت أكثر من عادتك ، ولكنى حرصت نومك ولم أوقظك ، غير أن الأمراء ينتظرون الآن فى البهو الكبير ، فارتد ثيابك واخرج إليهم .

وعرف أسرحدون من هذه الكلمات أنه ليلى ، فلم يدهش بل أدهشه أنه لم يعرف ذلك من قبل ، ونهض ، وارتدى ثيابه ، ودخل البهو الكبير حيث كان الأمراء فى انتظاره.

وحيا الأمراء ملكهم ليلى بانحناءات عميقة ، ثم ظلوا قائمين حتى أمرهم فاتخذوا مجالسهم أمامه ، وبدأ الكلام أكبرهم سناً .

لقد تجاوزت إهانة الملك الشرير أسرحدون حد الاحتمال ووجب إعلان الحرب .

ولكن ليلى لم يوافق ، بل أمر بإيفاد الرسل إلى أسرحدون ليحتكموا إلى ضميره ؛ وصرف ليلى الأمراء ثم عين رسله من الأشراف ولقنهم تفصيلات الرسالة التى كان عليهم أن يحملوها إلى الملك أسرحدون .

ولما فرغ من ذلك ، خرج أسرحدون ، الذى كان يشعر بأنه ليلى ، إلى الجبال لصيد حمر الوحش ، وابتسم له الحظ فقتل بنفسه حمارين ، ثم عاد إلى داره وأكل وشرب مع أصحابه وشاهد رقصات الجوارى .

وفى اليوم التالى نزل كعادته إلى ساحة القصر حيث كان أصحاب المظالم والشاكون والمتهمون فى انتظاره ، فعقد مجلسه ، ثم خرج ثانية إلى الصيد وهو رياضته المفضلة ، ووفق فى ذلك اليوم إلى قتل لبؤة عجوز وأخذ شبليها .

وبعد الصيد أكل وشرب ثانية مع أصحابه ، واستمتع بالموسيقى والرقص ، وأمضى المساء مع زوجته المحبوبة .

وكذلك مرت الأيام والأسابيع ، وهو ينتظر عودة الرسل الذين بعثهم إلى الملك أسرحدون ، الرجل الذى كانه فى وقت من الأوقات .

وأخيراً عاد الرسل بعد شهر ، وقد جدعت أنوفهم واصطلمت أذانهم .

وبعث الملك أسرحدون إلى ليلى أن ما حدث لرساله سيحدث له أيضاً إن لم يسارع بإرسال جزية من الذهب والفضة وخشب السرو ، وإن لم يحضر بنفسه إظهاراً لطاعته.

ودعاً ليلي - الذي كان أسرحدون في وقت من الأوقات - أمراءه ثانية وشاورهم فيما يجب عمله فاتفق الجميع على أنهم يجب ألا ينتظروا هجوم أسرحدون بل يغزوا بلاده ، ووافق الملك ، وجعل نفسه على رأس جيشه ، وخرج للقتال ، وواصلوا سيرهم سبعة أيام ، والملك يعرض جيشه كل يوم ، ويثبت عزائم جنده .

وفي اليوم الثامن التقى جيشه بجيش أسرحدون في الوادي الأفيع على ضفاف النهر ، وأبلى جنود ليلي بلاء حسناً ولكن ليلي (الذي كان أسرحدون في وقت من الأوقات) رأى العدو ينحدر كالنمل من على الجبال ، ويكتسح السهول ، ويوقع بجيشه فقذف بنفسه في عريته الحربية إلى أتون المعركة ، وهو يطعن في العدو ويمزق ، ولكن مقاتلة ليلي كانوا مئات ، ومقاتلة أسرحدون ألفاً وشعر ليلي بنفسه يُجرح ويؤسر .

ومشى تسعة أيام مقيداً في السلاسل مع غيره من الأسرى ، بين جنود أسرحدون ، وفي اليوم العاشر أحضر إلى نينوى ، ووضع في قفص . وكان ليلي يقاسى عذاب الجوع ولهيب الجروح ولكن آلام الذل والقهر كانت عليه أقسى ، فقد وجد نفسه عاجزاً عن أن يجزى عدوه عما أنزله به من شر .

شيء واحد كان يستطيع أن يفعله : ألا يسمح لعدوه أن يلتذ بعذابه ، ولهذا قرر بعزم رجل أن يتحمل كل ما يحدث له دون أن يشكو .

وظل عشرين يوماً في قفصه ينتظر الموت ، ورأى أقاربه وأصدقائه يؤخذون إلى ساحة الإعدام ، وسمع أنين الذين قطعت أيديهم وأرجلهم أو سلخ جلدهم وهم أحياء ، فلم يبداً انزعجاً ولا شفقة ولا خوفاً ورأى الخصيان يقودون زوجته المحبوبة في السلاسل ، وعرف أنهم يأخذونها لتكون جارية لأسرحدون فتحمل ذلك أيضاً دون أن يشكو .

ثم فتح جلادان القفص ، وقيدا يديه من خلفه بسير ، وقاداه إلى ساحة الإعدام المخضبة بالدماء ، ورأى خشبة التعذيب الدامية التي انتزع من فوقها جسد صديقه منذ لحظات ، وعرف أنهم لم يخلوا الخشبة إلا ليعدموه .

ونزعت عنه ملابسه ، وارتعد ليلي لنحول جسمه الذي كان فيما مضى قوياً جميلاً .

وأمسك جلادان جسمه من حرقتيه ، ورفعاه وهماً بوضعه على الخشبة .

وقال ليلي لنفسه : الموت أمامي ، الفناء ! ونسى عزمه أن يحتفظ بهدوء الرجولة حتى النهاية ، فبكى وسأل العفو ، ولكن أحداً لم يسمعه .

قال لنفسه : ولكن هذا مستحيل لابد أنى نائم هذا حلم ، وهمٌ ليستيقظ ، قال لنفسه : ويعد فأنا لست ليلى ، إنتى أسرحدون .

وسمع صوتاً يقول : " أنت ليلى ، وأنت أسرحدون . « وشعر بأن تنفيذ الإعدام يبدأ ، فصرخ ، ورفع رأسه من الحوض ، وكان الشيخ المعمر منحنيّاً فوقه يصب بقية الماء من الإناء على رأسه .

قال أسرحدون :

– ما أقسى العذاب الذى كابدته ! وما أطوله !

فسأل الشيخ المعمر :

– ما أطوله ؟ إنك لم تزد على أن حنيت رأسك ، وسرعان ما رفعته ثانية ، انظرا ! إن الماء فى الإناء لم يفرغ بعد هل تفهم الآن ؟

ولم يحر أسرحدون جواباً ، ولكنه نظر إلى الشيخ المعمر فى فزع ومضى الشيخ المعمر يقول :

– هل تفهم الآن ليلى وإياك واحد ، وأن المقاتلة الذين أسلمتهم إلى الموت هم معك واحد ، وليس المقاتلة فحسب بل الحيوانات التى قتلتها فى صيدك وأكلتها فى ولائكم ؛ لقد كنت تحسب أن الحياة فىك أنت وحدك ، ولكننى مزقت قناع الخطأ ، فرأيت أنك أوقعت بنفسك كل شر أوقعته بغيرك ، هناك حياة واحدة فى كل واحد ، وأنت بمفردك لست إلا جزءاً من تلك الحياة ، وفى ذلك الجزء وحده ، فىك أنت ، يمكنك أن تجعل الحياة خيراً أو شراً ، أعظم أو أحقر . يمكن أن تجعل الحياة خيراً فى نفسك بأن تهدم الأسوار التى تفصل حياتك عن حياة سائر الكائنات ، وتتنظر إلى سائر الكائنات كما تنظر إلى نفسك ، وتحبهم ، ولكن ليس فى مقدورك أن تقضى على الحياة فى الكائنات ، غيرك فحياة الكائنات التى قتلتها قد غابت عن بصرك ولكنها لم تنقطع عن الوجود . لقد حسبت أن تطيل حياتك وتقصر حياة غيرك ، ولكنك لا تستطيع ذلك فعند الحياة لا زمان ولا مكان ، الحياة لحظة ، والحياة ألف سنة ، وحياتك وحياة كل كائن ظاهر أو خفى فى العالم واحد ، إننا لا نستطيع القضاء على الحياة ولا تحويلها ، فليس هناك إلا حياة واحدة ، وكل ما عدا ذلك باطل .

هكذا تكلم الشيخ المعمر ، ثم اختفى .

وفى الصباح أمر الملك أسرحدون بإطلاق سراح ليلى وجميع الأسرى ، وأمر
ألا يُعدم أحد بعد ذلك .

وفى اليوم التالى دعا ابنه أشور بانيبال وسلم إليه العرش ، أما هو فخرج إلى
الصحراء ، وتأمل فيما تعلمه ، ثم راح يطوف بالمدن والقرى يعظ الناس أن الحياة كلها
واحدة ، وأن الناس لا يسيئون إلا إلى أنفسهم حين يفكرون فى إلحاق الأذى بغيرهم .

ما به حياة الناس

نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة ، فمن لا يـ
أخاه يبق في الموت (يوحنا ١ : ٣ : ١٤)

وأما من كان له معيشة العالم ونظر أخاه محتاجاً وأغلق أحشاءه عنه فكيف تـ
محبة الله فيه (٣ : ١٧) .

يا أولادى لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق (٣ : ١٨) .

لأن المحبة هى من الله وكل من يحب فقد ولد من الله ويعرف الله (٤ : ٧) .

الله لم ينظره أحد قط ، إن أحب بعضنا بعضاً فالله يثبت فينا محبته قد تكلمت
فينا (٤ : ١٢) .

الله محبة ومن يثبت فى المحبة يثبت فى الله والله فيه (٤ : ١٦) .

إن قال أحد إنى أحب الله وأبغض أخاه فهو كاذب ؛ لأن من لا يحب أخاه الذى
أبصره كيف يقدر أن يحب الله الذى لم يبصره (٤ : ٢٠) .

كان صانع أحذية يسكن مع زوجته وأبنائه فى منزل أحد الفلاحين.

لم يكن له منزل ولا أرض ، وكان يعول نفسه وأسرته من عمل يديه .

وكان الخبز غالباً والعمل رخيصاً ، فكان يأكل ما يكسبه .

وكان للزوج والزوجة معطف واحد من جلود الضأن يتبادلانه بينهما . وحتى هذا المعطف كان رثاً ممزقاً ، وكان صانع الأحذية قد نوى منذ عامين أن يشتري جلود ضأن ليتخذ منها معطفاً جديداً .

وعندما دخل الخريف كان صانع الأحذية قد جمع مبلغاً صغيراً من النقود : فكان عند زوجته ثلاثة روبلات فى درجها ، وكان فلاحو القرية مدينين له بخمسة روبلات وعشرين كويكا .

وذات صباح ذهب صانع الأحذية مبكراً إلى القرية ليشتري الجلود فلبس سترة زوجته المبطنة فوق قميصه ، وقفطانه القماش فوق السترة ، ودس الورقة ذات الروبلات الثلاثة فى جيبه ، واتخذ عصا من فرع شجرة ، وانطلق بعد الإفطار إلى القرية . قال لنفسه : سأحصل على خمس روبلات من الفلاحين ، وأضعها على الثلاثة التى معى ، وأشتري جلوداً للمعطف .

ووصل صانع الأحذية إلى القرية ، وذهب إلى أحد الفلاحين فلم يكن الرجل فى المنزل ، ووعدت الزوجة أن تبعث رجلها بالنقود قبل أن ينتهى الأسبوع ولكنها لم تعط صانع الأحذية شيئاً فذهب إلى فلاح ثان ، فحلف هذا بكل مقدس أنه لا يملك نقوداً . ولم يدفع إلا عشرين كويكا فى إصلاح فتق ، فحدث صانع الأحذية نفسه أن يشتري جلود الضأن بالنسيئة ، ولكن الدباغ أبى أن ينسئه ، قال :

- أحضر النقود واختر ما تشاء ، أنا أعلم كيف يضطر الرجل الجرى وراء ديونه .

فلم يبق لصانع الأحذية إلا أن يعود فارغ اليدين ، وكان كل ما حصل عليه هو العشرون كويكا أجر إصلاح الفتق ، مع حذاء قديم من اللباد لأحد الفلاحين أخذه كي يهيئه له نعلأ .

وأنفق صانع الأحذية العشرين كويكا - من ضيقه - فى شرب الخمر ، وذهب إلى بيته بغير جلد الضأن ، لقد كان يشعر بالبرد فى الصباح ، أما الآن بعد أن شرب الخمر فقد شعر بالدفء دون جلد ضأن . وعلى ذلك سار فى طريقه يضرب الحصى المتجمد بعصاه فى إحدى اليدين ، ويطوح حذاء اللباد فى اليد الأخرى ، ويقول لنفسه : "إننى أشعر بالدفء وإن لم يكن على جلد ضأن ، كأس أو كأسان تجريان فى عروقك ، فما الحاجة إلى جلد ضأن ؟ أنا سائر فى طريقى ، لا أفكر فى أحزائى هكذا أنا . وما حاجتى إلى مزيد ؟ أنا لا احتاج إلى جلد ضأن ، وإن احتاج أبداً ، طول عمرى ، لا يضايقنى إلا شئ واحد أن العجوز سوف تقول وتعيد ، وهذا شئ يغيظ - نعم ، هو كذلك أنت تشتغل له حتى تهلك ، وهو يسحبك من أذنك ، اسمع إن لم تحضر النقود سأخطف قبعتك ، قسماً بالله سأخطفها منك ، وما قصده من إعطائى قطعتين بعشرة كويكات - ماذا أفعل بعشرين كويكا ؟ على الأكثر أشرب بها ، يقول : "إنى معذور ، أنت معذور - وأنا أأست معذوراً ؟ أنت تملك منزلاً ، وتملك ماشية وأشياء أخرى فوق ذلك وأنا لا أملك إلا نفسى ، أنت تملك خبزك ، وأنا يجب أن أشتريه - أحصل عليه حيث أستطيع ، الخبز وحده يكلفنى ثلاثة روبلات كل أسبوع ، وعندما أعود إلى البيت يكون الخبز قد نفذ ، وعلى أن أصرف روبلاً ونصف روبل من جديد ، يجب أن تعطينى ما عليك ."

وعلى هذا وصل صانع الأحذية إلى الكنيسة الصغيرة عند المنحنى وخلف الكنيسة رأى شيئاً أبيض يلمع ، وكانت الظلمة تنزل ، ونظر صانع الأحذية ، ونظر فلم يتبين ما هو ، قال لنفسه : لم يكن هناك حجر قط ، لعله حيوان ؟ ليست له هيئة حيوان ، إن الرأس أشبه برأس إنسان ، ولكن ماذا عسى أن يكون الجزء الأبيض ؟ وماذا عسى أن يفعل إنسان هنا ؟

واقترب فرأه بوضوح ، ياللعجب ! رجل يجلس هناك ، حياً أو ميتاً ، لا يستره شئ ، مستنداً إلى الكنيسة ، لا يتحرك ، وارتعد صانع الأحذية ، لا بد أن أحداً قتل ، وسلبه المجرمون وتركوه راقداً هنا ، إذا اقتربت منه فقد تلتصق بى التهمة .

ومضى صانع الأحذية فى طريقه ، وعندما جاوز المنحنى اختفى الرجل ومضى فى طريقه ثم التفت خلفه ، وإذا بالرجل لم يعد مستنداً إلى الكنيسة ، بل كان يتحرك وكأنه يرقب شيئاً . وازداد صانع الأحذية رعباً ، قال فى نفسه : أأذهب إليه أم أمضى فى طريقى ؟ إن ذهبت إليه فقد يحدث شئ من يدرى ماذا يكون ؟ ليس خيراً ما جاء به

إلى هنا ، إن رجعت إليه فقد يهجم على يخنقنى بلا رحمة - وإن لم يخنقنى فماذا أفعل به ؟ أى نفع من رجل عريان ؟ هل أنزع ملابسى عن جسمى وأعطيه إياها ؟ سأمضى فى طريقى .

وأسرع صانع الأحذية خطاه وكان قد ابتعد عن الكنيسة عندما استيقظ ضميره .
فوقف وقال لنفسه : ماذا تفعل ياسيميون ؟ رجل يمون محتاجاً وأنت تمر كالجبان ، كائنك انقلبت غنياً فأنت تخشى أن يسرق أموالك ؟ ياخزيك ياسيميون .
ورجع سيميون أدراجه وقصد إلى الرجل .

قصد سيميون إلى الرجل ، ونظر إليه ، فإذا هو شاب فى ريعان الصحة ، ليس فى جسمه جرح واحد إلا أنه مقررور مذعور ، كان يجلس هناك مستنداً إلى الحائط ، غير ناظر إلى سيميون ، كأنه أضعف من أن يفتح عينيه ، واقترب منه سيميون ، وإذا بالرجل يثوب ، ويدير رأسه ، ويفتح عينيه ، وينظر إلى سيميون ؛ وملأت النظرة سيميون حباً للرجل ، فألقى حذاء اللباد على الأرض ونزع الحزام ، ووضعته على الحذاء وخلع قفطانه ، قال :

- إليك ، خذ هذا ! لا تشكرنى ! ألبسه - هيا ، هيا .

وأمسك سيميون بالرجل من تحت إبطيه وأوقفه على قدميه . فوقف الرجل ، ورأى سيميون أن جسمه نظيف رقيق ، ويديه وقدميه لا شية فيها ووجهه حلو سمح ، وألقى سيميون القفطان على كتفى الرجل ، ولكنه لم يستطع أن يدخل ذراعيه فى الكمين ، فساعده سيميون على إدخال يديه ، ولف القفطان عليه وزرره ، وشبك الحزام على وسطه .

ثم خلع سيميون قبعته البالية ، عازماً أن يضعها على رأس الرجل العريان ، ولكنه شعر بالبرد فى رأسه هو ، فقال لنفسه ، مهلاً ، إن رأسى أصلع كله ، وهو ذو شعر طويل جعد - وعلى ذلك لبس قبعته - خير لى أن أعطيه حذاء بدلاً من القبعة .

وأجلس الرجل ، وألبسه حذاء اللباد .

وعندما فرغ صانع الأحذية من كسوته كما فعل ، قال :

- وآلا يا أخى نشط نفسك ، وحاول أن تدفأ ، سوف تتجلى الأمور دون أن نعننى أنفسنا بها ، هل تقدر أن تمشى ؟

ولم يتحرك الرجل ؛ ونظر إلى سيميون بحب ولم يحر جواباً .

- لماذا لا تقول شيئاً ، إننا لا نقدر أن نمضى الشتاء هنا . يجب أن نبحث عن مكان نقيم فيه ، هيا ، خذ عصاى لتتوكأ عليها إن كنت ضعيفاً ، ولنسرع .

ومشى الرجل ، وكان يمشى بسهولة ، ويجارى رفيقه فى سرعته .

- وفيما هما يمشيان كذلك قال سيميون :
- من أين قدمت يا ترى ؟
- لست من هذه القرية .
- أنا أعرف أهل هذه القرية ، كيف اتفق أن جئت إلى الكنيسة ؟
- لا أستطيع أن أخبرك .
- هل أساء إليك أحد ؟
- لم يسئ إلى أحد ؛ ولكن الله عاقبني .
- نعم ؛ كل شيء بإرادة الله ، ولكنك مع ذلك لا يمكن أن تعيش دون سقف يظلك :
ما طريقك ؟
- كل الطرق لدىّ سواء .
- وتحير سيميون ، فالرجل لا يشبه المجرمين ، وكلامه لطيف ، ولكنه لا يقول كلمة واحدة عن نفسه وفكر سيميون أن ذلك كثيراً ما يحدث في هذه الدنيا ، ثم قال للرجل:
- اسمع تعال إلى منزلي ، ولواتستريح قليلاً .
- وقصد سيميون إلى منزله ، والرجل يواكبه . وكانت الريح قد نشطت ، وراحت تضرب بحدده تحت سيميون ، وزال سكره شيئاً فشيئاً ، وشعر بالبرد ، وعلى ذلك كان يمشى في الريح ، وهو يتنفس بصوت مسموع ، ويلف نفسه في سترة المرأة ، ويفكر :
ها قد فعلتها . خرجت لاشتري جلد ضأن ورجعت بدون قفطان ، ومعى رجل عريان ،
لن تكون العجوز جد مسرورة ! وعندما فكر سيميون في زوجته بدأ يقلق ولكنه حين التفت إلى الغريب تذكر كيف نظر إليه الرجل خلف الكنيسة ووثب قلبه فرحاً .

كانت زوجة سيميون قد فرغت من شغل المنزل مبكرة ، فقد كُسرت الخشب ، وأحضرت الماء ، وأطعمت الأطفال ، وأكلت هي أيضاً ، ثم أخذت تفكر . كانت تفكر متى تضع الخبز فى الفرن : اليوم أم غدا ؛ وكانت لا تزال هناك قطعة كبيرة من الخبز قال لنفسها : إذا أكل سيميون فى القرية ظهرا ، ولم يأكل كثيراً فى العشاء ، فسيبقى الخبز إلى الغد .

وقلبَت ما تريونا قطعة الخبز فى يديها ، وقالت لنفسها ، لن أضع الأرغفة فى الفرن اليوم ، لم يبق دقيق كثير على كل حال . إنه يكفى إلى يوم الجمعة . ووضعت ما تريونا الخبز فى ناحية ، وجلست إلى المنضدة لتصلح قميص زوجها . وبينما هى تخطط كانت تفكر فى أن زوجها يشتري جلود الضأن للمعطف .

ياخوفى أن يغشه الدباغ ! حقاً إن شيخى رجل ساذج . لا يمكن أن يغش أحداً ، ولكن أى طفل يقدر أن يسحبه من أذنه ، ثمانية روبلات ليست بالشئ القليل تكفى لشراء جلد ضأن جيد ، حتى ولو لم يكن مدبوغاً فإن هذا لا يمنع أن يكون جلدأ جيداً . الشتاء الماضى قضيناه بدون جلد ضأن لم نقدر أن نذهب إلى النهر ، أو إلى أى مكان ، وعندما كان زوجى يخرج كان يضطر أن يضع كل شئ على جسمه ، وحتى اليوم لبس كل شئ عندما خرج ، ولم يترك لى فتلة واحدة ، لقد خرج مبكراً وكان يجب أن يعود الآن ، أخاف أن يكون طيرى قد وقع فى بعض الشباك .

وبينما كانت تفكر فى ذلك طقطع الدرج ودخل رجل فشبتك ما تريونا إبرتها فى القميص وذهب إلى باحة الدار ، وإذا برجلين اثنين : سيميون ومعه رجل فى حذاء من اللباد ، وليس على رأسه قبعة .

ولا حظت ما تريونا على الفور رائحة الخمر التى كانت تنبعث من زوجها قالت لنفسها : حسنا ، ما حسبته لقيته ، إنه وقع وعندما رأته قد رجع بدون قفطانه ، وليس عليه إلا السترة وليس معه شئ ، ولم يقل كلمة ، والخجل بادٍ عليه ، انقبض قلب ما تريونا وحدثت نفسها أنه شرب بالنقود لقد ذهب إلى الحان مع أول آفاق قابله ، وفوق ذا وذا أحضره إلى البيت .

تركتهما ما تريونا يدخلان الحجرة ثم دخلت هي أيضاً . ورأت الغريب رجلاً نحيلاً ،
يلبس القفطان الذى كان لها هي وزوجها ، ولم يكن ثمة قميص يرى تحت القفطان ،
ولا كان عليه قبعة وقف كما دخل ، لم يتحرك ولم يرفع عينيه ، وقالت ما تريونا
لنفسها : لا يمكن أن يكون رجلاً شريفاً وهو خزيان هكذا .

ونظرت ما تريونا نظرة سوداء ، وقصدت إلى الفرن لتنتظر ما عسى أن يفعله
الآخران .

وخلع سيميون قبعته ، وجلس على الدكة كأن شيئاً لم يحدث قال :
- هيا ياما تريونا ، جهزى لنا عشاء .

وزمجرت ماتريونا بينها وبين نفسها ، وظلت واقفة بجانب الفرن لا تحرك إصبعاً ،
بل تردد نظرها بينهما وتهز رأسها ، وتظاهر هو بأنه لم يلاحظ شيئاً وأمسك بيد
الغريب قال :

- أجلس يا أخى ، سنتعشى .

وجلس الغريب على الدكة .

- حسنا ، ألم تطبخى شيئاً ؟

- واحتدم غضب ما تريونا :

- بلى طبخت ولكنى لم أطبخ لك . لقد شربت حتى فقدت رشذك كما أرى . تخرج
لتشتري جلد ضأن وتعود بدون معطف . وفوق ذلك تجر معك عريانا صعلوكاً إلى بيتى .
ليس عندى عشاء لكما يا سكيران .

- ماذا جرى لك يا ماتريونا ما هذا الكلام الفارغ ؟ ألا تسألين أولاً من الرجل -

- وأنت تخبرنى ماذا فعلت بالنقود .

فأدخل سيميون يده فى القفطان وأخرج الورقة ويسطها .

- هاك النقود ، وتريفينوف لم يدفع ، أجلنى إلى الغد .

وهنا ثارت ما تريونا ثورة أشد :

- أنت لم تشتري جلد الضأن ، وتلبس آخر قفطان عندك لهذا الشحاذ ، وتحضره
إلى منزلى !

قالت ذلك ومدت يدها فأخذت الورقة ذات الثلاثة الرويلات وكانت على المنضدة ،
فوضعتها فى الدرج ، وقالت :

– لا عشاء عندى ، لا يمكننى أن أطعم كل سكير عريان أراه .

– مهلاً يا ماتريونا ، لا تطلقى لسانك . اسمعى ما يقال لك .

– وماذا عسى أن يقول أحمق سكران ؟ أنا أعرف لماذا كنت لا أريد أن أتزوجك
يا حليف الزجاجة ، كانت أمى تعطينى القماش وأنت تسكر بثمانه ، تذهب إلى القرية
لتشترى جلد ضأن فتشرب حتى تسكر .

وحاول سيميون أن يبين لزوجته أنه لم يصرف فى الشرب إلا عشرين كوپكا وحاول
أن يخبرها أين لقى الرجل ، ولكن ما تريونا لم تمكنه من أن يقول كلمة واحدة ، فقد
ظل لسانها يدور كأنها عجلة طاحونة ، وجعلت تعيره بقصص مرت عليها عشر
سنوات .

وظلت ماتريونا تتكلم وتتكلم ، وأخيراً انقضت على سيميون وأمسكته من كفه قائلة:

– أعطنى سترتى ، لم يبق لى إلا سترة واحدة وأنت تأخذها وتلبسها . هاتها
يا جبان جاعتك داهية ! .

وحاول سيميون أن يخلع السترة فانقلب الكمان وهو يفعل ذلك ، فشدها ماتريونا
فقطقت من كل جانب ، وانتزعت ما تريونا السترة وألقته على رأسها وهرعت إلى
الباب ، وهمت بالخروج ولكنها توقفت ، كان قلبها يكاد ينشق غضباً ، ولكنها كانت
لا تزال تود أن تعلم من الشخص الغريب .

فتلبثت لتقول :

– لو كان رجلاً طيباً لما كان عرياناً ، إنه لا يملك حتى قميصاً يضعه على ظهره :
ولو لم تكن أنت قد فعلت ما لا ينبغى لك لقلت أين وجدت هذا السيد العظيم .

– ولكن هذا ما أحاول أن أقوله ، لقد كنت ماشياً فرأيت هذا الرجل ، عرياناً
مقروراً ، يجلس بجانب الكنيسة ، لسنا فى الصيف ، حتى يجلس امرؤ هناك عرياناً
الله ساقنى لهذا الرجل ولولا ذلك لقضى عليه . ماذا أعمل ؟ ليس هذا بالأمر
المستغرب ، أخذته وألبسته وأحضرتة معى . أهدي ، حرام يا ماتريونا تذكرى ساعة
الموت .

وكانت ماتريونا موشكة أن تبدأ فى التائب ، عندما أضاعت عيناها على الرجل الغريب ، فصمتت كان الغريب جالساً هناك لا يتحرك ، كان جالساً على حافة الدكة ، على هيئته منذ دخل ، ويداه مشبوكتان على ركبتيه ورأسه منكس على صدره ، وعيناها مغمضتان ، وحاجباه معقودان كأنه يعاني ألماً ، ولم تنطق ماتريونا بكلمة ، ولكن سيميون قال :

– ماتريونا ، أما فيك شئ من روح الله ؟

وسمعت ماتريونا فنظرت إلى الغريب ثانية ، وتحرك قلبها فجأة ، فابتعدت عن الباب ، وذهبت إلى زاوية الفرن ، وجهزت العشاء ، وضعت الأطباق على المنضدة وصب

بعض الكفاس^(١) وأحضرت آخر قطعة من الخبز قالت :

– هيا ، كلا .

وجذب سيميون الغريب قائلاً :

– اقترب يا أخى .

وقطع سيميون الخبز ، وغمسه ، وبدأ يأكلان ، وكانت ماتريونا جالسة إلى ركن المنضدة ، معتمدة برأسها على يدها ، تنتظر إلى الغريب .

واستحوذت على ماتريونا رحمة بالغريب ، وبدأت تفرح به وفجأة انبسط حاجبا الغريب ، بدا عليه البشر ؛ وثبتت عينيه على ماتريونا وابتسم .

وانتهى العشاء فرفعت ماتريونا الأطباق ، وبدأت تسأل الغريب :

– من أين أنت ؟

– لست من هنا .

– وماذا جاء بك إلى هنا ؟

– لا أستطيع أن أقول .

– من سرقك ؟

(١) نوع من الجعة ، شراب شعبى عند الروس (المترجم)

- الله عاقبني .

- كنت ترقد هناك عريانا هكذا ؟

- نعم كنت أرقد هكذا ، عريانا مقررراً ، ثم رآني سيميون ، فرحمني ، وخلع قفطانه ، وكساني إياه ، وقال لي أن أجي معه ، وهذه أنت قد أطعمتني وسقيتني وعطفت علي ، فليكافئك الله .

ورقفت ماتريونا ، وأخذت من النافذة قميص سيميون القديم الذي كانت تصلحه ، وناولته للغريب ، وكذلك وجدت سراويل وأعطته إياها .

وخلع الغريب القفطان ، ولبس القميص ، وركد على الدكة . وأطفأت ماتريونا النور ، وأخذت القفطان ، وزحفت إلى جوار زوجها .

وتغطت ماتريونا بأحد طرفي القفطان ، ولكنها بقيت ساهرة ؛ فإنها لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير في أمر الغريب .

وكانت إذا تذكرت أنها أكلت آخر قطعة من الخبز ، ولم تبق كسرة واحدة للغد ، وإذا فكرت أنها نزلت عن القميص والسراويل تشعر بالكآبة ، ولكنها حين تتذكر كيف ابتسم يثب قلبها من الفرح .

أرقت ما تريونا طويلاً ، ثم تنبّهت إلى أن سيميون غير نائم أيضاً ، وأنه يسحب القفطان إلى ناحيته .

- سيميون .

- إيه ؟

- لقد أكلنا آخر كسرة من الخبز ، ولم أضع خبزاً في القرن ، لا أدري ماذا نفعل غدا ، سأضطر أن أخذ بعضاً من جارتنا العجوز .

- إن عشنا سنجد ما نأكله .

ورقدت ساكنة من جديد ، ولم تقل شيئاً .

- إنه يبدو مع كل ذلك رجلاً شريفاً ، ولكن الغريب أنه لا يقول شيئاً عن نفسه .

– لعلّ لا يستطيع .

– سيم ..

– إيه ؟

– نحن نعطى الآخرين . ولكن لماذا لا يعطينا أحد ؟

ولم يدر سيميون بماذا يجيب ، فقال : "كفى عن كلامك " ودار على جنبه ونام .

استيقظ سيميون في الصباح ، وكان الأطفال نائمين ، وزوجته قد ذهبت إلى الجيران ، لتقترض خبزاً ، أما الغريب صاحبه بالأمس ، فكان جالساً على الدكة في سراويل قديمة وقميص قديم ، وهو ينظر إلى أعلى وكان وجهه أكثر إشراقاً مما كان بالأمس .

وقال سيميون :

- اسمع يا صديقي ، الجسم يطلب الخبز ، والأطراف العارية تطلب الكساء . يجب أن يأكل الإنسان ، ماذا تستطيع أن تعمل ؟

- لا أستطيع أن أعمل شيئاً .

فدهش سيميون ، وقال :

- العبرة بالإرادة كل شيء يمكن تعلمه .

- الناس يشتغلون إذا ساشتغل أيضاً ..

- كيف أدعوك ؟

- ميكائيل .

- حسناً يا ميكائيل لا حاجة بك أن تحدثني عن نفسك ، ولكن الإنسان يجب أن يأكل . ستؤدي العمل الذي أعطيك إياه ، فأقدم لك ما تأكله .

- جزاك الله خيراً ، أنا أستطيع أن أتعلم أرني ماذا أعمل .

فتناول سيميون خيطاً ، ولفه على أصابعه ، وعقده .

- ليس في الأمر سر عظيم انظر ..

- ونظر ميكائيل ولف خيطاً على أصابعه كما فعل صانع الأحذية وعقد عقدة.

ثم أراه سيميون كيف يضع الشريط ، وكيف يخرز الخيط ، وكيف يستعمل السندان وميكائيل يفهم سريعاً .

وكان سيميون كلما أراه عملاً فهمه على الفور ويعد اليوم الثالث بدأ يعمل كأنه كان يخطط الأحذية طول عمره ، وكان يعمل دون أن يتحرك من مكانه ، ويأكل قليلاً ، وإذا لم يكن ثمة عمل ظل جالساً ينتظر إلى أعلى ، ولم يكن يغادر الحجرة ، ولا ينطق بلفو ، ولا يمزح ولا يضحك .

لم يروه يضحك إلا مرة واحدة ، وكان ذلك في المساء الأول ، عندما أحضرت له المرأة العشاء .

مرت الأيام في إثر الأيام ، والأسابيع في أثر الأسابيع حتى انقضى حول كامل ، وميكائيل مقيم يعمل في منزل سيميون .

وذاع صيت عامل سيميون في كل مكان ، وكان الناس يقولون إن الأحذية التي يصنعها ميكائيل عامل سيميون لا يستطيع أحد أن يصنع مثلها نظافة ومتانة . وكان الناس يأتون من الأنحاء البعيدة ليطالبوا أحذية من سيميون ، فأخذت حاله تروج .

وذات يوم من أيام الشتاء كان سيميون وميكائيل جالسين يعملان عندما أقبلت عربة صغيرة تجرها ثلاثة جياد وتصلصل بأجراسها أمام منزل سيميون فنظرا من النافذة ، ووقفت العربة ، وهبط شاب عن مقعد السائق وفتح الباب ، فنزل من العربة سيد يلبس معطفاً من الفراء ، نزل من العربة وتقدم من كوخ سيميون وصعد الدرج ، وأسهرت ماتريونا تستقلبه ، وفتحت الباب على مصراعيه ، فانحنى السيد ، ودخل الحجرة واعتدل ثانية ، وكان رأسه يكاد يلامس السقف ، وجسمه يملأ ركن الحجرة كله .

نهض سيميون وانحنى إلى السيد دهشاً ، فما رأى من قبل مثل ذلك الرجل . كان سيميون نفسه نحيلاً وميكائيل قضيفاً ، وماتريونا رقيقة كقشرة من الخشب ، ولكن هذا الرجل كان يبدو وكأنه من عالم آخر ، وكان وجهه أحمر منتقخاً ، وعنقه كعنق ثور ، وجسمه كله كأنه صب من حديد .

وقف السيد ليلتقط أنفاسه ، ثم خلع معطفه الفرو ، وجلس على الدكة وقال :-
من المعلم ؟

فتقدم سيميون خطوة ، وقال :

- أنا يا صاحب السعادة .

ثم نادى السيد خادمه :

- فيديا ، هات الجلد يا فتى .

وجاء الرجل بربطة فأخذها السيد ووضعها على المنضدة ، وقال :

- افتحها .

ففتح الرجل الربطة .

ولس الرجل الجلد بإصبع وقال لسيميون :

— اسمع يا معلم ، هل ترى هذا الجلد ؟

قال :

— أجل يا صاحب السعادة .

— أجل وهل تدري أى جلد هو ؟

فتحسس سيميون الجلد ، وقال :

— جلدٌ عظيم .

— أحسبه كذلك ! إنك لم تر نظيراً له من قبل يا غبي . إنه جلد ألماني وثمانه
عشرون روبلا .

فأخذ سيميون ، وقال :

— وكيف يرى رجل مثلى جلدًا كهذا ؟

— طبعاً لا ! يمكنك أن تفصل لى حذاء من هذا الجلد ؟

— أجل يا صاحب السعادة .

وهنا صاح به السيد :

— الكلام عندكم سهل : تذكر لمن تشتغل ، وأى جلدٍ هذا ، أصنع لى زوجاً من
الأحذية يتحمل عاماً دون أن يتشق أو يلتوى .

إن كنت تستطيع ذلك فابدأ العمل واقطع الجلد ، وإن كنت لا تستطيع فدعه ولا
تقطع الجلد ، وأقول لك منذ الآن : إن تشقق الحذاء أو التوى قبل أن يمر العام ،
فسأدخلك السجن ، وإن لم يتشق أو يلتو فسأعطيك أجرتك عشرة روبلات .

وربع سيميون ، ولم يدرك ماذا يقول ، ونظر إلى ميكائيل وغمزه سائلاً بصوت خفيض :

— هل أخذه ؟

فأوماً ميكائيل ألا تخف وخذ العمل .

وأطاع سيميون عامله ، وتعهد أن يصنع حذاء يبقى عاماً دون أن يلتوى أو يتشقق.

ونادى السيد خادمه وأمره أن يخلع الحذاء الأيسر ، ثم مد قدمه :

– خذ مقاسى .

وتناول سيميون شريطاً من الورق طوله نصف متر ، وركع ، ومسح يديه بعناية فى فوطته حتى لا يوسخ جورب السيد ، وبدأ يأخذ مقاسه . فقام بطن القدم ، ثم ظهرها ثم بدأ يقيس الربلة ، فلم يكف طول ورقته ، فقد كان للقدم الضخمة ربة كالجذع العظيم .

– حذار- أن تجعله ضيقاً عند الساق .

– فحافظ سيميون قطعة أخرى فى شريطه ، وكان السيد جالساً هناك يحرك إبهاميه فى جوربه وينظر إلى من فى الحجرة ، ثم لاحظ ميكائيل ، فقال :

– من هذا الذى معك ؟

– هذا صانع عندى ، سيشغل فى الحذاء أيضاً .

فقال السيد لميكائيل :

– اعتن . ولا تنس أن الحذاء يجب أن يعيش عاماً .

والتفت سيميون بدوره إلى ميكائيل ، فلاحظ أنه لا يكاد ينظر إلى السيد . كان واقفاً فى الركن خلف السيد وعيناه تبدوان مركبتين على شخص ما . كان ميكائيل واقفاً هناك يحدق تحديقاً شديداً وفجأة ابتسم وأشرق وجهه كله .

– لماذا تقف هناك مبتسماً أيها الغبى ؟ خيرك أن تحرص على إتمام الحذاء فى وقته .

فأجابه ميكائيل :

– سيكون حاضراً فى وقته تماماً .

– أرجو ذلك !

ثم لبس السيد حذاءه ثانية ، وتدثر بفرائه ، وذهب إلى الباب ولكنه نسي أن ينحنى ، فصدم رأسه بالعارضة .

فسب ، ودعك جيبته ، ثم ركب فى العربة وانطلق .

وعندما ذهب السيد قال سيميون :

- رجل من حديد ، ليس فى الدنيا هراوة يمكن أن تقتله ، لقد كاد يخلع العارضة برأسه ، وهى لم تكد تؤذيه .

ولكن ما تريونا قالت :

- ولماذا لا يكون أولئك الناس أقويا ء وهم يعيشون كما يعيشون ؟ حتى الموت لا يمكنه أن يمس مثل هذا الهيكل الضخم ؟

وقال سيميون لميكايل : حسنا لقد أخذنا العمل ، وأخشى أن نكون قد حملنا صليبنا على ظهورنا ، فهذا الجلد ثمين والسيد لا يعرف المزاح يجب أن لا نخطئ في قطع الجلد ، افعل ذلك أنت ، فإنك أصبح نظراً وأمهر يداً ، إليك النموذج ، اقطع الجلد بينما أشتغل في مقدم الحذاء .

وفعل ميكايل كما أمره المعلم ، فأخذ جلد السيد وبسطه على المنضدة ووضع قطعة على الأخرى وأخرج سكينه وبدأ يقطع .

وأقبلت ماتريونا لتتظر فرأت ميكايل يستخدم المقص ، وحارت في فهم ما يصنع وكانت ماتريونا تعرف صناعة الأحذية ، فنظرت ورأت ميكايل لا يقطع الجلد كما يفعل صانع الأحذية بل يدور حول الحافة بالمقص .

وهمت ماتريونا أن تقول شيئاً ، ولكنها فكرت : لعل لا أعلم كيف تصنع أحذية السادة ، لعل ميكايل أدري منى بذلك فلن أتدخل .

وقطع ميكايل الزوج ثم أخذ خيطاً وبدأ يخييط ، لا بخيطين كما يفعل صانعو الأحذية بل بخيط واحد ، كأنه يخييط حذاء للدفن .

وحارت ماتريونا في ذلك أيضاً ، ولكنها لم ترد أن تتدخل ومضى ميكايل يخييط ويخييط وتعشوا . ثم وقف سيميون ، ورأى أن ميكايل قد صنع حذاء دفن من جلد السيد .

وتأوه سيميون بصوت مسموع ، وقال في نفسه : كيف هذا ؟ لقد مضى عام كامل على ميكايل عندي ، ولم يخطئ خطأ واحداً ، والآن يجلب على مثل هذه المصيبة ، لقد طلب السيد حذاء طويلاً بنعل مخيط ، وهكذا ميكايل قد صنع له حذاء دفن بلا نعل ، وأتلف الجلد ، كيف أسترضى السيد ؟ لن نجد مثل هذا الجلد ثانية .

قالت : ماذا فعلت يا أخي ؟ لقد خربت بيتي ! السيد طلب حذاء ، فماذا فعلت ؟

ولم يكد المعلم يبدأ في تأنيب ميكايل حتى دقت مطرقة الباب دقات سريعة ، فنظروا من النافذة ، فرأوا فارساً لا يزال مربوط جواده ، ففتحو الباب ، ودخل خادم السيد .

- طاب يومكم .

طاب يومك ، ماذا ورايك ؟

- سيدتى أرسلتتى فى أمر الحذاء .

- ماذا عن الحذاء .

- ماذا عن الحذاء ؟ إن السيد لا حاجة له بحذاء ، تعيشون أنتم .

- ماذا قلت ؟

- إنه لم يبلغ داره حيا ؛ لقد مات فى العربة ، عندما وصلت العربة إلى المنزل وهبطنا لنساعده على النزول رأيناه راقداً هناك كالعدل رأيناه راقداً وقد مات وجمد ، وما استطعنا إخراجهم من العربة إلا بعناء فأرسلتتى السيدة قائلة : أخبر صانع الأحذية أن سيداً أمره بصنع حذاء وأعطاه الجلد ، قل له لا حاجة بنا إلى الحذاء الآن، وليقطع من هذا الجلد حذاء دفن للميت بأسرع ما يستطيع وانتظر أنت هناك حتى يتم حذاء الدفن ، وأحضره معك .» وهأنذا قد جئت .

وتناول ميكائيل بقايا الجلد من على المنضدة ، ولفها ، وأخذ حذاء الدفن وقد تم صنعه فضرب واحداً بالآخر ، ومسحهما بقوطة ، وأعطاهما للرجل ، وأخذ الرجل حذاء الدفن.

- مع السلامة.

مر عام وعام ، وسرعان ما انقضت ستة أعوام على مجئ ميكائيل ليعيش فى بيت سيميون وكانت حياته هى لم تتغير .

فهو لا يذهب إلى مكان ما ، ولا ينطق بكلمة لغو ، ولم يروه يبتسم طيلة هذه المدة إلا مرتين : مرة عندما قدمت له المرأة العشاء ، ومرة عندما جاء السيد ، وكان سيميون مسروراً بعامله أعظم السرور ، ولم يعد يسأله من أين جاء ، إلا أنه كان خائفاً أن يرغب ميكائيل فى تركه .

وذات يوم كانوا جالسين فى المنزل ، ووضعت ربة الدار قدر الحديد على النار ، فراح الأولاد يجرون على الدك ، وينظرون من النافذة . وكان سيميون جالسا بالقرب من إحدى النافذتين يدق ، وميكائيل جالسا بالقرب من النافذة الأولى الأخرى يهين كعبا .

وأقبل الصبي الصغير يجرى على الدكة إلى ميكائيل ، واستند على كتفه ونظر من النافذة .
- انظر يا عمى ميكائيل ! ألسنت هذه امرأة صاحب الدكان ومعها البنتان ؟ وإحدى البنتين عرجاء .

وما كاد الصبي يتكلم حتى ألقى ميكائيل ما فى يده ، والتفت إلى النافذة ، ونظر إلى الطريق .

ودهش سيميون ، فإن ميكائيل لم يكن ينظر قط إلى الطريق ، وما هو ذا ملتصق بالنافذة يتأمل شيئاً فى الخارج ، ثم ذهب سيميون إلى النافذة أيضاً ، حقاً لقد كانت ثمة امرأة قادمة صوب داره ، وكانت حسنة اللبس ، تمسك بيدي طفلتين تلبسان معطفين صغيرين من القراء وشملتين مطررتين . وكانت الطفلتان أشبه بإحدهما الأخرى من الماء بالماء حتى ليصعب التمييز بينهما ، ولكن إحدهما كانت مهیضة القدم اليسرى ، وكانت تظلع فى مشيتها .

صعدت المرأة الدرج الخارجى إلى الباحة ، وتلمست الطريق إلى الباب ، وضغطت على المزالج ، ودخلت وتركت البنتين تتقدمانها ،

- طاب يومك يا عم ، طاب يومك يا خالة .

- مرحباً ما طلبك ؟

وجلست المرأة إلى المنضدة ، وزحفت البنتان إلى جانبها ، فقد كانتا تفورين من الأغراب .

- أريد حذاء ين صغيرين من الجلد للبنتين يصلحان للربيع .

- حبا وكرامة إننا لم نصنع من قبل أحذية صغيرة كما تطلبين ، ولكننا نقدر أن نصنعها بإتقان ، برقبة أو بدون رقبة ، كما ترغبين . إن ميكائيل قادر على صنع أى شئ .

ونظر سيميون إلى ميكائيل ، فراه قد ألقى ما كان بيده جانباً ، وجلس يحدق فى البنتين دون أن يحول عينيه عنهما .

ولم يستطيع سيميون أن يفهم ماذا جرى لميكائيل ، لقد كانت البنتان جميلتين لاشك فى ذلك ، عيون صغيرة سوداء ، وخدود مستديرة حمراء ، وقراءان صغيران جميلان ، وشملتان صغيرتان جميلتان ، ولكن سيميون لم يستطع أن يفهم لماذا كان ميكائيل يحدق فيهما ولا يحول عنهما نظره ، وكأنه يعرفهما .

خفى السر على سيميون ، وبدأ يساوم المرأة ، وانتهيا إلى اتفاق فأخذ المقاس ، فحملت المرأة الطفلة العرجاء فى حجرها وقالت :

- خذ مقاس هذه الطفلة مرتين ، حذاء للقدم اليسرى ، وثلاثة للقدم السليمة ، إن أقدامها متشابهة تماماً ، فهما توأمتان .

وقاس سيميون ، وقال وهو ينظر إلى الطفلة العرجاء :

- وكيف حدث لها ذلك ؟ يا خسارة ، بنت جميلة ، هل ولدت هكذا ؟

- لا . لقد هاضتها أمها .

وأقبلت ماتريونا ، قالت وقد أرادت أن تعرف من المرأة من أم الطفلتين :

- ألسن أمهما ؟

- لسن أمهما ولا قريبة لها يا خالة ، إنهما ربيبتائى .

- ليستا بنتيك ، وتحبينهما هذا الحب ؟

- كيف لا أحبهما وقد أرضعتهما كلتيهما من ثدىي ؟ لقد كان لى ولد وأخذه الله ؛ ولم أحبيه قط كما أحببت هاتين .

- ومن أمهما ؟

فانطلق لسان المرأة وروت :

- منذ ستة أعوام تيتمت الطفلتان فى أسبوع واحد ، مات أبوهما يوم الثلاثاء ، وماتت أمهما يوم الجمعة .

وكنـت أنا وزوجى فلاحين وقتئذاك ، وكنا جيرانهما فى القرية ، نعيشُ بجانبهما ، وكان أبو الطفلتين يعمل فى الغابة ، فذات يوم وقعت عليه شجرة ، وسطت جسمه فخرجت أحشاؤه .

وما كادوا يعودون به إلى الدار حتى أسلم الروح ، وفى ذلك الأسبوع ولدت له زوجته توأمتين ، هما هاتان الطفلتان ، وكان كل ما حولهما شقاء ووحشة . كانت المرأة وحيدة لا أهل لها ولا أبناء وكانت وحيدة فى ساعة حاجتها ، ووحيدة ماتت .

وفى اليوم التالى دخلت لأرى جارتى ، وعندما دخلت كانت المرأة المسكينة باردة جامدة ، وكانت قد سقطت وهى تحتضر على الطفلة الصغيرة ، وضغطت على جسمها وهاضت قدمها .

ثم دخل الناس وغسلوها وألبسوها ، وصنعوا لها تابوتاً ، ودفنوها ، قام الناس الطيبون بكل شئ ، وأصبحت الطفلتان وحيدتين فماذا نعمل لهما ؟ كنت وحدى من دون النسوة جميعاً لى طفل فى الرضاع ، وكنت أرضعه منذ شهرين فأخذت الطفلتين إلى أن نرى فيهما رأياً ، واجتمع الفلاحون لينظروا من يكفل الطفلتين ، فقالوا : هلا تأخذين الطفلتين عندك فترة قصيرة يا ماريـا ؟ عسى أن يأتى الفرج فكنت أولاً أرضع الطفلة السليمة ، ولا أرضع هذه العرجاء . وظننتها لا تعيش طويلاً ، ثم قلت لنفسى : لماذا يموت هذا الملاك الصغير ؟ ورثيت لها فأرضعتها هى الأخرى ، كنت أرضع طفلى وهاتين معه ، والثلاثة كبروا على هذا الثدى . وكنت شابة قوية وكان الغذاء كثيراً أعطانى الله من اللبن ما كفاهم وزاد . وربما أشبعت اثنتين والثالث ينتظر ، فإذا شبع الثانى أخذت الثالث ، وأراد الله أن أربى هاتين وأدفن ابنى فى عامه الثانى . ثم لم يعطنى الله أطفالاً آخرين بعد ذلك ونمت أموالنا ، وأصبحنا نعيش الآن فى الطاحونة مع صاحب الدكان ويدفع لنا أجراً طيباً ، ولا نحمل هما ، وليس لنا أطفال ،

فكيف كنت أعيش لولا هاتان البنتان ؟ وكيف لا أحبهما ؟ إنهما قرّة عيني .
قالت المرأة ذلك ، وضمت البنت العرجاء بإحدى يديها ، وبالأخرى مسحت الدموع
عن خديها

وتنهدت ماتريونا وقالت :

- صدق المثل ، قد يحيا المرء بدون أب ولا أم ، ولكن بدون الله لا يحيا .

هكذا تكلمتا ، عندما أضاء الحجر فجأة نور باهر من الركن الذي كان يجلس فيه
ميكائيل ، فنظروا كلهم إليه ، كان ميكائيل جالساً ويداه مشبوكتان في حجره ، وعيناه
تنظران إلى أعلى بابتسام .

خرجت المرأة بالبنتين ثم نهض ميكائيل بدوره عن الدكة ، وخلق فوطته ، وانحنى أمام سيده وسيدته وقال :

- سامحاني يا سيدى وسيدتى ، لقد غفر الله لى ، فاغفرا لى أيضاً بحق الله .

ورأى المعلم وزوجته أن النور يفيض من ميكائيل ، فوقف سيميون وانحنى أمام ميكائيل وقال له :

- ميكائيل ، إنى لا أراك بشراً مثل الناس ، وليس لى أن أستبقيك ، وليس لى أن أسألك ، ولكن أخبرنى عن أمر واحد ! لماذا كنت شديد الاكتئاب حين عثرت عليك وجئت بك إلى الدار ؟ ولماذا ابتسمت حين قدمت زوجى إليك العشاء وأصبحت أكثر بشراً منذ تلك اللحظة ؟ ثم لماذا ابتسمت ثانية حين جاء السيد ليطلب الحذاء ، وازددت بشراً من بعد ذلك ؟ ثم لماذا ابتسمت مرة ثالثة الآن حين دخلت المرأة بالبنتين وغمرك نور ساطع ؟ خبرنى يا ميكائيل أنى لك هذا النور ، ولماذا ابتسمت ثلاثة مرات ؟

قال ميكائيل :

- لقد أشرق النور لأنى عوقبت والآن غفر الله لى ، وقد ابتسمت فى المرة الثالثة لأنى ألزمت أن أفهم ثلاث كلمات لله ، والان فهمت كلمات الله : فهمت الكلمة الأولى حين عطفت على زوجك ، فابتسمت أول مرة ، وفهمت الكلمة الثانية حين أمر الرجل الغنى بصنع الحذاء ، فابتسمت ثانياً مرة ، والآن حين رأيت البننتين فهمت الكلمة الأخيرة ، والكلمة الثالثة ، وابتسمت ثالث مرة ،

ثم قال سيميون :

- خبرنى يا ميكائيل لماذا عاقبك الله ، وما كلمات الله لأعلمها ؟

فقال ميكائيل :

- لقد عاقبنى الله لأنى عصيته ، كنت ملكاً فى السماء ، وعصيت الله .

كنت ملكاً فى السماء ، وأرسلنى الله لأقبص روح امرأة . وطرت هابطاً إلى الأرض فإذا المرأة ترقد وحيدة مريضة كانت قد ولدت طفلتين توأمتين ، وكانت الطفلتان

ترفسان بجوار أمهما ، والآم لا تقدر أن تحملهما إلى ثديها . رأتنى المرأة وعرفت أن الله أرسلنى لأقبض روحها ، فبككت وقالت : يا ملاك الله لقد دفن زوجى منذ قليل ، وقعت عليه شجرة فى الغابة ، وليس لى أخت ولا عمّة ولا جدة ، لا مخلوقة تربي يتيمتى فلا تقبض روحى المسكينة ، ودعنى أرضع طفلتى وأربيهما حتى تقفا على قدميهما ، فالأطفال لا يحيون بدون أب ولا أم ، وأصيغت إلى المرأة ، ووضعت إحدى الطفلتين عند ثديها ، والأخرى على ذراعها ، وصعدت إلى الله فى السماء ، وعندما طرت إلى الله قلت : لم أستطع أن أقبض روح المرأة لقد قتل الأب تحت شجرة ، وولدت الأم توأمتين وتضرعت إلى ألا أقبض روحها قائلة : دعنى أرضع الطفلتين وأربيهما حتى تقفا على قدميهما ، فالأطفال لا يحيون بدون أب ولا أم ، هنالك قال الله لى : عد واقبض روح المرأة ، وستفهم ثلاث كلمات . ستفهم ماذا فى الناس ، وماذا لم يُعط للناس ، وماذا يحيا به الناس ، فإذا فهمت ذلك فعد إلى السماء فطرت هابطاً إلى الأرض ، وقبضت روح المرأة .

وتدحرجت الطفلتان عن صدرها ، وانحطت الجثة الميتة على المهد، فوقعت على إحداهما وهاضت قدمها ، وطرت فوق أكواخ القرية لأعود بالروح إلى الله فأحاطت بى عاصفة ، وتدلّى جناحاي فى ضعف ثم سقطا وارتفعت الروح إلى الله وحدها .

أما أنا فهبطت إلى الأرض ورقدت على جانب الطريق .

وعلم سيميون وماتريونا ، من ذلك الذى كسواه وأطعماه ، ومن كان ضيفهما فبكيا خوفاً وفرحاً ، ولكن الملك قال :

- كنت راقداً فى الحقل عريان . لم أعرف من قبل متاعب الإنسان ، لا البرد ولا الجوع ، والآن أصبحت إنساناً ، عذبنى الجوع والبرد ولم أدر ماذا أفعل ، ثم رأيت فى الحقل كنيسة بنيت لله ، فذهبت إلى كنيسة الله لأجد فيها مأوى ، فوجدتها مغلقة ، ولم أستطع الدخول فجلست خلف الكنيسة لأحتمى من الريح ، وجاء المساء ، وعذبنى الجوع وأبيسنى البرد ، واشتعلنى ألم واحد كبير ، وإذا بى أسمع شيئاً ، كان رجل يسير فى الطريق ، فى قدميه حذاء ، ويكلم نفسه ، ورأيت وجه الإنسان الفانى لأول مرة منذ أصبحت أنا نفسى إنساناً وملأنى هذا الوجه رعباً ، فتحولت عنه ، وسمعت الرجل يحدث نفسه كيف يقى جسمه برد الشتاء ، وكيف يجد خبزاً لزوجته وأطفاله . فقلت لنفسى : أنا أموت برداً وجوعاً وهذا الرجل السائر هناك لا يفكر إلا أين يجد جلد الضأن ليتدثر به هو وزوجته ، والخبز ليأكلوه ، إنه لن يستطيع معاونتى ورأى الرجل فعبس ، وازداد وجهه نكراً ، ومربى ، واستحوذ على اليأس وإذا بى أسمع الرجل يعود فنظرت إليه ، فلم أكد أعرف فيه الرجل الأول فى المرة الأولى كان فى قسماة وجهه الموت والآن دبب فيه الحياة فجأة ، وعرفت فى محياه الله جاء الى ، وكسانى ، وأخذني معه ، وسار بى إلى منزله ودخلت منزله وقابلتنا زوجه ، وبدأت تتكلم وكانت المرأة أشد نكرا من الرجل . كانت ريح الموت تنفخ من فمها ، ولم أستطع أن أتنفس من نتن رائحة الموت أرادت أن تطردنى إلى العراء وعلمت أنها ستموت إلى طرديتنى ثم ذكّرها زوجها الله ، وإذا هى امرأة أخرى ، وعندما قدمت إلينا العشاء ونظرت إلى ، نظرت إليها ، كان الموت قد فارقها ودبت فيها الحياة وفيها أيضاً رأيت الله .

ثم تذكرت أولى كلمات الله : ستفهم ماذا يحيا فى الناس ، وعرفت أن الحب يحيا فى الناس ، وامتلات سروراً لأن الله قد بدأ يكشف لى ما وعدنيه ، وابتسمت الأولى ولكنى لما أستطع أن أفهم كل شئ . لما أفهم ما الذى لم يعط للناس ، ولا ما به حياة الناس .

وأقمت معكم عاماً كاملاً ، ثم جاء الرجل الذى أمر بصنع الحذاء ، حذاء يعيش عاماً دون أن يتمزق أو يلتوى ، ونظرت إليه فإذا بى أرى خلف كتفيه رفيقى ملك الموت لم ير الملك أحداً غيرى ولكنى عرفته ، وعرفت أن الشمس لن تغرب حتى تكون روح الرجل الغنى قد فارقتة ، وقلت لنفسى : الإنسان يدبر لعام قادم ، ولا يعلم أن عمره سينتهى قبل المساء ، ثم تذكرت الكلمة الثانية من كلمات الله ، ستفهم ما لم يعط للناس .

لقد عرفت ما فى الناس ، والآن عرفت ما لم يعط للناس لم يعط للناس أن يعلموا ما يحتاجون إليه لحياتهم ، فابتسمت الثانية ، وسررت لأنى رأيت الملك رفيقى ، ولأن الله كشف لى الكلمة الثانية .

ولكنى لما أفهم كل شئ لما أفهم ما به حياة الناس .

وأقمت معكم ، وانتظرت أن يكشف الله لى عن الكلمة الأخيرة ، ومرت خمس سنوات ، ثم جاءت البنتان التوأمتان مع المرأة ، وعرفت البنتين ، وعرفت كيف بقيت البنتان فى الأحياء ، عرفت ذلك وقلت : لقد توسلت المرأة من أجل طفليها وصدقتهما وظننت الطفلتين لا تحييان بدون أب ولا أم ، والآن أرى المرأة الغريبة قد أرضعتهما ، وربتهما ، وعندما ذرفت المرأة دموع الحب لأطفال الغرباء رأيت الله الحى فيها ، وعرفت ما به حياة الناس ، وعرفت أن الله كشف لى عن الكلمة الأخيرة وعفا عني ، فابتسمت الثالثة .

ثم سقطت الملابس عن جسم الملك ، ووقف مغموراً في النور ، حتى لم تعد العين تقوى على النظر إليه ، وازداد صوته عظمة حتى كأنه لا يصدر منه بل من السماء ، قال الملك .

- فهمت أن كل إنسان لا يحيا بتدبيره لنفسه ، بل بالحب .

لم يُعط للمرأة أن تعلم ما الذي تحتاج إليه طفلتها لتعيشا ، ولم يعط للرجل الغنى أن يعلم ما الذي يحتاج إليه ، ولم يعط لإنسان أن يعلم أيحتاج إلى حذاء ليلبسه أم إلى خف ليدفن فيه قبل أن ينتقضى النهار .

لقد حفظت حياتي البشرية لا لأني دبرت لحاجاتي بل لأن عابر الطريق كان فيه الحب ، وكان في زوجه الحب ، ولأنها أحببتني وعطفت ، على ، وعاشت اليتيمتان لا لأن غيرهما حاولوا أن يدبروا لهما بل لأن المرأة الغريبة كان الحب في قلبها ، فأحبتهما ، وعطفت عليهما ، والناس جميعاً يحيون لا لأنهم يدبرون لأنفسهم بل لأن الحب في الناس .

عرفت أن الله أعطى الحياة للناس وأرادهم أن يحيا والآن أعرف شيئاً أكثر .

أعرف أن الله لم يرد أن يعيش الناس كلٌ لنفسه ، ولهذا لم يكشف لهم عما يحتاج إليه كلٌ منهم لنفسه ، لقد أرادهم أن يعيشوا في أخوة ، فكشف لهم عما يحتاجون إليه جميعاً لأنفسهم ولغيرهم .

والآن أعرف أن الناس لا يحسبون إلا أنهم يحبون بالتدبير لأنفسهم ، ولكنهم يحيون بالحب وحده ، ومن يحى بالحب يحى بالله ، ويحى الله فيه . فالله هو الحب .

وسبح الملك بحمد الله فارتج البيت بتسبيحه ، وانفتح السقف ، وارتفع عمود نار من الأرض إلى السماء ، وخر سيميون وزوجه وأطفالهما راكعين ، وانبسط جناحان على ظهر الملك وارتفع إلى السماء .

وعندما تاب سيميون كان الكوخ كعهده به ، ولم يكن في الحجرة غير سيميون وأسرته .

فهرس

الموضوع	صفحة
مقدمة	3
تولستوى لستيفان تسفايج	5
ثبت بأعمال تولستوى	21
سبيل تولستوى إلى ذاته الباطنة	23
نقد تولستوى لعصره	39
فلسفة التاريخ عند تولستوى	57
أفكار تولستوى الأخلاقية فى قالب الخيال	
نيقولا العصا (نيكولاى پالكين)	63
ثلاثة أمثال	69
الملك أسير حدون	79
مابه حياة الناس	85

الكتاب الثاني

فيدور دستويشسكى

المقامر

تعريب

شكرى محمد عياد

عدت أخيراً بعد غيبة أسبوعين ، وكانت الجماعة قد وصلت منذ ثلاثة أيام إلى « رولتبرج » ، وكنت إخالهم ينتظروننى فى لهف شديد ، ولكن خاب ظنى ، فقد نظرا إلى الجنرال باستعلاء ، وخاطبني بأنفة ، وأرسلنى إلى أخته ، ووضح لى مرة لك أنهم حصلوا على شىء من المال من طريق ما ، بل لقد خيل إلى أن الجنرال خجل قليلاً حين نظر إلى .

وكانت ماريا قليوفا تبدو هى الأخرى فى شغل عنى ، وقد حدثتني وهى شاردة اللب ، ولكنها أخذت النقود وأحصتها ، واستمعت لقصتى ، وعلمت أنهم أعدوا وليمة غداء فخمة - كعادة المسكوفيين حين لايعوزهم المال - ودعوا إليها ميزانتسوف ، والفرنسى الصغير ، وسيداً إنجليزياً .

سألتنى پولينا ألكسندروفنا عن السر فى غيبتى الطويلة ، ولكنها ذهبت دون أن تنتظر جوابى ، ولم يخالجنى ريب فى أنها فعلت ذلك عامدة ، وشعرت أن الوقت قد حان لتنجلى الأمور بيننا .

خصصتُ بغرفة صغيرة فى الطابق الرابع من الفندق ، حيث يقال إنى « من أتباع الجنرال » ، ويبدو لى أن الجماعة قد جعلت لنفسها منزلة هنا ، حيث يظن أن الجنرال نبيل روسى واسع الثراء ، لقد أمرنى الجنرال قبل الغداء أن أصرف له ورقتين من نوات ألف الفرنك من مكتب الفندق ، وذلك بلا ريب يجعلنا نبدو من أصحاب الملايين ، ليت ذلك يدوم أسبوعاً واحداً فقط .

وكنت موشكا بعد ذلك أن أخرج مع ميشا وناديا للنزهة ، ولكن الجنرال استدعانى بينما كنت أهبط الدرج ، وقال : إنه يود أن يعلم أين أذهب بالطفلين ، حقاً إن هذا الجنرال لايجسر على النظر إلى عينيّ مهما حاول ذلك ، فإنى أردته كل مرة بنظرة ثابتة هازئة ، تفقده ثقته واطمئنانه ، عمد إلى أسلوب طنان ، تتراكب فيه الجمل ثم تتداعى متنافرة ، فأبان لى أننى يجب ألا أذهب بالطفلين إلى الكازينو ، بل يجب أن أصحبهما إلى الحديقة ، ثم انفجر غضبه فجأة ، وأضاف بحدة :

- أجل ، فربما حدثك نفسك أن تأخذهما إلى الكازينو لتلعب القمار ، ليس بخاف على أنك جد شغوف بالمقامرة . لست مريباً لك ، ولا أرغب أن أكون كذلك ، ولكن من حقى أن أريد ... باختصار ... أن تحافظ على سمعتى .

فأجبت بهدوء :

- ولكن المقامر لابد له من مال . إننى لا أملك شيئاً .

فأجاب الجنرال :

- لن يطول بك الوقت حتى تجد مالاً .

واحمر وجهه قليلاً وهو يمد يده فى درج مكتبه ليخرج سجل حسابه ، حيث وجد أن لى عنده مائة وعشرين روبلاً .

- تعال نحسب . علينا أن نحول هذا المقدار إلى عملة ألمانية . هاك مائة تالر . لن يضيع الباقي .

فتناولت النقود صامتاً ، وأضاف الجنرال :

- يجب ألا تغضب لما قلته لك . ما أشد تأثرى لهذه الأمور ! إننى لم أقصد من الملاحظة التى أبديتها لك إلا مجرد التحذير ... ومن حقى أن أفعل ذلك .

بينما كنت عائداً مع الطفلين قبيل الغداء ، قابلت أصحابنا فى قافلة ، وقد خرجوا ليشاهدوا بعض الأطلال الشهيرة فى الضواحي . كانت المدموازيل بلانش جالسة فى عربة جميلة مع ماريا فليپوڤنا وبوليننا ألكسندروڤنا ، والفرنسى الصغير والإنجليزى والجنرال محيطين بالعربة على صهوات جيادهم ؛ ووقف المارة ليتأملوا منظرهم العجيب ، وكان الجنرال لا يفتأ يتململ على ظهر جواده ، لعل سر قلقة أن أربعة آلاف الفرنك التى أحضرتها إليه ، إذا أضيف إليها ما حصل عليه هنا كان ما معه لا يزيد عن سبعة آلاف فرنك أو ثمانية آلاف ، وهذا المقدار أقل بكثير مما تتطلبه المدموازيل بلانش .

إن هذه المدموازيل بلانش ، تقيم فى فندقنا مع أمها ، كما يقيم فى مكان منه الفرنسى الصغير أيضاً ، والخدم هنا يسمونه « السيد الكونت » كما يسمون أم المدموازيل بلانش « السيدة الكونتس » ؛ ولم لا يكونان حقاً كونتا وكونتة ؟

لم أعجب أيضاً حين رأيت السيد الكونت يقتحمنى ببصره ، ونحن على المائدة ، فإن الجنرال لم يخطر بباله أن يقدم الواحد منا إلى الآخر ، ولا أن يزكىنى عند الكونت ؛ أما السيد الكونت فقد عاش فى روسيا ، وهو يعلم حق العلم أن الأوتشيتل (المربى) ليس بالشىء الخطير هناك ، وما من شك فى أنه عرفنى ، ولكنى لم أكن مدعواً للغداء ، وقد أراد الجنرال أن يستدرك الأمر ، بأن يرسلنى لأتغدى على مائدة

الفندق العامة - فهمت هذا من نظرة الضجر التي أنعم بها على - وأشارت ماريا فليوفا إلى مكاني ، ولكن معرفتي السابقة بالمستر أستلى أخرجتني من ذلك المأزق . فجلست بين الجماعة رغم أنف الجنرال والسيد الكونت والسيدة الكونتة . وكنت قد عرفت هذا الإنجليزي الغريب في بروسيا ، حيث اتفق أن جلسنا متقابلين في عربة من عربات القطار الذي ركبته لألحق بالجماعة . ورأيت بعد ذلك في فرنسا وفي سويسرا ؛ ومن عجيب الصدف أن أراه مرتين في مدى أسبوعين ، ثم أراه مرة ثالثة هنا في رولتبرج ! لم يتفق لي قط أن رأيت رجلا في حياته واعتزاله ، فقد كان نفورا للغايه ، ولكنه كان يدرك ذلك ، إذ لم يكن غيباً . وهو بعد امرؤ دمث الخلق لطيف المعشر ، وقد جعلته يأنس إلي لأول لقائه ، وأخبرني أنه ذهب في الصيف الماضي إلى الرأس الشمالي ، وكان يود أن يشهد سوق نشنى نوقجروود ، لست أدري كيف أصبح من رفقة الجنرال ، ولكن يبدو لي أنه مدله في حب پولينا . وقد سر كثيراً حين جلست بجانبه ، وكأني صادفت مكاناً رحيباً من نفسه .

وكان الفرنسي الصغير يُشعّب الحديث على المائدة ، ويعامل الجميع بترفع ، وهو يتحدث عن أحوال روسيا المالية والسياسية ، غير تارك لأحد فرصة الاعتراض ، اللهم إلا الجنرال الذي لم يكن بعدُ يجرؤ على ذلك إلا في كثير من التهيب .

أما أنا فكنت أفكر تفكيراً غريباً ، فقد جعلت أسائل نفسي ذلك السؤال الأبدى : لماذا أتعلق بأذيال هذا الجنرال ، ولماذا لم أتركه هو وأسرته منذ زمن طويل ؟ وكنت أنظر بين الفينة والفينة إلى پولينا ألكسندروفنا ، ولكنها لم تعرنى أدنى اهتمام ، فضاق صدى ، ونقد صبرى ، وعزمت على أن أكون فظاً .

وخضت في الحديث دون تلطف ولا تمهيد ، وكنت أتحرق شوقاً إلى مناوشة الفرنسي الصغير . فأخذت أحدث إلى الجنرال وأنا أرمي إلى هذا الهدف ، ثم قطعت حديثه فجأة وقلت له : إنني وجدت الروس هذا الصيف لا يكادون يستطيعون الغداء على « موائد الفنادق » في أي مكان . فرمقني الجنرال دهشاً فاستطردت : فإن الرجل الكريم لابد أن يحتمل في ذلك كل أذى وإهانة . ففي باريس ، وعلى الرين ، وفي سويسرا أيضاً ، ترى على هذه الموائد كثيراً من البولنديين وأصدقائهم الفرنسيين لا يكفون عن الكلام ، ولا يطيقون أن ينبس الروسى بكلمة . قلت هذا بالفرنسية ، فنظر إلي الجنرال في ريبة ، وكأنه لا يدرى أيتكلف الغضب ، أم يكتفى بأن يظهر الدهشة لتناسى منزلتي . ولكن الفرنسي قال بازدراء وعدم اكتراث :

– لعل أحداً لقنك درساً عن ذلك فى مكان ما .

فمضيت أقول :

– أجل . عندما كنت فى باريس تتازعت مع پولونى ، ثم مع ضابط فرنسى كان يناصره . وكانت ثلثة من الفرنسيين مارة بجانبى عندما قلت لهما : إنى توعدت مرة بأن أبصق فى فنجان قهوة مطران ! .

فحملق الجنرال فى زاهلاً ، وصاح مستنكراً : تبصق !

وحدجنى الفرنسى غير مصدق فاستأنفت قصتى :

– أجل ، حدث مرة أنى كنت أتأهب للرحيل إلى روما لأمر هام ، فذهبت إلى السفارة البابوية لوسم جواز السفر ، وهناك قابلت قساً فى نحو الخمسين ، ذا وجه جاف بارد . أصغى إلى مطلبى بأدب يمازجه التحفظ والتوقر ، ثم سألنى فى جفاء شديد أن أنتظر قليلا . وكنت عجلان ، ولكنى جلست وأخرجت من جيبى نسخة من صحيفة الأپثيون ناسيونال (الرأى العام) ، فوقع نظرى على مقال فيه طعن هائل موجه إلى روسيا . وبينما كنت أقرأ ، سمعت شخصاً يدخل إلى المطران من حجرة مجاورة ، ورأيت القس ينحنى للزائر ، انحناءة عظيمة ، ثم ينحنى له مرة أخرى عند انصرافه . فذكرت القس بحاجتى متلطفاً ، ولكن ذلك لم يزدہ إلا جفاء ، وسألنى مرة أخرى أن أنتظر . ثم جاء زائر ثالث فى حاجة له (وإخاله كان نمسويًا) فما كاد يعرض حاجته حتى أذن له فى الدخول . فتملكنى الغضب ، ونهضت ، واقتربت من القس ، وقلت له فى شدة : ما دام المطران يستقبل الزائرين ، فيجب أن يتسع وقته لحاجتى أيضاً . فتراجع القس مأخوذاً وكأئنه لا يعقل أن روسياً بسيطاً يستطيع أن يسمو بنفسه إلى مرتبة غيره من زوار المونسنيير ! ثم أجال طرفه فى وقال فى لهجة تحد ، وكأئنه يلتذ بالاساءة إلى : عجبا ! أتريد أن يترك المطران قهوته تبرد من أجلك ! عندئذ صرخت بصوت كالرعد : إنى أبصق فى قهوة المطران ، وإذا لم يفرغ من هذا الجواز على الفور فسأدخل على الرغم منك ! فصاح القس وهو يرتعد من الخوف : ماذا تقول ؟ إن المطران عنده كردينال الآن ! وأسرع إلى الباب ، وأسند ظهره إليه ، وبسط ذراعية كأئنه يريدنى أنه يفضل الموت على أن يسمح لى بالدخول . فأجبتہ بأنى ملحد بربرى ، وأنى لا أبالى بهؤلاء الرعاة والكرادلة والمطارنة ومن إليهم . فنظر إلى القس فى ابتسامة غريبة ، ابتسامة تتم عن حقد متأصل ، وغضب مكظوم . ثم انتزع الجواز من يدى ، وبعد لحظة كان قد وسمه . وإليكم الجواز إن شئتم أن تروه .

وأبرزت الجواز ، وأريتهم السمة البابوية . فتمتم الجنرال :

- ولكن ...

وقال الفرنسي مبتسماً :

- لم ينقذك إلا إعلانك أنك ملحد ويربرى . ها ها ! لم تكن غيباً ! إذ قلت هذا !

- هل كان أجدر بى أن أقلد إخواننا الروس ؟ إنهم لا يحركون ساكناً ، ولا يبدون اعتراضاً ، بل ما أراهم إلا مستعدين لأن ينكروا قوميتهم متى سئلوا . حقاً لقد زدت فى أعين القوم احتراماً عند ما عرفوا شجاعتي مع القس ، ولاحظت أن السيد البولونى الذى كان أسوأ الجميع أدباً ، قد صعد إلى غرفته مسرعاً . أما الفرنسيون فلم يقاطعونى حين رويت لهم أنى رأيت منذ عامين رجلاً أطلق عليه أحد « الأبطال » الفرنسيين رصاص بندقيته فى سنة ١٨١٢ ، لمحض اللهو ، ولم يكن ذلك الرجل يومئذ إلا صبياً فى العاشرة ، وما تزال أسرته مقيمة فى موسكو .

فزمجر الفرنسي الصغير :

- هذا غير ممكن ! إن الجندى الفرنسي لا يرمى طفلاً بالرصاص ! فأجبهته ببرود :

- ولكن هذا ما حدث . لقد أخبرنى بالقصة ضابط سابق وقور ، وقد رأيت النذبة على خده .

وأخذ الفرنسي يتحدث فى طلاقة وحماسة ، وأراد الجنرال أولاً أن يؤيده ، ولكنى نصحت للفرنسى بأن يقرأ طرفاً من مذكرات الجنرال بيروفسكى ، الذى كان أسير الفرنسيين عام ١٨١٢ . وأخيراً أثارت ماريا فليوفا موضوعاً آخر لتقطع هذا الحديث . وكان الجنرال بادى السخط على لمشاحنتى مع الفرنسي ، على حين أظهر المستر أستلى سروراً كبيراً بهذه الملاحاة ، ودعانى وهو ينهض عن المائدة لأن نشرب سوياً بعض الكئوس .

فى نحو الساعة الرابعة من مساء ذلك اليوم ، تحدثت إلى پولينا حديثنا العادى ، ثم أخذنا نسير فى الحديقة حتى اقتربنا من الكازينو ، فجلست پولينا على مقعد قرب النافورة ، وأرسلت نادياً تلعب مع أطفال آخرين على مقربة منا ، كما أرسلت ميشا يلعب قرب النافورة ، فأصبحنا وحيدين .

بدأنا الحديث فى شئون عملية ، وغضبت پولينا حين قدمت إليها سبعمائة « جلد » فقد كانت تطمح أن تحصل من رهن جواهرها فى باريس على ألفى جلد بل أكثر .

- قالت : لا بد أن أحصل على النقود مهما كلفنى ذلك ، وإلا ضيعتُ .
- فسألتها عما جرى فى أثناء غيبتى . فأجابت :
- لاشيء غير أننا تلقينا خبرين من بطرسبرج ، الأول : أن الجدة فى أسوأ حال ، والثانى : أنها قد لا تمتد بها الحياة يومين جديدين ، ومصدر هذا الخبر الأخير هو تيموثى پتروفتش ، وهو أمين كما تعلم .
- إذن فلكم منتظرون .
- أجل . كلنا ننتظر بين لحظة وأخرى . وقد مضى عام ونصف ونحن نترقب .
- وهل تطمعين أنت فى شيء ؟
- أنت تعلم أنى لست من أقرباء الجدة . فما أنا إلا ربيبة الجنرال ، ولكنى واثقة أنها لم تنسى فى وصيتها .
- فأجبتها مؤكدا :
- بل أعتقد أنها حبك بكثير .
- أجل . فهى تحبنى . ولكن ما الذى دعاك إلى أن تفكر فى هذا ؟ فأجبت على سؤالها بسؤال :
- هل يعلم المركز أيضاً بهذه الأسرار ؟
- فقلت وهى تنظر إلى بصرامة :
- ولماذا تهتم أنت بها ؟
- معذرة . ولكنى أظنه قد أقرض الجنرال شيئاً من المال .
- هذا صحيح .
- حسناً ! أترينه كان يقرضه شيئاً لو لم يكن يعتمد على مال الجدة ؟ هل لاحظت أنه سماها الجدة ثلاث مرات على المائدة ؟ يا لها من ألفة ! كأنه فرد من الأسرة !
- ولكنك مصيب فى ظنك . لن يعلم أن لى نصيباً من الوصية حتى يسألنى أن أتزوجه . أليس هذا ما تريد أن تعلمه ؟
- ألم يفعل ذلك بعد ؟ كنت أظنه فعله من زمن طويل .

فقلت پولينا فى صبر ناقد :

- أنت تعلم جيداً أنه لم يفعل ! وأردفت بعد فترة :

- ولكن أين لقيت هذا الإنجليزي ؟

- كنت أعلم أنك ستسأليننى عنه .

وأخبرتها كيف صادفت أسئلى فى أثناء السفر . وأضفت :

- أنه شديد الحياء . وهو يحبك أيضاً .

- أجل . إنه يحبنى .

- يظهر أن ثروته عشرة أضعاف ثروة الفرنسى . من يدرى ماذا يملك هذا الفرنسى ؟ يخيل إلى أنه لا يملك شيئاً على الإطلاق !

- كلا . لاشك أنه يملك قصراً فى مكان ما ، وقد أخبرنى الجنرال بذلك أمس . هل عرفت الآن كل ما تريد ؟

- ربما كان ما تقولينه صحيحاً . ولكنى لو كنت فى مكانك لتزوجت الإنجليزي .

- لماذا ؟

فقلت فى نبرة حاسمة :

- لاشك أن الفرنسى أجمل ، ولكنه أخط أخلاقاً . أما الإنجليزي فهو رجل شريف ، وثروته عشرة أضعاف ثروة الفرنسى .

- حقا ! ولكن الفرنسى مركيز ، وهو أذكى من الإنجليزي .

- أتريين ذلك ؟

غضبت پولينا لأسئلتى ، ولاحظت أنها تجتهد فى إغاضتى بعنف إجاباتها ، وصارحتها بهذه الفكرة على الفور ، فقلت :

- إنى أسر حقاً حين تغضب . ولكنى أسمع لك بأن تسأل وتلح وتستطلع فيجب أن تدفع الثمن .

فأجبتها بهدوء شديد :

- يخيل إلى أن لى الحق فى أن أسالك ما أشاء من الأسئلة ، ما دمت مستعداً لأن أدفع الثمن ، ولأن أقدم إليك حياتى دون مطمع .

فجعلت تضحك لاهية ثم قالت :

- لقد أخبرتني أخيراً عندما كنا فى شلاجنبرج أنك مستعد لأن تقذف برأسك إلى الهاوية إذا أمرتك . ويخيل إلى أن عمق هذه الهاوية كان ألف ذراع . سأقول لك يوماً من الأيام هذه الكلمة التى تنتظرها ، وسأعرف عندئذ مبلغ صدقك . إنى أكرهك ، لأننى سمحت لك بأن تحدثنى كما تشتهى ، وأكرهك أيضاً لأنى فى حاجة إليك . ومع ذلك فليس لك أن تجزع ، فسوف أصانعك ما دمت أحتاج إليك .

كان فى كلامها نبرة الغضب الشديد . ولاعجب ، فعلى هذا النحو كانت تنتهى محادثتنا فى الأيام الأخيرة .

- هل لى أن أسالك من هذه المدموازيل بلانش ؟

- أنت تعلم ذلك جيداً . هى المدموازيل بلانش ، ولم يجد جديد منذ سافرت . ولكن قد لا يطول بها الوقت حتى تسمى « عقيلة الجنرال » . هذا إن صدق ما سمعناه وكانت الجدة مشرفة على الموت ، فإن المدموازيل بلانش وأمها وقريبها المركيز يعلمون جيداً أنا مفلسون .

- وهل يحبها الجنرال ؟

- ليس هذا هو المهم فى المسألة . اسمع ، هاك سبعمائة فلورين . أذهب إلى الروليت واربح لأجلى كل ما تستطيع . فلا بد لى من المال .

قالت ذلك ، وأخذت ناديا معها ، ودخلتا الملهى حيث انضمتا إلى سائر الجماعة . أما أنا فسلكت أول درب على يسارى وجعلت أفكر . لقد أصابنى الدهول حين أمرتني بالذهاب إلى الروليت ، ومن العجيب أن هذا الدهول أدخل على نفسى التردد ، وجعلنى أحل شعورى نحو پولينا . الحق أنى كنت أنعم بالأطيلة الأسبوعين اللذين قضيتهما بعيداً عنها ، منى يوم عدت إليها . وذلك رغم أنى كنت أشعر بالملل ، وكنت أتخبط كالأبله ، وأندفع كالمحموم ، وكانت صورتها ملء خيالى .

ولا أنسى أنى كنت يوماً فى سويسرا ، وكنت نائماً فى عربة قطار ، فوجدت نفسى أكلم پولينا بصوت عال ، ولعل ضحكات جيرانى هى التى أيقظتني .

وسألت نفسى مرة أخرى ، أترانى أحبها ؟ وللمرة المائة عجزت عن الجواب ، أو بالحرى قلت لنفسى إنى أكرهها . نعم ، إنى أكرهها . فقد كنت أشعر أحياناً ، وخصوصاً عندما يشرف حديثنا على الانتهاء ، أنى مستعد لأن أدفع كل ما بقى

من أعوام حياتي ثمناً لأستطيع خنقها . أه لو استطعت أن أغمد في صدرها قليلاً قليلاً خنجرى المسنون ! يخيل إليّ أنى لو فعلت ذلك لسررت أعظم السرور . ومع هذا أستطيع أن أقسم أيضاً أنها لو أمرتني ، هناك على شلاجنيرج ؛ ذلك الجبل الأنيق ، أن أقذف بنفسى إلى الهاوية لفعلت ذلك سعيداً . أجل ، إنى واثق من ذلك . يجب أن ينتهى هذا الأمر يوماً . إنها هى أيضاً لا تجهله . . إنها تعلم إحساسى بالعجز أمامها ، واليأس من تحقيق أحلامى معها . وهذا ولاشك يملؤها سروراً ، ويجعلها صريحة معى رغم حرصها وذكائها . إنها تشبه تلك الأميرة القديمة التى لا تردد أن تتعري أمام عبدها - ويبدو لى أننى كنت فى عينى پولينا أقل من رجل .

ولكنها أمرتني أن أربح كل ما أستطيع فى الروليت . لماذا ترى حتماً عليها أن تربح ، وأى جديد تمخض عنه عقلها الخصب ؟ يبدو لى أنه قد تجمت فى ذينك الأسبوعين اللذين لم أشهدهما عوامل كثيرة مجهولة . وعلى أن أحس وأختبر . ولكنى لا أجد متسعاً من الوقت للتفكير الآن ، إذ يجب على أن أذهب إلى الروليت .

* * *

أعترف أن ذلك لم يرقنى . حقاً لقد كنت عازماً على اللعب ، ولكنى لم أكن أريد أن ألعب لغيرى ، ولذلك اضطرب تفكيرى ، وخالجنى ، حين دخلت بهو القمار ، ازدراء لما حولى ، وتملكنى لأول وهلة ضيق بكل شيء . لطالما أنكرت هذا الروح الذليل الذى يبدو فى صحف العالم أجمع ، وفى صحافة روسيا خاصة ؛ هذا الروح الذى يحتم على كل صحفى مرتزق أن يكتب كل مساء عن هذين الموضوعين : « فخامة صالونات اللعب فى مدن الروليت على ضفاف الرين ، وأكوام الذهب التى تتكدس كل يوم على الموائد » . ومن الغريب أن هؤلاء المرتزقة لا يؤجرون على ذلك الكلام ، بل هم يصرون فيما يكتبونه عن ذلة محضة . فليس فى هذه الأبنية شيء من الفخامة ، وأكوام الذهب لا ترى على هذه الموائد ، بل إن ما يرى من المال جد قليل . طبيعى أن موسم اللعب قد يأتى المدينة بطارق أجنبى من أثرياء الإنجليز أو الأسيويين أو الترك ، فيلبث فى المدينة يومين ، ويبيت ليلة فى البهو ، ليخسر فيه أو يربح أموالاً طائلة . ولكن عامة اللاعبين لا يقامرون بغير فلورينات معدودة ، وموائد اللعب لا ترى عليها عادة إلا قليلاً من النقود .

فلما دخلت بهو القمار هذه المرة - وكان ذلك فى أول عهدي بالقمار - لبثت لحظات عديدة وأنا لا أجرو على اللعب . وضاق صدرى لكثرة من كان هناك من اللاعبين ، ولو كنت أقامر لنفسى لانصرفت لتوى ، ولما أقدمت على اللعب قط . فقد أخذ قلبى يدق دقاً شديداً ، وفقدت رباطة الجأش .

كنت عازماً منذ زمن طويل ألا أغادر رولتبرج إلا وقد تبدل مصيرى تبديلاً تاماً نهائياً . هذا ما يجب أن يكون ، وهذا ما سوف يكون . قد تسخر من هذه الفكرة ، ولكنى لا أراك أقرب إلى الصواب منى ، فإن القمار وسيلة للربح كغيره من الوسائل . حقاً إن الربح فى القمار لا يقيض إلا لواحد فى المائة ، ولكن هناك هذا الواحد . ولهذا صممت على الفور أن أختبر كل شيء وأن لا أبداً بدءاً حقيقياً تلك الليلة ، فقد شعرت أنى لو أقدمت على شيء ما لفعلته ذاهلاً معتمداً على الصدفة وحدها .

كنت عاقد العزم على هذا ، وكان على بعد أن أدرس اللعبة نفسها ؛ فإنى رغم كل ما التهمت من كتب الروليت ، لم أستطع أن أفهم طرق اللعب إلا حين مارستها بنفسى . غير أن كل شيء بدا لى أول الأمر دنيئاً قذراً ، ولست أعنى ذلك الجمهور

الجائع القلق الذى كان يزدحم عشرات ومئات حول الموائد ، فإننى لا أجد شيئاً من الدناءة فى رغبة الإنسان أن يربح من أقصر طريق أكثر ما يستطيع من المال . ولقد كان يعجبني قول ذلك الحكيم السالف : « إذا قامرت فلا تلزم الحذر ، فإن القليل التافه لا يأتى إلا بالقليل التافه ، وهذا الحرص لا يجعل القمار خيراً مما هو » . إلا أن المسألة تبدو لى نسبية ، فتفاهة الربح وجسامته ليست واحدة فى كل حال ، والقليل عند روتشيلد كثير بالنسبة إلى ! وليس ذنب القمار والربح أنك حيثما وجدت أناساً يربحون ، وجدتهم يحرمون غيرهم من بعض الأشياء ، كما يفعلون فى الروليت . أما أن القمار والربح حرام فى ذاتهما فمسألة أخرى لا أريد أن أبدى فيها رأياً .

لم تعزف نفسى إذن عن هذه الجموع المتزاحمة تبغى الربح ، بل لعلها وجدت فيهم ترديداً لرغبتها ، فاستشعرت نحوهم شيئاً من التعاطف الذى يحسه المرء حين يرى الناس طلقاء من قيودهم ، أمعاء لطبيعتهم . ولكن الذى هالنى يفظاظته وفضاعته فى هذه الأخلاط التى يتكون منها جمهور الروليت ، إنما هو تلك الرزانة المثيرة التى يصطنعها الجالسون حول الموائد . فهناك نوعان من اللعب : لعب السيد ، ولعب السوق . وتستطيع أن تميز هذين النوعين بجلاء ، ولو أن التمييز بينهما عبث وسخف . أما السيد فيقامر بخمسة لويات أو عشرة ، وقلما يضع أكثر من ذلك ، ولو أنه يستطيع - إذا كان غنياً - أن يقامر بألف فرنك ؛ ولكن هواه فى اللعب ذاته . وما يدخله على نفسه من الطرب تقلب الحظوظ واختلاف الربح والخسارة . أما الربح نفسه فأمر لا يعنيه . ويجمل بالسيد حين يتناول ربحه أن يطرف أحد جيرانه بملحة .

وقد يلعب السيد بما ربح ، بل قد يضاعفه ، ولكنه لا يفعل ذلك إلا بدافع الاستطلاع ، ومسايرة الحظ ، والتفنن فى اللعب ، لا بالرغبة السوقية فى الربح . لا ينبغي أن يرى السيد فى بهو القمار إلا ملهاة ، وليجهل كل الجهل أن موائد القمار إنما تقوم على غرور الربح وإغراء المال . والأفضل أن يفترض السيد ذلك فيمن يحيط به من اللاعبين ، الذين ترتعش أيديهم على كل قطعة من النقود ، فيراهم مثله سادة أثرياء ، يلعبون للذة والاسترواح . وهذه هى الأرستقراطية الصحيحة فى نظرى . جهل تام بالحقائق ، ونظرة بريئة إلى البشرية ... ولقد رأيت أمهات يقدمن النقود الذهبية إلى فتيات غريرات فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ، ويعلمنهن اللعب ، وقد تربح الفتيات أو لا تربحن ، ولكنهن يجب أن يضحكن على كل حال ، وأن ينصرفن وعليهن مظاهر السرور .

ورأيت جنرالنا مرة يقترب من المائدة فى وقار ، فيسارع إليه الخدم يقدمون له كرسيًا ، ولكنه لا يكاد ينتبه إليهم ، بل يتناول من حافظة نقوده ثلاثمائة فرنك ذهباً ، ويضعها على الأسود ويربح ، ويكرر ذلك فيظهر الأسود ثانية ، ولكن الأحمر يظهر فى المرة الثالثة ، فيخسر ألفاً ومائتى فرنك دفعة واحدة ، ويخرج وهو يتجلد ويظهر الابتسامة . ولا أنسى أن أضيف إلى هذه الأمثلة أن فرنسياً ربح أمامى ثلاثين ألف فرنك ثم خسرهما وهو مسرور . أجل . إن السيد يجب أن يتقبل كل شىء بهدوء ، لأن المال عنده أحقر من أن يهتم له . ومن تمام الأرستقراطية - لا شك - ألا يلاحظ مبلغ حقارة هؤلاء الأوشاب الذين يحيطون به ، ولكن قد يكون من تمام الأرستقراطية أحياناً أن يلاحظ ذلك ويتأمله من خلال منظاره ، يفعل ذلك طلباً للتسلية ، وهل الحياة إلا تسلية للسادة ؟ إن السيد لا يعيش إلا ليتفرج بالنظر إلى الدهماء . غير أنه يجب ألا يمعن النظر طويلاً فيما حوله ، فهذا المنظر لا يستحق كبير انتباه ، وأى منظر يستحق انتباه السيد ؟ ... أقول هذا معبراً عن رأى السادة ، أما أنا فأعتقد أن ذلك كله يستأهل النظر الدقيق . غير أنى لم أت ههنا متفرجاً فحسب ، بل جئت فرداً فى عداد هذه الدهماء ، ولم تكن معتقداتى الخاصة تعينى كثيراً . حسبى إذن أن أبسطها هنا ، فقد أصبح بغيضاً إلى أن أخضع أعمالى وأفكارى لقوانين الأخلاق . إنى أتبع سبيلاً آخر ...

والحق أن لعب السوق كان دنيئاً إلى الدرجة القصوى . وأكاد أعتقد أن هذا اللعب المزعوم ينطوى على سرقات صريحة . « فالكروبييه » عند كل من طرفى المائدة يجب أن يراقب النقود ، ويجرى الحساب ، وهذا الكروبييه سوقة هو الآخر ! والمقامرون أكثرهم فرنسيون . ويجب ألا تنسى أنى لم أكن أرمى بهذه الملاحظات إلى تدوين وصف للروليت وحسب ، ولكنى كنت أريد أن أعرف كيف يجب أن أسلك عندما أبدأ اللعب ، فليس بعيداً - بل من المألوف جداً - أن تمتد يد إلى المائدة وتتناول ربحك ، وعندئذ يثور الجدل ، وترتفع الصيحات ، ولكن - بالله ربك - كيف تستطيع أن تثبت أنك صاحب المال ؟

لم أفهم ذلك كله بآدى الأمر إلا كما أفهم العبرية . وكل ما علمته أنهم يلعبون على أرقام ، منها « زوجى » و « فردى » ، وعلى ألوان . وقررت ألا أقامر تلك الليلة إلا بمائتى فلورين من نقود بولينا .

وكانت أعصابى ثائرة لأنى مقدم على اللعب لغيرى . وأملتى هذه الفكرة ، فأردت أن أفرع من كل شىء مسرعاً . لقد كان يخيل إلى أنى أحطم حظى باللعب ليولينا ، ويكفى أن تلمس مائدة اللعب حتى تؤمن بالخرافات ! وضعت خمسين جُلدًا على « الزوجى » . ودارت العجلة وخرج الرقم الثالث عشر .

خسرت إذن ! ثم وضعت خمسين أخرى على الأحمر ، وأنا أغالب إحساساً كإحساس المريض بالألم ، ورغبة قوية فى الهروب من ذلك الحشد ، وظهر الأحمر . فتركت مائة الجلد على الأحمر ، وربحت ثانية ، ثم تركت المال حيث هو فربحت أيضاً . فأمسكت بأربعمائة الجلد ووضعت مائتين منها على الاثنى عشر الوسطى ، لأرى ماذا ينتج من ذلك . فإذا بالكروبييه يدفع إلى ثلاثة أضعاف رهانى ! إذن فقد أصبحت مائة « الجلد » ثمانمائة ! خامرنى إحساس غريب معقد يهيب بى أن أرحل ، وخالجنى الظن أنى لو كنت ألعب لنفسى لما ربحت هذا الربح . ثم وضعت ثمانمائة الجلد على « الزوجى » فوقفت العجلة على رقم ٤ .

وأخذت ألفاً وستمائة جلد وذهبت أبحث عن پولينا ألكسندروفنا . فوجدت الجماعة كلهم يتتزهون فى الحديقة ، ولم أستطع أن أنفرد بها إلا بعد العشاء ، ولم يكن الفرنسى حاضراً هذه المرة ، فاستطاع الجنرال أن ينتهز هذه الفرصة ليتحدث بما يريد . وقال لى فيما قال إنه لا يريد أن يرانى على مائدة القمار ، فقد كان يرى فى ذلك تهديداً لسمعته ، ولاسيما إذا خسرت كثيراً . على أنه استدرك ملمحاً : ولن تسلم سمعتى أيضاً وإن ربحت كثيراً . ليس لى الحق أن أفرض عليك سلوكاً بعينه ، ولكنك توافقنى ...

وهنا أمسك كعادته ، فأجيبته فى جفاء شديد أنى لا أملك إلا قليلا من النقود ، فلن أستطيع المقامرة كثيراً . وبينما كنت عائداً إلى غرفتى ، استطعت أن أخبر پولينا بربحها ، وصارحتها أنى لن ألعب لها بعد ذلك الحين ، فسألت فى قلق :

— لماذا ؟

فأجبتها وأنا أتصنع الدهشة :

— لأنى أريد أن ألعب لنفسى . هذا هو السبب الوحيد .

فقلت بابتسامة ساخرة :

— معك حق ! لا خلاص لك إلا بالروليت !

— أجل !

أعترف أن الأمل في الربح المستمر أملٌ مضحك ، ولكني لم أكن لأبالي بذلك ، ولم أرد إلا أن أخلى وشائي .

وقد أصرتُ پولينا ألكسندروفنا على أن نقتسم ربح اليوم ، وقدمت إلى ثمانمائة « جلد » على أن أستمّر في اللعب بهذا الشرط . رفضتُ ذلك رفضاً باتاً ، وصارحتها أنني لا أستطيع أن ألعب لغيري ، وأني أحس أن لو فعلت فقد أخسر ، بل سأخسر دون شك .

- ورغم هذا ، ورغم سخافة الفكرة ، فأتأ أيضاً يخيّل إليّ أن لا أأمل لي في غير الروليت . إذن يجب أن تلعب لي ، وأنا أريد أن أقاسمك ، وستفعل ما أريد . وخرجت دون أن تنتظر أو تسمع احتجاجي .

لم تحدثنى طيلة نهار أمس بشيء عن المقامرة . بل لقد تحاشتني تحاشياً ، وغيرت قليلاً من سلوكها إزائى ، فلم تكذب تبنى لى شيئاً حتى الاحتقار . وأدركت أنها غاضبة ، ولكن ألم تقل لى أنها ستصانعنى ما دامت تحتاج إلى ؟ لقد توشجت بيننا علاقات غريبة يعيننى فهمها فى أكثر الأحيان ، وأشد ما يحيرنى فيها كبرياؤها الشديد ، فهى تعلم أنى أحبها حتى الجنون ، بل تسمح لى أن أحدثها بحبى ، وليس أعظم من هذا علامة على الاحتقار ! فكأنها تقول : إن إحساساتك لا تهمنى . تستطيع أن تعبر عنها أو تدع ذلك ، فكلهما سواء عندى !

وكثيراً ما تحدثنى عن شئونها الخاصة ، ولكنها لا تحدثنى ألبتة فى صراحة تامة ؛ وهذا أيضاً احتقار ملطف . وهى تعلم أنى مطلع على كثير من شئونها ، وعلى أشد هذه الشئون إرباكاً لها ، ولكنها لا تطلعنى إلا على تفاصيل قليلة ، حينما يكون ذلك ضرورياً للاستفادة منى واستغلالى ، وكأنما أنا عبد أو صديق عابر . أما مجرى الحوادث فقد كانت تخفيه عنى دائماً ؛ إلا أن ترانى مهموماً لمشاكلها فتتفضل على بشيء من التصريح ، كأن لم يكن واجبها - وقد عهدت إلى فى أمور خطيرة - أن تكون صريحة معى كل الصراحة !

وقد كنت أعلم منذ ثلاثة أسابيع عزمها على أن تأمرنى بالمقامرة ، إذا لم يكن من اللائق أن تقامر هى . فلما طالعت محياها فهمت أن ذلك لم يكن منها لرغبة مبهمة بل لحاجة ملحة إلى النقود . ولكن لماذا تريد النقود ؟ لا بد أن لها غرضاً ، بل مشروعاً لا أعلمه ، مشروعاً ألمحه ولكنى لا أكاد أتبينه . حقاً إن العبودية الذليلة التى تفرضها على تمنحنى الحق فى أن أسألها عما أريد بغير موارد ، وما دامت لا تهتم بى كثيراً فلن يغضبها فضولى . ولكنها إن سمحت لى بأن أسألها فلن تمنّ على بالجواب . بل لعلها لا تلتفت إلى بته . هذا هو وضع المسألة .

سمعت أمس لغطاً عن برقية أرسلت إلى بطرسبرج منذ أربعة أيام ولم يرد جوابها بعد ، وكان الجنرال يبدو قلقاً مفكراً ، فلا شك أن الأمر يتعلق بالجنة . وكان الفرنسى قلقاً أيضاً ، وقد تحدثت الجماعة كلها مساء أمس حديثاً جدياً طويلاً بعد العشاء . إن هذا الفرنسى يصطنع معنا جميعاً نغمة غريبة من التعالى والاحتقار ، وقد

قيل فى الأمثال : ادع شخصاً إلى مائدتك ، فسرعان ما يضع عليها قدميه . وهو كذلك يظهر نحو پولينا ألفة تكاد تبلغ حد القحة ، إلا أنه يبدى سروره بمشاركة الجماعة فى نزعتها فى الملهى وعلى ظهور الخيل وفى الضواحي . وقد كانت له بالجنرال منذ زمن طويل علاقات متشعبة ، وفكرا أن يؤسساً معاً مصنعاً فى روسيا ، ولا أدري هل أقلعنا عن هذه الفكرة أم ما زالوا عازمين على تنفيذها . وقد بلغنى فوق ذلك أن الفرنسى أنقذ الجنرال من مأزق وقع فيه فى العام الفائت ، وذلك بأن أقرضه ثلاثين ألف روبل كان فى حاجة إليها ليدفع دينه للخزانة العامة قبل اعتزاله الوظيفة ... لقد كان الجنرال يومئذ فى قبضة دى جرييه ، أما الآن ، فالدموازيل بلانش هى التى تلعب الدور الأول .

من هذه الدموازيل بلانش ؟ يقولون : إنها فرنسية من الطبقة الراقية ، وإنها تملك وأنها ثروة هائلة . ويقولون أيضاً : أنها تمت إلى المركز بقرابة ، فلعلها تلتقى معه فى الجد الثالث . وقد علمت أنه قبل رحلتى إلى باريس ، كان فى سلوكهما نحو الجماعة شىء من الكلفة والتحفظ ، أما الآن فقد أصبحت معرفتهما بها ، أو صداقتهما لها ، أعظم تطلقاً ... فهل كان ذلك لأن اضطراب أحوالنا جعلهما يقرران ألا حاجة بهما إلى مزيد من التأدب أو التوقر ؟

ولاحظت أيضاً منذ ثلاثة أيام أن المستر أستلى يتبع الدموازيل بلانش وأنها نظره ، وكأنه يعرفهما . ويخيل إلى أيضاً أن الإنجليزى والفرنسى ليسا غريبين كل عن الآخر . ولكن المستر أستلى رجل حى مأمون اللسان ، وكأنه جُبِل على كتمان الأسرار . والفرنسى لا يكاد يحييه أو يلتفت إليه ، ومعنى ذلك أنه لا يخافه . قد أفهم هذا كله ، ولكننى لا أفهم لماذا تصر الدموازيل بلانش على إهمال المستر أستلى ، خاصة وقد فضح المركز نفسه مساء أمس ، إذ قال فى ثنايا الحديث - لا أدري لأى مناسبة - إن المستر أستلى وافرا لثراء ، « وإنه يعلم ذلك » . ألم يكن هذا سبباً كافياً لأن تعنى الدموازيل بلانش بالإنجليزى عناية أكبر ؟ ... على كل حال فإن الجنرال لم يعد يخفى قلقه من هذه الناحية ، إذ أنه ما يزال ينتظر برقية من سانت بطرسبرج !

پولينا تتجنبنى شبه عامدة ، أما أنا فأتظاهر بعدم المبالاة ، معتقداً أن إعراضها لن يدوم طويلاً . وقد حاولت الانتقام منها بأن وجهت كل اهتمامى نحو الدموازيل بلانش ، فطار قلب الجنرال المسكين شعاعاً ... من الدواهى أن يشغف الرجل حباً وهو فى الخامسة والخمسين ، وهو أرمل وأبو ثلاثة أطفال ، وهو غارق فى الديون وعلى شفا الإفلاس . ثم أن يحب مثل هذه المرأة ! إن الدموازيل بلانش جميلة ، ولكن ماذا أقول ؟

إن لها وجهاً يمكن أن يكون مخيفاً . أما أنا فما زلت أرهب هذا الصنف من النساء .
هى تبدو فى نحو الخامسة والعشرين ، مديدة القامة ، عريضة الكتفين مستديرتهما ،
بديعة الصدر والعنق ، ذات بشرة صفراء كالذهب ، وشعر غداًفى أثيث يستطيع أن
يتوج رأسين ، وعينين يميل بياضهما إلى الاصفرار ، أما سوادهما فحالك ، ونظرة
جريئة ، وأسنان ناصعة البياض ، وشفتين لا يفارقهما الطلاء . وهى كثيرة التعطر
بالمسك ، شديدة العناية بملبسها ، لها يداً وقدمان بديعتان ، وصوت أنثوى ملئ فى
شئ من الصجل ... كانت حين تضحك تبدى أسنانها جميعاً ، ولكنها أميل إلى
الصمت وخاصة أمام پولينا . ليست على شئ من الثقافة ، ولعلها ليست على شئ من
العمق ، ولكنها شديدة الدهاء ، ويخيل إلى أن حياتها لم تخل من مغامرات . لعل
المركز لا يمت إليها بقرابة ، ولا أمها كذلك ...

ولكن لاشك أنها عاشرت الطبقة الراقية فى برلين . أما المركز نفسه - ولا زلت
أشك فى نبأته - فهو بلا ريب قد اتصل بعلية القوم فى ألمانيا وروسيا ، ولا أدري ماذا
كانت هويته فى فرنسا ، ولكنهم يقولون إنه يملك قصراً هناك . لقد كنت أتوقع أن
يحدث فى الأسبوعين الماضيين أمر حاسم بين المدموازيل والجنرال ، ويبدو أن كل شئ
يتوقف على ما لدينا من مال : أيستطيع الجنرال أن يلوح أمامها بمال كاف ؟ كنت
واثقاً أن المدموازيل بلانش ستختفى فى طرفة عين إذا ما علمت أن الجدة لم تمت .
لشد ما تضيق نفسى بهذه الخدع ! ولكم أود لو تركتهم جميعاً ! ولكن هل أستطيع أن
أفارق پولينا ؟ هل أستطيع ألا أحوم حولها وأتجسس عليها محاولاً إنقاذها ؟ لا شك
أن التجسس خلق دنىء ، ولكنى لا أملك حيلة سواه .

وقد بدا لى أن المستر أستلى شديد القلق أيضاً ، ولست أشك فى أنه يحب پولينا .
فكم تنم نظرة الرجل الخجول عليه إذا مس قلبه الحب ! هذا الرجل يفضل أن يغوص
فى أعماق الأرض على أن يبوح بما صرحت به عيناه . إنه يلتقى بنا كثيراً ونحن نتنزه
فيرفع قبعبته ويمضى ، وكله رغبة فى أن ينضم إلينا . ولو دعونا لاعتذر على الفور .
كثيراً ما يقف على مقربة منا فى الكازينو أو بهو الموسيقى أو قرب النافورة . كان
بصرنا يقع عليه حيثما كنا ... فى الحديقة أو الغابة أو فوق شلاجنبرج . فإذا حانت
منا التفاتة فما من ريب فى أننا سنلمح أثراً منه فى أقرب ردهة أو خلف شجيرة .
وكنت أترقب الفرص ليكلمنى ، حتى التقينا هذا الصباح ، وتبادلنا بضع كلمات .
ابتدرنى قائلاً قبل أن يوجه إلى التحية :

- لقد رأيت نساء كثيرات مثل المدموازيل بلانش
وصمت وتنظر إلى نظرة ذات معنى . فماذا أراد أن يقول ؟ لا أدري !
فإنى حين سألته :
- ماذا تعنى بهذا ؟
هز رأسه فى خبث وأجاب :
- كذا ... هل تحب المدموازيل پولينا الزهور ؟
- لا أدري !
فصاح فى دهشة بالغة :
- كيف لا تدري ؟
فأجبت مبتسماً :
- أجل . إنى لم ألاحظ قط أهى تحبها أم لا .
- عجباً . هذا أمر يدعو إلى التفكير .
وأوماً إلى برأسه وابتعد ، وعلى وجهه سيماء الرضا . وكان الحديث بيننا
فى فرنسية سقيمة .

* * *

انقضى اليوم فى عبث وبلادة وحماقة . والساعة الآن الحادية عشرة مساءً ، وأنا جالس فى حجرتى أفكر ، لقد اضطررت أن أذهب هذا الصباح إلى الروليت ، وأقامر لپولينّا ألكسندروفتنا ، ولكنى اشتكرت عندما أعطتنى فلوريناتها الألف والستمائة ، ألا أقاسمها الربح ، وأن تشرح لى هذا المساء نفسه ، لماذا تريد النقود وكم تريد منها . فهى لا شك تريد هذه النقود لغرض بعينه ، وقد وعدتنى أن توضح لى الأمر ، وذهبت .

وكان بهو اللعب مكتظاً بالناس . فيالها من كائنات جشعة وقحة ! واخترقت البهو ، حتى ظفرت بمقعد إلى جانب الكروبييه ، ثم بدأت أقامر فى شىء من التهيّب ، ولم أعد العشرين أو الثلاثين جلدًا فى الدور ، ولكنى كنت ألاحظ ما يدور حولى ، وقد بدا لى أن القمار لا يعتمد على التقدير الرياضى ، أو على الأقل ليس للتقدير الرياضى تلك الأهمية التى يدعيها اللاعبون المحترفون ، الذين يحرصون على كتابة النتائج فى ورقة صغيرة ، ويحسبون الاحتمالات حساباً دقيقاً ، ثم يخسرون كالبسطاء الذين يلعبون جزافاً . ولكنى أدركت أن هناك نتيجة واحدة صحيحة ، وهى أن الصدف تتبع - لا أقول نظاماً - بل ترتيباً مخصوصاً . ولا شك أن هذا أمر جد غريب . فمثلاً إذا وقفت الكرة عند سلسلة من الأرقام الوسطى ، وقفت بعد ذلك عند سلسلة من الأرقام الخارجية . وإذا وقفت الكرة مرتين على سلسلة من الأرقام الخارجية عادت فوقفت مرة عند سلسلة الأرقام الأولى ، ثم وقفت عند سلسلة الأرقام الوسطى ثلاث مرات أو أربعاً ، ثم تنقلب إلى الأرقام الخارجية ، وتنقلب بعد دورين إلى الأرقام الأولى ، فتصيبها مرة ، ثم تعود إلى الأرقام الوسطى فتصيبها ثلاث مرات وتستمر كذلك ساعة ونصفاً أو ساعتين : واحد ، ثلاثة ، اثنان ، واحد ، ثلاثة ، اثنان . كان ذلك شيئاً غريباً جداً . وقد يمضى يوم كامل والأحمر والأسود يتعاقبان ولكن بغير نظام ، حتى لا يكاد أحدهما يظهر مرتين متتاليتين . وفى اليوم التالى يظهر الأحمر وحده ، ويستمر فى الظهور مدة طويلة ، ربما كانت يوماً كاملاً . وقد أمدنى المستر أستلى بكثير من هذه الملاحظات . وكان يقف إلى مائدة القمار طول الصباح دون أن يقامر بشىء .

أما أنا فسرعان ما خسرت كل ما معى . لعبت أولاً على الزوجى بمائتى جلد ، وكسبت ، ثم قامرت بمثلها وكسبت . وفعلت ذلك مرتين أو ثلاثاً . فلا بد أنى كسبت فى مدى خمس دقائق ما يقرب من أربعة آلاف جلد ، وكان يجب أن أذهب بعد ذلك .

ولكن إحساساً عجيباً تملكنى ، كأنما كنت أريد أن أتحدى القدر وأصفعه على وجهه وأخرج له لسانى . فراهنت بأربعة آلاف فلورين وهو أكبر رهان جائز ، وخسرت . وغازنى الفشل ، فوضعت كل ما بقى معى على الزوجى أيضاً وخسرت . وتركت المائدة ذاهلاً . ولم أستطع أن أخبر پولينا بهذه الخسارة إلا قبيل الغداء ، بعد أن همت على وجهى فى الحديقة طوال الصباح .

وكنت شديد الانفعال عند الغداء كما كنت منذ أيام ثلاثة . وكان الفرنسى والآنسة بلانش حاضرين ، وقد علما بمغامرتى ، فقد كانت الآنسة بلانش فى بهو القمار ، فعنيت بى هذه المرة عناية أكبر ، أما الفرنسى فقد بدهنى بالسؤال عن تلك النقود أكانت لى ؟ ويبدو لى أنه كان يشك فى أمر بينى وبين پولينا . ولكنى انفجرت قائلاً : إن النقود كانت كلها لى . وهنا دهش الجنرال دهشة عظيمة ، وسألنى من أين حصلت على هذه النقود ؟ فأوضحت له أنى بدأت اللعب بمائة جلد ، وكسبت ست أو سبع مرات متوالية ، فأصبح معى خمسة أو ستة آلاف خسرتها فى دورين . وبدا هذا كله معقولاً . وبينما كنت أتحدث ، نظرت إلى پولينا ، ولكنى لم أستطع أن أتبين شيئاً فى محياها . إلا أن سكوتها عن معارضتى ، دلنى على أنى يجب أن أستمّر فى ادعائى أنى لا ألعب لها . وحدثت نفسى أن عليها بدورها أن توضح لى الأمر . فقد وعدتنى هى بذلك . ولم يقل الجنرال شيئاً ، وإن بدا عليه الاهتمام بى ، ورأيت على وجهه الضيق والقلق . ولعله سخط لأنه - فى حين يعانى أشد الضيق فى هذه الأيام - يسمع بأكداًس الذهب تتدفق بين يدى مجنون . ويخيل إلى أنه تنازع مع الفرنسى ليلة أمس ، فقد انفردا فى غرفة مجاورة ، وسمعناهما يتكلمان بحدة ، ثم خرج الفرنسى مبدياً ضجره الشديد ، ولكنه بادر بالثورة هذا الصباح ليجدد النزاع ، فما كاد يسمع بخسارتى حتى أشار على فى غيظ وحنق ، بأن أكون أكثر احتياطاً ، ولأمر ما قال فى أثناء الحديث : « إن أكثر الروس يقبلون على المقامرة ، ولكنهم فى الحقيقة لا يفهمون أصول اللعب » .

فأجبت : أما أنا فأعتقد أن الروليت إنما ابتدعت للروس .

وحدجنى بنظرة احتقار ، فاستطردت قائلاً :

- أجل . إنى واثق مما أقول . ولست امتدح الروس بذلك ، بل لعلى أذمهم .

فوافق ذلك هوى فى نفسه . ولكنه سأل :

- علام تبينى رأيك ؟

- على هذه الحقيقة : وهى أن من فضائل الرجل الغربى المتمدن ، أن يعمل لجميع رأس مال . أما الروسى فهو لا يستطيع أن يجمع رأس مال ، بل إنه ليبدد ما يملكه فى ثورة وبغير حساب . ولكنه فى حاجة إلى المال كسائر الناس ، ولهذا تستهويه تلك الطرق التى تجلب الثراء فى ساعتين ، كالروليت . فهو يلعب معتمداً على الصدفة ويخسر . قال الفرنسى راضياً : هذا حق !

فاعترض الجنرال بعنف :

- لا . ليس هذا حقاً . ويجب أن تخجل من أن يكون هذا رأيك فى مواطنيك !
فأجبتة :

- ولكن قل لى ، أليس كسل الروس أنبل من طريقة الألمان فى جمع المال بعرق الجبين ؟

صاح الجنرال :

- يا لها من فكرة شاذة !

وأضاف الفرنسى :

- بل يا لها من فكرة روسية !

ابتسمت . فقد سرنى أن أناوشهما معاً . وعدت أقول :

- أما أنا فأفضل أن أهيم على وجهى طيلة عمرى ، وأن أنام تحت خيمة القرغيز ، على أن أسجد أمام معبود الألمان .

فسأل الجنرال وقد بدأ يغضب :

- أى معبود ؟

- الثراء ! ما أزال قليل التجربة ، ولكنى رأيت عند هؤلاء القوم ما أثار طبيعتى التتيرية ، خلنى من هذه الفضائل ! لقد عن لى أن أطوف بهذه الأرجاء طوفة فاضلة ، فلم أرها تختلف فى شىء عما قرأناه فى تلك الكتب الألمانية الصغيرة المصورة . إن عندهم فى كل منزل « أباً » كأنه الفضيلة مجسمة ، والشرف كاملاً ، فانت تكاد من فرط فضيلته تخاف الاقتراب منه . فإذا أقبل المساء ، جلس الأب بين أهله يقرعون فى كتب التهذيب ، والريح تداعب أشجار الدردار والكسكتا ، والشفق الأحمر يلهب السقف ، وقد أوى إلى إفريز المنزل لقلق ، كل ذلك شعرى جميل مؤثر . لا تغضب يا سيدى الجنرال ، دعنى أحدثك بما هو أشد تأثيراً . إنى أذكر - أنا أيضاً - أن أبى - رحمه الله - كان يقرأ لى ولأمى فى الأماسى الجميلة كتباً كهذه . حسناً !

إن كل أسرة هناك قد أنزلها أبوها على العبودية المطلقة . فكلهم يعملون كالأنعام ، وكلهم يدخرون كاليهود ، والأب قد جمع من كد حياته بضعة جلدات يزعم أن يتركها - مع أرضه - لابنه الأكبر ، ولكيلا ينتقص من الكنز شيئاً ، لا يخص ابنته ببائنة ، ابنته المسكينة التي تهرم عذراء . ثم هذا ابنه الأصغر قد أصبح خادماً أو جندياً . ليزيد شيئاً إلى الثروة ، إى والله ، إنى واثق مما أقول . كل هذا صنعه بالشرف ، الشرف المضاعف ثلاث أو أربع مرات . إن الابن الأصغر نفسه يروى أنه إنما بيع بالشرف . وهل رأيت شيئاً أجمل من هذا ؟ الفريسة سعيدة بأنها اقتيدت إلى المذبح ! ولكن الابن الأكبر ليس أكثر سعادة . إن له فى مكان ما حبيبة تعلق بها فؤاده ، ولكنه لا يستطيع أن يتزوجها لأنه لم يجمع كل ما يريد من الفلورينات . وها هما ينتظران فى إخلاص وفضيلة ، ويذهبان إلى المذبح وعلى شفقتيهما ابتسامة . ثم ها قد بدأ خدا المحبوبة يتغضنان ، فإن الملل يبريها ولكن قليلاً من الصبر . سوف تتم الثروة فى عشرين عاماً ، وسوف تجمع الفلورينات بأمانة وفضيلة . وعند ذلك سوف يبارك الأب ابنه ، وقد صار شاباً فى الأربعين ، وحبيبته وقد صارت شابة فى الخامسة والثلاثين ، مسحاء الصدر ، حمراء الأنف . وفى هذه المناسبة سوف ييكي ، وسوف يقرأ شيئاً فى كتاب التهذيب ، ثم ... يموت ويصبح الابن الأكبر بدوره « أباً » فاضلاً وتبدأ القصة نفسها من جديد . ويتأبر حفيد الأب الأول على العمل خمسين أو سبعين عاماً ، ويجمع ثروة ضخمة ، ثم ... يورثها ابنه . وهكذا دواليك ، حتى يولد بعد خمسة أو ستة أجيال البارون روتشيلد ، أو هوب وشركاه ، أو فلان أو علان . يا لها من صورة رائعة ! خمسة أجيال من الصبر والذكاء والشرف والثبات والمثابرة ، فماذا تريد أكثر من هذا ؟ إن هؤلاء القوم الفضلاء على حق حين يزددون غيرهم من الناس ، ممن لا يجمعون مثلهم . حسناً ! إنى أريد أن أستمتع كما يستمتع الروس ! لا أريد أن أكون روتشيلد أو هوب وشركاه بعد خمسة أجيال . إنى أريد النقود ! إنى أرى نفسى خيراً من رأس المال ... قد أكون مخطئاً على كل حال ، لكن هذه هى معتقداتى .

فقال الجنرال مفكراً :

- لست أدري حظك من الصواب أو الخطأ ، ولكن الذى أدريه أنك أصبحت مهرجاً كبيراً ، على قلة ما نسمح لك بنسيان ...

ولم يتم كعادته . وكان الفرنسى قد استمع إلى غير اهتمام ، ودون أن يبدو عليه أنه فهمنى ، أما پولينا فنظرت إلى فى كبرياء وإهمال ، كأنها لم تسمعنى ، ولم تسمع أحداً .

كانت شاردة اللب ، وما كدنا نغادر المائدة حتى أمرتني أن أخرج معها ، فأخذنا الطفلين وذهبنا إلى الحديقة ، وكنت ثائر الأعصاب ، فلم أستطع أن أمنع نفسي من أن أسأل پولينا هذا السؤال السخيف :

- لماذا لا يصحبك هذا الفرنسي الصغير عندما تخرجين ، ولماذا يمضى اليوم والأيام دون أن يخاطبك ؟
قالت فى صوت غريب :
- إنه حيوان !

فأخذت بما فى عبارتها من نغمة السخط . ولم أكن سمعتها تتكلم عن المركيز قط . قلت :

- وهل لاحظت أنه ليس اليوم على وفاق مع الجنرال ؟
- أتريد أن تعلم السبب ؟ إن الجنرال قد رهن له كل ما يملك ، وإذا لم تسرع الجدة بالموت ، فسيستولى على هذه الممتلكات كلها .
- لقد سمعت شيئاً كهذا . ولكنى لم أكن أعلم أن الأمر بهذه الخطورة ، إذن فالوداع أيتها الأنسة بلانش ! إنها لن تكون إذن عقيلة الجنرال ، بل ستهجره ، وإخاله سوف ينتحر .
- ربما .

- أجل . إنى أتوقع أن يحدث له حادث - يا لها من صراحة عجيبة ، إنها تخفى أنها ما كانت لتتزوج لولا نقوده ! كل ذلك يتم بغير أدنى تلطف ! أما الجدة فما أشد دناعتهم معها ! إنهم يرسلون البرقية تلو البرقية ، لعلها تكون قد ماتت . ماذا ترين أنت يا پولينا ألكسندروفتنا ؟

- أجل ، إنه أمر شنيع . ولكنى أعجب لفرط مرحك ، رغم كل شىء . أترك مسروراً لأنك خسرت النقود ؟

- ألم تعطينى إياها لأفقدوها ؟ لقد أخبرتك أنى لا أستطيع أن أقامر بنقود غبرى ، خصوصاً بنقودك أنت ، وقد أطعته لأنك أمرتني . ولكنى أنذرتك بالفشل . خبرينى : أمتالة أنت إذ فقدت كل شىء ؟ ولماذا تريدان كل هذه النقود ؟

- ولم كل هذه الأسئلة ؟

- لأنك وعدتني أن توضح لي الأمر ... اسمعي ! أنا واثق أنني لو قامرت بنقودي فسوف أكسب . معى مائة وعشرون جلدًا ، وعندما أكسب ستأخذين كل ما تريدين . فعبست . فأضفت :

- أرجو ألا تغضبك منحتي . إن حقارتى عندك تسمح لك بأن تقبلى منى كل شىء حتى النقود ! إن هدية منى لا تعنى شيئاً . ثم إنى خسرت نقودك .

رمقتنى بنظرة سريعة ، لقد ضايقته نغمتى الساخرة ، فقطعت الحديث قائلة :

- إن شئونى لا تعنيك . إذا كنت تريد إيضاحاً فاعلم أنى مدينة . هذا كل شىء . لقد استدنت ، ويجب أن أرد الدين . وقد جنت حتى توهمت أنى سأربح لا محالة على مائدة القمار . لماذا ؟ أنا نفسى لست أدري . ولكنى كنت أعتقد هذا ، ويخيل إلى أنى لم أتعلق بهذا الوهم إلا لأنه مخرجى الوحيد .

- لعلك توهمت أن الكسب محقق كما يتعلق الغريق بالعود الطافى . ولكن المرء لا يخال العيدان كتلاً من الخشب ، إلا حين يغرق .

- إذن فلماذا تتعلق أنت بالوهم نفسه ؟ لقد أكدت لى منذ خمسة عشر يوماً أنك ستكسب « حتماً » إذا قامرت هنا ، وأنى لا يجب أن أظنك مجنوناً ، وأنت تتكلم جاداً والحق أنك كنت تتكلم جاداً ، ولم يكن فى حديثك شىء من الهزل .

فأجبتها وأنا ذاهل :

- هذا حق . إنى موقن أنى سأكسب إذا لعبت لنفسى .

- ولم هذا اليقين ؟

- قد يكون سببه أنى يجب أن أكسب . إن هذا هو مخرجى الوحيد أنا أيضاً .

- إذن فأنت فى حاجة إلى كثير من النقود ؟ ولكنك تتعلق بخرافة .

- وماذا يصنع متلى بالنقود الكثيرة ؟

- ليس لى شأن بهذا . ولكن دعنى أقول لك نعم ! أى دافع قوى يجعلك تريد الثروة ؟ ماذا تصنع بها ؟ أنت رجل لانظام له ولا قرار . إنى لم أرك جاداً قط .

فقاطعتها :

- أخبرينى . لقد قلت إنك مدينة . فهل دينك ثقيل ؟ أهو للفرنسى ؟

- ماذا تعنى بكل هذه الأسئلة ؟ إنك شديد الذكاء اليوم ! ألسنت ثملاً ؟
- تعلمين أن لا كلفة بيننا ، وأنى أسألك فى بعض الأحيان أسئلة صريحة .
- أكرر لك أنى عبدك ، ولا أحد يخجل أو يغضب من عبده .
- هذا حديث أطفال . يستطيع المرء أن يحتفظ دائماً بكرامته . ينبغى أن يسمو النزاع بالإنسان لا أن ينزل به .
- لاحظى أنى لم أقل لك إنى سعيد بأن أكون عبدك . إنى أتكلم عن الأمر ، كما أتكلم عن حقيقة ليس لإرادتى شأن بها .
- كن صريحاً ! لماذا تريد النقود ؟
- لماذا تريدين أن تعلمى ؟
- كما تريد أنت !
- ورفعت رأسها فى كبرياء لا توصف .
- أنت لا تؤمنين بنظريتى فى العبودية . ولكنك تعملين بها . شعارك دائماً : « أجب ولا تجادل ! » .
- سمعاً وطاعة يا سيدتى !
- تسأليننى لماذا أريد المال ؟ إنى أريد المال لأنه هو القوة الوحيدة التى لا تقاوم .
- إنى أفهم ماذا تعنى . لكن حذار أن تصبح مجنوناً ! إنك تستسلم إلى القدر استسلاماً أعمى . ولكن لك هدفاً آخر أقرب من هذا . فأبني ولا تجادل .
- وكانت تبدو على وشك الغضب ، فسررت سروراً عظيماً ، فقد لذى أن تسألنى بهذا الإلحاح الشديد .
- حقاً إن لى غرضاً . ولكنى لن أخبرك به . أو ... هو أنى أغدو بالمال رجلاً ، حتى بالنسبة إليك .
- كيف هذا ؟
- كيف ؟ ألا تتصورين أن أغدو بالنسبة إليك شيئاً آخر غير العبد ؟
- ألم تكن تقول لى إنك سعيد بهذه العبودية ؟ أنا نفسى كنت أظن هذا .
- فصحت بفرح عجيب .

- آه ! كنت تظنينه ! كم تعجبني هذه السذاجة منك ! أجل ، إن هذه العبودية هي سعادتي ، إن هناك لذة هائلة في الانحطاط إلى الدرك الأسفل من النذل . وقد طالما فكرت أن السوط يخفى في طياته لذات سحرية . ولكني أريد أن أجرب لذات أخرى - لقد ويخني الجنرال منذ لحظة على المائدة أمامكم ، لأن السبععمائة الدوبل التي يعطينيها كل عام - وقد لا يدفعها - تمنحه الحق في ذلك . إن المركيز دي جريبه ، يرفع حاجبيه كثيراً عندما يراني ، دون أن يبدو عليه أنه يلحظني . أتعلمين أن بي رغبة جنونية في أن أجره يوماً من أنفه ؟

- يا للعبث ! إننا نستطيع أن نحفظ بكرامتنا رغم كل شيء ، يجب أن يرفعنا الأكم لا أن يخفضنا .

- عبارات جميلة محفوظة ! ولكن أوثقة أنت من أني أستطيع الاحتفاظ بكرامتي ؟ قد أكون امرءاً كريماً . أما أن أحفظ بكرامتي فهذا شيء آخر . إن الطبيعة الروسية لمن الغنى والسعة بحيث لا تتشكل بسرعة حسب الظروف ومسألة الكرامة مسألة مظهر فلا بد لنا من شيء من العبقرية ، حتى نستطيع أن نجمع قوانا ونركزها في السلوك المناسب . وهي عبقرية نادرة ، ولعل الفرنسيين وحدهم هم الذين يستطيعون أن يتظاهروا بالكرامة دون أن يكونوا على شيء منها . وهذا هو سر عنايتهم الشديدة بالمظاهر ، فالفرنسي قد يغضى الجفن على إساءة حقيقية - في الصميم - ولا ينهض لدفعها ، طالما كان ذلك سرّاً . ولكنه لا يحتمل ألبتة قرصة الأنف ، لأنه يرى في ذلك اجتراءً على قوانين المجتمعات . لا تعجبي إذا وجدت فتياتنا يحبين الفرنسيين ، فالديك الفرنسي أنق شكلاً ، وأبرع مسلحاً . أما أنا فهذه الطريقة كما تعلمين ... ولكني لست امرأة ، ولعل الديك على شيء . ألم أغال كثيراً ؟ ولكنك لا تقاطعينني ! إنني أحب أن أقول لك كل شيء عندما أكلمك ، ولهذا أفقد شيئاً من احترامي لنفسي . أعترف لك أنني لست على شيء من براعة المسلك بل إنني لست على شيء ما . كل شيء في قد جمّد . كل شيء في قد مات . أنت تعلمين السبب . ليس في رأسي فكرة إنسانية . إنني لم أعد أعلم ماذا يعمل الناس في الدنيا ، إن هنا ، أو في روسيا . لقد عدت من درسدن ، أليس كذلك ؟ حسناً ! ! إنني لم أر تلك المدينة . أنت تعلمين ما يشغلني . وما دمت منقطع الرجاء منك ، وما دمت صفراً أمام عينيك ، فلن أهاب الصراحة معك . إنني لا أرى في أي مكان غيرك ، وكل شيء سواء عندي بعد ذلك . إنني أحبك ولا أعلم لماذا أحبك . لعلك لست جميلة مطلقاً ، اعجبي لي كيف أني لا أعلم أجميلة أنت أم قبيحة ، ولكني أعلم أن قلبك شرير دون شك ، وأن عقلك ليس على شيء من النبيل .

- لهذا بلا ريب تطمع أن تشترينى .

فصحت :

- أن أشتريك ! ماذا تقولين !

- لقد نسيت الموضوع الذى نتحدث فيه . إن لم تكن تريد أن تشترينى أنا بالأموال الطائلة التى ستريحها فى الروايت ، فإنك تريد بلا شك أن تشتري احترامى .

- ليس هذا هو ما أريده ألبتة . لقد قلت لك من قبل أننى لا أحسن التعبير . فلا تغضبى لثرتى . يجب ألا تغضبى منى ، فلست إلا مجنوناً . ولكنى لا أبالى بغضبك . حين أجلس هناك فى غرفتى ، لا أكاد أذكر حفيف ثوبك حتى أعض على أناملى ، أهذا يغضبك أيضاً ؟ أيغضبك أن أكون عبدك ؟ تمتعى بعبوديتى ... فلعلى قاتلك يوماً . سوف أقتلك ، لا لأننى لم أعد أحبك ، ولا لغيره تملكتنى - لا لشيء إلا أنى أحب فى بعض الأحيان أن أكلك . تضحكين !

قالت فى حدة :

- إننى لا أضحك ألبتة ، وإنى أمرك أن تصمت .

ووقفت وقد احتبست أنفاسها من الغضب . رياه ! إننى لا أعلم أجميلة هى أم لا ، ولكن كم أحب أن أراها واقفة أمامى وقد استبد بها الهياج ! لعلها تعلم هذا ، ولعلها تستسلم إلى الغضب لتثير إعجابى . وقد صارحتها بذلك على الفور ، فصاحت مرتعدة .

- أنت مخلوق قدر !

- لا بأس ! ولكن لا تنسى أنك تعرضين نفسك للخطر ببتزهاك وحيدة معى ، فكثيراً ما بدا لى أن أضربك ، أن أقطع لك ساقاً أو ذراعاً ، أن أخنقك . ألا تظنيننى أقدم على هذا ؟ إنك تدفعيننى إلى الجنون . إننى لا أخشى الفضيحة ، ولا أخشى غضبك ، إنى أحب بغير أمل ، وأعلم أنى إذا قتلتك ، فلا بد أن أقتل نفسى أيضاً ، ولكنى سأقتل نفسى بأشد البطء لأنفرد دونك على الأقل بهذا الألم ، وبعد هذا ، لا أنقاد للقدر ؟ تذكرين أنى قلت لك على شلاجنيرج : مرينى أقذف بنفسى إلى الهاوية . أتظنيننى لم أكن فاعلاً ؟

- يا لها من ثرثرة سخيفة !

- سخيقة أو ظريفة ، سيان عندي ما دمت أتكلم . إني ما دمت بجانبك ، يجب أن أتكلم وأتكلم وأتكلم . عندما تكونين معي أفقد كل كبرياء .

- ولماذا أضطرك أن تقذف بنفسك من على شلاجنبرج ؟ إن هذا لا يجدي شيئاً .

- آه ما أعذب نبراتك ! ما أجمل ما قلت هذا ! أى إهانة فى « لايجدى » هذه ! إني أفهمك حق الفهم . أتقولين إنه غير مجد ؟ وكيف لا تكون اللذة مجدية ؟ أو لا يكون الظلم لذة ؟ لذيذ أن تقتلى بعوضة ، وأن تقذفى رجلاً من قمة شلاجنبرج . إن الإنسان مستبد بطبعه ، يحب التعذيب . وأنت بخاصة تحبين ذلك .

لقد كانت تنظر إلى فى انتباه عميق . ولا شك أن وجهى كان ينم عن كل الإحساسات الغريبة التى تملكتنى ، كنت أحس بالدم يصعد إلى عيني ، وبالبزبد يعلو شفتى . ولكنى أقسم أنها لو أمرتنى لألقيت بنفسى من قمة شلاجنبرج . أجل ، أجل ! لو أنها أمرتنى عابثة أو محترقة لألقيت نفسى .

- كيف أصدقك ؟

قالتها بنغمة فيها من الاحتقار ومن الدهاء ومن الغرور ما رباه ! رباه ! لقد كنت قميناً أن أقتلها تلك اللحظة بلا تردد . لقد كنت قميناً أن أقتلها وأنا راضٍ مسرور . سألتنى فجأة :

- ألسنت جباناً رعديداً ؟

- ربما . إني لم أسأل نفسى قط هذا السؤال .

- لو أنى قلت لك اقتل هذا الرجل ، أقتله ؟

- من هو ؟

- أى رجل شئت .

- الفرنسى الصغير ، أليس كذلك ؟

- لا تسألنى . أجب ! أو تقتل من أمرك بقتله ؟ أريد أن أعلم سريعاً أجاد أنت ؟

كانت تنتظر جوابى بجد وصبر شديدين حتى أحسست بالاضطراب .

- خير لك أن تصارحينى بما يجرى هنا ! أتخافينى ! إني أرى كل ما تعانينه . أنت ربيبة رجل مفلس مجنون قد أذلت عاطفة جبارة . وما أنت ذى أيضاً تحت سلطان

هذا الفرنسي التعس ، وأخيراً هذا السؤال الغريب ! يجب أن أعلم ... ألا تستطيعين أن تكلميني مرة واحدة بصراحة ؟

- دعنا من هذا . إننى أسالك فأجبنى .

- أذن ، فنعم ، نعم ، نعم ، بغير شك ، إننى أقتله ... ولكن ... أعازمة أنت حقاً على أن تأمرينى بمثل هذه الأعمال ؟

- ماذا تظن ! أتظننى مشفقة عليك ؟ كلا ... سوف أمرك ، وسوف أبقى فى الخفاء . أتقتل ؟ أتقدر أن تحتمل هذا ؟ آه . لا أظنك تستطيع . قد تقتله إن أمرتك ولكنك سوف تفقد رشذك بعدها . لله ما أضعف رشذك ! سوف تقتلنى لأنى جرؤت على إرسالك إليه .

وكان ضربة وقعت على رأسى . فقد كنت أعتقد إلى ذلك الحين ، أن سؤالها ليس إلا مزاحاً أو تحدياً ، ولكنها كانت تتكلم فى جد ظاهر . وقد عجبتُ لاعترافها بسلطانها على ، ولاجترائها على أن تقول لى : اسعِ إلى حتفك ! أما أنا فسأبقى فى الخفاء . لقد كان فى كلامها سوداوية غريبة صريحة ولكن ماذا يكون سلوكها معى بعدئذ ؟ إن مثل هذا لتأمر يرفع العبد إلى منزلة السيد ، ولئن بدت لى محاورتنا أضغاث أحلام ، فقد وجف قلبى .

وفجأت انفجرت ضاحكة ، وكنا جالسين على مقعد ، وكان الطفلان يلعبان غير بعيد منا ، قرب المنعطف الذى تقف فيه السيارات ، لينحدر راكبوها إلى الملهى ، وكانت الجموع تمر أمامنا تترى .

- أترى إلى هذه المرأة البدينة ؟ إنها البارونة برمرجلم ، وقد وصلت منذ ثلاثة أيام . وانظر إلى زوجها هذا البروسى الطويل الأعجف ، الذى يحمل عصا ، ألا تذكر كم حدجنا ببصره أمس ؟ اذهب من فورك واقترب من هذه البارونة وارفع قبعتك وقل لها شيئاً بالفرنسية .

- لماذا ؟

- كنت تقسم أن تلقى بنفسك من على شلابنبرج ، وكنت تقسم أن تقتل من أشاء ! لكنى لا أطلب إليك عوضاً عن هذه الماسى كلها إلا مهزلة واحدة . اذهب ولا تلتمس عذراً . إننى أريد أن أرى البارون يضربك بالعصا .

- أتحديننى ؟ أتظنين أنى لن أفعل ؟

- أجل . إننى أتحداك . اذهب . فهكذا أريد .

- سأذهب إذن ، رغم أنها نزوة منك ، ولكن ألا ترين أنك تسيئين بذلك إلى الجنرال ، ثم إلى نفسك ؟ إنى لا أخشى على نفسى ، بل عليك وعلى الجنرال ، يا لها من نزوة - أن أهين سيدة !

قالت فى احتقار :

- إذن فلست إلا ثثاراً . إن عينيك منتفختان بالدم - وهذا كل شيء . لعلك شربت كثيراً على الغداء . أتظننى لا أعلم كم يبدو هذا سخيلاً ، أو لا أدرك أن الجنرال سوف يغضب ؟ ولكنى أريد أن أضحك ، وهذا كل شيء . أن تهين سيدة ، نعم ، وأن تُضرب ، نعم ، فإنى أريد هذا .

وذهبت فى بطاء أصدع بالأمر . حقاً ، لقد كان هذا جنوناً . ولكن هل كنت أستطيع ألا أخضع ؟ أذكر أنى حين اقتربت من البارونة ، كنت منفعلاً كالطفل ، كنت محموراً ، كنت كالتمل ، أتفهمون ؟

* * * *

مضى يومان على هذا الجنون . أى ضجيج ولغط وثرثرة وصياح ! أى خليط كرية من الفظاظاة والقوضى والغباء والغلظة ! ولكن الأمر لم يخل مما يضحكنى أنا على الأقل . وأنا سبب كل هذا ! فلکم ضحكت ! هل دار رأسى أم جننت ؟ أظن . ثم إن العهد لم يبعد بينى وبين مقاعد الدراسة ، وإخالنى سررت من هذه اللعبة .

بولينا هذه ! دائماً هى !

لعلى أتيت ذلك بدافع من اليأس . ولكن ماذا أحب فيها ؟ إنها تبدو لى جميلة . هى رشيقة القد ، أدنى إلى النحول ، تستطيع أن تثنيها وتعقدها كرباط العنق . أثر قدمها على الأرض طويل دقيق ؛ إنه يبعث الجنون . نعم يبعث الجنون ! شعرها أصهب وعيناها كعيني قط ، ولكن فيهما كبرياء واحتقار يزلزلان النفوس . كان أول عهدى بها ذات مساء منذ أربعة أشهر ، عندما استقدمتنى هذه الأسرة ، إذ رأيتهما جالسة فى البهو تتحدث مع دى جرييه حديثاً حاراً . وكانت تحدجه بنظرة ... خيل إلى عندما أويت ، أنها صفعته قبلها . منذ ذلك المساء أحببتها .

لنعد إلى قصتنا .

لقد هبطت من الممر ووقفت فى وسط الطريق ، منتظراً البارونة والبارون . فلما صارا على قيد خمس خطوات منى ، رفعت قبعتى وانحنيت . وأذكر أن البارونة كانت ترتدى ثوباً فضفاضاً من الحرير الأشهب ، له جناحان وذيل وصدار محبوب . وكانت هذه البارونة صغيرة بدينة ، لها ذقن ضخمة يغطى عنقها كله ، ووجه أحمر ، وعينان صغيرتان خبيثتان وقحتان . وكانت تسير وكأنها تشرف الأرض بوطئها إياها . أما البارون فكان طويلاً معروفاً هزيل الوجه ، شأن الألمان ، يلبس منظاراً ؛ ويبدو فى الخامسة والأربعين . وكانت له ساقان كأنما تبدآن من صدره ؛ بل من ذقنه ، وكان مزهواً كالطاووس ، ثقیل الحركة ، إلا أن ملابسه كانت مهرولة ، وعلى وجهه بلاهة ، يتوهم الرأى أنها ذهول التفكير .

رأيت كل هذا فى ثلاث ثوان ، وكانت انحناءتى وقبعتى المرفوعة قد عجزتا عن أن تثير انتباههما كثيراً وعقد البارون حاجبيه قليلاً ، أما البارونة فأقبلت نحوى دون أن ترانى ، فقلت فى وضوح ويصوت عال ، فى مقاطع لينة :

- سيدتى البارونة ، لى الشرف أن أكون عبدك .

ثم حييت وأعدت قبعتي إلى رأسي . ومررت بالبارون ملتفتاً إليه في أدب ، موجهاً إليه ابتسامة وقحة .

كانت پولينا قد أمرتني أن أرفع قبعتي فقط ، ولكن الانحناءة والوقاحة كانتا من عندي . ولست أدري ماذا كان يدفعني ، فقد كنت أحس كأنني أمشي على الهواء .

وزمجر البارون وهو يلتفت إلى بدهشة يمازجها غضب : هه !

وقفت دون أن أكف عن الابتسام ، ورأيت قد ذهل ، ورفع حاجبيه حتى منبت شعره . والتفتت إلى البارونة أيضاً بدهشة شديدة ، وضيق متزايد ، وبدأ المارة يتجمعون . وزمجر البارون من جديد وقد تصاعفت دهشته وغضبه . هه !

– يا قول Ja wohl! قلتها ماطاً المقاطع ، وأنا أنظر إلى بياض عينيه وصرخ وهو يلوح بعصاه :

– Sind sie rasend ? (أنت مجنون ؟)

ولكن ذراعه بقيت في الهواء ، وهو يرتجف من الرعب ، أكثر مما يرتجف من الغضب .

ويخيل إلى أن ملبسى هو الذي أربكه . لقد كنت أتزيا بأحدث طراز كرجل من الطبقة العليا .

وصرخت فجأة بكل قواي ، مقلداً أهل برلين الذين يمطون المطقع الأخير من هذه الكلمة ، دالين بذلك على معانٍ مختلفة :

– Ja wo-o-ohl!

والتفت البارون والبارونة بسرعة ، وهربا مذعورين . وبدرت من بعض الواقفين صيحات . وظل بعضهم ينظر إلى في دهشة . ولكني لا أذكر التفاصيل جيداً .

عدت أدراجي ، وذهبت بغير عجلة إلى پولولينا ، ولكني قبل أن أصل إليها رأيتها تنهض مع الطفلين ، وتتجه شطر الفندق ، ولحقت بها على الدرج ، وقلت لها :

– لقد أنجزت الـ ... سخافة !

فأجابت دون أن تنتظر إلى :

– أفعلت . تحمل العواقب إذن .

واختفت في الردهة ، ومكثت طيلة المساء أتنزه في الغابة ، وملت إلى مطعم صغير وتعشيت بيضاً ، واحتسيت شيئاً من الخمر ، وكلفتني هذه الأكلة تالرا ونصف تالر .

لم أعد إلا فى الساعة الحادية عشرة . فعلمت أن الجنرال أرسل فى طلبى .
كانت جماعتنا تشغل شقتين من الفندق ، فى كل شقة غرفتان . وفى الشقة
الأولى - وهي الكبرى - ثوى حجرة التدخين ، وبين الشقتين ، مكتب الجنرال .
هنا كان الجنرال ينتظرنى ؛ وهو واقف إلى مكتبه بعظمة ، وكان دى جرييه مضطجعا
على ديوان بالقرب منه .

بدا الجنرال يقول :

- دعنى أسألك ياسيدى ماذا صنعت ؟

- أرجو أن تتكلم فى الموضوع مباشرة يا جنرال . لعلك تعنى لقائى اليوم
مع الألمانى ؟

- مع الألمانى ؟ إن هذا الألمانى هو البارون برمر جلم - وهو شخصية خطيرة ،
لقد سمعت أنك اهنته هو وزوجته .

كلا . ألبتة .

فصاح الجنرال :

- لقد علمت أنك روعتهما يا سيدى الكريم .

كلا . ألبتة، لقد تعودت أذنى فى برلين ، سماع هذه الـ Ja wohl التى لا تنتهى،
ممطوطة بطريقة قبيحة . ولا أدري لما قفزت إلى خاطرى وأثارتنى هذه
الـ Ja wohl عندما قابلت هذين البارونين الجبانين ، زد على ذلك أن هذه البارونة
قابلتني ثلاث مرات ، وكانت تشير نحوى فى كل مرة كأنما كنت دودة تسحق
بالقدم . إن لى كرامتى أنا أيضاً لقد رفعت قبعتى وقلت بكل أدب ، إى والله بكل
أدب . . . « سيدتى البارونة ، إننى عبدك » وعندما بدأ البارون يصيح : هه ! لم
أستطع إلا أن أصرخ Ja wohi! ، وقد قلتها مرتين، فى المرة الأولى ببساطة تامة ،
وفى المرة الثانية وأنا أمط الكلمة قدر ما أستطيع وأعجبني هذا التفسير الصبيانى ،
فقد سرتنى القصة ، ورق لى أن أطيل فيها وأضيف إليها . صاح الجنرال :

- أهذه هى القصة ؟ أتسخر منى إذن ؟

وبين لى جرييه بالفرنسية أنى أرمى دون شك إلى شىء . وابتسم
دى جرييه فى احتقار وهز كتفيه .

- لا وريى ، لا تظن هذا ! لقد ارتكبت حماقة ، إننى أعترف ! إنه عبث لا يليق ، ولكنه ليس أكثر من هذا . إننى نادى ، ولكن لى عذراً . إننى أشعر بالمرض منذ أسبوعين أو ثلاثة ، وأعصابى تأثرة مهتاجة ، وإنى لافقد سيطرتى على نفسى بين حين وآخر . حتى لقد حاولت أن أتشاجر مع المركيز ... آه . إنه هنا ، إذن فلن أتم الحديث حتى لا يغضب . ولا أطيل . فقد بدت على علامات المرض فى الأيام الأخيرة ، ولا أدرى هل تقبل البارونة هذه الأعذار ! فإنى أنوى أن أعذر إليها . ولكنى أعتقد - بينى وبينك - أنها لن تقبلها . فقد شاع فى هذه الأيام ادعاء المرض ، كعذر ملطف للجريمة والمحامى والطبيب يتفاهمان على اكتشاف المجنون ، خلف قناع القاتل . ولكن البارونة والبارون من القوم المحافظين ، وهما يجهلان تقدم علم الطب الجنائى ، فلن يقبلتا مثل هذه الأعذار .

ما رأيك يا جنرال ؟

- كفى يا سيدى ، إننى أريد أن أتخلص منك نهائياً . إننى أنهاك عن أن تعتذر إلى البارون اعتذاراً ما . سيكون هذا منك إهانة أخرى . لقد علم البارون أنك من بيتى ، وقد تفاهمنا سوياً بعد إذ أوشك أن يطلب مبارزتى أتعلم لأى شيء تعرضنى يا سيدى ؟ لقد وعدته بشرفى أن أفصلك من خدمتى اليوم .

- عفواً يا سيدى . أهو الذى طلب إليك أن ... أن تتخلص منى - ما دمتُ من منزلك ، كما تفضلت بالإشارة إلى ذلك ؟

- كلا ، ولكنى اعتقدت أن من واجبى أن استرضيه . وقد اكتفى بذلك . فلنفترق يا سيدى ، ما زال لك عندى أربعون جلدأً وثلاثة فلورنيات . هاك النقود ، ولك أن تراجع الحساب . وداعاً ، أنت من اليوم غريب عنى وأنا غريب عنك . إننى لم أجن منك غير المتاعب . سأخبر رئيس الخدم أنى من اليوم غير مسئول عن نفقاتك فى الفندق ، ولى الشرف بأن أكون خادمك . وتناولت النقود والحساب - وكان منقوشاً بالرصاص وحييت الجنرال وقلت له فى قطوب شديد :

- يا سيدى الجنرال ، إن الأمر لا يمكن أن ينتهى عند هذا . إننى أسف جداً لما سببت لك من المتاعب لدى البارون . ولكن الخطأ خطؤك ، ومعذرة . كيف اعتبرت نفسك مسئولاً عنى أمام البارون ؟ ما معنى هذا التعبير ... « إن هذا الرجل من بيتى » ؟ إننى مربى عندك ، ولست ابنك ولا ربيبك ، فليس لك أن تحمل وزر أعمالى . إننى فى الخامسة والعشرين ، وإنى متخرج فى الجامعة ، وإنى شريف . أنا غريب عنك أنا بنفسى فرد مسئول قانوناً . لولا ما أعلمه من حميد صفاتك ، ونبيل أخلاقك ،

لطلبتك أنت للمبارزة بغير إمهال ، جزاء اجترائك على أن تدعى لنفسك أنك مسئول عن أعمالى .

ذهل الجنرال حتى فغر فاه ، وحاول أن يتكلم ، وبسط يديه ، ثم الدنا .
الفرنسى ؛ وأوضح له أنى اتحداه . فقهقه الفرنسى .
وأردفت دون أن يزعجنى مسلك دى جرييه :

– أما البارون فلن أدع أمرى وأمره يمضى هكذا . وما دمت قد تدخلت فى الأمر أيها الجنرال ، بموافقتك على الاستماع لشكوى البارون ، فإنى أتشرف بإخبارك أنى سأسأل البارون غداً بكل إصرار ، وباسمى أنا ؛ لماذا خاطب شخصاً سواى فى شىء يخصنى : كأنى غير جدير بأن أوضح مسلكى .
وصح ما توقعته ؛ فقد اغتاز الجنرال لهذا الاقتراح الأخير .

– كيف ؟ أتنوى أن تمضى فى هذه المسألة الملعونة ؟ لا تدع هذه الجسارة يا سيدى ؛ وإلا فإنى أقسم لك . . إن هنا حكومة ، وأنا ... وأنا ... باختصار ، مركزى ، ومركز البارون ... أخيراً ... سنوقفك عند حدك ، سنطردك بقوة البوليس – أتفهم ما أقول ؟

فأجبت دون أن يفارقنى الهدوء :

– أيها الجنرال إنكم لا تستطيعون أن تفعلوا ذلك دون ما داع . إنى لم أكد أبدأ نقاشى مع البارون ، وأنتما تجهلان كل الجهل كيف أردت أن أناقشه . لست أريد إلا أن أصلح ما توهمه البارون ، وهو أنى خاضع لشخص يمكنه أن يسيطر على إرادتى الحرة . لا حاجة بك إلى الانزعاج والإشفاق .

فانقلب الجنرال ضارعاً يقول :

– يا ألكسى إيقانوفتش . بالله دع هذه الخطة الخرقاء (وأخذ يدي بين يديه) ، ماذا يفهم هو من هذا ؟ مضايقات ؟ ألا ترى أنى مضطر أن أسلك هنا سلوكاً معيناً ، وخاصة الآن ، وقد ... وخاصة الآن ! آه ، إنك لا تعلم ، إنك لاتستطيع أن تعلم موقفى ! ... عندما نرحل من هنا – سأكون على استعداد لقبولك عندى ، أما الآن ... آه ، باختصار ، أنت تفهم كل شىء !

وصاح بإشارة يأس :

– ألكس إيقانوفتش ، أنت تفهم كل شىء !

وانصرفت راجياً من الجنرال ألا يجزع ، ومؤكداً أن كل شيء سيمضى فى هودة ونظام ، والروس فى الخارج جبناء فى بعض الأحيان ، فهم يخشون القيل والقال ، ويتعبون أنفسهم كثيراً ليعلموا إن كان شيء من الأشياء مناسباً أو غير مناسب . هم دائماً يفضلون ذلك السلوك الذى جرى به العرف ، فيخضعون له سواء أكانوا فى فندق ، أم فى نزهة ، أم فى حفل ، أم فى رحلة . ولكن الجنرال اعترف لى أن هناك - فوق هذا - ظروفًا تحتم عليه أن « يلزم الحذر » فى ذلك الحين . وأدى به ذلك إلى الخور والجبن ، وجعله يغير نبرة حديثه معى . بيد أن هذا الأحمق قد ينقلب غداً كرة أخرى ، ويستعين بالسلطات ، وإذن فيجب أن آخذ حذرى ، فليس لى بعد ، غرض ما من مضايقة الجنرال ، ولكنى أردت أن أنتقم من پولينا : فقد عاملتنى بقسوة ودفعت بى إلى مأزق حرج . حتى لقد شاقنى أن تضطر إلى التوصل إلى حتى أكف . حقاً إن حماقاتى قد تعود عليها بالضرر ... على أن أحاسيس ورغبات أخرى بدأت تتجسم فى خاطرى . إذا لم يكن لى بد من أن أبدو لها نكرة ، فلا ضير إذا ظهرت بمظهر الديك الصغير الحقيق ، وإذا أوسعنى البارون ضرباً . ولكنى رغبت أن أسخر منهم جميعاً ، وأن أخرج من هذه المعمة قياً . فليز الناس ما يريدون أن يروا ، ولتذعر پولينا ، ولتضطر أن تصفر لى حتى أكف . ولكنها مهما صفرت فسوف ترى على الأقل أنى لست ديكا صغيراً حقيراً !

سمعت الآن نبأ عجباً . فقد قابلت خادمتنا منذ برهة على الدرج ، وأخبرتني أن ماريا فليوفنا رحلت اليوم بقطار الليل لتقيم مع قريبة لها فى كارلسباد . فما معنى هذا ؟ وقد صرحت الخادمة أن سيدتها حزممت أمتعتها فى الصباح المبكر . كيف لم يلاحظ أحد غيرى هذه الحادثة ؟ أم لعلى كنت أنا الشخص الوحيد الذى لم يكن على علم بها ؟ وأخبرتني الخادمة أيضاً أن ماريا فليوفنا تقارضت والجنرال عبارات قاسية منذ ثلاثة أيام .

فهمت إذن ! لعل هذه العبارات كانت عن المدموازيل بلانش . لاشك أن أمراً حاسماً يوشك أن يقع .

ناديت رئيس الخدم هذا الصباح . وطلبت إليه أن يفرد لى حساباً خاصاً والحق أن نفقاتى لم تكن تبهظنى أو تضطررنى إلى مغادرة الفندق . إنى أملك مائة وستين جلدأ . ومن يدرى ؟ ربما كانت سبباً فى ثرائى ، نعم سبباً فى ثرائى . أمر غريب ! إنى لم أربح شيئاً بعد ، ومع ذلك لم أستطع قط أن أعمل أو أفكر أو أحس إلا كأتى واثق من ثرائى القريب . إذ لم أستطع أن أتخيل نفسى إلا ثرياً .. ثم فكرت أن أذهب رغم تلك الساعة المبكرة إلى المستر أستلى فى فندق إنجلترا ، وهو نزل صغير لا يبعد عن فندقنا كثيراً .

ولكن دى جرييه دخل غرفتى فجأة . ولم يكن قد فعل ذلك قط ، إذ لم أكن على وفاق معه فى هذه الأيام الأخيرة ، فهو يحتقرنى ولا يخفى ذلك ، وأنا أبغضه ولا أميل إليه ، ولهذا أدهشتنى زيارته كثيراً .

حيانى بأدب ، وهنائى تهنئة عابرة بمقامى الجديد . وسألنى ، حين رأى قبعتى فى يدى ، هل أقصد النزهة ؟ فأجبتة أنى ذاهب إلى المستر أستلى لبعض شأنى ، وما كدت أفعل حتى بدا على محياه الاهتمام .

ودى جرييه - ككل فرنسى - مرح ظريف حين يكون هذا واجباً أو مفيداً ، ثقيل الوطأة حين لا حاجة به إلى المرح ، والظرف . فالفرنسى ليس بطبيعته ظريفاً ، وهو لا يكون كذلك إلا بقدر ، وإذا شعر بضرورة الابتكار فخياله سقيم مصطنع .. وحقيقة أمره أنه أتفه وأحط وأثقل مخلوق على ظهر الأرض . وقد أبدو غريباً ساذجاً حين أقول : إن الرجل الفرنسى لا يحبه إلا رجل غبى أو فتاة روسية .. فما من رجل ذى عقل إلا يؤذيه هذا التائق المصطنع ، وهذا التلطف المنافق ، وهذا التسامح الكاذب ، وهذا المرح البغيض .

قال دون احتفال ، وإن لم تخلُ نبراته من أدب :

- لقد جئت لأمر ذى بال . إنى رسول الجنرال ، أو إن شئت وسيطه . إنى لم أفهم معظم الحديث الذى دار أمس ، وذلك لجهلى بالروسية . ولكن الجنرال شرح لى الأمر تفصيلاً ولا بد أن اعترف بأنى ...

- اسمع يا مسيو دى جرييه ، إنى أتشرف بوساطتك ، فلست إلا مربياً لست صديق الأسرة ولا مستودع أسرارها ، ولكن قل لى : أأنت من الأسرة ؟ إنك تعنى بكل شىء ويكل أحد . وتتدخل فى كل أمر . وها هم قد اختاروك وسيطاً ! ..

فأسخطة سؤالي وقال بجفاء :

- إننى مرتبط مع الجنرال بروابط العمل المشترك وباعتبارات خاصة أخرى .
وقد أرسلنى لأرجوك أن تدع ما عزمته عليه أمس . إن أفكارك تدل على خيال رائع ،
ولكن الجنرال يخبرك بأنك لن توفق فيما عزمته عليه .

- فالبارون لن يستقبلك ، بل إنه قادر على أن يكف أذاك عنه . وإذن فلماذا تصر ؟
أنت ترى هذا جيداً ، لقد وعدك الجنرال أمس أن يعيدك إلى عملك فى أول فرصة
تسنى ، وإنه اليوم يمنحك الحق فى أن تأخذ مرتبك دون أن تخدمه . هذا يكفى .
أليس كذلك ؟

أجيبته بهدوء أنه مخطئ ، وأن البارون سيستمع لى . ثم رجوته أن يخبرنى
صراحة إن كان قد جاء لغرض آخر ، وإن كان يريد أن يعلم على أى شىء صممت .

- بلا ريب . طبيعى أن الجنرال يريد أن يعلم ماذا ستصنع .

أخذت أوضح له ما اعتزمته ، ولكنه جلس مسترخياً وجعل يحرك رأسه على حافة
مسانده مظهراً الاستهزاء وقلّة الاكتراث . وبذلت غاية جهدى لأوهمه أنى جاد
فى الأمر . أوضحت له أن البارون أهاننى بأن خاطب الجنرال فى أمرى كائى خادم ،
وأنه تسبب فى حرمانى من عملى ، وأنى مستاء لذلك دون شك . ولكنى أستطيع
أن أفهم الفروق فى السن ، والمركز الاجتماعى ، وهنا لم أستطع أن أمنع نفسى من
الابتسام وأضفت : إننى لن أرتكب حماقة أخرى ، ولن أطلب إلى البارون
المبارزة ، ولكنى أعتقد أن لى الحق فى تقديم اعتذاراتى إلى البارونة . بيد أنى أدع
هذا أيضاً ، فإن تصرفات البارون والجنرال المهينة لم تدع له مجالاً ، وسيظن
الناس جميعاً أنى لا أعذر إلا لى أعاد إلى عملى . وما دام الأمر كله قد انتهى ،
فيجب أن أطلب إلى البارون أن يعتذر لى ، ولكن فى عبارة ملطفة ، كأن يقول مثلاً :
« إننى لم أقصد إهانتك » . وحينئذ أعذر إليه بدورى ، بحرية وصراحة .
إننى لا أريد إلا أن يمكننى البارون من هذا الحل الأخير .

- يا لها من مهارة يا سيدى . يا لها من دقة . ألا تعترف أيها السيد أنك صنعت
كل هذا لتضايق الجنرال ؟ أو لعل لك خطة أخرى يا سيدى العزيز !

- ألا تتبينى أنت أيضاً يا عزيزى المركز لم تهتم لهذا الأمر ؟

- حسناً . إن الجنرال ...

- والجنرال . لماذا يهتم لهذا أيضاً ؟ لقد أظهر بالأمس بعض القلق ولكنه لم يوضح لى شيئاً ...

فقاطعتى المسيو دى جرييه فى نبذة تطف ، يشويها شىء من السخط :

- إن ظروفنا غير عادية تضطره إلى هذا . لعلك تعرف المدموازيل دى كومنج ؟

- تعنى المدموازيل بلانش ؟

- أجل . المدموازيل بلانش دى كومنج . إنك تعلم أن الجنرال يحبها وأن زواجهما قريب . تصور الأثر الفاجع الذى تحدثه فضيحة ، قصة ...

- إنى لا أرى هنا فضيحة ولا قصة يمكن أن تؤثر فى الزواج .

- ولكن البارون شديد الغضب - شخصية بروسية كما تعلم ! إنه قد يثور ثورة الرجل الألمانى !

أجبتة وأنا أبذل كل ما أستطيع من جهد حتى لا يفهم شيئاً مما أقول :

- هذا لا يعنينى فى شىء . إنى لم أعد من منزل الجنرال . ثم إذا كان مفهوماً أن المدموازيل بلانش ستتزوج الجنرال ، فماذا ينتظران ؟ ولماذا يخفيان الخبر عن أهل المنزل ؟

- إنى لا أستطيع أن لم يحن الوقت أنت تعلم أنهم ينتظرون أخباراً من روسيا ، وأن الجنرال فى حاجة إلى أن يصلح شئونه .

- آه ! أخبار عن السيدة عمته .

فنظر إلى دى جرييه نظرة تتم عن الكراهية وعاد يقول :

- على كل حال فإنى معتمد على ظرفك ونبلك ولطفك ... لا شك أنك ستصنع هذا من أجل الأسرة ، التى تحبك كفرد منها وتقدرك ...

- ولكنى طردت أخيراً . أنت تدعى الآن أنهم فعلوا هذا مضطرين . ولكن ألا ترى أنك لا تسر كثيراً حين أقول لك : إنى لا أريد أن أشد أذنك ، ولكنك يجب أن تقول فى كل مكان إنى شددتهما ؟

فأجاب بصرامة وأنفة :

- ما دام الرجاء لا يؤثر فىك ، فمن واجبى أن أقول لك إننا سنعمد إلى طرق أخرى . إن ها هنا حكومة . سنطردك اليوم بلا إمهال . يا للشيطان ! صعلوك مثلك يطلب إلى المبارزة شخصاً كالبارون ؟ ! لا أحد هنا يخافك . أتظن أن الجنرال غير قادر على أن يأمر خدمه بقذفك إلى الباب ؟

أجبت بهدوء غريب :

- لا حاجة بي إلى أن أعرض نفسي لهذا . إنك مخطئ يا مسيو دي جرييه سيتم كل شيء خيراً مما تظن . سأذهب إلى المستر أستلي لأرجوه أن يكون شاهدي . إنه يحبني ولن يرفض ذلك . وسيذهب إلى البارون فيستقبله هذا إنني لست إلا «مريباً» أو تابعاً . ولكن المستر أستلي هو ابن أخي اللورد پيبروك . وكل الناس يعلمون هذا ، واللورد پيبروك هنا . فلا شك أن البارون سيكون مؤدباً مع المستر أستلي . أما إن أساء الذوق معه ، فسيعتبرها المستر أستلي إهانة لشخصه هو - أنت تعلم عناد الإنجليز - وسيبعث إليه أحد أصدقائه ، وأنت تعلم أنه كثير الأصدقاء . تصور إذن عاقبة المسألة . مسألة لن تنتهي على النحو الذي تظنه .

جبن دي جرييه ، ولعله قال لنفسه : قد يكون الأمر كما يقول الفتى ، لعله قادر على أن يرتكب حماقة أخرى . فعاد يقول مبالغاً في التلطف :

- أتوسل إليك مرة أخرى أن تهمل الأمر . يخيل إلي أنك تلتذ بهذه المشاحنات . إنك لا تطلب استرضاء بل فضيحة . أعترف أن هذا جميل وطريف ، ولعل هذا ما يعجبك في الأمر . ولكن ...

وأردف بسرعة وقد رآني أتناول قبعتي :

- إن معي خطاباً لك من أحد الأشخاص . اقرأ . لقد رجاني أن أنتظر جوابك . وسلم إلى ورقة مطوية مختومة ، عرفت فيها خط پولينا ، وقرأت :

« لقد بلغني أنك مصر على المضي في تلك المسألة . فأتوسل إليك أن تقصر عما أنت فيه من جنون . إنها حماقة ! وأنا في حاجة إليك ، وقد أقسمت أن تطيعني . تذكر شلاجنبرج . إنني أسألك أن تطيع . إنني أمرك إذا لم يكن من ذلك بد » .

فتاتك - پولينا

حاشية : « إن كان في نفسك شيء من السخط على ما حدث أمس فإنني أرجو منك المَعذرة . »

لقد تغير كل شيء ، وأحسست أنني أشحب وأرتعد . ونظر إلى الفرنسي متحاشياً أن يلاقى نظرتي فيزيد ارتباكاً . وددت لو صرح بالسخرية مني !

- حسناً . تستطيع أن تطمئن الآنسة پولينا . ولكن دعني أسألك لماذا انتظرت بهذه الورقة طوال الوقت . كان يجب تقديمها على الفور بدلا من كل تلك التثيرة .

- معذرة ... لقد كان من الطبيعي أن أسرع . فالأمر دقيق . لقد أردت أن أعرف .
ما عزمتم عليه أولاً ... وعلى كل حال ، فإننى أجهل مضمون الرسالة ، وقد ظننت
أنى لن يعوزنى الوقت لتقديمها إليك .
- دعك من هذا ! لقد طلب إليك ألا تقدم هذه الورقة إلا إذا نفذت حيلتك معى .
كن صريحاً يا مسيو دى جريبه .
فقال وهو ينظر إلى نظرة غريبة :
- ربما .

ومددت يدي أتناول قبعتى ، فانحنى وخرج . وخيل إلى أنى أرى ابتسامة
على شفتيه . غمغمت وأنا أهبط الدرج :
- هذا يوم له ما بعده أيها الفرنسى الصغير .

ولم أكن قادراً على التفكير فى شىء ما . فقد خيل إلى أنى تلقيت ضربة
على رأسى . ثم أنعشنى الهواء قليلاً . فوضحت أمامى فكرتان ، الأولى : أننا نخلق
من هذه التفاهات مأساة بغير ما داع . والثانية : أن الفرنسى على پولينا سلطاناً
غريباً بون شك . فهو لا يكاد يأمرها حتى تطيع ، وتكتب إلى متوسلة . حقاً إن العلاقة
بينهما لم تكن قط واضحة لى ، ولقد حرت فى فهم هذه العلاقة منذ عرفتتهما .
ولكنى ألاحظ من زمن أنها تبغضه ، بل تحتقره وأنه لا يكاد يلتفت إليها ، بل يعاملها
شر معاملته ، وقد ذكرت لى پولينا أنها تبغضه وألقت إلى باعترافات صريحة
فى هذا الشأن . لا ريب إذن أن له عليها سلطاناً ما ، وأنه يقبض عليها بقبضة
من حديد .

* * *

قابلت الإنجليزي فجأة بينما كنت ماراً « بطريق النزهة » كما يسمونه ، وهو طريق تشرف على جانبيه أشجار الكستنا . قال :

- لقد كنت على وشك القدوم إليك ، ويبدو أنك كنت قادماً إليّ أيضاً . إذن فقد تركت مخدميك ؟
فسأله دهشاً :

- كيف علمت هذا ؟ أكل الناس يعلمون ؟

- كلا . ألبتة . إن هذا الأمر لا يعنى الناس جميعاً . والحق أنى لم أسمع قط أحداً يتكلم عنه .

- فكيف اتفق لك أن تعلم به ؟

- صدفة ... وأين تقصد ؟ إنى أميل إليك ، ولهذا كنت عازماً على زيارتك .
صحت :

- يا لك من فتى رائع يا مستر أستلى (ذلك ولو أنى لم أزل أسائل نفسى كيف تسنى له أن يعلم .) إنى لم أشرب قهوتى بعد ، ولا أظنك مسست قهوتك . فلنعرج على ندى الملهى ، حيث نستطيع أن نجلس وندخن ونتحدث .

وكان الندى على قيد خطوات . فلما جئ بالقهوة جلسنا ، وأشعلت سيجارة ، ولم يكن المستر أستلى مدخناً ، فجلس منتبهاً وقد ألقى إلى سمعه . وبدأت حديثنا قائلاً :

- لست عازماً على الرحيل . بل أريد البقاء هنا .

فقال المستر أستلى مستحسناً :

- إنى لم أشك فى هذا قط .

ومن العجيب أنى بينما كنت ذاهباً إليه ، لم أفكر قط أن أخبره بحبى لبولينا ، بل عزمت ألا أحدثه عن ذلك الأمر ، إنى لم أشر إلى الأمر أدنى إشارة أثناء مقامنا بذلك البلد ، إذ كنت أعرفه رجلاً شديد التحفظ ، وقد لاحظت من أول الأمر أنه معجب ببولينا . وإن لم يتحدث عنها قط . بيد أنه ما كاد يجلس ويثبت نظرتة الثقيلة الباردة على ، حتى استشعرت - لأمر ما - رغبة فى أن أنفض إليه كل شىء ، وأن أحدثه

عن حبي في جميع أطواره . وقد تحدثت إليه عنه ساعة ونصف ساعة . ووجدت في ذلك الحديث لذة كبيرة ، وإن كانت هذه المرة هي الأولى التي أتحدث فيها عنه ، بل إنني لاحظت اضطرابه كلما تحمست في الحديث ، وأغراني هذا بالمبالغة في عنف قصتي . ولست أسفاً إلا على شيء واحد : أني أطلت الحديث عن الفرنسي .

استمع إلى المستر أستلي صامتاً ساكناً ، ولم ينبس بكلمة ، ولم تصدر عنه نأمة ، وهو يحدق في عيني بنظرات قوية . ولكنه أوقفني عندما بدأت أتكلم عن الفرنسي ، وسألني كيف يكون لي أن أرجم بالظنون فيما لا صلة بينه وبين ما أتحدث عنه ؟ فأجبت : لعلك مصيب فيما تقول ، ولم ألبث أن دهشت لذلك الرجل الخجول يسألني هذا السؤال الصريح :

– أتعلم شيئاً عن هذا المركيز والمدموازيل بوليننا سوى الظن ؟
فأجبت :

– كلا . لست واثقاً من شيء .

– وإذن فقد أسأت صنعاً بإفشائك هذه الظنون إلى ، بل بمجرد التفكير فيها .
فقاطعته وقد دهشت ثانية :

– أجل ، أجل . إنني أعترف ، ولكن ليس هذا هو لب الموضوع .

ثم رويت له قصة أمس الأول بكل تفاصيلها تحدثت عن نزوة بوليننا ، ولقائي مع البارون ، وفصلي من العمل ، وعن وضاعة الجنرال ، وزيارة دي جرييه لي ذلك الصباح وأخيراً أطلعتني على الخطاب ، وسألته :

– ما رأيك ؟ لقد كنت قادماً لأسألك رأيك . أما أنا فيبدو لي أن أقتل هذا الفرنسي الصغير ، ولعلني قاتله .

قال المستر أستلي :

– إنني أوافقك على رأيك فيه . أما المس بوليننا ... فأنت تعلم أن المرء قد يضطر إلى معاملة من يكره ... ولعل بين هذين الشخصين أنفسهما شيئاً تمليه ظروف خارجية – وإن يكن مجهولاً منك – ورأيت ألا تهتم اهتماماً كبيراً . وأما ما أقدمت عليه المس بوليننا منذ يومين ، فغريب بلا شك ، ولو أن ذلك لا يعني أنها أرادت التخلص منك ، أو أن يضربك البارون بعصاه (ولا أدري لماذا يحمل هذه العصا إذا كان لا يستعملها) ولكن الغريب في الأمر أنه لا يتفق مع نبل المس بوليننا . ولعلها لم تكن تظنك مقدماً على إنفاذ أوامرها نصاً .

فصحت فجأة وأنا أثبتته بنظري :

- أتعلم أنى واثق من سبق معرفتك بهذه القصة ، وأنت عرفتها من .. المدموازيل
بولينا نفسها ؟

فنبظر إلى دهشاً ، ثم قال وقد استرد هدوءه سريعاً :

- إن عينيك تلمعان ، وإنى أقرأ فيهما شكا . ولكن ليس لك أن تصار حتى
بشكوك كهذه إنى لا أسمح لك بذلك ألبتة . أسمع ؟ وإنى أرفض كل الرفض أن أجيب
على سؤالك .

صحت وقد اختلج في صدري انفعال غريب لم أتبين كنهه :

- حسناً ! كفى ! لا حاجة بك إلى أن تزيد .

وبعد ، فأين ومتى كان لبولينا أن تتخذ المستر أسئلي حميماً ؟ إنى لم أعد أرى
ذلك محتمل الوقوع ، وإن كانت بولينا ما تزال عندي ذلك اللغز المحير . أليس من
العجيب أنى بينما كنت أروى لصديقى قصة غرامى ، راعنى أنى لا أكاد أرى فى هذه
القصة شيئاً واضحاً أو معقولاً ، بل رأيت أن كل ما يربطنى بها خيالى وغريب وشاذ ،
ولا يشبه شيئاً مما أعرفه ؟

عدت أقول بحرارة كحرارة المستر أسئلي :

- حسناً . حسناً . إنى حائر ولا أستطيع أن أبدى رأياً آخر . وبعد ، فأنت سيد
كريم ، ويسرنى أن أعلم رأيك ، وإن لم أكن فى حاجة إلى نصيحتك . وصمت .
ثم عدت أقول :

- أود أن أعلم أولاً إلى أى شىء تعزو جزع الجنرال ؟ إنه خلق من العوبتى ،
مشكلة عويصة ، بل تدخل فى الأمر دى جريبه ، الذى لا يهتم إلا بشأن خطير ،
وشرفنى بالزيارة وسألنى ، بل توسل إلى ... أجل ، لقد توسل إلى دى جريبه نفسه .
والعجيب أنه جاغى فى الساعة التاسعة صباحاً ، وكان فى يده خطاب المدموازيل
بولينا . فمتى كتبت هذا الخطاب ؟ هل أيقظوها لذلك ؟ إنها تخضع دائماً لكل ما يريد
وتهبط حتى تسألنى العفو إذا أراد هو ذلك . ولكنى لا أدرى أى مصلحة تدفعها إلى
هذا ، ولماذا يخشون جميعاً هذا البارون ، ولماذا يهتمون بزواج الجنرال من المدموازيل
بلانش دى كومنج ؟ لقد قال لى الجنرال ليلة أمس : إنه مضطر إلى أن يسلك سبيل
الحذر فى هذه الأيام ، فما رأيك فى الأمر كله ؟ أرى من نظرتك أنك أعلم بهذا الأمر
منى .

فابتسم المستر أستلى ، وأوماً برأسه مقرأ وقال .

– أجل ، إنى أعلم بهذا الأمر منك . فهذه المدموازيل بلانش هى محور كل شىء .
وأنا واثق من هذا .

وخطر لى أنى ربما علمت من هذا السبيل شيئاً جديداً عن پولينا ، فصحت
بلهفة :

– وماذا عن المدموازيل بلانش ؟

– أعتقد أن للمدموازيل بلانش مصلحة خاصة فى اجتناب لقاء مع البارون . كأن
هذا اللقاء ربما يكون مسيئاً ... بل مشيناً .
– إيه ، إيه .

– منذ ثلاثة أعوام ، كانت المدموازيل بلانش هنا فى رولتبرج ، ولم تكن تسمى
عند ذلك « دى كومنج » ولا كان لأمها الأرملة دى كومنج وجود . وكذلك لم يعرف أن
هناك شخصاً يدعى « دى جريبه » . ولا ريب عندى فى أنهم ليسوا أقرباء ، بل فى
أنهم حديثو المعرفة ، بل إن عندى ما يدفعنى إلى الاعتقاد بأن مركيزية دى جريبه أمر
مستحدث ، وأن اسم دى جريبه قد اخترع مع اللقب ، فأنا أعرف شخصاً هنا ، لقيه
من قبل باسم آخر .

– ولكن دى جريبه له أصدقاء ممتازون .

– وما قيمة هذا ؟ المدموازيل بلانش لها أيضاً أصدقاء ممتازون ، ومع ذلك فقد
أمرها البوليس منذ ثلاث سنوات فحسب أن تغادر المدينة ، تبعاً لإشارة البارونة
السالفة الذكر وقد صدعت بالأمر .

– كيف كان ذلك ؟

– إنها قدمت إلى هنا فى صحبة أمير إيطالى يتحلى باسم تاريخى – باربارينى –
أو شىء كهذا . وكان رجلاً مرصعاً بالجواهر والأحجار الكريمة الثمينة ، وكان يخرج
معها فى عربة فخمة . وكانت المدموازيل بلانش تلعب بالثلاثين وبالأربعين ، فربحت
أولاً ، ثم أدير عنها الحظ ، فعادت ذات مساء وقد خسرت مقداراً جسيماً من المال .
ولكن الكارثة الحقيقية هى أن الأمير اختفى بسحر ، واختفت معه الجياد والمركبات .
وكانت تذكرة الفندق التى خلفها وراءه تحمل رقماً ضخماً . فسقط فى يد المدموازيل
زلا (وقد سمت نفسها المدموازيل زلا بعد أن كان يظن أنها السيدة بربارينى) ،

وبكت وأعولت ومزقت ثيابها فى سورة الغضب ، وكان فى الفندق نفسه كونت پولونى -
والپولونيون فى الخارج كلهم كونتات - أثر فيه منظر المدموازيل زلما وهى تقدر ثيابها
وتخمش وجهها بأظافرهما الموردة المعطرة . وكان بينهما لقاء . فلما حان وقت الغداء ،
كانت تبدو هادئة ، وظهر الكونت البولونى مساء فى الملهى وذرعه فى ذراع المدموازيل
زلما ، وكانت تضحك كعادتها ضحكاً عالياً ، بل كانت أكثر مرحاً مما اعتادت ، وجعلت
تشق طريقها بين لاعبى الروليت ، صنيع اللاعبين اللائى يدفعن الجالسین ليفسحن
لأنفسهن مكاناً . إن لهن مهارة خاصة فى ذلك . وقد لاحظت هذا دون شك .
- آه . نعم .

- إنهن غير جديرات بالملاحظة . وهن قذى فى عيون المهذبين ، وإن كان يسمح
لهن بالبقاء هنا . ومنهن من تصرف أوراقاً من ذوات أربعة آلاف الفرنك على موائد
القمار . ولكنها لا تكاد تكف عن ذلك حتى يطلب إليها الرحيل . وقد جعلت المدموازيل
زلما تصرف أوراقاً من هذا الصنف ، وخسرت أكثر مما خسرت البارحة ، رغم أن هذا
الصنف من النساء سعيد الحظ عادة فى القمار ، لأنهن يعتمدن على رصيد كبير ...
ولكن قصتى تنتهى هنا : فقد اختفى الأمير . وفى مساء اليوم نفسه جاءت المدموازيل
زلما وحيدة إلى الملهى ، فلم تجد من يرحب بها هذه المرة . وأصبحت بعد يومين خاوية
الوقاض . وعندما فقدت آخر جنيه ذهبى كان معها ، تلفتت حولها ولحت إلى جانبها
البارون برمرجلم ، الذى كان يرمقها بانتباه عظيم ، وغيظ شديد . ولم تبال بغيظه ، بل
رمته بابتسامتها الخلابية ، وسألته أن يضع لها عشرة جنيهات على الأحمر . فقدمت
البارونة شكوى عنها وفى المساء نفسه أمرت ألا تعود إلى الظهور فى الملهى ... إن كان
علمى بكل هذه الوقائع الفاضحة يدهشك ، فاعلم أنى عرفتها من قريبي المستر فيدر ،
الذى أخذ المدموازيل زلما فى عربته ذلك المساء من رولتبرج إلى أشيا . وهى
المدموازيل زلما تريد أن تصبح « عقيلة الجنرال » لعل ذلك يعفيها من مضايقات إدارة
الملهى . وهى لم تعد تقامر ، ولكنها تقرض اللاعبين بالرهن ، وربما كان هذا الجنرال
المسكين نفسه مديناً لها ، ودى جريبه كذلك ، إلا إن كان هذا الأخير شريكها .
أرأيت الآن لماذا يجب على المدموازيل أن تتجنب البارونة والبارون ؟ إن الفضيحة
تقضى على مثلها . وأنت تنتمى إلى هذه الأسرة ، فأى عمل منك قد يسبب الفضيحة ،
ويزيد الأمر حرجاً أنها تظهر للناس كل يوم وذرعاها فى ذراع الجنرال أو المس
بولينا . أفهمت الآن ؟

فضربت المنضدة بيدي ضربة شديدة - حتى أن الخادم أقبل إلينا مذعوراً -
وصحّت :

- لا ! إني لا أرى شيئاً ! أخبرني يا مستر أستلي ، إذا كنت تعلم هذه القصة منذ زمن طويل ، ومن ثم تعلم من هي المدموازيل بلانش دي كومنچ فلماذا لم تطلعنني على ذلك من قبل ، أنا أو الجنرال ، أو المدموازيل پولينا على الخصوص ، وهي التي تظهر في الملهى أمام الناس مع المدموازيل بلانش ؟ أكنت محقاً في ذلك ؟ فأجاب المستر أستلي بهنوء :

- لم أجد ثمت داعياً إلى تحذيرك ، فأنت لا تملك أن تغير من الأمر قليلاً أو كثيراً . ثم من أى شيء أحذرك ؟ إن الجنرال يعرف عن المدموازيل بلانش أكثر مما أعرف ، والمسكين مع ذلك يتنزه معها ومع المس پولينا . إن هذا الجنرال رجل تعس . لقد رأيت هذه الفرنسية أمس على جواد ، ومعها دي جريبه والأمير الروسى وكان الجنرال يتبعهم عن بعد ممتطياً حصاناً أبلق . وقد قال لى فى ذلك الصباح ، إنه يجد ألماً فى ساقيه ، ولكنى رأيته يتحامل على نفسه حتى يستطيع الركوب ، فعرفت أنه امرؤ مبقطوع منه الرجاء . ورغم كل شيء ، فإن هذه المسألة لاتعنينى ، وأنا لم أعرف المس پولينا إلا من زمن قصير ... ثم قال بعد تفكير .

- وقد أخبرتك أنى لا أرى لك أن تجعل من مودتى الصادقة سبباً لأن تسألنى نوعاً بعينه من الأسئلة .

قلت وأنا أنهض .

- كفى . إني أرى الأمر واضحاً كالشمس : أعنى أن المدموازيل پولينا تعلم كل شيء عن هذه المدموازيل بلانش . ولكنها لا تستطيع أن تفارق الفرنسى ، ولهذا لا تأبى صحبة المدموازيل بلانش . وما من شيء آخر . كان يمكن أن يدفعها إلى ذلك . أو إلى أن ترجونى أن أبتعد عن البارون ، بعد أن أغرتنى هى به !

- إنك تنسى أولاً أن هذه المدموازيل دي كومنچ هى خطيبة الجنرال وأن المدموازيل پولينا ربيبته ، ولها أخ وأخت ، هما ولداه ، وأن هذا المجنون لا يعنى بولديه ، بل يهملهما ويسلب مالهما .

- أجل . أجل . هذا حق . إن ترك الطفلين معناه ضياعهما . والبقاء معناه السهر على مصلحتهما ، أو إنقاذ جزء من ثروتهما . أجل . أجل . ولكن ... ولكن ... آه ! إنى أفهم الآن لماذا يهتمون جميعاً بصحة الجدة .

- عمن تتكلم ؟

- عن هذه العجوز التى تأبى أن تموت ! إنهم ينتظرون بصبر نافذ برقية تخبرهم أن الأمر قد وقع ، وأن العجوز قد ماتت .

- الحق أن اهتمامهم كله منصب عليها . وكل شيء يتوقف على الميراث . فإن الوصية لن تكاد تفتح حتى يتزوج الجنرال ، وتصبح پولينا حرة . أما دى جرييه ...

- حسناً ، حسناً ، ماذا يكون من أمر دى جرييه ؟

- سيسترد دينه . وهو ما ينتظره الآن .

- ألا تراه ينتظر شيئاً غير ذلك ؟

فأجاب المستر أستلى بعناد :

- لا أعلم أكثر من هذا .

فصحت بغضب :

- أما أنا فأعلم أكثر . إنه هو الآخر ينتظر وصية الجدة . لأنها تجعل لبولينا بائنة ، وما إن تنال النقود حتى تلقى بنفسها على عنقه . كل النساء هكذا . أعظمهن كبرياء يصبحن عند الزواج أذل الإماء . إن پولينا لاتستطيع إلا أن تحب بإخلاص . هذا رأى فيها : انظر إليها حين تكون وحيدة غارقة فى أفكارها . إن فيها شيئاً قاهراً متسلطاً ، ملعوناً . إنها تستطيع أن تقدم على أى عمل جنونى . إنها ... إنها ... (وصمت) ولكن من ذا الذى ينادى باسمى ؟ من ينادى ؟ لقد سمعت صيحة بالروسية : ألكسى إيقاً نوفتش ! صوت امرأة ! صه !

وفى هذه اللحظة اقتربنا من الفندق ، وكنا قد غادرنا الندى من زمن طويل دون أن نلاحظ ذلك . قال المستر أستلى وهو يشير إلى فندقى :

- حقاً ، لقد سمعت صوت امرأة ، ولكنى لم أعلم من كانت تنادى . وإنى أرى الآن من أين تأتى هذه الصيحات ، إنها امرأة جالسة على كرسى كبير ، قد وضعه الخدم على قمة الدرج . هم يحملون حقائبها . لقد وصلت بلا ريب منذ قليل .
- ولكن لماذا تنادىنى ؟ انظر ، إنها تصرخ مرة أخرى وتلوح لنا بيديها .

– قال المستر أستلى :
– أجل . إنى أرى ذلك .
وسمعنا صيحات تنبعت من درج الفندق :
– ألكسى إيقانوفتش ! ألكسى إيقانوفتش ! تباً لك من أحمق !
فأخذنا نعدو . وما إن وصلنا إلى الباب ، حتى تراخت ذراعاي فى ذهول ، ومكنت
مسمراً فى مكانى .

* * *

كانت الجدة واقفة على قمة الدرج ، بعد أن حملت إليها على كرسي كبير ، وكانت محاطة بالخدم والوصائف ومن إليهم ، وعلى رأسهم مدير الفندق ، وقد جاء بنفسه ليستقبل القادمة الجديدة التي أحدثت ضجة في الفندق ، بحاشيتها الخاصة ، وصناديقها وحقائبها الكثيرة .

أجل . لقد كانت أنطونيدا فاسيليڤنا تراسفتشا بعينها ، ذات الثروة الباذخة ، والكبرياء القاهرة ، والأعوام الخمسة والسبعين . هي المالكة المسكوفية الثرية ، التي أتعبت البرق ، وماطلت الموت ، جاءت على حين غرة ، كما تمطر السماء ، وكما يسقط الثلج . لقد كانت مشلولة الساقين ، ولهذا جاءت في كرسيها الذي لم تغادره قط منذ خمس سنوات ، ولكنها جاءت جمة النشاط ، راضية النفس ، رافعة الرأس ، عالية الصوت ، شتامة كعهدا ، لا تختلف في شيء عن تلك السيدة التي تشرفت برؤيتها مرتين منذ التحقت بخدمة الجنرال مريباً .

وقفت أمامها كالصنم من الدهشة . لقد رأنتى عن بعد وعرفتني وهي محمولة على كرسيها ، ونادتني باسمي واسم أبي (وكانت تذكر الأسماء بعد أن تسمعها مرة واحدة ، فلا تنساها بعد ذلك) . قلت لنفسى : هذه هي المرأة التي ظنوا أن يزوروا قبرها بعد أن تكتب وصيتها ! إنها ستدفننا جميعاً ، وستدفن معنا كل من في الفندق . ماذا سيكون من أمر أصحابنا الآن ، ماذا سيحدث للجنرال ؟ إنها ستقلب الفندق كله رأساً على عقب ! صاحت الجدة بصوت جهير :

- حسناً يا سيدى . لماذا تقف أمامى زائغ البصر ؟ أتأنف أن تصافحنى ؟ أم لعلك لم تعرفنى ؟

ثم صاحت بخادم شيخ ، ضئيل الجسم ، أصلع الرأس ، يلبس صداراً أبيض وسترة سوداء (وكان وصيفها الذى يصحبها في رحلاتها جميعاً) :

- إلى ياپوتاپتش ! تصور ! إنه لم يعرفنى ! لقد ووريت التراب وانتهى الأمر ! نعم ، بعد أن أرسلوا برقية إثر برقية يسألون هل ماتت ؟ ألم تمت بعد ؟ إنى أعلم القصة . ولكنى مملوءة حياة ، كما ترى .

فأجبتها في شيء من المرح ، وقد ثبت إلى رشدى :

- عفواً يا أنطونيدا قاسيلقنا . لماذا أرجو موتك ؟ لقد أدهشتني المفاجأة وحسب

- لماذا تدهش ؟ إني ركبت القطار وسافرت . القطار مريح جداً . أكنت خارجاً تتنزه ؟

- أجل . إني عائد من الملهى .

- إن الجو هنا جميل دافئ ، والمكان طيب ، والأشجار كلها مزهرة . إني أحب هذا المكان ... أجماعتنا فى مسكنهم الآن ؟ هل الجنرال مثلاً بالفندق ؟
- نعم . أظنهم جميعاً هناك .

- أتراهم يراعون التقاليد ويحفلون بالمظاهر ؟ إن مثل هذه الأشياء تضيف على المرء أبهة . لقد سمعت أيضاً أنهم يتخذون مركبة كما يجدر بالأشراف الروس . إن سادتنا الروس إذا ذهبوا إلى الخارج غالوا فى المظاهر . هل پراسكوفيا هنا أيضاً ؟
- أجل . إن پولينا ألكسندروفنا هنا .

- والمرأة الفرنسية ؟ سأراهم جميعاً بنفسى ، أرشدنى إلى الطريق يا ألكسى إيفانوفتش . أمستريح أنت إلى مقامك هنا ؟
- أجل . وأشكرك يا أنطونيدا قاسيلقنا .

- أما أنت يا پوناپتش فمرّ هذا الفندقى الأحمق أن يعد لى مسكناً لائقاً ، وليكن حسن الزينة ، غير شديد الارتفاع ، وليحمل المتاع إليه بإشرافك ... آه ! ماذا يريد كل هؤلاء منى ؟ ثلثة من العبيد ! من الذى معك ؟
فأجبته :

- المستر أستلى .

- ومن هو ؟

- رفيق فى السفر ، وصديق حميم لى ، وهو يعرف الجنرال أيضاً .

- أهو إنجليزى ؟ فلهذا حذق إلى ولم يكذب يفتح فاه . على أنى أميل إلى الإنجليز .
احملونى الآن إلى المسكن الذى يقيمون فيه .

فحملها الخدم على كرسىها ، وتقدمتُ الجمع على درج الفندق الكبير . وسار الموكب فى مهابة وجلال ، فكان كل من يقابلنا يقف ليحملك إلينا . وكان فندقنا يعد

أحسن الفنادق فى تلك المنطقة وأغلاها وأفخمها ، وقد مررتنا فى الردهات بسيدات أنيقات وسادة من كبار الإنجليز . أسرع غير واحد منهم يسأل المدير المذهول عن القادمة الجديدة فكان لا يفتأ يجيبهم بأنها « أجنبية ذات مكانة ، روسية ، كوتتيسة ، سيدة عظيمة ، ستحتل الغرف التى كانت تقيم فيها منذ ثلاثة أيام الدوقة دى ن » بينما كانت الجدة بطلعتها المتكبرة وعنقها الأصيد ، تطيل النظر فى كل من يمر بها ، وتسال بصوت عال : من هذا ؟ وكانت مديدة القامة وكان هذا واضحاً رغم أنها لم تنهض قط عن كرسيها ، وكان ظهرها معتدلاً كأنه لوح من الخشب ، ولم يلمس المسند قط . وكان وجهها الأشهب الحاد الملامح يطل بكبرياء من فوق عنقها ، لقد كان فى نظرتها شيء من العظمة ، بل من التحدى ، ولكنك كنت لا تلاحظ أى تكلف فى نظرتها أو إشارتها . ويرغم سنيها الخمس والسبعين كان وجهها صبوراً ، وكانت أسنانها كلها سليمة . وكانت ترتدى ثوباً من الحرير الأسود وقبعة بيضاء .

همس المستر أستلى ، وهو يصعد إلى جانبى ولا يزال يدخن :

– إنى معجب بها كل الإعجاب .

فأجبتته مصرحاً بما كان يدور فى خاطرى :

– إنها تعلم قصة البرقيات ، وهى تعرف دى جرييه أيضاً ، ولكنها لا تكاد تعرف المدموازيل بلانش .

ما أضعف الإنسان ! ما كادت تنزل دهشتى الأولى حتى ترقبت فى سرور الصاعقة التى توشك أن تنزل على الجنرال . واندفعت ، أمشى فى المقدمة ، والمرح ملء إهابى .

كانت أسرة الجنرال تشغل مسكنا فى الطابق الثالث . لم أنبه أحداً ، بل لم أطرق الباب . ولكنى فتحتة على حين غرة ، فإذا الجدة محمولة بينهم كالغازى المنتصر ، ومن غريب الاتفاق أن أصحابنا كانوا مجتمعين بأسرهم فى حجرة الجنرال . وكان الوقت ظهراً ، وكانوا على أهبة الخروج للنزهة (حيث يركب بعضهم عربة ، ويمتطى الآخرون الجياد ، ومعهم بعض من يعرفون) . كان الجنرال حاضراً ، وكذلك پولينا ، والطفلان ، والمريبتان ، ودى جرييه ، والمدموازيل بلانش فى كسوة الركوب ، وأمها الأرملة دى كومنيج ، والأمير الصغير ، وعالم ألمانى رأيتة فى ذلك اليوم للمرة الأولى .

أقبل الخدم إلى هذا الحشد بكرسى الجدة ، فوضعوه فى وسط الحجرة تماماً ، على قيد ثلاث خطوات من ابن أخيها . رباه ! لن أنسى أبداً ذلك المنظر ! كان الجنرال قبل دخولنا واقفاً بين الجماعة يتحدث ودى جرييه يساعده . ولأزد على ذلك أنى لاحظت منذ يومين أو ثلاثة أن المدموازيل بلانش ودى جرييه يتملقان الأمير ولا يحفلان بالجنرال العجوز . وهكذا كانت الجماعة كلها رغم تكلفها وتصنعها فى مرح ونشاط . ولكن لم تكد تظهر الجدة حتى ماتت الكلمة على شفتى الجنرال ، وصدق فى السيدة العجوز فاغر الفم ، تكاد تبرز عيناه من رأسه ، فكأنه رأى غولا . وظلت الجدة أيضاً صامته ساكنة ، ولكن نظرتها المثبتة عليه كانت تنطق بمزيج من التحدى والانتصار والسخرية . وظلا يتلاحظان هكذا نحو عشر ثوان ، بين صمت الجماعة العميق وكانوا جميعاً قد بدت عليهم سيماء الاضطراب العظيم ، حتى دى جرييه جلس جامداً لا يتحرك وقد لاح على وجهه قلق شديد ، وصدق المدموازيل بلانش فى الجدة مذعورة وقد ارتفع حاجباها ، وانفجرت شفاتها . ووقف الأمير والعالم دهشين يتأملان ذلك المنظر . أما پولينا فقد بدت فى عينيها أول الأمر دهشة عميقة ثم شحب لونها فجأة وغاض الدم من محياها ، وبعد لحظة تدفق الدم إلى وجهها وورد خديها ، ثم شحب ثانية .

أجل ، كان مجئ الجدة كارثة حلت على الجميع .

ووقف المستر أستلى عن بعد ، هادئاً راسخاً كعادته .

وأخيراً قالت الجدة :

– حسناً . ها أنذا قد جئت عوضاً عن البرقية . ماذا جرى ؟ لعلكم لم تكونوا

تنتظروننى ؟ فتمتم الجنرال المسكين :

– أنطونيدا قاسيليئنا ... عمتى العزيزة ولكن كيف ؟

ولو أن الجدة لبثت صامته زمناً أطول ، لخر الرجل المسكين مفلوجاً .

– كيف ؟ لقد جئت بالقطار . وما وظيفة السكك الحديدية إذن ؟ ولكنكم جميعاً

ظننتمونى قد مت وخلفت لكم الميراث . إنى عليم بالبرقيات التى أرسلتموها .

كم كلفتكم من النقود ! حسناً ، لقد جئت أسعى على قدمى أهذا هو الفرنسى المسيو

دى جرييه ؟ فقال دى جرييه على الفور :

– أجل يا سيديتى . ثقى ... أنى مسرور جداً ... صحتك ... هذه معجزة !

أن نراك هنا ... مفاجأة سارة !

- أجل . أجل سارة . إننى أعرفك أيها المهرج ، ولكنى لا أبالى بكلامك إلا كما ...
ولوحى بخصرها . ثم سألت وهى تشير إلى المدموازيل بلانش :
- وهذه ؟ من هى ؟ أهى معكم ؟
لقد أسخط الجدة منظر هذه الشابة الأنيقة تمسك فى يدها سوطا . أجبتها :
- هذه هى المدموازيل بلانش دى كومنيج ، وهذه أمها ، مدام دى كومنيج . وهما
تقيمان فى هذا الفندق .
فسألت بغير كلفة :
- الابنة متزوجة ؟
فأجبتها هامساً ومظهراً كل احترام مستطاع :
- كلا .
أهى رفيقة طيبة ؟
فلم أفهم ما تريد .
- أظريفة هى أم غير ظريفة ؟ أهى تعرف الروسية ؟ لقد استطاع دى جرييه هذا
أن يبين عن نفسه بالروسية بعد قليل من الإقامة فى موسكو .
فأوضحت لها أن المدموازيل بلانش لم تزر روسيا غير مرة واحدة . فاندفعت
الجدة موجهة الخطاب إليها :
- إذن فيونچور !
فقالت المدموازيل بلانش ، بانحناءة جميلة وأدب جم ، تخفى تحته الدهشة البالغة
لهذا السلوك من السيدة العجوز :
- بونچور ، مدام .
- أوه ! إنها تجحظ ببصرها وتتغامز ! ليس من العسير أن أعلم أى طائر هى ...
ممثلة أو شىء من هذا القبيل .
ثم التفتت إلى الجنرال بغتة وقالت :
- لقت نزلت هنا . إننى جارتك فهل يسرك هذا ؟

– أوه يا عمتى ! ثقى بإخلاصى وولائى ... وسرورى .
بدأ الجنرال يسترد ثباته . وإذا كان قادراً على أن يتكلم بطلاقة ورزانة وشيء من
البلاغة ، أخذ يفيض فى حديثه قائلاً :
– لقد كنا فى قلق شديد على صحتك ... كنا ننتقى برقيات مؤيسة ! ولكن ها أنت
ذى !

فقاطعته الجدة بغتة :

– أكاذيب ! أكاذيب !

فتظاهر الجنرال بأنه لم يسمع هذا التكذيب الصريح ، وأسرع يقول وقد رفع
صوته :

– ولكن كيف استطعت ... ؟ كيف استطعت أن تقررى القيام بمثل هذه الرحلة ؟
ألا ترين أنه فى مثل سنك ، وفى مثل صحتك ... حقاً ، إن هناك ما يدعو إلى الدهشة ،
وإننا لنا عذراً فى حيرتنا . ولكن ما أعظم سرورى ! إننا مسرورون جميعاً ، وسنحاول
أن نضاعف استمتاعك بالرحلة

– حسناً . حسناً ! كفى ! لا فائدة من كل هذه الثثرة ! إنى لست فى حاجة
إلى أحد منكم لأستمتع . تسألنى كيف استطعت القيام بهذه الرحلة ؟ حسناً !
هل فى ذلك ما يثير الدهشة ؟ لقد تمت فى يسر . ما بالكم جميعاً كالسكارى ؟
كيف أنت يا پراسكوفيا . ماذا تعلمين هنا ؟

فقالت پولينا وهى تتقدم إلى السيدة العجوز :

– وكيف أنت يا جدة ؟ هل استمرت رحلتك طويلاً ؟

– هذا أول سؤال معقول يوجه إلى . أسمعون ؟ ألا ترين ؟ لقد مللت الرقاد ،
والعلاج ، وانتظار الشفاء ... لا ، حسبى ما مضى . لقد طردت كل أولئك الناس
واستدعيت قسيس كنيسة سانت نيقولا ، الذى شفى إحدى السيدات من المرض نفسه
بشراب مستخرج من الخرشوف . وقد أفادنى فائدة كبيرة . وفى اليوم الثالث قمت بعد
أن عرقت عرقاً غزيراً ، واجتمع أطباءى الألمانى من جديد . ووضعوا نظاراتهم على
أعينهم ، وشرعوا يفحصون ، ثم قالوا لى : اذهبى الآن إلى المياه حتى يتم لك الشفاء .
قلت : ولم لا أذهب ؟ وفى يوم واحد أعددت العدة وبدأت الرحلة فى الأسبوع الماضى
مع پوتاپتش وخادمى فيدور . وقد تخلصت من هذا الأخير فى برلين إذ لم تكن له
ضرورة عندى . فأنا أستقل دائماً بعربة من القطار ، أما الحمالون فإنك تستطيعين أن

تكتريهم من أى مكان بعشرين كويكا . - ثم أضافت وهى تجيل نظرها فى الحجرة :
يا له من مسكين جميل ! أنى لك هذا يا سيدى ؟ أنا أعلم أن ثروتك كلها مرهونة ، بكم
أنت مدين للفرنسى وحده ؟ إنى أعلم كل شىء . إنى أعلم كل شىء .

فتمتم الجنرال بارتباك شديد :

د- إنى أعجب لك يا عمتى العزيزة . إنى لست بحاجة إلى رقابة . ثم إن ما أنفقه
لا يزيد عن دخلى .

. - حقاً . إنك تأكل مال أبنائك وأنت وصيهم !

أخذ الجنرال وقال :

- لا أدرى فى الحقيقة ... بعد هذا الكلام ...

- لا تدري ماذا ؟ ألا تترك هذه الروليت ؟ أتريد أن تضيع كل ثروتك ؟ فحنق
الجنرال وتمتم وهو يكاد يختنق من الغضب :

- الروليت ؟ أنا ؟ إن مركزى ... ولكنك ما تزالين مريضة دون شك يا عمتى . ألا
تعودين إلى منزلك ؟

- هراء . تمثيل . الحقيقة أنك لا تستطيع أن تغادر هذه الروليت . سأذهب اليوم
لأرى ما عسى أن تكون هذه الروليت . حدثينى يا پراسكوڤيا عن مشاهد هذه البقعة .
وعليك أنت يا ألكسى إيفانوفتش أن ترينى كل شىء . عليك يا پوتاپتش أن تعد لي
قائمة بالرحلات .

وسألت پولينا مرة أخرى :

- ماذا يمكن أن يرى هنا ؟

فقال پولينا :

- يوجد قريباً جداً من هنا أطلال أحد الحصون ، وشلاجنبرج .

- ما شلاجنبرج هذه ؟ أهى غابة ؟

- كلا . بل جبل وعلى قمته شرف تبصرين منه منظراً رائع الجمال .

- أيمكن أن يحمل كرسى فوق جبلكم هذا ؟

قلت ؟

- لاشك أننا سنجد من يقوم بهذا العمل .

- وفى هذه اللحظة أقبلت فيدوزيا تقدم إلى الجدة طفلى الجنرال .
- كلا إنى لا أريد أن أراهما ، فإنى أكره تقبيل الأطفال بأنوفهم الملوثة . كيف حالك يا فيدوزيا ؟
- فأجابت فيدوزيا .
- إنى سعيدة هنا كل السعادة يا أنطونيدا قاسيايئنا . كيف حالك يا سيدتى ؟
- كم أسفنا لمرضك !
- أجل . إنى أعلم ذلك . أنت ساذجة طيبة القلب .
- ثم أضافت مخاطبة پولينا :
- من كل هؤلاء الأضياف ؟ من هذا اللئيم القمى ذو النظارة ؟
- فهمست پولينا فى أذن الجدة :
- إنه الأمير نلسكى .
- آه ! روسى ! لم أكن أحسبه يستطيع أن يفهمنى ! أتظنين أنه سمع ما قلته ؟
- لقد رأيت المستر أستلى من قبل . ثم أضافت ملتفتة إلى المستر أستلى كيف أنت ؟ فانحنى صامتاً .
- ألا تجد ما تقوله لى ؟ قل شيئاً بريك . ترجمى له يا پولينا .
- ففعلت ، فأجاب المستر أستلى برزانة لم تخل من رشاقة :
- ليس لدى ما أقوله ، إلا أنى سعيد حقاً بأن أراك فى صحة .
- فلما ترجمت هذه العبارة للجدة سرت وقالت :
- ما أحسن أجوبة الإنجليز ! لهذا أفضلهم على الفرنسيين . إنى لا أريد أن أشق عليك كثيراً يا پولينا . قولى له : إنى مقيمة هنا فى طابق أدنى . ثم كررت مخاطبة المستر أستلى :
- أجل . فى طابق أدنى . وأشارت بأصبعها إلى أسفل . فبدا على المستر أستلى أنه سر بهذه الدعوة . ثم أخذت السيدة العجوز تحقق فى پولينا من رأسها إلى قدميها فى اهتمام بالغ . ولم تلبث أن قالت :
- إنى أميل إليك يا پراسكوفيا ، فأنت بنت لطيفة . خير من فيهم . إن لك شخصية مثلى . أرينى ظهرك . أليس هذا شعراً مستعاراً ؟

- كلا يا جدتى . إنه شعرى .
- حسناً . حسناً . إنى لا أحب هذه البدع السخيفة . أنت جميلة جداً . ولو كنتُ رجلاً لأحببتك . لماذا لا تتزوجين ؟ يجب أن أذهب الآن . إنى أريد المشى . ولكن لا بد لى من الركوب .
- والتفتت إلى الجنرال قائلة .
- أما زلت غاضباً .
- فبادر الجنرال يقول وهو يتكلف المرح :
- كلا . ألبتة . إنى أعلم أنه فى سنك ...
- وهمس دى جرييه فى أذنى :
- إن هذه العجوز تهرف .
- وعادت تقول للجنرال :
- إنى أريد الطواف بهذه الأنحاء ، ألا تدع لى ألكسى إيقانوڤتش ؟
- عن طيب خاطر . ثم إنا جميعاً رهن إشارتك - أنا وپولينا - والمسيو دى جرييه أيضاً ...
- فقال دى جرييه بابتسامة ساحرة :
- إنه شرف يا سيدتى .
- شرف ؟ أنت مضحك يا سيدى ... احملونى إلى مسكنى الآن ، أريد أن أراه ، ثم أخرج قليلاً . والتفتت إلى الجنرال بغتة : لا تظن أنى سأعطيك شيئاً من النقود
- حملت الجدة من جديد ، وهبطوا جميعاً خلف الكرسي . وكان الجنرال يسير كمن ضرب على رأسه بهراوة ، ودى جرييه غارقاً فى التفكير ، وأبدت المدموازيل بلانش أولاً ميلاً إلى البقاء ثم انضمت إلى الجماعة ، وتبعهم الأمير ؛ فلم يبق فى مسكن الجنرال إلا الألمانى ومدام دى كومنچ .

* * * *

فى مدن المياه ، يُعين مديرو الفنادق مساكن السياح على أساس تقديرهم الشخصى أكثر مما يعينونها على أساس رغبة هؤلاء السياح . والحق أنهم قليلا ما يخطئون . وقد كان مسكن الجدة بالغ الترف حقاً ، ولأمر ما خص المدير الجدة بهذا المسكن الفخم . فكان فيه أربع غرف حسنة الموقع ، وحمام وحجرتان للخدم ، وأخرى للوصيفة . وكانت تقيم فى هذه الغرف فى الأسبوع الماضى بوقعة عظيمة ، وبهذا احتج المدير لارتفاع الأجر ، وقد طافت الجدة بهذه الغرف واحدة بعد أخرى ، وفحصتها فحصاً دقيقاً ، بينما كان الفندقى ، - وهو شيخ أصلع - يسير إلى جانبها إجلالاً لها ، ولست أدري بالضبط ماذا كان الناس يظنون الجدة . ولكنى أعلم أنها اعتبرت على كل حال سيدة ذات مكانة عظيمة ، وثروة باذخة . ودون اسمها فى سجل الفندق : « السيدة عقيلة الجنرال . أميرة تراسفتشوا . » والحق أنها لم تكن أميرة قط . ولكن حاشيتها الفخمة ، ومقصورتها الخاصة ، ومتاعها الكثير ، كل ذلك زادها روعة ، بينما ضاعف الرهبة منها كرسيها المتحرك ، وصوتها الحاد ونبرتها الآمرة ، وأسئلتها الشاذة الصريحة ، وقامتها المنتصبة الشامخة .

كانت تقف أحيانا وهى تشاهد مسكنها الجديد ، وتشير بأصبعها إلى قطعة من الأثاثات ثم تغمر الفندقى المبتسم المتملق المتحفظ بأسئلة غير متوقعة . وكانت تخاطبه بالفرنسية ، ولكن منطقتها فى هذه اللغة من الغموض أحيانا بحيث اضطرت أن أترجم لها . وكانت أجوبة الفندقى عادة غير مقنعة لها ، على حين كانت أسئلتها غريبة محيرة له . وقفت مثلاً أمام لوحة منقولة - فى غير إتقان - عن أحد الرسوم الأسطورية وسألت :

- صورة من هذه ؟

فأجاب الفندقى :

- إنها لابد أن تكون صورة كونتيسة معروفة .

- كيف لا تعلم ؟ ولم هذه النظرة الزائغة ؟

فلم يدر الفندقى بم يجيب . وصاحت الجدة بالروسية : أحقق !

ثم مضت لسبيلها ، لكن لتعيد القصة ثانية أمام تمثال سكسونى لمحتة من بعيد ، وأمرت - لغير سبب واضح - أن يؤتى به إليها . وأخيراً سألت الفندقى عن ثمن البساط الذى كان فى حجرة نومها ، ومكان صنعه ، فلم يستطع الرجل إلا أن يحد بالاستخبار عن ذلك . فقالت الجدة :

- أف لهؤلاء الحمير !

ثم ركزت كل انتباهها على سرير نومها وقالت :

- هذا حسن . هذا فخم . دعونى أرى فكشف الخدم عن السرير شيئاً .

- أكثر . انزعوا الوسائد . ارفعوا الحشايا .

وفحصت الجدة كل شىء بدقة .

- أليس هنا بق ؟ حسناً . ارفعوا الفرش جميعاً ، وضعوا فرشى ووسائدى . هذا

ترف عظيم ، ماذا أصنع به ؟ إنى ساكون عرضة للملل هنا . يجب أن تأتى إلى كثيراً يا ألكسى إيفانوفتش . يجب أن تأتى إلى كلما فرغت من التدريس للطفلين . فأجبتها :

- لقد تركت خدمة الجنرال منذ أمس . إنى أعيش هنا مستقلاً .

- ولم ذلك ؟

- إليك الخبر . لقد قدم من برلين منذ بضعة أيام بارون شهير مع زوجته .

وبينما كنت أتنزه أمس قلت لهما شيئاً بالألمانية دون أن أتمكن من تقليد لهجة أهل برلين تماماً .

- ثم ماذا ؟

- لقد اعتبرها البارون إهانة وشكأنى إلى الجنرال ففصلنى من خدمتى .

- كيف هذا ؟ هل أهنته حقاً ؟ ليتك أهنته !

- كلا إن البارون اعتدى على بأن رفع عصاه ليضربنى .

فالتفت إلى الجنرال فى عنف :

- أسمح بأن يعامل مربى أبنائك هذه المعاملة ، ثم تطرده من وظيفته ؟ يالك من

جبان ! يا لك من أحمق !

فأجاب الجنرال بشىء من العزة :

- صبراً يا عمتى . إنى لا أجهل واجبى . ولكن ألكسى إيفانوفتش لم يقص عليك

النبا على حقيقته .

واستمرت هي تقول ملتفتة إلى :

- وماذا فعلت بعدئذ ؟

فأجبت بهدوء :

- أنا ؟ لقد أردت أن أطلب البارون للمبارزة ، ولكن الجنرال أبى على ذلك .

فسألت الجنرال :

- لماذا أبى عليه ذلك ؟

- ثم التفتت إلى الفندقى وسألته أهو أيضاً يأبى أن يبارز ؟ وأضافت :

- فإننى لا أجد فرقاً بينك وبين البارون ، ولا أطيق أن أرى سحنك الألمانية .

فلم يكن من الرجل إلا أن انحنى وانصرف .

قال الجنرال ساخراً :

- معذرة يا سيدتى . لكن هل المبارزات حقاً مما يقبله العقل ؟

- لم لا ؟ إن الناس جميعاً ديكاً صياحة ، ولهذا يتعاركون ، ولكنى لا أراك إلا أحمق ضعيف الشخصية ، هيا احملونى . اعمل يا پوتاپتش على أن يكون لدينا حمالان دائمان . اذهب واستأجرهما ، لسنا بحاجة إلى أكثر من اثنين يحملاننى إذا صعدت الدرج . أما هنا ، أوفى الطريق ، فيمكنكم أن تدفعوا الكرسي . اذهب وأخبرهما بذلك . وادفع لهما الأجر مقدماً حتى يظهرأ لى شيئاً من الاحترام . وعليك أيضاً يا پوتاپتش أن تصحبينى حيث أذهب . أما أنت يا ألكسى إيفانوفتش فلا تنس أن تشير إلى هذا البارون عندما تنتزه ، حتى أظفر بلمحة من هذا « الفون » بارون ! أين الروليت ؟

فأوضحت لها أن الروليت توجد فى أبهاء الملهى . فأمرتتنى بالأسئلة عن هذه الأبهاء . أكثرية هي ؟ وهل يرتادها كثير من اللاعبين ؟ وهل يستمر اللعب طيلة النهار ؟ وهل يخضع اللعب لقواعد معلومة ؟ فلم أر بداً من نصحتها بأن ترى الشئ بعينى رأسها ، إذ كان أحسن الشروح لا يعطى عنه إلا فكرة جد ناقصة .

- حسناً . خذونى الآن إلى الملهى . تقدمنا يا ألكسى إيفانوفتش .

سألها الجنرال باهتمام :

- كيف هذا يا عمتى ؟ ألا تستريحين قليلاً أولاً ؟

وبدا عليه القلق ، وعلى الجماعة كلها الارتباك . وأخذوا يتقارضون النظرات الحائرة ، كأنما خشوا أن تظهر الجدة شذوذاً أمام الناس . ومع ذلك فقد وعدوا جميعاً باصطحابها .

- أستريح ؟ إنى لست متعبة . فقد مكثت خمسة أيام بلا حركة . فلنرَ يناييعكم المعدنية ما شكلها ، وأين موقعها ؟ ثم لنرَ هذا الجبل ... شلاجنبرج . أليس هذا هو اسمه يا پراسكوفيا ؟

- أجل يا جدتى .

- أهنا مناظر أخرى يجب أن أراها ؟

فقلت پولينا بارتباك :

- أشياء كثيرة جداً يا جدتى .

فالتفتت الجدة إلى وصيفتها :

- مارفا ، ستأتين معى إلى الروليت .

- إن هذا غير ممكن يا عمتى . فلن يسمح بدخول مارفا ، ولاپوتاپتش .

- هراء . لأنها خادم ؟ ولكنها هى أيضاً يجب أن ترى كل هذا . مع من تستطيع أن تذهب إن لم تذهب معى ؟

- ولكن يا عمتى ...

لعلك تخجل أن ترى معى ! البث . إنى لا أسألك المجرى . إن كنت جنرالاً ، فأنا الأخرى أرملة جنرال . ولكنك على حق ، رغم كل شئ . فلست فى حاجة إلى كل هذه الحاشية . يكفى أن آخذ معى الكسى إيقانوفتش .

ولكن دى جرييه أصرَّ على أن يكونوا جميعاً فى صحبة الجدة . ووجد بضع كلمات لطيفة يقولها عن هذه المتعة الطيبة ... إلخ ، وسر الجميع بعبارات على أنه همس إلى الجنرال :

- لقد خرفت . ولو تركناها تذهب وحدها لأتت بالحماقات .

ولم أسمع بقية الحديث ، ولكن بدا لى أن دى جرييه قد أخذ فى تدبير جديد ، وأنه قد عاوده الأمل .

كان بين الفندق والملى نحو نصف قرست على الطريق المحفوف بأشجار الكستنا حتى يشرف السائر على ميدان مواجه للبناء . ويبدو أن الجنرال كان مطمئناً بعض

الاطمئنان ، فإن موكبنا ، رغم غرابته ، لم يخل من فخامة ، وليس منظر عجوز مقعدة . من المناظر التي تثير الدهشة في مدن الينايب . ولكن من الواضح أنه كان يخشى مغبة الزيارة نفسها . كيف تذهب سيدة كسيحة عجوز إلى غرف لم تجعل إلا للقمار ؟ كانت پولينا والمدموازيل بلانش تسيران على جانب الكرسي ، والثانية منهما تمزح بظرف ، وتتملق الجدة ، حتى سلسلت لها أخيراً ، أما پولينا ، فكان عليها أن ترضى تطلع السيدة العجوز التي أرهقتها بأسئلة من هذا النمط : من الذي مر الآن ؟ من هذا القادم ؟ أهذه المدينة واسعة ؟ هل الحقائق العامة فسيحة ؟ ما نوع هذه الأشجار ؟ ما اسم هذه التلال ؟ أنسور تلك التي أراها تطير هناك ؟ ما هذا البناء العجيب ؟ وقس على ذلك ... بينما همس المستر أستلي في أذني « إن النهار لن يمضي دون حادث . » وكان پوتابتش ومارفا يسيران وراء الكرسي ، وأولهما يلبس سترته السوداء وصداره الأبيض ، وفوقهما عباءة ، ومارفا - وهي امرأة في الأربعين مودة الخدين وإن وخط المشيب شعرها - تلبس قلنسوة وثوباً قطنياً وحذاءً له صرير . وكانت السيدة العجوز كثيراً ما تنتهي إليهما لتحدث معهما . وجعل دي جرييه يتحدث إلى الجنرال في حماسة كأنه يقترح عليه أمراً ، ويبعث فيه عزماً . ولكن ما القول في هذه العبارة المروعة من الجدة : « إنى لن أعطيك شيئاً ؟ » لئن كان دي جرييه يجهل السيدة العجوز فإن الجنرال يعرف عمته حق المعرفة ، وهو لهذا منقطع الرجاء . وقد لاحظت أيضاً أن دي جرييه والمدموازيل بلانش يتبادلان الإشارات ، كما لاحظت أن الأمير والعالم الألماني اختفيا عند نهاية الطريق ، فقد خلفانا وعادا أدراجهما . وهكذا دخلنا الملهى في موكب بهي . وأظهر الخدم هناك من المبادرة ما أظهره خدم الفندق . على أن نظراتهم إلينا لم تخل من فضول . ولم تضع الجدة وقتاً ، فأمرت أن يطاف بها في الأبهاء جميعاً ، وراقها قليل منها ، ولم تعن بالباقي ، على أنها كانت تسأل عن كل شئ . وأخيراً وصلنا إلى أبهاء القمار ، فبادر حارس الباب يفتحه في خفة مجنون . وراع الحاضرين منظر الجدة وهي داخلة إلى بهو الروليت ، وكان قد احتشد في طرف البهو حول مائدة الثلاثين والأربعين عدد من اللاعبين بين المائة والخمسين والمائتين ، وقد وقفوا صفوفاً . وكان أولئك الذين يشقون طريقهم إلى الموائد يثبتون في أماكنهم حتى ينتهوا من اللعب ، إذ لم يكن يسمح لأحد بأن يشغل مكاناً إلى المائدة ولا يلعب . وكان حول المائدة كراسي ، ولكن أكثر اللاعبين كانوا يفضلون الوقوف ليكونوا أقرب وأقدر على الحساب واللعب . وكان يقف وراء الصف الأول صف ثان وثالث ينتظر دوره . وقد ينقد صبرهم فيراهنون من فوق رءوس

اللاعبين الجالسين . وكان فى الصف الثالث من يتمكن من وضع نقوده . وكانت هناك مناقشات حول أموال ضائعة ، وقد كان فى الملهى شرطة يقظة نشيطة ، وكان الكروبيية الثمانية يراقبون أموال القمار وهم يحسبون النتائج ، ويفضون ما يشجر من خلاف ، فإن عجزوا عن ذلك لجئوا إلى شرطة الملهى ، فيحسم الأمر . وكان هؤلاء الشرطة يلزمون الملهى بملايس عادية ، ويلابسون الجمهور حتى لا تعرف أشخاصهم . وكانت عيونهم يقظة على اللصوص الذين تعج بهم أبهاء الروليت . وكثيراً ما سرقت النقود من الجيوب أو الأكياس ، إلا أن يزحم اللص فيعلوا الصياح . وكثيراً ما يقترب اللص من مائدة اللعب ، فيأخذ تحت بصر القوم وسمعهم مبلغاً من المال ليس له ، فإذا علا الصياح قال : إنه ماله ، وإذا حالفه التوفيق وكان ماهراً ولم يجزم أحد الشهود بأمر ، استطاع أن يدس المال فى جيبه ويمضى . على أن ذلك لا يكون إلا فى المقادير الضئيلة التى لا تلفت أنظار الكروبيية أو اللاعبين ، ويفضل صاحبها الحقيقى أن يتركها تضيع على أن يحدث فى سبيلها شغباً ، فإن ضبط اللص ، طرد من المكان شر طردة .

وكانت الجدة ترقب كل ذلك من بعيد ، بعينين جاحظتين ، وتطلع غريب . ولم تعجبها « الثلاثون والأربعون » كثيراً . بل فضلت عليها الروليت بعجلتها الدائمة الدوران . وأخيراً رغبت فى أن ترى اللعبة عن كثب . ولا أدري كيف استطاع الخدم وبعض الوسطاء - وخصوصاً پولونيان منكوبان من أولئك الذين لا يزالون يقدمون خدماتهم إلى اللاعبين المجدودين وإلى الأجانب عامة - لا أدري كيف استطاعوا أن يجدوا لها مكاناً على الفور ، رغم تدافع اللاعبين الشديد . ووضع الكرسي فى وسط إحدى الموائد ، إلى جانب الكروبيية الأول ، وتجمهر الناس - وبينهم أسر إنجليزية - حول المائدة ، ليروا السيدة العجوز بوضوح من بين صفوف اللاعبين ، ورأيت مناظير كثيرة توجه نحوها . وعلق الكروبيية بعض الأمل على تلك اللاعبة الشاذة ، تلك المرأة العجوز المفلوجة ! ووقفت قريباً منها ، أما أصحابنا ، فقد ظلوا بين المشاهدين .

اقتصرت الجدة أول الأمر على مراقبة اللاعبين ، وألحت على تسألنى فى همس من هذا ؟ ومن ذاك ؟ وأثار اهتمامها بوجه خاص ، شاب كان يقامر بمبالغ طائلة . وقد ربح بالفعل نحو أربعين ألف فرنك ، كانت مكومة أمامه ما بين نقود ذهبية وأوراق . وكان شاحباً ، تلتمع عيناه ، وترتعش يداه . وكان يراهن بملء يديه دون أن يعد ، ويربح دائماً . وكان الخدم يضطربون خلفه ، يقدمون إليه مقعداً ، أو يوسعون له مكاناً ، أملاً فى حلوان طيب . وكان بعض المقامرين يقدمون إليه شيئاً مما ربحوا ،

ليقامر لهم به . وكان يجلس على مقربة منه پولونى صغير ، يبدى اهتماماً عظيماً بالأمر ، ولا يكف عن الهمس إليه بذلة مشيراً عليه ، منظماً لعبه ، أملاً هو الآخر فى مكافأة . ولكن المقامر لم يكن يراعيه ولا يستمع إليه ، بل كان يراهن كيفما يعن له ، ويربح . ولبثت الجدة ترقبه بضع لحظات . ثم قالت فجأة تخاطبني :

- مره أن يترك اللعب ويذهب بربحه ! إنه إن بقى سيفقد كل شيء فى لحظة . ثم دفعتنى بمرفقها وقالت : « اذهب إليه ! » وكان تنفسها مضطرباً إذ كانت شديدة الهياج - أين پوتاپتش ؟ أرسل إليه پوتاپتش ، ألا تسمع ؟ - ودفعتنى بمرفقها ثانية - يجب أن تذهب إليه أنت ، فإننى لا أدرى أين پوتاپتش . ثم جعلت تصيح بالشباب : اخرج ! اخرج ! حتى انحنيت نحوها وأوضحت لها أنه لا يجوز الصياح أو رفع الصوت على مائدة اللعب ، لأن ذلك يريك اللاعبين حين يحسبون ، وأنذرتها بأننا قد نطرد إن فعلنا ذلك .

- يا للمصيبة ! لقد خسر هذا الفتى المسكين ! كأنه كان يريد أن يخسر ! ولكنى لا أريد أن أراه يرد كل ما ربح . يا له من أحمق !

والتفتت الجدة إلى ناحية أخرى . وكان على اليسار إلى الطرف الآخر من المائدة ، سيدة شابة معها قزم ضئيل ، فمن يكون هذا القزم ؟ لعله قريب . أو لعلها تصطحبه لتجذب إليها الانتباه . وكنت قد رأيت هذه السيدة من قبل . وهى تأتى إلى الملهى فى الواحدة تماماً ، وتغادره فى الثانية . فهى تلعب ساعة واحدة . وكان لها مقعدها المختار . فتخرج من جيبها عدداً من النقود الذهبية وكثيراً من الأوراق ذات ألف الفرنك وتراهن فى هدوء واتزان ، وهى تحسب وتبحث - بعمليات تجريها بالقلم الرصاص على ورقة - احتمالات الخسارة والربح . وكانت مراهناتها ضخمة ، وكانت تربح كل يوم ألفى فرنك أو ثلاثة آلاف فرنك وتذهب على الفور . ظلت الجدة ترمقها طويلاً ثم قالت :

- آه ! أما هذه فلن تخسر أبداً أتعرفها ؟ من هى ؟

فأجبتها فى صوت خفيض :

- لعلها فرنسية .

- آه . طير مهاجر دون شك . حذاؤها لامع . اشرح لى الآن سير اللعب ، وطريقة المقامرة .

فأوضحت لها تلك الموافقات المتعددة بين الأحمر والأسود ، والزوجى والفردى ، والقيم المختلفة فى نظام الأرقام . وقد استمعت إلى بانتباه ، وسألتنى أسئلة كثيرة ، وحفظت كل شىء عن ظهر قلب . والحق أن الإلمام بقواعد اللعب كان ميسوراً مع تكرر الأمثلة على كل لعبة . سألت :

« وما معنى الصفر ؟ لقد سمعت الآن ذلك الكروبييه ذا الشعر الأشقر المرسل يصيح « صفر ! » وها هو ذا ما زال يجمع كل ما على المائدة من نقود ! إن هذه الكومة كلها ستصير له ! ما معنى الصفر ؟

– الصفر يا جدة « للبنك » فكل ما على المائدة يصبح له حين تسقط الكرة الصغيرة على الصفر .

– وحينئذ لا يربح أحد ؟

– صاحب البنك فقط . إلا أن يراهن أحد على الصفر فتدفع له نقوده خمسة وثلاثين ضعفاً .

– ولماذا يدفع له خمسة وثلاثون ضعفاً والصفر يظهر كثيراً ؟ ولماذا لا يراهن كثير من هؤلاء الحمقى على الصفر ؟

– لأنه ليست للصفر إلا فرصة واحدة بين ست وثلاثين .

– هراء ! پوتاپتش ... لكن ، لا . إن نقودى معى .

وأخرجت من جيبيها كيساً مطرزاً وأخذت منه فلوريناً .

– خذ ! ضعه حالاً على الصفر .

– يا سيدتى إن الصفر قد خرج اللحظة . ولعله لا يظهر ثانية إلا بعد وقت طويل . انتظرى فتكون فرصة الربح أعظم .

– هراء . ضعه حيث أمرتك .

– لك ما أمرت . ولكن الصفر قد لا يخرج الليلة أبداً وإن قامرت عليه بالآلاف . هذا يحدث كثيراً .

– أوهام . من خاف الذئب لم يقرب الغابة . هل ضاع ؟ ضع غيره .

وفقد الثانى ، كما فقد الأول . فوضعت ثالثاً . وكانت الجدة شديدة الهياج كأنها تريد أن تسحر الكرة الصغيرة التى كانت تقفز بين أقسام العجلة . وضاع الفلورين الثالث أيضاً ، فجنت الجدة ، وضربت بيدها على المائدة عندما نادى الكروبين ستة وثلاثين بدل الصفر المنتظر . وصاحت :

- الصعلوك ! متى يظهر هذا الصفر اللعين ؟ لن أهدأ حتى أراه . يخيل إلى أن هذا الكروبييه يمنعه من الظهور عمداً . ألكسى إيفانوفتش ! ضع جنيهين ذهبيين دفعة واحدة ، سيظهر إذا عدلنا عنه وعندئذ لن نربح شيئاً .

- سيدتى !

- ضع ! ضع ! إنها ليست نقودك !

ووضعت الجنيهين . ودارت الكرة الصغيرة زمناً طويلاً ، ثم بدأت تقفز على الأقسام فى هدوء أكثر . وكانت الجدة تحملق جامدة وتضغط على يدي . وفجأة ... صاح الكروبييه :

- صفر !

فقالته الجدة بحرارة وهى تتألق بشراً :

- أرأيت ؟ أرأيت ؟ إن الله نفسه هو الذى أوحى إلى أن أضع جنيهين . كم سأخذ ؟ لماذا لا يعطوننى نقودى ؟ پونايتش ! مارفا ! أين هما ؟ أين أصحابنا ؟ پونايتش !

- إن پونايتش بالبواب يا سيدتى ، وقد منعه من الدخول . انظرى ! إنهم يقدمون إليك ربحك . خذى .

وقذف إلى الجدة خمسون جنيهاً ملفوفة فى ورق أزرق ، وعشرون نقداً . فجمعتها كلها أمام الجدة .

قال الكروبييه وهو يدير الروليت :

- العبوا يا سادة . العبوا

- رباه ! لقد تأخرنا . ضع ، ضع سريعاً .

- أين ؟

- على الصفر ، على الصفر أيضاً . ضع كل مايمكنك . كم ربحنا ؟ سبعين جنيهاً ؟ لماذا تستيقظها ؟ ضع عشرين جنيهاً دفعة واحدة .

- فكرى قليلاً يا سيدتى . قد يمكث الصفر مائتى مرة دون أن يظهر . إنك بهذا تفقدين ثروتك .

- أكاذيب . حماقات . صغ . إننى أمرك . كفى كلاماً . إننى أدرك ما أفعل .

- إن قانون اللعب لا يسمح بأن يوضع أكثر من اثنتى عشر جنيهاً على الصفر . هاك . قد وضعتها .

- لماذا ؟ ألا تكذب على ؟

ثم قالت وهى تغمر الكروبييه بمرققها :

- يا مسيو ؟ كم على الصفر ؟ اثنا عشر ؟ اثنا عشر ؟

وأسرعتُ بشرح المسألة بالفرنسية فأجاب الكروبييه فى أدب :

- أجل يا سيدتى . كما أن كل رهان آخر يجب ألا يزيد عن أربعة آلاف فلورين .
هذا هو القانون .

- حسناً . ضع اثنى عشر إذا .

صاح الكروبييه :

- انتهى اللعب ؛

ودارت العجلة وظهر الرقم الثالث عشر .

- خسرنا .

- ضع ؛ ضع ؛ ضع ؛

لم أعد أعارضها . بل هزرت كتفى ووضعت اثنى عشر جنيهاً أخرى .

ودارت العجلة طويلاً ، وكانت الجدة ترتعش . هل كانت تأمل حقاً أن يظهر
الصفر ثانية ؟ هكذا سألت نفسى فى دهشة . لقد كانت الثقة القاطعة بالربح تلمع
على وجهها . وسقطت الكرة الصغيرة على أحد الأرقام .

وصاح الكروبييه :

- صفر ؛

صاحت العجوز وهى تلتفت إلى وقد استطارها الظفر : آه !

لقد كنت أنا نفسى مقامراً بطبعى ، ولكن القمار لم يملك على حواسى قط كما
ملكها تلك اللحظة . كانت يداى ترتعدان ، وكان رأسى يدور وفى الحق ، لقد كانت
صدفة نادرة ؛ ثلاثة أصفار فى عشرة أنوار ! بيد أن هذا لم يكن غريباً . فمنذ ثلاثة
أيام رأيت الصفر يظهر ثلاث مرات متتالية ، حتى قال أحد اللاعبين ، وكان يسجل
النتائج على ورقة ، إن الصفر لم يظهر قط منذ عدة أيام . وقد أظهرت الإدارة للجدة

من الاحترام والعناية ما تظهره لكل من يربح مبلغاً جسيماً . فقد ظفرت بما لا يقل عن أربعة آلاف ومائتى فلورين . ودفعت لها المائتان ذهباً ، والباقي ورقاً ، ولكنها كانت فى شغل عن ذلك . وفى هذه المرة لم تناد الجدة بوتايتش ، ولم تكن ترتعد ، فى الظاهر على الأقل . بل كانت ترتعد ارتعاداً نفسياً ، إن صح التعبير .

– ألكسى إيفانوفتش ، لقد قال إنه يمكن أن يوضع أربعة آلاف فلورين أليس كذلك ؟ حسناً ، ضع الآلاف الأربعة على الأحمر .

ودارت العجلة وصاح الكروبييه :

– أحمر ؛

أربعة آلاف أخرى – فالجميع ثمانية آلاف .

– أعطنى أربعة آلاف ، وضع الأخرى على الأحمر .

أطعت .

– أحمر ؛

– اثنا عشر ألفاً . أعطنيها . ضع الذهب فى كيس . وعد الأوراق . كفى لعباً

ولنعد . ادفعوا الكرسي .

* * *

كانت الجدة تتألق بشراً عندما دفع كرسيها نحو الباب فى الطرف الأقصى من البهو ، وأسرع أصحابنا يحفون بها ، ويزفون إليها التهاني . وبدت رغم شنوذاها وكأنما أحاطها النصر بهالة ، فلم يعد الجنرال يخشى أن يظهر معها أمام الناس ، بل جعل يتودد إليها ، ويثنى عليها كما يثنى المرء على طفل ليسره . لقد دهش بلا شك مثل سائر الحاضرين . فقد أخذوا يتناجون فيما بينهم ، ويشيرون إلى الجدة ، واقترب كثير منهم ليروها بوضوح . وأخذ المستر أستلى يتحدث عنها مع اثنين من مواطنيه . وكانت السيدات يراعيها كأنها مخلوق غريب . أما دى جرييه فقد صاح بإعجاب :

- فوز عظيم ؛

وأضافت المدموازيل بلانش بابتسامة زائفة :

- حقاً يا سيدتى . إن حظك من نار ؛

- آه . لقد ربحت اثنى عشر ألف فلورين، عدا الذهب . فإذا أضفت إليها الذهب ، فإنها تصبح ثلاثة عشر ألفاً . ستة آلاف روبل بنقودنا . أليس كذلك ؟
حسبت النقود ، فإذا هى تجاوز سبعة الآلاف ، أو تبلغ ثمانية آلاف بسعر القطع الآن .

- ثمانية آلاف روبل ؛ هذا شىء جسيم ؛ پوتاپتش ؛ مارفا ؛ انظرا ما ربحت ؛
فهللت مارفا :

- كيف فعلت ذلك ياسيدتى ؛ ثمانية آلاف روبل !

- ها كما خمسة جنيهاً لكل منكما !

وأسرع پوتاپتش ومارفا بتقبيل يدها .

- أعط كلا الحمالين جنيهاً يا ألكسى إيثانوفتش . أهؤلاء الذين يحيوننى من الخدم ؟ أعط كلا منهم جنيهاً .

- سيدتى الأميرة ... منفى بائس ... مصائب متلاحقة ... إن الأمراء الروس كرماء جداً ...

كان رجلا يرتدى سترة بالية ، وصداراً ملونا ، وقد ظل يدور حول الكرسي رافعاً قبعته عالية فوق رأسه ، مبتسماً فى استعطاف .

- أعطه جنيهاً هو الآخر ... بل جنيهين . كفى الآن . إتنا لن تنتهى هيا !
 پراسكوفيا ، سأشتري لك فى الغد ثوباً جديداً ، وللأخرى ... ما اسمها ؟ مدموازيل
 بلانش . سأشتري لها ثوباً كذلك . ترجمى لها ذلك يا پراسكوفيا .
 فقالت المدموازيل بلانش بابتسامة ساحرة حلوة وهى تغمز بعينيها لى جرييه
 والجنرال :
 - شكراً يا سيدتى .
 - لم يخف الجنرال ارتباكاه ، وتنفس الصعداء عندما بلغنا الطريق . وصاحت
 الجدة حين تذكرت خادم الجنرال العجوز :
 - وفيدوزيا ! إنها أيضاً ستدهش . سأشتري لها هى الأخرى ثوباً . ألكسى
 إيفانوفتش ، أعط هذا الشحاذ شيئاً .
 كان رجلاً أشعث محدب الظهر ، قد اقترب منا يحدجنا ببصره . فقلت للجدة :
 - لعله أفاق لا شحاذ .
 - لا ضير . أعطه جلدأ .
 فاقتربت من الشحاذ وأعطيته قطعة النقود . فنظر إلى بدهشة بالغة ، وأخذ قطعة
 النقود صامتاً ، وكانت تنبعث منه رائحة شراب قوية .
 - ألم تجرب حظك بعد يا ألكسى إيفانوفتش ؟
 - كلا يا سيدتى .
 - ولكنى أرى عينيك تلمعان .
 - سأحاول ذلك بعد .
 - لا تراهن إلا على الصفر . سترى ... كم معك من النقود ؟
 - عشرون جنيهاً يا سيدتى .
 - هذا لا يكفى . سأقرضك خمسين إن شئت . خذ هذه اللفافة .
 ثم قالت فجأة تخاطب الجنرال :
 - أما أنت فلا تنتظر شيئاً . فإنى لن أعطيك .
 وارتعد الجنرال رعدة ظاهرة ، وزوى دى جرييه حاجبيه ، وقال من بين أسنانه
 للجنرال :
 - يا للشيطان ! إنها عجوز فظيعة .

وصاحت الجدة :

- شحاذ آخر ! شحاذ ! أعطه فلورنيا .

وكان فى هذه المرة شيخاً أشيب ، له ساق خشبية ، وسترة طويلة زرقاء ، يتوكأ على عصا . كان أشبه بجندى هرم . بيد أنى عندما قدمت إليه الفلورين تراجع خطوة ، ونظر إلى بغضب ، وصاح بالألمانية :

- ما هذا ؟ ويحك !

وأتابع ذلك بسيل من الشتائم . فصاحت الجدة وهى تشير إلى أن أدعه :

- يا له من أحمق ! هيا بنا ، فإنى جائعة . يجب أن نتغدى حالاً . سأنام قليلاً ثم نعود إلى الروليت .

فصحت :

- تريدن أن تعودى يا سيدتى ؟

- ولم لا ؟ لأنكم تبقون هنا متبطلين يجب أن أصنع ما تصنعون ؟ فقال دى جرييه :

- ولكن الحظ قلب يا سيدتى . وقد تفقدن المبلغ كله فى دور واحد ، وخاصة إذا داومت على طريقتك فى اللعب ... إن هذا مخيف !

وصاحت المدموازيل بلانش :

- أجل . ستخسرين حتماً .

- وما شأنكم بهذا ؟ إنه مالى وليس مالكم ... أين صاحبك المستر أستلى ؟

- لقد بقى فى الملهى يا سيدتى .

- يؤسفنى ذلك . إنه فتى ظريف .

وعندما وصلنا إلى الفندق ، نادى الجدة الفندقى وأخبرته بربحها . ثم نادى فيدوزيا وأعطتها ثلاثة جنيهات وأمرت بأن يعد الغداء . ويعد أن انتهى الغداء ، أخذت كل من فيدوزيا ومارفا تثرثر بفرح ، فانطلقت مارفا تقول بصوت مرتعش :

- لقد كنت أنظر إليك طيلة الوقت يا سيدتى . وسألت پوتاپتش ماذا تريد السيدة أن تصنع . لله ما كان أكثر النقود على المائدة ! إننى لم أر فى حياتى مثل هذا القدر من المال . وكان يقف حولها سادة كثيرون ، ويجلس سادة آخرون . فسألت پوتاپتش

من أين جاء هذا المלא . ودعوت الله أن يخص بعنايته سيدتنا من بينهم . أجل ، لقد دعوت لك يا سيدتى . وجفّ قلبي بين جنبى حتى أخذت أرتعش وأرتعش : كان الله معها ! كان الله معها ! لقد دعوت الله وأجاب دعائى بما أرسل إليك من مال ، ولكنى لا أزال أرتعش وأرتعش كلما تذكرت .

- ألكسى إيقانوفتش ، استعد فى الساعة الرابعة لنذهب سوياً إلى الروليت . إلى اللقاء حتى ذلك الحين . لا تنس أن تأتى معك بطبيب . فإنى أريد أن أستفيد من المياه . اذهب الآن واسترح قليلاً .

وتركت الجدة حائراً ، لا أستطيع أن أتخيل ماذا يحل بجماعتنا ، ولا أى اتجاه ستجرى فيه الحوادث . وقد وضع لى أن الجماعة - وبخاصة الجنرال - لم يستعيدوا بعد حضور أذهانهم ، فقد كان مجئ الجدة عوضاً عن البرقية التى طال انتظارها ساعة فساعة ، حاملة نعيها (وما يتبعه من الميراث) ، هادماً لكل تفكير وتدبير ، حتى أن المتأمرين أخذوا ينظرون إلى ما ستفعله الجدة فى القمار ، وقد داخلهم الخوف ، فوقفوا جامدين . على أن هذا العامل الثانى لم يكن مهماً كسابقه ، فمع أن الجدة أعلنت مرتين أنها لن تعطى الجنرال شيئاً من المال ، فإن هذا الإعلان لم يكن سبباً كافياً لليأس ، ولا شك أن دى جرييه الذى كان معنياً بالأمر كالجنرال ، لم يفقد كل أمل . وكنت واثقاً أن المدموازيل بلانش - وهى الأخرى معنية بالأمر كسابقها ، وهى عدا ذلك تتوقع أن تصبح عقيلة الجنرال ، ووريثة عظيمة - كنت واثقاً أنها لن تنفض يدها من الأمر بسهولة ، بل سوف تستعين بكل مالها من دلال وتصنع ، لتستأثر بعطف السيدة العجوز، دون پولينا التى كانت غامضة، لا تتقن فن الإرضاء . أما الآن ، وقد ظهرت العجوز فى مغامرة الروليت امرأة جسوراً فوضوية متكبرة ، تفرح بالقمار فرح الأطفال باللعب ؛ أما الآن ، فقد أوشك أن يضيع كل شيء . وإنى لأتخيل فى سرور خبيث ، أن كل جنبه تراهن به الجدة ، طعنة سكين فى قلب الجنرال ، ولوثة فى عقل دى جرييه ، وبادرة جنون فى أعصاب المدموازيل دى كومنيچ ، التى رأت تلك الملعقة الذهبية ترقص أمام شففتيها . ومما ضاعف جزعهم أن الجدة كانت وهى مسرورة بالربح ، تنتثر الصدقات باليمين وبالشمال ، وتظن كل امرئ شحاذاً ، ولكنها تهزأ بالجنرال وتقول له إنها لن تعطيه شيئاً من نقودها . ومعنى ذلك أن السيدة العجوز قد عقدت العزم على ذلك ، وأنها غير مترددة فى شيء منه . أجل . إن الأمر جد خطير .

كانت هذه الأفكار كلها تتاوشنى وأنا فى طريقى إلى غرفتى بالطبقة العليا من الفندق ، على أن الذى حيرنى ، هو أنى رغم تبينى للخطوط الرئيسية التى تربط بين أشخاص التمثيلية ، قد بقيت جاهلاً حتى الآن بأساليب التمثيل وأسراره . فإن پولينا لم تصارحنى بجلية الأمر ، وربما أفضت إلى ببعض ما تضرر ، ولكنها تعود فتقلب الأمر هزلاً ، أو ترتبك ، أو تزعم أنها تعنى شيئاً آخر . وكنت فى كل مرة أحس أن السر يوشك أن ينبجلى .

ولم أكن أهتم كثيراً لمصيرى . يا لها من حالة نفسية غريبة ! لم أكن أملك غير خمسين جنيهًا ، وكنت وحيداً بين غرباء ، بغير عمل ، وبغير مورد للرزق ، وبغير أمل . ومع ذلك لم أكن أهتم لأمرى أى اهتمام . ولولا قلقى على پولينا ، لضحكت من أعماق قلبى ، وسألت نفسى متى ينتهى كل هذا العبث . ولكن التفكير فى پولينا كان يعذبنى . بيد أنى يجب أن أعترف بأن الأمر الذى كان يشغلنى حقاً ، لم يكن مصيرها ، بل سرها . وددت لو أنها جاءت إلي وقالت لى : إنى أحبك ! فإذا لم يكن ذلك معقولاً ، وإذا كان الأمل فى ذلك مستحيلًا فماذا أريد ؟ حقاً ، ماذا أريد ؟ إنى أود ألا أتركها أبداً ، أود أن أعيش فى أفقها ، فى ضوئها وسناها إلى الأبد ، إلى آخر العمر . لم أكن أفكر فى شيء آخر ، إنى لا أستطيع أن أعيش بعيداً عنها .

ولما صرت عند الطابق الثالث ، فى ردهة الجنرال ، أحسست شبه هزة باطنة ، فالتفت ولحت پولينا على بعد عشرين خطوة . لقد كانت تنتظرنى دون شك ، فما كادت ترانى حتى أشارت إلى أن اقترب :

- پولينا ألكسندروفا !

- صه !

قلت فى صوت خفيض :

- أتصدقين أنى أحسست الآن بهزة ، فالتفت فرأيتك ؟ لعلك تشعين تياراً كهربياً ؟

قالت فى جد ، ولعلها لم تسمع ما قلته :

- أرجوك أن تأخذ هذا الخطاب وتوصله إلى المستر أستلى على الفور . لا تنتظر جواباً ، إنه

ولم تتم فسألت فى دهشة :

- إلى المستر أستلى ؟

ولكن پولينا كانت قد اختفت

« آه ! آه ! إنهما يتكاتبان ! » ولا حاجة لأن أقول إنى هرعت إلى المستر أسطى ، فلم أجده فى الفندق ولا فى الملهى . وبينما كنت عائداً فى ضيق ويأس إلى الفندق ، لقيته بين ركب من الإنجليز والإنجليزيات . فأشرت إليه فوقف ، وسلمت إليه الخطاب . ولم نكد نجد وقتاً لتتقارض النظر ، ولكنى أشك فى أن المستر أسطى ألهب ظهر جواده عامداً .

هل كانت الغيرة تآكل قلبى ؟ لا أدرى . ولكنى كنت أحس بحزن عميق ، ولو أنى لم أشأ أن أعرف موضوع مكاتباتهما . أياكون هو المؤتمن على سرها ؟ هو ، صديقى الحميم الأوحد ! ولكن أفى الأمر حب ؟ كلا ، دون شك ، بهذا أوحى إلى العقل . ولكن العقل شيء لا وزن له فى هذه الأمور . ويجب أن ينجلي الأمر ، فإنه زاد تعقيداً .

وما كدت أصل إلى الفندق حتى أبلغنى الحارس والفندقى أن الجنرال استدعانى ثلاث مرات . فلما دخلت مكتبه ، لم أكن أحس شيئاً من الرضا . كان معه دى جرييه ، والمدموازيل بلانش ، أما الأم فلم تكن حاضرة ، ولا شك أن الأنسة كانت تتخذ هذه الأم للمظهر ، فقد كانت تمارس كل أمورها بنفسها ، ولعل الأخرى لم تكن تعلم شيئاً من هذه الأمور . وكان ثلاثتهم يتناقشون فى حرارة ، وكان باب الغرفة - على غير العادة - مفتوحاً ، فسمعت قبل أن أدخل دى جرييه يتكلم بصوت عال ونبرة هازئة ، والمدموازيل بلانش تشتم ، والجنرال يضرع ، وفى صوته رنة البكاء . فلما رأونى صمتوا فجأة ، وابتسم دى جرييه تلك الابتسامة الفرنسية الدنيئة ، ابتسامة الضرورة ، الابتسامة التى أكرهها . أما الجنرال فاعتدل بحركة آلية ، ولكن المدموازيل بلانش لم تكن باخفاء الغضب الذى كان يتوقد على وجهها ، وثبتت على نظرة انتظار متلهفة ، وكانت عادة تتخطانى ببصرها ، ولا ترد تحياتى ، بل تتجاهلها . وبدأ الجنرال الحديث فى تلطف ملحوظ :

- ألكسى إيفانوفتش ، اسمح لى أن أعلن إليك أنه من الغريب ، من الغريب جداً ، باختصار ، أن مسلكك نحوى ونحو أسرتى جميعاً - باختصار ، ... غريب .. غريب جداً . فقاطعه دى جرييه باحتقار وازدراء (وكان واضحاً أن قياد الحديث فى يده) :
- ليست هذه هى المسألة . كلا يا سيدى العزيز . إن جنرالنا العزيز قد أخطأ . إنه أراد أن يقول لك ... أعنى أراد أن يحذرك ، أو على الأصح أن يرجوك رجاءً ، ألا تكون سبباً فى ضياعه . أجل . فى ضياعه . إننى استعمل هذه الكلمة عامداً . قاطعته :

- كيف ذلك ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

- حسناً . لقد أصبحت ... ماذا أقول ؟ أصبحت دليل هذه العجوز المخيفة .
لاحظ إذن أنها تسعى إلى دمارها ! لقد رأيت بنفسك كيف تقامر . إنها إذا بدأت
تخسر فلن تترك الروليت أبداً . ستظل تقامر ، وأنت تعلم أن هذا لا يعوض الخسارة ،
وإذن ... وإذن ...

فقال الجنرال :

- وإذن يضيعنى أنا وأسرتى ، إذ نحن ورثتها . نحن أقاربها الأدنون .
إنى أكلّمك بصراحة . إن أحوالنا سيئة ولعلك لاحظت هذا من قبل . فإذا خسرت
خسارة جسيمة ، أو خسرت ثروتها كلها ، ... فماذا يحل بنا ؟ ماذا يحل بولدى
(وتبادل نظرة مع دى جرييه) . وماذا يحل بى ؟ - ونظر إلى المدموازيل بلانش ،
فلوت رأسها باحتقار .

- ألكسى إيفانوفتش . أنقذنا ! أنقذنا !

- أخبرنى يا جنرال ما حيلتى أنا فى كل هذا ؟

- تخل عنها . دعها .

- ستجد من يخلّفنى .

فقال دى جرييه مقاطعاً :

- لا . لا . لا تتركها ، بل انصحها ، أقنعها ... اصرفها عن القمار . أوجد لها
ما تنلهى به .

- ولكن كيف أستطيع أن أفعل ؟ (وأضفت بأعظم ما أستطيع من السذاجة)
لماذا لا تحاول أنت ذلك يا مسيو دى جرييه ؟

وفى هذه اللحظة ، لمحت نظرة مستفسرة قلقة من المدموازيل بلانش إلى دى
جرييه . بينما بدا على وجه دى جرييه نفسه شىء لا يستطيع كتمانها . صاح
بإشارة يأس :

- لا . إنها لن تصغى إلى الآن . آه ! ربما ... فى المستقبل ...

وقالت لى المدموازيل بلانش بدورها - أجل ، المدموازيل بلانش نفسها -
وهى تضغط كلتا يدي بقوة :

- أوه يا عزيزى ألكسى ! كن طيباً ...

ليأخذها الشيطان ! إن هذا الوجه الشيطاني يستطيع أن يتبدل في لحظة .
لقد كان عند ذلك مليئاً بالضراعة ، في تعبير لطيف كأنه محيا طفل مبتسم عابث .
وجذبتني من يدي بعيداً عن الآخرين ، كأنما لتتفرد بي دونهما . فأخجلني ذلك الموقف
وإن لم يضر شيئاً ، فإنه لم يكن إلا نوعاً من العبث السخيف . وعاد الجنرال يقول :
- ألكسى إيفانوفيتش ! اغفر لي لهجتي التي اتخذتها معك منذ قليل . ما هكذا
أردت أن أكلّمك . إني أرجوك . إني أضرع إليك . إني أقبل ذيل ردائك كما يقول
الروس . أنت وحدك تستطيع أن تتقذنا . إننا نضرع إليك - أنا والمدموازيل
دى كومنچ .

ثم قال يلمح إلى المدموازيل بلانش :

- ألا تفهم ؟ أظنك تفهم !

كم كان قريبها ! ...

وهنا طُرق الباب ثلاث طرقات هادئة ، فانفتح عن خادم يتقدم پوتاپتش . كان
كلاهما قد أرسلته الجدة . وأبلغني پوتاپتش أنها تبحث عني ، وأنها تريدني في الحال ،
وأنها غاضبة .

- ولكن الساعة لم تبلغ الثالثة والنصف !

فأجاب پوتاپتش :

- إن سيدتي لم تستطع النوم ، فنهضت وطلبت الكرسي ، وأرسلت في البحث
عك . إنها الآن في الشرفة .

فصاح دى جرييه :

- يا لها من حمقاء !

ولقد وجدت الجدة تنتظرني حقاً على شرفة الفندق ، وقد عيل صبرها لغيابي ،
إذ لم تطق الانتظار إلى الرابعة . فما أن رأته حتى صاحت بالخدم : احملوني .
ومضينا مرة أخرى إلى أبهاء الروايت .

* * *

كانت الجدة تبدو نافذة الصبر ، شديدة الهياج ، فلم يكن يعنيهـا أو يشغلـها بالها شئـ سوى الروليت ، والدليل على ذلك أنها لم تسألنى عما رأيناه فى الطريق ، عدا عربة قخمة ، مرت بنا تثير سحابة من الغبار ، فرفعت رأسها وسألت « ما هذا ؟ » ولكنها مع ذلك لم يبد عليها أنها سمعت إجابتى . وكانت فى ذهولها ربما تململت فى مقعدها قلقة . وأشارت مرة ثانية إلى البارون والبارونة برمرجلم ، وهما سائران إلى الملهى ، فلم تزدد على أن نظرت إليهما بشرود وقالت بغير اهتمام : أه ! ثم التفتت بحدة إلى پوتاپتش ومارفا ، اللذين كانا يسيران خلفنا ، وصاحت :

- لماذا جئتما ؟ إننا لن نأخذكما كل مرة . ارجعا على الفور .

فلما انحنى الخادمان وانصرفا مسرعين ، قالت وهى توجه الحديث إلى :

- إنى لا أريد أحداً غيرك .

ويخيل إلى أن عودتها كانت متوقعة فى الملهى ، فما أسرع ما أفسح لها مكانها السابق ، بجانب الكروبييه . وأعتقد أن هؤلاء الكروبييه وإن بدوا موظفين عاديين لا يعنيهـم أربح « البنك » أم خسر ، فهم فى الحقيقة يفرعون لخسارة « البنك » ، وهم مأمورون أن يجتذبوا المقامرين ، وأن يراعوا مصلحة « البنك » ، وهم يـجـزون على ذلك النشاط بالمكافأة والزيادة فى الأجر . ومهما يكن من شئـ ، فقد كان كروبييه رولتنبرج يترقبون الجدة ، وكأنها فريستهم التى يحق لهم افتراسها . وقد أعقب ذلك ما خشيت منه الجماعة ، وإليك ما حدث .

هجمت الجدة على الصفر من جديد ، فأمرتنى أن أضع عليه اثنى عشر جنيهاً دفعة واحدة ، وكررت ذلك مرة ومرة ، دون أن يظهر الصفر . وظلت تغمزنى بمرفقها وتصيح بى « ضع مرة ثانية » ، وأنا أطيع . ثم سألتنى وهى تصر على أسنانها من القلق :

- كم مرة راهنت حتى الآن ؟

- اثنتى عشرة مرة . فالمجموع مائة وأربعة وأربعون جنيهاً . إن الصفر يا سيدتى قد لا يظهر حتى المساء .

- اسكت . ضع على الصفر . وضع فى الوقت نفسه ألف فلورين على الأحمر . إليك ورقة النقد .

وظهر الأحمر ولكن الصفرة لم يظهر . واستعدنا فلوريناتنا الألف وحسب .
- أرايت ؟ أرايت ؟ لقد استعدنا كل شيء تقريباً . مرة أخرى على الصفرة . اثنتى عشرة مرة أخرى ثم نتركه .

ولكنها ترددت عند المرة الخامسة .

- ليذهب الصفرة إلى الشيطان ! ضع أربعة آلاف فلورين على الأحمر .

- سيدتى . إن هذا كثير . قد لا يظهر الأحمر .

ولكن كان لابد لى أن أرضخ وقد راعنى اضطراب الجدة ، فإن انفعالها كان يسرع بها إلى الحق ؛ فلم يكن ثم سبيل إلا أن أضع أربعة آلاف الفلورين كما أمرت .
ودارت العجلة ، والجدة منتصبية فى جلستها ، هادئة متكبرة كأنها لا تشك فى الربح . وصاح الكروبييه :

- صفرة !

فلم تفهم الجدة بادىء الأمر . ولكنها حين رأت الكروبييه يجمع أربعة آلاف الفلورين مع غيرها من النقود التى على المائدة ، وتبينت أن الصفرة الذى ظهر كثيراً من قبل ، والذى أضعنا عليه قرابة ألفى فلورين ، قد ظهر فجأة آخر الأمر ، وكأنه قصد إلى ذلك قصداً ، عند ذلك أخذت الجدة تلعه وتخبط وتصيح ، وتشير للجمع المحيط بها ، حتى انفجر بعض من حولنا ضاحكين . صاحت .

- رباه ! لم لم يظهر هذا الصفرة اللعين إلا الآن ؟

ثم قالت وهى تلتفت إلى فى خبل :

- هذه غلطتك . أنت الذى أشرت على بترك الصفرة .

- ولكنى قلت لك الحقيقة يا سيدتى . ولست مسئولا عن المصادفات .

صاحت بغضب :

- اذهب من هنا .

- وداعاً يا سيدتى .

وتظاهرت بالانصراف ، فأضافت مسرعة :

- ألكسى إيفانوفتش ! ابق . أين تذهب ؟ لماذا تتركنى ؟ يا لك من أحمق ! ابق .

لا تغضب . إنى أنا المخطئة . قل لى ماذا يجب أن أصنع ؟

- لن أشير عليك بشيء يا سيدتى . فستجزيتنى باللوم . العبى وحدك مرى . وسأفعل ما تشائين .
- هيا ، ضع أربعة آلاف فلورين على الأحمر . خذ (ومدت إلى حافظتها) إن معى هنا عشرين ألف روبل .
- سيدتى ! كل هذا ...
- لا خير . لن أستريح حتى أسترد ما خسرت . راهن . فأطعت وخسرنا .
- ضع ثمانية آلاف .
- هذا مستحيل يا سيدتى ! إن أكبر رهان هو أربعة آلاف .
- إذن ضع أربعة .
- وفى هذه المرة ربحتنا فاستعادت شجاعتهما .
- رأيت ؟ رأيت ؟ أربعة آلاف أخرى .
- فأطعت ، وخسرنا . ثم خسرتنا ، وخسرنا .
- يا سيدتى . لقد ذهبت الاثنا عشر ألفاً جميعها .
- قالت فى هدوء كأن مبعثه اليأس :
- أرى ذلك . إنى أرى . ضع أربعة آلاف فلورين أخرى .
- ولكن لم يبق نقود يا سيدتى . لم يعد فى الحافظة إلا سندات وصكوك .
- والكيس ؟
- ليس فيه إلا أوراق صغيرة القيمة .
- أهنا صيارفة ؟ لقد سمعت أنه يمكن أن تستبدل هنا كل أنواع الأوراق .
- كما تشائين . ولكنك ستفقدن بالاستبدال مقادير جسيمة .
- هراء . إنى مصممة على أن أسترد كل ما خسرت . اذهبوا بى إليهم . نادوا هؤلاء الحمقى .
- وأقبل الحمالون ، فصاحت :
- أسرعوا . أرشدكم إلى الطريق يا ألكسى إيفانوفتش . أبعد هو ؟
- خطوتان يا سيدتى .

ولقينا أصحابنا جميعاً عند ثنية من ثنيات الطريق ، وكان بينهم الجنرال
ودى جرييه، والمدموازيل بلانش ، وأما . ولم يكن ينقصهم إلا پولينا والمستر أستلى .
ولكن الجدة صاحت :

– أماماً . لا تتوقف . ماذا تريدون ؟ إنى لا أستطيع الكلام معكم هنا .
وكنت أسير خلف كرسيها ، فأسرع إلى دى جرييه ، فقلت له فى صوت خفيض :
– لقد خسرت ربح الصباح ، واثنى عشر ألف فلورين من مالها . ونحن ذاهبون
الآن لنستبدل صكوكاً .
فدق الأرض بقدمه . فى غضب وأسرع إلى الجنرال . وتابعنا المسير فهمس
إلى الجنرال جزعاً :

– امنعها من ذلك ! امنعها من ذلك ! فأجبت هامساً كذلك :

– امنعها أنت إن استطعت !

فقال وهو يقترب منها :

– عمتى ... عمتى العزيزة ... إننا ذاهبون نستأجر جياداً للنزومة خارج المدينة ...
منظر بديع ... شلاجنبرج ... لقد جئنا نبحث عنك ... فقالت الجدة فى ضيق :

– ليأخذك الشيطان أنت ومناظرك !

ولكن الجنرال أضاف يائساً :

– إنه ريف بديع . ونستطيع أن نشرب الشاي تحت الأشجار . وزاد دى جرييه
بمثل حشجة الوحش الضارى :

– سنشرب اللبن على العشب الأخضر .

« اللبن والعشب الأخضر ! » أليس هذا هو حلم البرجوازيين الباريسيين ؟ أليس
عندهم أروع ما فى الطبيعة الصادقة ؟

– أذهب مع لبنك . أغرق فيه حتى أذنك . أما أنا فلا أطيقه ولكن ماذا
تريدون منى ؟ لا حاجة بى إليكم .

وعند ذلك قلت لها :

– لقد وصلنا يا سيدتى . ها هنا مكتب الاستبدال .

ودخلت لأطلب إجراء المبادلة ، وبقيت الجدة بالبواب مع الجنرال ودى جرييه ،
الذين سقط فى أيديهما ، وحارا ماذا يفعلان . ثم التفتت الجدة إليهما بنظرة فيها من
الغضب ما جعلهما ينسلان إلى الملهى . وقد عرضت على شروط مجحفة ، فلم أتكفل
بقبولها وعدت إلى الجدة . فصاحت .

– آه ! اللصوص ! حسنا . لا بأس ! بادل ! ... كلا ناد صاحب المصرف .

– ألا أنادى أحد الكتبة يا سيدتى ؟

– بلى . آه ! اللصوص !

وقد قبل الموظف أن يخرج عندما علم أن التى تطلبه كونتيسة شيخة عاجزة .
فأثبته الجدة تأنيباً شديداً ، ودعته لصاً ، وحاولت أن تساومه ، مخاطبة إياه بلغة
غريبة ، هى مزيج من كلمات روسية وألمانية وفرنسية ، وكنت أترجم عنها ،
وكان الموظف يفحصنا كلينا ببصره وهو يهز رأسه فى صمت ، ويحدج الجدة خاصة
بنظرات فيها فضول يقرب من الوقاحة . ثم ابتسم أخيراً ، فصاحت الجدة :

– انتبه لما تقول . لا متعك الله بنقودى ! ألكسى إيفانوفتش ! أخبره أنا سنذهب
إلى مصرف آخر .

– يقول الكاتب إنهم سيعطونك أقل مما يعطيك .

ولا أدري كيف تمّ الحساب ، ولكن النتيجة كانت مفزعة حقاً ، فقد تسلمت اثنى
عشر ألف فلورين ذهباً ، ومعها قائمة الحساب ، وعدت بها إلى الجدة . فقالت وهى
تدفع الورقة بعيداً :

– حسناً . حسناً . أنا لا أتقن الحساب . هلم بنا .

قلت لنفسى ونحن ندخل الملهى :

لن أضع مليما على ذلك الصفر الملعون ، ولا على ذلك الأحمر الملعون أيضاً .

وفى هذه المرة حاولت أن أقلل من المقادير التى تراهن بها العجوز ، مجتهداً فى
إقناعها بأننا نستطيع فى كل حين أن نرفعها إذا رأينا الحظ يواتينا . ولكنها كانت
نافذة الصبر ، حتى لم يبق فى الإمكان تهدئتها ، فما كادت تكسب اثنى عشر جنيهاً
حتى قالت :

– رأيت ما ريحناه ؟ لو أننا وضعنا أربعة آلاف فلورين بدل اثنى عشر جنيهاً
لريحنا أربعة آلاف فلورين أخرى . إنك أنت المخطئ دائماً

لم أرتض طريقتهما فى اللعب ، ولكنى أمسكت عن الكلام ، وعزمت على ألا أشير عليها بشيء بعد ذلك . ثم ظهر دى جرييه فجأة ، ولعله كان وسائر الجماعة على مقربة منا طوال الوقت ، وإن كنت قد لاحظت أن المدموازيل بلانش اعتزلت الجماعة ، وأخذت تلغى شباكها على الأمير الصغير ، حتى ضاق ذراع الجنرال لذلك ، وهو واقف يكاد يموت غيظاً . ولكن المدموازيل تحاشت النظر إليه ، رغم أنه بذل جهده ليسترعى التفاتها . يا للجنرال المسكين ! إن وجهه كان يبيض ويحمر على التعاقب ، وكان يرتعد حتى أنه ذهل عن السيدة العجوز . وأخيراً خرجت بلانش مع الأمير الصغير فتبعهما الجنرال .

ثم قال دى جرييه بنبراته المعسولة ، وقد انحنى ليهمس فى أذن الجدة :

- سيدتى . سيدتى ... ما هكذا يكون اللعب ... ليست هذه هى الطريقة ... كلا .

وأردف بالروسية :

- لا . لا .

- ولم لا ؟ أرشدنى إذن ما يجب أن أفعل .

وانطلق دى جرييه يثرثر بالفرنسية ، ويقدم النصائح ، ويقفز هنا وهناك ، ويقدر الفرص ، ويحسب الأرقام ، ويوجه إلى ذلك لأترجمه . وأخيراً تناول قلماً وشرع يكتب أرقاماً على الورق حتى نفذ صبر الجدة فقطعت عليه حسابه صائحة :

- اغرب بوجهك ! إنك تهذى ! « سيدتى ، سيدتى » فإذا جاء وقت العمل لم تعرف شيئاً . اغرب !

- ولكن يا سيدتى ...

وعاد يشرح . فأمرتنى قائلة .

- حسنا ! راهن كما يقول مرة واحدة . سنرى ما يكون ! فقد يفوز رهانه . ولم يكن دى جرييه يبغى إلا أن يثنيها عن المقامرة بمقادير جسيمة ، ولذلك نصحتها بأن تلعب على رقم خاص ، وعلى مجموعة من الأرقام فى الوقت نفسه ، ومن ثم وضعت جنيهاً على كل رقم من الأرقام الفردية حتى العدد الثانى عشر ، وخمسة جنيهاً على مجموعة الأرقام من اثنى عشر إلى ثمانية عشر ، ومن ثمانية عشر إلى أربعة وعشرين . وجملة ذلك ستة عشر جنيهاً .

دارت العجلة وصاح الكروبييه :

- صفر !

وخسرنا كل شيء .

صاحت العجوز :

- يا له من أحمق ! آه ! الفرنسي اللعين ! إليك عنى ! أنت كثير الجلبة ولكنك لا تفهم ما تقول .

فهزّ دى جريبه كتفيه حانقاً ، ونظر إلى الجدة باحتقار وابتعد . وخسرنا اثني عشر ألف فلورين بعد ساعة ، فصاحت الجدة :
- لنعد .

ولم تنبس بكلمة حتى بلغنا الطريق المؤدية إلى الفندق . وهناك صاحت فجأة :
- عجوز خرقاء !

وما كادت تدخل حتى صرخت طالبة الشاي ، وأمرت أن تحزام أمتعتها للرحيل . فسألت مارقا :

- إلى أين يا سيدتى ؟

- أهذا يعنيك ؟ پوتاپتش ، أعدّ الحقائب ، سنعود إلى موسكو . لقد فقدت خمسة عشر ألف روبل !

- خمسة عشر ألف روبل ؟ سيدتى ! يا لله !

وبصق پوتاپتش فى يديه كأنه يبدى استعداداه لخدمتها بكل وسيلة يستطيع - هيا أيها الأحمق ! هل فرغت من نحيبك ؟ على بقائمة الحساب . ولنرحل . قلت لها لأخفف من حديثها قليلاً .

- إن أول قطار لا يرحل إلا فى الساعة التاسعة والنصف .

- كم الساعة الآن ؟

- السابعة والنصف .

- أف لهذا القطار ! ألكسى إيفانوفتش ، ليس معى كويك واحد . اذهب واستبدل صكين آخرين ، وإلا فلن أستطيع الرحيل .

وعدت بعد نصف ساعة وقد أنفذت أمرها ، فوجدت جماعتنا كلها - عدا پولينا - عند الجدة . وقد أفزعهم خبر رحيلها إلى موسكو ، أكثر مما أفزعتهم خسائرها .

حقاً إن فى رحيلها إنتقاداً لثروتها ، ولكن ماذا يكون من أمر الجنرال ؟ من يردُّ دين دى جرييه ؟ وهل تنتظر المدموازيل بلانش موت الجدة ؟ ألا ترحل مع الأمير الصغير أو مع سواه ؟

وإذن فقد كانوا جميعاً يحاولون أن يستبقوا الأميرة العجوز . أما هى فلم تقابلهم بغير الشتائم .

– دعونى فى سلام أيها الأوغاد . لا شأن لكم بى . ثم قالت وأشارت إلى دى جرييه :

– ماذا يريد منى هذا التيس ؟ وقالت وقد أشارت إلى المدموازيل بلانش :

– وأنت أيتها القبرة الجميلة ماذا تريد منى ؟

فتمتمت المدموازيل بلانش ، وفى عينيها وميض الغضب :

– يا للشيطانة ! ثم انفجرت ضاحكة وهى تصيح بالجنرال :

– إنها ستعمر مائة عام !

فقالت الجدة للجنرال :

– آه ! آه ! إذن فأنت تترقب موتى ؟ اغرب بوجهك ... ألكسى إيفانوفتش ! اطردهم جميعاً ! ما شأنهم بى ؟ إنى لم أخسر إلا نقودى ، حرّ مالى ! فهز الجنرال كتفيه وخرج ، وتبعه دى جرييه .

وأمرت الجدة مارقا أن تنادى پراسكوفيا ، فعادت بعد خمس دقائق ومعها پولينا ، التى كانت معتكفة فى غرفتها مع الصغيرين ، وكان يبدو على محياها الحزن والهم .

– أصبح أن هذا الأحقق زوج أمك ، يريد أن يتزوج تلك الفرنسية الصغيرة اللعوب ... تلك الممثلة ؟ بل لعلها شر من ذلك . خبرينى ! أهذا صحيح ؟

– لست على يقين يا جدة . ولكن المدموازيل بلانش لا تحاول كتمان شىء ، وقد فهمت مما تقوله أن ...

فقاطعتها الجدة بحدة :

– كفى . إنى أفهم كل شىء . لقد كان رأيى دائماً فيه ، أنه غبى رغم تباھيه باللقب الذى يحمله . وأنا أعلم قصة البرقيات المرسلة إلى موسكو ، وسؤاله « هل ستموت العجوز وشيكا ؟ » فقد كانوا ينتظرون الميراث ، وإذن فلولوا المال ما رغبت فيه هذه الفتاة السافلة ... هذه الـ ... دى كومنچ . أليس هذا اسمها ؟ أجل .

لولا المال لما قبلت أن يكون هذا الجنرال ذو الأسنان الصناعية خادماً لها . ويقولون : إنها هي نفسها غنية ، وإنها تقرض بالرهن ، فهي - لا شك - قد جمعت مآلها من كل طريق ، أما أنت يا پراسكوفيا فلا أتهمك بشيء . لا أريد أن أثير أشجاناً قديمة . إنك عنيدة وشكسة بطبعك . أنت أشبه بالزنبار الذى يوسع من يدنو منه . ولكنى أشفق عليك رغم ذلك ؛ فقد كنت أحب أمك كاتيا . أترغبين أن تتركيهن جميعاً وتأتى معى ؟ إنك لا تعرفين لنفسك وجهة ، وليس من الصواب أن تلبثى معهم فى هذه الأحوال . أصمتى (وأشارت إلى پولينا التى كانت تريد الجواب) ، إنى لم أتم بعد . إنى لا أسألك شيئاً إزاء ذلك . أنت تعلمين أن لدى قصرأ فى موسكو . إنى أمنحك جناحاً بأكمله ولك أن تبقى فى مسكنك دون أن ترينى . أتأتين معى أم لا ؟

- دعينى أسألك أولاً ، أعازمة أنت عزماً قاطعاً على الرحيل ؟

- هل يبدو على أنى أهزل ؟ إنى أقول وسأفعل . لقد سلبتُ اليوم خمسة عشر ألف روبل على مائدتكم الملعونة . وقد وعدت منذ خمس سنوات أن أبنى فى مقاطعتى كنيسة من الحجر عوضاً عن الكنيسة الخشبية . وقد تركت المبلغ الذى خصصته لذلك يضيع .. ها ها . ولكنى سأبنى كنيسة رغم كل شيء .

- والمياه يا جدتى ؟ لقد جئتُ للاستشفاء !

- اذهبى بمياهك إلى الشيطان ! لا تغيظينى يا پراسكوفيا . يخيل إلى أنك تتعمدين إثارتى . أتأتين ؟

- أشكرك يا جدتى على المأوى الذى تقدمينه لى ، وأشكرك أيضاً لأنك أدركت موقفى . ولعلى ذاهبة إليك قريباً . أما الآن ... فلأسباب ... هامة ... لا أستطيع أن أقرر على الفور . ولو مكثت نحو أسبوعين ...

- معنى هذا أنك ترفضين !

- كل ما أعنيه أنى لا أستطيع الذهاب الآن . هل أستطيع أن أترك هنا أخى وأختى ؟ إنى لو فعلت ذلك لما بقى من يعنى بأمرهما . - ثم أضافت بحرارة - : لو أخذتنى والصغيرين يا جدة ، لذهبت معك دون تردد ، ولحاولت أن أكون أهلاً لإحسانك ، ولكنى لا أستطيع أن أذهب دونهما .

- هذا حسن . لا تبكى . (ولم يكن يبدو على پولينا أنها تريد البكاء . والحقيقة أنها لا تبكى ألبتة) . لن يضيق ذرعى بالصغيرين أيضاً . ثم إن الوقت قد حان لإرسالهما إلى المدرسة . ولكنك لا تريدان المجيء الآن . حذار يا پراسكوفيا . إننى أبغى لك الخير ، وأنا لا أجهل لماذا تؤثرين البقاء . إننى أعلم كل شئ با پراسكوفيا . إنك لن تصيبي خيراً من وراء الفرنسى الصغير .

وتضرج وجه پولينا . وأخذتني رعدة ، فقد حدثتني نفسى أنهم جميعاً واقفون على هذا الأمر ، ولعل أحداً لا يجهله سوى !

- لاتعيسى فإننى أريد أن أصارحك . حذار أن يصيبك أذى . إنك فتاة عاقلة ، وأنا حزينة لك . فإنك من طراز غير طرازهم . انصرفى الآن . ووداعاً - دعينى أمكث معك قليلا .

- لا . لا فائدة من هذا . اتركينى فقد أثقلت على جميعاً .

وعندما أرادت پولينا أن تلتزم يد الجدة ، جذبتها هذه بسرعة وقبلت خد الفتاة . وبينما كانت پولينا مارة بجانبى رمقتني بنظرة سريعة عابرة .

- حسناً ، وداعاً يا ألكسى إيغانوفتش . سأرحل بعد ساعة . لعلك مللت بقاءك معى خذ هذه الخمسين جنيهاً .

- شكراً لك يا سيدتى . ولكن ...

- هيا ! هيا !

وكان فى صوتها من الشدة والعزم ما سلبنى الجرأة على الإباء .

- إذا كنت فى موسكو وأردت عملاً فتعالِ إلى . وسوف أوصى بك خيراً . أعد المتاع يا پوتاپتش .

صعدت إلى غرفتى وتمددت على سريرى ، ولبثت نحو ساعة مستلقياً ويدائى معقودتان خلف رأسى . لقد أزفت الآزفة . كنت فى حاجة إلى أن أتدبر الأمر . لابد أن أحادث پولينا غداً . آه ! هذا الفرنسى الصغير ! إذن فهذا صحيح ! ولكن كيف يكون ذلك ؟ پولينا ودى جريبه ، كيف يلتقيان ؟ إن هذا غير مقبول عقلاً . ووثبت عن السرير عازماً على أن أذهب للبحث عن المستر أستلى وأن أدفعه إلى الكلام . فإنه ولا شك يعلم أكثر مما أعلم . يا لهذا المستر أستلى ! إنه أيضاً لغز !

وفجأة سمعت طرقة على بابى ، وفتحته فإذا بيوتاپتش .

- سيدى ألكسى إيفانوفتش ، إن سيدتى تريدك .
 أه ! ماذا هناك ؟ أراحلة هي ؟ ولكن أمامها عشرين دقيقة !
 - إنها شديدة الاضطراب يا سيدى . إنها لا تستقر على حال . أسرع ! أسرع !
 إنها تريدك أنت . فأسرع بحق يسوع المسيح !
 ونزلت على عجل . لقد كانت الجدة فى الردهة ، وكانت حافظة أوراقها بيدها :
 - ألكسى إيفانوفتش ! . تعال . هيا ...
 - إلى أين يا سيدتى ؟
 - لن أهدأ حتى أسترد نقودى . لا تجادل . سر . إن اللعب لا ينتهى إلا عند
 نصف الليل . أليس كذلك ؟
 ذهلت . وفكرتُ هنيهة وما لبثت أن عزمت على ما يجب أن أفعل .
 - إنذنى لى يا سيدتى فى ألا أرافقك .
 - لماذا ؟ ماذا دهاك ؟ هل استببطتكم الشياطين ، أنتم جميعاً ؟
 - معذرة ، ولكنى لا أريد أن أصبح فريسة الندم . لن أكون شاهداً أو شريكاً .
 أعفينى يا أنطونيدا قاسيليقتنا ، وهاك جنيهاك الخمسين . وداعاً .
 ووضعت اللقافة على منضدة صغيرة قرب الكرسي ، وانحنيت وخرجت ،
 فصاحت الجدة .
 - يا لك من أحمق ! حسناً . سأذهب وحدى . تعال يا پوتايتش . لنمض !
 لم أوفق إلى العثور على المستر أستلى ؛ فعدت إلى الفندق بعد أن جاوز الليل منتصفه
 ، ولكنى علمت - بعدئذ - من پوتايتش ، كيف قضت الجدة يومها . إنها خسرت كل ما
 استبدلته لها فى الصباح ، أى نحواً من عشرة آلاف روبل ، وخسرتها بإرشاد ذلك
 البولندى الذى منحته جنيهين من قبل . وكانت قد أمرت پوتايتش أن يراهن لها قبل
 مجيئه ، ثم غضبت عليه وأمرته أن يكف عن ذلك . وعندئذ ظهر البولندى ، واتفق أن
 كان يعرف الفرنسية ، ويتكلم مزيجاً من لهجات ثلاث ، فاستطاع أن يتفاهما ، ولكن
 السيدة العجوز جعلت تنتهره رغم تملقه إياها ، وتقول له : إنه ليس خيراً منى ... هكذا
 روى لى الخادم الهرم ، وأضاف : لقد عاملتها يا سيدى بنبل ، أما ذلك الرجل فقد
 سلبها كل ما استطاع أن يسلبها إياه . إنى رأيت ذلك بعينى رأسى ، وقد ضبطته

الجنة مرتين على هذه الحال ، فأنبته تأنيباً شديداً ، بل شدت شعره فى إحدى المرتين ، حتى ضحك الحاضرون . ولكنها خسرت كل شىء ياسيدى ، كل ما استبدلته لها . ثم رجعنا بها فشربيت قدحاً من الماء ، وصلت وأوت إلى فراشها ، وما لبثت أن نامت من شدة التعب - متعها الله بأحلام الملائكة - هذا كل ما كسبناه من السفر فى الخارج ! إيه يا موسكو العزيزة ! ماذا يعوزنا هناك ؟ إن الدنيا هناك حديقة متنوعة الأزهار لا تجد لها مثيلاً هنا ، ويهب الهواء نقياً ، ويتفتح نور الصباح ! يا له من منظر بديع ! ولكننا نسافر إلى الخارج واحسرتاه !

* * *

ها قد مضى شهر دون أن ألمس هذه المذكرات التي بدأتها وأنا تهب إحساسات حادة مضطربة . لقد حدثت الأزمة الخطيرة التي توقعتها ، وكانت أعجب كثيراً من كل ما تخيلت ، حتى بدا الأمر كله غريباً مختلطاً محزناً . أجل . لقد مرت بى أحداث مروعة ، أو أراها مروعة من بعض الوجوه ، فقد كانت أشبه بدوارة اكتفتنى تلك الفترة من حياتى . على أن أعجب هذه الأمور ، هو موقفى من تلك الأحداث ، فإنى لم أكن قد فهمت نفسى بعد . أما الآن ، فقد مرت الأزمة الحقيقية ، أشبه شىء بالحلم . حتى حبى ليولينا قد مات . أكان حباً قوياً صادقاً كما ظننت ؟ فإن كان كذلك فماذا أصابه الآن ؟ يخيل إلى أحياناً أنى لابد أن أكون مجنوناً ، وإنى جالس فى بیمارستان بمكان ما . وأن هذه الحوادث كلها لم تكن إلا خيالا ، وإنها ما تزال تحدث فى الخيال .

قد رتبت أوراقى من جديد ، ولعلى لم أفعل ذلك إلا لأقنع نفسى أنى لست فى بیمارستان . أنا الآن وحيد وحيد . والخريف قد أقبل وبدأت الأشجار تصفر ، وأرانى جالسا أفكر فى تلك المدينة الكئيبة ، وتالله ما أشد كآبة المدن الألمانية الصغيرة ! . أرانى أفكر ولا أمد بصرى إلى المستقبل ، بل أجتز إحساساتى القديمة ، وأستعيد ذكرى ذلك الاعصار الذى انتزعنى من مدارى الطبيعى ثم لفظنى بعيداً . ولكنى قد أستطيع أن أستوضح مستقبل أمرى ، إذا استطعت أن أفهم حياتى طوال ذلك الشهر الماضى . إن الرغبة فى الكتابة تلح على ، ولكنى أستعير من المكتبة الريفية الصغيرة أعمال پول دى كوك (مترجمة إلى اللغة الألمانية !) . إنى أكره ذلك الكاتب بيد أنى أقرأه . لماذا ؟ ألا ستبقى ذكرى الكابوس الذى انتهى منذ قليل ؟ ألهذا أفر من كل عمل جدى ؟ أهو عزيز على هذا الحد ؟ أه ، أجل ، سأظل أفكر فيه حتى بعد أربعين عاما ...

هأنذا أتابع مذكراتى .

لنفرغ أولاً من أمر الجدة .

إنها فقدت صبيحة ذلك اليوم - حسب رواية پوتاپتش - تسعين ألف روبل . ولم يكن ذلك مستبعداً . فإن مثلها إذا سلك هذا الطريق لم يستطع النكوص عنه .

إنها أشبه بزلاقة دُفعت على منحدر من الجليد ، فهي تسرع وتسرع حتى الهاوية .
وقد ظلت تقامر النهار كله ، وقد علمت ذلك من پوتاپتش فيما بعد ، وإن كنت لم أشهده
بنفسى .

كان پوتاپتش معها طوال ذلك النهار . ولكنها بدلت البولنديين الذين يلعبون
لها غير مرة ، بدأت بطرد البولندى الذى راهن لها أمس وجذبت شعره . وقربت آخر
ثم ظهر أنه شر من الأول . فطرده وأعادت الأول الذى بقى - وهو مطرود - يحوم
حول كرسيها ، ويمد رأسه فوق كتفها . وأخيراً ضاق ذراع السيدة العجوز بهما ، فإن
الپولندى الثانى حين طرد ، حذا حذو الأول ، فأبى أن يذهب . وهكذا بقى أحد
الپولنديين واقفاً إلى يمين الفريسة ، والآخر إلى يسارها ، ودار بينهما الشجار وهما
فى موقفيهما ، يتقارضان التهم عن المراهنات وأدوارها ، ويتبادلان الوصف ؛ «لايداك»
(أى الوغد) وغيرها من كلمات الإعزاز الپولندية . وأخيراً وصلا إلى إتفاق ، فأخذا
يلعبان على غير هدى ، ويلقيان النقود حيثما اتفق . ثم تنازعا مرة أخرى ، فأخذا
يضعان النقود كلٌّ من جانبه (فيراهن أحدهما على الأحمر ، ويراهن الثانى على
الأسود) حتى اختلط الأمر على الجدة وحنقت عليهما واضطرت - وهى تكاد تبكى -
إلى الاستعانة برئيس الكروبييه على طرد الپولنديين . وسرعان ما أنفذ ذلك ، رغم
صيحات الرجلين واحتجاجهما بأن العجوز مدينة لهما ، وأنها غشتهما ، وأن
سلوكها كان حقيراً دنيئاً . وقد قصَّ على القصة پوتاپتش التعس ، المساء نفسه ، وهو
يبكى ويشكو من أن الرجلين قد مالا جيوبهما بالمال الذى سرقاه من سيدته بغير حياء ،
وقد رآهما وهما يسرقانه . فمثلاً طلب أحدهما من الجدة خمسين فلورينا لقاء تعبه ،
وراهن بالنقود إلى جانب رهانها ، وحدث أن ربحت هى فصاح هو بأن الرهان الرابع
رهانه وأنها هى الخاسرة . وما إن طرد الپولنديان حتى غادر پوناپتش الحجرة ، وأخبر
الإدارة أن جيوب الرجلين محشوة بالذهب ، وحين رجت الجدة رئيس الكروبييه أيضاً
أن يتدخل فى الأمر ، ظهرت الشرطة وأفرغت ما فى جيوب الپولنديين اللذين قبض
عليهما متلبسين بالجريمة دون أن تأبه لاحتجاجهما ، وأعطت ما وجدته للجدة . والحق
أن الكروبييه وغيرهم من إدارة الملهى إنما أظهروا العناية الشديدة بها لأنها قضت
النهار كله وهى تخسر ، وقد ذاع صيت الجدة فى المدينة حتى احتشد الزوار من كافة
الجنسيات - وبينهم أهل الدراية والرفعة - ليلقوا نظرة على الكونتيسة الروسية العجوز
المخرقة التى فقد « ملايين كثيرة » .

على أن الجدة لم تفد كثيراً بما استرجعته لها الإدارة من جيوب البولنديين . فسرعان ما جاء بولندي ثالث يحل محل صاحبيه ، وكان يتكلم الروسية بطلاقة ، ويلبس لبس السادة ، وإن يكن على طريقة الخدم ، وله شارب ضخمة . كان يتأدب مع الجدة ويتعالى على الحاضرين . كان باختصار يضع نفسه موضع المرافق لا الخادم . كان إثر كل دورة يلتفت إلى الجدة ويقسم أقساماً مغلظة أنه « سيد بولندي شريف » يأبى أن يمس كويكاً من مالها . وقد لبث يراهن لها ، وإن أكثر من الحلف حتى أزعجها ، وبدأ يربح ، فلم تعد تستطيع الاستغناء عنه . وبعد ساعة ظهر ثمانية البولنديان اللذان طردا من الملهى فى الصباح ، وعرضا الخدمة من جديد وإن اقتصرت على قضاء الحاجات . ولكنى علمت من پوتاپتش فيما بعد أن هذين الوجدین تغامزا مع ذلك « السيد الشریف » وأن الأخير دس فى أيديهما شيئاً . وإذ كانت الجدة لم تتناول غداء ولم تكد تغادر كرسيها لحظة ، فقد ركض أحد البولنديين إلى مطعم الملهى ، وأتى لها بكوب من الحساء، ثم بالشاى. الحق أن البولنديين كليهما أسرعاً لأداء هذه المهمة . وأخيراً قبيل المساء حين كانت الجدة تراهن بالورقة الأخيرة ، لم يكن المرء يرى خلف كرسيها أقل من ستة بولنديين لم يسبق له أن سمعهم أو رآهم . وما أن راهنت الجدة بتلك الورقة حتى انصرفوا عن الاهتمام بها وجاوزوا كرسيها إلى المائدة ، وقبضوا على النقود وراهنوا بها ، وهم يتصايحون ويتنازعون ويجادلون « السيد الشریف » الذى كان قد نسى هو الآخر وجود الجدة ، وكأنه واحد منهم . بل إنه حين خسرت الجدة كل شىء ، وعادت إلى الفندق حوالى الثامنة ، لم يستطع ثلاثة بولنديين أو أربعة أن يتركوها ، بل ظلوا يتراكمون إلى جوار كرسيها ، ويرددون الاحتجاج بأنها غشتهم ، وبأنه ينبغى أن تنزل عما ليس لها . هكذا وصلت الجماعة إلى الفندق ، وهناك طردت شرذمة الأوغاد شر طردة .

خسرت الجدة ذلك اليوم تسعين ألف روبل فى تقدير پوتاپتش ، غير ما فقدته فى اليوم السابق . وقد صرفت كل ما جاءت به من أوراق مالية وسندات من القرض الوطنى وغير ذلك . ثم إنى لأعجب كيف مرت بها سبع ساعات أو ثمان بطولها جالسة على كرسيها لا تكاد تترك المائدة . وقد أخبرنى پوتاپتش أيضاً أن الربح الحق وأتاها ثلاث مرات ولكن الآمال الكاذبة استولت عليها فلم تستطع أن تتأى بنفسها فى اللحظة المناسبة . وكل مقامر يعلم كيف يمكن أن يقضى المرء نهاره وليله يلعب الورق دون أن يلتفت إلى اليمين أو الشمال .

وفى اليوم نفسه حدث فى الفندق أحداث خطيرة . فقبل الساعة الحادية عشرة صباحاً كان الجنرال ودى جرييه قد عزم على أن يبذل محاولة أخيرة . فلما علما أن الجدة لم تعد تفكر فى الرحيل بل عادت إلى الملهى ، ذهبا ليكلماها « صراحة » . وكان الجنرال يرتعد ، واعترف بكل شئ . بديونه ، وبغرامه بالدموازيل بلانش ثم اندفع يهدد ويصيح ، ويدق الأرض بقدمه ، وعيَّرها بأنها فضيحة الأسرة ، وأحدوثة المدينة . وبأنها أخيراً .. « أنت أخيراً معرة روسيا كلها يا سيدتى . » فطرده الجدة وهى تهدده بالعصا .

وقد خلا الجنرال إلى دى جرييه عدة مرات فى ذلك الصباح ، وكان يفكر فى اللجوء إلى الشرطة محتجاً بأن تلك السيدة الفاضلة المسكينة قد فقدت رشدها وانطلقت تبذر مالها ، فلا بد إذن من أن يفرض عليها نوع من الإشراف أو الحجر . ولكن دى جرييه رفع حاجبيه ، وسخر من الجنرال ، الذى كان يقبل ويدبر فى غرفته مبلبل الفكر . وأخيراً لوح الفرنسى الصغير بيده يائساً وانصرف وعلم فى المساء نفسه أنه بارح الفندق بعد خلوة طويلة مع الدموازيل بلانش . أما هذه الأخيرة ، فكانت قد رتبت أمرها من قبل ، فطردت الجنرال قائلة إنها لم تعد تريد أن تراه ! وركض الجنرال على أثرها فلحق بها فى الملهى ووجدها تسير وذراعها فى ذراع أميرها ، فأنكرته هى وأمها مدام دى كومنيج ، ولم يحيه الأمير . بيد أن هذا الأخير لم يكن ثابت العزم ، وكانت الدموازيل بلانش تبذل قصارى جهدها لتدرك طويته ، وتحمله على أن يحزم أمره . ولكن وا أسفاه ! كم كانت مخدوعة ! إنها علمت فى ذلك المساء نفسه أن الأمير الصغير كان خاوى الوفاض وأنه يعتمد عليها ليستطيع أن يلعب الروليت ، فطرده من عندها شر طردة ، واعتكفت فى مسكنها .

وفى صبيحة ذلك اليوم ، كنت أبحث بلا جدوى عن المستر أستلى . وقد علمت أنه لم يتغد فى فندقه . فلما كانت الساعة الخامسة لمحته اتفاقاً على محطة السكة الحديدية ، متجها شطر فندق إنجلترا . كان يسير مسرعاً ويبدو مهتماً ، ولكنى لم أتبين فى ملامح وجهه شيئاً من القلق أو الاضطراب ، وقد مد لى يده مرحباً ، بصيخته المألوفة « آه ! » وبغير أن يبطئ فى مشيته ، وانتثيت سائراً بجانبه ، ولكنى أدركت أنى لن أظفر منه بجواب شاف ، وعز على أن أحدثه عن پولينا ولم يسألنى هو عنها ، ورويت له قصة الجدة ، فهز كتفيه ، فقلت له :

– سينتهى أمرها إلى الخراب .

فأجاب :

- أجل . لو كان عندي فسحة من الوقت لذهبت كي أراها وهي تقامر ... إن الأمر يستهويني .

- إذن فأين كنت طيلة الصباح ؟

- في فرنكفورت .

- لبعض العمل ؟

- نعم .

ماذا أسأله من بعد ؟ لكنني لم أتركه حتى وصلنا إلى باب فندق «الفصول الأربعة» فحياتني ومضى . أما أنا فعدت إلى غرفتي موقناً أنني لو لقيتُه الساعة الثانية ظهراً لما ظفرت منه بأكثر مما ظفرت حين لقيتُه الخامسة عصراً . وما كنت لأعلم منه شيئاً ، وليس لدى سؤال بعينه أوجهه إليه . وقد أمضت پولينا سحابة يومها بين الحديقة - تنتزه فيها مع الطفلين والمربية - وبين حجرتها الخاصة . وقد لاحظت منذ زمن أنها تتجنب حديث الجنرال ، ولكنها لم تكن لتجزع لأمر من الأمور . لقيتها اتفاقاً وأنا عائد إلى الفندق بعد حديثي مع أستلي ، فإذا محياها لا ينم عن قلق ولا خوف . وحياتني بإيماة صغيرة ، ثم انطلقت إلى غرفتي كئيهاً مهموماً .

حقاً إنني لم أبادلها الكلام منذ حادثة برمرجلم ، ولكنني كنت أتقلب على الجمر ، وكنت أحتدم غيظاً كلما طال الزمن . أما أنها لا تحبني فهذا ما لا أستطيع أن ألومها عليه ، ولكنها يجب ألا تدوس كبريائي بقدميها ، وتقابل خضوعي بازدراء مع أنها تعلم أنني أحبها ، وقد سمحت لي أن أحدثها بحبي ! والحق أن قصتنا بدأت بدءاً غريباً ، فمئذ نحو شهرين لاحظت أنها تريد أن تجعلني صديقها ، وموضع سرها ، وكأنها جرت ذلك في زمناً ولكن الأمر لم ينته كما أرادت ، وأفضى بنا الحال إلى تلك العلاقات الغريبة التي جعلتني أصارحها بحبي . ولكن لماذا لا تنهاني أن أحدثها عنه إذا كانت نادمة عليه ؟ إنها لا تنهاني عن هذا وكثيراً ما تدفعني إليه . ولعلها إنما تفعل ذلك تليذاً من قسوتها ، فكثيراً ما لاحظت أنها بعد أن تستمع إلى حديثي وتشبع من إيلاي ، تعتمد إلى تعذيبني بفيض احتقارها وتعاليتها ؛ ولكنها لا شك قد علمت أنني لا أستطيع الحياة بدونها ، فما كادت تنقضي ثلاثة أيام على قصة البارون ، حتى شعرت أنني

لا أستطيع احتمال هذا « الفراق » وعندما لقيتها الساعة قرب الملهى ، دق قلبي دقاً عنيفاً . إنها هي الأخرى لا تستطيع أن تعيش بدوني . ألم تقل إنها محتاجة إليّ ؟ أكانت تهزل عند ذلك أيضاً ؟ ما من ريب في أنها تطوى عني سراً من الأسرار . لقد جرح قلبي حديثها مع الجدة ، أنا الذي ضرعت إليها ألف مرة أن تكون صريحة معي ، وجعلت حياتي رهن إشارتها . ولكنها لم تكن تنتظر إليّ إلا باحتقار ! ولم تكن تطلب عوضاً عن حياتي التي أمنحها إياها إلا حماقات مخجلة ! خذ قصة البارون مثلاً : ألم ترد بهذا كله تعذيبي ! أيمن أن يكون هذا الفرنسي هو كنه الحياة في نظرها ؟ إن الأمر كله عسير الفهم . وما شأن المستر أسطى أيضاً ؟ رياه ! ما أشد شقائي !

لما أويت إلى غرفتي ، أمسكت بالقلم في نوبة غضب وسطرت ما يأتي : « پولينا الكسندروفنا . إنني أرى جيداً اقتراب اللحظة الفاصلة . أسألك للمرة الأخيرة . أتريدين حياتي ؟ إن كنت نافعاً لك في أي أمر من الأمور فميريني بما شئت . سأكون في حجرتي متى أحببت . فاكتبي إليّ . أو دعيني أحضر إليك » . وختمت الكتاب وحملته النادل أمراً إياه أن يسلمه يداً بيد ولم أكن أنتظر رداً . بيد أن النادل جاء بعد دقائق وهو يقول لي : إنه أمر بأن يقدم إليّ التحية .

وحدث بعد ذلك أن أرسل إليّ الجنرال حوالى الساعة السابعة يدعوني إلى مسكنه ، فلما دخلت عليه ، ألفتته واقفاً وسط الحجرة ، وقد باعد ما بين ساقيه ، وأحنى رأسه ، وأخذ يكلم نفسه بصوت مسموع ، فما أن رأيته حتى أسرع إلى لقائي ، وقد بدرت منه صيحة جعلتني أتراجع بحركة آلية . ولكنه أمسك بكلتا يدي ، وجرنى شطر الأريكة ، وجلس عليها مرغماً إياي، على الجلوس على مقعد أمامه ، ثم صاح ويداي ما تزالان في قبضته وشفثاه ترتعدان ، والدموع تلمع بين أهدابه :

– ألكسى إيفانوفتش ! أنقذني ! أدركني برحمتك !

ولبثت زمناً وأنا لا أفهم شيئاً ، مع أنه كان يتكلم ويتكلم ويكرر بغير انقطاع :

– رحمة بي ! رحمة بي !

وأخيراً فهمت أنه ينتظر مني شيئاً يشبه النصيحة ، أو بالأحرى أنه – وقد تخلى عنه الجميع ، وأمسى وحيداً قلقاً – قد تذكرني ودعاني لا لشيء إلا الكلام ... والكلام

وحده ! والحق أنه كان كمن أصابه مس . فقد ضم يديه وأراد أن يركع على ركبتيه أمامى . ورجانى أن أذهب من فورى إلى المدموازيل بلانش ، وأن أضرع إليها أن تعود إليه وتتزوجه ، فقلت له :

- سيدى الجنرال ، إن المدموازيل بلانش لا تأبه لى . فماذا أستطيع أن أصنع عندها من أجلك ؟ ولكن اعتذارى لم يغن . فإنه ما كان ليفهم شيئاً مما يلقي إليه ، ثم بدأ يتحدث عن الجدة حديثه المضطرب المهوش ، وهو لا يعى إلا أنه يريد اللجوء إلى الشرطة . ثم صاح وهو يحتدم غيظاً .

فى روسيا ، بل فى كل دولة منظمة ، يحجر على العجائز أمثالها . أجل يا سيدى العزيز ! وبدأ حديثه يتخذ نبرة التهكم - وقد وثب على قدميه يذرع الغرفة طولاً وعرضاً - ألا تعلم يا سيدى العزيز أن العجائز أمثالها يراقبن ويحجر عليهن ؟ عليهن اللعنة !

وانحط على الأريكة مرة أخرى .

وبعد هنيهة حاول أن يخبرنى بين شهقاته وزفراته ، أن المدموازيل بلانش أبت أن تتزوجه ، لأن الجدة انبعثت من موتها حية ، فلم يعد له أمل فى إرثها ولا ريب أنه كان يظننى جاهلاً بذلك كله . ولما حدثته عن دى جرييه ، لوح بيديه فى قنوط وقال :

- لقد ذهب . وكل ما أملكه مرهون له . فأننا الآن أفقر من جرد حتى النقود التى أحضرتها معك من باريس لا أحسب أنه بقى منها أكثر من سبعمئة فرنك . لا شك أن هذا القدر يكفينى الآن . أما المستقبل فلا علم لى به . صحت فى فزع :

- فكيف تدفع حسابك فى الفندق ؟ وماذا تصنع بعد ذلك ؟

فنظر إلى فى غموض ، فتبينت أنه لم يفهم ، ولعله لم يسمع ما قلت . وحاولت أن أحدثه عن پولينا والصغيرين ولكنه لم يزد على أن أجاب باختصار :

- أجل . أجل .

ثم عاد إلى هذيانه ، فجعل يتحدث عن الأمير وقال : إن بلانش ربما ذهبت معه « وإذن فماذا أصنع يا ألكسى إيفانوفتش ؟ أخبرنى بربك ماذا أصنع ؟ أليس هذا جحوداً ؟ ولكن ... أجل ... أجل ... إنه جحود ! ... » وانفجر باكياً .

ما كان ليجدى معه شيء . فأعلمت الخادم بحالته ، وأخبرت النادل أيضا ، حتى يهتما بأمره . وخرجت .

وما كدت أخرج حتى جاء بوتافيتش ينبئنى بأن الجدة تريدنى . كانت الساعة الثامنة ، وكانت قد عادت من الملهى ، حيث فقدت كل النقود التى حملتها معها من موسكو . ووجدتها فى كرسيها ، متعبة مريضة . وكانت مارفا تقدم إليها كوباً من الشاي تكاد ترغمها على شربه . وكانت نبرة صوتها قد تغيرت تماماً قالت فى هدوء :

- مساء الخير يا ألكسى إيفانوفيتش ، لا تلمنى على أزعاجك مرة أخرى لقد خسرت هناك نحو مائة ألف روبل . كنت محقاً فى رغبتك ألا تصحبنى . ليس معى الآن كوپك واحد . ولكن يجب ألا أتأخر لحظة . يجب أن أرحل فى قطار التاسعة والنصف . إنى أرسلت إلى صاحبك الإنجليزى أستلى وسأطلب إليه أن يقرضنى ثلاثة آلاف فرنك لأسبوع . أقنعه حتى يقبل . إنى ما أزال ثرية ، فعندى ثلاث قرى ومنزلان ، وما يزال لدى بعض النقود . أجل . إنى لم أخذها جميعاً معى . انظر . ها هوذا قد أقبل . لا شك أنه رجل كريم !

وهكذا أسرع أستلى إلى السيدة العجوز عند أول دعوة منها . وعد لها بلا أدنى تردد ثلاثة آلاف فرنك ، لقاء صك وقعت عليه الجدة . ثم حيا وانصرف .

- لك أن تذهب يا ألكسى إيفانوفيتش . لم يبق لى غير ساعة . وأريد أن أستريح قليلا ، لاتنقم على ، فإنى عجوز خرقاء . لن أتهم الشبان بعد بالنزق ... والجنرال ؟ هذا الجنرال المسكين ! إن اتهامه إثم أيضا . ولكنه لن يأخذ شيئاً من النقود ، وهى كل ما يتمناه منى . كم هو شديد الغفلة ! غير أنى لست أحكم منه . حقا ، إن الله يعاقب الشيب كما يعاقب الشبان على إثم الغرور ... وداعا . مارفا ، تعالى ، رافقينى .

ولكنى عزمت على أن أخرج لأودع الجدة ، فقد كان يخيل إلى أن شيئاً خطيراً يوشك أن يقع ، ولهذا لم أطلق البقاء فى غرفتى .

لقد كان خطابى إلى پولينا خطاباً جازماً . وكنت موقنا أن الأزمة الحاضرة أزمة فاصلة ، فقد علمت برحيل دى جرييه ، فحدثت نفسى : لئن لم تقبلنى صديقاً ، فقد تقبلنى خادما ، أصدع بما تأمر . ولم أكن لذلك أביأ . وهل من سبيل غير ذلك ؟

لما اقترب موعد القطار سارعت إلى المحطة ، وأجلست الجدة فى مقصورتها الخاصة فقالت لى وهى تودعنى :

- شكراً لك على معونتك الصادقة . لا تنس أن تذكر پراسكوفيا بما قلته لها ليلة أمس . إنى أرجو أن أراها قريباً .

ورجعت أدراجى إلى الفندق . فلما كنت ماراً بمسكن الجنرال ، قابلت الخادم فأنبأتنى فى حزن أن لا جديد هناك . ولكنى عزممت على الدخول ، وبينما أوشك أن أدخل ، إذ وقفت عند الباب مبهوتاً . فقد رأيت بعينى المدموازيل بلانش والجنرال وهما يتصاحكان فى مرح . وكانت مدام دى كومنج هناك هى الأخرى . كان الجنرال دون شك قد استطير لبه من الفرع ، فقد كان يهذى ، ويقرقر بضحكة عصبية ممطوطة - ضحكة ملأت وجهه بالتجاعيد ، وكادت تخفى عينيه . وقد علمت فيما بعد من المدموازيل بلانش نفسها أنها بعد أن طردت الأمير علمت ما صار إليه الجنرال من اليأس والذهول فذهبت إليه لحظة لتسليه ، ولكن الرجل المسكين كان يجهل أن مصيره لا يزال حيث هو ، وأنه بينما كان يضحك ضحك المجانين ، كانت بلانش تحزم أمتعتها لتطير إلى باريس بأول قطار فى الصباح .

وبعد أن وقفت متردداً بضع دقائق على عتبة المكتب ، عدلت عن الدخول ، وانسللت دون أن يرانى أحد ، وصعدت إلى حجرتى ؛ ولما فتحت الباب لمحت فى غبشة الغرفة شبح امرأة جالسة على كرسى فى ركن قريب من النافذة . لم تنهض حين دخلت ، فاقتربت منها متفعلاً ، ونظرت ... واحتبست أنفاسى .

كانت هى پولينا .

* * *

صرخت مبهوتاً .

فقال بصوت غريب : ماذا ؟ ماذا ؟

كانت شاحبة ، وكانت عيناها غائمتين .

فرددت كالصدى : ماذا ؟ أنت هنا ؟

- أجل . وعندما جيئت أحضرت معي كل شيء . هذا دأبى . وسترى ذلك الآن .
أوقد شمعة . فأوقدت شمعة .

ونفضت ، واقتربت من المنضدة ، وألقت إلى خطاباً مفصلاً وهي تقول « اقرأ ! » .

فصحت وأن أقبض على المخطوط : هذا خط دى جرييه !

كانت يداى ترتعدان ، وكانت السطور تتراقص أمام عيني . إننى لا أذكر الآن
ألفاظ الكتاب ، ولكن إن لم أورها بنصها فهذا مجمل معناها . قال المخطوط :

« يا أنستى . إن أموراً كريهة إلى تجبرنى على سرعة الرحيل . لقد لاحظت بلا
ريب أنى تحاشيت حتى الآن الإفضاء إليك بحديث فاصل . ولكن قدوم الجدة العجوز ،
وما ارتكبته بعد ذلك ، قد وضعاً حداً لكل تردد عندى . وأزيد على ذلك أن اضطراب
شئونى الخاصة يمنعنى من الكتابة إليك ذاكراً تلك الآمال السعيدة التى طالما علكت بها
نفسى . إننى أندب الماضى . ولكننى أرجو فى الوقت نفسه ألا تجدى فى مسلكى أمراً
يغض من الكرامة أو يشين الشرف . لقد ضاع معظم مالى فى ديون وليك ، فلا مناص
لى من أن أنقذ القليل الباقي . ولهذا كلفت بعض أصدقائى فى بترسبرنج أن يستعد
لبيع جميع العقار المرهون إلى . ولكن لعلمى أن وليك المأفون قد فرط أيضاً فى مالك
الخاص ، تجاوزت عن بعض ديونه ، حتى تستطيع استرداد ما فقدته ، فى ساحة
القضاء . وأمل أن ينفعك عملى هذا . وأمل أيضاً أن يكون هذا العمل نفسه قد أبرأ
ذمتى مما يجب على لشرفى ومحتدى . وثقى أن نكرارك لن تمحى من قلبى » .

قلت مخاطباً پولينا : هذا جلى لاخفاء به ! وأردفت بغيط : ما أظن أنك كنت
تنتظرين منه شيئاً آخر .

فأجابت بهدوء تام ، ولو أن صوتها كان يرتعد :

- لم أكن أنتظر منه شيئاً . لقد وطنت النفس على كل شيء من زمن طويل . إنى أعرفه.. لقد ظن أنى سأتعقبه وألح عليه وأزعجه (ووقفت دون أن تكمل عبارتها ، وعضت على شفتها ، وصمتت) لقد تضاعف احتقارى له حين كنت أنتظر ما هو فاعل . ولو أن البرقية المنبئة بالميراث وصلت حينئذ لقفزت إلى رأسه بالنقود التى استدانها منه هذا الأحمق زوج أمى ، وطردته . إنى أكرهه من زمن طويل . أوه ! إنه لم يكن كذلك من قبل . ألف مرة كلا ! والآن ، والآن ... ! كم كان يسعدنى أن أقذف إلى وجهه الدنى بهذه الخمسين ألف الفرنك ! وددت لو بصقتها فى وجهه ! ...

- أهذه الوثيقة - وثيقة الدين - عند الجنرال ؟ خذها منه وأرسلها إلى دى جرييه .

- كلا ، كلا . إنها ليست عند الجنرال .

- هذا ما توقعته تماماً ! وماذا سيعمل الجنرال ؟

ثم لمعت فى خاطرى فكرة فصحت : الجدة !

فسألتنى پولينا سؤال المضجر المحقق :

- لماذا تذكرها ؟ إنى لا أستطيع أن أعيش معها . ثم أضافت بحرارة : كما أنى لن أذل « لمخلوق » .

صحت : أجل . لست بحاجة إلى ذلك ، ولكن أكان يمكن أن تحبى دى جرييه ؟ يا له من وغد ! سأبارزه وأقتله .

أين هو الآن؟

- إنه فى فرانكفورت - وسيمكث بها ثلاثة أيام .

فاندفعت أقول :

- مرينى فاذهب إليه غداً بأول قطار

فابتسمت وقالت :

- لو فعلت لطلب منك أن ترد إليه الخمسين ألف الفرنك أولاً . ويعد ما أنهت العراك معه قالت إنك تهذى .

كررت وأنا أصر على تسائلى .

– من أين لنا هذه الخمسون ألف الفرنك ؟ إننا لن نجعلها من على الأرض !
ما رأيك فى المستر أستلى ؟

فقدحت عيناها شرراً ، وقالت بنظرة نافذة وابتسامة متكبرة :

– ماذا ؟ أنت نفسك تريدنى على أن أنصرف عنك إلى هنا الإنجليزى ؟ وكان رأسها قد أخذه دوار ، فتهاكت على الأريكة إعياء .

وكأثما صعقت وأن واقف فى مكانى ذاك ! ماذا ؟ إنها تحببى ! لقد جاءت إلى لا إلى المستر أستلى . فتاة تأتى وحيدة إلى غرفتى ... إنها تعرض نفسها لاتهام شنيع ، وأنا واقف أمامها لا أفهم شيئاً ! ثم لمعت فى ذهنى فكرة مجنونة أخرى :

– بوليننا ! امنحيني ساعة واحدة . انتظريني هنا ساعة واحدة حتى أعود . أجل ، يجب أن تفعلنى هذا . ألا تعرفين ما أعنى ؟ اجلسى هنا وحسب .

وأسرعت دون أن ألتفت إلى نظرتها المستفسرة ، أو إلى سؤالها الذى ألقته على وأنا خارج .

أجل . قد يحدث فى بعض الأحيان أن تتسلط على العقل فكرة مجنونة أو مستحيلة، حتى ينتهى المرة إلى تصديقها. فإذا اجتمعت إلى الفكرة رغبة قوية جامحة ، نظر إليها الإنسان كأنها أمر محتوم مقدر لا مفر من وقوعه . وسواء أكان هذا نوعاً من الاحساس المركب ، أو الجهد الإرادى العنيف ، فقد شهدت تلك الليلة التى لن تمحى من ذاكرتى معجزة وقعت لى إنها حادثة قد تفسرها الحقائق الرياضية ، ولكنى ما زلت أعتقد أنها معجزة فلماذا أمنت بذلك ، ولماذا لا زال أومن به ؟ لقد خطرت لى الفكرة من قبل ، لا على أنها حقيقة يمكن حدوثها ، بل على أنها بعض المستحيل .

كان الساعة قد بلغت العاشرة والربع عندما أسرعت إلى الملهى يحدونى أمل قوى مجموم فى الريح ، أمل لم أجريه قط من قبل . كان الملهى لا يزال عامراً بكثير من الناس ، ولكنهم لا يبلغون نصف عددهم فى الصباح . ففى هذه الساعة لا يبقى إلا المقامرون الحقيقيون ، أولئك الذين لا يفقهون من العالم إلا الروليت ، ولا يذهبون إلى الملهى إلا للقمار ، ولا يكادون يلتفتون إلى ما يجرى حولهم ، أو يهتمون لمفاتن تلك المواسم ، بل يلعبون من الصباح إلى المساء ، ولو استطاعوا لواصلوا اللعب من المساء

إلى الصباح ؛ فما كانوا ينفضون عن مائدة الروايت عندما ينتهى القمار فى منتصف الليل إلا كارمين . وعندما يوشك اللعب على الانتهاء وينادى الكروبييه : « الأدوار الثلاثة الأخيرة » فكثيراً ما يسارعون إلى المقامرة بكل ما فى جيوبهم ، وكثيراً ما يخسرون .

أما أنا فقد تقدمت إلى المائدة التى ربحت عليها الجدة ثم خسرت تلك المقادير الجسيمة من المال . وإذا كان الجمع حولها غير حاشد ، استطعت أن أقف بين اللاعبين بغير عناء . وعند ذلك أبصرت أمامى على القماش الأخضر كلمة « پاس » . كان « پاس » صفاً من الأرقام من تسعة عشر إلى ستة وثلاثين . والصف الآخر من واحد إلى ثمانية عشر ، يدعى « مانك » ولكن ما لى ولهذا ؟ إننى لم ألاحظ ولم أسمع بالأرقام التى ظهرت فى الدور السابق . ولم أنتظر كما يفعل المقامر المتزن ، بل أخرجت من جيبي جنيهاًتى العشرين وألقيتها على كلمة « پاس » التى اتفق أن وجدتها أمامى .

وصاح الكروبييه : اثنان وعشرون .

ربحت . وتركت الجميع على پاس .

– واحد وثلاثون .

ربحت مرة أخرى . لقد أصبح معى ثمانون جنيهاً . وضعت الجميع على الأرقام الاثنى عشر الوسطى (والريح هنا ثلاثة أضعاف الرهان ، ولكن هناك احتمالان للخسارة ضد احتمال واحد للريح) .

– أربعة وعشرون . فأخذت ثلاث لفافات فى كل منها خمسون جنيهاً ، وعشر نقود ذهبية .

وفى شبه حمى أزحت الكومة كلها على الأحمر . ثم ثبت إلى نفسى فجأة . وتملكنى الرعب . كانت هذه هى المرة الوحيدة فى تلك الليلة التى اصطكت فيها ركبتي وأرتجفت يداى فزعاً ، فقد أدركت أنى يجب أن أربح ، وأن حياتى كلها معلقة بهذا الرهان .

– أحمر !

وتتنفست الصعداء . ثم سرت فى جسمى رعدة محمومة حين تناولت الأوراق المالية . كانت جملة ما معى أربعة آلاف فلورين وثمانين جنيهاً . وكنت ما أزال قادراً على عدها .

وأذكر بعد ذلك أنى وضعت ألفى فلورين مرة أخرى على الأرقام الاثنى عشر الوسطى وخسرت ، ثم وضعت الذهب والثمانين جنيهاً على الأرقام نفسها وخسرت أيضاً . فكاد يطير صوابى ، وأمسكت ألفى الفلورين الباقية ووضعتها على الاثنى عشر الأولى بلا وعى ولا حساب . ولكنى أذكر أنى كنت أحس إحساساً ... إحساساً لا يشبهه إلا إحساس مدام بلانشار عندما هبطت من منطادها إلى الأرض .
- أربعة .

أصبح معى مرة أخرى ستة آلاف فلورين فوق رهانى الأصلي . ومرة أخرى نظرت حولى نظرة الفاتح ، ومرة أخرى لم أحس خوفاً وأنا أضع أربعة آلاف من هذه الآلاف الستة على الأسود . وحذا حذوى تسعة من اللاعبين ، ونظر الكروبييه حولهم وتبادلوا كلمات قليلة ، ولغط الحاضرون وهم يتربعون ما سيحدث .

وظهر الأسود . ولم أعد أذكر بعد تلك اللحظة رهاناً ولا حساباً . لا أذكر إلا أنى - فى شبه حلم - ربحت فى دور واحد ستة عشر ألف فلورين . وفى الأوار الثلاثة التالية خسرت اثنى عشر ألفاً . ثم وضعت الآلاف الأربعة الأخيرة على « الپاس » . وكنت قد غدوت فاقد الشعور ، أنتظر وأتصرف تصرفاً ألياً . وربحت من جديد أربعة أدوار متتالية . وأذكر أيضاً أنه كان أمامى أكوام من الذهب ، وأن الاثنى عشر الوسطى كانت أكثر الأرقام ظهوراً ، فقد ظهرت ثلاث مرات أو أربع ، ثم اختفت مرة أو مرتين لتعود من جديد ثلاث مرات أو أربعاً متتالية . ومن الغريب أن هذا التواتر المدهش قد يحدث فى بعض الأحيان ، وهذا ما يحق اللاعبين الحقيقيين الذين يلعبون والأقلام فى أيديهم . إن الحظ قد يمزح مزاحاً مخيفاً فى الروليت ولا أظن أنه كان قد مضى نصف ساعة منذ دخولى ، حين نبهنى الكروبييه إلى أنى ربحت ثلاثين ألف فلورين ، وأنهم سيقفلون الروليت حتى الغد ، لأن هذا المقدار هو أقصى حد لما يستطيع البنك أن يدفعه ، فأمسكت بذهبى جميعه وكدسته فى جيوبى ، وقبضت على رزم الأوراق المالية ، وأسهرت إلى مائدة أخرى فى بهو آخر ، والجمهور كله يتبعنى محتشداً ، ويفسح لى مكاناً أمام المائدة . وشرعت أقامر مرة ثانية معتمداً على الحظ ، مهملاً كل حساب . ولست بقادر أن أدرك أى شىء أنقذنى من الدمار .

وفى بعض الأحيان كانت الأرقام تتراقص أمام عيني فأتعلق ببعضها ، وربما
لزمت أرقاماً مخصوصة ، ولكنى لم أكن أسلك سبيل العناد والإصرار بل كنت سرعان
ما أتحوّل عن هذه الأرقام دون أن أدري ماذا أفعل . ولا بد أنى كنت مضطرب القوى
فأنى أذكر أن الكروبييه كثيراً ما أصلحوا لى أخطاء فاحشة فى اللعب . وكان صدغاي
مخضلين ويداي ترتعدان . وكان بعض البولنديين يحومون حولى ، يقدمون
إلى مساعدتهم ، ولكننى لم أبه لواحد منهم ، ولم يخنى الحظ قط . وكنت أسمع فى كل
دور كلاماً وضحكاً من كل صوب .

– مرحى ! مرحى ! بل كان منهم من صفق .

لقد ربحت هنا أيضاً ثلاثين ألف فلورين ، وأقفلت الروليت إلى الغد .

وقال لى صوت عن يمينى ! أذهب ! كان يهودياً من فرنكفورت ، لم يغادرنى قط ،
وكان يساعدنى أحياناً .

وتتمم صوت من اليسار : أذهب بريك ! وكانت سيدة متواضعة الملبس تناهز
الثلاثين من العمر ، وتبدو عليها آثار الضنى ، ويعلوها شحوب المرض ، ولكنها ما تزال
محتفظة بآثارة من جمال رائع .

وفى تلك اللحظة كنت أدس فى جيوبى الأوراق وأجمع الذهب . وعن لى أن
أسقط آخر لفافتين من ذوات الخمسين جنيهاً فى كف السيدة الشاحبة دون
أن يلاحظ ذلك أحد . فضغطت بأصابعها النحيلة على أصابعى علامة الشكر ، ولم
يستغرق هذا سوى لحظة .

وبعد أن أخذت الجميع ، اتجهت فى حماس شطر « الثلاثين والأربعين » وجمهور
هذه اللعبة أكثر أرسقراطية ، وهى تلعب بالورق وليست عجلة تدور ؛ والبنك يستطيع
أن يدفع فى الليلة الواحدة مائة ألف تالر ، ولكن أكبر رهان هو أربعة آلاف فلورين كما
فى الروليت . وكنت أجهل اللعبة تماماً ، اللهم إلا تلك المراهنات على الأحمر والأسود ،
ولكنى اندسست بين اللاعبين ، وأحاط بى ذلك الجمع الذى كان يتبعنى . ولست أدري
الآن هل كنت أفكر فى پولينا عند ذلك تفكيراً ما . يخيل إلى أنى لم أكن أحس إلا لذة
غامضة غريبة تخالجنى كلما أمسكت الأوراق المكسدة أمامى ودفعتها فى جيبي .

والحق أنى كنت كمن تسيره قوة خارقة . وفى هذه المرة بدت ظاهرة كثيرة الحدوث ، فكان الحظ إذا لزم الأحمر ، ظهر عشر مرات متتابة . وقد اتفق منذ يومين أن ظهر الأحمر اثنين وعشرين مرة بغير انقطاع . وجلى أن لا أحد يراهن على اللون نفسه إذا ظهر اثنتى عشرة مرة متتابة ، كما أن حذاق اللاعبين يكفون عن الرهان إطلاقاً حتى لا يتحدوا نزوات الحظ . ولقد يظهر الأحمر ست عشرة مرة ، فيلعب المبتدئون على الأسود ، ويضاعفون رهانهم ضعفين أو ثلاثة ، ولكنهم يخسرون .

وهكذا بدا لى عندما ظهر الأحمر سبع مرات متتابة أن ألزم ذلك اللون . وربما كان مبعث ذلك هو الغرور ، فقد أردت أن أدهش الجميع بجراأتى . وربما كان مبعثه أيضاً أنى تملكنتى رغبة المخاطرة . فإن النفس إذا مرت بانفعالات كثيرة عادت لا يروى لها ظمأ إلى هذه الانفعالات ، بل تزيد ثورتها اشتعالاً ، وتقبل على انفعالات جديدة أشد قوة ، وهكذا حتى تتداعى خائفة . ولو قد سمحت لى قوانين اللعبة أن أراهن بخمسين ألف فلورين دفعة واحدة لأقدمت على ذلك . ولكنى سمعت فجأة صيحات ترتفع بأن الأمر كله معجزة ، فقد ظهر الأحمر للمرة الأربعين !

وقال صوت ورائى : لقد ربح السيد حتى الآن مائة ألف فلورين .

وعدت إلى نفسى سريعاً . كيف ؟ ربحت فى الليلة الواحدة مائة ألف فلورين ! ولكن هذا يكفينى ! ... وانقضضت على الأوراق ، ووضعتها رزماً فى جيوبى ، واندفعت خارجاً من الملهى . وكان الناس يضحكون من حولى ، ويشيرون إلى جيوبى المنتفخة ، ومشيتى المترجحة من ثقل الذهب ، فقد كنت أحمل أكثر من ثمانية أرتال . وكان كثير من الأيدى ممدوداً إلى ، وأنا أوزع عليها الذهب بالقبضات . وأوقفنى يهوديان وأنا خارج ، وقالوا لى :

- إنك فتى شجاع . ولكن لا تنس أن ترحل من المدينة فى الغد ، وإلا فقدت كل شىء .

لم أجبهما ، إذ كان الوقت قد تأخر ، وكان بينى وبين الفندق نصف قرست . إنى لم أخش اللصوص أو قطاع الطرق قط ، حتى فى طفولتى . ولا أستطيع أن أتذكر فيم كنت أفكر وأنا عائد . ولكنى أحسست بلذة مخيفة لا أدرى كيف أصفها : لذة النصر ، أو لذة الفوز ، أو لذة القوة . كذلك مرت بخاطرى صورة پولينا . وأخذت أنكر نفسى بأتى ذاهب إليها ، وبأتى ساكون معها بعد قليل ، وبأتى سأروى لها كل

شئ ، وأريها كل شئ . ولم أكد أذكر مرة واحدة ما قالت لي منذ قليل ولا لم تركتها ، ولا كل تلك الأحاسيس المتنوعة التي خالجتني منذ ساعة ونصف لا تزيد . لقد بدت لي تلك الأحاسيس أشياء من الماضي ، أشياء استقرت وشيخت ، أشياء لا نغنى أنفسنا بها وقد كادت الحياة تبدأ لنا من جديد .

فلما شارفت نهاية المشى هاجمنى الرعب فجأة ... وإن قتلتُ ؟ ... وإن سُرقتُ ؟ ... وتزايد فزعى مع كل خطوة ، فكدت أركض .

وانحدرت من الطريق فجأة ، فلاح لي فندقنا يتالق نوراً .

– شكراً لله – ها قد وصلت !

وارتقيت مسرعاً إلى غرفتي . وفتحت الباب . كانت پولينا ما تزال هناك على الأريكة ويدها معقودتان على صدرها ، فلما رأنتى حملقت إلى مبهوتة . لقد كنت ألوح لها بون أى كلام ، ولكن لم أصر على هذا . وألقيت على المنضدة بما كنت أحمل من مال .

* * *

ولا أنسى كيف جعلت تحديقى وجهى دون أن تتحرك من مكانها أو تغير جلستها، فصحت وأنا أرمي بآخر اللقافات على المنضدة : لقد كسبت مائتى ألف فرنك !

كانت كومة الأوراق والنقود تغطى المنضدة ، ولم أكن أستطيع أن أحول بصرى عنها ، لقد أنستنى پولينا نفسها ، وأخذت أرتب الكومة ، وأفرز الصكوك ، وأميز الذهب ، ثم خلطت الجميع ، ثم جعلت أذهب وأجئ فى الغرفة حالماً ، ثم بدأت أعد ثم ألقيت نفسى على الباب ، وأغلقتة مرتين ، وقلت وأنا ذاهب إلى حقيبتى الصغيرة :

- أضع المال هنا حتى الغد وكررت وأنا ألتفت نحو پولينا : حتى الغد فقط .

وفى هذه اللحظة تذكرتها ، لقد ظلت پولينا ساهمة تتبعنى نظرها ، كان غريباً ذلك التعبير المرتسم على وجهها كان كريهاً ، بل لا أخطئ إذا قلت إنه كان ينم عن البغضاء واقتربت منها وقلت لها :

- پولينا ، هاك خمسة وعشرين ألف فلورين ، أكثر من خمسين ألف فرنك ، إقذفها غداً فى وجه دى جريبه ، قلم تجبنى .

- إن شئت حملتها إليه غداً بنفسى فى ساعة مبكرة ، أتريدى ذلك فانفجرت ضاحكة ، وظلت تضحك طويلاً ، ونظرت إليها فى ذهول وألم ، لقد كانت تلك الضحكة الساخرة التى ألفتها فى الأيام الأخيرة ، تلك الضحكة التى ترسلها كلما حدثتها بحبى المشتعل وأخيراً كفت عن الضحك ، وعلتها الكآبة ، ونظرت إلى من تحت حاجبيها ، ثم قالت بإحتقار :

- لن آخذ منك نقوداً .

- لماذا ؟ لماذا يا پولينا ؟

- لأننى لم أعتد أن أقبل المنح .

- إننى أقدمها إليك كصديق ، وأقدم إليك معها حياتى .

- فألقت على نظرة طويلة فاحصة ، كأنها تريد إن تقرأ ما فى أعماق ضميرى ، وعادت تقول بابتسام :

- إنك تغلى الثمن ، إن حبيبة دى جريبه لا تساوى خمسين ألف فرنك .

- پولينا كيف تستطيعين أن تقولى لى هذا الكلام ؟ أنا مثل دى جريبه ؟

فصرخت وعيناها متقدتان :

- إني أبغضك ! أجل .. أجل ! ... إني لا أحبك أكثر مما أحب دى جرييه ..

ثم أخفت وجهها بين يديها وتملكتها نوبة عصبية وأسرعت إلى جانبها وقد خطر لى أن قد أصابها فى غيبتى أمر غريب لا يتصل بى ، لقد كانت أشبه بمجنونة كانت تصبح بصوت يقطعه النحيب :

- أتريد أن تشترينى ؟ أتريد أن تشترينى بخمسين ألف فرنك مثل دى جرييه ؟

أخذتها بين ذراعى ، وقبلت يديها وقدميها ، وسجدت أمامها .
ومرت النوبة .

وثابت إلى رشدتها ، فوضعت كلتا يديها على كتفى ، وحدقت فى وجهى ملياً كأنها تستشف ما وراءه ، قلت لها شيئاً ولكنها لم تسمعه ، وكان وجهها مظلماً كئيباً ، فأشفقت عليها أن يصيبها مس ، وأخيراً جذبتنى إليها .

وسرت على قسماتها ابتسامة واثقة ، ثم دفعتنى فجأة وراحت تحديق فى بيأس مرة أخرى وعادت فألقت نفسها على معانقة وقالت :

- ولكنك تحبنى ؟ أليس كذلك ؟ لقد أردت أن تقا تل البارون طاعة لأمرى ؟

وأمسكت ، وراحت تضحك كأنها تذكرت شيئاً حبيباً إلى نفسها ولكنه يبعث على الضحك ، كانت تبكى وتضحك فى وقت واحد فماذا أعمل ؟ لقد أحسست دبيب الحمى ، ولم أعد أفهم ما تقول كانت تهمس فى لثغة كلثغة المحموم ، وكأنها تريد أن تخبرنى بكل شئ فى كلمات قليلة ، وبين ذلك الهذيان ، كان تبتسم تلك البسمة التى بدأت أفزع منها . وكانت تكرر : كلا أنت حبيبي ، أنت من أعتمد عليه .

ووضعت يديها من جديد على كتفى ، وهى تحديق فى عيني ، وتكرر !

- أنت تحبنى ! أنت تحبنى ! ... هل تحبنى دائماً ؟

ولم أستطع أن أحول عيني عنها . ما رأيته ، قط فى مثل هذه الحالة من الخضوع والحب حقاً لقد كانت تلك الحالة وليدة الهذيان ، ولكن ... ولكنها لاحظت نظرتى المتقدة حباً ، وابتسمت لها ، وفجأة ذكرت المستر استلى ، وطفقت تتحدث عنه طويلاً ، بيد أنى لم أستطع أن أفهم كل ما حدثتنى به ، ولا سيما حين كانت تشير إلى حوادث قريبة العهد ، والظاهر أنها كانت تهزأ به ، فقد جعلت تكرر أنه ينتظرها وسألتنى هل أعلم إن كان واقفاً الآن تحت النافذة أم لا ؟ «أجل . أجل . إنه هناك . أفتح النافذة . وأنظر » .

ودفعتنى نحو النافذة . ولكنى ما كدت أصدع بما أمرت حتى انفجرت ضاحكة ، فلبثت بجانبها وهى تعانقنى ثم قالت فجأة وكأنا خالجها فكرة أليمة – أترحل غداً ؟ وفكرت ملياً .

ونرى أن نلحق بالجدة ؟ أعتقد أننا سندركها فى برلين . ماذا تظنها .
قائلة عندما ترانا ؟ والمستر أستلى ؟ لا أظنه يقفز من قمة شلاجنبرج لأجلى ، إنى واثقة من هذا . أتعلم أين يذهب فى الصيف القادم ؟ إنه عازم على الذهاب إلى القطب الشمالى لأبحاث علمية ! وهو يقترح على أن أصبح به ! ها ها ها ! وهو يقول أيضاً إننا نحن الروس لا نستطيع أن نعتمد على أنفسنا فى علم أو عمل وإننا مدينون بكل شئ للأوربيين ... ولكنه طيب القلب جداً . فهو لا يلوم الجنرال ، بل يقول إن بلانش ... الحب لست أدرى ... لست أدرى

وكفت عن الكلام كأنما أحست حيرة تخالجها بعد أن قالت ما قالت .
– يا لهم من مساكين ! إنى أرثى لهؤلاء الناس ، وللجدة أيضاً . ولكن متى تقتل دى جرييه ؟ لا أظنك عازماً على قتله حقاً ؟ أيها المجنون ! أتظن أنى أترك تقائله هو أو البارون ؟ – وهنا انفجرت ضاحكة – كم كنت مضحكا وأنت تكلم هذين البارونين ! لقد كنت أراقبك طيلة الوقت وأنا جالسة فى مكانى . والغريب أنك كنت متردداً فى الذهاب ؟ آه ! كم ضحكت !

ثم قبلتنى وعانقتنى مرة أخرى ، وألصقت وجهها بوجهى فى حنان عجيب . ولكنى لم أسمعها ولم أرها . فقد كان رأسى يدور ...

.....
ولابد أن الساعة كانت السابعة صباحاً عندما انتبهت ، فقد كانت الشمس تضىء غرفتى ، وكانت پولينا جالسة إلى جانبى تنظر إلى نظرة غريبة ، كأنها أفاقت من حلم مضطرب ولما تجمع خواطرها المشردة . وكانت هى الأخرى قد استيقظت منذ قليل ، وكانت تحقق بين الفينة والفينة فى النقود التى على المائدة .

كنت مصدع الرأس . أردت أن أمسك يد پولينا ، ولكنها دفعتنى ونهضت واقتربت من النافذة ، وفتحتها ، وأشرفت منها تستقبل النسيم . وظلت كذلك بضع دقائق ، لالتفت إلى ولا تسمع ما أقول . فسألت نفسى ماذا – سيحدث ؟ كيف سينتهى كل هذا ؟ ورأيتها وقد تركت النافذة فجأة ، وسارت نحو المنضدة ، وقالت وهى تنظر إلى بيغضاء غريبة ، وشفتاها ترتعدان من الغضب :

- حسناً أعطنى الآن خمسين ألف فرنك .
- پولينا ! أتقولين هذا مرة أخرى ؟
- لعلك متردد ؟ ها ها ها ! هل أخذت تتدم عليها منذ الآن ؟
كانت الخمسة والعشرون ألف فلورين ما تزال مكومة على المائدة . فأخذتها
وأعطيتها إياها .

سألتنى وعلى وجهها تعبير قبيح :

- إنها لى . أليس كذلك ؟
- إنها لك منذ حصلت عليها !
- حسناً . هاك فرنكاتك الخمسين ألفا !

ورفعت يدها ، وقذفت برزم الأوراق إلى وجهى ، وخرجت تعدو
لأشك أنها لم تكن كاملة العقل عند ذلك . ولكنى لا أستطيع أن أفهم سر
اضطرابها . لقد كانت حالتها غريبة بعض الغرابة طيلة الشهر السابق ، ولكن ماذا بلغ
بها إلى هذه الحال ؟ أهو الندم على مجيئها إلى ؟ هل تركتها ترى من اغترارى بهذه
السعادة أكثر مما كان ينبغى أن ترى ؟ هل اعتقدت أنى ، وقد ازدهت تلك الثروة
المفاجئة ، أردت أن أتخلص منها مثل دى جرييه ، بعد أن أعطيتها خمسين ألف فرنك ؟
والله ما فكرت فى شئ من ذلك ولكنى أعتقد أن الامر كله يرجع إلى كبريائها التى
دفعتها إلى إتهامى وإهانتى وإن كانت هى لم تفهم أنها أهانتى . لقد كنت فى نظرها
صورة من دى جرييه فجعلت انتقامها منه نكالا بى . صحيح إن هذا لم يكن إلا نتيجة
الحمى ، وإنى كان يجب ألا أنسى ذلك . ولعلها لن تغفر لى الآن نسيانى إياها . ولكن
عند ذلك ، عند ذلك ؟ ألم تكن تدرك ما تصنع عند ما جاءت إلى بخطاب دى جرييه ؟

على كل حال فقد جمعت الأوراق والذهب جميعاً ووضعتها تحت حشيتى ،
وخرجت بعد رحيل پولينا بعشر دقائق . وكنت واثقاً أنها عادت إلى مسكنها ، ولهذا
اعتزمت أن أتسلل إلى هناك وأسأل الخادم عن صحة « السيدة الصغيرة » وكم كانت
دهشتى عندما علمت من الخادم أن پولينا لم تعد بعد ، وأن الخادم نفسها كانت
موشكة أن تأتى إلى لتبحث عنها عندى ! قلت لها :

- لقد خرجت من عندى منذ قليل ، بل منذ عشر دقائق ! فأين يمكن أن تكون ؟
ونظرت إلى الخادم فى لوم .

كانت پولينا قد أصبحت حديث الفندق بأجمعه . فكانوا يتهامسون فى إدارة الفندق بأن الفرويلين (الأنسة) خرجت من الفندق منذ السادسة صباحاً ، وركضت حاسرة الرأس شطر فندق إنجلترا . فهل كان معلوماً إذن أنها أمضت الليلة فى غرفتى ؟ على كل حال فإن الأحاديث عن أسرة الجنرال لم تكن تنقطع . وكان معلوماً أن الجنرال على شفا الجنون ، وكان يقال أنه يذرع الفندق باكياً ، وكان يقال أيضاً إن السيدة العجوز هى أمه ، وإنها جاءت من روسيا خاصة لتمنع زواجه بالدموازيل دى كومنچ ، ولتحرمة من ميراثها إن أبى أن يخضع ، وإنها أضاعت كل نقودها عمداً فى الروليت ، حتى لا تبقى له شيئاً .

وأخذ مدير الفندق يكرر فى حلق وهو يهز رأسه : هؤلاء الروس ! بينما جعل الواقفون يضحكون ، والكاتب يعد حسابه . وكانوا يعلمون أيضاً بربحى البارحة ، وقد كان كارل ، خادم الطابق الذى أسكنه ، أول من هنأنى ولكن هذا كله لم يكن يعنينى . لقد ذهبت أعدو إلى فندق إنجلترا .

كان الوقت مبكراً جداً ، ولم يكن المستر أستلى يستقبل الضيوف فى مثل ذلك الوقت . فلما علم بمن يطلبه ، خرج إلى الردهة واستقبلنى فى صمت ، وحدجنى بنظرة ثابتة ، منتظراً ما سأقول . سألته عن پولينا ، فأجاب دون أن ينظر إلى وجهى :

— إنها مريضة .

— إذن فهى عندك ؟

— أجل . إنها عندى .

— أو عازم أنت على أن تبقىها هنا ؟

— أجل . إنى عازم على ذلك .

— ولكن هذه فضيحة يا مستر أستلى . إن هذا غير ممكن ! ثم إنها مريضة جداً ، وقد لاحظت ذلك بلا ريب .

— نعم لاحظته . وقد قلت لك الآن إنها مريضة . ولو لم تكن مريضة لما قضت الليلة عندك .

— أأنت تعلم هذا أيضاً ؟

— إنى أعلمه . فقد كان عليها أن تأتى إلى أمس لآخذها إلى قريبتى . ولكنها كانت مريضة ، وقد اختلط عليها الأمر فذهبت إليك .

- أظن هذا ؟ حسناً . إنى أهنتك يا مستر أستلى . ولكنك أوحيت إلى بفكرة .
ألم تمض الليلة تحت نافذتى ؟ لقد اضطرتنى المس پولينا أن أفتح النافذة ليلا لأرى
أأنت هناك . وكانت تضحك كثيراً ؟

- حقاً ؟ كلا ، لم أكن تحت النافذة . ولكنى كنت أنتظرها فى الردهة ، وأتمشى
حول الفندق .

- يجب أن يعود لها الطبيب يا مستر أستلى .

- أوه ، أجل ! إنى استدعيت طبيباً . أما إذا ماتت ، فسأعذك مسئولا عن موتها !
ألجم الدهش لسانى ...

- معذرة يا مستر أستلى ... ماذا تقول ؟

- دعنا من هذا . أصبح أنك ربحت أمس مائتى ألف تالر ؟
- بل مائة ألف فلورين .

- حقاً ؟ إذن فأركب القطار هذا الصباح وأرحل إلى باريس .
- لماذا ؟

فأجاب المستر أستلى وكأنه يردد عبارة محفوظة من كتاب :

- لأن الروس إذا أثروا ذهبوا إلى باريس .

- ولكن ماذا أصنع فى باريس فى الصيف؟ إنى أحبها كما تعلم يامستر أستلى .
أنى أحبها !

- حقاً ؟ أنا واثق أنك مخطئ . ولكنك إن مكثت هنا ستفقد كل ماريحت ، ولن
تجد مالا يعينك على الذهاب إلى باريس . وداعاً . إنى واثق أنك سترحل اليوم .

- حسناً . وداعاً . ولكنى لن أذهب إلى باريس . فكر يامستر أستلى فيما
سيحدث فى منزل الجنرال . فالحقيقة .. إن هذه المغامرة مع المس پولينا ... لا !
إن هذا سيصبح أحدى المدينة كلها !

- نعم . ربما كان الأمر كما تقول . ولكنى أعتقد أن الجنرال لديه ما يشغله . ثم
إن المس پولينا حرة فى أن تذهب حيث تشاء . أما هذه الأسيرة فيمكن أن يقال إنها قد
زالت من الوجود .

وذهبت وأنا أضحك بيني وبين نفسي من ثقة هذا الإنجليزى بقرب رحيلى إلى باريس ، وأحدث نفسي أن لعله يريد أن يقتلنى فى مبارزة إن ماتت پولينا . أجل ، إن هذا ما يريده !

ولقد كنت أرثى ليولينا . ولكنى يجب أن أعترف بأنى منذ البارحة ، أى منذ اللحظة التى جلست فيها إلى مائدة القمار ، دخل حبى لها فى دور جديد . إننى أفهم الآن ، أما فى ذلك الحين ، فلم أكد أتبين الأمر . أحقأ أنى خلقت مقامراً ؟ أو كان حبى لها خدعة كبرى ؟ كلا ! أقسم بالله أنى أحببتها مخلصاً ، وأنى ما زلت أحبها ! ولكنى كنت مقبلاً على تجربة غريبة كريهة .

كنت ذاهباً إلى مسكن الجنرال . عندما سمعت باباً يفتح بالقرب منى . وصوتاً ينادينى باسمى . أنها الأرملة دى كومنج تدعونى باسم فتاتها للدخول . دخلت إلى مسكن المدموازيل بلانش ، وكان من غرفتين ، فسمعت ضحكة وصيحة صغيرة ، تنبعثان من حجرة النوم . كانت المدموازيل بلانش تستيقظ من نومها .

– آه ! إنه هو ! تعال يا صغبرى ! أصبح أنك ربحت جبلاً من الذهب والفضة ؟
إنى أفضل الذهب .

فأجبتها مبتسماً :

– أجل . ربحت .

– كم ؟

– مائة ألف فلورين .

– يالك من غبى ! ولكن اقترب . إنى لا أسمع شيئاً . سوف نعيش فى أبهة .
أليس كذلك ؟

دخلت الغرفة . وكانت ملتفة بغطائها الساتانى الوردى ، الذى كانت تبرز منه كتفاها الذهبيتان المدورتان البديعتان ، كتفان كهذه الأكتاف التى يراها المرء فى الأحلام ، ينشق عنهما قميص من الحرير الأبيض الشف ، يبرز لون بشرتها الحار .
صاحت بى عندما رأتنى :

– يا بنى ! ألك قلب ؟

وضحكت ضحكة حلوة . وكان بشرها يبدو طبيعياً دائماً ، بل كان يلوح صادقاً .
وأردت أن أستعين بما حفظته عن « كورنى » ولكنها راحت تثرثر :
- هلم . أبحث عن جوربى أولاً وأعنى على لبسهما . وإذا لم تكن غيبياً فإنى
سأصحبك إلى باريس . أنت تعلم أنى راحلة على الفور .
- على الفور ؟

- بعد نصف ساعة .

كانت الأمتعة محزومة حقاً ، والحقائب مقفلة . وكانت القهوة قد قدمت
من زمن طويل :

- حسناً . سترى باريس . خبرنى ماذا عسى أن يكون الأوتشيتل « المعلم »
عندكم ؟ لقد كنت مضحكاً عندما كنت « معلماً » . أين جورباى ؟ هيا . ساعدنى إذن !
وأرتنى قدماً معبودة ، قدم تمثال . قدماً بديعة لا كهذه الأقدام التى تفقد كل
جمالها حين تفارق أحذيتها الصغيرة . وبدأت أضحك وساعدتها على لبس جوربها ،
بينما بقيت هى فى الفراش تثرثر .

- حسناً . ماذا تصنع إذا أخذتك ؟ لا بد أن آخذ منك أولاً خمسين ألف فرنك .
ستعطينى إياها فى فرنكفورت ، ثم نذهب إلى باريس . وهناك نعيش سوياً ، وأريك
النجوم فى وضح النهار ، سترى نساء لم ترهن قط .

- مهلاً . فلنقل إنى أعطيتك خمسين ألف فرنك . ماذا يبقى لى بعد ذلك ؟

- مائة وخمسون ألفاً ! ثم إنى سأعيش معك شهراً ، بل شهرين ، بل ربما أكثر
من ذلك ... وسننفق فى هذين الشهرين فرنكاتك المائة والخمسين ألفاً . هذا مفهوم .
أنت ترى أنى فتاة شريفة ، وأنى أنذرك من أول الأمر ... سأريك النجوم فى
وضح النهار .

- كيف ؟ أتعنين أننا سننفق الجميع فى شهرين ؟

- أجل . لعل هذا يخيفك ؟ أه ، أيها العبد النجس ! ألا تعلم أن شهراً من هذه
الحياة أغلى من وجودك السابق كله ؟ شهر ، ثم الطوفان ! ... ولكنك لا تستطيع أن
تفهم . أذهب ، فأنت لا تستحق ما أمنحك ... آى ! ماذا تصنع ؟

كنت ألبسها جوربها الثانى ، فلم أستطع أن أمنع نفسى من تقبيلها . فسحبت ساقها بخفة ، وضربتني بقدمها فى وجهى . ثم طردتني من الغرفة .

– حسناً يا أوتشيتل . سأنتظرك إذا أحببت . ثم صاحت بى وأنا ذاهب : سأرحل بعد ربع ساعة .

عندما عادت إلى غرفتي كنت أحس بشبه دوار . أكنت ملوماً لأن بوليننا قذفت بالأوراق إلى وجهى وأثرت على المستر أستلى ؟ كانت بعض الأوراق ما تزال ملقاه على الأرض فالتقطتها ، وفى هذه اللحظة فتح الباب ، وظهر مدير الفندق نفسه . لم يكن قد أنعم على من قبل بنظرة ، والآن جاء يقدم إلى مسكن الكونت « و » الذى رحل عنه منذ حين .

فكرت بضع لحظات ! ثم صحت فجأة :

– على بالحساب . إني راحل بعد عشر دقائق !

وقلت لنفسي : إلى باريس ! إذن فإلى باريس ! كل نبيل لابد أن يذهب إلى باريس .

وبعد ثلاث دقائق كان ثلاثنا فى مقصورة خاصة بالقطار : بلانش والأرملة دى كومنج ، وأنا . كانت بلانش تضحك كلما نظرت إلى ، والأرملة دى كومنج تشاطرها الضحك دون إسراف . وكنت وحدى أقل الجماعة مرحاً ، فقد انقسمت حياتى كلها إلى شطرين . ولكنى تعلمت منذ البارحة ، أن أعلق مصيرى بورقة . لعل هذه الثروة الضخمة هى التى شلت إرادتى لعلى لم أكن أرجو خيراً من هذا ! وكان يبدو لى مع ذلك أن مسرح حياتى لم يتغير إلا لأمد قصير . فبعد شهر سأعود ، وعندئذ ... وعندئذ نسوى حسابنا يامستر أستلى ! إني لا أزال أذكر عمق أحزاني فى تلك اللحظة . ومع ذلك فقد حاولت أن أضحك مع هذه المجنونة الصغيرة ! ...

صاحبت دون أن تكف عن الضحك :

– ماذا تريد بعد ؟ كم أنت غبى ! حسناً ، حسناً ، سنحرق فرنكاتك المائتى الألف ! ولكنك ستكون سعيداً كملك صغير ! سأربط بنفسى رباط عنقك ، وسأقدمك إلى «هورتنس» وبعد أن تنفق النقود جميعها ، ستعود إلى هنا لتخرب البنك مرة أخرى . ماذا قال لك اليهوديان ؟ المهم أن تكون شجاعاً ، وإنك لشجاع . ستعود إلى باريس تحمل إلى المال .. عدة مرات أما أنا فأريد خمسين ألف فرنك ، وعندئذ ...

فسألتها : والجنرال ؟

– الجنرال ؟ إنه يخرج كل صباح فى هذه الساعة ليشتري لى طاقة من الزهر
كما تعلم . وقد طلبت منه اليوم أزهاراً . وعندما يعود سيجد « الطائر قد هرب » وقد
يطير وراءه ! هاهاها ! لا بأس على من هذا ! سيكون خادماً لى فى باريس ، بينما
يدفع المستر أستلى حساب فندقه هنا .

وهكذا رحلت إلى مدينة النور !

* * *

ماذا أقول فى باريس ؟ لقد كان الأمر كله هذياناً أو جنوناً . إنى لم أعش فيها غير ثلاثة أسابيع ، أنفقت فى اثنتائها مائة ألف الفرنك التى كانت لى . أما مائة الألف الأخرى ، فقد أعطيتها لبلانش نقداً : خمسين ألفاً فى فرنكفورت وخمسين ألفاً بعد ذلك بثلاثة أيام فى باريس .

- أما مائة الألف الباقية ، فسناكلها سوياً عزيزى الأوتشيتل .

كانت تدعونى دائماً ، عزيزها الأوتشيتل .

ولن تجد نفسك أجشع ولا أبخل من هذه الفتاة . فقد كانت قليلة الاسراف فى ثروتها الخاصة ، أما مائة ألف الفرنك التى كانت لى ، فقد صرحت لى ذات يوم أنها محتاجة إليها لتستطيع الإقامة فى باريس . وقالت : بهذا استقر نهائياً . ولا يستطيع أحد أن يعترض سبيلى - فترة طويلة على الأقل .

وكانت النقود بيدها هى ، فلم أر من هذا المائة الألف إلا ظلها . ولم تكن تدعنى أحمل معى أكثر من مائة فرنك . فقد كانت تقول : لماذا تريث النقود فى جيبك ؟ إنك لن تجد ما تصنع بها !

ولم أكن أجادل !

ولكى تنتقم منى كانت تنفق هذه النقود دون حساب على مسكنها ، وكذا كلما دخلناه قالت لى بجد : انظر ماذا يستطيع الإنسان أن يفعل إذا استعاض عن الثروة الباذخة بالذوق والاقتصاد ! ولكن هذا الذوق وذاك الاقتصاد كان يساويان خمسين ألف فرنك كاملة . أما الشطر الباقى من مائة ألف الفرنك التى كانت « لى » فقد ابتلعتها الجياد ، والمركبات ، والحفلات الراقصة ، التى كانت تدعو إليها هورتنس وليزيت وكليوباترا (وهن نساء على حظ كبير من الجمال) . وفى أثناء هذه الحفلات كنت ألعب ذلك الدور السخيف دور « رب البيت » ، أستقبل فى أدب تجاراً ثقلاء حديثى النعمة ، وضباطاً شباناً ذوى قحة وغباء شنيعين ، وكتاباً صغاراً بائسين ، وصحفيين متسكعين .. وكلهم يلبسون السترة الطويلة من أحدث طراز ، والقفاز الأصفر الفاقع ؛ وكلهم يلوحون لى أسخف من مواطنين أهل بطرسبرج . ومع ذلك .. فقد بلغت بهم القحة أنهم كانوا يحاولون السخرية منى . فكنت أروح عن نفسي بشرب الشمبانيا ، ثم أوى

إلى حجرة منعزلة . ولكنى وجدت الأمر كله بغيضاً ثقيلاً على النفس . وكانت بلانش تقول : إنه « أوتشيتل » . لقد كسب مائتى ألف فرنك ، ولولاي ما عرف كيف ينفقها . سيعود بعد بضعة أيام « أوتشيتلا » كما كان . ألا تعرفون عملاً يناسبه ؟ يجب أن نصنع شيئاً من أجله ! وكثيراً ما كنت أشرب الشمبانيا عندما تزدهم فى صدرى الهموم ، فقد كنت أعيش فى أشد البيئات حرصاً على المال ، حيث يعد كل مليم ويزن ! وقد لاحظت فى الأسبوعين الأولين أن بلانش كانت تبغضنى . حقاً إنها كانت تلبسنى باناقة ، وكانت تربط رباط عنقى بنفسها ، ولكنها لم تكن تخفى احتقارها لى عندما تضمنا جدران أربعة . غير أنى لم أهتم لذلك أدنى اهتمام ، وكنت أذهب كل مساء بملى وكأبتى إلى قصر الزهو ، حيث أسكر وأرقص رقصة الكانكان ، التى لم يكونوا يحسنونها ، والتى اكتسبت فيها مهارة مرموقة . واخيراً فهمتلى بلانش . لقد كانت تظن أنى سأتبعها بقلم وقرطاس ، أكتب ما تنفقه وما تبقى ، وما تدفعه وما تختلسه ؛ فكانت تعد جواباً لكل ملاحظة تنتظرها منى . ولكنى لم أكن لأبدى ملاحظة ما خشية أن أجلب على نفسى الكدر كل حين ، فأخذت تبدهنى بالرد وتفعل ذلك أحياناً فى عنف شديد ، وأنا صامت ممدد على الأريكة ، وعيناي مثبتتان على السقف . عند ذلك تشتد دهشتها ، وتروح تبحث عن تفسير لعدم مبالأتى ، فتعزوه إلى الغباء الذى لا يستغرب من « أوتشيتل » ، وتكف عن ردودها ، معتقدة أنها تحاول عبثاً أن تجعلنى أفهم أشياء يقصر عن إدراكها ذكائى . فكانت تترك لى الحجرة ، ثم تعود بعد دقائق لتستأنف الهجوم . وكانت هذه المشاهدات الصامتة تتجدد كلما اقتطعت من نقودى قدراً كبيراً لتنفقه فيما لايناسب مكانتها . فمن ذلك أنها استبدلت بجواديها القديمين جوادين آخرين نظير ستة عشر ألف فرنك . قالت فى هذه المناسبة وهى تقترب منى : « حسناً يا صغيرى ! ألا يغضبك هذا ؟ » فدفعته عنى وقلت لها وأنا أضغط على كل مقطع : « كلا ولكنى متعب » غير أن هذا أدهشها دهشة عظيمة فجلست إلى جانبى وقالت :

– إنى لم أعزم على شرائهما إلا لأننا نستطيع بيعهما فى أى وقت نريد ، وإن يقل ثمنهما عن عشرين ألف فرنك .

– أجل . أجل . جوادان أصيلان ، ومركبة فخمة . إننى راضٍ فلا تعيدى على سمعى هذا الكلام .

– إذن فلست غاضباً ؟

- ولماذا أغضب ؟ إنك تحسنين صنعاُ بشرائك ما أنت فى حاجة إليه ، فسينفك هذا كله فيما بعد . إن أردت أن تصبحى مليونيرة ، فيجب أن تنفقى كما ينفق أصحاب الملايين . إنى لا أرى مائة ألف الفرنك التى لدينا إلا بداية الثراء . أول الغيث .

فهتت بلائش ، إذ لم تكن تنتظر منى هذه التصريحات ، بل كانت تنتظر عاصفة من السخط والاحتجاج .

- ماذا ؟ ياللفتى ! أأنت الذى يقول هذا ؟ إنك إذن لذو قلب ! أتعلم يابنى أنك وإن كنت « أوتشيتلا » فقد كان يجب أن تولد أميراً ، ألا تأسف إذن لأن النقود أنفقت بهذه السرعة ؟

- آه ! الخير فى أن تسرع بالزوال !

- ولكن ... أتدرى ... بل قل لى : أترى أنت حقاً ؟

إنك تحتقر النقود أكثر مما يجدر بك . ماذا تصنع بعد هذا ؟ هه ؟

- بعد هذا ؟ سأذهب إلى همبورج ، وسأربح مائة زلف فرنك مرة أخرى .

- أجل . أجل . هو ذاك . هذا بديع . إنى واثقة أنك ستربحها ... وأنت ستأتينى بها ! ... مادمت هكذا فسوف أحبك دائماً ، ولا أخونك أبداً . أرايت ؟ إنى لم أكن أحبك حتى الآن ، فقد كنت أظنك لست إلا أوتشيتلا ، أو شيئاً كالخادم . ولكنى كنت وفيه لك دائماً لأنى فتاح مخلص .

- تكذبين ! وما بال ألبير ، ذلك الضابط الشاب الأسمر ؟ ... لست غافلا عنه .

- أوه ! أوه ! ولكنك ...

- لا ، لا ! لا تكذبى ! أأظننى أغضب لمثل هذا ؟ إنى أسخر منكما أنى لا أريد أن أطرده ، ما دمت تعرفينه وتحبينه من قبل أن تتلاقى . ولكن إياك أن تعطيه شيئاً من النقود ، أسمعين .

فصاحت بفرح شديد :

- إذن فأنت لا تغضب لهذا أيضاً ؟ إنك فيلسوف حق أجل ، إنك فيلسوف حق ! حسناً ، سأحبك ، سأحبك ، سترى . ستكون راضياً .

واحق أنها منذ تلك اللحظة تعلقت بى وحدى ، وهكذا مرت أيامنا العشرة الأخيرة ، أما النجوم التى وعدت أن ترينى إياها فى وضوح النهار ، فلم أر منها نجماً ، ولكنها وفّت بوعدها فى أمور أخرى ، وقدمتنى إلى هورتنس وهى امرأة فريدة فى بابها ، كنا ندعوها فيما بيننا بالفيلسوفة تيريزاً

ولكنى لن أطيل فى وصف تلك الأيام ، فإنها قصة أخرى لا أريد أن أكتبها هنا لم أكن لأفكر إذ ذاك إلا فى الوصول إلى النهاية بأسرع ما استطاع ، وقد أدهشنى أن مائة ألف الفرنك دامت شهراً ، فإن بلانش أنفقت منها ثمانين ألفاً على زينتها وملابسها ، فلم يبق إلا عشرون ألفاً نعيش بها ، وقد أصبحت بلانش قرب النهاية شبه أمينة معى ، فلم تعد تكذب علىّ فى شىء ، وأنبأتنى بأن الديون التى اضطرت إلى اقتراضها لم تكن باسمى قالت : "لم أرد أن أجعلك مسئولاً عن كل ما أشتريه أو أقترضه ، إننى أشفقت عليك . ثقب أن سوائى ما كانت لتحجم عن هذا العمل ، ولولاى لأصبحت الساعة فى السجن ألا ترى أنى محبة لك وأنى نقية القلب ؟ ألا ترى أيضاً أن زواجى اللعين بالجنرال سيكلفنى كثيراً ؟ " حقاً لقد حدث الزواج ، وكان ذلك عندما أوشك شهرنا على الانتهاء ، وأعتقد أن بقية مالى أنفقت فى هذا السبيل ، وبذا انتهى مقامى مع الفرنسية ، وانزويت من مسرح حياتها .

واليك التفصيل :

لقد وصل الجنرال بعد شهر من إقامتى فى باريس ، وبادر إلى المدموازيل بلانش ليزورها ، فمكث عندنا ضيفاً لا يبارح ، لو أنه قد استأجر مسكناً خاصاً به ، واستقبلته بلانش فى مرح وضحك ، بل إنها عانقته أيضاً ؛ وجعلته يمشى فى ركبائها فى كل مكان ، فى الغابة أو فى البولفار أو فى المسرح ، ويصحبها كلما ذهبت إلى أصدقائها ، وكان هذا عملاً ما يزال الجنرال قادراً على القيام به ، فقد كان فخم المنظر ، رائع المحضر ، مديد القامة ، مخضوب العارضين ، مقتول الشاربين ، وسيماً على ما بوجهه من تجاعيد ، وكان إلى ذلك ارسستقراطى المسلك ، يبدو فى سترته الطويلة وأنواطه الكثيرة مهيباً فخماً ، حقاً إن مثل هذا الفارس كان جديراً بالآلا تقتحمه الأعين ، بل كان جديراً بأن يعرض فى البولفار أما الرجل المسكين فلم تكد الدنيا تسعه من فرط السرور ، فإنه لم يكن ينتظر لقاء كهذا ، بل . إنه جاء إلى باريس وهو واجف

القلب خشية أن تطرده بلانش . لذلك كان في نوية مستمرة من السعادة المحمومة حرصتُ على ألا أفسدها عليه وقد علمت من بعد أن رحيلنا عن دوتنبرج تركه في غشية ، وأنه أمضى أسبوعاً يهذى ، واستدعى له الأطباء . وأجبر على اتباع علاج دقيق ، ولكنه هرب ذات يوم قادماً إلى باريس ، إذ كان علاجه الوحيد النافع هو أن يصير خادماً لبلانش ، ولا شك أن استقباليها له أفاده كثيراً ، ثم أن أعراض ذلك المرض لازمتها طويلاً رغم ما أصبح فيه من سرور ولذة . فقد دبرم . بعد التفكير المستقيم ، بل استحبال عليه أن يشترك في أى مناقشة جدية ، ولم يعد قادراً إلا على أن يقول عقب كل كلمة من محدثه : هيم ! وهو يومئ برأسه موافقاً . وربما ضحك ، لكن ضحكته كانت عصبية شبيهة بخيرفة ، يربو ! جلس ساعات وهو كئيب كأنما أعاره الله . لم يزل يتردد عليك وحاجباه الفزيران معقودان على عينيه . ولم يكن يشعر بأكثر ما يمر عليه ، فقد غدا ذهل العقل ، واعتاد أن يكلم نفسه ، ويحكى . كانت بلانش وحدها هي التي تستطيع أن تبعث فيه نوعاً من الحياة فكانت نوبات كآبته وبؤسه وازوراره علامة على شيء من ثلاثة : إما أنه لم يرها منذ مدة ، أو أنها أبت اصطحابه ، أو أنها لم تداعبه قبل الرحيل ، وكان إذا اعترته هذه الحالة ، امتنع عن الكلام ، وأظهر العبوس ، ولبت كذلك ساعة أو ساعتين وقد لاحظت مرتين أنه اعترته حالة غريبة ، وذلك عندما كانت بلانش تغيب طول النهار ، ولعلها كانت تذهب إلى منزل ألبير ، فكان إذا طال به ذلك الوجوم ، أخذ يتلفت حوله واستحوذ عليه القلق ، ثم يشوب كأنما تذكر شيئاً يجب أن يعثر عليه فلا يجد ذلك الشيء ، ولا يستطيع أن يذكر . فتغمره غيبوبة باردة ، لا يفيق منها إلا عندما تظهر بلانش : حلوة رشحة ، بدت عارية ، تضحك ضحكتها الصحلة المجلجلة ، وهي تتقدم إليه لتداعبه وتقبله .. وكان حظه من تلك القبلات ضئيلاً ، وحدث مرة أن غمره الفرح حين قبلته ، فبكى . ودششت لذلك أنا نفسي .

ولقد كانت من مجيئه إلى باريس تدافع عنه أمامي والحق أنها كانت قوية الحجة فكانت تحتج بأنها لم تهجره إلا لأجلى ، وبأنها كانت منذ زمن طويل خطيبته ، وبأنها وعدته بالزواج ، وبأنه هجر أسرته من أجلها ، وأخيراً بآنى كنت أعمل عنده ، وأنى يجيب ألا أنسى ذلك ، وأنى يجب أن أخجل .. فكنت ألزم الصمت طويلاً ، ثم أضحك ، وينتهى الأمر عند هذا وقد ذكرتُ أنها كانت تظننى أول الأمر أبله ، ثم اعتقدت أنى حكيم سمح الخلق ، والحق أنى عرفت كيف أظهر نواحيها الطيبة ، وقد أسأت فهمها

أول الأمر ، ولكنى تبيننت أنها امرأة رقيقة القلب ، على ما تفهم هى من الرقة كانت تقول لى قرب النهاية : أنت نبيل ذكى . و ... و ... وإنى لا أسف إلا على بلاهتك هذه .. إنك لن تكون ثرياً أبداً ، روسى حق ! كالموكى !» .

وكثيراً ما كانت تأمرنى أن أخرج مع الجنرال إلى الطريق للرياضة ، كأنها تأمر خادماً أن يصحب كلبها المدلل ، ولكنى كنت أفضل أن آخذه إلى المسرح أو المرقص أو المطعم ، وكانت تعطينى نقوداً لهذا الغرض ، وإن كان الجنرال يملك بعض النقود ، وإن كان مشغولاً بإظهار حافظته نقوده أمام الناس ، وقد كدت ألجأ إلى العنف معه ذات يوم لأمنعه من شراء دبوس ثمنه سبعمائة فرنك رآه فى "الباليه رويال" وأراد أن يهديه إلى بلانش مهما كلفه ذلك ، ماذا يساوى عندها دبوس ثمنه سبعمائة فرنك ؟ كان الجنرال لا يملك أكثر من ألف فرنك ، ولا أدري من أين جاءت هذه النقود ، لقد كان كرم المستر أستلى هو التفسير الأقرب احتمالاً ، وخصوصاً لأنه هو الذى أدى حساب الجنرال فى الفندق ، ولقد كان سلوك الجنرال معى بحيث جعلنى أعتقد أنه لا يخالجه أدنى شك فى علاقاتى ببلانش ، وأظنه فسر وجودى عندها بعمل أعمله كأن أكون سكرتيرها الخاص مثلاً ، أو خادماً ، فلقد كان يشمخ على بآنفه ، وربما انتهرنى لسبب من الأسباب .

ف ذات يوم بينما كنا نشرب قهوة الصباح ، أخذ يسخر منى ، ولم يكن بطبعه سريع الغضب ، ولكنه ثار بى ذلك الصباح لسبب لم أعلمه بعد ، ولا أظنه هو أيضاً يعمل ، وراح يلفظ بكلمات متقطعة ، ونعتنى بالطيش والعبث ، ويقول إنه سيؤدبنى .. إلخ وكانت بلانش تتلوى من شدة الضحك ثم نجحنا فى تهدئته ، وصحبناه للنزهة ، ولاحظت غير مرة أن الكآبة ترين عليه ، وكأنه يفتقد شخصاً أو شيئاً ، حتى ولو كانت بلانش معه ، وقد حدث مرتين أن أخذ يحدثنى وهو فى هذه الحالة ، ولكن الأمر اختلط عليه ، فجعل يهذى عن حياته فى الجندية ، وعن زوجه المتوفاة ، وعن منزله وممتلكاته وربما أعجبتة كلمة بعينها فجعل يرددتها مائة مرة طيلة النهار ، ولعل الكلمة لا تتفق مع أفكاره أو مشاعره ، وكنت أحاول أن أحدثه عن طفليه ولكنه كان يروغ من ذلك الحديث ، ولم أكن أظفر منه بغير هذه الكلمات .

– الطفلان ... أجل .. أجل ... أنت على حق ...

ولكنه كان منطلقاً ذات مساء ، وذلك حينما كنا ذاهبين إلى المسرح فقال لى فجأة :

– طفالى البائسان ! أجل يا سيدى ! إنهما يستحقان الرثاء يا للطفلين البائسين !
وكرر هذه العبارة عدة مرات فى أثناء المساء .

واتفق لى مرة أخرى أن حدثته عن پولينا ، فاحتدم غضبه عليها وصاح :
– إنها جحود ! جحود شقية لقد حطمت أسرتنا لو كان هناك قانون لما أفلتت
من العقاب ! أجل .. أجل .

أما دي جرييه فلم يكن يطيق لك ذكراً .
– لقد ضيعنى لقد سلبنى مالى لقد ذبحنى ذبحاً لقد كان كابوساً على عامين
كاملين ، إنه .. إنه ، أوه ! لا تحدثنى عنه أبداً .

وتبين لى أنه كاد يصبح على وثام مع بلانش ، وحدثتنى هى نفسها عن ذلك قبل
انفصالنا بأسبوع ، فقالت لى خلال ثرثرتها ، إنه سعيد الحظ فالجدة مريضة حقاً
هذا المرة ، وتوشك أن تموت ، وقد أبرق إليه المستر أستلى بذلك ، إنه هو الوريث
الوحيد ، وسأتزوجه حتى لو لم يتم هذا الميراث ؛ فإن لديه راتبه على كل حال ،
وسيعيش فى غرفة بجانب غرفتى ، ويغدو سعيداً بذلك كل السعادة ، أما أنا فسوف
أكون "عقيلة الجنرال" وسوف أتصل بالطبقة الراقية ، ولن ألبث أن أصبح
من كبار الملاك الروس ، سيكون لى قصر وفلاحون ، ومليون من النقود أعتمد عليها
فى كل وقت .

– وإذا أصبح غيوراً ؟ وإذا أرادك على أشياء .. أتفهمين ما أعنى ؟
– أوه، كلا . إنه لن يجرؤ . لا تخف على كل حال ، فقد أخذت حذرى ، لقد أرغمته
على أن يكتب سندات كثيرة لأببير ، حتى إذا هفا أقل هفوة عرفت كيف أؤديه ، ولكنه
لن يجرؤ .

– حسناً تزوجه .
واحتفل بالزواج احتفالاً بسيطاً بغير جلبة ، ودعى أببير وبعض الأصدقاء
أما هورتنس وكليوباترا فلم يكونا هناك ، وكان الخطيب ، يبدو فخوراً ، وقد ربطت له
بلانش رباط عنقه بيدها ، ورجلت شعره وعطرته ، فبدأ فى حلته السوداء وصداره
الأبيض لا يعاب .

قالت لى بلانش وهى تخرج من غرفة الجنرال : لا شك أنه حسن المنظر .

ولعل هذا كان يدهشها هي نفسها ، ولكنى كنت قليل الاهتمام بهذه التفاصيل التى كنت أشاهدها عن كذب وأنا عازب اللب ، حتى أنى لم أعد أذكر منها إلا القليل لست أذكر إلا أن بلانش لم يكن اسمها «دى كومنج» وأن أمها لم تكن الأرملة "دى كومنج" بل كان اسمها الحقيقى "دى بلاسيه" ولست أدري لماذا لقبت نفسها بـدى كومنج عوضاً عن دى بلاسيه ، ولكن الذى أدريه أن الجنرال سرّاً بذلك الكشف سروراً عظيماً ، فقد بدا له اسم دى بلاسيه أجمل بكثير من دى كومنج وفى صبيحة يوم الزواج ، كان يتمشى فى زيه الفخم أمام موقد البهو وهو يكرر مزهواً ، : مدموازيل بلانش دى بلاسيه .. مدموازيل بلانش دى بلاسيه .. دى بلاسيه ! وفى الكنيسة وفى المحكمة وفى مأدبة العرس كأن وجهه يضىء بأكثر من السعادة ، كان يضىء بالغرور لقد كان كلاهما كأنه خلق خلقاً جديداً ، فقد كانت بلانش هى الأخرى تبالغ فى إظهار الوقار والكبرياء .

قالت لى بجد ظاهر: يجب أن أسلك سلوكاً جديداً ، ولكن ألا ترى أنى لا أستطيع أن أنطق باسمى صحيحاً ؟ زاجوريانسكى .. زاجوريانسكى ... السيدة عقيلة الجنرال دى زاحو .. زاجو .. يا للاسم الروسى الشيطانى ! بل السيدة عقيلة الجنرال دى الاسم الطويل ! أليس هذا حسناً ؟

وأخيراً افترقنا ، وبكت هذه اللعينة بلانش ، بكت حقاً وهى تودعنى .

كانت تقول لى وهى تبكى : إنك فتى طيب السريرة ، لقد ظننتك أبلاً . أنت تبدو كذلك ولكن بلاهتك محببة إلى .

وبينما كانت تهز يدي للمرة الأخيرة صاحت : انتظر ! وأسرعت إلى مخدعها ، وعادت بعد لحظة وقد أحضرت لى ورقتين من نوات ألف الفرنك .

كدت لا أصدق عينى .

– لعل هاتين تنفعانك ، فربما كنت استاذاً بارعاً ، ولكنك رجل غيبى ! لن أعطيك أكثر من ألفين من الفرنكات حتى لا تفقدها كلها فى القمار . والآن ، وداعاً . سوف نظل أصدقاء ، وإذا ربحت ثانية فتعال إلى وسوف تكون سعيداً .

وكان قد بقى معى كذلك خمسمائة فرنك . وساعة ثمينة تساوى ألف فرنك وأزرار ماسية للقميص ، وبعض الجواهر ، وهكذا كنت أستطيع أن أعيش زمناً دون أن أحملهما .

وقد اتخذت مسكنى فى هذه الجهة لأمرين : أولهما أن أجمع شتات نفسى
وثانيهما أن ألقى المستر أستلى ، الذى علمت أنه قادم إلى هذا المكان لبعض شأنه ،
أجل ، إنى أعلم ذلك ، وسأذهب بعد ذلك إلى همبورج ، ولن أذهب إلى رولتنبرج
هذا العام ، فإنهم يزعمون أن ليس من المستحسن أن تجرب حظك مرتين متتابعتين
على مائدة واحدة . ولا تنس أيضاً أن همبورج هى خير مدن القمار .

ها قد مضى عام وثمانية أشهر دون أن أنظر إلى هذه المذكرات واليوم أفتحها حزناً كئيباً لأنسلى فأقرأ هنا وهناك ... لقد طويتها عندما كنت ذاهباً إلى همبورج .
كم كنت مرحاً وأنا أكتب الصفحات الأخيرة ! فإن أبيت أن تسمى ذلك مرحاً ، فقل إنه ثقة بالنفس وأمل لا ينتضب هل كنت يومئذ لأشك في قدرتي؟ انظر إلى الآن ! لقد تحطمت لم يكد يمضى عام ونصف عام حتى أصبحت أتعس من شحاذ ! ولكن ما الشحاذ ؟ إن هدتى مع الأخلاق قد انتهت إننى لا أستطيع أن أزن شيئاً من الأشياء لن تجدى معى الحكم ، ولا شئ عندى الآن أسخف من الحكم . أنتم أيها الراضون الرافلون فى كبريائكم المتألهة على استعداد أبداً لأن تملأوا أفواهكم بمبادئكم الخلقية ، لو علمتم كم أقدر شناعة موقفى لأعفيتم أنفسكم من شقشقة ألسنتكم ، أى جديد عندكم لا أعلمه ما الذى يجعلنى من دون أنظاركم شقياً شريراً ؟ لا شئ إلا أن دورة واحدة من العجلة كانت كفيلة بأن تغير كل شئ ولو انعكس الأمر لهرع أولئك الأخلاقيون أول من هرع ، يمازحوننى ويهنتوننى ؛ أجل ولما أولونى ظهورهم كما يفعلون الآن ! بعداً لهم جميعاً من أنا ؟ أنا صفر أنا عدم . من أكون غداً ؟ ربما أبعث من الأموات ، وأبدأ حياة جديدة ، ربما كشفت الرجل فى أعماق نفسى ، وإن كانت رجولتى لم تمرق شر ممزق .

أجل لقد ذهبت إلى همبورج كما ذهبت بعد ذلك إلى رولتبرج ، وأشيا ، وبادن ، وفى هذه المدينة الأخيرة اتصلت بمستشار نكد اسمه هنتز ، وأصبحت سكرتيراً له ، سكرتيراً . كلا بل خادماً ، لقد عشت بين الخدم خمسة أشهر ، وكان ذلك عقب خروجى من سجن رولتبرج ، حيث حبست لدين صغير كان على ، وأخلى سبيلى حين ضمنتى شخص .. ترى من كان ؟ أسئلى ؟ پولينا ؟ لست أدرى . وأيا كان فإن دينى قد قضى ، وكان مائتى تالر ، وانطلقت رجلاً حراً ، ولكن أين كنت أتوجه ؟ لقد لجأت فى يأسى إلى ذلك الهنتز .

وكان فتى أرعن كسلان ، وكانت مواهبى ذات قيمة عنده ، فإنى أتقن ثلاث لغات حديثاً وكتابة ، كنت أول الأمر أشبه بسكرتير أتقاضى ثلاثين فلوريناً فى الشهر ، ولكنى هبطت أخيراً إلى خادم ، إذ لم يكن لدى هنتز الموارد التى تسمح له باستخدام سكرتير ، رضيت بذلك لأننى لم أجد سيلاً آخر ، ولكنى جمعت بالتقير فى خلال هذه

الأشهر الخمسة سبعين فلورينا ، وأخبرته ذات مساء فى بادن أنى سأتركه ، وذهبت فى المساء نفسه إلى الروليت ، أوه ! كم كان قلبى يخفق ، كلا لم تكن النقود هى التى أريد ، إن الذى أردته هو أن أنتقم من كل تلك الإهانات التى وجهتها إلى عقائل بادن ومديرو الفنادق وهذا الهنتز أردت أن أراهم جميعاً يسجدون أمام انتصارى ، أحلام ! خيالات صبيانية ! من يدري ؟ ربما لقيت پولينا وأثبت لها أنى فوق كل ضربات القدر لا لم أكن أرغب فى المال لذاته ، فقد كنت أعلم أنى سأضيقه على بلانش جديدة ، وأقضى ثلاثة أسابيع أخرى فى باريس بعد أن اشتري زوجاً من الخيل بستة عشر ألف فرنك ، لا ما عرفت نفسى قط كأنزاً للمال بل كنت أعلم حق العلم أنى متلاف .

بأى قلب واجف كنت أستمع إلى صيحات الكروبييه : واحد وثلاثون زوجى . باس ، مانك .. بأى نهم كنت أنظر إلى مائدة القمار المغطاة بالنقود الذهبية .. والتلال الذهبية التى كانت تنهال تحت عصا الكروبييه وهى تتوهج كالنار .

أوه ! كنت أعلم أنها ليلة حاسمة ، تلك الليلة التى ذهبت فيها إلى مائدة القمار ، أحمل فلوريناتى السبعين ، لقد كنت أفضل "الپاس" تفضيلاً خرافياً فوضعت عشرة فلورينات عليه ، وخسرتها ، وبقي معى ستون نقداً فضياً ، فركنت إلى الصفر ، ووضعت عليه خمسة فلورينات ، وفى الدور الثالث ظهر الصفر ، وكدت أموت فرحاً وأنا أتناول المائة والخمسة والسبعين فلورينا .

كان فرحى إذ ذاك لا يعادله فرح عندما ربحت مائة الألف فى تلك الليلة المشهودة وضعت توأ مائة فلورين على الأحمر ، وربحت . ثم الأربعمائة كلها على الأسود وربحت ثم الثمانمائة على المانك وربحت لقد أصبح معى فى أقل من خمس دقائق ألف وسبعمائة فلورين ، أجل فى هذه اللحظات ينسى المرء كل هزائمه الماضية لقد قامرت بحياتى وربحت ، وغدوت رجلاً مرة أخرى .

واستأجرت غرفة ، وأغلقت بابها على ، ومكثت إلى الساعة الثالثة من الصباح أعدّ نقودى واستيقظت امرأة حراً .

وعزمت على الرحيل إلى همبورج ، حيث لم أكن قط خادماً ولا سجيناً .

وذهبت إلى الروليت قبل الرحيل بلحظات ، وراحت مرتين لاغير ، فخسرت ألفاً وخمسمائة فلورين ، ولكن رحلت مع ذلك ، وما قد مضى شهر منذ قدومى إلى همبورج .

إنى أعيش فى فزع مستمر ، أقامر بمقادير ضيئلة جداً ، وأترقب دائماً أن يحدث شىء إنى أمضى أياماً بطولها قرب مائدة القمار ، أرقب اللعب ، بل إنى أحلم بالقمار وأنا نائم ، ولكنى أحس بالجفاف واليبس ، وكأنى خُبِرتُ فى الوحل بيد أنى يجب أن أختم هذه المذكرات التى أتمها تحت تأثير مقابلة أخيرة مع المستر أستلى .

لم أره منذ افترقنا فى رولتبرج ، وقد قابلته الآن صدفة بينما كنت سائراً فى الحديقة أعد الخمسة عشر فلوريناً التى بقيت معى ، وأستذكر أنى لست مديناً بشىء للفندق الذى أسكن فى غرفة منه ، وكنت أحدث نفسى أنى أستطيع بذلك أن أذهب إلى الروليت مرة أخرى ، فإذا ربحت أمكن لى أن أستمر فى اللعب ، أما إذا خسرت فسأضطر أن أعمل خادماً ، إلا أن وجدت أسرة روسية فى حاجة إلى معلم ، وبينما كنت شارده ذهن فى هذه الأفكار مررت من خلال الغابة إلى الريف المجاور ، وكان يتفق لى فى مثل هذه الأحوال أن أمشى أربع ساعات ، متصلة ثم أعود إلى همبورج منهكاً جائعاً وفجأة لحت المستر أستلى جالساً على مقعد ، وما كاد يرانى حتى دعانى باسمى فذهبت وجلست بجانبه ، ولكنى حين رأيت عبوسه وتجهم ، كتمت مظاهر الفرح الذى شملنى لرؤيته قال لى :

- أنت هنا ؟ لقد توقعت أن أقابلك ، لا تكلف نفسك أن تروى لى قصة حياتك فى هذه الأشهر العشرين ، فإنى على علم بها .

- أف ! إذن فأنت تتجسس على أصدقائك القدماء ؟ إنك لا تنساهم على كل حال .. ألسنت أنت الذى خلصنى من السجن وقضى دينى فى رولتبرج ؟ - لا يا صاحبنى ولكنى أعلم أنك كنت مسجوناً لعجزك عن الوفاء بديونك .

- لعلك تستطيع أن تخبرنى إذن بمن قضى دينى ؟

- كلا ، يؤسفنى ألا أستطيع ذلك .

- هذا غريب فأنا لا أعرف أحداً من الروس هنا ، ونحن الروس قد يضمن بعضنا البعض ليخلصه من السجن ، ولكنى رجحت هذه المرة أنها بدوة إنجليزى شاذ لا يجهل عاداتنا .

كان المستر أستلى ينصت إلى بدهشة ، ولا شك أنه كان يتوقع أن يرانى أشد حزناً ، وأكثر خشوعاً ، فاستمر يقول فى غير ود .

- على أنى مسرور لاحتفاظك بطلاقتك ومرحك القديمين .

فأجيبته باسماء : إنك تفضل أن ترانى أكثر ذلاً .

فلم يفهم بادئ الأمر ، ثم أدرك فكرتى فضحك .

- إن ملاحظتك تعجبى إنى أعرف فيها صديقى القديم ، بذكائه وتوثبه وسوداويته الغالبة . لا يستطيع أن يجمع بين هذه المتناقضات غير الروس ، أجل ، إن أكثر الناس يحبون أن يروا أصدقاءهم الأعزاء أذلاء أمامهم ، وعلى هذه الذلة تقوم أوثق الصداقات هذه حكمة قديمة يعلمها كل عاقل ولكنى على الرغم من ذلك سعيد بأن أراك على هذه الشجاعة أخبرنى ألا تريد أن تترك القمار ؟

- أوه . لعن الله القمار كان ينبغى أن أتركه لولا ...

- لولا أنك تخسر ؟ هكذا ظننت لا حاجة بك إلى أن تزيد إنى أعلم بحالك ، فقد قلت هذه العبارة الأخيرة يائساً ، ولهذا كنت صادقاً فيها ألا عمل لك سوى القمار ؟
- لا .. لا شئ مطلقاً .

فتفرس فى بدهشة لقد كنت فى ذلك الوقت بمعزل عن كل شئ ، وقد مرت على أباد دون أن أنظر فى صحيفة أو أقلب صفحات كتاب . قال :

- لقد أسرفت على نفسك ، لقد نفضت يدك من الحياة بشواغلها وروابطها الاجتماعية ، بما تفرضه عليك ، مواطناً وإنساناً ، ونقضت يدك من أصدقائك القدماء ، بل إنك نفضت يدك من ذكرياتك ، إننى أذكر الوقت الذى كنت فيه فى أعنف أطوار حياتك ، أجل إنى أنكره ، ولكنى واثق أنك نسيت كل ما كنت تشعر به فى ذلك الوقت إن أحلامك وأمانيك اليوم لا تعدد الزوجى والفردى والأحمر والأسود والأثنى عشر الوسطى وما إليها .

فصحت غاضباً :

- كفى يامستر أستلى ، أسألك أن تكف عن هذا الحديث لا تهج بى الذكريات فإننى قادر على أن أتذكر كل شئ وحدى ولكنى نفيت هذه الأفكار عن خاطرى حتى يأتى الوقت الذى استعيد فيه كيانى ، وعندئذ سترى كيف أبعث .

- إذن فسوف تبقى هنا عشرة أعوام أخرى ، وإن عشت فسوف أذكرك بهذا ، على هذا المقعد ، أجل ، إنى مستعد لأن أراهنك على ما أقول .

فقاطعته بصبر نافذ .

كفى ولكن دعنى أثبت لك إنى لم أنس الماضى كله ، أين المدموازيل پولينا الآن ؟
إن لم تكن أنت الذى قضيت دينى فلا شك أنها هى التى فعلت ذلك وها قد مضى وقت
طويل دون أن يصلنى شىء من أخبارها .

قال فى لهجة حاسمة يشوبها الضجر .

- كلا لا أعتقد أنها هى التى أخرجتك من السجن ، إنها الآن فى سويسرا ،
وإنك تحسن إلى كثيراً إذا كففت عن السؤال عنها .

صحت وأنا أضحك على الرغم منى :

- وإذن فقد جرحتك جرحاً دامياً .

- إن المدموازيل پولينا هى أشرف مخلوق على وجه الأرض أكرر لك :
كف عن هذه الأسئلة إنك لم تعرفها قط ، وإن اسمها حين تنطقه يؤذى كل مشاعرى .

- أه أنت مخطئ احكم بنفسك : فيم نتكلم إذا لم يكن حديثنا عنها إنها محور كل
ذكرياتنا إننى لا أسألك إلا عن الظروف التى تحيط بالمدموازيل پولينا ، وهذا يمكن أن
يقال فى كلمتين .

- ليكن على شرط أن تكفيك هاتان الكلمتان إن المدموازيل پولينا مريضة من زمن
طويل وهى لم تشف بعد ، لقد عاشت مدة من الزمن مع أمى وأختى فى شمال إنجلترا
وقد ماتت الجدة - لعلك تذكر تلك العجوز المجنونة ؟ ماتت منذ ستة أشهر وخلفت لها
سبعة آلاف جنيه ، إنها تسيح الآن مع أسرة أختى المتزوجة ، وأخوها وأختها قد أفادا
من الوصية أيضاً ، وهما يتعلمان الآن فى لندن ، وقد مات الجنرال منذ شهر
فى باريس بنوبة شلل ، وكانت زوجته تعامله معاملة حسنة ولكنها استطاعت أن
تستأثر بكل ما ورثه عن الجدة ، هذا كل ما هنالك .

- ودى جرييه ؟ أهو أيضاً يسيح فى سويسرا ؟

- كلا إننى لا أعلم أين دى جرييه ، ثم إننى أنصحك للمرة الأخيرة ، بأن تتجنب
هذه الإشارات والتلميحات المجردة من الشرف ، وإلا فسوف ، يكون لى معك
شأن آخر .

- كيف ؟ رغم صداقتنا القديمة ؟

- أجل .

- ألف معذرة يا مستر أستلى . ولكن دعنى أنبهك إلى أنى لم أذكر شيئاً وليس فى قولى تلميح معيب ، ثم إننا لا نستطيع أن نتكر ما كان بين هذا الفرنسى وتلك الفتاة الروسية ، ولا أن نفهم كنه هذه العلاقة .

- إذا كان لا يهم أن تسمع اسميهما مقرونين كلا إلى الآخر ، فدعنى أسألك ما الذى تعنيه بقولك "هذا الفرنسى" وتلك الفتاة الروسية "وكنه العلاقة بينهما" ولماذا تتعمد أن تسميها "فرنسياً" و"فتاة روسية" ؟

أرأيت ؟ إن الأمر يعنيتك يا مستر أستلى ولكنها قصة جد طويلة ، ولا بد لها من مقدمة مملّة ، والمسألة بعد مسألة خطيرة ، وإن بدت للوهلة الأولى سخيّة مضحكة ، إن الفرنسى يا مستر أستلى ليس إلا صورة رجل أنيق جميل ، قد تنكر هذا لأنك إنجليزى سكسونى وأنا أيضاً قد تدفعنى الغيرة إلى إنكاره ، ولكن الأمر عند فتياتنا على العكس ، ولأضرب لك مثلاً إنك قد تجد "راسين" معطراً مقطراً ، ولكنك مع ذلك لا تطيق أن تقرّاه ، وربما وافقتك أنا على هذا ، بل ربما جعلته هدفاً لسخريتى ، ولكنه مع ذلك ممتع ، وهو - شيئاً أم لم نشأ - شاعر عظيم ، ولقد كان الفرنسيون - والباريسيون بوجه خاص - على حظ كبير من الأناقة والرشاقة بينما كنا نحن ديبية ما نزال وقد جعلت ثورتهم إرث النبالة حقاً لأكبر عدد من الناس ولن تجد اليوم شاباً فرنسياً إلا له هيئة وشارة ولغة بل أفكار لطيفة ، وإن كان روحه وقلبه لا يأخذان من ذلك كله بنصيب فقد اكتسب هيئته وشارته بالوراثة ، ولكنك إن تعمقت نفسه وجدته أغبى الأغبياء وأسفل السافلين ، وعلى العكس من ذلك الفتاة الروسية فلا أحد أجدر منها بالثقة ولا الاحترام ، وربما ظهر لها دى جرييه بقناعه الجميل ، فلا يلبث أن يجعلها أطوع له من بناته فإن له المظهر المنمق ، والفتاة تظن هذه المظاهر هى الروح نفسها ، ولا تعلم أنها كساء ورثه عن أسلافه ولأضف إلى ذلك أن الإنجليز - وإن ساءت هذه العبارة - أكثرهم خشنوا المظهر وحشيو الطبع ونحن الروس نتعشق الجمال حيثما وجدناه ، ونحاول أن نكتسبه ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، ولكن فهم جمال الروح ، والشخصية يتطلب مبلغاً من الاستقلال والحرية لا تصل إليه نساؤنا ، والشباب منهم على الخصوص فقيرات فى تجاريهن ولناخذ لذلك مثلاً المدموازيل پولينا - ولا بد لى من ذكر اسمها - فإنها تتردد كثيراً قبل أن تفضلك على دى جرييه ، ولعلها تجلك ، ولعلها تحب أن تكون صديقتك ، ولعلها تفتح لك قلبها ، ولكن فوق ذلك القلب يرن اسم الوغد الكريه ، ذلك المرابى الوضيع دى جرييه إنها لتصر على حبها لمحض العناد والكبرياء ، لأن دى جرييه بدا لها مرة فى زى مركزى جميل ،

وهالة حر مهضوم ، يبذل جهده ليعين أسرتها ويسدد خطى الجنرال العجوز الأحمق ،
لقد عرفت زور هذا المخلوق ، وأدركت خبث مذاهبه ، ولكن هذا الكشف لن يؤثر
فى عقلها شيئاً ، أعطها دى جرييه القديم ، لا تسألك شيئاً آخر إنها كلما أبغضت دى
جرييه الحاضر ، ذابت أسى على دى جرييه الماضى ، ولو أن هذا الأخير ، لم يعيش قط
إلا فى مخيلتها أظنك تملك مصنعاً لتكرير السكر يا مستر أستلى ؟

– أجل إنى شريك فى مصنع لوقل وشركاه للتكرير .

– حسناً رأييت يا مستر أستلى ؟ فى أحد الجانبين صاحب مصنع لتكرير السكر ،
وفى الجانب الآخر أبولون دى بلقدير أما أنا ، فلست شيئاً حتى ولا مكرر سكر ، ما
أنا إلا مقامر ، وقد كنت خادماً أيضاً ، ولا بد أن المدموازيل پولينا على علم بذلك ،
فإن أرى أن لها عيوناً تمدها بالأخبار فأجابنى المستر استلى بأعظم ما يكون
من الهدوء .

– إنك تقول هذا لأنك تائر الأعصاب ، ومع ذلك فلست أرى فى مزاحك شيئاً
من الطرافة .

– أنت على حق ، ولكن يا صديقى النبيل ، أليس من أفضح الأشياء أن هذه
التعابير المبتذلة البالية ما تزال صادقة ؟ أرانا نحن المحدثين لم نأت بجديد ! قال
المستر أستلى وصوته يرتجف وعينه تلمعان :

– أنت تهذى ... أعلم ... أعلم أيها الكنود التعس ، أيها الضائع الشريد ،
أنى ما جئت إلى همبورج إلا لأنها كلفتنى أن أراك وأن أحدثك حديثاً ودياً طويلاً ،
ولأنها رجتنى أن أحمل إليها أفكارك وأمالك ... وذكرياتك .

صحت :

– حقاً ! حقاً !

وسالت من عيني دموع محرقة يخيل إلى أنى ما بكيت قبلها قط .

– أجل أيها التعس ! إنها كانت تحبك ، وأستطيع أن أصرح لك بهذا ، فأنت رجل
ضائع ، وأستطيع أن أقول لك إنها ما زالت تحبك ، ومع ذلك سوف تبقى حيث أنت !
أجل إنك ضائع ! كانت لك مواهب نادرة ، وشخصية حية ، كنت رجلاً ممتازاً ، كنت
تستطيع أن تنفع وطنك ، وما أحوجه إلى الرجال ! ولكنك ستبقى هنا ! إن حياتك
مقضى عليها ، لست ألومك على هذا ، فكل الروس فى نظرى مثلك ، وهم على استعداد
لأن يسلكوا تلك الشعاب المضلة ، من لم يهلك بالقمار هلك بغيره ، قليل منكم من يشذ

عن هذه القاعدة ، ولست أنت أول من لم يفهم قانون العمل ، إن الروليت هي لعبة الروس التي فطروا عليها لقد كنت شريفاً حتى الآن ، وقد فضلت الخدمة على السرقة ، ولكن مستقبلك يرعبنى ! كفى ووداعاً ! .

لعلك فى حاجة إلى النقود هاك عشرة جنيهات ذهباً ، اذهب وقامر بها . خذ ... ووداعاً .. قلت لك خذ ! ..

- كلا يا مستر أستلى ، بعد كل ما قلته لى ...

صاح :

- خذ إنى واثق أنك ما تزال شريفاً وإنى أعطيك هذه منحة صديق لصديق ، ولو كنت واثقاً أنك ستكف عن القمار وتعود إلى وطنك ، لقدمت إليك على الفور ألف جنيه لتبدأ عملك ولكن ألف جنيه وعشرة جنيهات سواء عندك الآن ، فستفقدوها على الحالين ، خذ ووداعاً .

- سأخذها على شرط أن تسمح لى ، قبل أن تذهب ، بأن أعانقك ،

-أوه ! بكل سرور .

وتعانقنا ، وافترقنا .

ولكنه كان مخطئاً فلئن قسوت فى حكمى على پولينا ودى جريبه ، لقد كان بلا شك قاسياً فى حكمة على الروس عامة ، إننى لا أدافع عن نفسى ، ولكن ، ولكن هذا كله كلام ، كلام لا يغنى ، إننى فى حاجة إلى أن أعمل يجب قبل كل شىء أن أسرع إلى سويسرا غداً ! غداً ! اه لو أستطيع أن أرحل غداً وأن أولد من جديد ، وأن أبعث من بين الأموات ! ولكنى لا أستطيع ، ولكنى يجب أن أظهر لها ما أستطيع عمله .. يجب أن تعلم پولينا أنى ما زلت قادراً على أن أكون رجلاً ... لم يبق وقت اليوم ... ولكن غداً أوه ! إنى لأشعر أن هذا هو الطريق الوحيد .. معى خمسة عشر جنيهاً وقد بدأت بخمسة عشر فلورنيا ! إذا سرت بحدس . لا لا ! إنى لست أحمق ! .. ولكن لم لا أبعث من بين الأموات ؟ .. شيئاً من العقل والصبر -- وأنجوليس على إلا أن أضبط نفسى ساعة واحدة ، فيتغير مصيرى كله ، لا بد من الشخصية هذا هو المهم ، فلا ذكر ما حدث لى منذ أشهر فى رولتبرج ...

.... كانت لحظة أثبت فيها أنى قادر على العزم والتصميم ، لقد خسرت كل ما كنت أملك ، وأخرج من الملهى فأجد فى جيب صدارى فلورينا آخر ، فأحدث نفسى : إذن فمعى ما أتعشى به ولا أكاد أخطو مائة خطوة حتى أعود أدرأجى إلى بهو القمار ، وأضع فلورينى على "المالك" حقاً إن ههنا شيئاً غريباً رجل وحيد ، بعيد عن وطنه ، بعيد عن أصدقائه، يخشى أن يبيت على الطوى - هذا الرجل يقامر بأخر فلورين معه لقد ربحت ، وبعد عشرين دقيقة خرجت وفى جيبى مائة وسبعون فلورينا . غريب ! هذا هو فلورينى الأخير ! وماذا كنت أصبح لو أعوزتنى الشجاعة غداً ، غداً ، سوف ينتهى كل شىء .

الكتاب الثالث

چورج ديها مل

اعتراف منتصف الليل

تعريب

شكري محمد عياد

تقديم

لا أعرف كاتباً صور محنة الفردية فى هذا العصر كما صورها جورج ديهامل . ولك أن تقول : محنة الفردية ، أو محنة الفرد ، حسبما يحلو لك من رغبة فى التجريد الفلسفى أو التخصيص الإنسانى ... وأنت مصيب على الحالين ، فهى محنة يعانىها الأفراد المثقفون اليوم ، لا فى فرنسا وحدها بل فى كل بلد مسته الحضارة الصناعية والإنتاج بالجملة . ومصدر هذه المحنة إحساس هؤلاء المثقفين نوى الذكاء اللامع أو الإحساس المرهف أو الخيال الوثاب ، بأن هذا المجتمع الحديث لم يعد محتاجاً إلى ذكائهم اللامع ولا إلى إحساسهم المرهف ولا إلى خيالهم الوثاب ، بل لعله ينظر إلى هذه الأمور التى كانت تعدّها الإنسانية من قبل ميزات نظرة الشك والارتياب ، لأنها أصبحت تعد فى دينا العمل عوائق ومعطلات وهم يلاقون من ذلك عناء غير قليل ، حتى ليضطرون إلى إحدى اثنتين : إما أن يستبدلوا بذواتهم الحساسة ذواتاً أخرى أشبه بالآلة فى انتظامها ودقتها ، وأكثر انطباقاً على ما يتطلبه المجتمع الحديث ، وإما أن ينسوا أنهم أفراد ، ويلقوا بأنفسهم إلقاء فى جيش الساخطين على هذا المجتمع ، المعدين العدة لتغييره وفق ما يتراعى لهم أنه الحق والصواب . وهم على الحالين لا يستطيعون الاحتفاظ بفرديتهم ، وقلما ينجون من هذا القلق الذى ينوشهم من كل جانب ، وقلما يصلون إلى حالة من السلام النفسى الذى ينشدونه . وأكثرهم ينطوون على أنفسهم ، ويجترون إحساساتهم ، ويطعمون أحلامهم وآلامهم ، وربما وجدوا فى الألم لذة أكبر ، لأنه لا يلوح لهم بأشياء مستحيلة ، ولا يعرضهم لخيبة قاسية .

هذه الفرقة من الناس ، إذاً ، ظاهرة بارزة فى الحياة الإنسانية لعصرنا الحاضر ، يعنى بها علماء الاجتماع ، وعلماء النفس ، والفلاسفة ، والأخلاقىون ، والأدباء ، والفنانون ولعل مما يزيد عنايتهم بها أن هذا الفريق من الناس هم الجمهور الأكبر من قراء الأدب والفلسفة وأهل الفكر ، ومتنوقى الفن ، فكأن رجال الفكر والفن إذ يعالجون مشاكل هذا الفريق من الناس إنما يعالجون مشاكلهم هم أنفسهم فى نطاق أوسع ، وكأن هذا الجمهور إذ يطالع مايكتبه له الأدباء والمفكرون إنما يطالع نفسه بين السطور .

كتب جورج ديهامل سلسلة من خمس قصص تدور كلها حول محنة الفردية فى العصر الحديث ، أى حول التنافر بين الفرد ونفسه ، وبين الفرد ومجتمعه . وابتدع فى هذه القصص شخصية « سلاقان » ، وهى شخصية لا تقل حياة ولا صدقا

ولا عمقاً عن شخصية « هملت » أو « دون كيشوت » . هي شخصية ذلك المثقف المرهف الحس الذى يلفظه المجتمع الحاضر ، على أن ديهامل لا يتخذ بطله من أولئك المثقفين نوى الثقافة العالية المنظمة ، وإنما هو رجل من عامة الشعب ، لم ينل ما اصطلاح الناس على تسميته بالثقافة العالية ولا الثقافة الثانوية ، ولكنه قرأ كثيراً وفكر كثيراً . يقول لصديق : « إنتى فقير ، وقد كنت فقيراً دائماً ، فدرست كما يدرس الفقراء ، أعنى أنتى درست دراسة فقيرة . وقد ألمنى ذلك وبخاصة فى السن التى يتألم فيها المرء لمثل هذه الأمور . ثم أخذت أثقف نفسى بنفسى ، وعلى قدر استطاعتى ، فأنا أعلم اليوم أكثر مما يعلمه غالبية البورجوازيين فى مثل سننى ، ولكن الراجح أنى لم أتعلم هذه الأشياء بطريقة منظمة كما تقول . ومن ثم لا يعدنى الناس مثقفاً . وأصدقك القول إننى مستتنى العدوى من أفكار الناس عنى فأصبحت أشك أنا أيضاً فى ثقافتى . إنها لثقافة طيبة لا تخلو من رسوخ وغنى ، ولكنها ليست ثقافة «أصيلة» . لا ضير ! إننى مثابر على القراءة . »

وهو يقضى سحابة نهاره فى بعض تلك المكاتب التى تؤوى عشرات أو مئات من طبقته يؤدون أعمالاً تافهة . وهو مشغوف بالموسيقى . غير أنه يقول : « ولكنى حين أجاهد التى لا يبدو على أنتى أفهم شيئاً مما أوقعه ، على حين أن أودين مثلاً - وهو ينفخ فى الناي أيضاً - أودين هذا الذى لا يفهم شيئاً من الموسيقى ، ولكن له أصابع متمرنة ، يخيل إلى من يسمعه أنه مشبوب الوجدان ! » .

وقد تسأل : لماذا جعل ديهامل بطله مثقفاً عامياً وفناناً عاجزاً ، ولم يجعله رجلاً ممتازاً فى ثقافته أو فنه ؟ ألا يكون فى هذه الصورة الأخيرة أصدق تمثيلاً لمشكلة المثقفين فى هذا العصر ؟ ولكننى أذكرك بأمرين اثنين : أولهما أن ديهامل لا يعالج مشكلة المثقفين الممتازين بوجه خاص ، بل مشكلة كل من يتغلب فيهم جانب الفكر والوجدان على جانب العمل ، وطبيعى ألا يبلغ هؤلاء جميعاً رتبة العبقرية . والأمر الثانى أن القصة والأدب على العموم قد اتجها وجهة شعبية منذ ظهر المذهب الواقعى فى الأدب واتخذ موضوعاته من الحياة العادية - حياة الناس العاديين . لم يبق الأدب تصويراً لحياة الأبطال وصراعهم ، بل أخذ أشخاصه من زحمة الحياة العادية التى تعج بشتى صنوف المأسى والمساخر . ولعل هذا هو الأثر الخالد للمذهب الواقعى فى التراث الأدبى الإنسانى ، فما أظنه قد أصبح فى استطاعة الأدب فى حاضره أو مستقبله أن يترفع عن مشاكل جماهير الناس مهما تكن طبقتهم أو ثقافتهم أو نحلتهن ، ولا أن ينتزع العواطف الإنسانية من مجالها الطبيعى ، ليضعها فى إطار

من العظمة المصنوعة . وقد ظهر المذهب الطبيعي وعميده زولا بعد المذهب الواقعي ، فزاد هذا الاتجاه بالأدب نحو الشعب قوة ووضوحاً . فديها مل محافظ إذاً على تراث الأدب الفرنسي الخالد ، وهو في الوقت ذاته دقيق الإحساس بالمشكلة التي يعالجها حين يختار بطله نكرة من النكرات ، أو كما يقول هذا البطل عن نفسه : « رجلاً لا يختلف في شيء عما ألفه الناس ، رجلاً يشبه كل الرجال إلى حد مخيف ! » .

ظهرت قصتنا Confession de Minuit - وهي الأولى من مجموعة سلاقان - سنة ١٩٢٠ ، ثم تلاها «رجلان» Deux Hommes سنة ١٩٢٤ ، و«يوميات سلاقان» Journal de Salavin سنة ١٩٢٦ ، و«نادي ليونيه» Le Club des Lyonnais سنة ١٩٢٩ ، وأخيراً : « كما هو » Tel Quen Lui-meme سنة ١٩٣٢ .

حلل ديها مل في القصة الأولى عناصر التناقض بين الفرد ومجتمعه ، وبين واقع الفرد وآماله ، وبين أفكاره وأعماله . صور ذلك كله منعكساً على ذهن سلاقان ، فهو لا يقص أحداثاً ، بل أفكاراً بلغت من قوتها وتمكنها مبلغ الأحداث ، فهي أحداث بالنسبة لصاحبها ، وهي مغامرات حقة تمسك أنفاسك وأنت تقرؤها .. أحداث هذه القصة لا تعدو أن سلاقان يفصل من عمله التافه إثر حادثة يحسبها الناس حمقا وشذوذاً ويراهم هو عملاً ضرورياً يرد إليه ثقته بأنه إنسان يعيش بين أناسي . وليس بعد ذلك إلا البطالة والتشرد والفاقة ، وأحلام الحرمان ، وأوهام القلب الوحيد .

وفي القصة التالية «رجلان» نرى سلاقان الصديق ... نراه في ضوء تلك الصلة النفسية العميقة التي تكشف من أسرار النفوس ما لا تكشفه الأفكار ولا الأحلام ولا الأوهام . وصديقه لا يشبهه في شيء من الأشياء . إذا كان سلاقان مثال الرجل الذي لا ينسجم فكره وعمله فأدوار مثال الرجل الذي يقيس فكره على قدر عمله . وإذا كان سلاقان مثال الرجل الساخط على وجوده فأدوار مثال الرجل الراضى عن وجوده . وإذا كان سلاقان مثال الرجل الخائب الذي يزداد انحداً كل يوم فأدوار مثال الرجل الناجح الذي يزداد كل يوم صعوداً . إدوار هو على الجملة صورة حية للمجتمع الحديث . هو الرجل الذي تخضع حياته لنظام لا يحيد أو لا يكاد يحيد . هو الرجل الذي يترجم جميع أفكاره إلى أعمال ، وجميع دوافعه ونوازعه إلى مصالح . هو الرجل الذي تنسجم رغباته مع واقع الحياة ، حتى لتحار : أيهما يستجيب للآخر ... أهو وكيف وجوده طبقاً لواقع حياته ، أم هي أحداث الحياة تنساق وراء رغباته ؟ يعرف سلاقان من مطعم كانا يترددان عليه ، وكأنه يحس فيه ضعفاً وعجزاً عن المضى في تيار الحياة الزاخر ، فيود لو يسنده بذراعه القوية ، ليزداد التذاذاً بقوته ويقبل سلاقان - بعد

تردد - هذه اليد الممدودة إليه ، ويبذل له الصديق من جاهه وماله ، ويقبل سلاقان هذه الهبات أيضا ، ولكن على حساب كرامته وكبريائه ، حتى إذا ضاق صدره بعد سنين طوال من هذه الصداقة غير المتكافئة ، ثار على ما ألقى فيه من عبودية ، وفارق صاحبه فراقاً غير جميل .

والقصص الثلاثة الأخيرة تصور صراع سلاقان لتحقيق فرديته ، فإنه لم يحدد بعد مطلبه من الحياة ، وإنما كانت نفسه أشبه بصندوق رنان ، كل عمله أنه يضخم الذبذبات التي تصل إليه من الخارج . ولكنه قد بدأ يحس نزوعاً إلى إكمال نفسه ، فصاحبه يقول له قبل أن يفارقه : « ما بك ؟ » فيجيبه : « بى كل ما ليس بى ... أشياء لا تستطيع أن تمنحني إياها يا إدوار ... السلام . السعادة . روح خالدة . الله » .

ويعود سلاقان إلى وحدته المريية اللذيذة ، ويستدبر أعوامه الأربعين ، وقد شغل بتحديد وجهته في الحياة . فهو يقول عن حياته في تلك الأعوام : « أربعون سنة ولم أفعل شيئاً ! أعنى أننى لم أقض شيئاً ولا أتممت شيئاً .. ولو مت هذا المساء ما استحققت أن يذكر اسمى على لسان ، ولا أن تبقى صورتي في ذاكرة . ليتنى لا أموت هذا المساء ! دعاء أرفعه إلى الفضاء ، ولنقل إننى أسأل القدر ، ما دمت لا نعرف غيره ؛ فما أظن أن الدعوة الحارة لا تجد صدى ولو لفظت في الصحراء » . وهو ينظر في أمره كله ويقلبه على جميع وجوهه ، حتى إذا استقبل عامه الأول بعد الأربعين كان قد استقر عزمه على أن يتأله ، أو يكون قديساً ، فهو يبدأ « يومياته » ليسجل خطواته في هذا السبيل .

ولكنه لا يؤمن بالدين . فهو لا يريد أن يكون قديساً كقديسى الكنيسة ، بل يريد أن يحيا حياة القديسين ، يريد أن ينعم بلذة الفضيلة ، يريد أن يرفع الفضائل النفسية - فى ذاته هو - إلى أوج من العظمة . وهو يرى أنه بهذا يفى بحاجة من حاجات العصر : يفى بحاجته إلى قديسين ، فقد كان لكل عصر قديسوه ، ولكنه لا يرى لهذا العصر قديسين .

ويأخذ فى جهاد نفسه جهاداً منظماً ، يدونه فى « يومياته » ، وكلما خرج من معركة من هذه المعارك النفسية وجد نفسه مريضاً أو مستغفلاً أو محتقراً .. ووجد أنه لم يبلغ من فضائله المنشودة شيئاً . ذلك لأن قديسى العصور القديمة كانوا يمارسون فضائلهم معتمدين على إيمان وثيق بالله واليوم الآخر ، كانوا يعتقدون أن الحق فى جانبهم وأن الله معهم ، فكان فى أفعالهم ثقة واطمئنان وجلال . أما هو فلا يؤمن بقوة

خارج نفسه ، ولا يبحث فى جهاده إلا عن نفسه ، ففضائله تبدو سخيفة مضحكة إذ يعوزها الوسط الذى لا تعيش وتنشط إلا فيه ، وكأنما هو رجل يحرك شفتيه بالفناء فلا يتجاوز غناؤه حنجرته .

ويتمنى سلاقان أن يؤمن ، ويرتاد الكنائس ، ويعترف ، ولكنه لا يحس فى هذه التجارب كلها شيئاً من الصدق ، إنما هى حركات وأقوال لا تصدر من قلوب قائلها ، ولا تصل إلى قلوب سامعيها . هى أشبه بالبقايا المتحجرة من عصور إنسانية بائدة . ويكتب إلى قس بروتستنتى يسأله النصيحة لروح ضالة ، فيكتب إليه كتاباً . موجزاً ذا رقم وتاريخ ، ويحدد له ساعة يلقاه فيها بعد أسابيع ... ويقابله فى مكتب كمكاتب رجال الأعمال ، وإذا هو أمام قس يرشد الأرواح الضالة « بالجملة » ، على طريقة الإنتاج بالجملة ويرد الإيمان إلى النفوس الحائرة بأحدث أساليب التحليل النفسى .

لا يستطيع سلاقان ، إذاً ، أن يكون قديساً . وتنتهى هذه التجربة الأليمة بمرض طويل فى مستشفى مجانى ، دخله إثر حمى أصابته لأنه قدم معطفه وحذاءه - فى الشارع وفى ليلة من ليالى الشتاء - إلى أفاق لئيم ، لم يجد ما يعطيه إياه فأثر أن يقدم إليه كساءه على أن يحتمل نظرة الشك التى صوبها إليه . ويخرج سلاقان من المستشفى وقد أكسبته هذه التجربة نوعاً من الهدوء ، ولكنه ما زال يبحث ... يبحث / بالمعنى المطلق لهذا الفعل ، كما يقول . ويهديه البحث إلى « نادى شارع ليونيه » ، وهو ليس بناد على الحقيقة ، وإنما هو حانوت إسكاف فقير يجتمع فيه بعض الشيوعيين الثوريين الذين يدعون إلى مجتمع جديد ، يجتمعون فيه خفية ليتباحثوا فى مشاكلهم ويدبروا أمورهم ، وإن كنا لا نعرف ماذا يدبرون بالضبط لأننا نراهم بعينى سلاقان . وليس سلاقان واحداً منهم وإنما هو فى اصطلاحهم « عاطف » ، وكما يقول أحدهم : « من أولئك المثقفون الذين ينزلون إلى الشعب . طراز ١٩٠٠ » . فهم لا يطلعونه إذاً على كثير من أسرارهم ، ولكنه يفهم أنهم يطمحون إلى حياة أسعد ، ويراهم يعيشون عيشة خشنة ، ويعلم أنهم يلاقون ألوان الاضطهاد ؛ ونفسه تزاغة إلى السمو ، ذواقه للألم ، فبينما هو يفكر أن يلقى بنفسه فى تلك النار يعلم من أمرهم ما لم يكن يعلم ، فهم ثوريون فنيون ، لا يبالون كثيراً بالفرد ، لأن همهم تغيير المجتمع . عندئذ تنفر منهم فرديته فيقول لهم : إننى لا أسمح لنفسى بانتقاداتكم وأغلب ظنى أنكم مادمتم مقدمين على هذا الأمر فثم ما يدعوكم إلى ذلك . ولكنكم تستطيعون أن تغيروا ما يسمى النظام ، وتستطيعون أن تخلقوا الطبقة الحاكمة ، تستطيعون أن تغيروا كل شئ ولكنكم إذا لم تغيرونى أنا - أنا سلاقان مثلاً - فإنكم لم تغيروا شيئاً ! » .

فإذا سأل سائل منهم : « لماذا تلح هكذا فى تغيير نفسك ؟ » أجاب فى صوت خفيض ولكنه واضح يسمعه الجميع : « لأننى لأننى جبان . » .

ويعكف وحده على هذه الفكرة يديرها فى نفسه حتى ينتهى فيها إلى نوع من الفلسفة . إنه يريد أن يغير روحه ، ولكن ليس فى ذلك شىء من المغالاة ولا الاستحالة بل إنه تجربة معقولة . فروجه ليست إلا أربعين سنة من العادات والحوادث والأفكار والإشارات والأقوال . إنها الحى الذى يعيش فيه ، والمنزل الذى يسكنه ، وملابسه وأثاث بيته ، وزوجته وأمه العجوز إن ما يسميه روحه هو ذلك العالم المألوف الذى يضغط عليه ويخنقه ، والذى يريد هو أن يرفعه عن عائقه ويطوح به ...

ولكن سلاقان لا يفارق أصحابه الثوريين حتى يدهمهم البوليس ويقضى ليلة فى السجن ويعود إلى داره فى صبيحة ذلك اليوم ليجد أمه تهلك أسى

وكأنما انفسح له المجال لينفذ مشروعه الجديد ، فهو يودع زوجته ب خطاب قصير ، ويمضى ليحرب أن يكون رجلاً آخر غير سلاقان . وقد تعلم فى هذه المرة إلا يطمح إلى أفعال رائعة لن يحاول أن يكون قديساً ، بل يكفيه أن يكون إنساناً يخفف آلام المنكوبين من البشر ، وما أكثرهم . فنراه فى القصة الأخيرة « كما هو » يعيش فى الجزائر باسم « سيمون شافجران » ، وكيلاً لشركة فونوغرافات ، وقد حلق لحيته واستبدل بنظارته المعدنية عوينات ذهبية الإطار ، وأصبح يحظى بإجلال عارفيه لأنه لا يفتأ يضرب الأمثال على تضحيته وإيثاره وحبهِ للإنسانية . فهو قد أنقذ صبية صغيرة من بين عجلات القطار فى مرسيليا ، وهو قد تبرع بدمه لجريح ، وتطوع لتمرير المصابين بالطاعون ، ثم هو يرعى خادمه « مختاراً » ويعلمه القراءة والكتابة ، ويحاول أن يثنيه عما هو منغمس فيه من قبيح العادات ، إذن فقد بدأ يمارس أعمال الخير حقاً ، ولم يعد يجرب اكتساب الفضائل بطرق خيالية ، بل أصبح لأعماله مضمون واضح .

ولكنه على ذلك كله غير راض عما يفعل ! لماذا ؟ إنه غير مجرد من كل تفكير جماعى ، فلعله يرى أن طبيته وإنسانيته لا تستطيعان أن تخففا شيئاً من هموم البشر الثقيلة ، ولكن ضيقه يرجع إلى سبب آخر أهم من هذا ، فهو لم يقدم على هذه التجربة الكبيرة إلا لينقذ الإنسانية فى نفسه أولاً ، بأن يكون إنساناً خيراً فيما يأتى وما يدع ، عن سليقة وعادة لا عن تفكير وإرادة . وهو يرى أنه لم يبلغ من ذلك شيئاً ، فهو يرتد ثانية إلى نفسه ، ويصارع صاحباً له : « كيف يستطيع المرء ألا يكون إلا ما هو ؟ وكيف يحاول أن يكون غير ما هو بغير أن يصيبه الجنون ؟ » .

هو إذا لم يتقدم خطوة منذ فكر أن يغير روحه ، ولكنه يتعلم شيئاً واحداً : يتعلم أن « العمل الطيب إنما هو ثمرة تفكير يوازن ويختار . أنه النتيجة الثابتة لصراع باطنى كبير . » وتدخل هذه الحكمة على نفسه شيئاً من الهدوء ... فهو يستطيع إذاً أن يصل إلى السلام النفسى الذى ينشده عن طريق هذا الصراع الباطنى الموجه دائماً نحو غرض طيب .

وتأتى نهاية سلاقان فى عمل من هذه الأعمال الطيبة .

قتل خادمه مختار بائعاً إيطالياً برصاصة مسدس ، وكان سلاقان يستطيع – بشيء من حضور الذهن – أن يمنع الحادث ، ولكنه لم يفعل ، واعتصم الخادم بقبو المنزل فسار إليه سلاقان يضرع إليه أن يخرج ويعده بأن يدافع عنه ، وإذا بالخادم يرديه بمسدسه .

عمل من أعمال الطيبة . عمل يودى بصاحبه دون جدوى ولكنه يأتية بالسلام النفسى الذى ينشده ، لأنه انتصار على تردد النفس وجبنها ، ومواجهة للجهل والظلام والشر ، ولأنه لطف ورحمة ، ولأنه عفو ومغفرة ؛ وتلك هى الفضائل النفسية التى جاهد سلاقان ليبلغها ، فليكن عزاؤه إذ لم يحظ بها فى حياته ، أنه أحسها فى مماته ، وليكن عذره إذ لم يبلغ السلام النفسى الذى ينشده ، أنه دفع حياته ثمناً له !

* * *

وقد أردت بهذه المقدمة شرحاً وتفسيراً ، ولم أرد نقداً وموازنة . على أنى أكتفى بأن أقول إن سلاقان الشاب أحب إلى من سلاقان الكهل ، ولعل القارئ يشاركنى فى هذا الحكم ، فإن سلاقان الكهل أبعد عن الواقع ، وأقرب إلى أن يكون دعاوة لأفكار الكاتب ، وسلاقان الشاب أروع سخرية وأقل تشاؤماً على رغم ما ينتابه من يأس عنيف .

شكرى محمد عياد

أنا لا أكره السيد سيرو ، إننى جد أسف لأنى فقدت وظيفتى ، وهى وظيفة طيبة ، ولكنى لا أكره السيد سيرو ؛ فقد كان على حق ، ولست أدرى ماذا كنت أصنع لو كنت فى محله ، وإن كنت أفهم - ويا للأسف ! - أشياء كثيرة .

ويجب القول إن السيد سيرو لم يشأ أن يفهم . وكان يلزمنى أن أوضح له كثيراً من الأمور ، ولكنى بعد أن وزنت الأمر فضلت ألا أوضح له شيئاً . ثم إن السيد سيرو لم يدع لى فرصة لأتمالك نفسى ، وأبرر مسلكى . فقد كان محتدأ ، ولأقل فى غير موارد إنه كان غليظاً ، بل كان فظاً . لا ضير ، فليس يخطر ببالى أن أكرهه .

أما السيد جاكوب فالأمر معه مختلف ، فقد كان بوسعه أن يفعل شيئاً من أجلى ، وقد رآنى أعمل خمس سنوات ، كل يوم ، فى الصباح وفى المساء ، وهو يعلم أنى لست امرءاً خارقاً للعادة ، إنه يعرفنى ، أى أنه - فى أرجح الرأى - لا يكاد يعرفنى . على كل حال ! كان يستطيع أن ينطق بكلمة - بكلمة واحدة ، ولكنه لم ينطق بهذه الكلمة ، ولست ساخطاً عليه لذلك ، فإن له زوجة وأولاداً ، وسمعة لا يستطيع أن يقامر بها .

ولا شك أنى لو قلت ما أعلمه عن السيد جاكوب ... ولكن لينم قريراً ، فلن أقول شيئاً . إنه لم يدافع عنى ، ولم يخلصنى ، ولكنى حين أزن كل الأمور لا أجد فى نفسى كراهية له أيضاً . فهؤلاء الناس ليسوا ملزمين أن يدخلوا فى اعتبارهم أشياء معينة . ولقد كان فى هذا الحادث مجموعة من الظروف الشديدة الإيلام . فلنسلم الآن أنى كنت وحدى المخطئ ، وما دام حال العالم كما تعرف فلا أقل إنى كنت مخطئاً . وسنرى بعد ! .

لقد مضى على هذه الحادثة وقت طويل ، ولولا أنك هجت ذكريات سيئة ما حدثتك عنها : ثم إنى قد وقعت لى أشياء كثيرة منذ ذلك الوقت ، فربما أكون قد نسيت بعض التفاصيل . ويجب أن أنبهك إلى أنى لم أر السيد سيرو غير ثلاث مرات ، وهذا قليل فى مدى خمس سنين ، وهو راجع إلى أن بيت سوك وسيرو بيت عظيم جداً ، فليس فى وسع هذين السيدين أن يعقدا صلوات مع موظفيهما الذين يبلغون الألفين . أما عملى أنا فلم يكن له أدنى صلة بالإدارة .

و ذات صباح بدأ التليفون يدق . ولست أدري أأنت من أولئك الذين تؤثر في حواسهم الأجراس والنواقيس وسائر هذه الأجهزة الجهنمية ؟ أما أنا فأستفظعها . وإن وجود جرس كهربي في المكان الذي أنا فيه ليكفي لتكدير حياتي ! ولهذا السبب وحده أغتبط أحياناً بتركي الخدمة . إن صليل الجرس ليس صوتاً كغيره من الأصوات . إنه مثقاب ينفذ فجأة في جسمك ويخز أفكارك ، ويقف كل شيء حتى نبضات قلبك . إنه شيء لا يؤلف .

ها هو ذا التليفون يدق . فيصغي كل من في المكتب ، دون أن يبدو عليهم ذلك . وينقطع الصليل فينتظرون .. لست أشد عصبية من غيري ، ولكن هذا الانتظار أيضاً قطعة من العذاب ، فنحن ننتظر لنعلم أتكون هناك دقائق أخرى أم لا تكون .

فإذا كانت دقة واحدة فهي للسيد جاكوب . وإذا كانت دقتين فهما لفلوج السويسري . أما أنا فأذهب إذا دقت ثلاث دقائق . ولابد أن الدقات الثلاث أصبحت لأودين بعد أن ذهبت ، وكان على عهدي ينادي بأربع دقائق . أودين ! إنه ليس عصبياً هو أيضاً ، ولكنه لا يكاد يسمع الدقة الأولى حتى يأخذ في قرض ظفره ، عن غير وعي بالطبع ، حتى أصبحت لإصبعه تلك مجلة متقلة .

وفي اليوم المذكور دقت دقة واحدة لا غير دقة كبيرة طويلة مستقيمة ، فيها ثقة تؤذي .

فيخرج السيد جاكوب من وراء ستره ؛ يخرج من كنه ، حيث يرباط كحصان السباق في حظيرته ، ويرفع السماعه ويميل معتمداً برأسه على الحائط ، حيث ترك شعره على مر الزمن بقعة مزيتة .

ويبدأ الحديث وأنا شبه مصغ . وعجيب دائماً أن ترى رجلاً طيباً يحدث العدم ويبتسم له ويتلطف إليه . رجلاً طيباً يحدق فجأة إلى الدهان البني على الحائط وكأنه يرى شيئاً يثير الدهش .

على أن السيد جاكوب لم يبتسم في ذلك اليوم ، ولم يتلطف ؛ فقد ارتبك منذ سمع الكلمات الأولى ثم علاه الاحمرار ؛ ثم أغضى وجعل يتأمل المدفأة الكهربائية القابعة في ركنها شتاء كأنها كلب صغير ساخط .

أما أنا فكنت أبرى قلماً ، وغنى عن البيان أني كنت أكسر سنه بين لحظة وأخرى . وسمعت السيد جاكوب يدمدم : ولكن ياسيدي ، لكن ياسيدي ففكرت

فى أعماق نفسى « إن أعاد » لكن ياسيدى « هذه فلسوف أنهض وأصفعه صفة تصك رأسه بالحائط ! » .

وأنا دائماً أحدث نفسى بأشياء كهذه . والواقع أنى أمرؤ شديد الهدوء وأنى لا أكاد أفعل شيئاً من هذه الأشياء التى أحدث بها نفسى . وأنت تدرك أنى لم أكن لأصفعه ، ولكنى لم أزل أكسر سن قلمى وأوسخ أطراف أصابعى . وذكرنى السيد جاكوب بأولئك الوسطاء الروحانيين الذين يدعون مخاطبة أرواح الموتى ، والذين يخلعون عليها - آخر الأمر - نوعاً من الحياة . فقد كانت تسمع - حين يصمت - ضوضاء خشنة ، كأنها آتية من آخر الدنيا أميز فيها - قليلاً قليلاً - صرخات صوت مغضب .

وانتزع السيد جاكوب نفسه من الجهاز فجأة، ووضع السماعه متحسناً مكانها، ومخطئاً الخطاف ثلاث مرات قبل أن يعثر عليه . فاستبد بى الغضب ولكنه - بلا شك - لم يبد على . وأفلحت أخيراً فى أن أبرى قلمى برية جيدة ، ومسحت أصابعى فى طرف سراويلى ، حيث لا يظهر أثر الرصاص .

ويمضى السيد جاكوب إلى كنه ، ويفتح صناديق من الورق المقوى ويقرقع بأوراق ثم يصيح فجأة :

- سلاقان ! تعال هنا برهة !

كنت واثقاً أن ذلك سيحدث . فنهضت طائعاً ، وجدت السيد جاكوب ينتزع شعرات أنفه ، وهذه عنده علامة قلق شديد . قال لى :

- خذ هذه الكراسية واحملها أنت إلى السيد سيرو . ستجده فى حجرته بالإدارة . قل له إنى أصبت بوعكة مفاجئة .

ووقف عند هذه العبارة ، ومد بصره نحو النافذة وهو يطرف بعينيه ، لينظر إلى شعرة من خيشومه . ثم وضع الشعرة على نشافة وأضاف وهو يكبح رغبة شديدة فى العطس ملأت عينيه بالدموع :

- هيا يا سلاقان ، أسرع !

ولكى تصل إلى مكتب السيد سيرو يجب أن تمر بأجزاء كثيرة من البناء . وحين تكون النوافذ مفتوحة فى الصيف ، والأبواب منفرجة لتدخل النسيم ، يلمح المرء أقساماً متعددة بعضها فوق بعض ، والرجال وهم يعملون فيها .

فمن هؤلاء من هم غارقون حتى صدورهم فى مكاتب أمريكية مركبة الصنع كالآلات الميكانيكية . ومنهم من يتدلون ذابلين من قمم كراسى عالية بغير مساند ، مدببة كالعصى . وهناك جدران عريضة ، مغطاة بصناديق الأوراق ، تذكرنى بمقبرة بيرلاشيز ، ويمر أمامها - على معرات مرفوعة فى الهواء - صبيان أو ثلاثه ، يبدو عليهم الدأب وكثرة العمل كأنهم نحل العسل. وربما تسمع نقراً كصوت شؤبوب المطر، فتدخل بهواً واسعاً يعزف فيه الكتبة على الآلات كالمجانين ، موسيقى كموسيقى العاصفة ، تتخللها دقات أجراس قصيرة . وترى فى غير هذا المكان كوى تذكرك بالقط المبتل والفراء الغليظ ، فى أسفلها رجال يضغطون سجلات النسخ تحت المكبس ، وهم يقبضون أيديهم بشدة ويعضون على نواجذهم . وبالإجمال كانت اللوحة كلها تمثل مكانا كل ما فيه منتظم ، أى أنها كانت تمثل شيئاً لا يمكن أن يقارن بالفردوس الأرضى .

وفى الدهليز الموصل إلى مكتب السيد سيرو خادم نو سترة رسمية وجورب أبيض . سألنى عن رقم القسم الذى أعمل به ودفعتنى إلى غرفة فسيحة وهو يتمتم :
- إنه ينتظرك .

- فعرفت لتوى حجرة السيد سيرو ، وإن كنت لم أدخلها غير مرة واحدة إذ أنى رأيت السيد سيرو فى المرتين الآخرين فى قسمنا . رأيت جدران الغرفة مغطاة بورق أزرق داكن ، وحواف النوافذ والأبواب مدهونة بلون حلوى العنب ، وفى أحد الأركان نموذجاً « لدراسة وذراية سوك وسيرو » وعليها أوسمة المعارض .

وكان هو هناك ! ولعلك تعرفه وتعرف أنه رجل قوى البنية نوعاً طويل القامة ، حليق الرأس ، له شارب منتفش ولحية صغيرة خشنة ، وشعر وخطه الشيب ، وعوينتان تهتران دائماً لأنهما لا تمسكان إلا بقليل من الجلد تحت الجبين .

نظر إلى السيد سيرو عن عُرْض ولم يزد على أن قال :

- أجنئت من التحرير ؟ وما بال السيد جاكوب ؟

- إن به وعكة .

- كذا ؟ هات !

كل ذلك وأنا واقف تجاه المكتب ذى الطراز الامبراطورى ، لا أدري أيحسن بى أن أضم عقبى وأشد جسمى أم أنثنى قليلاً كما يقف الجندى وقفة الراحة .

ويجب أن أعترف لك بأنى عشت فى عزلة شديدة فى بيت سوك وسيرو . فكنت أكره المناسبات التى تجبرنى على الخروج عن وظائفى وعاداتى . لقد كان على أن أصحح المكتوبات لا أن أقف أمام أمير من أمراء الصناعة . فلعنت السيد جاكوب وأعددت له بعضاً من تلك العبارات المجرّدة التى ماكنت لأقولها آخر الأمر . وكنت أشعر بقلق فى جسمى الذى لم أكن أدرى ماذا أصنع به . أحسست بعضلاتى تتقلص حتى تؤذى كل منها الأخريات ، وشعرت شعوراً غريباً بأنى أكون التواءة مضحكة ضخمة ، لا بوجهى وحده ، بل بجذعى ، ومعدتى وأطرافى ... بجثمانى كله .

ومن حسن الحظ أن السيد سيرو لم ينظر إلى ، بل كان ينقر بأصابعه على الكراسى التى قدمتها إليه ، وهو يكظم فى نفسه غضباً شديداً .

قال فجأة وهو يضغط الصفحة بسبابته ولا يرفع أنفه :

– كتابة رديئة ... لا تقرأ ... ما هذه الكلمة ؟

فخطوت أربع خطوات إليه . وأنحيت وقرأت بلا تردد وبصوت مرتفع : « تبرعاً » وجعلتنى هذه الحركة بمقربة من السيد سيرو ، وعلى كئب من ذراع كرسيه اليسرى .

وعندئذ لاحظت أذنه اليسرى ، وإنى لأذكرها جيداً ومازلت أرى أن لم يكن بها شىء خارق للعادة . كانت أذن رجل دموى نوعاً ؛ أذنأ كبيرة فيها شعر ويقع بلون ثماله النبىذ . ولست أدرى لماذا جعلت أنظر إلى هذا الغضروف بانتباه شديد لم يلبث أن أصبح مؤلماً . كانت هذه الأذن جد قريبة منى ، ولكن شيئاً لم يبد لى قط بعيداً . كبعدها ، ولا غريباً كغرابتها ، ففكرت : « إنها من اللحم الإنسانى ؛ وثم أناس يجدون لمس هذه اللحمية شيئاً طبيعياً جداً ؛ وثم أناس يالفون ذلك اللمس . »

ورأيت فجأة ، وكأنى فى حلم ، صبيّاً صغيراً – والسيد سيرو ذو أسرة – صبيّاً صغيراً – يطوق عنق السيد سيرو بذراعه . ثم لمحت الأنسة ديبير ، وكانت كاتبة على الآلة ، وكانت للسيد سيرو معها علاقة لفظ بها الناس . رأيتها منحنية على السيد سيرو ، تقبله هناك ، خلف الأذن بالضبط . وكنت أفكر فى أثناء ذلك : « أجل . إنها لحم إنسانى . من الناس من يقبلونها . هذا طبيعى . » ولست أدرى لماذا بدت لى هذه الفكرة عسيرة التصديق ، وأحياناً مستنكرة . وتتابع على مخيلتى صورة مختلفة ، حتى انتبهت فجأة إلى أنى حركت ذراعى اليمنى حركة خفيفة ، مقدماً السبابه ، فأدركت على الفور أن بى رغبة فى أن أضع أصبعى هناك على أذن السيد سيرو .

وفى هذه اللحظة زمجر الرجل الضخم وهو ينظر فى الكراسى، وتغير وضع رأسه، فشعرت لذلك بغضب وارتياح ممتزجين . ولكنه عاود القراءة ، فأحسست أن ذراعى قد بدأت تتحرك بلطف .

وقد روعتني أول الأمر هذه الحاجة من يدى إلى مس أذن السيد سيرو . ثم بدأت أشعر تدريجياً بأن عقلى ينصاع لتلك الرغبة . وأصبح ضرورياً لى - لألف سبب لم أتبينه - أن ألس أذن السيد سيرو ، وأن أثبت لنفسى أن هذه الأذن لم تكن شيئاً محظوراً ، ولا معدوماً ، ولا وهمياً ، وأنها لا تعدو أن تكون لحماً إنسانياً كأذننى أنا . وفجأة مددت ذراعى بحركة مقصودة ، ووضعت سبابتى بلطف ، هنالك حيث أحبيت ، على قطعة من الجلد الأحمر فوق الشحمة بقليل .

سيدى ؛ لقد عذب داميان لأنه طعن لويس الخامس عشر بسكين . وتعذيب إنسان عار كبير لا يمكن أن يسوغه شيء . ومهما يكن فقد أصاب داميان الملك بأذى قليل . أما أنا فلم أصب السيد سيرو بأذى ، ولم يدر بخلى أن أصيبه بأقل أذى ، ستقول لى إنى لم أعذب ، وفى هذا بعض الصحة .

لم أكد ألس بطرف سبابتى - ويرقة - أذن السيد سيرو حتى وثب هو وكرسیه إلى الخلف . ولا بد أنى كنت شاحباً بعض الشحوب ، أما هو فقد أزرق لونه كما يحدث للمرضى بالصرع حين يشحبون . ثم انقض على درج ففتحه وأخرج منه مسدساً . لم أتحرك . ولم أتكلم . وشعرت بأنى جئت أمراً إذا . كنت خاوياً، منخوباً ، مطموساً .

ووضع السيد سيرو المسدس على المنضدة بيد ترتجف ، فكان له حين مس المنضدة صوت كصوت الأسنان حين تصطك . وجأر السيد سيرو جواراً .

ولا أدرى على التحقيق ما حدث بعد . فقد أمسك بى عشرة من غلمان المكتب ، وجرونى إلى غرفة مجاورة ، ونزعوا ملابسى وفتشونى . ثم ارتديت ملابسى ، وجاعنى شخص يحمل قبعتى ، ويبلغنى أن الأمر سيكتم ، على أن أغادر الدار من فورى . وسير بى إلى الباب ، وجاعنى أودين فى الغد بأدواتى الكتابية ، وأشياءى الخاصة .

إليك هذه القصة المحزنة . إننى لا أحب روايتها ، لأنى كلما رويتها استحوذ على ألى لا يوصف .

ولا يغيب عن بالك أن قصة سيرو كانت بداية مصائبى .

وحين أقول « مصائبى » لا أريد بذلك على وجه التخصيص تلك المتاعب الكبيرة التى عانيت بها لضياح وظيفتى ، بل أعنى فى الغالب الأزمة الروحية التى أتخبط فيها منذ تلك الفترة ، وقد لا أخرج منها أبداً .

وفى ذلك اليوم سبرت وأشرفت على أعماق لم تعد نفسى تستطيع تجنبها . كان هناك شبه انقطاع بين السحب ، وفى لحظة نظرت بجلاء إلى أعماق الأعماق .

عبث أن تسرد بمنطق العقل أشياء لا تخضع للعقل . وإنى لأفضل أن أروى لك الحوادث التى وقعت من بعد . ويجب أن تلاحظ - بهذه المناسبة - أن إطلاق اسم الحوادث على صغائر لا قيمة لها - ككل شئ فى - أمر يبعث على الإشفاق إن أنت تأملته .

وقعت مشاجرتى مع رجال السيد سيرو فى نحو الساعة العاشرة صباحاً . ولم تنتصف الساعة الحادية عشرة حتى وجدتنى فى الطريق . فلم يبق أمامى إلا شئ واحد أعمله : أن أعود إلى المنزل .

وأنا أقيم مع أمى . وإذا كنت لا تعلم من الأمر شيئاً فيجب أن أشرح لك كل شئ ، وأن أروى لك كل شئ ؛ وهذا أمر لا يطاق ، فالمرء حين يتحدث عن نفسه لا يفرغ أبداً .

إن أمى أرملة . فقد مات أبى قبل أن أتجاوز طفولتى الأولى ، فأنا لا أكاد أعرف شيئاً عنه . وليعلم أن ذكرياتى الشخصية المحضة قليلة جداً . وقد روت لى أمى - عدا هذه الذكريات القليلة - أربعمائة مرة بعض قصص عن أبى ، حتى أصبحت هذه القصص جزءاً متمماً لذاكرتى ، وأصبحت مضطراً إلى أن أجهد نفسى إجهاداً لأميز هذه الذكريات عن ذكرياتى أنا .. ولكننا سنتحدث عن أبى مرة أخرى .

كنا نقيم دائماً فى مسكننا بشارع بوديه فير . وهو ثلاث غرف ومطبخ فى الطبقة الرابعة ، وإنى لأشتمز من هذا المسكن ، ولكننى مع ذلك لا أستريح إلا فيه .

فالمسكن هو المكان الذى ينتهى بأن يصبح أشبه بصورة للكائن . وما علينا إلا أن ندرك ذلك لنرى كل ما فيه من كآبة . بل من كآبة لا تحتمل .

كان لأمى دخل ضئيل . وكانت تتوصل بهذا الدخل وبالقليل الذى أكسبه إلى أن تقوم بشئون البيت قياماً حسناً . إن أمى امرأة جديرة بالإعجاب إنها الشخص الوحيد فى العالم الذى يجعلنى أرغب أحياناً فى أن أركع على ركبتي .

أقول لك هذا غير قاصد . على أنه من الخير - ولا شك - لو يركع الإنسان على ركبتيه أمام أحد ما ، ولو يوقره ، ولو يفتح له قلبه ، ولو يفوض إليه كل أمر . وحين أفكر فى البشرية ، حين أفكر فى هذه الكائنات الإنسانية ، لا أنكر عليها ما تقترب من شر ، بقدر ما أنكر عليها أنها لا تنهى لأن تتلقى من حين إلى حين رغبتنا المتحكمة فى أن ننبطح أمام الواحد منهم ، ونحتضن قدميه ، ونعاهده على الوفاء ، ونخدمه خدمة العبد أو خدمة الكلب . آه ، نعم ! إنك لا تستطيع أن تنال شيئاً من هؤلاء الوحوش ! إنك تقدم إليهم روحك ملتهبة ، وتنتزعها لهم حية ، فيبدو الشك على وجوههم وكأنهم بائع الكروش حين ينظر إلى نقد زائف .

وأعيد على مسمعك القول إن أمى امرأة جديرة بالإعجاب . فهى كريمة الخلق ، شجاعة ، لا تكاد تشبهنى . وأنا - ولا شك - خليق بالاحتقار ، ولكننى أرجو أن تصدقنى إذ أقول لك إنى خليق بالاحتقار لأسباب أنا وحدى الذى أعلمها ، لأسباب لاتخطر على بال أودين ولا السيد جاكوب ولا لانو نفسه . فهؤلاء يحسن بهم - بدلاً من أن يحقرنى - أن ينظروا فى أنفسهم بثبات وجلد .. وبعد فلعلهم فى قرارة أنفسهم لا يحقروننى .

غير أن فى أمى عيباً صغيراً . فهى تعاملنى دائماً وكأنى ما زلت ذلك الطفل الصغير الذى كانت تدله وتؤنبه فيما سلف . وهذا يحق رجلاً يذلف إلى الثلاثين . والحق أن أمى كثيرة التائب .. وأنا أعلم أن هذا عيب صغير جداً ، ولكنه مع ذلك يؤلنى إيلاًماً شديداً ، وخصوصاً فى مناسبات معينة وفى عيب أمى هذا كنت أفكر وأنا خارج من محلات سوك وسيرو .

وأنعشنى الهواء الطلق . فبدأت أتمالك نفسى ، وأستجمع أفكارى التى شردت فى كل سبيل ، كأنها جياد عربية أياسها طول الشوط .

وسلكت طريق أوسترلitz وحاولت أن أفهم ما قد حدث لى ، وجعلت أكرر : «إنى رميت إلى الباب .. إنى رميت إلى الباب رميت إلى باب المكتب » ومن العسير على أن أنتزع أفكارى من نغم السير ؛ فلما كانت خطواتى منتظمة انتظاماً كبيراً أخذت أوقع عباراتى العنيدة على نغم البولكا .

ووقفت فجأة . فقد بدا لى أن من الضرورى إعلان هذا الخبر لأمى . وأن هذا الخبر كان محزنأ جداً . وأنه ينطوى على نتائج مخوفة .

فكففت عن السير واعتمدت بمرفقى على السور الذى يشرف على نهر السين .

وكان الحجر أقرب إلى البرودة فى ظل الأشجار . وكنت بحاجة إلى هذه البرودة وإلى هذا السكون ليتضح إحساسى بما فى من حمى واضطراب وكفتنى دقيقة واحدة من السكون لأتبين أنى لم أكن قط فى حالتى الطبيعية تلك الحالة العجيبة التى لا أكون فيها ألبتة .

على أنى وجدت فى هذه الوقفة القصيرة روحاً . والهين من الأشياء يسعدنى . ولكن البلوى أن أهون الأشياء يفسدنى . فما أقل تماسكى !

كان هناك جماعة من الحمالين ينزلون البضاعة فى مركب شراعى . فكانوا يرفعون أحمالهم على حافة الرصيف ويصلون إلى القارب على ألواح طويلة مرنة تتموج صورها على الماء . وشعرت أول ما نظرت إليهم بسرور حقيقى ثم خلتنى أسير على الخشبة الضيقة كأنى بهلوان ، فعرانى شبه دوار واستحوذ على الضيق فانتزعت نفسى عن الحجر وتابعت السير .

وسرعان ما تذكرت أنتى يجب أن أعلن لأمى الخبر الفاجع ، وجثمت على صدرى هذه الفكرة .

بدا لى من السهل أن أقول : « إنى فقدت عملى » : فالعبارة قصيرة ، يسيرة ، حاسمة ، ولا يلوح لى نطقها مستحيلاً . وتراءات لى وجوه كثيرة للإفضاء بهذا الاعتراف الأول . فأستطيع مثلاً أن أجلس محطماً - وإنها لحالة لم أكن بحاجة إلى تكلفها - وأقول بصوت عال : « أماه ؛ إنى فقدت عملى . » وربما كان أدنى إلى اللباقة والبراعة أن أذهب وأجىء فى الغرفة كعادتى ، حتى لا أزعج المرأة المسكينة ، ثم ألقى فجأة بهذه الكلمات بنغمة يتجلى فيها عدم الأكثراث : « وبهذه المناسبة ! أتعلمين أنى فقدت عملى ؟ » وتراعى لى أن من الممكن أيضاً أن أدخل المسكن ثائراً ، وأقذف - فى عنف - بعبارة كهذه : « دناءة ! فظاعة ! إنهم جعلونى أفقد عملى » ثم تخيلت الصدى المؤلم الذى يكون لمثل هذا الانفجار - ولو كان مصطنعاً - على صحة أمى ، ففضلت أن ألجأ إلى خطة أيسر ، فأدخل حجرتى ، وأخلع حذائى بحركة مسموعة ، فتقول لى أمى : « لماذا تخلع حذاءك ؟ هل أغلق المكتب هذا المساء ؟ » فأجيبها : « كلا ، ولكنى لن أعود إليه ، فقد كان بينى وبين الرؤساء كلام شديد ، وفقدت عملى »

وأكرر لك أن هذا القسم من الحديث لم يبد لي منطقياً على شيء من الصعوبة . ولكنى كنت أضيق صدرأ حين أفكر فى أنى يجب أن أعود على الأمر بالشرح ، وأوضح أسباب خروجى ، وأروى القصة تلك القصة العظيمة التى أصبحت - الآن على علم بها .

أما هذا قلاً ! لن أفعل ذلك مهما تكن الدواعى ! لقد قلت لك إن أمى امرأة جديرة بالإعجاب ، ولكنها سوية الطبع . معتدلة النفس ، فليس بمقدورى أن أطلعها على هذه المغامرة المضحكة ، على هذا الأصبع الموضوع على أذن الرجل الضخم الطيب ، على هذه الحماقة!

ولكن .. أهذه حماقة ؟ أهذه مغامرة مضحكة حقاً ؟ كلا ! ألف مرة كلا ! لن أقر لك بأنى مجرم ولا بأنى أحمق . أهذه هى إنسانيتكم ؟ هاك رجلاً مثلك ومثلى ، بينى وبينه حد بلغ من قوته أنه يجعلنى لا أستطيع مس جلده بطرف إصبعى دون أن أكتسب صفة المجرم . إذاً فلست حراً ؟ إذن فالفرد محاط - كالأقطار البحرية - بمساحة لا يجوز للأجانب أن يبحروا فيها إلا بعد أن يستكملوا مراسم خاصة ؟

أنا لا أتظاهر بالشذوذ . فما خلقت إلا كخلقة غيرى . وإن شيئاً ليقول لى : إن هذه الفكرة التى حفرتنى إلى الحركة فى تلك المناسبة لفكرة من الأفكار التى يعرفها كل الناس . إنها لفكرة شاذة مضحكة ، ولكنها - فى صميمها - فكرة طبيعية . أما أن الاستسلام لمثل هذه المشاعر شيء يليق أو لا يليق ، فهذه - وأسفاه ! - مسألة أخرى .

إنى أكره الكذب . ولئن كان ما تلقاه من الشر فى التخلص من الحقائق يكفينى ، هل يجب أن نمزج شقاعنا بشقاء جديد ؟ لهذا لم يخطر ببالى أن أروى لأمى أنى فصلت وفقاً لخطة عامة فى نقص الموظفين ، أو أن دسائس زملائى الحاسدين هى التى أدت إلى فصلى . أو بالأحرى - وما دمت قد حدثتك عن ذلك - خطرت لى هذه الفكرة ، ولكنها لم تلبث إلا ريثما رفضتها فى سهولة .

كانت أفكارى - كما ترى - بعيدة عن أن تدخل الاطمئنان على نفسى . وحين وصلت إلى جسر أوسترلitz كنت قد صممت أن أعلن خبر فصلى بلا أدنى تعليق .

إن جسر أوسترلitz جسر جميل . فهو يمتد وسط مساحة كبيرة بيضاء . وإذا أصاب باريس شيء قليل من الضوء فهو لجسر أوسترلitz . هنالك لا ينقطع التسييم ، ولا روائح السفر ، ولا المراكب العمول ، ولا الباعة من كل جنس ، ولا المصورون

فى الهواء الطلق ، يتخذون من أردية نساءهم حجراً مظلمة ليعيدوا ملء أجهزتهم .
هنالك - فى إيجاز - كل ما يستهوى النظر ، وفى الجسر احديداً يسير كأنما
دغدغته عربات الترام والأثقال التى تجرى على فقاره . وأقول لك مجملاً إنى معجب
بمنطقة جسر أوسترلتز فهى مكان لم تتوشج صلاته بذكرياتى السيئة ، ولست أذكر
أنى مررت قط بجسر أوسترلتز خزيان أو غاضباً . ومثل هذه الأمور لها وزنها .

ولكن جسر أوسترلتز - وأسفاه ! - لم يغن عنى شيئاً فى ذلك فالיום . فقد كانت
همومى محرقة فلم يمدنى جسر أوسترلتز بقوة .

فأممت حديقة النباتات وقلت لنفسى : « لا شك أن الدرب المحاط بأشجار الساج
أرفق بى » فإن هذا الدرب الممتد الذى يصعد نحو المتحف مكان أجد فيه السعادة
دائماً .

وكان الدرب المحاط بأشجار الساج خيبة مطلقاً . فحين وصلت إلى ما يوازى قمة
بيوت النبات الزجاجية كان ضيقى وكدرى قد زادا بعض الزيادة عما كان حين عبرت
بوابة الحديقة . وتركنى الدرب أنساب منه ، مظهراً عدم اكتراثه بى ، غير معنى اليوم
بأمرى إلا كما يعنى بأجنبى ، غير مظهر لى أية واحدة من آيات الصداقة ، أنا الذى
ربت عليه بطوله منذ خمس سنوات ، أربع مرات كل يوم فى الصيف ، وثلاث مرات فى
الشتاء .

فاعترانى شعور مؤلم بأن الأشياء تهجرنى وتناوئنى . وإنها لبادرة شؤم ياسيدى
أن تخوننا الأشياء فى المناسبات الخطيرة .

بل إن منظر الحديقة النباتية جلب على كدراً لم أكن أتوقعه . فقد كانت الحديقة
مغلقة ، ففهمت أنى جئت قبل موعدى ، وإذا واصلت السير كان وصولى إلى المنزل راد
الضحى أمراً غير مألوف يعجل بالكارثة ، أعنى أنه يعجل بالإيضاح .

فعدت أسير نحو حظيرة الدببة . ولم يفارقنى - وأنا أفعل ذلك - غضب أخرس ،
لأن عاداتى جميعها قلبت رأساً على عقب ! لا عجب إذا أنكرنى العالم المألوف ، فقد
أوقعت الاضطراب فى كل شئ ، ونقضت الاتفاق ، ووصلت فى وقت لا أنتظر فيه ،
كما يعود الزوج المرتاب فجأة من سفره .

كان لادى أكثر من ساعة أضيعها قبل أن أستطيع الوصول إلى شارع پوده فير .
فأمضيت هذا الوقت أطوف حول الحديقة النباتية ، كسفينة على مرأى من الميناء تنتظر
المد لتدخله .

وكننت عازماً ألا أنبس بكلمة من قصتي ، ولكن ثقتي بأن أمي سوف تستوضحني الأمر لم تعفني من الغيظ .

قلت لنفسي : « إن وجهت إلى أدنى لوم فلن أجيبها بشيء . سأظل جامداً ، متكبراً ، كمن عانى ظلماً فادحاً . فأنا الفريسة في هذه القصة بعد كل شيء . لقد عانيت ظلماً فادحاً ومن حقي أن يعتذر إلي وأن يطيب خاطري .

« لا شك أنها ستؤنبني . فهي تعاملني دائماً كما لو كنت طفلاً . ولا شك أنها سوف تندب حظها ، وتساألني أسئلة ، وتكلمني عن النقود .. أوه ! أما هذا فلا ! إن هذا الموضوع قادر بطبعه على إثارة حنقي . أنا لا أحب أن أسمع حديث النقود .

« فإذا حدث أنها أنبتني فلن أخفي عنها شيئاً من أفكاري . سأقول لها رأيي في تلك الوظيفة القذرة التي أضعتها . أغلظت أنا أني اشتغلت بالأعمال الكتابية ، وأنا الذي كنت أريد أن أدرس الكيمياء ؟ إنني لا أصلح ألبتة لهذه الصناعة المكتبية . لماذا أجبرتني أمي على أن أعمل أولاً في بيت موتيه ، ثم في بيت سوك وسيرو ؟ لقد خلقت للكيمياء . كل ما حدث كان لا بد أن يحدث . لماذا لم تدعني هي أسلك طريقتي ؟ صحيح أنا فقراء . ولكن هذا ما كان سبباً ليحور حياتي ، ويضيع مستقبلي ، ويكدر سعادتي بل يحطمها . كلا ! كلا ! إنني لا أقبل أي لوم في شأن هذه الوظيفة التي ضيعتها فلولا أني أجبرت على قبولها ما ضيعتها . »

وكننت أحس وأنا أذرع الدروب المتمعجة في ذلك التيه أن جيشاً من الأفكار السامة ينفخ في حتى يمتلئ جوفي ، فكانت خطاي ترتد دائماً في تلك الدائرة الحمقاء ، ومشاعري تدور حول نفسها ، كجماعة من الزراير لا تدري أين تنزل ، ووصلت بالتدريج إلى هذه النتيجة : أن أمي هي الشخص الوحيد المسئول عن شقائي . فهي التي تركتني أضيع عهد الدراسة بغير أن تحفزني إلى السير في الوجهة الصالحة ، وهي التي دفعتني إلى البحث عن أعمال لا تتفق مع شخصيتي ، وهي التي ستتحي على الآن باللائمة ، فتحدثني عن متاعبنا المالية ، وتبصرني بحماقتي وسوء تدبيرى . كلا ! كلا ! إنني لا أستطيع احتمال ذلك .

كان الجو إعصارياً هداماً للقوى . وأجهدني الجولان فتصيب عرقاً وصرت أمشي وكأنتي مخمور . والحق أني كنت ثملاً . كنت ثملاً بالمرارة والغضب . ومع ذلك فقد ضمنت الشيء الجوهري : لقد أعددت جوبتي كلها ، وكننت محشوا بالحقد حشو المدفع بالبارود . كنت مستعداً . كنت عازماً على أن يكون لي فصل الخطاب .

تستطيع ياسيدى أن تزدرينى . إنى أوافقك على ذلك . ولكنى يجب أن أذكر الأشياء كما هى ... تخيل الآن أى مجنون كنت حين سمعت الساعة تدق نصفاً بعد الثانية عشرة ، وحين جعلت وجهتى شارع پوده فير ، ومشيت مسرعاً كمن كدح ليكسب قوته .

* * *

الدهليز الذى يخترق منزلنا، محاذياً أرض الشارع، مظلم عند الباب كأنه جحر . أكلت بلاطه فى الوسط خطى لا تحصى ، حتى بدا وكأنما شقه من أوله إلى آخره مسيل تتوى فيه المياه الوحلة التى جلبتها الأحذية إليه ، فهى ليست بقايا من مياه المسح ، لأن البوابة عجوز لا تمسح أبداً .

لهذا الدهليز عندى أنطباعات حية أليمة . فهو من تلك الأمكنة التى تكون جزءاً من نفوسنا . وكل أفراحي وأتراحى وثوراتى سبكت بين جدرانها ، فتركت عليها أثراً لا تمحى : بقعاً غير تلك التى تخلفها الرطوبة وروائح وحشية أنا وحدى الذى أشمها ، وذكريات كثيرة خشنة ، تبطئ دائماً من خطوى ، وتشرب نفسى الكآبة .

والشمس أم النسيان لم تر هذا الدهليز قط منذ ذلك اليوم الذى ضل فى ثنايا الماضى ، يوم أن دفنه البناعون تحت المنزل ، كما دفنت المقابر المصرية تحت الأهرام . ولعل هذا هو السبب فى ازدحام الدهليز بالأشباح .

وأنا آلفه ، كما نألف هذه الأمراض التى أصبحت جزءاً من عاداتنا وكما نألف الأزاهير المرسومة على الحائط فى ليالى الأرق .

آلف مثلث الضوء الشاحب الذى يرسمه مصباح الغاز من الطوار على حائط دهليزى فى ليالى الشتاء .

آلف الرائحة المسكينة الباهتة التى تحوم مع الأهوية المختلفة فى أحشاء منزلى . ولو بعثت بعد خمسمائة عام لعرفت هذه الرائحة بين روائح العالم أجمع . لا تسخر منى ، فعساك تعز أشياء أقدر من هذه ، وأعسر على الاعتراف .

وإن اتفق لى أن عدت من نزهة من النزحات التى يذوق فيها المرء لذات كثيرة جديدة ، ويستشعر فيها رغبات لا تحصى ، أو أتفق أن عدت من نهار جميل كما يعود

المرء من حمام مطهر ، فإن دهليزى يضرب على كتفى ويقول لى : « حذار ! فما أنت إلا سلاقان ! » وتعرّونى البرودة لهذا التصريح ، ولكنه يفيدنى ، فمن العبث أن يخدع المرء عن أمر نفسه .

وها أنت ترى أن الدهليز عملا فى قصتى نفسها . فهو يعطلنى ، ويبرد قصتى ، ويشلنى كما كان قميناً أن يفعل فى ذلك اليوم . يوم مغامرتى .

ولكنى ذكرت لك أنى كنت شديد التوثب ، فعبرت الدهليز وكأنى عبرت مستنقعا مليئاً بالأشواك ، جرحنى ولكنى مضيت ، ووجدت نفسى قد وصلت بحركة واحدة إلى مسطح الطابق الأول .

وهناك تعيش بوابتنا العجوز ، فى ظلمة تسكنها روائح المطبخ ، تحت نفثات مصباح غازى لا ينطفئ أبداً ، له أنبوبة يغشاها الماء . ويموت الضوء ويبعث مائة مرة فى الدقيقة ، وبين شهقاته وزفراته ترى نافذة صغيرة تطل على الفناء الداخلى المعتم .

وبوابتنا العجوز تكاد تقضى نحبها فى نفس المكان الذى غرست فيه . وهى تموت مبتدئة برأسها كما تموت أشجار الصفصاف ، فهى شبه مجنونة ، وقد كادت تفقد بصرها من أثر سحابات فى كلتا عينيها أحالت إنسانيهما أبيض اللون ، وعلى الرغم من ذلك فهى تعرفنا جميعاً - نحن ساكنيها - بخطانا ، وتنفسنا ، ويكثر من العلامات الصغيرة الأخرى التى تدلها علينا ، ولا تستطيع هى تحليلها ، فتكاد حساسيتها تلك تشبه حساسية القواقع الساكنة .

دقت البوابة الباب وقالت لى :

- لويس ؛ هناك خطاب لك وجريدة أزياء لمرجريت . فلعلك تسلمها إليها فى طريقك يابنى .

ومرجريت جارتنا ، وهى خياطة . فتناولت الخطاب وجريدة الأزياء ، ومضيت فى صعودى . وكنت أصعد مسرعاً حتى لا أدع لما اعتزمته من الأمور وقتاً تتبدد فيه . وأحدثت لى دورات السلم دواراً خفيفاً كان مألوفاً لى . وعلى الرغم من توتر أعصابى لم أخلف عادتى القديمة قدم حياتى ، فقرأت هذه اللافتة عند مرورى بالطبقة الثانية : « لبارنيو : اختصاصى فى أحذية القماش ونعال الليف » . ولبارنيو صانع بائس يعيش فى فقر مدقع . ولكنى لا أريد أن نضيع الوقت فى الحديث عنه .

حين وصلت إلى مسطح الطبقة الرابعة وضعت جريدة الأزياء على « اللبادة » أمام باب مرجريت ، وأسرعت فتقرت بأصبعي نقراتي الخفيفة على بابنا . ولبابنا جرس ، ومعى مفاتيح ، ولكنى لا أستعمل ذلك كله ، فلى طريقة خاصة فى النقر . إن هذا يبسط الحياة .

وجاءت أمى لتفتح لى ، وفعلتُ وفى ذلك اليوم - أول الأمر - ما ألفت أن أفعله . فإن ساعات الحياة اليومية تكون جهازاً شامل القدرة ، تشدنا أجزاءه المتتابعة ، وتدفعنا ، وتسيرنا على رغم ما قررناه فى أنفسنا . وأعنى بهذا أنى قبلت أمى ووضعت عصاى فى الأضيض الكبير ، وعلقت قبعتى على المشجب ، وذهبت إلى المطبخ لأغسل يدى ، فكنت أطيع قوى عتيقة مستبدة ، ولكنى لم أفقد شيئاً من غضبى الذى كان يتلوى فى باطنى كما تتلوى قطرة فى زكبية .

وتبعتنى أمى إلى المطبخ ، ورفعت غطاء الوعاء النحاس بطرف المحركة فى لطف ، وقالت لى وهى تهز رأسها :

- لقد صنعت لك يالويس شريحة صغيرة من لحم الضأن . إن اللحم غال فى هذه الأيام ، ولكنى أردت أن أصنع لك شريحة صغيرة من لحم الضأن ، فأنت تحبها !

قل لى ، ماذا جاءت هذه الشريحة لتفعل وسط عذابى ؟ أيجمل الكلام عن المطبخ مع رجل حاق به الظلم ، رجل يتناهيه اليأس والغضب ؟ لقد ملائنتنى شريحة الضأن هذه خزيًا . لقد جعلتنى هزأة أمام نفسى . لقد جرحتنى جرحاً عميقاً ، وأحسست إحساساً واضحاً أن أمى تسخر منى .

وبعد فلم الكلام عن ثمن اللحم ؟ إنى أعلم جيداً أن اللحم غال . أتكلمنى أمى عن تكاليف الحياة فى اللحظة التى فقدت فيها وظيفتى ؟ أؤكد لك أن عبارتها لطمتنى كأنها صفة ، ولكنى لم أقل شيئاً ، حتى لا أغيض شيئاً من حلقى ، وحتى أدعه كاملاً مخيفاً لا رد عليه . واستعرضت فى سرعة كل أجوبتى ، فإذا هى مجهزة حاضرة لازعة ، مصفوفة أمام عينى كالأسلحة .

وتأهبت للذهاب إلى غرفتى حتى أخلع حذائى بحركة مسموعة كما عزمت . لكن خانتنى الشجاعة فى اللحظة الأخيرة ، فقلت لنفسى : « خير لى أن أنتظر فرصة مناسبة ، كأن تحدثنى أمى مرة أخرى عن شريحة الضأن هذه » .

وبدأنا نتغدى . وكانت معدتى مقبوضة متقلصة ، فلم أكل بشهية ، وجعلت أنظر إلى قعر صحفتى ، وأزيع قطع اللحم حتى أرى شقوق الخزف وأنا أعرف بالدقة كل ما فى صحافنا القديمة من شقوق .

وشعرت بنظرة أُمى مثبتة على لا تفارقنى ، فقلت لنفسى : لابد أن مظهرى يدل على ، وأن عارى مكتوب بجلاء على وجهى ، واستنتجت من ذلك أنى مخلوق تافه ، عاجز عن إخفاء مشاعره . وزادنى ذلك حقاً .

وكننت أنظر بين ألوان الطعام دون أن أنبس بكلمة ، ولم أرد أن أضع يديّ على المائدة ، فقد كنت أحس نوعاً من الخجل من يدي . كنت إذا أضمرت سرّاً هاماً خانتنى يداى ، فقد كانتا عاجزتين عن التصنع . لهذا تركت ذراعى مدلاتين - وهما مفرطتا الطول - وجعلت أعبث فى جوربى بأطراف أصابعى ، وتلك لوثة مضحكة لا أستطيع التخلص منها . فقالت لى أُمى برقة تنطوى على إهانة بالغة :

- د ع جوربك يا ولدى المسكين ، فربما خرقتة .

فوضعت على المائدة يديّ المرتعدتين من الغضب . لماذا « ولدى المسكين » ؟ أنا لا أحب أن يرثى لحالى ، وخصوصاً إذا كنت لا أستحق غير الرثاء . وبعد فلم الحملة على عاداتى وخزعبلاتى ؟ لقد جاوزت السن التى تسمح لامرئ فى مثل طباعى بإصلاح نفسه . لم تبد لى ملاحظة أُمى غير مجدية فحسب - فقد أبدتها ألف مرة من قبل - بل بدت لى كذلك مهينة فى تلك الحالة التى كنت فيها . ثم إنى استقبحت أن أوصى بالحرص على جوربى فى لحظة يكاد فيها فقرنا يتحول إلى تعاسة .

أوشكت أن أطلق العبارات المعدة التى زحمت حلقى . ولكن بأىها أبدأ ؟ لقد كانت تتدافع لتخرج ، كالخراف المجنونة التى تريد أن تنفذ كلها - فى وقت واحد - من باب ضيق . وهكذا لم أقل شيئاً فى هذه المرة أيضاً .

وأتممت غدائي وأنا أنظر إلى الأثاث والجدران والمدخنة ، إلى تلك الأشياء التى شهدت على وجودى وائتمرت معى فى أفكار كثيرة باطنية : إلى الأرنبين الخزفيين على خزانة الطعام ، وإلى الساعة الكبيرة التى تحمل تمثالاً صغيراً من البرونز ، والتى تعرف عنى أقاصيص يحسن أن تحتفظ بها لنفسها . ونظرت إلى الرسم التيرولى فى إطاره ، إلى منظر الجبال الذى استنزفت وغيضت فيه أجمل أحلام طفولتى .

لم تشأ إحدى هذه الأدوات أو قطع الأثاث أن تشاطرنى ما أنا فيه . كلها نظرت إلى بقعة . وشعرت أنها ستكون جميعاً - عند أول كلمة من النزاع - فى صف أمى ، وأنها ستكون جميعاً حرباً على .

وحين فرغنا من الطعام لاحظت على زاوية آلة الخياطة ذلك الخطاب الذى سلمته إلى بوابتنا .

ولابد أن نظرة أمى كانت تواكب نظرتى . فسرعان ما تمتعت :

- لعله خطاب من لانو . أظننى عرفت الخط . إنك لم تفتحه .

وكان ذلك حقاً . فأننا - من أنتظر بقلق محموم ساعى البريد الذى لا يكاد يحمل لى شيئاً ، ومن لا أفتح خطاباً إلا فكرت أنه يحمل الخبر العظيم الذى يمكنه أن يحول مستقبلى - أنا لم أفض هذا الخطاب .

فتحته بحذر عبوس : وما ظننته إلا خبراً سيئاً ، فقد كنت أبحر فى برزخ أجدنى فيه معرضاً لضربات القدر ، وقلما يضيع القدر فرصته .

لم يكن فيه شىء . لم يكن فيه شىء على الإطلاق . فلانو يخبرنى أنه بدأ عطلته ، ويدعونى أن أذهب لزيارته فى أول فرصة : قالت أمى :

- أذهب هذا المساء ؟

فابتدرت شفتى عبارة لم أعدها قط ، وأفلتت من بينهما لم أستطع حبسهما . أجبت :

- كلا . سأذهب عصر اليوم .

وما كدت أنطق بهذه الكلمات حتى شعرت باقتراب الأزمة ، ولم يكن فى مقدورى أن أراجع ، فقد أعلنت الحرب . وأحسست وجهى يلتهب ، وصدغى يرتعدان ، وشفتى تقلصان كشفتى جرو يتحفز للعراك .

كانت أمى على وشك أن تقول « كيف عصر اليوم ؟ والمكتب ؟ » فلم أدع لها وقتاً ولفظت بقوة منفجرة :

- لن أذهب إلى المكتب عصر اليوم . لن أذهب إلى سوك وسيرو . انتهى ! انتهى ! لقد فقدت عملى .

كنت واقفاً متصلب الأعضاء ، ولكنى أحسست على الرغم من ذلك أنى متحفز
متهيئ للوثوب . وكنت أتنفس بمشقة . كنت أنتظر .

وكانت أُمى جلسة على مقعدها قرب النافذة ، رفعت رأسها بغير عجل ونظرت
إلى .

وأُمى تلبس منظاراً لكبر سنها . ولها عيانان نواتا زرقاة دافئة براقاة . وهى حين
تريد أن تحسن النظر ترفع عينيها لتنتفع أكبر انتفاع بمنظارها .

هكذا نظرت إلى ملياً فى هدوء ، ورأيت نظرتها الحلوة مثبتة على ، تلك النظرة
المفعمة بحنان قلق ، تلك النظرة التى لم تفارقنى مذ كنت فى هذه الدنيا . وأحسست
ساقى تهتران ، فتمتمت أُمى بصوت طبيعى عميق واثق :

– ما بالك يا ولدى لويس ؟ الوظيفة ؟ هنا لك غيرها . ليس هذا بشر كبير .

يا للحكمة القدسية ! يا للطيبة ! إن هذا صحيح . ليس هذا بشر . رأيت ذلك
بلمحة . وكان حقاً أنى لم ينزل بى شر . إذن فلم كنت شقياً ؟ لم كنت تعساً ؟

تقدمت خطوة فخطوة . ثم أحسست أنى لم أعد مالكا لأمرى ، وأن رعىل
الحيوانات الثائرة التى كانت تهاجمنى قد ولت الأدبار منهزمة عنى . وانطبع فى نفسى
إحساس ممزق بآنى أنقذت وانتشلت من الهاوية . فسقطت على ركبتي أمام المرأة
المسكينة ، وأخفيت وجهى فى ثوبها وأخذت أنتحب بعنف وجنون ، نحيباً ينبعث من
معدتى ، وينبسط كالأمواج الصاعدة من غور البحر ، طارداً كل شىء ، كاسحاً كل
شىء ، مطهراً كل شىء .

فى دنيا الناس عاصفة تهب دائماً . فطوبى للقلوب المحترقة التى ترودها ! طوبى للأرض المقفرة التى تروىها تلك العاصفة !

لا أخفى عنك أنى بكيت . إن الأشياء التى يجب أن أخفيها جد كثيرة ، فلاعترف بتلك الدموع ، فإنى مدين لها بأحسن لحظة فى حياتى .

قلت لك إنى كنت راکعاً أمام أمى . كنت ساجداً أمام تلك الطيبة السمحة ، أمام تلك البصيرة الرعوف . ولم أكن أتعجل النهوض ، أنا الذى لا أفكر فى شىء إلا أن أغير مكانى . لم تقل أمى شيئاً ، وكانت قد وضعت يديها على رأسى ، ولا بد أنها كانت شديدة التأثر ، ولكنى أحسست على الرغم من ذلك أنها تحك بطرف ظفرها بقعة على ياقة صدرى . إنها جد معنية بى ، جد مهتمة بأمرى . جد مزهوة بى - المسكينة ! - كأنه فى الإمكان أن يزهو بى أحد !

جمعت خواطرى شيئاً فشيئاً حتى قلت :

- أماه ! نحن نعانى أزمات مالية !

فما كان منها إلا أن أجابت فى بساطة :

- بل إنتا لا نعانى أزمة مالية ياوالدى لويس .

وكان ذلك حقاً ، فقد كنا فقيرين ، ولكنا لم نكن نعانى أزمة مالية . واضطرت أن أعترف بذلك .

وشعرت شيئاً فشيئاً بأن نوعاً من الفرح المشع يغزونى . وفعلت أمى ما تفعله كل الأمهات فى هذه الظروف : مشطت شعرى ، وربطت رباط عنقى ، وأمرت على وجهى يداً ناعمة لم تستطع أعمال المنزل أن تكسوها خشونة .

ثم فتحت الصوان ذا المرأة ، صوان عرسها ، وأعطتنى منديلاً مطرزاً ، و شيئاً من الماء المعطر ، وملبسة أيضاً .

وأكلت الملبسة وأنا أحبس آخر شهقاتى . كنت صبيهاً فى العاشرة ، بل فى الخامسة ، بل كنت صغيراً جداً حتى وددت لو أنتى أهدهد . والحق أعتقد إنى تركت نفسى أهدهد . فلندع هذا الحديث .

كنت فاهما تمام الفهم أن أمى لن تطلب منى إيضاحاً ما . ولو لم يكن غير هذا لوددت أن ألقى بنفسى مرة أخرى عند قدميها ، وأن أقبل حذاءها .

ولكنى فعلت خيراً من ذلك : قدمت إليها كل ما يمكن تصويره من إيضاح . قصصت عليها ما كان منى فى نهاري كله . قصصته عليها بكل تفاصيله لم أحذف منه شيئاً : لا السيد جاكوب ، ولا إصبعى ، ولا أذن الرجل الطيب الضخم . وكانت المسكينة تبتسم . وقد ارتعدت قليلاً لذكر المسدس ، ولكنها سرعان ما تماكنت نفسها . وعادت إلى الابتسام ، بل ضحكت لتؤكد لى أن كل ذلك لم يكن ذا بال ولا خطر .

أما أنا فأعلم أن هذا كله كان ذا بال وذا خطر . وقد أجادت أمى فى محاولتها أن تنسينى الأمر . يا للحظة الجميلة العزيزة ! أترانى كلما أذلت نفسى أمام ذلك الكائن المقدس ، أحسست أننى أسمى وأعظم وأتحرر ! .. هذا أمر غريب لا آخذ نفسى بأن أوضحه لك .

مازلت أرى منظراً من ذلك اليوم المذكور : كنت جالساً على الكرسي الوطىء ذى المسند المرتفع ، وهو من طراز فولتير ، وكنت أتكلم بحرارة وأمى جالسة القرفصاء أمامى ، تخلع حذائى بلطف وتلبسنى كوئى ، لأنها تعلم أنى أحب أن أمكث فى المنزل ساعتين بغير أن ألبس نعلين خفيفتين وملابس عتيقة .

وتابعنا حديثنا ونحن نضحك ضحكات عالية . ولم تبد لى حياتى ولا مستقبلى أنصع مما بدوا فى ذلك اليوم . ولم أشعر نحو الإنسانية بعطف مخلص لا تحفظ فيه كالعطف الذى شعرت به ذلك اليوم .

كل ما لمسته احتفى بى فى أخوة صادقة . وذهبت إلى حجرتى فشعرت أن الأثاث يحيينى بترحاب صامت .

وحجرتى صغيرة مكتظة . هى مملكتى ، وهى وطنى ، وقد ورثت - عن أسلاف مجهولين - أريكة موقرة تشغل ضلعاً كاملاً من الحجرة بين الخزانة والسرير . ولكى أمضى فى قصتى لا أريد أن أتحدث عن تلك الساعات - ماذا أقول ؟ - عن تلك الساعات الجهنمية التى لا تحصى والتى أنفقتها على تلك الأريكة . وبحسبك الآن أن تعلم أن هذه الأريكة فى نظرى مكان مقدس ، قرب مرة ملكت العالم فى الحلم وأنا مستلق عليها .

وبدت لى أريكتى فى ذلك اليوم متألقة تحت كسائها الحائل اللون ، وذكرتنى بكل ما قرأناه معا ، فأنا أقرأ دائماً وأنا راقد ، لأنسى جسمى ما استطعت ، ولاكون أشبه بالميت فى حياتى الخاصة ، وأعيش بكل ما فى مع أبطالى .

وأخذت أنبش الحجرة لأجد عقب سيجارة قديمة . فأنا أحب الأعقاب التامة البرودة ، وأتعمد ترك بعض اللقائف دون أن أتم تدخينها لأجدها فى الصباح .

ولم أجد عناء فى الحصول على ما أريد ، وشرعت أدخن وأنا مستلق على ظهري .

كنت أدخن فى منزلى ، وعلى أريكتى ، عصراً ، وفى غير يوم الأحد . والحق أن هذا كان أمراً خارقاً ، وكان أمراً رائعاً . كانت للتبغ نكهة يزيد طيبها أنك لا تستطيع أن تدخن فى المكتب أثناء النهار . ولست أذكر يوم الأحد ، ذلك اليوم المحترم ، فالتبغ يوم الأحد نكهة الحرية ، والحياة نكهة كنكهة التبغ .

ورأيت - وأن مستلق على الأريكة - ألواح الخشب الرقيقة التى تنوء بثقل كتبى . وثبت نظرى على كعوب المجلدات فرأيت مجموعها يتموج كماء جدول . وهذا خيال قديم مازلت أسر به أو يقف له شعري . وفى ذلك اليوم طربت له .

أمضيت على أريكتى ساعة غذية روية مركزة . ساعة من تلك الساعات التى يمكنك أن تتحدث عنها عشرين سنة . ثم ذهبت إلى النافذة لأطالع الكون .

كان الشهر أغسطس . فكانت رائحة المجارى الرطبة تتصاعد من وسط الشارع ، مختلطة برائحة الخضر وصياح الباعة نوى العربات الصغيرة ، الزاحفين بلا انقطاع فى شوارع الحى الذى أقطنه . والشارع يبدو كأنه شق بإزميل بين كتلة صخرية من الأبنية . وكانت النوافذ كلها مفتوحة ، فكنت ترى الناس كما ترى كائنات مستعمرة حيوانية فى صخرة عالية مشرفة على البحر ، وقد برزت من مكانها وقت الجزر .

وإن كنت لا تعرف شارع پوده فير فأصنع معى معروفاً ولا تذهب لتكتشفه . فأنا أعلم أنك سوف تتقرز منه ، ولكنى أكره أن أسمع أحداً يعيبه ويحقره ، وأفضل أن أكون أنا وحدي من يذمه .

واستبنت فى أغوار تلك المساكن تفاصيل شتى كانت تبدو لى من قبل حقيرة قذرة ثم بدت لى فى ذلك اليوم شائقة مؤثرة ، ولو استطعت لخاطبت جيراناً لم يكن يبدو على فى العادة أنى أراهم .

ونادتنى أمى ، فذهبت إليها وأنا أغنى بملء صدرى ، فقالت لى مقالتها التى رددتها ثلاثة آلاف مرة :

– خسارة أنك لا تريد تعلم الغناء ، فإن لك صوتاً جميلاً صداحاً .

وأتحفتنى بمفاجأة أخرى . فأخرجت من الصوان كأسين رقيقتين كفقاقيع الصابون ، وقنينة من خمر سنك تير ، وقد أهدى إلينا ذلك الشراب قريب لنا أقام مدة فى إيطاليا .

وليس بى شراهة، ولكن هذه الزجاجة من الخمر القوية كانت متعة لى. قالت أمى :

– اشرب هذه قبل أن تزور لانو ، اشرب هذه حتى يتم نشاطك ومرحك وإذا شئت أن تبقى لتتعشى مع لانو ، فلك أن تفعل .

ونقلت هذه القطرة من الخمر سرورى نقلة ألزمت معها أن أمشى ، وأن أنهك نفسى وأضنيها وأستنزفها .

فغيرت ملابسى وقبلت أمى الطيبة ، ودرت هابطاً الدرج بأقصى سرعة .

ينحدر شارع موفتار من الشمال إلى الجنوب، فيخترق حياً قذراً مكتظاً صاخباً، كأنه قناة غذائية تمتد فى أظلم أجزاء المدينة .

وحى موفتار كأنه شد بأرسان إلى جبل سان جنفييف . فكأنه شاطئ صخرى منحدر صمود ، تتكسر عليه أمواج باريس الجديدة .

وأنا أحب شارع موفتار . ففيه مشابه من أشياء كثيرة عجيبة شتى : إنه يشبه مسكن نحل وضعت عليه قدمك . ويشبه تلك السيول التى يجلب النسيان هديرها . وهو لاصق بالمدينة كأنه طفيلى نام . وهو لا يحتقر سائر الأرض بل ينكرها . وهو مكتظ قذر كأنه خنزيرة .

ولحى موفتار عاداته الخاصة به وقوانينه التى لا يكون لها معنى ولا سلطان وراء نهر مونج . والغريب القادم من وسط المدينة ، إذا ضل طريقه فى شارع بلانفيل أو فى ميدان كونترسكارب اجتذبتة دواره موفتار كأنه قطعة من القش ، وسرعان ما يندفع مع الشلال .

وشارع موفتار يبدو كأن به نهماً وحشياً ، فهو يحمل على سرواته وعلى رعوسه وعلى أطراف أذرعه التى لا تحصى ، ألوقا من الأطعمة ذات الروائح القوية . والجميع

يبيعون والجميع يشترون . وبعض الباعة الأذنياء يطوفون ببضاعتهم فى راحات أيديهم :
بثلاث ثومات أو بكامخ أو يعود من ثمر الحناء ، فإذا باعوا هذه البضاعة بيعة رابحة
اختفوا وانتقضى نهارهم .

وعلى حافات السيل تتكدس جبال من اللحم النيئ ، والأعشاب الخضراء ،
والدواجن البيضاء ، والبطيخ الضخم ، وتفتت مياه السيل هذه الخيرات وتذهب بها على
مجرى النهر ، لتولد من جديد عند مطلع الفجر .

والمنازل مدهونة بألوان غليظة هى وحدها الألوان المناسبة ، وهى وحدها الألوان
الممكنة . فكل باب من ورائه بائعة شواء ، ورائحة الدهن المسخن تصعد بين الجدران
كأنها بخور محرق بين يدي إله شره .

وأنا أروى لك كل هذا لأن شارع موفتار كان أول مرحلة فى سعادتي بعد
أن خرجت من المنزل .

كانت الساعة قرب الخامسة عصراً ، وقد بدأ الشارع يسكن ، فإن هجومه العظيم
يكون وقت الصباح .

وأن تمر بشارع موفتار يوماً وأنت مفعم بالسعادة فذلك متعة سخية تركت نفسى
أنزلج حتى بحيرة جوبلان ، كما ينزلج رحالة فى زورق على حافة نهر استوائى . كان
كل شئ عندى مصدر إلهام ، فوصلت - مع مرور الدقائق - إلى حالة من الغنى
والامتلاء .

وكانت فى حوانيت القديد فتيات سمينات يأخذن الحياة مأخذ الرقص وينعمن على
الفتائر بإشارات مرسومة ، بل بلمسات حانية رقيقة ، فيا للفتائر الحلوة !

وكانت الشوارع القذرة الضيقة ، كالسرب الذى سلكه موسى باليهود فى البحر ،
تكن ظلاً بلون قاموس المحيط ، ظلاً شرقياً تندفع فيه أفكارى مستطلعة ظافرة .

وتمليت منظر جميلة تباع الأعشاب المطهورة : مخلوقة فارعة تبدو دائماً وكأنما
أبطأها ثقل حلاها الطبيعية ، قيض لى هذا المنظر فى الطريق ، وفى اللحظة المناسبة
زهل كان من الممكن أن أحرم شيئاً فى ذلك اليوم ؟

كانت كأس خمر سنك تير تتوهج فى جوفى كأنما هى جذوة . فسرت وكأتنى
أمشى على الهواء . كنت مشمولاً بالبركات . كنت ميسراً لكل غريبة .

كنت - أكثر من عشرين ثانية - إسكافاً فى حانوت تفوح منه رائحة الجلد الروسى . وكانت عشرون ثانية أخرى نصف قرن من حياة التفلسف ، فى عزلة كاملة كأنها كشتبان الخياطة .

كنت تاجر سبك بين ألف سمكة زاهية اللون ، بين جيش من جراد البحر اصطدته بنفسى عند الفجر من بحر مزيد ترصعه الجزر الصغيرة .

وكنت زارع خضر ، وغارس كرم ، وراعى بقر . وحملنى عثكول من الموز إلى الصحراء فى إثر قافلة ، ولكن رائحة المملحات ما لبثت أن فتحت لى مزرعة دخنة فى ريف سيفان .

ما أطيب السعادة ! وما أيسرها وأسهلها ! أصدقنى القول ياسيدى كيف يدبر الناس أمورهم على ألا يكونوا سعداء ، على الرغم من كل ما منحوه من أسباب السعادة ؟

ولما وصلت إلى كنيسة سان ميدار لمحت زميلاً قديماً يدعى ديلونى ، عرفته حين كنت أعمل ببيت موتيه . وكان يشتري طماطم من إحدى النسوة الثرثارات اللاتى يزحمن بسلالهن رصيف شارع موفتار .

جاعنى والهـم باد عليه ، وروى لى قصة طويلة مختلطة ، عن زوجة مريضة ، وطفل ميت ، وأشياء أخرى لست أدريها ..

فأحسست تأثراً مؤلماً ، وطفرت فى عيني الدموع ، ماكان أشد طيبتى فى ذلك اليوم ! يالـله ! ما كان أعظم شفقتى وطيبتى فى ذلك اليوم !

ولم أستطع كبح جماح قلبى ، فقلت لديلونى :

- أمحتاج أنت إلى نقود ؟ فالأمر كما تعلم ...

فرفض وهو ينظر إلى متعجباً قلقاً . أما أنا فقد نظرت إليه وأنا أفيض عاطفة ، فقد زاد يأسه نشوتى . وربما كان ما أقوله الآن شيئاً فظيلاً . ولكن ألمه أثار فى نفسى عطفاً حاراً لم يخل من لذة . قلت له :

- أستطيع أن أسدى إليك خدمة ؟ أمحتاج أنت إلى ؟

وجعلت نفسى رهن تصرفه . ووعده أن أزوره ، وتركتـه وأنا أقاسمه على الوفاء والولاء .

ولم أزره . بل لا أعلم ماذا كان من أمره ، وما عدت أعنى نفسى بأن أفكر فيه ، وعلى الرغم من ذلك فقد كنت حرياً فى ذلك اليوم أن أضحي بأشياء كثيرة ، حتى لا يكون شقياً .

إن الظل الذى ألقاه على سرورى لم يزد ذلك السرور إلا تألقاً . فلم تمض خمس دقائق حتى استحوذ على قلبى من جديد ، وملاه كائنه ورم ، وكاد يصبح مريباً ثقيلاً محمله . إنى أحدثك طويلاً عن ذلك السرور ، فاعذرنى ، فما كان ذنبى أنى كنت مسروراً فى ذلك اليوم وقد ثقل على السرور حتى كدت أبكى .

سار بى ذلك السرور العظيم كما يسير شراع منتفخ بقارب على الماء . فصعد بى فى خفة شارع مونج ، وهو مثعب قوى يمتص وسط المدينة قرب المساء ، ويرسل فيضاً متدافعاً إلى الأحياء الجنوبية .

وبعد قليل رأيت نفسى فى المنطقة المقفرة التى تحيط بهال أو كان . وكانت تسطع بحذاء البوابات رائحة منعشة ، هى رائحة براميل نبيذ مفتوحة ، وكانت هذه الرائحة من أجلى .

ولست أدري - على التحقيق - أين ذهبت بعد ذلك ، فقد كانت أحلامى تختلط بلا انقطاع بالعالم المحسوس ، حتى أنى لم أعد - فى الواقع - موجوداً فى مكان بذاته ، من ذلك الوقت إلى أن كانت الساعة السادسة .

ولعى وجدت - فى تلك الأثناء - فى أمكنة كثيرة من العالم ، ولعى لم أوجد فى مكان ما . حتى إذا كانت الساعة السادسة ثبت إلى نفسى وأنا على رصيف طريق بوربون .

وكانت هذه محنة حقاً فطريق بوربون مكان مخوف لمن لا يثق بنفسه ثقة كبيرة . إياك أن تقتحم طريق بوربون فى عصر يوم من أيام الصيف ما لم تكن فى حالة من الرضى . فهو كئيب محرق . وروائح القناة والأضواء التى تنعكس عليها تحدث للمتتره دواراً وغثياناً .

خرجت ظافراً من طريق بوردون وأنصبت بعزة إلى ميدان باستيل ، وهو مجلجل
كالسندان ريان بالإشعة .

ورأنتى صاحبة سان أنطوان وأنا أنساب في ضباية وهاجة ، كرجل أثمله نصر
عزيز . وبعد قليل شارفت شارع كلر حيث يقيم لانو . ومضيت أنفق سعادتي مسرفاً
وأنا لا أرقب آخر كيسى .

* * *

لا نورفيق من رفاق الصبا ، وهو البقية الباقية من عالم أدرج في الأكفان . لانو مجموعة ذكريات لا تحصى ، وهو بعد ذلك رجل ، رجل أحبه حباً صادقاً فقد كان دائماً شطراً من حياتي . ولم يكن من أولئك الذين قاسمتهم على الصداقة الأبدية وأنا في سن الثانية عشرة ، فهؤلاء لا أدرى الآن أذهبوا أم مازالوا أحياء . لم أرسم خطأ مع لانو ، أو قلما فعلت ذلك ، وهذا - بلاشك - هو السبب في بقاءه موصولاً بكل ما يحدث لي .

أنا أحب لانو حباً هادئاً رقيقاً . أو بعبارة أخرى إن الشعور الذي أجده نحوه يبدو لي صداقة نقية صالحة ... ولكن من الإسراف في الغرور أن أعتقد في نفسي القدرة على الإحساس بعاطفة حقيقية .

ولا أظن لانو يعلم شيئاً عن كنه صداقتي له . فإن شيئاً ما - هو شكل آخر من الغرور - يدفعني إلى إخفاء أصدق ميولي كأنما هي مظاهر ضعف . ثم إن لانو لا يعلم أنه صديقي الوحيد . فقد تركته دائماً يعتقد أن لي علاقات أخرى ممتعة قيمة لا تحصى . وهل أستطيع أن أعترف للانوبائي فقير الطبع لا أستطيع أن أصادق الكثيرين ؟

ولانو كاتب عند أحد وكلاء الدعاوى . وقد تزوج المرأة التي أحبها ، والتي سيحبها دائماً ، وله منها طفل جميل أنا عرابه ... فيالي من عراب !

وكانت الساعة السابعة قد انتصفت حين وصلت إلى منزل لانو . ولم تمض دقيقتان حتى كنت قد صرحت أوضح تصريحاتي . فقد قالت لي مارث زوج لانو :

- أخرجت من المكتب ؟ إن الوقت مبكر

فأجبته :

- أنا لا أذهب الآن إلى المكتب . لقد غادرتة

وسرعان ما ألقى على لانو أسئلة كثيرة أجبت عنها مرحاً سادراً شارداً ، شأن الرجل الذي تتراعى له صور المستقبل مغرية شتى .

كنت نصف مستلق على الأريكة العريضة التى تجعل من حجرة آل لانو شبه ثوى للزائرين ، أنظر إلى مارث وهى تحم الرضيع قبل أن ترقده فى السرير .

وكان أكتاف لانو يدخن فى غليون صغير من خشب الزيتون ، وقد أمال رأسه الدقيق التركيب الجميل المنظر على كتفه . فكان منظره يعبر عن سعادة هادئة تشبه الغيبوبة أو الخواء أو العدم . كان يعبر عن سعادة مألوفة تشبه سعادة ساعة ذات خطار أديرت مائة عام ، أو سعادة حجر يسقط فى الفراغ سقوطاً أزهياً .

وكانت مارث يبدو عليها الرضى الذى يسبغه وجود خال من الهموم . وكانت على الرغم من ذلك مقطبة الجبين لاتنى تدمدم لعناد عابر يظهره الصغير ، أو لقطرة ماء تقع على الحصير ، أو لقطرة أخرى تصيب مرآة الصوان .

وعجبت لذلك عجباً شديداً ، أنا الذى لا أدري شيئاً عن السعادة الحقيقية ، أنا الذى لا أظفر بست ساعات ولا بأربع من السعادة كل عام . وفكرت بغضب مكتوم : « ما قيمة هذه القطرة من الماء ؟ لو أطلق نهر سين كله إلى حجرتى اليوم ما انتقص ذلك من سعادتى شيئاً » .

وتأملت الجماعة التى يؤلفها هؤلاء الأصدقاء . فبدأ لى أن الصغير وحده يحيا فى سعادته .

وأما الآخرون فهما ينامان فيها ، إن صح هذا التعبير . ونظرت إليهما بشيء من الاحتقار ، وبشيء من الشفقة أيضاً . وفكرت : « إن لديهما كل مسببات السعادة ومع ذلك فهما يشبهان الموميات وسعادتتهما كأنهما محفوظة فى القش . أما أنا فرجل بائس ، وولد عاق ، وموظف مطرود ، ولكنى أجدنى اليوم ممثلاً حتى عينى بسعادة صادقة عنيفة عظيمة ، تنظر إلى سعادتهم كما تنظر جبال هماليا إلى ضفدع . إن فى هذا ظلماً ولكن فيه متعة ! هيا ! هيا ! فلننفخ فى هذه البحيرة الراكدة » .

فجعلت أصفر بملء صدرى ، وجعلت أصفر كإعصار . وأخذت أرتكب خزعبلات لا تحصى ، وكل منها كأنها تشبع شهوة شيطان من الشياطين التى استبطنتنى .

حملت الصغير على كتفى لأرقص به رقصات تدير الرأس . وكان هذا المخلوق الصغير وحده فى مستواى ، وفى مثل حالتى من ثورة السعادة ، فكان يصرخ صرخات عالية ، تحدث نوعاً من الارتياح الحاد لأشياء غريبة كانت تجيش فى نفسى .

وأخذ لانو وزوجته يتحمسان قليلاً قليلاً ، حتى استيقظا بعد الغيبوبة وبدا كأنهما يقولان « أحقا أننا سعداء ؟ فلماذا لا نمرح ؟ ولماذا لا نرقص ؟ ولماذا لا نصيح ولا نشب ولا نقهقه ؟ » .

وأما أنا فقد كنت أرقص ، وكنت أصيح . وكان مرحى مخيفاً .
قال لى لانو فجأة .

– أتبقي لتتغدى معنا ؟

وكنت أتيت على هذه النية ، ولكنى أبدت بعض الأعذار ، ليتوسلا إلى أن أبقى .
فما إن كف لانو عن الإلحاح حتى نضح صدغاي بالعرق .

فقد تراءت لى أمسية موحشة ، مع ذلك الحمل الثقيل من المرح الذى لا أستطيع حمله وحدى . ولكن لانو واصل إلحاحه ، فقبلت على الفور فى جبن ، وأنا أكاد أتلعثم من الخوف .

وكانت تلك اللحظة عقدة منفكة فى شبكة طربى المشدودة ، وحسن الحظ التقطت العقدة على الفور ولم يظهر مثلها بعد .

وأرقد الطفل فى احتفال عظيم . وسرعان ما نام . ياللعجب ! إنه انسلخ بلا تردد من وجود ملؤه النشاط ، إلى النوم ، إلى النسيان العميق ، إلى العدم .

لم يكن لدى متسع من الوقت لأغبطه فيه . فقد جرى الحديث عن ألوان الطعام ، ونبئت بذرة المرح التى حملتها إلى المنزل : نبئت الآن من تلقاء نفسها ، وانطلق لانو يهبط إلى القبو ، وهو يقول مقررأ :

– كذا ، كذا ! زجاجة من زجاجات الفوفرى الثلاث !

وزادت مارث :

– هذا يومها ! وهذا أوان فتح صندوق اللجاجة المَحشوة بالكُمأة .

إن سرور الإنسان ياسيدى شعور غريب غير محض . فهو محتاج دائماً إلى أن يعتمد على أشياء مادية ندخلها فى المعدة ؛ حتى حين يبدو السرور منقطع الصلة بكل هذه التوافه لابد له – إن أراد البقاء – من أن يستعين بقضايا هضمية ، وقلما يعترف بأن هذه القضايا هى السبب الجوهري فى وجوده ، ولكنه يلتمس فيها تأكيدات

وترشيحات ونتائج ... وقد لا يكون فى هذا مدعاة للخل ، فهو طبيعى من كائنات شرهة مثلنا . انبش ذكرياتك وانظر . ألم تشعر بالحاجة إلى أن تؤكد أحسن لحظاتك بربط سعادتك بمتعة حارة من متع اللسان أو المعدة ؟ هكذا نحن !

وشاقنى أن أشارك مع مارث فى إعداد المائدة . وكانت حجرة طعام لانو تشرف على مساحة واسعة متنوعة المناظر ؛ ففيها أبنية خفيضة ، ومصانع ومعامل ، وجمع متلاصق غير منتظم من المنازل المختلفة الزوايا . وكانت الشمس الغاربة ترسل من خلال هذا الخليط المهوش شعاعاً أفقياً ، ماضياً كالحسام ، يصل إلى داخل الحجرة فيبهز أنظارنا ، ويثير حماسنا .

وأخرجنا الدجاجة من مكنها ، وكان صندوقاً للحفظ رعى أشهراً ، كما ترعى الأشياء المقدسة ، حتى تحل مناسبة عظيمة . وفتح الصندوق وظهر الطائر ، مبتلاً منكشاً بين قطع كبيرة من الكمأة ذات الرائحة النفاذة .

وكانت هناك أطايب أخرى ، فأحصيت فى شره ما يمكن أن تزيده هذه الأشياء على سرورى .

وما بدأ الطعام حتى كان لانو وزوجه قد جنا مثل جنونى ، لقد جذبتهم ورفعتهما ، وصرنا نترجع على درجة واحدة من درجات السلم .. كنا دمي من دمي القره جوز مشدودة شداً واحداً .

وسرعان ما مدت سعادتنا جذورها فى ذكرياتنا : جذور طويلة ترتد إلى مسرات الماضى جميعاً فتمتصها لتشاركها معها فى الساعة التى نحن فيها .

وكانت ذكرياتنا الطيبة كثيرة . ثم كان هناك سحر فعل فعله فى حوادث كانت تبدو لنا من قبل وخيمة مؤسفة ، فعادت مختلطة مع الأخريات وأسلمتنا إلى الضحك . واكتظت حاجتنا إلى السعادة وسط روائح الأطعمة والأشربة ، وبين نظراتنا الغائمة ونحن على المائدة ، فكأننا حيوان آكل عشب ، منتفخ البطن ، يستطيع أن يجتر مرعى بحاله .

كم من ضحكات لذلك الماضى الذى يغنوه حاضرك كئيب كربه ! لقد كانت لاكتاف موهبة فى المحاكاة فمثل لأعيننا وأذاننا رهطاً من الأشخاص المضحكين الذين مسخهم قصص عشرين سنة . وكانت تلك الذكريات قد بليت حتى رثت . ولم يكن لدينا خير منها . فكنت كلما بدا لى أن لانو يريد حذف فكاهة من فكاهاتنا الكبرى لا أتردد

فى أن أذكره إياها ، لأنه ما يزال بها بعض قطرات من الرحيق ، كالليمون القديم الذى
عصر مائة مرة ولم تكن مارث التى أعربت منذ خمسة أعوام لتشاركنا دائماً فى بعث
هذه الذكريات الفكهة من قبورها ، فكان تتعزى بالابتسام . كان ذلك انتقام الصداقة
من الحب .

وكنا نأكل أطعمة شهية سانجة ، فأدخلت فى تلك الصواريخ المتوهجة شعلة حارة .
وكان الليل قد أظلم منذ وقت طويل ، وأضىء مصباحه وعمت رطوبته وإذا بشيء
جديد يظهر فى دون أقل سبب ظاهر أو مفهوم .
شعرت فى لحظة محددة بأنى أقل مرحاً مما كنت قبلها بدقيقة . هاك وصفى ،
فلست بقادر على أن أعبر عن الأمر تعبيراً أوضح !

سيدى ! لقد ركبت البحر ، ورأيت ارتفاع المد . إنه يعلو ويعلو ساعات وهو يزداد
جسارة وجراً مع كل موجه ، فلا يستطيع المرء أن يتخيل وقوفه . ثم تأتى لحظة يتردد
عندها الماء ، وعندئذ ينتهى كل شيء ! بعد هذا الوهن ترى الماء ينهزم ويتراجع ويهرب
هروباً مخزياً ، وينحسر عن قيعان وعمرى ، وأغوار كانت قد نسيت، يسلم ذلك كله للنور ،
فلا تستطيع له كبها ولا لهذا الفرار منعاً .

لقد أدركت على الفور أن سرورى يذهب ، وأنى سأتبقى وحيداً عرياناً مغدوراً .
ولاحظت اختلالاً مفاجئاً فى التوازن . فلانو وزوجه ماضيان فى صعودهما ، وأنا
أنظر إليهما يرقيان ، كمسافر كليل لا يستطيع أن يتابع رفاقه إلا بالنظر .
وحاولت أن أصمد ، وعبثاً ما حاولت ! فقد ألقيت بضع أكاذيب لم يفد منها إلا
صاحبائى ، وبدت لى أنا قبيحة شائنة ، وفقدت الأطعمة مزيتها وفاجأت نفسى وأنا
أسر انتقادها نوعاً وإعداداً وملاعة للحال .

وتملكيت عينى وأذنى صحوة لئيمة . وجعلت أراقب لانو ، فأقنط نفسى أنه معجب
بما يقوله من سخافات وحماقات ، أمنحها أنا ضحكات شحيحة تشوبها السخرية ،
فالقسوة .

وددت لو أصرخ مستغيثاً ، مستجداً ، كبهار مكروب فى زورق ، محطم وكان
ذلك عبثاً من العبث . فالوحدة من حولى تتسع وتتسع ، مظلمة مصمتة مروعة . ويدأ لى
لانو وزوجه أناساً من عالم آخر ، كما يبدو السنونو للسمة .

لم تكن لى حيلة فاستسلمت بمرارة ، ونظرت إلى نفسى كطائر يذبح حتى يغيض من الدم ، ويرى دمه يسيل منه ، وكل أمل وكل حياة تتسرب .

وأنتهى القربان فى أقل من نصف ساعة ، وشوّهت ونخبت وأضنيت .

وأخطر من ذلك أن خسارة مقلقة تفاقمت واستحال تلافيها . فقد أسرفت فى الإنفاق وبددت سرورى ، فأصبحت مديناً حريباً إلى أمد طويل . وبدأت أندم على سرورى الأحمق فى تلك العشية . وأخذت أفحصه فحصاً منظماً لا يرحم ، عاداً هذا السرف الأخرق المغرور جريمة منى .

ولم يلاحظ لانو وزوجه على شيئاً ، فمضيا وحدهما وكأتهما يسخران منى !

وكنت أبدو حاضراً معهما ، بل يخيل إلى أنى كنت أجيب على حديثهما التافه . ولكنى كنت أضمر لهما حقداً يشبه البغضاء . لأن كنت أضعت ثروتى الباطنية وبددتها وخربت بها فما ذاك إلا بجريرتهما . فقد ساعدانى فى حماقاتى ، وزاملانى فى بدواتى ، وقذفا بى فى فاقة أيوب . وجاءت لحظة نقد فيها صبرى فنهضت لأنصرف .

وكان لابد لى أن أكابد نوعاً من الصراع ، فقد تمسك بى صديقائى وعزما على أن أبقى ، فتشددت لأخلص منهما ، كما يخلص محب مخدوع من عشيقة طال بها عهده .

فأذعنا وودعانى فى سرعة ضاعفت حنقى .. ألم يكونا اثنين ففى وسعهما أن ينفسا عن غضبهما ؟

أما أنا فقد أن لى أن أعود إلى الانغماس فى الوحدة ، وبدأت أتقرز مما كان منى فى نهارى ، وكانت أكثر وقائعى مرحاً هى أشدها على احتمالا .

وأسرعت أهبط الدرج الأسود الحار ، بعد أن نطقت ببعض كلمات الوداع .

وكنت أحس أنى فصمت القلاس التى كانت تربطنى ، ووجدتنى على الأقل حراً . حراً فى أن أكون شقياً كما أشاء وحملنى الشارع كما يحمل غريق على أواذى الماء ، ورسمت لى الطريق قوى قديمة مجهولة .

رأيت دقائق ذلك اليوم المشئوم دقيقة دقيقة : المكتب . السيد جاكوب . السيد سيرو ، الإغراء . الفعلة الحمقاء ، التى كانت ضرورية على الرغم من أنها حمقاء . عودتى إلى المنزل ، ثورتى ورفق أُمى وبعد هذه النقطة لم أجِد من العنف والإصرار ما يمكننى من الحكم على رعونتى ، وسرورى الشاذ ، وحماقتى المسرفة .

وأسخطنى على الخصوص أنى لم أر إلى أية هاوية من البؤس كانت تقودنى هذه السعادة المعريدة التى لا أستحقها .

همت بخطى النائم فى باريس مظلمة جافة . وكانت تتفح من الشوارع رائحة خانقة من التراب والروث المحموس . وكان كل مصباح يمسك ظلى وأنا مار به ، ويديره ثم يسلفه إلى المصباح التالى ، حتى كاد ذلك يغشى نفسى .

وأمضيت ساعة مضطربة وأنا مرتفق على جسر سولى ، أجمع عناصر يأسى ، وأضمها فى حزمة واحدة . وبذلت جهوداً خارقة لآكون شقيماً شقاء مضبوطاً . ولكن هذا أيضاً كان على محظوراً ، فما كنت عظيماً ولو فى الشقاء ، بل كنت شيئاً تافهاً شائهاً قبيحاً يثير السخرية .

وأيقظنى جرس منزلى ؛ لا بصوته فهو أجش مطمور فى أعماق البناء ، بل بالبرودة اللزجة التى أحسستها فى يدي للمس الزر النحاسى .

وصعدت السلم بخطى بطيئة وقد جللنى العرق ، وبوختنى أنفاس طسوت الغسالة الرصاصية الموضوعة على نوافذ السلم .

فلما وصلت إلى باب مسكنى بدا لى من الضرورى أن أدخل خلصة بغير أو أوقظ أمى . فقد ملأنى اضطراباً تفكيرى فى أن أجد نفسى مرة أخرى وجهاً لوجه أمام المرأة المسكينة .

فتقدمت على أطراف أصابعى كاللص . وكانت أمى قد تركت - كما تعودت - مصباحاً صغيراً مضاء على خزانة الأنية ، فأطفأته بقمى حتى لا يقع بصرى مصادفة على مرآة ، فأرى فيها وجهى الذى كان - ولا شك - وجهاً بشعاً مرعباً .

ومضيت إلى حجرتى . وخلعت حذائى وانطرحت على الأريكة . وكان ضوء مبهم منبعث من أعماق سماء باريس ينعكس فى ضعف واضطراب على نحاس المصباح الصغير المدلى فى ركن بين حائطين . فعلقت عينى بتلك الإشارة المروعة ، وأمضيت الليل وقبضتاي على فكى ، أمضيته فى احتقار نفسى وكراهة ذاتى .

* * *

منذ هذا اليوم بدأ عصر ، ترك فى نفسى ذكرى لا يمكن تحديدها ، ذكرى مفعمة بالهدوء والخجل . وإنى لأستذكر ذلك الوقت كما أستذكر نعاساً طويلاً ، ولا غرو فقد بذلت إذ ذاك جهوداً صادقة لأصهر أيامى وليالى فى خدر واحد وغيوبة واحدة .

حدثتك بأن أودين أحضر لى غداة وقعة سيرو أدواتى الكتابية القليلة ، فصفت ذلك كله فى ركن من الحجرة ، منتظراً الوقت الذى أنال فيه وظيفة أخرى . وبدأت للتو حياتى الجديدة .

كنت أستيقظ فى الصباح متأخراً . وكانت تعرفونى فى الأيام الأولى - حول الساعة السادسة - رجفة مفاجئة تجعلنى أفتح عينى . وهذا أمر طبيعى ، فقد درجت السنين على أن أستيقظ فى هذه الساعة لأذهب إلى العمل وهكذا ظلت بعض الزمن أستيقظ فى نحو الساعة السادسة . وكنت أحس لذلك نوعاً من السرور ، وأقول لنفسى إنه لا فائدة لى من مغادرة الفراش فى مثل هذا الوقت المبكر ، فليس لدى ما أعمله خارج المنزل . وكانت هذه الفكرة السارة غالباً ما تعقبها أفكار أخرى كثيرة أقل منها إمتاعاً . فكنت أفكر فى وظيفتى الضائعة وفى ضرورة الحصول على غيرها . ولأقل فى إيجاز إن الندم كان أحياناً يسمم هذا الفراغ الذى لا أستحقه ، ثم ينتهى بإيقاظى وكنت فى أكثر الأحيان أبذل مجهوداً عكسياً ، وأستمسك بالهمود الذى يشيعه النوم فى أعضائى ، فأطرد هذه الأفكار النابية ، وأغوص بنشوة فى عدم مخيف لذيذ .

كأنى كنت فى جوف فراغ أسود : راقداً ، معلقاً ، مرجحاً ، وكانت كل أفكارى ومشيمائى ، وكل الأشياء التى تكون نفسى ، محبوسة دائماً فى دائرة الظلام ، وكانت تتراعى لى كرهط مختلط من الديدان ، وكنت مستريحاً . كنت شيئاً جد قليل ! ولعل الموت شبيه بهذا ، فإن كان كذلك فهو شئ حسن .

لا أنكر إلا أنه كان مثبتاً على روحى - بل على البقية الشائهة من روحى - صورة زرقاء مستطيلة لنافذة ، تترائى من بين الأهداب كأنها تتراعى خلف قضبان قفص .

وأحياناً كان يزورنى وأنا فى قلب هذا العدم - كان يلم بى حلم . وكان حلماً مشوهاً ، لاهتاً ، كالقصص التى تعرض فى السينما .

وأكثر أحلامي يدور فى صمت مخيف . ونادرة تلك التى تحوى جلبة وكلاماً وأغانى ، وهى تترك روحى قلقاً أياماً كثيرة . وكثيراً ما أحلم فى اليقظة أحلاماً غامضة عنيفة ، فأرى صوراً غير واضحة المعالم ، ولكنها قوية الألوان . ولست أدرى لم أحدثك عن هذا ، فأنا رجل لا أختلف فى شىء عما ألفه الناس ، رجل يشبه كل الرجال إلى حد مخيف !

وأعجب ما فى أحلامي أنى لا أحتاج أن أنام لأحلم ... تذكر أننى لا أعنى الحلم الذى يحلمه الشعراء ، بل الحلم الذى يحلمه النائم ، أى سقوط المرء فريسة لعالم مخيف متنافر رائع . وكثيراً ما أكون مشغولاً جداً ، فأنا مثلاً جالس أكتب تحت مصباحى الصغير المظلل ، وإذا بى لا أجد وقتاً أحس فيه أن روحى قد بدلت سيرها ، وأنى دخلت فى حياة جديدة . وكانت هذه الحالة تفجؤنى أحياناً وأنا سائر فى الطريق .. ولكنى يجب أن أحدثك عن أحلامي فى وقت آخر ، وليست بالقليلة تلك الأشياء التى أريد أن أرويها لك عن هذا العالم ، فلا جدوى من اقتحام العالم الثانى .

وقد حدثتك عن الأحلام التى كنت أحلمها قبل أن أستيقظ . ولو لم أتذكر عند اليقظة شيئاً من هذه الأحلام الصباحية لتنتشر بها حتى تجعل لنهارى عطراً خاصاً ، وتحدد لون نفسى إلى اليوم التالى .

وكنت حين تبلغ الساعة التاسعة أنفض أغطيتى ، ويصل إلى من المطبخ الذى تعمل فيه أمى المسكينة - محدثة جلبة ضعيفة - شذا القهوة ختلاً نفاذاً كأنه فكرة . فأنهض وأرتدى ملابسى بتراخ فظيع : تراخى الأشياء التى ينتظر حدوثها .

وأذهب إلى أمى فى المطبخ وأقبلها صامتاً ، وأعتقد كل يوم أنها ستبدى لى ملاحظة حكيمة ، وأنها ستؤنبى على نعاسى الدائم ، وعلى هذه الأصباح الدسمة التى تجعل فى وجودى فراغات ضخمة معتمة يملؤها الغبار . ولكن أمى كانت تقول لى كل يوم وهى تقبلنى بحنان :

- ولدى لويس ، لقد لدنت لك شيئاً من خبز أمس .

فأجلس على كرسى القش المنخفض ، بين بالوعة المطبخ وخزانة الآنية المصنوعة من الخشب الأبيض ، أحتل هناك مكاناً ضيقاً كمسالك القدر وأدير ظهري إلى الضوء الشحيح فى الفناء الصغير ، وأحس الارتياح حين تستندنى كل الأشياء المحيطة بى ، وتثبتتنى وتدعمنى ... أجل ، كنت مرتاحاً على الرغم من كل شىء ، كنت مرتاحاً فى بلدة وجبن .

وأنا أحب القهوة ، كما أحب الرائحة اللطيفة التي تنبعث من الخبز المالدن . ولذا كنت أستمتع بتلك النعم التي لا أستحقها ، بينما تنتظر أُمى إلى بلطف وانتباه ، بعينيهما اللتين ألفتا قلة الضوء . وكنت أدرك أن وجهى لابد قد مسخه النوم ، فقد كنت أحس في قسماتى ثِقلاً وانتفاخاً ، وفي عيني ورماً ، وفي شعري خشونة وتشعثاً ، ولكنى لم أكن أبالي ، فجل همى ألا أقطع ذلك السحر المخمد الذي يسمح لى بأن أعبر من ليلة إلى ليلة بغير هزة ولا صدمة ولا يقظة حقيقية .

فإذا انتهى الفطور عدت إلى حجرتى لأصلح هندامى . وإذا كان وقتى غير محدود فقد كنت أشرع فى الاغتسال بكثير من الفوضى والإهمال ، ومن ثم كان يتفق لى فى بعض الأيام أن أظل إلى المساء أوّجل حلق ذقتى من ساعة إلى أخرى ، حتى تركت حلاقتها تركاً ، وأصبحت لى منذ ذلك الحين تلك اللحية التي تراها ، والتي تثير فى اشمئزازاً عميقاً .

أه ! أنا أخبر بنفسى ياسيدى من أن أحكم على الإنسان حكماً فيه رفق أو تسامح ؛ هذا الكائن المنقر الذى وقفت حياته على القذارة والعبودية واعذرني إذ أقول لك هذا صراحة تامة . فكيف يمكن الحديث عنه فى غير غضب ؟ لقد لبثت ثلاثة عشر عاماً أنفق عشرين دقيقة تقريباً فى العناية بنظافة جسمى ؛ وأؤكد لك أنى كنت أنفق هذه الدقائق العشرين كما ينبغى أن تنفق ؛ فقد كنت أتبع نظاماً لا يختلف : اليدين فالوجه فالقدمين الخ وكانت الحياة سهلة فلم يكن على إلا أن أطيع عاداتى .

ومنذ أخذت أصرف جل نهارى فى هذه الأعمال نفسها لم أعد أحسن عمل شئ من برنامجى . فكنت أوّجل دائماً هذا الشئ أو ذاك ، وأنا أؤنب نفسى مر التائب سرّاً على هذا التأجيل المكرر . وقد اتفق لى فى هذا العهد الغريب أن أمضيت خمسة عشر يوماً متتابعة بغير أن أغسل قدمى ، وهذا لأنه كان لدى عشرة أضعاف الوقت الكافى لذلك . ولا تظن أن هذا كان نسياناً . كلا ! فقد كنت أنظر إلى قدمى العاريتين بشرود ، وأفكر أن لا بأس من تركهما إلى الغد أيضاً . وما زلت أوّجل غسلهما من غد إلى غد حتى أصبحت غاية فى القذارة .

وكنت أشرع فى التدخين أثناء اغتسالى ، أو أفتح كتاباً ، ثم أغوص فى ركن من الأريكة وأحلم أحلاماً مضطربة لا تنتهى . وكانت تنبعث من السرير المشعث نفثات

ضخمة من النوم ؛ وكانت أحلام نومي الكامنة تحت الأثاث ، وخلف الأطر ، وفي
الأزاهير المرسومة على ورق الجدران ، تطل بعين ثم تخرج فى لطف كأنها الشياطين ،
فتسترد سلطانها على الحجرة وعلى ، وتتشابك بالأيدى وتدور حول روجى فى رقصة
عاصفة ؛ ثم يقف الزمن فى عين الأبد ، كسفينة مشلولة على بحر من العسل .

وتدوم هذه الحال حتى تأتى أمى إلى الباب وتفتحه بلطف ، وهى لا تغفل فى أثناء
ذلك أن تتنحى ثلاث مرات أو أربعاً ، فتفر الأحلام كالفيران تحت الخزانة ويفارقنى
الخدر ، وتقول أمى :

– لويس ؛ أتحب أن أرتب حجرتك ؟

فأصيح وأنا أسرع بارتداء ملابسى :

– أجل ، أجل ،

ويكون الصابون قد جف على وجعتى ، ولم يبق لى وقت كاف لأحلق ذقنى ،
فأسرع بارتداء صدريتى ولبس حذائى ، وأخرج من الحجرة قائلاً :

– إنى ذاهب لأرى وظيفة النساخ التى تعرفينها .. فى مكتب ذلك الوكيل .

فتجيب أمى وهى تطوح مد الذراع بفراش الريش والوسادة ، كأن لم تعمهما
صور كثيرة حية أنا وحدى الذى أعلمها :

– اذهب يابنى .

وأتناول قبعتى وعصاى ، وإن كان بعضهم قد نبهنى فى مناسبة قريبة إلى أن
العصا تكسب المستخدم سيما « الهاوى » التى تزهد فيه الناس ثم أجذب خلفى باب
المسكن .

ولا أكاد أغلق ذلك الباب ، حتى أرى نور الدرج الأعشى تجول فيه زحمة من
الصور المتسلقة الواثبة المداعبة . إن شياطينى هناك . إنها تنتظرنى ، كالكلاب التى
تريد أن تؤخذ للنزهة . فتحيط بى وهى تنبح ، وتلحس يدى وتقفز عند عقبى . وأصطرع
– وأنا أهبط الدرج الرطب البالى – بين ألف حلم خرافى ، كغريق يغوص مصوباً
فى الماء .

* * *

وأخبط فى الشوارع خبط عشواء . والنهار أمامى كأنه صحراء محرقة لا أفق لها
ولا مفاجأة فيها ... يضحكنى أولئك الذين يقولون إن الحياة قصيرة .. أسمع ؟ إنهم
يضحكوننى . يضحكوننى ! إن السنين هى القصار أما الدقائق فطويلة . وما حياتى
أنا إلا دقائق .

أسير على الطوار مؤثراً حافته الجرانيتية وأدع طرف عصاى ينغمس فى مسيل
الماء جنب الطوار . وأنا أحب مسایل الشوارع ، فهى تجرى على الأرض المرصوفة
وتجف فى ساعة محدودة وأنا أعلمها ؛ وهى لا تولد من منبع ، بل من صنوبر
من الحديد . وأسفاه ! إن نصيب المرء من الشعر لا يعدو ما يستحق . فقد أمضيت -
على الرغم من أمى - شطراً من طفولتى أصطاد الدبابيس الصدئة وأزوار الأحذية
الصغيرة من شارع تورنفور وقد انقضى عهدى اليوم بالببططة فى الماء الوسخ ، ولكنى
ما زلت أراقب الشقف الصغير والحصى والغثاء الذى يغسله السيل ويسحبه قليلاً
قليلاً صوب البالوعة . بل إن السيل ليغنى أغنيته الحزينة الصغيرة ، فأفكر فى
السهوب والأنهار ، والأقطار التى لن أعرفها أبداً . إنه ماء مدنى آسن ، ولكنه ماء على
كل حال ! البحر ... البحيرات العظيمة ... سيول الجبال ! لئن مررت بشارع لاموند فى
وقت متأخر من المساء ، ساعة تهمد أصوات باريس وتنام ، لتسمعن من تحنك كل
بالوعات جبل سنت جنفيف تغنى برقة وكأنها شلالات بعيدة . إنها الشلالات فى
رحلاتى أنا .

وكيف يكون الأمر غير ذلك وأنا لم أغادر باريس ، ولم أر شيئاً ، ولا أعلم شيئاً ؟
أنا رجل نكرة لا يؤبه له . أجل ، أجل ، رجل لا يؤبه له . وليس لدى شىء خارق أحدثك
به ، فكل وقائعى حدثت فى باطنى . وإنه لكرم منك أن تستمع إلى أنا الذى ليس لدى
ما أقوله لك ، أنا الذى لم أخلق إلا من توافه .

كنت أسير على الطوار إذاً . ولم يكن شقائى شديداً ، فقد كان لى من الروح ما
يكاد يعادل روح عذراء دودة القز ، ولم أكن أتعجل تحطيم غشائى . وما كان أشد
رغبتى أن أظل حتى المساء فى هذا النوع من الخدر الذى يمد لى فى الليل مداً ، ولكن
أجهزة شتى كانت تبدأ عملها . - وأسفاه ! - فسرعان ما تأتى نهاية ارتياحى .

وكان ذلك يبدأ فى أكثر الأحيان بتلك القصة السخيفة : قصة عدد الخطى ، أتدرك
ما أرمى إليه ؟ إن قطع الجرانيت التى تكون حافة الطوار موضوعة طرفاً لطرف .
فكنت أمشى فوقها أول الأمر غير مفكر فى ذلك ثم أبداً ألاحظ أنى أضع قدمى بين كل

خطوتين على الفرجة بين الحجرتين ثم ألتزم - شبه مرغم - أن أخطو خطوتين بالضبط بين كل فرجة وأخرى ألتزم ذلك بغير أن ألتزمه ؛ ألتزمه بغير أن يبدو على أنى أفعله . لأنى - أولاً - أخجل أن أعرض على المارة مشهد حماقتى ؛ ثم لأنى مقتنع كل الاقتناع بأن ذلك لا يعدو لعبة من جسمى ، لا يشارك فيها روحى بنصيب .

واليك ما فى هذا الأمر من جنون : تأتى لحظة لا أستطيع فيها أن أنود فكرى عن قصة الفجوات هذه ، ثم أحس قليلاً قليلاً ، وأنا أظهار بأنى لا أقيم للأمر وزناً ، أنى أمد خطوتى أو أقصرها حتى تقع نعلى على الفجوة تماماً . وأفعل ذلك بغير اكثرات ، كأنى أود أن أخفى عن نفسى ما أفعّل . وتستمر هذه الحالة زمناً . ثم ألاحظ فجأة أن الخيال يبدأ دوره . فأقول لنفسى - لا ، لست أنا الذى أقول بل هو شىء فى نفسى ، بغير أن يكون هو نفسى - أقول لنفسى إنى إذا لم أبلغ ثالث مصباح من مصابيح الغاز وأنا أخطو بانتظام خطوتين على كل قطعة جرانيت ، فسوف يقضى على حياتى بالضيق ، وعلى محاولتى بالفشل . فإذا وصلت إلى ثالث مصباح عينت لنفسى واجباً آخر ، كأن أصل بتلك الشروط نفسها إلى كشك لبيع الصحف . واحد ، اثنان ، واحد ، اثنان ... أفاهم أنت ؟ ذلك والشيطان يتمتم : إذا سار كل شىء كما ينبغى .. إذا ضبطت خطوتيك ، فلا بد أن يصيبك بعض الخير فى يومك هذا .

أه ! أمممكن حقاً ياسيدى أن يكون المرء غيباً إلى هذا الحد ؟ تذكر أنى لا أومن بته بالخرافات ، وتذكر على الخصوص أنى حين كنت أتصنع هذه الأحاسيس لم أكن أكف عن التأمل فى نفسى تأملاً يشوبه الاحتقار بل فى أكثر الأحيان عن التفكير فى أمر بعيد .

وقد تكون هذه القصة المضحكة ، قصة الهاوية . وسأشرح لك ذلك . وإنى لأخجل منه ؛ لكن مادمت قد شرعت أفضى إليك بكل شىء ، فلا أقص عليك بكل شىء . وأعنى أنى لن أقول لك أشياء كثيرة ، فإن ذلك الذى يحاول أن يشرح فى عشر مجلدات ما يخطر على قلب إنسان فى دقيقة واحدة ، إنه ليحاول أمراً فوق طاقة البشر .

كنت أسير إذن على حافة الطوار سيراً سهلاً طبيعياً ، ولا أفكر فى شىء معين . وإذا بى أتخيل - أو هى على الأرجح فكرة أكثر منها خيالاً حقاً - أن على يمين الحافة الضيقة وعلى يسارها هاوية ، وأنه يجب أن أتقدم بلا أدنى عثرة ؛ ويكون ذلك حسبى حتى أتردد ، وتضطرب ساقاى ، وأتعث فى مشيتى ، ثم ينتهى أمرى بأن أضع قدمى على الطوار أو فى مسيل الماء .

وحينئذ يسرى عني ، فقد بطل السحر ، وأغبر الطوار أو أنتقل إلى وسط الشارع ، وألبث برهة طويلة لا أفكر في هذه الحماقات .

ثم أصل إلى مفترق طرق ، وهذه قصة أخرى ! فإن تعدد المسالك يسلمني إلى نوع من الذهول .

ولم يكن يعرفوني من قبل وأنا ذاهب إلى المكتب شيء من هذا التردد . فقد كان هناك طريق واحد يبدو لي ممكناً : هو ذلك الذي ثبته اعتياد خمسة أعوام أو ستة ، هو ذلك الذي أقامت صواه علامات كثيرة معهودة . أما النزاهات التي أحدثك عنها فشأنها غير هذا الشأن ، فخطاي في أغلب الأحيان لا تتجه إلى قصد معين ، ووقتي لا أجد فيه ضيقاً . وإذن فأنا أقف عند زاوية منزل ، أمام دكان كئيب المنظر ، أجذب يسرة ، وأدفع يمناً ، موزعاً مذبذباً ، أدور حول نفسي كزورق يسحبه التيار في وجهة وتحته الريح إلى ضدها . فأغمض عيني وأستخير الحظ .

وعلى الرغم من ذلك يتفق لي وأنا سائر على هذا النمط أن أصل . أو بعبارة أخرى أنتهي إلى أن أجد نفسي في مكان لا كسائر الأمكنة . ويكون ذلك مثلاً مكتب الوكيل ، حيث وظيفة النساخ .

فأدخل ، وأنتظر ، ويسار بي إلى موظف كبير ، وأجد دائماً شيئاً معطلاً فيما أن الوظيفة قد شغلت منذ البارحة ، وإما أنها لا تصلح إلا لشاب حديث السن ، وإما أنها تتطلب خبرة خاصة تعوزني .

وربما طلب مني « رئيس الكتبة » ما لدي من شهادات مستخدمى السابقين . فأعده بأن أحضرها في غد ثم أتدحرج مسرعاً على الدرج .

وينتهي نهاري ، فقد حاولت ، وأثبتت لي محاولتي مرة أخرى أنه من المستحيل على أن أظفر بعمل . وكان هذا اليقين هو عين ما أطلب .

وأذهب بعد الغداء إلى حجرتي الصغيرة ، واثقاً مما ينتظرني هناك ، وإن تجاهلت هذا الذي أعلم .

أه ! لو أنني - ياسيدي - أخاتل ألد أعدائي نصف ما أخاتل نفسي لكنت في الحقيقة وغداً .

وأشعل عقب لفيفة ، وأبسط الصحيفة ، وأكتب رسالة تافهة . وأسمع الأصوات التي تحدثها أمي وهي ترفع أدوات المائدة أو تغسل الآنية ، فأقول بصوت عال :

- إني عازم على أن أذهب وشيكا إلى مصنع مونتروج هذا . أتعرفينه يا أمى ؟
أو أقول :

- لم أتلق بعد رداً من محال مالندوار وسيمونيه إننى أبحث فى مصورة
باريس ..

هذه أمثلة من السخافات التى كنت أقولها لاستبعد الأسباب التى اجتذبتنى إلى
حجرتى .

ولكنى أرمق أريكتى البالية من طرف خفى ، فأجد فيها الاستهزاء الخبيث المتعالى
الذى تجده فيمن ألف الظفر . وأنظر إليها بغیظ قانط . فتكتفى بأن تتعاب بكل ما فى
كسائها من خروق .

وأذهب إلى النافذة وأطالع السحب مهتما . هل يجب أن أحمل مظلة ؟ لا ! وأحكم
رباط عنقى أمام المرأة ، وأتصفح مذكرتى . ثم أجد نفسى فجأة ممدداً على الأريكة
وأنا لا أدري كيف حدث لى ذلك . فأسمع بظهرى الأسلاك الحلزونية تكتم ضحة مهينة .

لا ضير ! لقد كنت ممدداً كزورق فى قاع جون . وكانت الأمواج تحملنى ، وكنت
أسمع التيارات والنسمات ، وكان شيطان الليل يعقد ذراعيه على صدرى فى عناق
وثيق ، فنغوص كلانا فى العالم الآخر ، ونحن متشابكان ووجهى لوجه الشيطان .

وكانت اليقظة فظيعة والجسد أثقل من جبل ، وفى الحلق حموضة الطعام الذى لم
يهضم بعد .

وأتناول قبعتى وعصاى ثانية لأعود إلى الشارع .

وكنت أفكر أحيانا فى وظيفة بعينها يقيض لى أن أعثر عليها وأظفر بها ، وأتخيل
ألواناً من السعادة لا يقبلها العقل سأحصل على وظيفة سكرتير أجل ، وظيفة سكرتير !
وسيكون لى مكتب مستقل ، له نافذة تطل على شجرة تغمرنى بضوء أخضر حزين ،
وسأترك فى وحدة تامة ، بل سينتهى الأمر بأن أنسى بعض النسيان ، وأعيش ثمة فى
سلام عميق ، وأظل هادئاً هادئاً كائن ميت .

سيدي ! ستظن بى ظناً قد لا يكون فيه صواب كثير . ستظن أنى دنىء الخلق
وأنى أكره الناس ، أنا أكره الناس ؟ هذا غير معقول . فأنا أحب الناس ولا ألام إذا لم
أستطع احتمالهم فى أكثر الأحيان . إننى أحلم بالوفاق ، أحلم بحياة متناغمة واثقة
كعناق أبدى . وعندما أفكر فى الناس أجدهم جديرين بالحب حتى إن الدموع لتتفر

إلى عيني . ليتنى لا أخاطبهم إلا بكلمات الود ، ليتنى أفرغ قلبي فى قلوبهم ، ليتنى أشارك فى آمالهم وأعمالهم وأشغل مكاناً فى حياتهم ، وأريهم مبلغ وفائى وثباتى على العهد واستعدادى للتضحية ! ولكن فى نفسى نزقا وحساسية وانفعالا ، فلا أكاد أجد نفسى وجها لوجه مع كائنات حية تشبهنى - لا مع صور خيالية - حتى تغيب شجاعتي، وتهيج حواسي ، ولا أتمنى إلا أن أعود إلى وحدتي، لأسترد محبتي للناس ، كما أحبهم حين يغيبون عني ولا تقع عليهم عياني .

ها أنت ذا ترى أنى أبذل ما فى وسعى لأشرح لك أشياء لا يمكن أن تشرح ، ولأبين لك على الخصوص أنه إن بدت منى كراهة للناس فما ذاك إلا لأنى مفرط فى محبة البشرية .

وقد تقول لى إن مثلى ينبغى له أن يلتمس سعادته فى الأشياء . وأنا أفهم ذلك جيداً ، ولكن الضرورة تلزمك أن تبذل للأشياء أولاً لكى تجلب لك المسرة ، وأنا فى أغلب الأحيان روح عقيم قاحل لا يستطيع أن يبدأ بالبذل .

وهكذا كنت أسير فى الشوارع أجتر حياتى ، وأقرر فى كل دقيقة تقريباً أن الحياة تروغ منى ، وأنى خذلت ، وأنى فقير حق ، وأنى بائس .

ورأيت ذات يوم فى شارع ألم ، وهو شارع يغلب عليه الهدوء ، عاملاً صبيّاً يجر عربة يد . وكانت العربة موقرة والعامل كضفدع تسحب سفينة ، وكان يمسك بإحدى يديه إحدى ذراعى العربة ، وبالأخرى .. أه .. احزر ! كان يمسك بالأخرى كتاباً ويقرأ - وهو يجر عربته - بعينين تبرزان من رأسه .

لست أدري ماذا كان يقرأ هذا الصبي . ولكنى لبثت طوال المساء وقد انطبع فى نفسى إحساس كئيب بالحسد والخزى . فقد بدت لى حياة هذا الفتى الطيب الذى يقرأ بين ذراعى العربة ، حياة مليئة عنية مرموقة ، إذا قيست بحياتى العادية الجوفاء .

وغالباً ما كانت نزهاتى على الطوار تسبب لى حوادث كريهة . وإنى أطلق اسم « الحوادث » مرة أخرى على أشياء ليست من الحوادث فى شىء أى على أشياء لا تجرى إلا فى باطن الكائن .

كنت أسير بخطى منتظمة مستغرقاً في أفكار قديمة ، وذكريات ، وأحلام بتراء ؛ ولم أك أنظر من يسرون في اتجاهي ، ولا من يسرون في الاتجاه المقابل له . وإذا بامرأة كانت تمشي أمامي ولم أكد أراها تلتفت مستاءة وتغير الطوار فجأة .

وأؤكد لك أن هذا كان أمراً محققاً ، وأنه ملائمة مرارة . الأمر في طريقي التعس فأتظن تبع نساء من أولئك الحمقى الذين يسرون في الأعقاب ؟ وما ذلك إلا لأنني قد أكون مشيت ثلاث دقائق أو أربعاً كما تمشي هذه الخرقاء . وهاتيك حياة المدن الكبيرة ! يجب أن تكون لك مشيتك الخاصة بك ، وأن تعمل على ألا توافق مشية غيرك ، فإذا مشيت كمشية أحد سواك فقد اعتديت على حريته بعض الاعتداء ، أو لعلك قد روعت حياته ، علينا أن نعيش مع ملايين من الكائنات أمثالنا ؛ متظاهرين بأننا لا نراهم بل متعمدين الفرار منهم في أدب وحسن عشرة .

وأعترف لك بأن هذا كله يثير اشمئزازي ، ويسببه تعودت أن أختار الشوارع المقفرة من الناس .

وهذه الشوارع نادرة في باريس . ولهذا كنت مضطراً - في أكثر الأحيان - أن أمر على كرهه بأماكن شديدة الحركة . ومن ثم وجدت نفسي ذات مساء في سوق ليون ده بلفور بطريق أرجو . وإنني لأذكر ذلك المساء لأنني رأيت شيئاً عجيباً : شيئاً أجده محزناً وقد تجده أنت مروحاً ، إذ كانت الحقيقة أن لا شيء في محزن على الإطلاق .

ذكرت لك أنني كنت أسير في طريق أرجو الذي تحف به في هذا الجزء أخصاص حقيرة قدرة تكون حافة السوق . تلك الأخصاص التي تباع فيها الفطائر « الذائبة » الخضراء والوردية الألوان ، والتي تكسر فيها الأنابيب بطلقات البندقية ، وتعرض فيها امرأة نصفها سمكة ... أشياء - في اختصار - تجعل المرء يبكي سأمًا .

وفجأة رأيت شيئاً كالخيمة ، وضعت عليه قطعة من نسيج القطن ، تعلن أن في داخل هذه الخيمة « البروفسير مستيناكس . يكشف المستقبل بالطرق المغنطية » . وكان أمام الخص جمع صغير من العمال والجنود والمتبطلين ، كما كان هناك شيخ شريد له لحية بنت خمسة عشر يوماً ، بيضاء ناصعة ، وتستتر جسمه الأسمال ، ويلوح على وجهه المنهك قنوط ساغب لا أستطيع وصفه . رجل أشقى على الهلاك ، ووهن منه العظم ، تنبعث منه ريح يؤس مقيم .

ثم إنه دخل الخص ياسيدى . دخل وراء الخادمت الصغيرات وعمال المتاجر
وصبيانها . وكان قابضا يده بشدة على عشر فرنك لا شك أنه نصيبه من جهد
نهار ، فقدمه فى قلق وتردد باديين ليدخل السقيفة حيث يحدث عن مستقبله .
تلك أشياء كنت أراها فى جولاتى .

* * *

إننى أطيل الوقوف عند تفاهات أرويهها لك وأغفل السلك الذى ينظم قصتى .

لقد استمرت الفترة التى حدثت عندها إلى شهر أكتوبر على وجه التقريب . ولم أكن أحسب الأيام ، بل كنت أحس الزمن ينزلق من تحتى ولا أسأل نفسى أكثر من ذلك . الحياة الحقّة ؟ إننى كنت أؤجل الحياة إلى ما بعد ذلك ، إلى التاريخ غير المحدد الذى ستقع فيه الأحداث التى يجب أن تقع لى . أفاهم أنت ؟ على أنى لاحظت تغير الطقس ، فقد جاء البرد وقالت لى أمى ذات يوم :

- لويس : ينبغى أن تلبس ملابسك الشتوية بعد وقت قصير .

وكان عندى للشتاء حلة كاملة عتيقة رمادية ، أحبها كثيراً . وقد أبقت عليها عناية أمى بعض الاحتشام ، ولكن نسيجها كان ناعماً رقيقاً مصقولاً حتى ليبدو عليها الذل والتعاسة . وكان ذلك يسرنى . فقد كانت تلك هى الحلة التى لاعت بيننا وبين روى ، وكنت ألتمس كل يوم جميع ثنایا هذا الرداء وعاهاته وترميماته ، وكأنها عاداتى الشخصية أو مظاهر فقرى الباطنى وبفضل هذا السروال الأحنف الناحل وبر الركبتين ، وبفضل هذه الصدرية الباهتة الحدباء ، كنت أطمئن إلى أنى سأمر غير ملحوظ . وهو نعمة كبيرة من نعم الحياة .

لهذا جعلتنى أمى ألبس ردائى الشتوى وهو هذه السترة المدفئة المائلة إلى السواد ، والتى تراها على اليوم ، وكانت أقرب إلى الجدة آنذاك وكنت أستبشعها ، وما زلت ألعنها .. أنظر إلى أطرافها المضحكة التى تجعلنى أشبه شىء بالخنفساء ! أمن الممكن أن يضطر الإنسان فى سبيل كسب عيشه لا إلى النزول عن وقته فحسب بل إلى تضحية ميوله أيضاً وإلى التخلّى عن مظهره الخارجى كذلك ؟

كنت ألبس هذه السترة إذن فى جولاتى ونزهاتى ، وكنت لا أحمل فى العادة إلا مقادير تافهة من النقود لا تعدو كسور الفرنك ، إذ لم أكن أجروّ منذ فقدت وظيفتى على أن أطلب من أمى نقوداً ، ولم تكن المسكينة لتحديثى قط عن هذه الأشياء ، ولكنى كنت أشتري لها أحياناً بعض الحاجات ، ولا أرد إليها بقية النقود ، فكانت وسيلة مستورة بعيدة تكفى لمدى بالفلوس القليلة التى تفى بضروراتى الضئيلة . ولا تظن أنى كنت أنفق شيئاً ، ولكن الأمر لا يخلو من سيارة عامة أو قطار كهربائى ، أو طابع بريد من حين إلى حين .

وكان هذا النوع من البؤس ، الذى لم أهتم له وأنا فى حلتى البالية ، يبدو لى مروعاً حين أحمل سترة من صوف اسكتلندا تليق ببورجوازي أو موظف رافه . وكانت هذه السترة تبدو لى - فى تنافرها مع حالة جيبي - كذبة لا تحتمل . ولا شك أنى مدين لها بأفكار شتى عارية عن المنطق ، ويسببها أيضاً بدأت أبحث عن العمل بحثاً أكثر نشاطاً وأدنى إلى الواقع .

إن الوظائف كالأفكار ، تجدها حين لا تبحث عنها ، فما أكثر تسرع أصحاب المراكز الطبية الثابتة من الناس إلى أن يقولوا : « إن الفتى الشجاع القوى العزم حقاً لابد أن يصل .. » أه ! سيدى ! الحظ والنجاح يستطيعان أن يجعلا الناس ظلمة أغبياء !

منذ تلك اللحظة التى قلت فيها لنفسى ، بحسرة الواقع : « هيا هيا ! يجب أن أحصل على عمل ! » انطبع فى نفسى إحساس مبهم ولكنه ملازم عنيد ، وهو أنى لن أجد عملاً ما . وقد كان أن لم أجد عملاً ما ، أو عملاً يمكننى قبوله بون أن أخط من كرامتى .

جدار ! جدار ! إحساس بآنك أمام جدار شاهق ، شديد الملاسة عظيم السمك ، وأن هذا الجدار هو المستقبل، وأنك لا تستطيع أن تعلوه ولا أن تهدمه ولا أن تنفذ منه . إن الذين لم يجربوا فى حياتهم غير السعادة لا يستطيعون أن يدركوا مثل هذا الإحساس .

لقد اتفق لك - بلا ريب - أنك انتظرت أحداً فى المساء فى ركن شارع تحت مصباح من مصابيح الغاز . وقد اتفق لك أن انتظرت ساعة ثم ساعتين ، ثم علمت أن الشخص الذى تنتظره لن يأتى ، وعلى الرغم من ذلك ظللت تأمل . لقد اتفق لك أن خبرت مثل هذه الأمور ، كما جربت ألم الانصراف والتلفت مرة فى كل عشرة أمتار ، وإن كان جلياً أنه لن يأتى أحد .. جربت ألم التلفت والنكوص ، وإن كنت موقناً أن ذلك كله لن يجدى عليك فتيلاً .

كانت حياتى تشبه من كل وجه هذا الانتظار الذى لا يجدى ، فى ركن الشارع ، تحت مصباح الغاز ووابل المطر . فقد كنت أعلم أن الرجاء عبث كله ، وكنت مع ذلك أصطنع (مرات كثيرة كل يوم) حركات الأمل الراجى ، وأسلك مسلكه .

وكان الشئ العجيب فى أمرى أثناء جولتى - فى هذه الأوقات من العزلة المتحركة - هو النشاط الزائد الذى تميز به تفكيرى .

.. من العسير أن تعبر بالتحديد عما تريده . فأنا حين أتحدث عن النشاط الذى كان يميز تفكيرى ألاحظ أنى لا أترجم الحقيقة بقة ، فالقول أنى كنت أفكر بنشاط قد يوهم أنى كنت أعكف على التفكير عكوفاً إرادياً ظافراً . مع أن الأمر خلاف ذلك . فالواقع أن الشيء الذى يسترعى النظر هو - على الأرجح - السلبية التى كنت أفكر بها . فقد كانت تساورنى وتتتابنى وتنغصنى وتأسرنى ألف فكرة أخضع لها ولا أبتعتها أنا بوجه ما . فهل أستطيع القول أنى كنت أفكر ؟ هلى أستطيع أن أدعى هذه الصفة ؟ أليس الأصح أنى كنت الشاهد العاجز ، أو أنى كنت الفريسة ؟ أليس الأصح أنى كنت ساحة المعركة التى حاق بها الدمار ؟ بلى . الحق أنى ما كنت أفكر ، وما كنت أفعل شيئاً لأفكر ، وإنما كان التفكير يدور فى ، وخلالى ، وتجاهى ، وضدى كان التفكير يدور بلا مشقة على حسابى ، كما يقام معكسر فى قطر مغزوء .

هناك - ولا شك - ألباء مجددون يعتمدون أن يفكروا فى موضوع بعيد وينفذون ما اعتمدوه . هناك من هم قادرون على أن يسيروا روحهم كالسفينة على بحر تناثرت فيه الصخور ... أناس يفكرون حقاً ، أى يفكرون فيما يريدون التفكير فيه ، فيالهم من سعداء !

أما أنا ففى أكثر الأحيان مجرى نهر ! أحس تياراً جياشاً يتدافع ، بيد أنى أحتويه . ثم إنى - وانتبه لكلماتى ! - لا أحتويه دائماً ، فهناك الفيضان .

ولك أن ترى الأمور كما تشاء ، فالحقيقة الواقعة هى أن روحى غدت مسرح ثوران شديد ، وأنا أطوف باحثاً عن هذه الوظيفة التى لا تنال .

وهناك تقع حادثة سأحاول روايتها لك ، ويجب أن أرويها لك ، ولكنى لا أستطيع روايتها فى سر ولا فى هدوء .

عدت إلى المنزل فى أمسية من أمسيات وسط أكتوبر ، ولعل الساعة كانت السابعة أو الثامنة ، وكان ينزل حينذاك مطر من تلك الأمطار التى لا ينبغى أن نقول عنها إنها تنزل ، لأنها كالتى تنضح من الهواء المذنف ، والأرض ، والأشياء ، والناس .

وكننت قد رفضت فى عصر ذلك اليوم عرضين أو ثلاثة عروض شائنة : أعمالاً كأعمال العبيد أو الآلات أو الدواب . وكننت أسير فى شارع فوجيرار مقبلاً من أقصى

جربيل . وأخذت أسترجع نهاري . فما طالعنى منه إلا وجه كئيب شرس ، ولم يكن فى جيبى ما أركب به السيارة العامة ، فمشيت غير مسرع بين برك الماء والوحل ، وأنا ثمل بئاسى ومراراتى .

فلما حاذيت شارع لتريه - وإنى لأذكر المكان جيداً كما ترى - خطرت لى فكرة . وهى أننى عندما أصل إلى المنزل سأعلم أن أمى قد ماتت فجأة .

وأرجو أن تلاحظ أنه لم يكن ثمة سبب ما - ولا ثمة الآن أى سبب - يجعلنى أخشى هذا الأمر . فليس لأمى من العمر إلا ستون عاماً ، ولا أعرف بها علة ، وهى تنعم بصحة طيبة منتظمة . ولهذا لا أفكر فى موتها ألبتة إلا كما أفكر فى حادث بعيد ، أو غير محتمل ... حادث يكفينى تخيله لتمتلىء عيناى بالدموع .

ففى ذلك المساء بينما كنت أنعطف من شارع لتريه ، خلتنى أعود إلى المنزل وأجد أمى ميتة . وحاولت أن أطرد هذه الفكرة غير المعقولة ، وأؤكد لك أنها لم تكن فكرة مزعجة ، إذ لم تكن من جنس الإلهام الذى يستبق الحوادث ، بل كانت مجرد تأليف أفكار .. حاولت كما قلت لك ، ولكنى سرعان ما لاحظت أن هذه الفكرة لم تأت وحدها ، فبينما كنت أحاول نودها عنى ، كانت تهاجمنى أفكار أخرى شتى الأشكال ، كأنها نتائج للفكرة الأولى . وكانت تهاجمنى مهاجمة منطقية ، كما يكون الهجوم الحسن التركيز .

كانت أمى ميتة . لم ؟ وماذا بعد ؟ ما الذى يحدث ؟ الدفن . ورأيت الدفن ، والنعش ، والشوارع الصغيرة ، والمقبرة . كل ذلك رأيته . ثم ماذا ؟ المنزل الخالى . ثم ماذا ؟ رأيت نفسى ، وحياتى كلها ترسم من جديد .

سرعان ما رأيت حياتى ترسم من جديد ، لا بطريقة معينة بل بطرق كثيرة مختلفة . وكان أول شىء خطر ببالى هو هذا : هنالك الدخل القليل . وقد حدثك عنه من قبل . إنه مائتان وأربعون فرنكا فى كل ثلاثة أشهر . وهو ملك أسمى لى ، لا يُحاز ولا ينقل ، بل لا يجوز رهنه ، وتلك فكرة غريبة لعم لى مات مفلوجاً .

وقصارى القول أنه كان هنالك الدخل القليل . ثمانون فرنكا فى الشهر . فنظمت حياتى ، واستأجرت غرفة ، وصرت حراً .. حراً وبئاساً . الخبز والبطاطس . دخلت فى صدفة من الوحدة المستوحشة ، لم يبق للناس حقوق قبلى . كنت أحيأ لنفسى . بمرارة . وهكذا كنت أنتظر الأشياء التى لا بد أن تحدث لى فى المستقبل ، وأنا فى استقلال مسكر . آه ؟

أه ! وجدتني فجأة أمام مجلس الشيوخ ، ولم أدر كيف وصلت إلى هناك .
وجدتني أمام مجلس الشيوخ ، ورفعت قبعتي التي بلل ظاهرها المطر وباطنها العرق .
وتملكتني رعشة شديدة . ونظرت في ضوء المصباح مرعوباً إلى يديّ النديتين
المرتجفتين كيدي سكير أو قاتل خوراً . وعادت السير على حافة الطوار .

إنّ فهذا هو الرجل الذي كنته ! لقد فكرت في موت أمي ، فكرت فيه بهدوء ،
وسرعان ما نظمت حياتي بغير أمي . ألغيتها فكراً لأتمتع بالدخل القليل . هذا هو
الرجل الذي كنته .

لن أسطيع أبداً أن أقول لك ما حدث . لقد نشب في باطن وجودي صراع .
وكان صوت جلي رشيد يقول : « هذه أفكار غير معقولة فيجب أن تحرقها وتطرحها .
وكان صوت آخر صافر محقق يردد بعناد : « جبان ! جبان ! » . ولكن صوتاً ثالثاً كان
يعد بوضوح وهدوء ، على الرغم من تلك الجلبة : « عشرون فرنكاً في الشهر للغرفة ،
فيبقى فرنكان كل يوم للمعيشة . ثلاثة أرباع فرنك للغداء ، ونصف فرنك للعشاء ، ثم
الكتب ، والثياب ، والحرية » .

أمريت يدي على وجهي وأنا أتنفس بصعوبة ، وكانت وجنتاي تتصببان ماء ،
ولا أظنه كان دمعاً ، فقد كان يزداد انهماراً ، وكنت أحس إعياء واشمئزازاً .

وجلست برهة على السور الحجري الذي تشقه بوابة لكسمبورج وبدأ لي أن هذه
الراحلة لعضلاتي تهدئ غليان أفكارى ، إن صح أن أسمى « أفكارى » هذه الحشرة
التي لا أستطيع قمعها ولا التخلص منها . وشعرت أني أتمالك نفسي قليلاً ، وأنى
أضطر روحي إلى حالة من السكون ، تذليلك حصاناً حروناً يجذب أعنته جذباً
شديداً . كنت أفكر ببطء وأنا أحرك شفتي ، كنت أفكر كلمة كلمة : « إذا ماتت
أمي .. » ، وسرعان ما شعرت بحلقى يكظمه الأسى ، وعصر معدتي حزن عميق كنت
أعرفه جيداً ، لأنى جريته من قبل . وإن جاز هذا التعبير قلت إننى قد سرى عنى لهذا
الآلم أيما تسريه ، ففكرت مرة أخرى : « هذه فكرة نايبة كل النبو ، فما من سبب
يجعل أمي ترحل عنى . » لا ، لم يكن هنالك من سبب ، وأخيراً قلت لأنفسى :
« لا يمكن أن يصيبني شر أكبر من هذا . » فأجاب حزنى كله : « لا ! لا ! لا ! لا شر
أكبر من هذا » .

وهكذا استطعت أن أعتقد - بضع ثوان - أنني قد استرددت السلطان ، وأنى استعدت القدرة على توجيه روحى .

وتنبهت فى تلك اللحظة إلى أنى لست وحدى بحذاء بوابة لكسمبورج . فقد كان هناك شيخ بئس على رأسه قبعة منورة كورها المطر ، وكان يقترب فى هدوء وهو يمشى على حافة الطريق ، وحقواه يحتكان بالجدار الصغير المنخفض . وكان يقول بصوت خفيض : « الصحف ! الصحف ! » فلا يسمعه أحد .

وعرفت فيه الأعمى الذى يقاد ثمة كل مساء . وكان رأسه مائلا بعض الميل ، مردوداً إلى الخلف قليلاً ، ووجهه الجامد المفلق يستقبل المطر ، فلو رأيته لقلت إنه يسير زحفاً ، وقف على قيد خطوتين منى ، وكأنه أحسنى ، أو كأنه شعر بضوضاء حياتى . فنظرت إليه وغمغمت :

- هذا ! هذا ! فيم يفكر هذا ؟

- وكدت أدنو منه وأكلمه . أى كلام ؟ أى كلام ؟ لم يكن هناك وجه اشتراك بين هُوتِه وهوتى .

وعاودت السير . فرأيت الأعمى بدأ يزحف بحذاء البوابة ، وكأن ابتعادي ترك له الطريق خالياً .

وظللت فى شبه هدوء حتى وصلت إلى ميدان پانتيون . وأعنى أنني كنت فارغاً أو مقفراً من كل فكرة . فلما دخلت فى شارع أَلَم إذا بى أحسب : « ثلاثة أرباع فرنك للغداء . نصف فرنك للعشاء . سأغسل ملابسى بنفسى . لا حاجة إلى البحث عن عمل منذ الآن . الوحدة ! » .

ورفعت كتفى متألماً ، وعزمت على أن أدور دورة صغيرة حتى لا أعود إلى المنزل تَوّاً . وهذا برهان لك على أنى لم أكن فى الحقيقة أشعر بقلق ، فقد كنت أعلم جيداً وأحس جيداً أن أمى بمنأى من الخطر ، وأنها لم تكن محفوفة بالخطر إلا فى ، فى أنا وحدى .

رجعت أدراجى أَمْشى متمهلاً صوب شارع كلوفيس . وكنت أفكر بنظام وإلحاح : « إذا بعث أكثر الأمتعة فسوف يكون فى استطاعتى أن أرحل رحلة قصيرة » .

إذن فلا شيء يمكن أن أفعله ! إنتنى ما عدت أفكر بالجمل الشرطية بل بالأفعال المستقبلية لأشياء يمكن أن أفعله ! لم أكن سيد أفكارى ، فعبت أن أقاوم ، وعبت على الخصوص أن أضلل نفسى عن جريمتى هذه ، فما كان فى طوقى ألا أفكر تفكير المجرمين .

سرت على مهل فى الشوارع الصغيرة التى توصلنى إلى شارع بوديه فير . ونفذت إلى منزلى ، وأنا مقتنع كل الاقتناع بأننى ما زلت أحب أمى حباً ملؤه الحنان ، ولكنى عاجز كل العجز أن أصد عنها خيالاتى ، وأن أحميها من أن تقتل فى باطنى ، وألا أقتلها فى باطنى .

* * *

كانت المائدة تشغل معظم المساحة الخالية وسط الغرفة ، وقد تجردت من المشمع الذى يغطيها عادة ، وطولت بوصلتيها . وكان مصباحنا القديم ذو القائمة الرخامية ينير قطعاً من النسيج مقصوفة وموضوعة على المائدة ، ونماذج مصنوعة من النسيج الموصلى ، وعلب دبابيس ، وكرات خيط . وكانت امرأتان تخيطان وهما مائلتان نحو المصباح ، وشعرهما يكاد يختلط بعضه ببعض . وكانت هاتان المرأتان هما أمى ومرجريت ، جارتنا الخياطة التى حدثك عنها من قبل .

وقفت فى إطار الباب ، وعرانى - وأنا أنظر إلى ذلك المشهد الهادئ - انقباض شديد .

ورفعت أمى عينين بهرهما نور المصباح ، والتمست وجهى فى الظلام ، ثم ابتسمت ابتسامة حلوة مستعطفة وقالت :

- أهذا أنت يا لويس ؟ إن عشاءك معد فى المطبخ يا ولدى ، وقد تركت الحساء على نار لطيفة .

ودقت بكشتبانها المائدة مرتين أو ثلاثاً ، كما تفعل الخياطات غالباً ، وأردفت بصوت فيه شيء من الاضطراب :

- لقد استولينا على غرفة الطعام كما ترى . إن مرجريت مثقلة بالعمل ، ولذا أساعدها قليلاً .

فمضيت إلى المطبخ ولم أقل شيئاً . وماذا يقال ؟ ألم أفهم ؟ ألم يكن الأمر واضحاً بحيث أفهم ؟

أمسكت الإناء الذى كان ينشُ فيه الحساء ، وجلست فى مكانى المعهود بين البالوعة وخزانة الخشب الأبيض ، وشرعت فى الأكل .

هذا إذن كل ما أستطيع أن أفعله أنا : الأكل ، ثم إيواء ألف فكرة مرعبة ، ثم حساب منافع الدخل القليل : وهذا هو السبب الذى من أجله تسهر أُمى لتخطيط الصدريات .

كفتنى نظرة واحدة لأفهم كل شىء : مرجريت ، والنماذج ، وفضلات النسيج ، وكرات الخيط ، وعينا أُمى اللتان ترقبان مسرى الخيط المستبهم فى النسيج الأسود . وفى آخر السهرة فرنك وخمسون سنتيما ، أو فرنك وخمسة وستون سنتيما .

لم أستطع أن أمنع نفسى من التردد : « ثلاثة أرباع فرنك للغداء ، ونصف فرنك للعشاء ... » وكأنى أود أن أنقش هذه الكلمات على جلدى ، أو أرسمها على قلبى بوخزات الدبابيس .

شربت الحساء كله ثم أكلت شيئاً من العدس كان هناك ، ثم قطعة صغيرة من السجق ، ثم قطعة من الجبن . « نصف فرنك للعشاء ! » لقد التهمت كل ما وجدته ، فكان خزيى لذلك أكبر مما أستطيع أن أقدر .

وكنت أستمع وأنا أكل للعاملتين وهما تتسامران بصوت خفيض . وأحياناً كنت ألمح حركة ، وحفيف ثوب ، وضوضاء آلة خياطة تنخر الصمت بضع دقائق . ثم يسود السكون من جديد ، تتخلله بين لحظة وأخرى هذه الشبهة الصغيرة التى تأتئها النساء ليسترجعن ريقهن الذى يتسرب من بين شفاههن المنفرجة .

ولما انتهيت من طعامى ، عبرت حجرة الطعام ، لم أنطق بكلمة ولم أتوقف ، ودخلت حجرتى ، وخلعت حذاءى المبتلين بالماء ، وانطرحت على الأريكة .

كانت حجرتى مظلمة ، وكان يدخل من الباب الذى ظل منفرجاً ضوء قليل حزين ، يكون لوحة من تلك اللوحات التى تبقى حية عميقة فى الذاكرة : ركن من الأرض الخشبية اللامعة ، وشيئان أو ثلاثة شبه مكفنة بالظلام ، والزاوية البارزة لإطار ، والشبح الصلب الأكلف لستار .

كنت هادئاً كل الهدوء . كنت فى تمام الصحو والبرود . وكان الإحساس الغالب علىَّ هو التعب والاستسلام .

لا شىء يمكن أن أفعله ! محال أن أنكر أن فى ثناياى رجلاً قادراً على التفكير فى موت أمه ، رجلاً قادراً على أن يحسب سعادته الحقيرة مقدراً موت أمه أول شىء . وأُمى تعمل فى تلك الأثناء لتطعم هذا الشخص ، لتكفل له الحساء والعدس والسجق .

وجرت محاولة للتوفيق : « هون عليك ، هون عليك . لا يستطيع المرء أن يمنع نفسه من التفكير ، وما الفكرة ؟ أى شيء أبعد عن الوجود الحقيقى من فكرة ؟ » . وكنت على وشك أن أدع هذا الخاطر يهددنى ، عندما انبعثت ذكرى مختلسة كأنها فأر يعبر غرفة مسكونة ، ذكرى أذننى رجل ضخم طيب ، يبدو للمرء أن يضع عليها أصبعه ... وينتهى المرء بأن يضع عليها إصبعه .

لا شيء يمكن أن أفعله ! أشعلت لفيفة وتمددت تمداً ، وذراعى تتأرجحان ، وساقاى منطرحتان ، وصدرى مكشوف .. حيوان معروض لكلب صيد . حقل قمح مبنول للجراد . جيفة منبوذة للغربان : ساحة عامة . فرج هلوك . أقبلوا ! أقبلوا ولا تخلوا ! إفعلا ما بدا لكم ! فماذا أنا - هناك ؟ وأين أنا - هناك ؟

كان الليل قد مضى أكبر شطريه حين نهضت ، فذهبت إلى حجرة الطعام . وعلى أن المصباح كان مظلاً فقد جعل أجفانى تطرف . وجلست إلى المائدة .

كانت مرجريت تصفُ الصندريات فى قطعة من النسيج القطنى الرقيق الأسود ، ولرجريت وجه جميل ممتلئ قليلاً ، وعينان حنونان كأن فيهما شيئاً من الوجل ، عينان بعث فيهما عمل الليل بعض الأحمرار .

جمعت أمى الدبابيس وكرات الخيط . وكنت قد التقت كشتبانها ، وأخذت أعبث به وأنا شارد اللب ، وكان ساخناً تتبعث منه رائحة خفيفة من العرق والهواء المحبوس .

قالت أمى وهى تشد أصابعها لتريحها :

- إنى راضية ، فقد أنجزنا عملاً كثيراً !

واختلط فى هدوء الليل العميق شذا القهوة بنفح الصوف الحار ، المنبعث من قطع النسيج . وكانت الغرفة الصغيرة يسودها هدوء كثيف ، شبه هلامى ، يكتم الأصوات . وكان المصباح يبدو منهوكاً ، وشعلته تنام وهى واقفة .

قبلت مرجريت أمى ، وتمنت لى ليلة طيبة وخرجت .

وأرتجت أمى الباب وعاد إلى .

- ينبغى أن تنام الآن يا بنى .

فأمسكت إحدى يديها بين يدي . كان جلد سبابتها جاسياً ثقبه وخز الإبرة . ومسحت أمى بيدها الأخرى على جبينى مرات كثيرة ، فوجدت هذه اليد غضة . ولم أقل شيئاً ... كنت أسمع صوتاً كأنه صادر من أعماق غار ، صوت قلبين يدقان .

كنت ما أزال نائماً فى صبيحة اليوم التالى ، وأنا فريسة للخدر ، حين سمعت همساً فى الغرفة المجاورة . كانت أمى تقول :

- هو ذاك . هو ذاك يامرجريت . أحضرى إلى عددًا منها كل يوم ، مثل عدد الأمس تقريباً ، ونجلس فى غرفة الطعام كأمس ، فهو أروح .

كنت قد نهضت ، وذهب عنى النعاس ، فتتاهبتنى الهموم كائى إجابة تالفة ازدهمت عليها الزنابير .

فاغتسلت مسرعاً ، وأفطرت ، وأنا أستشعر العزيمة ، بغير أن أدري ماذا عزمته عليه . لم تعد خططى تشبه ساكنات القواقع ، فقد تكون فى باطنها شىء عظمى صلب ، يشبه العمود الفقرى .

- أرتد معطفك يا لويس !

فليكن ! فليكن ! المعطف ، فالباب ، فالسلم ، فالشارع .

كان الصباح مضباً دامعاً ، والضباب ينتح قطرات كبيرة صافية على سطوح الأشياء ، والرجال يسيرون سراعاً لا يلبون على شىء ، شأن من يعلمون أين هم ذاهبون .

ووجدت نفسى قرب الساعة الثامنة إلا ربعاً فى ميدان هوبير . وكان كشك الصحف مفتوحاً ، ولكن صحيفة الإعلان لم تكن وضعت بعد ، فجعلت أدير بين أصابعى لفيفة نحيلة ، لأظل مالكا زمام نفسى ، ثم انتظرت مع الآخرين .

كنا خمسة هنالك أو ستة نمشى ذهاباً وجيئة وأيدينا فى جيوبنا ، وتتسارق النظر . وبدا لى أن بيننا نوعاً من القربى ، قربى الفقر والقلق والذلة ، كما خيل إلى أننا نتقارض شيئاً من التحدى .

وفى الساعة الثامنة عرضت صاحبة الكشك اللوح الذى بينت عليه طلبات الوظائف . وكنت قد أرشدت من قبل إلى هذه الوكالة المقامة فى الهواء الطلق ، ولكنى

لم أجزؤ - حتى ذلك الحين - على الالتجاء إليها . فتقدمت خلف الآخرين ، وأنا أتصنع نوعاً من الشرود .

لم يكن من السهل قراءة الكلام المطبوع بالغراء على الورقة المبتلة . وكان بعض الرجال يتهجون الكلمات بصعوبة ، وفى صوت مرتفع ، وهم يمضغونها ، إن صح هذا التعبير . فقد كانت أرواحهم تتشرب هذه الكلمات ببطء .

واجتذب الإعلان الثانى عشر اهتمامى : « محام يطلب شخصاً مثقفاً شاباً حسن التعليم ، عازباً ، للأعمال المكتبية . يرسل الرسم الفوتوغرافى » .

وتراعى لى مكتب قليل الضوء . ويساط مخملى مفروش على أرضه ، ونار متأججة ، نار حمراء قانية تشتعل فى جوف المدفأة ؛ وأصائل من الوحدة الطويلة ، وشهقات خطر فى الصمت الكثيف اللبد .

هذا عين ما ينبغى لى .

قالت لى صاحبة الكشك وهى تناولنى الظرف الذى يحتوى على عنوان رقم « ١٢ » :

- هذا بخمسة وعشرين سنتيما .

وحررت - فى مكتب بريد - كتاباً رقيقاً ، يجمع بين الكرامة والاستمالة ، وبين الحزم والإقناع . وقد أزعجتني كلمتا « شخص مثقف » ، ولكنى فكرت أن لدى إجازتى العلمية على كل حال ، وتناولت من حافظتى الرسم الوحيد الذى كنت أملكه ، وهو رسم مضى عليه ربح من الزمن ، أبدوفيه مزرفن الشعر ، طرير الشارب ، على وجهى سيماء الكأبة والخجل الذى تتطبع على السحنة بين العشرين والخامسة والعشرين . رسم ؟ لماذا طلب الرسم ؟ أفى الدنيا مثل هذا الجنون ؟

وما إن رحل الخطاب حتى شعرت بالاطمئنان والرضى . وتراعى لى النجاح مصادفة من تلك المصادفات السعيدة التى تحول مصاير الرجال منذ تلك اللحظة كان لى مستقبل . المستقبل ! أليست هذه فكرة تطراً فجأة فتكفى لتغير طعم الدنيا ؟

قلت لك إن الجو كان شديد الرطوبة . فأمضيت بقية نهارى فى مكتبة سانت جنيفيف ، بركنى المحبب عند الطرف الأيسر لمنضدة فى المؤخرة .

هناك يطيب لى العيش . فالنوافذ العالية ينزل منها ضوء صاف روحانى يغنى على الصفحات المطبوعة كما يغنى قوس على وتر . كل شىء هناك بقدر واعتدال ، كأنه فى رأس حكيم ، ويخور الأحجار والكتب ينقذ إلى الروح ويطهرها .

أمضيت ذلك النهار كله فى المكتبة ، وعدت إليها فى اليوم التالى ، فقد كنت أنتظر .. ما جدوى تكرار المحاولة ؟ أأست ترى ذلك معى ؟ إن محاولة واحدة حسنة محكمة التنفيذ حين عدت إلى المنزل فى مساء اليوم الثانى ، سلمت إلى البوابة خطابا . أرد سريع هكذا ؟ صعدت مسرعا إلى الطبقة الثانية ، حيث يخفق مصباح الغاز فى مسرى الهواء .

وجلس على درجة من درجات السلم ، نحتت حافتها وأكلتها أجيال كثيرة من السكان . وكدت أفض الظرف ، وإذا بى أستاذ لتسرعى وفرضت على نفسى - وأفلحت فيما فرضت - ألا أقرأ هذا الخطاب إلا فى حجرى بعد وقت ، وقد هدأت وسكنت لقد كانت يداى ترتجفان ، ولا يفتح المرء باب حظه الجديد بيدين ترتجفان .

وصعدت الطبقتين الباقيتين فى ائزان غير قليل . وكانت أمى ومرجريت تعملان فى حجرة الطعام ، فتمهلت حتى حييتهما تحية المساء ، وخلعت معطفى ، وأشعلت مصباحا ، ودخلت حجرى . وأغلقت الباب . ووضعت الخطاب على المنضدة ، لقد أن أن أفض هذا الخطاب وأعلم . كلا ! لما يؤن ! خلعت خذاعى ، فأنا لا أظل ألبنة لابسا خذاعى حين أكون فى منزلى ... فى حجرى ... فى كهفى ، ولبست كوئى الباليين ، ثم أشعلت لقيفة ، وكنت أخزر عينى بين الحين والحين لأنظر إلى ذلك الخطاب الراقد هناك كأنه شىء لا وزن له ، وهو الذى يحتوى على المستقبل نفسه .. مستقبلى . انتظرت ثم انتظرت ، ولما تحقق عندى أنى أستطيع الانتظار ، عرانى شىء من الزهو ، فبدأت أصبح فخورا بنفسى ، وبدأت أرى فى أخلاقى رأيا كريما .

على أن هذا رأى لم يتسع له الوقت ليثبت ، إذ انقضضت على الخطاب ، ولاحظت وأنا أفضة زن يدى ترتعشان ، وهو ما أردت جامدا أن أتجنبه . كانتا ترتعشان ارتعاشا شديدا حتى كدت أمزق الظرف وما حواه .

ماحواه ؟ لقد عرفت رسمى أول الأمر ، ثم خطى ، خطابى ، ويعرض الصفحة هذه الكلمات مكتوبة بالقلم الأزرق : « المطلوب سكرتيرة . يرد الخطاب والرسم إلى هذا الشاب » .

لقد مرنت على احتمال الخيبة ، ولكن خيبة هذه المرة ملأتنى فجأة بخزى غريب ، جعلنى أحس أنى أحمر وأكاد أبكى . واسترجعت لتوى نص هذا الإعلان الغريب عن الوظيفة : « شخصاً شأباً ... حسن التعليم عازباً ... يرسل الرسم الفوتوغرافى » كيف استطعت ألا أفهم ؟ كيف استطعت أن أخطئ هذه النقطة ؟ وقد أرسلت رسمى ! أنا ! ماذا كان يمكن أن يظن بى ؟

قرأت خطابى ثانية . وبدت لى الكلمات التى رأيتها أمس الأول جلية واضحة - بدت لى فى هذه المرة مفتوحة لكل الريب . وصعدت إلى وجهى دفعات أخرى من الحمرة . رباه ! كيف كنت غيباً ، غيباً ، غيباً ! ... وهزأة ... نعم ، هزأة ! وأمام عينى الجدار مستقيماً أملس كعهدى به . لا شئ .

يمكن أن أفعله . أف لهذا القلب المتردد المتخاذل ! ما أقل أسباب الاحترام عندى ، وما أفظع هذا السيل من القبائح الذى يخترق روحى ! هذه الحرب ! وهذه الهزيمة ! نادى أمى فجأة :

- لويس ؛ تعال يا ولدى لتتغدى .

أكان ينبغى لى أن أشكو ؟ أكنت أجرو على الشكوى ؟ ألم تكن لى أمى ؟ ألم يكن لدى ما أتعشى به ؟ ألم تكن لى هذه الحجرة الصغيرة . هذا المأوى المغيب الخفى كآته صدفة ؟ أه ؟ إن الطزون لا يدرى أنه سعيد !

وإذا كانت أنوات الخياطة تزحم حجرة الطعام تعشينا فى المطبخ . وكانت مرجريت قد بدأت تتعشى معنا منذ أمس لتوفر الوقت ، ودبرت ذلك مع أمى . فلندع الحديث عن مرجريت إن كنت لاترى بذلك بأساً .

كانت جالسة عند أحد طرفى المائدة ، وكنت أشغل الطرف الآخر ، وعن يسارى البالوعة وعن يمينى خزانة الخشب الأبيض ، فكان ذلك المكان هو مكانى الحق فى الحياة . وكانت أمى بيننا ، وكانت تتلفت بين أونة وأخرى لتتظر شيئاً ينضج على موقد الغاز .

تابعت المرأتان حديث نهارهما ، ذلك الحديث الذى لا ينتهى كعملهما ، وكان هذا الحوار أشبه شىء بحديث النفس ، إذ كانت مرجريت وأمى جسد متشابھتين .
أوه ! لست أعنى التشابه الجسمى ، بل التشابه القلبى ، التشابه فى طرق احتمال الحياة .

وقلما كنت أتكلم ، وقلما كنت أستمع . ولكن كلمة واحدة - كلمة الشقاء - كانت تتردد بلا انقطاع فى كلام المرأتين . فتعلقت بها روحى العابرة ، وفتحت فمى وقلت شيئاً ككل ما يقال . قلت ما يقرب من هذا :

- الشقاء ، الشقاء ! يجب ألا يدوم الشقاء طويلاً ، فلعله إن دام طويلاً أن يبقى إلى الأبد .

وكانت أمى ترفع إلى فمها ملعقة حساء ، فأعادتها إلى صحفتها ، وهزت رأسها بغير أن تنظر إلى ، وقالت بصوت خفيض وكأنها تحدث نفسها :
- وى ! إنه فيما يقول أشبه بأبيه ، أجل إنه أشبه بأبيه .

آه ! لا ! لا ! فلأعترف بأن عندى دواعى لليأس ! فلأعترف بذلك الآن ما دام لأبى دخل فى الأمر ، فلأعترف بأن لدى ما يدفعنى إلى الجنون ، ما دام أبى الذى لا أعرفه يدخل فى ، وما دام غيره من الناس الذين لا أعرف عنهم شيئاً يدخلون فى . إننى لا أستطيع أن أجد نفسى . وإذا كنت لابد باحثاً عن نفسى وسط حشد لجب فلأرجعن عن هذه المحاولة ! فلأرجعن عن هذه المحاولة !

وغنى عن البيان أنى فكرت فى هذه الأشياء كلها بغير أن أنطق بكلمة واحدة .
على أن بعض أفكارى ظهر - ولابد - على صفحة وجهى ، لأنى حين رفعت عينى لاقيت عينى مرجريت ، وكانتا تفيضان عتاباً ، كما خيل إلى أنهما تفيضان عطفاً ، فأمسكت لتوى ؛ أعنى أننى أمسكت عما كنت فيه من تفكير ، أمسكت عن التدحرج فوق منحدرى .

لو أن الأرض التى تسبح منعزلة فى الفراغ التقت فجأة بأفكار عالم آخر ، لملكتها ولا شك دهشة كدهشتى ذلك المساء .

عدت إلى التطواف على مقربة من كشك ميدان موير في صبيحة اليوم التالي قبيل الساعة الثامنة . والحق أنى كنت جزءاً أشد الجزع ، فكان جل مرادى أن أصنع شيئاً ما ، أن ألقى بعظمة إلى ضميرى القلق . أجل ... أن أصنع شيئاً ما ! أياً ما كان هذا الشيء ! فذلك خير من هذا التأمل الباطنى الدائم .

وظهرت صفحة الإعلان ، فأمررت عليها نظرة حزينة . وأخذ الرجال الذين كانوا يحلون طلاسماً مثل يَنسلون واحداً واحداً . وسرعان ما بقيت أنا وحدى . لا ، لم أكن وحدى . فقد بدأ شخص ورائى يتكلم ، وكان ألثغ ينطق الجيم زائاً ، وكان صوته مريضاً منخوباً . قال :

– كل هذا معروف ! ليس فى هذا الإعلان كله شىء واحد يجتذب العين . إن مكاتب باريس كلها لا تشتغل منذ ثلاثة أسابيع إلا بخدع بالية .

أنا ذاهب إلى شارع هال .

إتنى قليل الإقبال على التحدث مع من ألقاهم فى الطريق . ولهذا تظاهرت بأنى لم أسمع ذلك الصوت الذى كان يهمس فى أذنى ، وتشاغل بقراءة الإعلان واجتبت أن ألتفت . فعاد الصوت يقول :

– ألا تأتى إلى شارع هال ؟

وكانت فى كلماته نبرة مستعطفة حية حزينة جعلتنى ألتفت .

ولعلك تعرف هذا الرجل ، فهو كثير التجوال فى حيننا ، وإنى لأذكر أنى رأيته يتسكع فى الممرات الصغيرة بالباتشيون .

إنه متوسط القامة ، طويل الجذع ، قصير الساقين ، فى نحول الحيوانات الهزيلة وعلى عينه اليمنى غشاوة كبيرة زرقاء ، وأهدابه متلاصقة ، وأجفانه سمراء كالفاكهة المعطوبة ، وله شعر لا لون له يوصف ، ولا يتفق مع أى ضرب من ضروب النجاح فى المجتمع ، وشارب متهدل أصهب أشعث ، ولحية بنت أربعة أيام ، ولا ترى قط إلا بنت أربعة أيام ، ويقع لا تحصى أشبه بالنخالة ، على جلد بلون لباب الخبز ، وياقة منشاة منفصلة ، ذات بياض لاتستريح إليه النفس ، ويدان شعراوان مقروضتا الأظافر ، ورداء طويل ينبغى أن يكون سترة مذيبة ، ولكنه ليس إلا سترة وحسب ، وحذاء بالفتقه ضغط حساً متناظرة ، وقبعة مستديرة مهيضة غير أنها نظيفة ، وتحت ذراعه سافطة من القماش الذى يشبه الجلد .

بدا عليه التردد . وقال مرة أخرى فى شىء من اليأس :

– تعال معى إلى شارع هال .

فسأله أخيراً :

– ماذا فى شارع هال ؟

– ماذا ؟ ألم تذهب إليه قط ؟ ألا تعرف مكتب باروان لنسخ الجرازات ؟

فهزئت رأسى دهشاً ، فقد كنت لا أعرف باروان .

فقال لى رفيقى الغريب فى نبرة مستعطفة :

– تعال معى إلى شارع هال ، تعال ! لست مقيداً بشىء ، فإذا لم يعجبك العمل فأننت حر تتصرف فى أى وقت تشاء ، أو لا تعود ثانية . إنى لأعجب لك إذ لا تعرف مكتب باروان ، فإنك ضامن هناك أن تحصل على فرنك وربع فرنك ، أو فرنك ونصف فرنك إذا أسرعت فى الكتابة .

ونظر إلى بعينه الوحيدة فى إلحاح وجل ، وأردف :

– أنت من موظفى المكاتب .

حقاً إنى كنت من موظفى المكاتب ، ولكنى شعرت بشىء من الخزى ، لأنى ما ظننت قط أن ذلك يبدو على . قال الرجل مرة أخرى :

– لابد أن لك خطأ جميلاً ، وأنتك نشيط فى عملك ، فيمكن أن تعمل بفرنك ونصف . ولكن ينبغى أن نسرع لنجد مكاناً ، فإن مكتب باروان مكان قدر ، ولكنه ملجأ نعهد إليه عند الحاجة .

« نعهد » ! شكت هذه الكلمة جنبى وأحدثت لى ألماً يسيراً . أوه ! لقد ذكرت لك أنى لست متكبراً ، فلم أستغرب أن يقول هذا الرجل « نحن » ، ولكنى شعرت أن « نحن » هذه تضمننى إلى رفقة تعيسة . وأردت أن أحس طعم « نحن » هذه فى فمى أنا ، فأجبت بمرارة هادئة :

– لا شك أن وجود هذه الأماكن خير « لنا » .

وأسلمت له قيادى . فعاود الرجل الكلام بطلاقة أهل العزلة الذين يظنون أنهم وفقوا آخر الأمر إلى أذن كريمة :

- أما أنا فسكرتير ، أعنى أنتى كنت سكرتيرا . ولكن الوظائف الآن معدومة ، واسمى لويليه ، وأنى لأذكر لك هذا الاسم من فورى ، وإن كنت لا أذكره عادة ، فقد سبب لى بعض المكاره ، إننى أبحث عن وظيفة أستطيع فيها أن أشتغل لنفسى قليلاً ، وهذا أمر جد عسير ، فباريس ليست واسعة كما يظن .

كان يمشى بجانبى ، وكنت أسمع زحيره بين الجمل ، زحير من أدنفه التهاب شعبى مزمن ، وكان يسعل ويبصق بلا انقطاع .

قال لى وهو يمد يده بلفيفة تبغ :

- أتحب أن تدخن لفيفة ؟

وبينما كنا ندخن لفيفتين ابترسم ابتسامة ضعيفة :

- هذا من تبغ موبير ، فزيملى فى النوم يجمع أعقاب اللفائف ، وهو يعمل فى مصنع « جرو » الذى بالزقاق . إنه تبغ مخلوط ولاشك ، ولكنه لا بأس به على العموم ، وهو لطيف هادئ ، ولعل سبب ذلك أن جزءاً منه قد غسلته الأمطار . لقد رأيت أكواماً من التبغ عدة مرات فى مصنع « جرو » : متراً مكعباً على الأقل فى ركن الحجرة . ليت شعرى كم يلزم من أعقاب اللفائف لعمل هذا التل ؟! هيه ! إنه تبغ على كل حال . وهو زهيد الثمن كما تعلم .

كنت أدخن لفيفتى فى نوع من الرعب : إن قسوة الشقاء هى فى تعلمه ، ولم أكن فيه إلا ناشئاً ، فكنت أنظر إلى رفيقى بين لحظة وأخرى وأفكر : « وى ! وى ! بعد عشر سنوات أصبح مثل هذا » .

وكان الرجل يكرّج بجانبى ولايكف عن الكلام ، وكانت فى صوته رنات طفلية حنون ، مرجعها بلاشك إلى لثغته . وكان يكثر من النظر إلى ، وكان - لقصره - يستشرف ليرانى ، فتلمع العين الوحيدة لمعاناً مضباً ضارعاً يعصر قلبى .

بلغنا شارع هال ، حيث المنازل جميعها كأنها أشربت رائحة قذرة من كرنب عطن ، ووقف زميلى أمام باب كبير . قال :

- سأدلك على الطريق ، أنت لم تأت قط .

وكان هناك فناء مزدحم بعربات اليد ، والصناديق ، وبأشياء أخرى ما أنزل الله بها من سلطان ، ثم سلم أسود كريحه الرائحة حتى ليبدو كأنه شق فى كتلة من القاذورات .

ولما وصلنا إلى الطبقة الأولى كان رفيقى يلهث . وأمسك بأكرة الباب .

- هنا . لندخل مسرعين . وحذار من الضجة حتى لا يثور بنا الثقيل .

ودخلنا . فتخيلُ قاعة كبيرة تنيرها ثلاث نوافذ ذات ألواح كدرة عليها آثار كآثار
الدموع . حجرة درس ، ولكنها لتلاميذ مسنين ، لأشباح تلاميذ يستبدون الإشفاق .

وتخيلُ أن فصلاً من صغار الأطفال نزلت بهم خمس عشرة سنة من الشقاء
والمرض والحرمان والكروب ، تخيلها نزلت بهم فجأة وكأنها عاصفة ، فكذا يكون
مكتب باروان وقت العمل .

وصمت كدر ، يتألف من همس مكتوم ، وسعال ، وأنفاس مبهورة ، وأصوات
أحذية تحتك بالأرض الرطبة .

والجدران المصنعة لا يعلوها إلا قطرات الماء التى نتجت من تكاثف كل الأنفاس .

وعلى الكرسي المرتفع - فهناك كرسي مرتفع - شئ شبيه بضابط صف ...
رجل طيب كله شارب أشهب وعنق وفك ، ولا جبين له ، فشعره فى حاجبيه . وبين هذا
الشعر كله عينان داميتان حاميتان . جنوتان فى أرض معشبة .

قال لى زميلى :

- أسرع ! أسرع ! ثمة مكانان ، هنالك قرب النافذة .

فجلسنا جنباً لجنب على طرف « دكة » ، وفتح لويلييه حافظته القماشية وأخرج
منها قلمين .

- خذ هذا لك . واذهب الآن إلى الثقيل لتطلب منه جرازات .

وكان الثقيل هو هذا الشئ الشبيه بضابط الصف ، والمستوى على عرشه فى
طرف القاعة . أسلمنى سجلاً صغيراً وإضبارة من الجرازات البيضاء .

فقال لى لويلييه :

- ما عليك إلا أن تتسخ كل العناوين التى بالسجل فى الجرازات هلم ! وهلممت ..
ولم أك فاهماً كل الفهم ما حدث لى ، ولا ما كنت أعمله فى ذلك المكان . كنت أعمل
جامداً مذهولاً ، وكنت أشعر برغبة قوية فى أن أهرب ، وأخلو إلى نفسى فى شارع
مقفر . ولكنى قاومت هذه الرغبة ، وفكرت وأنا أصبر بأسنانى : « لا ! لا ! أنت هنا ،

وستبقى هنا . ماذا ؟ إن هذا بدء الانحطاط . إنما هو أول جرعة من الكأس . تجرع !
تجرع ! « وعנית على الخصوص بالآدع لشيء من مشاعري سبيلا إلى الظهور ،
وبالآبدود هشا لأى شيء ، أو مرتاعاً من أى شيء . وعلى كل حال فإن مجرى
تأملاتي لم يمنع أصابعي من الحركة ، فكنت أنسخ وأنسخ ، وأكوم الجرازات المكتوبة
إلى يميني ، حذاء إضبارة الجرازات البيضاء .

وربما توقفت لحظة ورفعت عيني بغير أن أجرو على رفع رأسي ، وكانت رائحة
الرجال تتحرك وتصطفق بين المناضد ، وكأنها روائح مستنقع تجوس فيه السوائم .
ولعلك لم تلاحظ أن رائحة الإنسان هي ملكة الروائح الطبيعية الفتنة ... أليست هذه
أيضاً سمة من سمات الملكية ؟ وكانت الرائحة التي تتشقناها هناك أشبه بمركب من
روائح أخرى كثيرة : من رائحة المدرسة ورائحة المعسكر ورائحة الملجأ ورائحة
المستشفى . ولاشك أنه كان فيها من رائحة السجن أيضاً ، على أنني لا خبرة
لي بذلك .

قلت لنفسي : « إذن فهذه هي رائحتي . أبداً لن أتخلص من تلك الرائحة » .

وكان ضابط الصف يشير من آن لآخر إلى شيخ ضئيل ، حليق اللحية ، حليق
الرأس ، كأنه قسيس . وكان يعمل في الصف الأول . فكان الشيخ الضئيل ينهض من
فوره في مبادرة الخادم ويدس ملء مجرفة من الفحم الحجري في تنور صغير يعلوه
مرجل .

ظلت لابساً معطفي حتى أخفى سترتي التي كانت نظافتها تخجلني ، وكان
لويليه يعمل عن يساري ، وكانت حركاته مثل كلامه ، ثرثرة مرتجفة لا حذق فيها ،
وأطراف أصابعه تبرز منها زوائد جلدية ملتهبة ، يقرضها بين آونة وأخرى ، أو يجذبها
بأطراف أسنانه ، واستنتجت أن عينه الوحيدة مصابة بقصر نظر شديد ، لأنه كان
يقرب الكتابة من عينيه تقريباً ، فيكنس شاربه المنضدة بحركة نشيطة رتيبة ، وكان
يعتدل في أوقات معينة ليصبق بين ساقيه ، فيراني ويبسم لي بسمة كبسمة الطفل ،
فيها من الطهر والحنو ما يجعل الدفء يعود إلى قلبي ، فأتابع عملي وأنا أسائل نفسي
كيف تسنى لمثل هذه البسمة أن تزدهر في مثل هذا المكان .

وحدث عند الظهر شيء من الاضطراب ، بين المجتمعين . فخرج الشيخ الضئيل
الذي يجلس في الصف الأول ، وسرعان ما عاد إلى « ضابط الصف » بقطعة من
الخبز وشريحة في وعاء معدني مغطى بصحفة مقلوبة

وأزاح أكثر الرجال أضيابيرهم إلى طرف المتضدة وشرعوا يأكلون وسرت بين الموائد رائحة الخبز والسجق ، وتبعته ضجة الحديث .

وخرج بعض الرجال ، ومن كان منهم خارجاً إلى غير عودة سلم أضيابيره إلى الثقيل ، وسوى حسابه ، وسمعت خشخشة الفلوس ، يتخللها أحياناً رنين رقيق لنقد قضى صغير .

وظهرت وجوه جديدة ، ولم تبق شاغرة إلا أماكن قليلة ، ومن ذهب من الرجال حل غيره محله . وكان جلياً أنهم جميعاً يعرفون ناموس الدار ، وكان هناك نوع من النظام المركب من نظام المدرسة ونظام المعسكر ونظام المستشفى ونظام السجن .

ورد لويليه الدكة إلى الخلف ووقف على ساقيه القصيرتين . قال :

إنى ذاهب لأحضر طعامى . فإذا شئت أحضرت لك طعامك . بم تفضل أن تأتدم مع خبز بفلسين ؟ أتريد شواء بثلاثة أفلس أو سميكات بثلاثة أفلس ؟

فأجبت .

– أفضل الشواء .

وظل لويليه شاخصاً أمامى . وابتسم مرة أخرى وقال وهو يميل إلى الأمام :

– أعطنى خمسة الأفلس إن لم تر فى ذلك بأساً .

وأتى وهو يبتسم ابتسامة هزيلة :

– معذرة ، فأنا اليوم لا أستطيع النسيئة .

وبينما كنت أعطيه الأفلس الخمسة وأنا أتمتم ببعض كلمات الاعتذار ، همس فى أذنى بصوت كالصغير :

– معنى قارورة للماء ... أرجوك أنصح لك ألا تتكلم كثيراً مع ذلك الرجل الذى يجلس على طرف الدكة ، فهو رجل غير وقور ، وأنا أعرفه ، لأنه يسكن فى الزقاق . إنه ليس على شاكلتنا ، وهو لا يأتى إلا فى الأيام المطيرة ، أما فى الأيام الأخرى فهو يبيع السيور بلا ترخيص . حسنا ! احرس أشياءى . سأعود .

لم تكن تساورنى أقل رغبة فى الحديث مع من يحيطون بى من الناس . بل إنى لم أكن لأجرؤ على النظر فى وجوههم . فتابعته الكتابة حتى حضر لويليه ، وأكلنا . قال لى رفيقى :

- إن الشواء طيب ، ولكن السمك الصغير أكثر صموداً فى الجسم . أنا أفضل السمك الصغير .

ومر العصر كما مر الصباح ، أعنى أنه مر ببطء شديد مؤس . وكانت فى الفناء مَبُولَة ، ذهبت إليها عدة مرات ، وكنت فى كل مرة أشعر لسماع ضوضاء الشارع برغبة شديدة فى أن أهرب وأدع كل شىء حيث هو : الإضبارة والثقيل وقبعتى التى تركتها على المنضدة ، فتمنعنى ذكرى لويلييه وتردنى فى كل مرة .

ولما كانت الساعة الرابعة ونزلت الظلمة من على الجدران كنسيج العنكبوت الترب ، أضيئت ثلاثة مصابيح غازية . فكانت شعلاتها القلقة تنتزى فى زجاجاتها ، وهى تحشرج حشرجة ضعيفة وتعطس وتختنق . وكان رأس لويلييه المائل يلقى على المنضدة ظلاً مستديراً أسود ، يجاهد فيه قلمه ويتعثر ويجمجم .

ولعل الساعة كانت السابعة إلا رباعاً حين قال لى لويلييه فجأة :

- ها قد فرغت ! سأساعدك .

وأمسك لتوه ببعض جزازاتى وعاونتى . وكان يكتب بنشاط محموم ، وعينيه تارة على قلمه وتارة على السجل المفتوح بيننا . وكانت تجف على أصابعه الملتوية بقع كبيرة من الحبر .

ورتب عملى كما كان رتب عمله . فجعل أضاير الجزازات متصالية بعضها فوق بعض ، ومصنفة أصنافاً مبهمه .

عدّ لى « ضابط الصف » أربعة وعشرين فلساً ، وبلغ ما كسبه لويلييه فرنكاً ونصفاً ، فعراه لتفوقه على شىء من الارتباك ، ورأى من واجبه أن يعتذر إلى .

- حين تكتسب المراتة

وانحدرنا ثانية فى شارع هال ، وكان رذاذ دقيق يغطى أرض الشارع المغبرة .، فكأنه دهنها بغراء ، ويثير رائحة الخضر الفاسدة التى هى فى الحقيقة أنفاس ذلك الحى .

وأخرج لويلييه صندوق تبغه .

- لفيفة ؟

فأحسست أنى جبان جبان . ورفضت كاذباً :

– أنى قليل التدخين .

وكان رفيقى يسرع ليلحق بى . وكان فى مشيته شىء من القفز وشىء من الزحف أيضاً ، شىء من الضنى وشىء من السذاجة . وكان يتكلم بلا انقطاع كشأنه فى الصباح . ولم أسمع كل ما قاله ، فإن ضجة الشارع وضجة أفكارى حجبنا عنى أكثر حديثه . على أن كلمة واحدة – كلمة « المستقبل » – كانت تطفو وسط جملة المضطربة ، وكأنها فلينة فى زيد شلال . قال لى لويليه :

– أنا الآن أنام فى « عنبر » بفندق الزقاق ولست أحب « العنبر » .

فأنا لا أستطيع أن أشتغل فيه بشغل يخصنى . ولكنى سأستأجر حجرة صغيرة إذا وفقت إلى وظيفة . فإن لدى أشياء كثيرة أريد أعملها .

وجعل يحدثنى عن مشروعاته حتى وصلنا إلى مدخل زقاق موبير .

وكانت تغمر الزقاق ظلمة كظلمة المياه فى أغوار البحر ، وكان يهتز فى أقصاه مصباح ، تقرأ على زجاجه الذى ذهب طلاؤه كلمة « فندق » .

وقف لويليه ، وجعل يدب وهو يتكلم ، وكنت أسمع نعليه تمتصان الوحل وتمجانه على التعاقب . غمغم فجأة وهو يأخذ بيدي :

– قل لى . قل لى . أتأتى إلى شارع هال ؟ أتأتى معى ؟

وأردف بصوت خفيض متوجع متغير :

– إنى أشعر بوحشة شديدة .

وأحسست ارتجاف يده الندية البطن الشعراء الظهر وهى بين أصابعى . فوعده أن أعود ، بل وعده أن أعود من غدى . ونظرت ملياً إلى لويليه ، وكان يغشيه على فترات متقطعة ضوء مصباح من مصابيح الشارع . ثم ذهبت . وأتبعنى بصره حتى انعطفت عند زاوية الشارع .

صعدت – غير مسرع – فى شارع جبل سنت جتقيف . وكان انحداره يحننى صوب الأرض ، فأشعر أن نوعاً من الكآبة التى تشبه الخوف يهزمنى ويهدمنى

وينخرنى . وكدت لا أجرؤ على العودة إلى منزلى . فقد خيل إلى أن ملابسى وجلدى وروحى فيها ولا شك رائحة مكتب باروان . فجعلت أجتر فتات أفكار غريبة : « أنا لم أخلق لأعانى هذا اللون من الشقاء » . لقد كان لى - ولا شك - لونى الخاص من الشقاء ، لونى الذى اخترته بنفسى ، وعلى نوقى !

ويجب أن أصارحك بأنتى قررت قراراً أكيداً وحشياً أن الموت جوعاً خير من عودة إلى باروان .

أما لويليه فيخجلنى أن أقول لك إنى مازلت ألقاه فى هذا الحى ، فما إن أراه من بعيد حتى أغير الطوار .. وأعلم أنه لن يعرفنى ، فنظره جد قصير ثم ثم إنى غير جدير بهذا الرجل .

كثيراً ما مرضت ، وكان مرضى شديداً ، ولكن أوقات النقه تشفع للمرضى
عندى . الحياة ! الحياة ! إنهم يضحكوننى بهذه الكلمة . إنما السعادة فى العودة إلى
الحياة ، والحياة - ولا شك - ليست سوى الإفلات من الموت . يخيل إلى أننى فى أيام
نقاھتى جربت الحياة .

وينبغى أن أقول لك إننى حين أجد نفسى فى بيتى ، بل فى أحضان أريكتى ، بل
فى مكمنى ، يخالجنى إحساس كإحساس الفاقهين .

ما أزال أنا إياى : سلاقان ، الرجل المسكين ، ولكنى لست الآن كما كنت طوال
النهاره لست بودة وخطاماً وسوراً .

كانت أمى ومرجريت تنتظراننى للعشاء . ولما وجدتنى فى المطبخ الدافىء التنظيف
مرة أخرى لم أستطع أن أمنع نفسى من تذوق طعم الرضى والراحة والاستسلام .
قالت لى أمى :

- ما أشد إعياءك يالويس !

قلم أجب إلا بهزة غامضة من كتفى . وكنت منكس الرأس أعد بطرف شوكتى
بعض حبات من اللوبياء متناثرة على أزهار الصحفة الخزفية الملونة . وغنى عن البيان
أن طعامنا كان فى غاية من السذاجة ؛ بيد أنه كان فيه طعم خاص لا يكون إلا فيما
تطهوه الأمهات ، طعم يستحيل على أن أصفه لك ، ولكنى أستطيع تمييزه بين ألف من
الطعوم ، كما أميز وجهاً أعرفه بين ألف من الوجوه .

واستأنفت أمى قولها :

- إنك تضنى نفسك ، ينبغى لك أن تشرب معنا الساعة قدحاً من القهوة .

فوافقت مبتسماً . إن أمى لا ترانى ألبتة رجلاً . فهى تتمتم حين
ترانى حزيناً يائساً :

- هل لك فى قطعة صغيرة من الشكولاتة ؟

ولو كنت قائداً وخسرت معركة لقات لي أمي : « لا تبك يا ولدي لويس ، فسأصنع لك شيئاً من القشدة بالسكر المعقود » . والغريب يا أخي أن قطعة الشكولاتة أو القشدة بالسكر المعقود يكون فيها عندئذ كل مزية تنسبها إليها المرأة المسكينة

فلنعد عن هذا ، ولأحدثك عن أمر شاذ . لقد كنت أستمع لحديث أمي اللطيف السلسال وأنا مكب على صحفتي ، فأحسست أن قلقاً جديداً مبهماً ينفذ إلى نفسي .

لقد ألفت أن أعيش تحت عين أمي . ألفت هذه النظرة التي تحيط بي ، وتتفقد في ، وتنزل على وجهي ، وتضل في شعري ، كأنها يد أو نفس .

لهذا لم أستطع أن أرفع رأسي ذلك المساء ، لأنني أحسست إحساساً جلياً أن هذه النظرة لا تتبع وحدها ارتجاف يدي على المشمع ، ولا تعد وحدها قطيرات العرق التي تنتح على صدغي ، ولا تقرأ وحدها في قسمة وجهي اضطراب قلبي .
أسرعت بطني منشفتي ودخلت حجرتي .

ولعلني لم أذكر لك من قبل أنني أوقع على الناي . ولا شك أنني أبالغ حين أقول « إنني أوقع » . فعندي ناي من الخشب ذو مفاتيح ، علمني أحد رفاق الجندية أن أضع أصابعي عليه ، ودرست عامين في أوقات فراغي دراسة تكفي لقراءة الصفحات المتوسطة الصعوبة ، ثم انقطعت عن الدرس ، وانقطع بذلك استكمالي الفن ، ولهذا تجدني أعزف عزفاً رديئاً ، ولعلك حزرت ذلك ، فلو أنني أتقن شيئاً من الأشياء . ماكنت هذا الرجل الذي تراه .

والمؤلم أنني لنقص الدربة والدراسة والدرس أوقع بطريقة عاجزة صبيانية قطعاً أحسها إحساساً طيباً . إذ ينبغي أن أقول - لأكون عادلاً في الحكم على نفسي - إنني مشغوف بالموسيقى ، وإنني أدين لها بأنيبل مشاعري . ولكنني حين أجاهد التي يبدو على أنني لا أفهم شيئاً مما أعزفه ، على حين أن أودين مثلاً - وهو يصفر بالناي أيضاً - أودين هذا الذي لا يفهم شيئاً من الموسيقى ، ولكن له أصابع متمرنة ، يخيل إلى من يسمعه أنه مشبوب الوجدان .

وخلاصة القول أنني شرعت أنفخ في الناي ذلك المساء ، وبدأت بصفير خافت ثم صفرت ملء أنفاسي . فسمعت أمي تقول :

- حسناً تفعل يا لويس ! اصفر قليلاً ، فقد بعد عهدك بالناي !

وكننت قد أضأت المصباح ، ووضعت كراستى الموسيقية على الخزانة ، مستتدة إلى القارورة الزجاجية الزرقاء .

اجتهدت فى التوقيع وأنا أضغط شفتى بعناية وأضبط أنفاسى . أجتهدت فى أن أوقع أنغاماً جميلة ، فخيل إلى أن جزءاً من عذابى فر من تحت أصابعى ، وذاب فى الجو مع رنين الآلة . أدبت القطع التى أعرفها أحسن معرفة ، والتى ألفتها منذ عهد بعيد ، والتى امتزجت بجميع أفكارى .

وسرعان ما لاحظت أن المرأتين قد عادتا تتكلمان فى الحجرة المجاورة بصوت خفيض ، بعد أن صمتتا صمتاً طويلاً . فأحدث كلامهما غممة ضعيفة متصلة . لم أستطع ألا أسمعها وأنا أوقع .

ومعلوم أنى عديم الموهبة ، ولكننى استأت ، وإن بدا لك هذا الاستياء مضحكاً . لم أسخط على أمى ، بل سخطت على الأخرى . أجل ، سخطت على مرجريت ، لأنها لم تتذوق تلك الأشياء الرائعة التى أوقعها هذا التوقيع الرديء ، والتى أوقعها - على الرغم من ذلك - لأجلها هى .

وعزوت سخطى فى تلك اللحظة إلى العجز عن تقدير الفن والفنانين . على أنى يجب أن أعترف بأن كبريائى - خاصة - قد تفاعلت فى ذلك السخط ، كما تفاعلت فيه مشاعر أخرى غامضة لم يحن الوقت للتحدث عنها ، ولكنى إذ أروى لك هذه التفاصيل كلها فإنما أفعل ذلك لأثبت لك أن لدى أسباباً لا تحصى تجعلنى عنيفاً فى الحكم على نفسى .

وضعت نايبى ودخلت حجرة الطعام . وجلست أولاً تجاه الموقدة ، ثم غيرت كرسى حتى لا أضطر إلى أن أتأمل فى المرأة ذلك الوجه الذى يسوغنى كثيراً فى بعض الأحيان ، وجهى المسكين .

وارتفعت المائدة وصدغأى بين راحتى ، ولبثت كذلك لحظات طوالاً ، أنظر إلى المرأتين وهما تعملان . وتمتت مرجريت وعيناها لا تريمان عن عملها :

- ما أجمل ما وقعته الليلة !

فابتسمت ابتسامة مغتصبة وقلت :

- أجل ، إنه جميل ، ولكن توقيعى جد رديء !

قالت وهى ترعش أجفانها أمام المصباح لتسلك الخيط فى الإبرة :

- أوه ، كلا ! ليس توقيعك رديئاً .

فشكرت لها هذه القطيرات من البلسم المسكوبة على كبريائى ، وشكرت لها بخاصة نبرتها وهى تلفظها . إنها كانت تستطيع - على كل حال - أن تسمع ما أوقعه وهى تجيب أمى التى كانت تحترمها احتراماً عظيماً .

وكانت مرجريت تخطط بسرعة عظيمة ، بغير أن تضل عينها أو تجمع أصابعها ، ولا شك أن حرصها على الإسراع هو الذى جعلها تتجنب التنفس من الأنف ، فكانت تتنفس من فمها ، وكثيراً ما كانت تستنشق مخاطها فى غير شدة . ومن العجيب أن ذلك لم يسؤنى . بل جعلت أنظر إلى أصابعها وهى تذهب وتجىء ، وإلى الظل الذى تلقيه على خدها خصلة شرود تلتوى أمام أذنها .

وسرى فى فتور كسل دافئ ، وارتدت أحداث اليوم ووجوهه إلى ماض ملؤه التسامح : لويليه ، ومكتب باروان ، وضابط الصف ، والبائع الذى لا رخصة له .

وأويت إلى مضجعى قبل أن تقوم الحائكتان بوقت طويل . وكانت أفكارى الأخيرة أفكاراً مطمئنة . لم يضع شىء : أربعة أشهر فى البطالة ليست بشىء . ومامن رجل إلا حدث له ذلك مرة على الأقل . سيعود كل شىء إلى موضعه ، وستنسى أمى هذه الفترة المحزنة ، ولن تنسى مرجريت الظن بى .

ونمت على هذه الوسادة اللينة

واستيقظت فجأة فى جوف الليل وأنا أفكر فى لويليه . لم أكن أحلم ، ولكن كل الأفكار التى خطرت ببالى كانت مصبوغة بتلك الصبغة الشاذة المشوهة المفزعة التى يضيفها تفكيرى الليلى على أهون الأشياء .

استرجعت كل ما قررته فى المساء قراراً قراراً . فبدت لى جميعها خلواً من العقل، وغدا الموقف مرة أخرى لا مخرج منه ، فلما نهضت من الفراش فى الصباح كنت أحس أنى أشد تعاسة وشقوة وإجراماً مما كنت فى أى وقت مضى .

على أن شيئاً واحداً ظل ثابتاً فى تفكيرى : لن أعود إلى مكتب باروان . سأنتظر ، سأبحث فى أمكنة أخرى ، سأعيش فترة على عمل أمى ، ولكنى لن أعود إلى هذا المكتب .

واطمأنتت - وأنا أغمس قطعة من الخبز في القهوة - إلى هذه العقيدة المؤسفة :
« انظر ! أنت رجل بلا نخوة ، وروح بلا قوام ، وقلب بلا كبرياء ! هكذا أنت ! » .

كنت أفكر هذه الأفكار . كنت أفكر وحسب ، وإن كان تفكيرى عنيفاً . وإذا
بشىء يصعب تصديقه . إذا بشىء يشدهنى ويفزعنى . لقد قالت لى أمى فجأة
بصوت مرتفع :

- لا لا ! لا يا ولدى لويس !

ماذا ؟ لماذا « لا لا » ؟ أؤكد لك أنى لم أزد على أن فكرت ، بل أؤكد لك أنتى لم
أحرك شفتى .

وعندئذ أخذت أمى بيدي وجعلت تلاطفهما . وقالت لى قولاً طيباً حكيماً :

- إنك تضنى نفسك بحثاً . هذه فترة عصبية . انتظر حتى تسنح فرصة .
لا شىء يعجلك . استرح واهداً . زر أصدقاءك .

وأؤكد لك أنتى ما فتحت فمى ، ولا بدرت منى أقل إشارة .

وكررت أمى وهى تقبل يدي :

- زر أصدقاءك .

أصدقائى ! ليس لى أصدقاء . نعم ! إن لى صديقاً واحداً ، وهو لانو . وليس «
صديق واحد » كأصدقاء ، لقلب طموح .

ولى أقارب قليلون ، مبهمون ، بعداء . وأنت تعلم هذا النوع من الأقارب الذين
يكاد المرء يخاف حين يسمع الحديث عنهم . أه ! لو كان لى أخ واحد ، أخ واحد طيب
! ماذا ! ولكنه لو لم يشبهنى ما تفاهمنا ، ولو أشبهنى ما احترمته ، وبعد فمن العبث
أن أبتعث هذا الحلم ، فليس لى أخ .

ولنعد إلى ذكر الأصدقاء . هناك أولئك الذين أميل إلى إعزازهم ولا يستطيعون هم
احتمالى ، وهناك أولئك الذين يبحثون عنى راغبين ، ولكنى لا أطيق صحبتهم .

ولا تحسبن أنتى امرؤه طلق اللسان لأنى قد عزمت الليلة على أن أقص عليك قصتى . بل أنا صموت . أو على الأقل أن الظاهر – إذا كنت أحسن فهم ما يقال عنى – هو أنتى صموت . ولا حظ أنتى أحتاط كل الحيطة حين أعبر لك عن أفكارى ، فلا تظن أنى من البلاهة بحيث أنسب إلى نفسى بعض الفضائل ، على حين أنى لا أحسن إلا التقزز من نفسى .

ولماذا لا تعدنى على الحقيقة أبله ؟ هذا أمر عسير التصديق : فى عين اللحظة التى أتهم فيها نفسى تستعد كبريائى لتتقذ بضاعتها الحقيمة من الإفلاس . وكيف يكون المرء صادقاً أميناً وله هذا اللسان الذى لم يجعل إلا ليخون قلوبنا ؟

وبعد فليس من المحتم أن « كون المرء صموتاً » يدل على فضيلة من الفضائل . فالنساء اللائى يشوب جلودهن الكلف يتعزين بقولهن : « إنى رقيقة الإهاب » . كذلك الرجال الذين هم على شاكلى غفل من كل ذكاء وبديهة وتآلق يدارون عجزهم بقولهم « إنى صموت » ، يعنون بذلك : « إن لى عقلاً رزيناً جاداً يقظاً . أجل ، إن لى عقلاً عظيماً » .

والحق أنى بفضل هذه الخليفة فى ، حسبت أبله فى كل بيئة عشت فيها . ومن المحزن ألا يكون العباقرة بلهاء فى الوقت عينه . فهؤلاء الذين سألتهم أن يتأملوا ويدرسون بنى جنسهم ينتقص ذكاؤهم وشهرتهم من قيمة محاولاتهم . وأعتقد أنهم دون غيرهم تمكنا من مفاجأة الطبيعة . فالأشخاص الذين هم موضوع دراستهم يجمدون إذا اقتربوا منهم ، ويتكفون أوضاعاً خاصة كأنهم أمام رسام ، ويحاولون أن يظهروا لأول وهلة بمظهر يعلى قدرهم .

أما الأبله فلا جدوى من التكلف معه ، وهل يستحيى المرء أن يبدو عارياً أمام كلبه ؟ لو فهمت الكلاب والبلهاء ما نتركهم يرونه لوقد هم الحزن .

أما أنا الذى لأمارس ملاحظة الناس ، فأفضل أن أتجاهل الشرف المر الذى يضيف على بمعاملتى معاملة شاهد لا يؤبه له . ولو كان على أن أختار بين الخبرة المشئومة التى أكتسبها كل يوم على الرغم منى ، وبين الكذب الخلاب الذى لا يعنى أحد بتقديمه إلى – لو كان على أن أختار لاخترت الكذب من غير شك . ولكنى – وبالإسف ! – ليس لى أن أرغب .

فأودين جارى القديم فى المكتب - وقد حدثك عنه من قبل ببضع كلمات - فتى متوسط الذكاء ، نورمندى فيه جفوة وحدة ، ونزق وعصبية ، فهو من طراز خاص ببني جلده . وله عينان خضراوان تميلان إلى الزرقة ، تضحكان أونة وتجمدان كالثلج أونة أخرى ؛ كما أن له جواباً كلسعة السوط .

آه ! هاك رجلاً كنت أود لو أحببته ! ولكن لم هذه الحاجة إلى التسلط ، ولم هذه الرغبة الشديدة التى تستحوذ عليه ، فى أن يضع الناس عند كل مناسبة « فى جيبه » ، بدلاً من أن يحملهم بطيبة فى قلبه ؟

إن كلامه أمر سريع ، قاطع كلما أراد . وهو لا يجيز المناقشة إلا إذا كانت لتأييد رأيه ، ولا يعرف تسامحاً ولا حسنى ، أف ! هذه أشياء كنت قميناً أن أغتفرها له ، ولكن أبعد الأشياء عن القبول ميله الظاهر إلى تغفل غيره ، أى عاداته من المجازفة ببلاهة رفيقه . فإن شعوره البدهى بغلبته على فى المجادلة يجعله يستهين بقهرى ، فلا يكفيه أن يهزمنى بل يتعجل ذلك ويريد أن يكون ثمنه عليه هيناً . وعباراته المصوغه فى قوالب من التأدب الغليظ ، محملةً بألوان من التعريض المهين والتلويح الجارح يظننى عاجزاً عن إدراكها . وكذلك الأمر فى مكاتباته ، بل فى خلواته ، فهو يمثل لنفسه إن أعوزه المشاهدون .

والغريب أنى أستسلم لهذه التجارب فى قنوط آثم ، حتى حين يستطيع أودين أن يشك - وحين يتحتم عليه أن يشك - فى نجاح مناوراته . فأنا حينئذ أستشعر سروراً شنيعاً بأن أؤكد له أنى أبله ، وأن له أن يضاعف الجرعة ، وأن يعيد الكرة أمناً من العقاب ، وأن يغوص بقدميه فى ثقتى وأطمئنانى . فلا يقصر فى شىء من ذلك .

ولو أنى كنت أضعف بصيرة ما سلك أودين معى غير هذا المسلك .

ولكنه كان من المستطاع أن يتاح لى صديق آخر ، أو - إن شئت - كان من المستطاع أن يتاح لى إنسان آخر أحبه .

لم أحدثك بشىء عن پوبير . وجلئ أنه موظف ببيت سوك وسيرو . فحين يكون للحصن أصدقاء لا يكونون إلا من رفاق القرن . وكذلك نحن : عسير علينا أن نعرف غير رفاق المكتب أو المصنع ، لأن حياتنا كلها تنقضى فى العادة هناك .

وپوبير فتى من أهل الشمال ، نزلت به كل المصائب التى تخطر على البال ، فخانتة امرأته ، وخانتة صحته ، وخانتة أسرته ، وخانتة شجاعته ، وغدا كانه إخصائى

فى نكد الطالع . وإنى لأجد من الطبيعى جداً أن يستشعر لذلك نوعاً من الكبرياء ، لكن يشق على أن أفهم رغبته فى أن يجعلنى مسئلاً عن شقائه . وأعجب ما فى الأمر أنه يخاشتنى أنا بخاصة ، أنا الذى لا أكف عن إظهار عطفى الصادق عليه ، والذى أسدى إليه بعض المعروف حين تسنح الفرصة .

وهناك دفرينى ، وهو باريسى قح ، ثرثار ، دموى ، أحمر الشعر ، أحمر المزاج ، لم يعرف أحد أنه جد فى حديثه مرة واحدة ، فهو لا يفكر إلا فى مضاجعة النساء ولا ينظر إلى صيذه ألبتة عن قرب . وليس دفرينى غيباً ، ولكنه من أولئك الفتيان الذين لو خيروا بين صحبة فكتور هيجو وصحبة فريز بو بو خادمة حانة ماركية ، لفضل - بلاشك - صحبة الخادمة ، على ما فيها من أمراض . وأتوسل إليك ألا تظن أنى أقول هذا لأنى دفرينى تركنى أكثر من مائة مرة ونحن مصطحبان ليتعقب بعض الخادمت الصغيرات اللائى غشين على عقله ، ولن يزلن به حتى يخمد . فلنعد عن هذا ! فإن هذا الرجل يتبع هواه ، ويفعل ما بدا له .

وأستطيع أيضاً أن أذكر لك فيتيه ؛ وقد كان رفيقاً لى فى الجيش ، وكاد يصبح صديقى ؛ وقد ألحق بى فيتيه أذى كثيراً . وأنا أقابله بانتظام منذ سبع سنوات ، أى منذ انقضت خدمتنا العسكرية ، فهو موظف فى البريد ، يسافر مرتين كل أسبوع بين نيفير وبارييس . فإذا اتفقت ساعات فراغنا جاء ليرانى ، كلما بدا له أن يعذب أحداً ، أو أذهب أنا لا سأل عنه ، إذا شعرت بحاجة إلى العذاب ، وهو أمر يحدث لى بين الحين والحين ، كما يحدث للناس جميعاً ، مهما يكن رأى فيه .

ولفيتيه خلق لعين ولكنه مستو . إنه عنيف عنفاً رزيناً مستمراً . فإذا عذبك حماس فياض ، أو حفرتك رغبات شداد ، أو أثارتك نيات طموح ، فاذهب لترى فيتيه ، وإنى لأستكثر عليه عشر دقائق حتى ينظف روحك ويطهر قلبك من كل أطماعك الحلوة ، ويخلفك أشد عراء وفقراً وحرماناً مما كنت فى أى وقت مضى .

ولو حضرتنى يوماً من الأيام فكرة فيها من القوة والحرارة ما يجعلها تصمد لساعة من فيتيه ، ما بقى لثقتى بنفسى حد . فيتيه ! إنه محطّم ! وسلاحه المفضل كلمة تبدو لا شأن لها ، ولكنها أقطع من مشروط ، وأحد من حمة . فإذا استسلمت إلى الرضى أو الأمل أو الحبور نظر إلى فيتيه لحظة بعينه اللتين يحيط بهما هُذب أشقر ، ولا يزيد على أن يقول : « اجر ! » وإنى لأسائل نفسى أحياناً ألم تفسد هذه الكلمة حياتى كلها ؟

وعلى نقيض فيتيه ليدو . وهو موظف كان يجاورنى فى عملى الأول بيت موتيه .
ليس ليدو بغيضاً دائماً ولكن تتتابه نوبات . فهو فى فتراته الطيبة - التى تدوم أربعاً
وعشرين ساعة أو ثمانياً وأربعين ساعة - كله لطف وصفاء وبراءة وتسامح ؛ ثم
تحتجب السماء فجأة ويظلم كل شىء ، ويغدو ليدو كئيباً شكساً ضيق العطن . إنه
روح بائس قلق ، كتلك الأقطار التى تغمرها كل عام فيضانات مفاجئة ، والتى تحاول
فى كل فترة بين فيضانين أن تعمر ما تخرب منها وتصلح ما فسد .

وإنى لأراه أحياناً خاشعاً متصدعاً فأذل نفسه أمامه حتى لا يبقى وحيداً فى
تعاسته . وما إن أنال من نفسه واسقطها حتى يستغل ليدو ذلك ليتعالى على ويصعد
فوق ظهري ويركلنى ، فلا أنال منه إلا الإحناق والتحطيم والغدر . ولو أنى كنت خيراً
مما أنا لكنت أقنع بهذه النتيجة ، وأرضى بأنى نقلت إليه شيئاً من دمي . ولكنى لست
على شىء ، وإنى لأسائل نفسي أليست نوبات تواضعى ناشئة هى الأخرى عن نوع من
الغرور ؟

وبعد قلديو لا يستطيع أن يحتمل وحده أتراحه ولا أفراحه . فحين أراه قادماً إلى
أنظر فى وجهه لأحاول أن أحس ما يفعم قلبه : أخيبة أم فوز ؟ ومع ذلك فهو إذا كان
سعيداً أسر إلى : « إننى وفقت فى هذا الأمر أو ذاك » . أما إذا ارتكب حماقة أو غلبه
ضعف أو صدر عن جبن ، فهو يصيح بمرارة ، « نحن أغبياء . نحن ضعفاء ، نحن
جبناء » وى ! أليس لدى من نفسي ما يكفينى ؟

وقد أستطيع أن أحدثك عن جاي ، الذى تكاد صحبتته تقذنى ، جاي الذى تجعلنى
غيبته الهادئة أنفر من جل من أعرفهم ، جاي الذى هو على الرغم من ذلك رجل طيب
قدير على الولاء والحب .

وقد أستطيع أن أحدثك عن بئسر ، الذى كان رفيق صباى ، والذى أفسدته على
زيجة مضحكة ، وقد أستطيع أن أحدثك عن كوى ، ولكن ما جدوى ذلك ؟ لن أفلح إلا
فى تأكيد رأيك السيئ الذى كوئته عنى منذ الآن . وعلى الرغم من كل شىء ، أؤكد لك
أن رغبتى الوحيدة هى أن أحب ، وأن أحب حباً كاملاً مطلقاً . فهل ذنبى أن عيني
بصيرة ؟ ومن ذلك الأحق الذى قال : إن الحب أعمى ؟

ولعلك تعترض علىّ بأن الناس ليسوا كلهم كيديو وجاي وفيتيه ودفرينى . أه ، مهلاً ! لست أدري فذلك مبلغ علمي ، لقد كنت أعرف فتى يدرس طب الأسنان ، صحبتني يوما إلى مشرحته في « كلامار » - ولعلك تعرف شارع فير أمولان . وكان الطلاب جميعاً مصطفين حول مناضد من الإردواز يقطعون رعوساء بشرية ، ليتعلموا تشريح الوجه والغالب ألا تقدّم إليهم رعوس كاملة ، فذلك يكون إسرافاً ، بل تنشر من الوسط رعوس حُلق من قبل شعرها كله ، من شارب ولحية وشعر رأس . وخلاصة القول أن أنصاف الرعوس هذه ، المصفوفة كالأوسمة ، والتي أذهبت الحوامض لونها ، وأرخاها الموت - أنصاف الرعوس هذه كانت متشابهة تشابهاً مخيفاً .. إن ما رأيته هناك كان الرسم البارز للإنسان .. القالب واحد تُصَبُّ فيه ملايين النسخ .

* * *

ولكن هل يكون لى أن أشكو ولدى لانو ، لانو الذى لا أعيب عليه إلا شيئاً واحداً ، هو أنه لا عيب فيه ؟ أو لا تعترف معى بأن هذه فضيلة تبعث على الضيق ؟
لقد سمعت نصيحة أمى وذهبت إلى لانو . وسرّرت عنى هذه الزيارة بعض ما بى ..
أتراها صائبة الراى دائماً فى كل مايتعلق بى ؟

ومضت أيام كثيرة وأقبل شهر نوفمبر . وأحب ما يكون إلى هذا الشهر حين يبدو الجو أكر مضياً ، والسماء مسفة معجلة لهجة كأنها قطع من كلاب الصيد يتعقب فريسته .

وإذا كان الحظ يزدرينى عزمت ألا أتعبه ، بل أترصد له . فتركت كل محاولة .
وقسمت وقتى أجزاء ثلاثة مختلفة . فقسم منها أقضيه جائلاً ، وقسم أمضيه عند لانو ، والقسم الثالث أقضيه فى المنزل ، ولم يكن لطوافى من هدف إلا نفسى . فكنت أرتاد شوارع جبل سنت جنفيف الصغيرة ، أو دروب لكسمبورج ، وخصوصاً فى الصباح حين تشبه الحديقة الموحشة جزيرة صامئة فى حوض المدينة المختلجة . ولكننى على معرفتى التامة بصور الأشجار ، وهىئة المناظر ، ووجوه الناس الذين يتنزهون فى ساعات معينة على الحشائش الذابلة ، ومعرفتى بمشيتهم ومقاصدهم ، كانت أفكارى مع ذلك كله تظل عاكفة على جو آخر ، ومناظر أخرى . كنت أبحث عن نفسى وأتبع نفسى وسط ألف فكرة أشد هوجاً من قطع من الجاموس فى عهد هجرته .

ثم أعود إلى شارع پوده فير ، فأستمرى فى مسكننا هدوءاً يزداد عمقه كل يوم ، ولا أحسن تعليله . وكانت حجرة الطعام قد أصبحت أشبه شىء بمعمل حياكة ، وأمى التى مارست الخياطة من قبل كثيراً قد أقبلت على مهنة عاملة البيت . فكانت مرجريت تذهب فى البكور إلى المشغل ، تحمل إليه ما تم من عمل ، وتأتى بنسيج ونماذج ، وأمى تعد فى تلك الأثناء أطعمة النهار .

وكنت أجد المرأتين تعملان مهما تكن الساعة التى أقدم فيها . ولم أعد أخجل من بطالتى ، فقد أصبحت أمراً عادياً مسلماً به . بل إننى كنت أستشعر لذة غريبة إذ أرقب جهداً لا أشارك فيه أدنى مشاركة . وكانت تُشعل فى السهرات الطويلة نار ضئيلة فى الموقدة البروسية بحجرة الطعام .

وسرعان ما اعتدت أن أتى إلى هذه الحجرة لأقرأ .

وكنت أعالج الصغير فى الناي أحياناً ، وأوقع بانتباه شديد متصل ؛ حتى تقدمت فى هذه الفترة تقدماً محسوساً . وألقى شغورى بهذا التقدم فى أحلام شرود : سأغنى موسيقياً ، وقد أصبح ملحناً ، وترأعت لى حياة رائعة تتألق بالتوفيق ، وتزدهى بإعجاب الجماهير . وهأنذا أخيراً أطلق هذه الروح الأسير التى تذوى وتستسلم لليأس فى غور مكمنها .

وحتى توجد جماهير المستقبل كان يبدو من مرجريت على الأقل سرور بمحاولاتى . وكانت تذكر جيداً ألحانى المحببة ، وتدندنها وهى تسحب إبرتها ، وترجونى مرة بعد مرة أن أوقعها لها .

فرغت ذات يوم من أداء قطعة وقعتها بكثير من الصدق والعناية - لما أعوزتنى الموهبة - فرفعت إلى مرجريت عينين شكرأوين . فاضطربت لذلك ، وبخاصة أن كانت لمرجريت عينان جميلتان ذابلتان ، تضىء عليهما الدموع بريقاً مؤثراً يكاد يشبه بريق عيون الأطفال .

ولو كنت رجلاً عاقلاً لقلت لنفسى : « هذا تأثير الموسيقى فى روح حساس رقيق » ولكنى عزوت كل الفخر إلى نفسى ، وأمسكت قبعتى وأسهرت إلى الطريق وأنا أحس كبرياء يستحيل وصفها . لم يبق عندى شك فى أنى غدت مالكا لقوى جديدة ، وشعرت بأن هذا التجاوب بين روحى وروح أخرى إرهاب مبین من إرهابات القدر ، فتمتمت وأنا أصمر بأسنانى : « أنا على الرغم من هذا كله شىء ! شىء ! وإيَعَلْمُنَّ أنى لست رجلاً كسائر الرجال » .

ياالطموح ! يالجنون ! إننى لست رجلاً كسائر الرجال ! وهذه المهزلة كلها أصلها لحن بالناى ودموع مرجريت .

كانت الساعة حول الثالثة بعد الظهر . فهمت بضع لحظات من شارع إلى شارع حتى وجدت نفسى عند سفح كنيسة نوتردام ، وتمخص حماسى عن شىء عجيب : وذاك أنى غصت فى سلم الأبراج وصعدت لم أتوقف حتى بلغت القمة ، وعجبت إذ وقفت هناك ولم أنقذف فى الفراغ من تلك الأنبوبة الحجرية الشاهقة ، كما تتبعث قذيفة من مدفع .

كانت ساعة مذكورة . كنت وحدي مع السحب والرياح العاتية ، فلقيت سلاقان وجها لوجه ، محرراً مخلصاً من هذا الحشد من الأفكار الطفيلية القذرة التي يعيش بينها كنبات مهتضم ، وثقت بنفسى ساعة ، وأخذت على نفسى مواثيق ، واحتملت أعباء ، وأقدمت على توضحيات . وخلاصة القول إننى أنجزت أعمالاً جديرة برجل حق . ولتعلم أنتى فعلت ذلك كله فى قلبى .

ولو كتبت تاريخ حياتى لسميت هذه الساعة نصر خامس نوفمبر أو نصر نوتردام . فإنها كانت نصراً : نصراً صغيراً شعرت بآثاره أياماً كثيرة .

وكنت أحياناً أتناول كتاباً بوازايل أريكى لأجلس على مقعد صغير ، فى ضوء السجف اللبنى قبر الحائكين . وأستغرق فى قراعتى فكأنى مستغرق فى نعاس متأشب .

وأنا - كما ترى - أقرب إلى الطول والنحول ، وقد قوست ظهري مهنة الكاتب واحتقار الرياضة البدنية ، و« أقف بشيء من الميل » كما تقول أُمى . وحين أقرأ وأنا جالس القرفصاء على كرسى الذى لا مسند له ، أحس أن كل نقص فى مظهرى العادى يزداد شناعة : فأنا أتداعى وأنكمش ، وكأن حياتى تهرب وتغادرني لتذهب مع حياة أولئك الرجال والنساء الذين أشاطرهم بفكرى وقائعهم الغريبة ، وفى هذه الأثناء تيبس جثة سلاقان شيئاً فشيئاً . ألا تعتقد أننا لو استطعنا أن نحلم فى قوة كافية ، لكانت صدمة جد صغيرة ، أو استسلام ثانية واحدة ، كافياً لنا فى مثل هذه اللحظات كي نموت ؟

وكان ينتشلى من هذه الهوة عادة صوت أُمى التى كانت كلماتها تصل إلى وكأنها آتية من خلف حجب سميكة من اللبد ؛ فلا أصل إلى سطح الدنيا إلا بعد أن تتادبنى مرات عديدة . ولقد كنت أظن دائماً أنها تحدث بفطرتها هيمان روحى ، فكأن نداءها صرخة أنثى الحيوان التى تحس أن خطراً يتهدد صغارها .

على أن ما كانت تقوله آنذاك كان يسيراً جداً . فكانت - مثلاً - تكلفنى أمراً ، فأضع الكتاب وقد بطل السحر ، وأصدعُ بما أمرت . وكنت قد أصبحت مطواعاً ، والطاعة - بهذه المناسبة - ليست من فضائل الطبيعية . وأرجو ألا تعزو هذا التغير فى خلقى إلى الرغبة فى التكفير عن تبطلى ؛ فقد كان له نواع أخرى لا أشك أنك قد بدأت تفهمها .

وكانت أمى تطلب منى أحياناً أخرى أن أوصل جهرة ما كنت أقرؤه سرّاً . وقلمبا
تغفل أمى أن تضيف :

- لعلك تعلمين أنه كان أيام تلمذته ، ينال دائماً جائزة المطالعة والمحفوظات .
فأجيب باستحياء :

- ما هذا يا أماه ؟ اصمتى يا أماه ! لماذا تتحدثين عن هذه الأشياء ؟

إن أمى المسكينة لا تستطيع أن تعلم ذلك الارتباك الذى يوقعنا فيه ، نحن
الرجال ، امتداحنا علانية لمهارتنا أو شجاعتنا أيام أن كنا صبياناً .

وتؤكد مرجريت من فورها ما قالته أمى :

- ما أحسن قراعتك !

فلا أنتظر مزيداً من الطلب ، وأقرأ ساعات كاملات ، والمرأتان تصغيان بغير أن
تقطعا عملهما : ولكنهما تكتمان - جاهدتين - كل صوت . وربما تنشقت أمى قبصة
صغيرة من النشوق ، تفعل ذلك محاذرة ، شبه مختلسة ، لأنها تعلم أنى أكره أن أراها
تنشق ، أنا الذى أدخن طوال النهار ، والذى أفسدتنى ألوان من الرذائل والنزغات ،
وقبيح العادات .

وبين الحين والحين تكف إبرة مرجريت عن الرفيف فكأنها شعلة دقيقة زرقاء
جبست فى رسن . وتصفى مرجريت ويدها فى حجرها ، وألمح فاها مفتوحاً وعينيها
مثبتتين على .

ولا أزل حتى أثمل من هذه الكلمات التى لم أقلها ولكنها تنحدر من شففى ،
ولا أوقن بعد أنى لم أفكر أنا نفسى فى هذه الأشياء الجميلة التى يعبر عنها صوتى .
فإذا تمتمت مرجريت وقد بلغ منها الانفعال مبلغه ، « ما أجمل هذا ! ما أجمل هذا ! »
تقبلت هذا الإطار كأنه تكريم أستحقه .

وقليلاً ما كنت أكلم مرجريت فى العادة . على أن أمى اضطرت يوماً أن تغيب
عن المنزل بعد الظهر ، فبقيت مع مرجريت وحدى ، وجلست فى حجرة الطعام وفق
عادتى ، ولبثت ساعة وعيناي مثبتتان على الكتاب لا تريان شيئاً . أحسست جيشانا
فى قلبى ، وارتعاشاً فى يدي ، واستشعرت رغبة ملحة فى أن أتحدث إلى مرجريت ،
وأقول لها قولاً رقيقاً . ولكن الأقوال الرقيقة شىء لا أحسنه ، فتركت العصر ينقضى
بغير أن أفتح فمى واستبد بى اليأس حتى إذا أقبل المساء جرى لسانى بكلام مر مثبط

مؤنس أجل ، ! إن لسانى لينطلق وحده إذا أردت أن أقول كلمات كريهة قاسية ، ولذلك لم ألق أى عناء فى إدخال الحزن والغم على قلب مرجريت ، وفى إرهاقها بسيل من كلمات كانت مناقضة كل المناقضة لما أحسست حاجة شديدة إلى مكاشفتها به .

استمعت بغير جواب ، ثم بدا فى نظرتها حزن وعتاب ، فنكست رأسى وسألتها العفو وأنا متلعثم . قالت :

– أوه ، لا بأس . أنا أعلم أنك طيب ،

وأنتك لاتعتقد كل ماقلته لى الآن .

– « طيب ! » أنا ؟ أنا طيب ! أنا ؟ أه ! جميل والله ! وسرعان ما تابعت الكلمات المرة مجراها ، حتى امتلأت تقزراً من نفسى ، فتناولت قبعتى وخرجت .

لا ينبغى التسرع فى الصفح عن سلاخان .

ولكننى أعتقد أنى لم أعذب مرجريت كثيراً فى هذه الفترة . أعتقد ذلك ، ولست واثقاً من شىء ، فالذين يسببون لنا أشد الآلام قلما يشعرون بقسوتهم ، ومن هؤلاء من يظنون أنهم غمرونى بإحسانهم وأراهم فى الحقيقة أرواحاً شريرة موكلة بى .

كانت لى فى أيام مراهمقتى علكة بابن عم لى ، أحببته كثيراً . فكنت أجاره فى محاولاتى ، وأثنى على حسناته ، وأغضى عن سيئاته . ومهما حاسبت نفسى لم أجدنى أسأت إليه أية إساءة . ثم كان بيننا ذات يوم شجار ، ففتح لى ابن عمى قلبه ، واطلعت منه على أحقاد معمرة ؛ أحقاد طويت زمناً طويلاً ، فلم يزدما ذلك إلا أواراً ؛ أحقاد رأيتها – وأسفاه ! – لا تتركز على غير أساس . وخلاصة القول أنى اكتشفت فى ذلك القلب كنزاً من البفضاء وجدتنى أنا هدفة المحتوم ووجدتنى أنا سبيه .

كيف يكون لنا أن نؤكد أنا لم نسبب أذى لإنسان نظرنا إليه ، ولو مرة واحدة ، ومررنا بحياته ، ولو فى التفكير ؟

أما الأمر الذى يجعلنى أعتقد أنى لم أعذب مرجريت فى شهر نوفمبر هذا ، فهو أنى كنت أدخر كل تقلبات مزاجى للانو .

كنت أزوره كل يوم ، ولعلى ذكرت لك ذلك من قبل . فإما ذهبت إليه وقت الغداء ، وإما ذهبت إليه مساء بعد العشاء ، لأن لانو لم يفقد وظيفته متلى ، وهو يذهب بانتظام إلى مكتب وكيل الدعاوى الذى يعمل عنده .

والغالب أن أجد لانو وزوجه يطعمان . فأجلس على كرسي هزاز قرب النافذة ، وأشرع فى الترجج ، كما أشرع فى البغى الفظيع .

ومن حسن الطالع أن لانو صديقى ! ومن حسن الطالع أنى أحبه ! فلو لم أكن أحبه لضقت به أشد الضيق .

ولولا الحب ولولا الصداقة لتفرنى من الإنسان كل شىء . انظر إليه وهو يأكل ! انظر إليه وهو يشرب !

إن أكتاف لانو فتى هادئ ، بطل ، الاستجابة ، لا تعوزه الثقافة ولا الظرف ، ورث عن أبوته عادات ريفية ، وعسراً فى السلوك ، ولذا فقد يتفق لى أن أعاتبه معاتبة الصديق لصديقه ، ولكننى لا أطيق أن يقحم غيرى نفسه فى ذلك ، فالسخرية من لانو امتياز لى لأنى صديقه ، وهى امتياز أغار عليه غيره شديدة .

كنت أستاذ على الكرسي الذى يهتز اهتزازاً ضعيفاً ، وقد وضعت ساقاً على ساق وأملت رأسى إلى الوراء ، وأدخن لفيفة بعد لفيفة وأنا أنظر بعين شبه مغمضة إلى لانو وزوجته وطفله وهم يأكلون .

وكان الصغير يبطط فى صحفته ، وأكتاف ومارث يأكلان وهما جالسان وجهاً لوجه – ولا تظن أنهم كانوا يختلفون فى طريقة أكلهم عن غيرهم من الناس . أما أنا فما كان لى إلا أن ألاحظهم ، وهو موقف مؤلم لنا جميعاً .

إذا أردت أن ترعى هيبك فأياك أن تأكل فى حضرة إنسان لا يشاطرك الجوع ولا الطعام .

لأى شىء ملء الملعقة حتى يسقط جزء مما تحتويه على الصحيفة قبل أن يبلغ الشفتين ؟ ولأى شىء إمالة الملعقة ودسها فى الحنك ؟ ولم غذا الصوت المرتفع عند ارتشاف الحساء ؟

كان يشق على التغلب على تقزى ، ولكن لانو وزوجه لم يكونا يرتابان فى شىء . ألسن صديقهما ؟ ألم أثبت لهما ذلك من قبل ؟ ألسن أنا أيضاً إنساناً فى كل نقائص الإنسان ؟

كان تفكيرى فى أنى حين أشبع شهواتى أستصحب مثل هذه القذارة الساذجة ومثل هذا العسر – كان هذا التفكير يزيد ضيقى ولا يبده . ولكننى كنت أضطر إلى الاعتراف بأن فكى أيضاً يقطع حين أمضغ الطعام ، وبأنى – ولا شك – أكل أيضاً

وفمى مفتوح ، وأتمطق وأخضم ، ولا بد أن عين الناظر ترى حركة لسانى ، وتتبع استحالة الطعام بجهد أسنانى ، ولا شك أن أنفى - وكثيراً ما يسده الزكام - ينفخ ويصفر عندما يبدأ الفكأن فى العمل .

كان المنظر يكربنى وأفكارى تخجلنى ، فأنهض لأنصرف ، فينظر إلى لانو بعين صافية تتجلى فيها الدهشة ، ويقول لى باسطاً :

- لماذا ؟ لا شىء يعجلك .

فيفتر عزمى وأجلس .

ولو استطاع لانو أن يدهم مجرى أفكارى ، لوقعت فى اضطراب وحيرة . ولكن أحداً لا يستطيع أن يعرف مجرى أفكارى . على أنتى أوشكت مائة مرة أن أفضح نفسى وأقول لصديقى : « أمن الضرورى إذن أن يحرك المرء أنبئة أنفه وهو يأكل اللوبياء ؟ » .

فإذا ما انتهى الطعام أشعل أكتاف غليونه الصغير ، وجعلنا نتسامر ونحن نحسسى القهوة ، فأرتجل بعض التعليقات المبهمة على أحداث اليوم . لكى أتخلص من تأملاتى الصارمة ، ويصغى إلى لانو بانتباه مجامل ، ويتمتم عند كل عبارة أقولها :

- إنى أوافقك تماماً على ماتراه .

فلا يلبث هذا الإصرار على الإقرار أن يضجرنى . ماذا ؟ إنى لأنطق بأكاذيب وتفاهات فيوافقنى لانو تماماً على ما أراه . لانو الذى أعده ذكياً ، صديقى لانو ، صديقى الوحيد !

ويبلغ بى الأمر أن أفنقد مرارة فيتيه الذى لا يدعنى أتم مقطعا إلا ويقذف بعبارة لاذعة ، كأن يقول : « أنا لا أقرك ألبتة على ما تراه » .

فأعود إلى صمتى وتأملى الشانئ الأليم . وأضع ركبتي بين يدي وأسرع فى ترجيح الكرسي الهزاز ؛ وكان تفكيرى فى أن هذا الترجيح المستمر قد يغشى نفس أكتاف ومارث يسبب لى شيئاً من الاضطراب ، ولكنه لا يمنعنى من المضى فيه .

وإذ يشبع الطفل يرقد فى السرير . وهو جميل وعلى حظ كبير من القوة ، فى لحمه شفافية ولونة ، ومن المؤسف أن خنصر يده اليسرى شاذ التركيب ولادة ، فهى مثنية نحو راحته .. إنك لتستطيع أن تفتش عن النقص فى الكائن الجميل ، فالنقص موجود دائماً ، ولو كنت كسلاقان لعجز بصرك يوماً أن يرى غير هذا النقص ، ولأفسد عليك هذا النقص بعدئذ كل ما عداه .

وكننت أقبل الطفل - وأنا عرابه - وأحملة على كتفى إلى غرفة النوم . وكننت أتخيل أحياناً - وأنا أنظر إلى ذلك الوجه الحلو الذى لم تكد تتميز قسماته ، والذى يبدو كأن ملامحه كلها ما تزال مخبوءة فى جراب رقيق ، كننت أتخيل فيه وجه الشيخ الذى سيغدو إياه فى المستقبل ، فأحس الكآبة تنهشنى .

وينام الطفل ، فنعود إلى أحاديثنا التافهة وإلى تبغنا . وأصغى من خلال الباب نصف المفتوح إلى تنفس الطفل ، وإلى صيحاته وهو يحلم ، وإلى كل ما يصدر عن هذا الوجود الصغير النائم من صوت . وأحياناً كانت هذه الأصوات لا تبدو لى طبيعية، فيساورنى القلق ، ولكن لانو وزوجه يظلان هادئين ، فأقدرُ أنهما عديما الإكتراث ، جامدا الإحساس ، غير جديرين بحمل الواجب الأبوى الثقيل .

وأحياناً أخرى كان لانو يخوض مع زوجه فى حديث طويل عن شئونهما الخاصة . وكل يقول : « أتسمح ؟ » فأجيب : « كيف لا ؟ » على أنى لا ألبث أن أجد كل هذه الأسئلة التى يثيرانها غريبة على تماماً . فكثير من الأشياء فى حياة صديقى الوحيد كانت مغيبة عنى ، وكثير من لانو كان مسلوياً منى . لقد كانت تعصر قلبى سورة الغيرة .

فى مثل هذه اللحظات كننت أفكر فى ألوان من الانتقام ، فكنت مستعداً كل الاستعداد أن أصب على لانو - إذا ترك لى أدنى فرصة - سيلاً من الفظائع التى كننت أجترها اجتراراً .

ويمضى الوقت وهو لا يقدم إلى سوى كلمات لطيفة ، فأزرد غيظى . ثم أتخيل وأنا أهبط السلم بعد أن صافحت لانو وزوجه - أتخيل فى فزع أنه يقول لها :
- لله درُّ سلاقان ! ما أحسنه من فتى !

فأحنى رأسى ، ولا أشعر بكبرياء ، لأن كل هذه القبايح التى لا أملك ألا أراها فى صديقى ، كل هذه القبايح ليست فيه ، بل فى أنا ، فى أنا وحدى .

* * *

أصيبت مرجريت فى شهر ديسمبر بذبحه ألزمتها الفراش عشرة أيام متعاقبة .
وكانت أمى تحمل إليها المرق والأشربة والدواء .

واختل نظام المنزل أيمًا اختلال ، فقد اجتمعت على أمى رعاية المريضة ونظافة
المنزلين وإعداد الطعام ، وكانت مع ذلك تخصص بعض الوقت للحياكة ، ولكنها كانت
تقتطعه من راحتها . وكنا نجلس إلى الطعام جنباً لجنب ، ونأكل مسرعين .
وكان يخيّل إلى أن هوة عريضة تنفجر بيننا .

على أننا هكذا عشنا سنين طوالا ... وإذن فقد كان تعودنا شهرين اثنين عادات
جديدة كافياً لأن يعطل عادات قديمة قدم الحياة .

وحاولت أن أغنى بعض الغناء ، وأصابتنى تلك المبادرة الطائشة التى يظهرها
الرجال وسط المتاعب البيتية . فكنت أنتقل من حجرة إلى حجرة ، أجلس على مقعد ،
وأتكئ على كل قطعة من الأثاث ، وأفتح الأبواب وأغلقها ، وأنقل الأشياء من أمكنتها
بلا غرض . وكانت أمى ترفع منظارها بظفر سبابتها من حين إلى حين وتتنظر إلى ،
وعلى أن نظرتها كانت هادئة وطبيعية جداً فقد كنت أشعر بالخجل وأحول رأسى ،
وأتشاغل بشئ لا يلبث أن تسأله نفسى .

وعندما كانت أمى تذهب إلى مرجريت وبين أصابعها وعاء يتصاعد منه البخار -
وكانت مرجريت كما ذكرت لك تعيش فى حجرة مجاورة لمسكننا - كنت أذهب إلى
مسطح السلم وأسند الباب بقدمى وأنتظر وأنا أقرض أظفارى .

وتعود أمى فتقول :

- إن صحتها تتقدم .

فأجيب :

- آه ! حسناً ، حسناً !

وأردت أن أظهر قلة ! اكترأثى بالأمر ، فنجحت فى ذلك بعناء .

وزارها الطبيب مرة ، وكانت زيارته مطمئنة على وجه الإجمال ، فلم تكن حالة مرجريت خطرة ، وكتب الطبيب تذكرته عندنا ، وقال لى وهو ينصرف :

– لا تقلق ياسيدى ، فستشفى أختك بعد أسبوع .

ولم يخطر ببالى أن أفهم الطبيب حقيقة الأمر . فقد سرنى التفكير فى أنه كان يمكن أن تكون لى أخت كمرجريت ، وملأتنى هذه الفكرة بأشواق حزينة .

وفى ليلة مسهدة قضيتها كلها أحاسب نفسى ، لاحظت متعجباً أنى غيرت أياماً أربعة لاتساورنى فكرة من تلك الأفكار النابية التى كانت تشوه روحى ، وتعذب حياتى . فشعرت لذلك بنشاط عظيم أبقانى يقظان حتى الفجر .

وجاءت المسرات تترى . ففى اليوم التالى قدم لانو إلى شارع پده فير ، وكنت قد تركت زيارته منذ مرضت مرجريت . وأحضر إلى فى ذلك اليوم عملاً : ملخصات قضائية مذيلة بالأحكام تكفل هو باستنساخها وفى نيته أن يجلب لى بعض النفع .

ولعلك لا تعرف « التذييل بالأحكام » فى عرف التقاضى . فأليك معناه : يضيف وكلاء الدعاوى إلى أوراق عملاتهم خلاصات مكتوبة على ورق مدموغ ، تحصل عليه ضريبة عالية ، وهدفهم من ذلك أن يزيدوا أجرهم . وقد جرت العادة بأن يوكل عمل هذه الملخصات إلى صغار الكتبة فيكتبوا بضع صفحات عن القضية التى حكم فيها ، ثم يستسخون ما يتفق لهم من المدونة القانونية . أربع كلمات أو خمس فى كل سطر عن الأمر الملهوج . تمحل بين . ويتفضل وكيل الدعاوى الذى يربح من ذلك ربحاً كبيراً ، فيدفع أجراً طيباً لقاء هذا العبث الذى ينجزه الكتبة فى غير ساعات عملهم . إنه أمر مضحك ، ولكنه هو الكائن .

وحمل إلى لانو مدونة ، وإضبارة من الأوراق . فشرعت فى العمل بهمة ، وعزمت على أن أقوم بحاجات المنزل ، وقد مرضت مرجريت ، وتكاثرت على أمى الأعباء .

فكنت أقضى النهار وشطراً من الليل أستنسخ بقلم محموم قانون إصابات العمل بحذافيره ، وكنت أعد سرا : ثمانية أفلس ، ستة عشر فلساً ، أربعة وعشرين فلساً . ووجدت فى ذلك العمل المضحك بواقع للفخر ، ودواعى كثيرة لتقدير النفس ، وكما قلت لك أحسست أنى أصبح إنساناً آخر . لقد غير سلاقان .

أما التماس أسباب هذا التحول ، فقد حازرت محاذرة فيها خوف وتطير وعددت هذا التعليق لقدرتى المؤنسة على التحليل ، عدت هذه الهدنة وهذا السبات نعمة .

ولكن أتى يوم تجلى الأمر فيه دون أن أتجشم لذلك عناء .

كنتُ فى حجرة الطعام وقد شرعت فى الكتابة ؛ وكانت أصابعى الملوثة بالحبر تركض على الورق الأزرق ، وعيناي تصاحبان أصابعى نشطتين ، ففتح الباب ، ودخلت أُمى تدفع أمامها مرجريت .

كان عنق مرجريت ملفوفاً بسبيبة حريرية بيضاء ، وشعرها الجميل مضافاً ، ووجهها يعلوه بعض الشحوب ، فبدت فى ذلك البهر الحلو الذى يختص به الناقهون .
جلستُ فى ركن المدفأة على كرسينا الكبير الموقر . وفى هذا اليوم وحده فهمت ما حدث لى .

* * *

هكذا أصبح لحياتى معنى . ألقى إلى بالك . لقد أصبحت لحياتى وجهة ، فلم تبق مبددة كقطيع بغير قانون ، بل غدت مجتمعة موجهة . أصبحت نهراً ، ولم تبق مستنقعاً . أصبحت أغنية رصينة ، بعد أن كانت ضجيجاً متنافراً .

وبدا لى أن فى الدنيا أناساً تدور أفكارهم كلها حول قطب واحد لا تفارقه ، كما تدور الثعابين حول عصا الإله .

فى الدنيا أناس يعيشون فى حالة من الرضى ، وقتوبهم نقية تعتادها الأمانى الطوة . فسأعيش أنا أيضاً فى حالة من الرضى .

فى الدنيا أناس يملكون العالم ، ولو كانوا فى حضيض الفقر ، فسأملك العالم . سأملك نفسى آخر الأمر . لقد خلصتُ وأصبحت قادراً على الحب ، وكل شئ يثبت لى ذلك : التسامح فى الوجوه ، والضوء الخالص على الأشياء ، والانبعاثات والسكنات ، والثقة بالمستقبل ، والظماً إلى التضحية ، وارتعاش يدى .

وصح عزمى ألا أبوح بهذا اليقين . ألا أخشى إذا اعترفت به وأذعته أن أغيره . بل أمحوه ؟ ألا يحتاج إصلاح سلاشان أعواماً طويلة ، ليألف نفسه ويألف ثراه ، ويصبح جديراً بحظه الجديد ؟

ليكن هذا الحب الصامت سعادة أو شقاء . . فهذا شئ لم أفكر فيه قط . وكان ظنى أنى قد أبادل هذا الحب يزعرع أرسخ أفكارى ، فأفضل أن أنحيه . وعلى العكس

كنت أميل ميلاً شديداً إلى أن أتأمل الفكرة المضادة ، فما كان ليتنقص من معنى الحب عندي أن يكون حباً منكوراً مزدري ، بل إن السعادة التي كنت أتوق إليها كانت سعادة تتغذى بفيض من الآلام .

لا شك أنك ستضحك .. فإن لديك عن الهناعة آراء معقولة محددة أعجز كل العجز عن دحضها ، بل عن فهمها . وأنا في الحقيقة لا أدافع عن نفسي ولا أنتصر لقضيتي - وقد علمت ذلك من قبل - وإنما أحاول أن أمكنك من الاطلاع على ما كان يجري في باطني . ثم إنني ليس في نيتي أن أسهب في هذا الجزء من قصتي ، وقد أستطيع أن أعبر عن اضطراباتي وسخافاتي وانحرافاتي ، أما السعادة .. ؟ أيمن أن تروى بالسعادة ؟ أيمن أن تثير اهتمام أحد من الناس بسعادتنا ، بهذا الشيء المضجر الذي يبدو لعيون غيرنا من الناس راكداً كل الركود ، تافهاً كل التافهة ؟

حسبي أن أقول لك إنني كنت سعيداً بلا حذر . ولم يبق لي شيء من جلاء البصر للاحظ أن أندفاعي شبيه بياسى ، وأنه محموم مسرف أعسر مثله ، وأخيراً أنه كان يعوزه الاتساق .

وكان من العسير - حتى على المراقب اليقظ - أن يتبين نوع الانقلاب الذي يتم في . فإن شيئاً من مظاهر وجودي لم يتغير ، وقد عادت مرجريت حين شفيت إلى مجلسها قرب أمي ، كان يسمع صوت آلة الخياطة وهي تدور ، وصوت قلمي من حين إلى حين إذا ينقر قعر المحبرة ، وكنا نتناول طعامنا مجتمعين في المطبخ الممتلئ بالبخار والروائح الشذية .

وكانت عاطفتي تثقلني ، وكنت أرمقها باضطراب وخجل ، وكأنه شيء هش يخشى المرء أن يحطمه وهو يحمله .

كنت أردد في نفسي بين كل دقيقة وأخرى : « تنبه ! فهاتيك الحياة الحقبة تبدأ ! » وأحياناً كان يستولي على القلق من مفاجآت المستقبل فأمل ، كما يأمل كثير ممن عزتهم السعادة ، ألا يكون الأبد كله سوى إشباع للحظة الرضى التي أنا فيها . وأحياناً كانت تعذبني الأحلام الطامحة ، فأراني أصعد نحو قمم الفضيلة ، نحو الكمال ، وروحي مجللة بالبركات نشوى بالغبطة الريانية، مخلصمة مطهرة. أجل ، حياة قديس ، ! ولم لا ؟ ألم يُجْتَب السعداء من بين قطيع الخراف الجرباء ؟ وهل في الفردوس مكان جدير بالملك الساقط الذي مسته على حين فجأة رحمة الله ؟

تلك كانت أفكارى وأنا أستسخ - بقلم مترنح - قانون إصابات العمل مادة مادة .

وأحياناً كانت أمى ترجونى فى أمور صغيرة ، فأؤدى لها ما تطلبه فى عجلة كنت أود أن تكون أقل ظهوراً ، ولكن المرء لا يستطيع أن يستحوذ على كل شئ : على الحبور وعلى امتلاك الأعصاب .

وأحياناً كانت مرجريت تغنى ، فأصاحبها بفكرى ، مراعيأ أن يظل غنائى باطنأ حتى لا يفتضح أمرى .

وكننت أتجنب النظر إلى مرجريت الحقيقية الحية ، ففى نفسى كنت أتأملها ، وفى نفسى كنت أتوجه إليها بدعاء صامت .

لا تبتسم ! لا تسخر منى ! فلو أنتى حققت الحياة التى كنت أحلم بها لكان ذلك شيئاً جميلاً .

وكان يتفق لى أيضاً أن أفكر فى أصدقائى ، فى أولئك الرجال الذين سمعتنى أتحدث عنهم بعبارات الازدراء ، فكان أودين يبدو لى عندئذ شخصية ممتازة ، ونفسية عالية ، كان لها فى أثر طيب دائم . وكانت أحزن پوپير تبعث فى نفسى عطفأ لا تردد فيه ولا تحفظ ، لأعين هذا الرجل ، ولأواسينه، ولأردن إليه الهدوء والسعادة . ودفرينى ! إنه الحياة نفسها ، إنه الصحة والقوة الفياضة ، ما أمرحه صاحبأ ! وفيتية .. أية حكمة نصوح لم يعلمنى إياها ؟ لقد علمنى أن أؤدب غرورى ، وأن أتواضع فى تقدير فضائلى وقوتى . وقد قاسمنى لديو أفراحه فى كرم ، ولم يكن جأى قط غيابأ كما ظننته - وإنه لظن أخزانى - ولكنه كان ذكياً نافذ البصيرة . وقد أسأت الحكم على امرأة بتسر ، وأسأت تفسير أفعال كوى .

أما لانو أخى المحبوب وصديقى المجتبى وولى نعمتى فلم أك أستطيع التفكير فيه إلا بحنو واضطراب وندم .

وأخيراً كانت أفكارى ترتد دائماً إلى أمى وإلى مرجريت ، إلى تينك العزيزتين اللتين ساقضى بينهما حياتى الجديدة . فيا للنور الدافئ ويا للعطر ويا للموسيقى الناعمة !

كان ذلك كما ترى جميلاً ومؤثراً جداً . وهكذا دامت الحال بلا انقطاع من السابع عشر من ديسمبر إلى الخامس والعشرين منه .

خرجت يوم عيد الميلاد لأتغدى مع لانو ، وكان قد دعانى إلى وليمة صغيرة خاصة .

كان البرد جافاً لاذعاً منشطاً ، وكان المشى متعة ، ولو كانت نعلاك مثقوبتين . فزدرت على معطفى البالى وخرجت مبكراً . ألا يزداد الغداء مع الصديق حلوة حين يسبق بحديث طويل ؟

كان الطريق مألوفاً لى ، وكانت أقدامى كأقدام الدواب المسرحة تدب دائماً على أثارها المرسومة . إن باريس كبيرة ، ولكن لى فيها قريتي ، فأنا كأكثر الناس لا بد لى من وطن صغير . ولقد يظن أولئك الذين يطوفون بالعالم أنهم تخلصوا من هذه العبودية، فهلا ترى أنهم محتاجون إلى أرتجال وطن لهم فى طبقة السفينة ، أو فى عربة القطار ؟ إنهم ليضطرون أحياناً أن يحملوا هذا الوطن المصغر فى حقيبتهم أو فى جيبيهم ، أو فى نظرة رفيق عزيز .

يلذ لى أن أهبط فى شارع الكردينال ليموان ، فهو ينحدر إلى النهر وذراعا ميسوطتان ، وهو يحملنى كرجبة تطلب الإشباع ، وهو مسرع كما تندفع قوى مركومة . ثم السهل ، والأفق الممتد على نهر سين وأرصفتة ، والمعبر الضيق ، والجزيرة ، وهذا الشاطئ الإقليمى الذى تنسى عليه باريس ضجيجها العنيف .

رأيت مرة أخرى كل هذه المناظر الحلوة بعينى رجل سعيد . فياليت هذه الصورة تبقى لى دائماً فى أيام البأساء !

وكان لانو قد خرج مبكراً لشستري بعض الحويجات ولم يعد بعد . وكانت مارث مشغولة بإعداد وليمتنا الصغيرة ، فاستقبلتنى فى ثياب المنزل ، وهى قلنسوة من المخرم وقميص قصير . ألا أعدّ فرداً من الأسرة ؟

وأمسك الصغير بيدي ليرينى الكنوز التى وجدت بمعجزة على المدفأة عند الفجر . وكان كل ما فى المسكن الضيق ينسم هذه السعادة العائلية التى كنت أحلم بها كأنها أرض محرمة .

وشاقتنى إدارة اللعب الميكانيكية ، وتصنيف المكعبات الملونة ، ورعى الخراف
الصنوبرية - شاقتنى ذلك كله إلى الساعة الحادية عشرة . أما كيف نزل البلاء بعدئذ ،
وكيف بدت أمارات انهيارى الباطنى، فذلك ما لا أستطيع أن أصفه لك على وجه الدقة .
وربما كان سبب ذلك كله هو هذا القميص الكمين .. ما من شئ إلا يصلح عذراً للنفس
غير الحصينة .

ومارث إنسانة جميلة ، سمراء ممكورة ، رزان فى مرح ، متحفظة وإن لم تكن
مرتابة ، وهى زوج صديقى ، فلم تستهدف حتى ذلك اليوم لخيالى الجامع .

اتفق أن انحنت مارث عن المائدة لتصلح شيئاً فى الثريا ، ورفعت ذراعها ، وكان
كم قميصها قصيراً هفهافاً فضفاضاً ، فاجتذبت بصرى ذلك الكم وصعد على الذراع
إلى ظلمة الإبط المبتل اللبد .

وفرغت مارث من شأنها وثبتت ذراعها والتفتت وغادرت الحجرة .

أما أنا فكنت جالساً على الكرسي الهزاز أترجح وقد لففت ساقى ، وكان الطفل
يلعب على البساط ، فلم يدرك أحد ما حدث .

سيدي ، أنت رجل ، فلست بحاجة أن أسهب لأشرح لك كنه الأفكار التى
احتشوتنى ، ولا كنه الحادث الذى مر بروحى .

. وحشية فظيعة . اغتصاب . هياج . هذيان . ثياب ممزقة ، توسل ونحيب . لاشيء
بقادر على أن يصد العاصفة . لا الشرف ولا الصداقة .

كنت ثائراً مستبداً ، ثملاً . ولم تخف على بصرى خافية من ذلك الجسم الذى بين
يدى ، ولا من أفعالى .

وعبرت مارث الحجرة المجاورة . فكشف لى ضوء النافذة لحظة عن جود جسمها
الذى كاد يكون عارياً فى ثوبه الهفهاف . ضربة سوط أخرى . هياج جديد . ورفعت
رأسى إلى السقف حيث صوّرت قصة من وحى الخيال الجموح : لقد سرقت هذه المرأة
وحملتها إلى غرفة مظلمة عطرة فيها سرر مشعثة ، تحت مصباح تسجسه تشنجات
عصبية .

وبعد ذلك رحلة . الرحيل ! نستطيع أن نرحل ! حياة لاهثة لعينة رائعة ، عبر
قارات مجهولة . أسياً ! أو جزائر المحيط ، أو أنتيل !

وكان الطفل قد بدأ يغنى عند قدمي وهو يهز ناقوساً . من الخشب . حسناً ، سيترك الطفل للانو ! سيكون هذا الطفل عزاء لانو ، وساكتب إليه كتاباً أوضح فيه كل شيء . وكتب الكتاب من أوله إلى آخره على طلاء السقف الناعم الصقيل .

وتراعت لى قمرة فى سفينة ، لها نافذة مدهامة ، يصدعها أفق البحر ، وعناق يهتز مع رجه الآلات ، وينقلب مع اضطراب السفينة ، وأيد متشبثة بالمتراس ، أيد يشنجهما الأسى ، وندم اثنين ، يسحق فى عناق مخيف .

ولكى أبين كل شيء يجب أن أضيف أن ماخالجنى لم يكن يصدق عليه تماماً اسم الشهوة . فقد كان خيلاً من تلك الخيالات التى تشبع نفسها بنفسها . وما كنت لأجى بأدنى حركة لكى أحقق خواطرى المجنونة . كلا ، فهذه السورة كلها . طلت تنمرغ فى الروح ولم تكد تتصل بموضوعها . فحش جبان ، متستر ، منعزل .

.. أوشكت أن أتم كتابى إلى لانو ، وإذ بنقش من تلك النقوش المبهمة الزائدة التى تطفو كالشبح وتتابع كالموج على إطار السقف – إذ بهذا النقش يغدو فى غفلة منى تلك الخصلة الشقراء الجميلة التى تتوس وتلوى أمام أذن مرجريت حين تخطط منحنية على عملها ، وبدا وجه مرجريت الحلو كله على السقف ، وله تلك النظرة التى تستغنى بها أن تتمم « أوه إننى أعلم أنك طيب » .

حسناً ، ستتنسى مرجريت .

مرجريت ! أبهذه السرعة . . ؟ ووقف حلمى لاهثاً كالجواد المنهوك إذا عثر وكاد يكبو ، وغاص من الحلم كل ما كان فيه من حرارة وحياة .

وعندئذ رن صوت مارث ، وإخالتنى أذكر أنها قالت عبارة من أيسر العبارات :

– لقد تأخر عنك أكتاف . سوف يسوءه ذلك :

فغاصت الصور جميعاً فى سحابة غبراء ، وأحسست ارتعاداً وتعاباً وحرناً ، كمن خنق أوهامه على أريكة فندق : ضعف فى الساقين ، ودوار فى الرأس ، وتهافت فى القلب ، وفوق ذلك كله رغبة عنيفة فى البكاء والأنين .

ونفضت ، وذهبت إلى الردهة ، وتناولت معطفى ، فقالت مرجريت وقد ظهرت على عتبة المطبخ :

ماذا تفعل ، هل نسيت شيئاً ؟

– أجل ، نسيت ... نسيت

ووجدتُ نغمة صوتى جديرة بالثناء ، قلم أزد حرقاً ، وفتحت الباب وانطلقت أهبط
الدرج . وما زلت أذكر وجه مارث وقد شاع فيه التعجب وهى تتقدم فى القمة وتنحنى
على حاجز السلم .

ولما وصلت إلى الطبقة الأولى وجدتنى وجهاً لوجه مع لانو . وعلت وجه - وهو يمد
إلى يده - بسمّة حلوة رقيقة ، فقلت له وأنا أتأشاه :

- يا أكتاف ، معذرة ، قلن أبقي معك . أنا لا أستحق البقاء . أنا لا أستحق أن
يهتم بى أحد .

وقف لانو مذهولاً ، وكدت أوقعه وأنا أحاول الإسراع لأخرج من المنزل ، وهبطتُ
الدرجات الأخيرة قفزاً وأنا أصيح :

- لا لا يا أكتاف ، يجب ألا تحبنى !

وبينما كنت أرد باب الدهليز سمعت على الدرج من خلفى وقع خطى مسرعة .
وكان لانو ينادى بصوت متغير :

- لويس ! لويس ! اسمع يا لويس ..

وكنت قد بلغت الشارع فمضيت فى طريقى بغير أن ألتفت .

* * *

لا ينبغي للمرء أن يُسَرَّ ، فزوال السرور عذاب شديد . كان الوقت ظهراً ، وبدت
الحديقة النباتية مقفرة .. أرض جاسية تصر من البرد ، ومقاعد يغشيها الصقيع .
ولكنى جلست على أحد هذه المقاعد ، وكانت على يمينى شجرة مدت أذرعها جميعاً ،
وكانها تحلف يميناً فى جلال ووقار .

نظرت إلى جذعها الأعرج ، وإلى أفنانها التى لا تحصى ، وإلى جذورها الضخمة
التي تبرز وهى فى مكانها قبل أن تغوص إلى غير رجعة ، فكانها فقار الدُّخَس ،
وفكرت :

- هذه الشجرة غير مقيدة الإرادة ، فهى تستنبط الأرض حيث تجد مقداراً معيناً
من العصارات ، أو مقداراً معيناً من الخلاصات ، أو مقداراً معيناً من الأغذية أو
السموم ، أو مقدار معيناً من المواد المتراكمة منذ بدء الخليقة ، وهى تستنبط ولا تأخذ
إلا ما تحتاج ، أما سواه فتنبذه ، إنها تنتقى ما ترغبه من بين هذا الخليط .

أما أنا فمقيد الإرادة .. فكل فكرة هائجة تجد في روحى المأوى . وكل بذرة تسقط على وجودى تستطيع أن تنبت . فأين أنا ثمة ؟ أين أنا بين هذا الحشد ؟ أيمكن أن أحظى بشئ من الهناءة بين هذا الرهط من الشياطين التى تناصبنى العداء ؟ كيف أعرف نفسى أو أسميها أو أناديها من بين هذه الوجوه كلها ؟

لا تقل لى : « إن هذه الأفكار عندك ولكنها ليست إياك » ماذا ؟ ألسنت أنا الذى أفكر ؟ ألسنت أنا الذى أغنوه هذه الأفكار ؟

ولا تقل لى بخاصة : « إن هذا كله لا يعيش إلا فى عقلك » إذلا أهمية إلا لما يجرى فى العقل .

ما كنت لأجعل من حياتى شيئاً طاهراً نقياً .

إننى عاجز عن الحب ، عاجز عن الصداقة ، إلا أن يكون الحب والصداقة عاطفتين تافهتين حقيرتين .

أنا ابن عاق ، وصديق خائن ، ومحب غادر ، فى أعماق قلبى تمنيت موت أمى ، وخنت أكتاف وأخزيتى ، واغتصبت مارث ودنسيتها ، وغدرت بمرجريت . وفعلت ألف جريمة أخرى ، أنمحت من ذهنى حتى ذكرها ، وهذا أشد الأمور إقناطاً .

أنا لا أوقر شيئاً من أعماق قلبى ، وعلى الرغم من ذلك ... !

وعلى الرغم من ذلك كنت أحلم أحياناً بحياة لو عشتها لكنت أجمل حياة وأنبلها : ولست مذنباً ، فما أنا بالسيد المطاع .. لا تتهمنى قبل أن تراجع نفسك .

أنا عبد قن ، فمن يمنحنى الحرية ؟ من ينقذنى من الهوان ؟ من يستطيع أن يرد على كرامتى المفقودة ؟

إن العالم يروغ منى ، فأضطرب بين الأشباح . فمن يستطيع أن يتقدم لينقذنى ؟ هكذا كنت أفكر وأنا جالس على مقعد حديقة النباتات . وكنت مقروراً ، وسرعان ما أحسست جوعاً ، ولست أخلو من مرارة إذا أقرر أنى أستطعت أن أحس البرد والجوع على الرغم من ألى ... هذا جرح جديد للكبرياء .

حاربت البرد بالسير ، والجوع برغيف من تلك الأرغفة الصغيرة المرصعة بالزبيب برغيف من أرغفة الجويدار الصغيرة التى كانت متعة صباى .

وكذلك همت طوراً أجوس فى دروب الحديقة ، وطوراً أضرب فى الشوارع
المجاورة ، حتى مال ميزان النهار وغمّت الشمس ، فما بدت لى قظ أشد ضغناً
ولا نحساً . وكان ذلك وهما خالصاً ، فلقد عرفت من بلايا العرق تحت لازورد يولية
ما تقصر عن شأوة بليات الشتاء .. لا شمس إلا فى سلام القلب .
أين أذهب ؟

احلوك الليل ، وبدأ الثلج يتساقط ، وكنت إذ ذاك فى شارع بيفون ، فعدت إلى
سطح الدنيا لحظة لأقرر لنفسى أن الثلج يتساقط ، ثم غصت ثانية إلى الأعماق .
وبعد ربهه وجدتنى محاذياً خفر البلدية بشارع مونج ، ميمماً شارع پوده فير .
كان الوحش يعود إلى مثواه . كان يعود وحده إلى المأوى ، حيث الدفء والطعام .
كل شئ كما كان . كل شئ على وتيره واحدة . خروج فاياپ . فإلى المنزل بحمل
من الغضب والأشمئزاز .

سيدي ، لقد جاوز الليل على منتصفه ، واستمعت إلى حتى الآن بكثير من الصبر والكرم ، فلا سرف على رحمتك ، ولأفرغ من قصتي .

انقضت سبعة أيام منذ تلك الأحداث التي ارتبطت ، عندي ، بيوم عيد الميلاد ، وإنني لأستمحيك العذر مرة أخرى ، إذ أصر على تسمية هذه الأشياء التي لم تتجاوز حدود نفسي بالأحداث ، فللعالم تاريخان : تاريخ أعمالنا وهو ذلك الذي ينقش على البرنز ، وتاريخ أفكارنا وهو ذلك الذي لا يبدو أن أحداً يعنى به . وإن شئت الحقيقة فما قيمة أفعالي إذا لم تكن أفكارى إلا نكتاً لها ، وسخرية منها ؟

قضيت الأيام الأربعة الأولى في قلق متزايد ، وكان المقام في المنزل يؤلني ، لأسباب يسهل عليك حدسها .. كثرة الذكريات ، ونظرة تينك المرأتين ، ومين وجهي وكلامي وحركاتي .

فكنت أخرج صباح كل يوم ولا أعود إلا بعد أن يتقدم الليل ، ويحين وقت النوم . وكانت أمي تقول كل مساء إن لانو أتى وانتظرنى ساعة أو ساعتين بغير أن يوضح غرضه من الزيارة .

وكنت أقضى الليل على أريكتي أدخن وأحارب شياطيني .

وفي صباح أمس الأول جرى بيني وبين أمي حديث قاطع . أكان ذلك حديثاً ؟ الحق أن أمي تكلمت وحدها .

كنت موشكاً أن أخرج ، وكانت مرجريت قد خرجت لتحضر من المشغل عملاً ، وأمي ترتب المسكن ، فقالت .

- لويس ؛ أجلس لحظة بجانبى .

وجلست . ولا بد أن وجهي كان مغلقاً شاحباً تعروه التواءات صغيرة غير إرادية لا أستطيع كبجها . لقد كنت قلقاً مضنى في وقت معا . قالت لى أمي :

- لويس ؛ ستبلغ الثلاثين بعد شهرين .

ففهمت لتوى . وتكلمت أمي نصف ساعة . لقد آن أن أتزوج . يجب ألا أتأخر في الحصول على عمل . إن أمي كانت مشغولة بهذا الأمر أيضاً . لقد آن لى أن أختار رفيقاً . أليس على مقربة منى ...

آه ! يا أمى ؛ يا أمى ؛ ما أشد حبك لى ! وما أحسن معرفتك بى ! وما أسوأ فهمك لى !

تركبتها تتكلم . وكانت تهز يديّ برفق ، فتسقطان لحرّاك بهما . فإذا ألحت على بالأسئلة هزّزت رأسى ولم أجب .

ودق الجرس فأتجدنى ، ودخلت مرجريت ، وسرعان ما تناولت ملابسى وخرجت مبتدراً الباب ، وأنا أنظر فى عبورى - بشئ من الغيظ - إلى تلك الفتاة التى تحلم بأن تهب السعادة لرجل مثلى .

وقد مضى على ذلك أكثر من ثمان وأربعين ساعة ، ولم أعد إلى المنزل ، ولن أعود إليه ، فما بقيت لدى قدرة على أن أعود .

كتبت لأمى كتاباً لا يوضح شيئاً . كيف توضح مثل هذه الأشياء ! كتبت إليها : «أمى ؛ أنت لاتعلمين أى رجل أنا ، فلا تسألينى أن أعود إليك ، ولا تطلبى منى أن أكون سعيداً» وأشياء أخرى كثيرة تافهة كهذه، كانت ولاشك عذاباً ، ولم توضح شيئاً . وهاقد كادت تمضى على ثلاثة أيام وأنا أهيم فى باريس بلا غاية ولا مأوى . لقد هدأت نفسى ، ولكن تعاستى شديدة .

لست أبحث عن الموت . فإنى لم أستعد بعد للموت .

ولدىّ نقود تكفينى يومين ، ثم أعملُ أعمالاً تافهة لأجد طعاماً .

لا تحدثنى عن تينك المرأتين ، اللتين أظنهما جالستين الآن فى حجرة الطعام تخيطان . فيم تفكران ؟ ماذا تقولان ؟ لا تحدثنى عن ذلك ، فلقد سئمت التفكير فيه طوال هذه الأيام الثلاثة .

إن القدر ساقنى الليلة إلى هذه الحانة ، حيث عنّ لى أن أقابلك .

ولم أشرب من الخمر إلا قليلاً ، ولا شك أنك لاحظت ذلك ، وكنت أود لو أكثر من الشراب ، غير أن معدتى مريضة .

لا ترو لأحدٍ هذه القصة التى ليست بقصة . فكل إنسان يحمل عبئه من العذاب ، وعبث أن تثقل عليهم بقصة سلاقان ، وعبث كذلك أن تضحكهم منها .

لست أدري ماذا أفعل من بعد ، ولا ماذا أصير . قد أرحل إن عطفت على الريح
وحملتني ، وقد أبقى . ربما

أنت ياسيدي، يا من تبدو سمحاً طيباً ، ويا من تركتني بهذا الرفق العظيم أتكلم ..
لعلك تدلني على ما ينبغي أن أفعل .

الكتاب الرابع

إيقان تورجنيف

دخان

ترجمة

شكري محمد عياد

قديم

حوالى منتصف القرن التاسع عشر كان يلوح على الأفق الأوربي ظل كبير .. ظل الثورة الفرنسية ونابليون بونابرت . لقد عاد آل بوربون إلى فرنسا كما كانوا قبل الثورة ، ومات نابليون ، شبه مجنون ، فى جزيرة سانت هيلانة ، ولكن كلمة الحرية ظلت تتردد فى أرجاء أوروبا فتتلقفها الملايين . وعلى الرغم من « الحلف المقدس » وهجمات الرجعية المستأسدة فقد استمرت ثورات التحرر الوطنى ، كما استمرت حركات المطالبة بالحكم النيابى ، فتحررت إيطاليا ، وتكررت الثورات الوطنية فى المجر ، وبولندا ، وعادت الجمهورية فى فرنسا ، وفرض الأحرار الألمان حكومة ديمقراطية .

وفى هذا الجو كانت « روسيا المقدسة » ، وريثة الامبراطورية البيزنطية ، وحامية الدين المسيحى ، هى المعقل الأول للرجعية . وكان دور القيصرية فى مقاومة الحركات التحررية دوراً متعدد الأوجه . كانت تفرض على بولندا وسائر مستعمراتها فى أوروبا ، وآسيا عبودية أبدية ، وتخمد ثوراتها بعنف دموى . وكانت تضع جيوشها فى خدمة الرجعية الأوربية المرتبكة ، كما فعلت فى ثورة المجر وكانت - فى روسيا نفسها - تقمع بقسوة كل نزعة فكرية تشتم منها رائحة الحرية ، وكل دعوة إصلاحية تحبذ - سرّاً أو علانية - الحكومة الشعبية .

وفى حمى القمع والإرهاب لم تكن الرجعية تفرق بين الأفكار المعارضة لمصالحها حقيقة وبين الأفكار التى يمكنها أن تستغلها وتستخدمها . كان « السلافوفيل » فى كثير من الأحيان يلقون من التتكيل مثلما يلقاه « الغربيون » مع أن السلافوفيل كانوا يقدمون إلى الرجعية الروسية تكتة قوية لمقاومة الثورة ، وأساساً نظرياً للمحافظة على القديم ، فقد كانوا يذهبون إلى أن الحضارة الأوربية قد دب فيها الفساد ، فلا ينبغى أن تستعير روسيا من الغرب ، بل يجب عليها أن تحافظ على نظمها « السلافية » الأصيلة . وكان خصومهم الغربيون - على العكس - يدعون إلى الاقتباس من الغرب والتلمذة له ، ومعنى ذلك ، فى ذلك الوقت ، اقتباس وسائل الإنتاج الحديث ، ونظم الحكم الديمقراطى ، وتراث العلم العالمى وأشكال الفن المتطور .

وكان تورجنيف من هذا الفريق الأخير . وقد ذهب إلى أوروبا شاباً ليدرس الفلسفة فى إحدى الجامعات الألمانية ، وليتنفس بحرية فى جو فكرى بعيد عن إرهاب القيصرية

ولكنه لم يكن « هارباً » ولم يكن متتبعاً لوطنه ، بل لعله كان ، فى قراره من بلاده ، وطنياً حاد الوطنىة . وعاطفة تورجنيف نحو وطنه - وهى العاطفة التى تجلت فى «دخان» وعبر عنها أصدق تعبير على لسان « بوتوجين » - تظهر فى هذه الكلمات التى وصف بها حالته فى صدر شبابه .

« إن الحركة التى كانت تدفع بأترايى من الشبان إلى البلاد الأجنبية كانت تعيد إلى الذاكرة صورة أولئك الصقالية الأقدمين الذين ذهبوا يبحثون عن أمراء لهم بين «الفارج» وراء البحار ^(١) . فكل منا كان يحس إحساساً عميقاً أن «أرضه» (ولا أعنى الوطن على التعميم بل تراث الآباء الخلقى والفكرى) «أرض عظيمة غنية ولكنها خلو من النظام» . وأستطيع أن أقول عن نفسى أننى شعرت شعوراً أليماً بمساوئ هذا الانتزاع من منبتى الأصلى ، وهذا القطع العنيف لكل صلة تربطنى بالبيئة التى شبت فيها .. ولكنى لم أكن أستطيع غير ذلك . فإن هذه الحياة ، وهذا الوسط ، وبخاصة هذه الدائرة التى كنت منتمياً إليها دائرة ملاك الأرض وأصحاب العبيد ، لم يكن فيها ما يدعونى إلى البقاء . بل على العكس ، كان كل ما أراه حولى تقريباً يبعث فى نفسى شعور القلق والثورة ، أو باختصار شعور الاشمئزاز . فلم أستطع التردد طويلاً ، إذ لم يكن بيد من أحدى اثنتين : إما أن أخضع وأسير بهدوء فى الدرب المطروق ، وإما أن أنتزع نفسى دفعة واحدة ، وأتخلص من كل شىء وكل إنسان ، وإن أدى ذلك إلى حرمانى من أشياء كثيرة حبيبة إلى قلبى . وكان ذلك هو السبيل الذى اخترته . فألقيت بنفسى فى «الخضم الألمانى» ليظهرنى ويجدد حياتى ، حتى إذا خرجت من مياهه وجدت نفسى « غريباً » ، وكذلك بقيت . فلم أستطع أن أتنفس وأعيش وجهاً لوجه مع ما كنت أكره ، ولعله كان يعوزنى السيطرة على النفس وقوة الشخصية اللازمتان لذلك . كان على أن أبتعد عن عدوى مهما يكن الثمن ، كى أسدد إليه عن بعد ضربات أشد قوة . وقد كنت أرى لهذا العدو وجهاً واضح القسمات ، وكان له عندى اسم معروف . كان عدوى هو حق الاسترقاق . وتحت هذا الاسم جمعت كل ما كنت عازماً على مصارعتة إلى النهاية ، كل ما أقسمت على محاربته بغير مهادنة .

(١) يشير تورجنيف إلى نزوح إحدى قبائل اسكندنافية إلى روسيا فى مستهل القرن التاسع وتأسيسهم الإمارات هناك . وقد ورد ذكر هذه الواقعة فى «دخان» . والعبارة الموضوعة هنا بين أقواس هى العبارة التى يروى أن مبعوثى الصقالية قالوها لأمراء الفارج .

كان ذلك عندي هو قسم هانيبال . ولم أكن وحدي صاحب هذا القسم . وذهبت إلى الغرب كي أبر بقسمي .. » .

وحوالي سنة ١٨٤٧ ، كان تورجنيف في روسيا . وبدأ ينشر صوراً من حياة الفلاحين كانت معولاً من المعاول القوية التي وجهت إلى نظام الرقيق . وكانت قوتها في واقعيتها الإنسانية التي أظهرت هؤلاء الفلاحين الأرقاء ، لأول مرة في تاريخ الأدب الروسي ، في مشاهد حياتهم العادية القاسية ، وصورت آمالهم وآلامهم ، فكأنها نبتت إلى أنهم بشر كغيرهم من الناس ، وقد جمع تورجنيف هذه الصور في كتابه « مشاهد من حياة صياد » (١٨٥٢) وعوقب بالنفي إلى الريف . ولكن الرجعية لم تستطع أن تمضي في استبدادها إلى النهاية . فإن الفلاحين أنفسهم بدأوا يثورون ، وتكررت حوادث العصيان الجماعي حتى بلغ عددها في سنة ١٨٤٨ وحدها أربعة وستين . وأدت سياسة القيصر نيكولاس الأول العدوانية إلى حرب القرم سنة ١٨٥٤ ضد الدولة العثمانية ، وحاربت إنجلترا وفرنسا في صف العثمانيين وهزمت روسيا هزائم متلاحقة حتى اضطر القيصر ألكسندر الثاني الذي تولى العرش سنة ١٨٥٥ إلى عقد الصلح بعد خسائر جسيمة لم تحصل البلاد من ورائها على فائدة ما . ثم بدأ سلسلة من الإصلاحات كان أولها وأهمها إلغاء الرق سنة ١٨٦١ ، وجاءت بعد ذلك قوانين التجنيد الإجباري ، وفتح الجامعات أمام أبناء الشعب ، وإدخال نظام المحلفين في المحاكم الروسية ، ولكن الرجعية كانت تنظر شزراً إلى هذه الإصلاحات ، وتحيطها بمختلف العراقيل ولم تلبث أن كشفت وجهها ثانية ، ففي سنة ١٨٦٥ رفض القيصر طلب النبلاء تأسيس مجلس نيابي ، وتلا ذلك تعطيل الصحف الحرة ، وإذاعة منشور رسمي بدعوة الشعب إلى « مقاومة الأفكار الخبيثة التي تهدم الدين والنظام والملكية الخاصة » . وبينما كانت الرجعية تشدد قبضتها بدأ الفكر الروسي يتحول من التحرر إلى الثورة . وكما هي العادة دائماً في مثل هذا التحول امتلأت أجواء المثقفين بالبدع الفكرية ، والدعوات الكاذبة ، والمغامرات الصيانية . وكان هذا هو الجو الذي كتب فيه تورجنيف « دخان » سنة ١٨٦٨ .

صور تورجنيف في « دخان » جماعات من المغتربين الروس في مصيف ألماني . فصور المجتمع الأرستقراطي بئناقته وتفاهته وفراغه وانحلاله . كما صور منتديات

أكثر شعبية ، منتديات أدعياء التحرر بمناقشاتهم العقيمة وخضوعهم الأعمى لشعار أو قائد . والتقط عيوب هؤلاء وأولئك بعين نافذة خييرة ، وصورها بدقة حفار ، فجعلها نماذج رائعة للهجاء الواقعي . على أن هذه الصور ليست مجرد هجاء سياسى ، بل إن وراءها إحساساً مرأ ، إحساساً تراجيدياً بضياغ الجهد الإنسانى واضطراب الفكر الإنسانى ، وغموض المصير الإنسانى . وقد لخص الروائى هذا الإحساس فى عنوان الرواية « دخان » الذى أخذه من هذه الفقرة قرب الخاتمة ، وهى تذكرنا تذكيراً قوياً بسفر الجامعة :

« وجعل ينظر من نافذة القطار . كان الجو أغبر رطباً ، لا مطر فيه ، ولكن الضباب لا ينكشف ، والسحب الدانية تحجب السماء . وهبت الريح فى مواجهة القطار ، فاندفع أمام النافذة التى جلس إليها لتفينوف موكب متلاحق من أمواج البخار البيضاء ، بعضها خالص وبعضها ممتزج بسحب الدخان القاتمة . وأخذ لتفينوف يرقب هذا البخار والدخان . كانت السحب تمر بعد السحب ، ولا تزال تصعد ، وتعلو وتهبط ، وتتولى وتتعلق بالأعشاب والشجيرات ، وكأنها تلعب فى إحدى المساخر . ثم تتمدد وتذوب فى الفضاء .. كانت تتبدل دائماً وهى لا تزال كما هى .. لعبة سريعة سخيفة مكررة ! وكانت الريح تتغير حين ينحرف الخط يمناً أو يسرة ، فيتلاشى الرعيل كله فجأة ، وسرعان ما يبدو مرة أخرى من النافذة المقابلة . ثم ينتشر الذيل الضخم مرة أخرى فيحجب عن بصر لتفينوف سهل الدين الفسيح . حدق وحدق ، واستولى عليه شرود غريب .. كان وحيداً فى المقصورة ، لم يكن هناك من يزعجه ، فردد مرات عديدة : دخان . وفجأة بدا له كل شىء دخاناً – كل شىء : حياته هو ، والحياة الروسية ، وكل ما هو بشرى ، وعلى الخصوص كل ما هو روسى . الكل دخان وبخار – هكذا قال لنفسه – كل شىء يبدو دائماً التغير ، فى كل مكان أشكال جديدة ، أحداث بعد أحداث ، وكل شىء كما هو فى الصميم . كل شىء يسرع طائراً إلى وجهة ما ، وكل شىء يتلاشى دون أن يترك أثراً أو يبلغ أمراً وتتغير الريح ، فيسرع كل شىء فى الاتجاه المضاد ، وهناك تبدأ نفس اللعبة المستمرة القلعة العقيم . وتذكر كثيراً مما شاهده بنفسه فى السنوات الأخيرة من أحداث أحيطت بالضجيج والتهريج ، فهمس : دخان ، دخان . وتذكر الجدل العنيف والصياح والنقاش عند جوباريوف ، وعند أناس آخرين منهم الشبان والشيوخ ، والبسطاء والعظماء ، التقدميون والرجعيون .. فردد . دخان ، بخار ودخان . وتذكر أخيراً تلك النزهة الأنيقة ، وتذكر خطباً وتصريحات وأشخاصاً آخرين يعدون أنفسهم لأكبر المناصب حتى كل مواعظ بوتوجين .. دخان ،

دخان و لا شىء أكثر من دخان وجهوده وعواطفه وآلامه وأحلامه ؟ لم يستطع لتفينوف إلا أن يلوح بيده فى قنوط .

ولكننا ننسى أن « دخان » رواية وليست سياسة . فالسياسة فى « دخان » ، كما هى فى معظم الروايات ، مرتبطة بقصة حب ، والكاتب البارع هو الذى يجعل الحب والسياسة وحدة ، فتتداخل الحوادث السياسية فى حوادث الحب ، وتؤثر فيها ، وقد تتأثر بها . ولكن الكاتب الأبرع لا يحتاج دائماً إلى اصطناع مثل هذا الربط فى العقدة - وكثيراً ما يكون متكلفاً - بل يقدمهما معاً كعنصرين فى جو واحد ، ويحقق التلاؤم بينهما بمبادئ شكلية غير تسلسل الحوادث التى يؤثر بعضها فى بعض . وهذا ما نجده فى « دخان » .

فلتفينوف ، الشاب الأمين المثابر الذى يقع تحت سلطان عاطفة غشوم مستعرة نحو امرأة أرستقراطية نارية ، وهو فى الوقت نفسه قد خطب قريبة له يتمثل فيها نموذج الفتاة الطيبة الحنون فى أسر نبلاء الريف المتوسطى الحال - لتفينوف لا يشارك فى المناقشات السياسية وغيرها إلا متفرجاً ، ولا يحثك بالشخصيات الارستقراطية أو بأدعياء التحرر ألا مرغماً . لأنه « إن شئت الحقيقة ليس لى آراء سياسية » . على أن الحقيقة هى أنه ضنين باستعمال كلمة السياسة لمثل هذا الضجيج المتنافر الذى يسمعه عند أدعياء التحرر وأقطاب الأرستقراطية جميعاً . ولكن كبرياءه الشعبية النظيفة تنور إذا سمع هجوماً على حق الشعب فى التعلم أو فى التملك أو فى الحرية . إن السياسة عنده تتلخص فى كلمتين : « الحرية ، والعمل » . وحين يعود إلى بلاده يجد أن آراءه هذه التى رفض أن يسميها آراء سياسية كانت أقرب إلى الصواب من كل ما سمعه من أولئك « الثوريين » الذين تنكروا لمبادئهم بعد قليل . فقد « كانت المبادئ الجديدة (مبادئ الإصلاح) لم ترسخ أصولها بعد ، والمبادئ القديمة قد فقدت كل قوة . كان الجهل يرتطم بالخيانة ، ونظام الحياة الذى اهتز من أساسه يضطرب كوحل زلق ، ولم تكن هناك إلا كلمة واحدة عظيمة ترف كروح الله على الماء : كلمة الحرية » . ولعل هذا هو الدرس السياسى الذى أراد تورجنيف أن يؤديه فى « دخان » . ولكن هذا الدرس ، والأجواء السياسية التى مهدت له ، لا تكاد تتصل بالقصة العاطفية بالمعنى الشائع من الاتصال وهو التأثير المتبادل بين نوعين من الأحداث . فكيف ربط تورجنيف بينهما ؟

إن الرباط هنا رباط شعورى يظهر فى الفقرة التى سبقت الإشارة إليها . لقد فكر لتفينوف فى « جهوده وعواطفه وآلامه وأحلامه » بعد أن مرت بمخيلته ذكريات الأحداث السياسية التى أحيطت بالضجيج والتهريج ، والجدل العنيف والصياح والنقاش عند أناس كثيرين منهم الشبان والشيوخ ، والبسطاء والعظماء ، والتقدميون والرجعيون . كأنما « جهوده وعواطفه وآلامه وأحلامه » كانت تحمل ، عن غير وعى منه ، صدى هذا الضجيج والجدل العنيف . وكأن الرواية كلها تمثل أمل تورجنيف فى أن تخرج بلاده ، أن يخرج أحرار بلاده من الضجيج السياسى إلى العمل الصبور المثمر ، كما خرج لتفينوف من ضجيج العاطفى إلى حب عطوف مستقر . ولابد لهذا الخروج من توضحيات . لابد من توضحية وهج العاطفة ، ونشوة البطولة ، وسكرة الحلم ، من أجل حقيقة أكثر ثباتاً ، ولابد للروائي إنن أن يضحى بقمة شامخة مثل « بازاروف » بطل « الآباء والأبناء » التى كتبها سنة ١٨٦٢ ، ليجعل بطله فى « دخان » تلا صغيراً ، هو لتفينوف . وهذه هى الملاحظة التى أبداهها الزعيم الثورى بيسارييف – على سبيل النقد حين سأله تورجنيف عن رأيه فى « دخان » . ولكن التل الصغير ، « لتفينوف » ، لازم للتعبير عن الجوهر التراچيدى فى روايتنا هذه . الحياة تتقدم ، ويجب أن تتقدم . وحين تتقدم الحياة يكسب الأحياء ، ولكى يكسبوا يجب أن يخسروا . لن يعرف لتفينوف مع تاتيانا تلك النشوة التى وجدها بين ذراعى أيرينا ، ولكنه سيذهب إلى تاتيانا . ولن يصنع الشعب الروسى معجزة بين عشية وضحاها ولكنه سيتقدم بمثابرة وصبر ليوذى دوره المقسوم . هذه هى حكمة تورجنيف فى « دخان » ، وهى حكمة كسبها ، فى مجال التفكير السياسى والعاطفة الشخصية على السواء ، بتجربة السنين المريرة ، لقد هاجر تورجنيف فى شبابه ليستطيع أن يضرب عدوه بقوة أكبر ، ولكنه تعود بعد ذلك أن يقيم بعيداً عن وطنه ، ولعله كان ينزلق أحياناً إلى مناقشات جوفاء عن مستقبل روسيا كهذه المناقشات التى يصورها فى « دخان » . وقد أحب تورجنيف المغنية الفرنسية ، الأسبانية الأصل ، بولين فيارنو : أحبها بلا سعادة ، كما أحب بوتوجين أيرينا ، من شبابه إلى كهولته ، ولم يستطع قط أن ينجو من أسر هذه العاطفة الجبارة كما نجا لتفينوف .

وحيث جاعته فكرة « دخان » ، وهو يهدف إلى الخمسين ، لم يستغرق فى كتابتها وقتاً طويلاً ، وكأنه وجد سريعاً « البديل الموضوعى » لحالته النفسية . ومع أنه شك فى بعض خطابه من الصعوبة التى وجدها عند بدء العمل ، لطول انقطاعه عن الكتابة

قبل ذلك ، فإننا نجد فيها فنه الكامل ، الذى جعل « تين » يقول عنه : « أنه أعظم فنان عرفته أوربا منذ سوفوكليس » . فمهما سخر أو هجا فإن شخصياته تظل حية حياتها الخاصة ، ولا تتحول قط إلى صور خشبية . ومهما ملأ حوارهِ السياسى بالإشارات إلى حوادث معاصرة فإنه يعرف كيف وأين يضع هذا الحوار ليظل جزءاً متمماً لبناء الرواية الفنى ، وإن نسيت المناسبات التى يشير إليها . ويستطيع القارئ أن يمر بالهوامش التى أضفناها إلى هذه الترجمة ليتمثل الجو التاريخى للرواية ، ويستطيع أن يتركها دون أن يحس أنه ترك شيئاً لأبد منه لفهم الرواية نفسها . فالمناقشات السياسية والاجتماعية الخارجة عن الأحداث الرئيسية تؤدى وظيفتها الفنية الكاملة عن طريق التقابل وتخفيف التوتر والهارمونية ، وما إليها من مبادئ شكلية أخرى يمكن أن تكون محلاً للدراسة المفصلة ، وتفهم فى ضوء هذه التقابلات وإن لم يتحدد كل ما تشير إليه .

أما شخصية إيرينا فهى كما يقول عنها الناقد الإنجليزى أديارد جارنت :

« إن سر هذا الخلق الممتاز هو أنها تجمع بين الخير والشر على سواء حتى تبدو النسوة الخيرات بجانبها تافهات والنسوة الشريرات مصنوعات . وقد حببها الطبيعة فتنة أسرة يزيد بها الخيال أسراً بذلك الموقف الذى تستجده بينها وبين لتفينوف . فهى ترغب فى السمو رغبة صادقة وتود لو تبلغ مثل الحب الأعلى الذى يتصوره قلب المرأة . ولكنها لا تقوى إلا على هدم الرجل الذى تحبه .. هل تستطيع أن تكون له بديلاً من تاتيانا ؟ كلا ، أنها لا تستطيع أن تكون كذلك لأى رجل ، فقد خلقت لتفسد دون أن يمسها الفساد ، وأنها لتسترد سلطانها على نفسها بعد لحظات اللذة الأولى ، وأنها لتظل مشتتة وإن لم تمنح قلبها كاملاً للحبيب . »

هذه شخصية مليئة بالحياة . ومع ذلك فقد نتساءل : هل مصدر هذه الحياة أن لها شخصيتها الفردية المتميزة التى تتمثلها فى مواقف الهوى والغيرة والعناد والكبرياء والاندفاع والخيانة ، أم مصدره أنها نموذج خيالى عام للمرأة الخالدة التى ترمز للحياة نفسها : « المرأة التى تفسد دون أن يمسها الفساد ... وتظل مشتتة وإن لم تمنح قلبها كاملاً للحبيب » ؟ إن الجمع فى إيرينا بين طرفى الخصوص والعموم مثل من أمثلة فن توريجنيف الناضج ، وهو وحده كفيل بأن يحفظ لهذه الرواية مكانة ممتازة بين ذخائر الأدب الخالد .

شكرى محمد عباد

حول الساعة العاشرة من عصر ١٠ أغسطس سنة ١٨٦٢ كنت ترى كثيراً من الناس محتشدين أمام « بهو السمر » الشهير فى بادن بادن . وكان الجو رائقاً وكل ما يطيف بالمكان يرتع جذلان فى أشعة الشمس الحنون : الأشجار الخضراء ، البيوت الزاهية الألوان فى المدينة الأنيقة ، الجبال المشرفة بقممها التى تشبه الموج . كل شىء كان يبتسم فى سرور مطمئن غافل ، فتمس هذه البسمة الحنون الغامضة وجوه البشر شابة وهرمة ، حسناً ودميمة . حتى وجوه بنات الهوى الباريسيات المبدرة المزوقة لم تكن لتفسد هذا الجو المرح السعيد . وكانت أشرطتهن وريشهن ، وشذرات الذهب والمعدن التى تلمع فى قبعاتهن وبراقيهن ، تمثل للعين أزهار الربيع المتألقة تميل فى خفة ، وأجنحة الطيور ترف بألوان قوس قزح . ولكن الرطانة الفرنسية الصارخة التى كانت تسمع من كل ناحية لم تكن لتماثل تغريد الطيور ولا لتقارن به .

على أن كل شىء كان يسير وفق العادة . فكانت الفرقة الموسيقية فى شرفة البهو تعزف مزيجاً من « الترافياتا » ، وقالسا لشتراوس ، ثم « أخبريها » وهى أغنية روسية أعدها للعزف على الآلات موسيقار كريم . وحول الموائد الخضراء فى غرف القمار كانت تحتشد نفس الوجوه ، وعليها نفس التعبير : تعبير الغباء والتحفز والخوف الذى تطبعه حمى القمار على أنبل الوجوه كان هناك ذلك الشريف الروسى القادم من تامبوف ، فى ثيابه الفخمة بغير ذوق وقد انحنى على مائدة القمار بعينين جاحظتين ، غير مبال بابتسامات الكروبييه الباردة وهم ينادون Rien ne va plus ^(١) ، بينما يضع الجنيهاات الذهبية بلا روية - ويده تتصيب عرقاً - على أركان المائدة الأربعة ، فيحرم نفسه كل فرصة للرمح ... حتى لو حالفه الحظ . ولم يكن جهله بالقمار ليمنعه من أن يردد فى حماسة كلمات الأمير كوكو أحد زعماء المعارضة الأرستقراطية المشهورين ، والأمير كوكو هو صاحب تلك الكلمة الماثورة التى قالها فى باريس فى صالون الأميرة ماتيلد ، وعلى مسمع من الأميراطور نفسه : « سيدتى ، إن مبدأ الملكية فى روسيا مزعزع من الأساس » . وكان أبناء وطننا الأعزاء وبنات وطننا العزيزات مجتمعين كعادتهم حول الشجرة الروسية - à l'arbre russe ، كما يقولون . كانوا يتوافدون وهم يمشون الهوينى مترفعين غير مكترئين كبعد هذا العصر ، ويتهادون

(١) عبارة عندهم معناها أن المراهنة قد انتهت ، يقولونها قبل أن تدار « الروليت » .

التحايا فى سمت أنيق كما ينبغى لأناس فى الدرجة العليا من المجتمع . ولكن الجمع لا يكاد يلتئم حتى يحاروا كل الحيرة فيما يقول بعضهم لبعض ، فيقنعون بتسقط التآفة من الكلام ، أو ببذاء محدث فرنسى سخيف كان فيما مضى صحفياً ، وهو الآن مهرج ثرثار : فى ساقيه الصغيرتين الهزيلتين حذاء غليظ ، وفى وجهه الصغير الدنىء لحية صغيرة حقيرة . فيروى لهم كل ما حوته التقاويم الهزلية القديمة مثل « التشاريفارى » و « التتامار » من بارد الفكاهات ، وينفجر « هؤلاء الأمراء الروس » ضاحكين فى رضا وامتنان كأنهم مرغمون على أن يعترفوا بروعة الفكاهة الأجنبية ، ويعجزهم عن ابتكار أى شىء طريف . ومع ذلك فهؤلاء هم « زهرة » مجتمعنا ، ونماذج البدع والأناقة عندنا .. هذا هو الكونت « س » محب الفنون ذو الطبع الموسيقى الحساس الذى يستطيع أن يترنم بأجمل الأغاني ، ولكن أصابعه تضل على مفاتيح البيان ، والذى يغنى بطريقة وسط بين طريقة مغن غجرى بانس وطريقة حلاق باريسى . وهذا هو البارون « ك » الساحر ... أستاذ فى كل فن : فى الأدب والإدارة والخطابة والغش فى القمار . وهذا أيضاً الأمير « ي » صديق الدين والشعب ، الذى جمع لنفسه ثروة طائلة ببيع الفودكا مغشوشة بالبلاطونا فى تلك الأيام المباركة التى كانت تجارة الخمر فيها احتكاراً . والجنرال الذكى « و . و . » الذى هزم أحداً ما وأخضع شيئاً ما ، ولكنه لا يزال نكرة ولا يدرى ماذا يصنع بنفسه . و « ر . ر . » ذلك الرجل المسلى الذى يظن نفسه مريضاً جداً وظريفاً جداً ، مع أنه قوى كالثور ومصمت كاللوح ... هذا الـ « ر . ر . » يكاد يكون الرجل الوحيد فى زماننا الذى حافظ على تقاليد فتيان العقد الخامس ، والأيام « فتي العصر » (١) ، والكوتتيسة فوروتنسكى - حافظ على تلك المشية الخاصة المترجحة على الكعبين ، كما حافظ على « فن الإشارة » - Le Culte de la Pose - ومعذرة إذا كانت كل ترجمة قاصرة عن أداء المعنى . أنه فن التكليف فى الحركات . والتثاقل فى التعبير ، والجمود المترفع فى الأسارير ، ومقاطعة أحاديث الناس بالتناوب . فن التحديق فى أظافر اليدين ، والضحك من الأنف ، ودفع القبعة من مؤخر الرأس إلى الحاجبين . إلخ . وهنا أيضاً رجال من نوى المراتب العالية فى الحكومة : سياسيون أولو شأن خطير ، وأسماء أوربية ، ورجال ذوو علم ومعرفة ، يحسبون أن « الثور الذهبى » مرسوم أصدره البابا ، وأن ضريبة الفقراء فى إنجلترا ضريبة تجبى من الفقراء . وهنا عباد

(١) مجموعة قصص للشاعر الروسى ليرمنتوف ، ظهرت سنة ١٨٤١ ، وتمثلت فيها قمة الرومانسية الروسية . بطلها « بيكورين » شاب فائق لا يعرف الحب ولكنه مغرم بأن يوقع النساء فى هواه .

« غادات الكاميليا » الدائرو الرعوس المعقودو الألسنة .. فتيان غنادير شعورهم مفروقة بأناقة حتى مؤخر الرأس ، وعوارضهم الجميلة مرسلة على صفحتى الوجه ، يلبسون ثياباً لندنية أصيلة .. ظباء لا يعوزهم شىء لينافسوا ذلك المحدث الفرنسى الشهير . ولكن لا ! إن منتجاتنا الوطنية ضئيلة الحظ من تشجيع أهل البدع والأناقة . فالكونتيس « س » ملكة الأزياء المبتدعة و « الجران جنر » ، التى تلقبها الألسنة الحاقدة بملكة الضيابير، ويميدوزا ذات القبعة ^(١) – هذه الكونتيس « س » تفضل إذا غاب الفرنسى الظريف أن تتحدث مع الإيطاليين أو المداقيين ، أو محضرى الأرواح الأمريكين ، أو سكرتيرى المفوضيات الأجنبية المتأئقين، أو النبلاء الألمان نوى السحر التى تجتمع فيها النعومة والحصافة المبكرة ، والمكان حافل بكل هؤلاء . وتقتدى بالكونتيس الأميرة بابت التى مات شويان بين نراعيها (وفى أوربا تعد أكثر من ألف امرأة مات شويان بين أذرعهن) والأميرة أنت التى لا يغض من فتنتها إلا تلك الغسالة القروية الساذجة التى تطل من أهابها بين الحين والحين ، كرائحة كرنب تختلط بأرق العطور ، والأميرة باشت التعسة الحظ التى ظفر زوجها بوظيفة ممتازة ثم إذا هو – Dieu sait pourquoi ، يضرب عمدة المدينة ويسرق عشرين ألف روبل من مال الدولة ، والأميرة زيزى الضاحكة ، والأميرة روزو الباكية – فكلهن يمنحن بنى وطنهن صدا وإعراضاً . فلنعرض نحن أيضاً عن هؤلاء السيدات الحسان ، ولنبتعد عن الشجرة الذائعة الصيت ، التى يجلسن حولها فى ثياب غالية ولكنها لا تخلو من سماجة . وعسى الله أن يتوب عليهن من ذلك الملل الذى يفرى منهن النفوس !

(١) « ميدوزا » اسم سحلاة أو امرأة غول فى الأساطير اليونانية ، شعرها ثعابين ملتفة ، ووجهها مدور ، وأنفها أفطس ، ولسانها دالح ، وأسنانها بارزة .

على مسيرة خطوات من « الشجرة الروسية » كان يجلس إلى منضدة أمام قهوة فيير رجل وسيم يناهز الثلاثين من العمر ، نحيل ، أسمر ، متوسط القامة ، فى محياه بشاشة ورجولة ، وكان منحنيًا إلى الأمام وقد اعتمد بكلكا ذراعيه على عصاه ، فى هدوء الرجل الذى لا يخطر بباله أن أحداً من الناس يعنى به أو يراعيه . وكانت عيناه العسليتان المعبرتان تحدقان فيما حوله ملياً ، ويخزرهما أحياناً ليتقى ضوء الشمس ، ثم يتأمل بعض من يمرون به من تلك الشخوص الغريبة ، فيختلج شاربه وشفته وذقنه البارز الصغير بابتسامة فيها من الطفولة شىء كثير . وكان يلبس معطفاً ألمانياً ضافياً ، ويغطى نصف جبهته العريضة بقبعة من الصوف الرمادى . وكان يبدو للنظرة الأولى شاباً أميناً رزيناً معتداً بنفسه ، ككثير من الشبان فى هذا الوجود . كما كان يبدو أنه يستجم بعد عمل طويل شاق ، وأن أفكاره الشاردة التى تجول فى عالم بعيد عن ذلك الذى يحيط به لا تزيده إلا التذاذاً بريئاً بهذا المنظر المنبسط أمام عينيه . وكان روسيا . وكان اسمه جريجورى ميهالوفتش لتفينوف .

وإذ لم يكن لنا بد من معرفته فلنرو ماضيه فى بضع كلمات ، ولن نجد فى ماضيه كثيراً من الغرابة ولا التعقيد .

كان أبوه موظفاً فى المعاش ، وكان ينتمى إلى طبقة العامة ، ولكن الابن لم يتلق تعليمه فى المدينة كما يتوقع فى مثل هذه الحال بل تلقاه فى الريف . أما أمه فكانت سليلة أسرة من النبلاء ، تعلمت فى إحدى المدارس الرسمية ، وكانت إنسانة سليمة الطوية سريعة التأثر ، ولكنها لم تكن تافهة الشخصية ، فعلى الرغم من أنها كانت تصغر زوجها بعشرين عاماً فقد غيرته قدر الإمكان ، وأخرجته من وضاعة حياة الموظف الصغير إلى عيشة المالك الكبير ، ورققت من عنفه ، وهذبت من عناده ، وبفضلها أصبح يعتنى بهندامه وشارته ، وصار يحترم العلم والعلماء - ولو أنه لم يفكر قط فى أن يقرأ كتاباً - وترك السباب وحاول بكل وسيلة أن يكتسب مظاهر النبل ، حتى أنه صار يمشى متئداً ويتحدث بصوت خفيض . وكثيراً ما كان يتحدث فى موضوعات جلية ، وكان ذلك يجشمه عناء غير قليل ، فكان يقول فى نفسه : « والله يا هذا ما حقاك إلا الضرب » ولكنه يرفع صوته قائلاً : « نعم ، هذا صحيح . بالطبع . إنها مسألة مهمة » . وقد جعلت أم لتفينوف منزلها أوروبى الطراز أيضاً ، فلم

تكن تشتم الخدم ، ولم تكن تسمح لأحد بأن يكتظ على مائدتها حتى يكبسه النعاس . أما الأرض التي كانت تملكها فقد عجزت هي وزوجها كل العجز عن العناية بها ، فبقيت مهملة زمنأ طويلاً ، مع أنها كانت أرضاً واسعة تضم مراعى وغابات وبحيرة ، وكان يشرف على البحيرة فيما مضى من الزمان مصنع أقامه مالك متحمس ولكنه لا يآلف النظام ، وراج على عهد تاجر مخادع ، وخرب بإشراف مدير ألماني مدقق . وكانت مدام لتفينوف راضية قانعة بأنها لا تباع أرضها ولا تستدين ولكنها لم تكن موفورة الصحة ، فماتت بالسل في السنة التي دخل فيها ابنها جامعة موسكو . ولم يتم الفتى دراسته لأمر سيعلمها القارئ فيما بعد ، فعاد إلى منزله الريفى حيث قضى فترة من الزمان بلا عمل ولا واجب ولا صديق . وجند فى سنة ١٨٥٥ ، والفضل فى ذلك لنبلأ إقليمه الذين كانوا لا يحبونه ، وكانوا يؤمنون بالحكمة الشائعة : « خلص نفسك وارم جارك » وأكثر إيمانهم بالنظرية الأجنبية التي تقول : إن المالك يجب أن يقيم فى أرضه . وكاد يهلك بالتيفوس فى القرم حيث قضى ستة أشهر فى كوخ من الطين على شاطئ البحر الأسود دون أن يقع بصره على رجل واحد من « الحلفاء » . واشترك بعد ذلك فى مجالس النبلاء ، ولم تخل هذه الفترة من حياته من تجارب أليمة ولكنه أغرم بالزراعة بعد أن عاش فى الريف زمنا قصيرا . وأدرك أن ثروة أمه كانت فى يد أبيه العاجز الضعيف الكسلان لا تغل عشر ما يمكن أن تغله ، وأنها إذا تعهدتها يد مجربة ماهرة أصبحت منجما من الذهب . إلا أنه أدرك أيضا أنه لا يعوزه شىء كما تعوزه المهارة والتجربة . فسافر إلى الخارج ليتخصص فى الزراعة والتكنولوجيا أو على الأصح ليتعلمهما من مبادئهما الأولى . وأمضى أكثر من أربع سنوات فى مكلنبورج وسيليسيا وكاراسروها . وسافر إلى بلجيكا وانجلترا . وعكف على العمل . وحصل كثيراً من المعارف . وما كان ذلك بالأمر اليسير . ولكنه ثابر وقاوم الصعاب إلى النهاية . وقد أخذ يتأهب الآن للعودة إلى وطنه ، مؤمنا بنفسه ومستقبلة وينفعه لجيرانه ، بل ربما للإقليم كله ، تستحثه دعوات أبيه اليائسة الضارعة ، وقد حار فكره فى تحرير الرقيق ، وإعادة توزيع الأرض ، وشروط حياتها .. إلخ . أو باختصار فى النظام الجديد .. ولكن لماذا كان فى بادن ؟

لقد كان فى بادن لأنه كان ينتظر من يوم إلى يوم قدوم ابنة خالته وخطيبته « تاتيانا بروفنا شستوف » التي عرفها منذ الصغر ، وأمضى الربيع والصيف معها فى درسدن حيث كانت تعيش مع عمتها . وقد أحس لهذه القرية الشابة حبا صادقا واحتراما عميقا . فلما انتهى من أعماله التمهيدية المملة وأخذ يستعد لاقتحام ميدان

جديد - ميدان العمل الحقيقي الحر - رأى فيها المرأة الحبيبة والرفيق والصديق . فتقدم إليها يسألها أن تربط حياتها بحياته . على السعادة والشقاء . على الجهد والدعة . على الخير والشر . فوافقت . وعاد إلى كارلسروهة حيث كان قد خلف كتبه وأوراقه وأمتعته . ولكنك تسأل مرة ثانية : لماذا كان فى بادن ؟

حسنًا . لقد كان فى بادن لأن عمّة تاتيانا ، كابيتولينا ماركوفنا شستوف ، وهى سيدة عانس فى الخامسة والخمسين ، متقلبة الطبع على الرغم من طبيبتها وإخلاصها ، مفكرة حرة تشتعل رغبة فى التضحية ، « عقلية ثورية » (فقد كانت تقرأ شتراوس^(١)) وإن أخفت هذه الحقيقة عن ابنة أخيها) ، ديموقراطية ، خصم لبود للأرستقراطية والمجتمعات الراقية - كابيتولينا ماركوفنا هذه لم تستطع أن تقاوم الرغبة فى إلقاء نظرة واحدة على بادن الأنيقة ومجتمعها الراقى . فقد كانت كابيتولينا ماركوفنا لا تلبس « رواق »^(٢) ، وكانت تقص شعرها الأبيض قصة مدورة بسيطة ، ولكن الترف والفخامة كان لهما تأثير خفى فى نفسها ، فكانت ملهاتها المحببة أن تسخر منهما ، وتبدى احتقارها لهما ! .. فكيف يستطيع المرء - بعد هذا كله - أن يرفض للعجز الطيبة رغبة ؟

لهذا كان لتفينوف هادئاً كل الهدوء ، وكان ينظر حواليه واثقاً بنفسه كل الثقة ، لأن مستقبله كان مبسوطاً أمامه كخريطة ظاهرة المعالم ، ولأن حياته كانت مرسومة محدودة ، وكان بهذا المستقبل فخوراً وسعيداً ، لأنه كان من صنع يديه .

(١) د. ف. شتراوس (١٨٠٨ - ١٨٧٤) مفكر ألماني من تلاميذ هيجل . كانت دراسته الأولى دينية ، ولكنه أثارضجة كبيرة فى العالم المسيحى واتهم بالمروق حين أصدر كتابه عن حياة المسيح (١٨٣٦) ، الذى حاول فيه أن يخضع العقيدة المسيحية للنقد العقلى ، ففكر معجزات المسيح ، واعتبر الجانب الأكبر من تاريخه المروى فى الأناجيل أسطورة ترمز إلى الحقيقة ولا ينبغى أن تؤخذ على ظاهرها .

وقد كان لشتراوس تأثير كبير فى تحرير الفكر الدينى وبخاصة فى العالم البروتستانتى .

(٢) قطعة من الملابس من نسيج مقوى ، كانت النساء يلبسنها تحت الملابس ، لترفع الجزء الأسفل من الجسم .

وفجأة سمع صوتاً رفيعاً ينبعث بالقرب من أنفه :

- أمسك ! ضببطك !

وحطت يد سميثة على كتفه ، فرفع رأسه ، وإذا هو بصاحب من أصحابه المسكوفين القليلين يدعى بمبايف . مخلوق طيب من ذلك الصنف الفارغ العقل ، تخطى سن الشباب ، له أنف منتفش وخذان مسترخيان كأنما أغليا في ماء ، وخصل شعثناء ملبدة ، وجسم قصير سمين ، كان روستيسلاف بمبايف لا يزال يقطع وجه أمناً الصبور - الأرض - بلا هدف ولا غاية ، ولكن في ضجيج كثير . وكان مفلساً دائماً ، ومتحمساً دائماً لسبب من الأسباب .

ظل يردد وقد فتح عينيه الغائرتين ، ومط شفتيه الغليظتين ، اللتين بدا عليهما الشارب الهزيل المصبوغ شيئاً مقحماً :

- أهلاً أهلاً ! أى مصادفة غريبة !

ثم أردف :

- آه ! شكراً لك يا بادن ! إن الناس جميعاً يجرون إلى هنا كالخنافس خلف الموقدة ! ماذا جاء بك يا جريشا ؟ (ولم يكن في العالم أحد لا يناديه بمبايف باسم التذليل) .

- أنا هنا من ثلاثة أيام .

- وأين كنت ؟

- لماذا تريد أن تعلم ؟

- لماذا أريد ! اصبر على قليلاً . لعلك لا تعلم من قدم إلى هنا أيضاً؟ جوباريوف ! إنه جوباريوف نفسه .. تصور ! لقد جاء أمس من هيدلبرج . طبعاً أنت تعرفه ! .

- سمعت عنه

- سمعت عنه فقط ؟ يا عزيزي ! يجب أن تأخذك إليه حالاً ، في هذه الدقيقة كيف لا تعرف رجلاً مثله ؟ أنظر . لعلك لا تعرف هذا أيضاً ؟ يسرنى أن أعرفكما ، فكلكما من رجال العلم ! إنه من الأقداد ! تعانقا !

والتفت بمبايف وهو ينطق بهذه الكلمات إلى شاب وسيم واقف بالقرب منه ، له وجه ناضر مورد ، ترتسم عليه رزاة مبكرة . ووقف لتفينوف ، ولم يعاتق « الفذ » بل اكتفى بأن تبادل وإياه انحناءة مبتسرة ، إذ كان مظهره الصارم العبوس يدل على أنه لم يسر كثيراً بهذا التعريف المفاجيء .

واستمر بمبايف يقول :

- قلت لك أنه من الأقدان ، وهذا صحيح . اذهب إلى المدرسة الحربية في بطرسبرج ، وانظر إلى لوحاتها الذهبية .. فمن عساك ترى اسمه في أول القائمة ؟ إنه فوروشيلوف ، سيميون ياكوفليفتش فوروشيلوف ! ولكن جوباريوف .. جوباريوف يا صديقي هو من يجب أن نطير إليه ! إننى أعبد ذلك الرجل عبادة ! ولست وحدى الذى أعبده ! كلهم ، كلهم ! آه ، ما أعظم هذا الكتاب الذى يؤلفه ! أووو ...

فسأله لتفينوف :

- عن أى شىء ؟

- عن كل شىء يا بنى . يشبه كتب « بكل » تقريباً ^(١) ، إلا أنه أعمق .. أعمق .. سيقدر كل شىء ويوضح كل شىء .

- هل قرأت هذا الكتاب ؟

- لا ، لم أقرأه ، والحقيقة أنه لا يزال سراً . ولكن جوباريوف لا يعجزه شىء ! أجل ! - وتنهذ بمبايف وضم ذراعيه - آه لو كان لدينا عقلان أو ثلاثة كهذا ! إذن لرأينا منهم العجب ! - سأقول لك شيئاً واحداً يا جريشا : مهما تكن أعمالك فى هذه الأيام - فأنا لا أعرف عنها شيئاً - ومهما تكن معتقداتك - فأنا لا أعرف عنها شيئاً أيضاً - فسوف تتعلم من جوباريوف . إنه لسوء الحظ لن يطيل إقامته هنا ، فيجب ألا نضيع وقتاً قبل رؤيته . إليه ! إليه !

(١) « بكل » (١٨٢١ - ١٨٦٢) مؤرخ انجليزى اشتهر بكتابه « تاريخ الحضارة » الذى صدر جرؤه الأول سنة ١٨٥٧ والثانى سنة ١٨٦١ ، وحاول فيه أن يضع فلسفة للتاريخ توضح القواعد العامة للتقدم البشرى .

وبينما كان يتحدث مر فتى متأنق ذو خصل صهباء مجعدة ، يلبس قبعة قصيرة مزينة بشريط أزرق ، وجعل يحدق فيه من خلال عوينته وعلى وجهه ابتسامة ساخرة . فقال لتفينوف مغيضاً :

- لماذا تصرخ هكذا ؟ من يسمعك يحسب أنك تزعق على كلاب صيد ! إننى للساعة ما تعشيت .

- حسناً ! عندى فكرة . نذهب حالاً إلى مطعم فيبر .. ثلاثتنا معاً ...
ثم أضاف همساً :

- معك نقود لتدفع حسابى ؟

- نعم نعم . ولكن فى الحقيقة لا أدرى ...

- كيف ! .. ستشكر لى هذا الجميل . سيسر بمعرفتك ...

ثم صاح فجأة :

- يا للسماء ؟ إنهم يعزفون ختام هرنانى .. ما أروع ! أسوم موكارلو ... يالى من رجل ! ما أقرب دمعتى ! ألا تأتى معنا يا سيمون باكوفليفتش ؟

وكان فوروشيلوف قد ظل واقفاً فى وضع مهيب ، فلم يلف شياً من سيمائه المتكبرة ، بل عقد حاجبيه ، وخفض عينيه ، وتمتم شيئاً بين أسنانه ... ولكنه لم يرفض . وقال لتفينوف فى نفسه : « لا ضرر من هذا . عندى وقت » . وأمسك بمبايف بذراعه ، ولكنه لم يمض به إلى المطعم إلا بعد أن أشار إلى ايزابل بائعة الأزهار الشهيرة فى نادى الفروسية ، فقد بدا له أن يشتري منها طاقة زهر . غير أن بائعة الأزهار الأرستقراطية لم تتحرك من مكانها ... فما الذى يرغمها على الدنو من سيد بغير قفاز ، يلبس سترة من القطن ، ورباط عنق مخططاً ، وحذاء مكعوباً - سيد لم تر مثله حتى فى باريس ؟ وعندئذ أشار إليها فوروشيلوف بدوره ، فاقتربت ، وتناول من سلتها طاقة صغيرة من البنفسج ورمى إليها فلورينا . وكان يحسب أنه سيدهشها بكرمه ، ولكن هدباً واحداً لم يهتز على وجهها ، بل زمت شفيتها باحتقار بعد أن التفت منصرفاً ... فقد كان فوروشيلوف يرتدى ثياباً أنيقة فاخرة ، ولكن الفتاة الباريسية لمحت بعينها الخبيرة أن هندامه ومسلكه ومشيته التى لم يخف طابعها العسكرى - كل ذلك كان خالياً من « الأناقة » الحقيقية الأصيلة .

وبعد أن جلس أصحابنا فى قاعة الطعام العامة وطلبوا طعاماً أخذوا يتحدثون .
وتكلم بمبايف بصوت مرتفع وحماسة بالغة عن مناقب جوباريوف ، ولكنه سرعان ما
كف عن الحديث وجعل يصب كوباً فى أثر كوب وهو يشهق ويزفر . أما فوروشيلوف
فقد أكل قليلاً وشرب قليلاً ، وكأته لم يشارك فى الطعام والشراب إلا مرغماً . ثم سأل
لتفينوف عن طبيعة أعماله ، وأخذ يدلى بأرائه فى شتى المسائل العامة أكثر من هذه
الأعمال ذاتها . وما لبث أن أخذته الحماسة ، فانطلق كالحصان الأرن ، ومضى ينبر
المقاطع والحروف كتلميذ واثق بنفسه قد ذهب ليؤدى الامتحان النهائى . وكان يصحب
حديثه بإشارات حماسية لا داعى لها ، ولم يقاطعه أحد فزاد اندفاعاً وتأكيذاً ، حتى
كأنه يتلو بحثاً أو محاضرة وكانت تنهمر من فمه أسماء أحدث العلماء الثقاة ، مع
تاريخ ميلاد كل منهم أو تاريخ وفاته ، وعناوين الرسائل التى ظهرت حديثاً فى أفق
البحث العلمى ، وأسماء وأسماء ... وكانت هذه الأسماء تهبه رضا عميقاً
ينعكس على عينيه اللامعتين . كان فوروشيلوف فيما يظهر يحتقر كل قديم ، ولا يقدر
إلا زبدة الثقافة ، أى أحدث المسائل العلمية وأرقاها . كان يلذ له ويسعده أن يشير -
ولو بغير مناسبة - إلى كتاب لشخص يدعى الدكتور تساوربنجل عن السجون
البنسلفانية ، أو إلى مقالات ظهرت بالأمس فى « الاسياتك جورنال » عن الفيدات
والبورانات (وكان ينطق كلمة « جورنال » نطقاً إنجليزياً مع أنه لم يكن يعرف
الإنجليزية) . وأصغى إليه لتفينوف ثم أصغى بغير أن يستطيع معرفة ناحية
اختصاصه . فقد أفاض فى الحديث عن الدور الذى لعبه الجنس الكلتى فى التاريخ ،
ثم شطح إلى التاريخ القديم فتحدث عن الألواح الأيجينية ، وتكلم بحماسة عن المثال
الذى عاش قبل فيدياس - وهو أناتاس - وسماه « جوناثان » فجعل للحديث كله نكهة
بين نكهة الكتاب المقدس والنكهة الأمريكية . ثم قفز فجأة إلى الاقتصاد السياسى
وسمى باستيات أبله أو غيباً « مثل آدم سميث وسائر الفزيوقراطيين » ، فتمتم بمبايف :
« الفزيوقراطيين ؟ .. الأرستقراطيين ؟ » وأثار علائم الحيرة على وجه بمبايف بقوله عن
ماكولى - عرضاً وفى ثنايا الحديث - إنه كاتب عتيق لم تعد له قيمة بعد ما وصل إليه
علم التاريخ الحديث . أما جنايست ، فقد صرح أنه ليس بحاجة حتى إلى ذكر اسمه ،
وهز كتفيه ، فهز بمبايف كتفيه . وقال لتفينوف لنفسه وهو ينظر إلى صاحبه الجديد ،
بشعره الأصفر وعينه الصافيتين وأسنانه البيضاء (وقد ضايقته على الخصوص هذه
الأسنان الكبيرة الناصعة البياض وهاتان اليدان بإشارتهما النابية) : « هكذا بلا ترو
ولا مناسبة ، وأمام غرباء .. فى مطعم ! ولكنه يبدو فتى طيباً سانجاً » . وأخيراً بدأ

فوروشيلوف يهدأ ، ويكسر صوته الرنان الصحل كصوت ديك صغير ، وانتهاز بمبايف الفرصة فأنشد أبياتاً من الشعر ، وتهدج صوته بالبكاء حتى روع مائدة قريبة كانت تجلس حولها أسرة إنجليزية ، وأضحك مائدة أخرى كانت تجلس إليها غانيتان فرنسيتان مع مخلوق يشبه طفلاً من عصر قديم فى شعر مستعار . ثم أحضر النادل التذكرة وبفع الأصدقاء الحساب ..

ونفض بمبايف عن مقعده متثاقلاً . قال :

– حسناً ... نشرب الآن قنحاً من القهوة ، ثم نمضى مسرعين . وزاد وهو يجتاز العتبة ويشير فى شىء من المرح بيده الحمراء اللينة إلى فوروشيلوف ولتفينوف :

– هذه هى روسيا .. بلادنا . ما قولكما فيها ؟ ..

فقال لتفينوف فى نفسه : « حقاً إنها روسيا » ، أما فوروشيلوف الذى استعار وجهه مظهر التفكير العميق ، فقد ابتسم ثانية فى ترفع ودق عقبيه دقاً خفيفاً .

وبعد خمس دقائق كان ثلاثهم يصعدون درج الفندق الذى يقيم فيه ستيبان نيكولايتش جوباريوف .. وكانت تنحدر على السلم نفسه سيدة فارعة القامة ، وشيقة القد ، تلبس قبعة ذات نقاب أسود قصير . فما إن بصرت بـ لتفينوف حتى التفتت إليه بغتة ووقفت وكأنما تملكها الذهول ، وأحمر وجهها ثم شحب سريعاً تحت نقابه الأسود الكثيف . ولكن لتفينوف لم ينتبه إليها ، فانطلقت تهبط الدرج مسرعة .

صاح بمبايف وهو يقدم لتفينوف إلى رجل ربعة له هيئة شريف من أشرف الريف، يلبس خفاً وسترة قصيرة وينطلوناً صباحياً رمادى اللون ، ويقف فى وسط حجرة ساطعة الضوء حسنة الرياش : « جريجورى لتفينوف . جلمود صخر . قلب روسى حق. أوصيك به خيراً » . ثم أردف مخاطباً لتفينوف : « وهذا هو . هو نفسه . أنه جوباريوف وحسب » .

وحدق لتفينوف فيه « هو نفسه » بدهشة وتطلع ، فلم ير فيه للوهلة الأولى شيئاً غير عادى . رأى رجلاً وقور المظهر فى شبه بلاده عريض الجبين ، واسع العينين ، غليظ الشفتين مرسل اللحية ، مكتنز العنق . له نظرة ثابتة يصوبها إلى الأرض . ابتسم ذلك السيد وهمهم قائلاً : « آه .. إننى سعيد جداً » . ثم رفع يديه إلى وجهه وأولى لتفينوف ظهره وسار بضع خطوات على البساط فى مشية بطيئة منحرفة ، كأنه يحاول أن ينسل غير ملحوظ . وكان من عادة جوباريوف أن يديم السير ذهاباً ورجيئاً ، ممسكاً لحيته بين لحظة وأخرى ، يمشطها بأطراف أظافره الطويلة الصلبة . وكان فى الحجرة مع جوباريوف سيدة فى نحو الخمسين ، تلبس ثوباً حريراً بالياً ، ولها وجه أصفر كالليمونة مفرط الحركات ، وشعر أسود كثيف على شفتها العليا ، وعينان سريعتا الدوران حتى لكانهما تقفزان من رأسها ، ثم رجل ضخم يجلس منحنيّاً فى ركن .

تكلم جوباريوف مخاطباً السيدة ، دون أن يرى - فيما يبدو - ضرورة لتعريفها بلتفينوف :

- حسناً يا عزيزتى ماترونا سميونوفنا زوهانتشيكوف . فيما كنت تحدثينا ؟

فشرعت تلك السيدة - وكانت أرملة عاقراً رقيقة الحال ، قضت عامين متنقلة من قطر إلى قطر - شرعت تقول بحدة لاهثة غريبة :

- نعم . لقد ذهب إلى الأمير وقال له : « إن مركزك يا صاحب السعادة يمكنك من رفع الظلم عنى . أظنك تقدر نبل أفكارى ! وهل يمكن أن يضطهد إنسان فى هذا العصر من أجل أفكاره ؟ » فماذا تظن الأمير قد فعل ... ذلك السيد المثقف ذا المركز الممتاز ؟

فسأل جوباريوف وهو يشعل لفيفة وعلى وجهه سيماء التفكير :

- نعم . ماذا فعل ؟

فنصبت السيدة قامتها ومدت يدها المعروقة وقد باعدت بين سبابتها وسائر أصابعها :

- لقد نادى خادمه وقال له : « هيا انزع معطف هذا الرجل وخذه لنفسك فهو هدية لك ! » .

فسأل بمبايف ملوحاً بذراعيه :

- وهل نزع الخادم ؟

- لقد نزع وأخذه ... هذا ما فعله الأمير بارتولوف . ذلك الشريف الثرى المعروف .. رجل الحكومة ذو المنصب الرفيع ! فماذا يتوقع المرء بعد ذلك ؟

وكان جسم مدام زوها نتشيكوف يرتعد كله غضباً ، ووجهها يتقلص بحركات تشنجية ، وصدرها الداوى الأمسح يعلو ويهبط محتتماً تحت صدريتها . أما عيناها فكادتتا تقفزان من رأسها قفزاً ... ولكن الحقيقة أنهما كانتا تقفزان مهما يكن الموضوع الذى تتحدث فيه . وصاح بمبايف :

- فضيحة صارخة ! فضيحة صارخة ! أى عقاب يكفى ؟

فهمهم جوباريوف معقياً :

- الفساد شامل . العقاب ... ليس هو المطلوب فى هذه الحالة . بل ... أمور أخرى .

وسأل لتفينوف معلقاً على القصة :

- ولكن هل حدث هذا حقاً ؟

فانفجرت مدام زوها نتشيكوف صائحة : ..

- حدث حقاً ، كيف ؟ إنه فوق كل شك ! كل شك - ك ! « ونطقت بهذه الكلمات فى حماسة بالغة جعلتها ترتجف من الجهد » لقد سمعته من رجل ثقة . أنت تعرفه ياستيبان نيكولايتش . إنه اليستراتوف ، كاييتون الستراتوف . وقد سمعها بنفسه من شهود عيان رأوا ذلك المنظر المخزى .

فسأل جوباريوف :

- اليستراتوف ؟ .. أهو ذلك الذى كان فى قازان ؟

- نعم . إننى أعلم ياستيبان نيكولايتش ما أشيع عنه من أخذ الرشى من بعض التجار أو مقطرى الخمر هناك ... ولكن من الذى زعم هذا ؟ إنه بليخانوف ! وكيف يصدق المرء بليخانوف وكل إنسان يعلم أنه ... جاسوس ؟
فقاطعها بمبايف قائلاً :

- كلا . اسمحى لى يا ماترونا سميونوفنا . إن بليخانوف صديقى ، ولا وجه لاتهامه بالجاسوسية .

- أجل ، أجل ، إنه جاسوس !

- مهلاً ... أرجوك ! ..

فصرخت مدام زوها نتشيكوف :

- جاسوس ! جاسوس !

فصرخ بمبايف بدوره :

- لا ، لا . دقيقة واحدة ... سأخبرك بالحقيقة ... فأصرت مدام زوها نتشيكوف على صياحها : -

- جاسوس ! جاسوس !

وزأر بمبايف بكل ما فى رئتيه من قوة :

- كلا ، كلا . إن كنت تقصدين تتليف فهذا شأن آخر .

فصمتت مدام زوها نتشيكوف برهة ، واستمر بمبايف يقول بصوته العادى :

- إننى أعلم من مصدر وثيق أن هذا السيد حين استدعاه البوليس السرى سجد عند قدمى الكونتة يلازنكرامبف ومضى يثن وينتحب قائلاً :

« انقذنى ! ساعدنى ! » ولكن بليخانوف لم يهبط قط إلى هذا الدرك .

فتمتم جوباريوف :

- مُم ... تتليف ... يجب ... يجب ألا ننسى هذه .

وهزت مدام زوها انتشيكوف كتفها باحتقار وقالت :

- كلاهما شر من أخيه . ولكننى أعلم عن تنطيف هذا قصة أبدع . إنه كان - كما يعلم الجميع - مستبداً طالماً لرقيقه ، على الرغم من دعواه أنه من أنصار التحرير . وقد حدث مرة أنه كان فى صالون إحدى السيدات فى باريس ، ودخلت مدام بيتشرستو ، وهى كما تعلمون صاحبة « كوخ العم توم »^(١) ، فألح تنطيف على مضيفته - وتنطيف شخص ملحف رذل - كى تقدمه إليها ، ولكنها ما كادت تسمع اسمه حتى قالت : « ماذا ؟ أيطمع أن يقدم إلى مؤلفة كوخ العم توم » ؟ وصفعته على خده قائلة « اخرج ! » فماذا تظنه فعل ؟ لقد تناول قبعته وانسحب كالكلب الذليل .

فقال بمبايف :

- أظن أن فى هذه القصة بعض المبالغة . لقد قالت له : « اخرج » ، هذا صحيح ، ولكنها لم تصفعه .

فجعلت مدام زوها انتشيكوف تكرر بعنف عصبى :

- أجل! لقد صفعته على وجهه ! إننى لا أخلق الأخبار ! .. هؤلاء هم أصدقاؤك !
- معذرة يا ماترونا سميونوفنا . إننى لم أقل قط أن تنطيف صديق لى . لقد كنت أتحدث عن بليخانوف .

- تنطيف أو واحد من أمثاله ... عندك مينوف مثلاً ...

فسأل بمبايف وقد ظهرت على وجهه أمارات الفزع :

- ماذا فعل مينوف ؟

- ماذا ؟ أترك لا تعرف ؟ .. لقد صاح فى شارع بوزنسنزكى بحيث سمعه الناس جميعاً . « إن الأحرار كلهم يجب أن يرموا فى السجون ! » وواحدة أخرى . زاره زميل له من أيام التلمذة - رجل فقير بالطبع - وسأله : هل يستطيع أن يسبقى معه إلى العشاء ؟ فأجابه مينوف : « لا يمكن .. سيتغذى معى اليوم كونتان . أعفنا من وجودك ! » .

(١) هاريت بيتشرستو كاتبة إنسانية وزعيمة من زعيمات الحركة النسائية فى الولايات المتحدة الأمريكية . فى القرن التاسع عشر . روايتها « كوخ العم توم » (١٨٥٢) كان لها أثر كبير فى حركة تحرير العبيد . - برحلة إلى أوروبا سنة ١٨٥٢

فزعق بمبايف :

- أقسم أن هذا تشنيع !

- تشنيع ؟ تشنيع ؟ أولاً إن الأمير فاروشكن الذى كان هو أيضاً مدعواً للعشاء على مائدة صديقك مينوف ..

فقاطعها جوباريوف بشدة :

- إن الأمير فاروشكن قريبى ، ولكنى لا أسمح له بدخول منزلى ... فلا ضرورة أيضاً لذكر اسمه .

فاستمرت مدام زوها نتشيكوف تقول وهى تحنى رأسها بخضوع نحو جوباريوف:

- وثانياً : أن براسكوفيا ياكوفلفنا نفسها أخبرتنى بذلك .

- لقد وقعت على راوية أمينة ! كيف ! أنها هى وزاكيزوف أكبر مشنعين على وجه البسيطة !

- معذرة . إن زاكيزوف كذاب بلا شك . لقد سرق الكفن الحريرى من تابوت أبيه . أنا لا أجادل فى هذا . ولكن براسكوفيا ياكوفلفنا ... شتان ما بينهما ! أنسيت كيف كان فراقها لزوجها فراقاً كريماً ؟ ولكنك دائماً ...

- كفى . كفى ياماترونا سميونوفنا . لنترك هذه الثرثرة ولنتحدث فى موضوع أسمى . إننى لست ضئيل الخبرة بهذه الموضوعات كما تعلمين . هل قرأت « مدموازيل دلاكتينى » ؟ هذه رائعة بلا ريب ! وهى فى الوقت نفسه تتفق مع مبادئك كل الاتفاق !

فأجابت مدام زوها نتشيكوف بجفاء وحدة :

- إننى لا أقرأ الروايات الآن مطلقاً .

- لماذا ؟

- لأننى لا أجد وقتاً لذلك . أنا لا أفكر إلا فى شىء واحد : مكناات الخياطة .

فسأل لتفينوف :

- مكناات ماذا ؟

– الخياطة ... الخياطة . يجب أن تحصل النساء جميعاً على مكنتات خياطة ، وأن يؤلفن جميعات ، فبهذه الطريقة يستطعن إن يكسبن قوتهن ويظفرن باستقلالهن فى أقصر وقت . ويغير هذا لن يحصلن على حريتهن . هذه مسألة اجتماعية هامة جداً . لقد تناقشت فيها مع بولسلاف ستاد نتسكى . إن بولسلاف ستاد نتسكى شخصية ممتازة ولكنه يستخف بهذه المسائل ... لا هم له إلا الضحك . أحرق !

فتكلم جوباريوف ببطء وفى نبرة تشبه نبرة حكيم أو نبى :

– سيأتى يوم يحاسب فيه الجميع ، ويوفون ما عملوا .

فردد بمبايف :

– أجل ، أجل . سيحاسبون . بالضبط .

ثم أردف بصوت خفيض .

– ولكن خبرنى يا ستيان نيكولايتش ... ماذا فعلت فى كتابك الكبير ؟

فأجاب جوباريوف عاقداً حاجبيه :

– إنتى أجمع المواد .

ثم التفت إلى لتفينوف الذى بدأ رأسه يدور من ضجة الأسماء الغربية والتشنيع المحموم ، وسأله عما يعنى به من الموضوعات ، فأجابه لتفينوف عما سأل .

– آه . بلا شك . العلوم الطبيعية . إنها نافعة إذا كانت نوعاً من التدريب ، لا غاية فى ذاتها . إن الغاية يجب أن تكون ... مم ... يجب أن تكون ... شيئاً آخر . هل تسمح لى أن أسألك عن آرائك الخاصة ؟

– أى آراء ؟

– آرائك . أو بالأحرى آرائك السياسية . ما آراؤك السياسية ؟

فابتسم لتفينوف وقال :

– إن شئت الحقيقة فليس لى آراء سياسية .

فرفع الرجل الضخم الجالس فى الركن رأسه عند سماع هذه الكلمات ونظر إلى لتفينوف ملياً . وسأله جوباريوف بلطف :

– كيف ؟ ألم تفكر فى الأمر بعد ، أم تراك تعبت من التفكير فيه ؟

- لا أدري كيف أقول . ولكن يبدو لى أننا نحن الروس مازلنا بعيدين عن أن تكون لنا أفكار سياسية ، أو أن نتوهم أن لنا مثل هذه الأفكار . وأود أن أنبهك إلى أنى أريد « بالسياسة » ذلك المعنى الذى تختص به هذه الكلمة ، وأن ...

فقاطعه جوباريوف بلطف أيضاً :

- أه ! إنه لم ينضج بعد .

واتجه إلى فوروشيلوف وسأله هل قرأ البحث الذى أعطاه أياه ؟ وكان الأمر الذى أدهش لتفينوف أن فوروشيلوف لم ينبس بكلمة منذ قدم ، بل زوى حاجبيه وجعل يدير حدقتيه . (ويظهر أنه كان معتاداً أن يخطب أو يلزم الصمت) . فلما وجه إليه جوباريوف ذلك السؤال شد صدره بحركة عسكرية وأوماً إيجاباً وهو يدق عقيقه .

- حسناً . وكيف وجدته ؟ هل أعجبك ؟ ..

- أما من حيث المبادئ الأساسية فقد أعجبت به ، غير أنى لم أسلم بالنتائج .

- مم ... ومع هذا فقد امتدح أندريه أيفانتش هذا البحث . يجب أن توضح لى مأخذك فيما بعد .

- أتحب أن أكتبها لك ؟

فتجلت الدهشة على وجه جوباريوف ، ولكنه أجاب بعد تفكير قصير :

- فلتكن مكتوبة . وأريد منك بهذه المناسبة أن تشرح لى أراءك أيضاً .. فى موضوع ... الاتحادات .

- على نظام لاسال أو على نظام شلتسه ودليتز ؟

- على النظامين كليهما . فالناحية الاقتصادية هى التى تهمنا نحن الروس . ثم هناك الارتل^(١) .. وهو النواة .. يجب أن ننظر فى هذا كله .. لا تترك شيئاً ... ولا تنس مسألة تقسيم الأرض بين الفلاحين .

فسأله فوروشيلوف وفى صوته نبرة إجلال :

- وما رأيك أنت يا ستيان نيكولايتش فى العدد المناسب من الأفدنة ؟

(١) « الارتل » نوع من الارتباط بين العمال على أساس المشاركة فى الأرباح وفى المسئولية .

ولكن جوباريوف كان يتمتم مستغرقاً فى تفكيره ، وهو ينظر إلى المتضدة ويقرض خصلة من لحيته :

- مم ... وكوميون القرية ! الكوميون ^(١) ! فاهم ؟ إنها كلمة عظيمة ! ثم ما معنى هذه الحرائق ... وهذه ... هذه الإجراءات الحكومية ضد المدارس الليلية ، ودور المطالعة ، والصحف ؟ ولم رفض الفلاحون أن يوقعوا على الوثائق التى تثبت استقلالهم عن سادتهم الأقدمين ؟ ولماذا يجرى ما يجرى فى بولندا ؟ ألا ترى أن .. مم .. أننا .. أننا يجب أن نتصل بالشعب .. وأن نتعرف .. نتعرف آراءه ..

وكأنما تملك جوباريوف فجأة انفصال عنيف يوشك أن يكون حقداً وغضباً فاكفهر وجهه ، وثقلت أنفاسه ، ولكنه مع ذلك لم يرفع عينيه بل ظل يقرض لحيته :

- ألا ترى ..

وفجأة انفجرت مدام زوها بتشيكوف صائحة بصوت مزعج :

- أن يفسيف نذل !

وكان بمبايف يروى لها شيئاً بصوت خفيض منه احترام مضيفهم فدار جوباريوف على عقبه مسرعاً ، وعاد يطلع فى أرجاء الحجرة .

وظل الضيوف يتوافدون . فلما تقدم الليل كان كثير من الناس مجتمعين ، وكان من بينهم السيد يفسيف الذى سبته مدام زوها بتشيكوف بذلك اللفظ القاسى ، وقد حادثته فى شوق وترحاب وسألته أن يرافقها إلى منزلها . كما حضر شخص يدعى بشتشالكن ، وهو قاضى تحكيم ^(٢) ممتاز ، من أولئك الرجال الذين قد تكون روسيا أحوج إليهم من غيرهم : فهو ضيق الأفق ، محدود الثقافة ضئيل المواهب ، إلا أنه دقيق صبور أمين ، يكاد الفلاحون فى أقليمه يعبدونه ، وهو يحترم نفسه لأنه جدير حقاً بالاحترام . وكان هناك أيضاً ضباط قليلون ، فروا بإجازات قصيرة إلى أوروبا ، وراحوا يستمتعون - فى حذر وبدون أن تفارق أدمغتهم صورة قائدهم - بمعايشة أهل الفكر الذين لا يخلون من خطر ، وطالبان من هيدلبرج مفرطى النحافة ، دخلا مسرعين ، وكان أحدهما ينظر إلى من حوله باحتقار شديد والآخر يضحك ضحكات عصبية ،

(١) نظام القرية الروسية فى العهد القيصرى . وهو أشبه بالنظام القبلى ، إذ كان أساسه التعاون الوثيق بين أهل القرية فى إحراز المنافع ورفع المضار ، وكانت الأرض ، أو قسم كبير منها ، وهو الذى يترك للمراعى والغابات ، ملكاً مشاعاً بين أهل القرية .

(٢) «قاضى التحكيم» وظيفة أنشئت فى فترة تحرير الرقيق ، ومهمته التوسط بين النبلاء والفلاحين .

وكانا كلاهما شديدي الارتباك . وانحشر بعدهما فرنسي ممن يسمونهم Petit jeun homme مخلوق صغير حقير غبي كرية .. يحظى ببعض الشهرة بين زملائه من سماسرة دور السياحة لزعمهم أن الكونتات الروسيات يذبن في هواه ، والحقيقة أن همه الأكبر هو الحصول على عشاء مجاني . وكان آخر من ظهر هو توت بنداسوف ، وهو رجل له مظهر طالب ألماني ماجن ، أما في الحقيقة فهو بلطجي محتال ، صديق لزوجات التجار الروس ولبنات الهوى الباريسيّات . أصلع ، أدر ، سكير . جاء أحمر الوجه مخموراً ، وجعل يؤكد لكل من رآه أن ذلك الوغد بنازت « قشطه » من كل ما معه ، والحقيقة أنه ربح ستة عشر جلدأ .. كان هناك - باختصار عدد كبير من الناس . وكان عجيباً حقاً ذلك الاحترام الذي يبذونه جميعاً لجوباريوف كأنه مرشد أو زعيم . كانوا يعرضون عليه أفكارهم ، ويخضعونها لحكمه ، فيجيب بالتمتمة ، ونتف لحيته ، وتحويل عينيه ، أو بكلمات جوفاء متقطعة تتلف كأنها نطق حكمة سامية . ولما كان جوباريوف نفسه يشترك في المناقشة ، ولكن الآخرين كانوا يكون صدورهم ليعوضوا ذلك . وقد حدث غير مرة أن اشترك ثلاثة أو أربعة في الصياح . وكانوا كلهم راضين ، وكانوا كلهم مفهومين . واستمر الحديث حتى كاد الليل ينتصف ، وامتاز - كالعادة - بتعدد الموضوعات المطروقة وتنوعها . فتحدثت مدام زوها نتشيكوف عن غار بيبالدي ، وعن شخص يدعى كارل ايفانوفتش جلده عبيد داره ، وعن نابليون الثالث ، وعن اشتغال النساء بالأعمال ، وعن تاجر يدعى بلسكاتشوف تسبب عامداً في موت اثنتي عشرة عاملة ونال جزاء ذلك وساماً نقش عليه « لأعماله الجليلة » . كما تحدثت عن البروليتاريا ، وعن الأمير الجرجاني تشكتشيولديزوف الذي قتل زوجته بمدفع ، وعن مستقبل روسيا . وتحدثت بشتشالكن أيضاً عن مستقبل روسيا ، وعن احتكار الخمر ، وعن معنى القوميات ، وعن كراهته لكل حديث معاد . ثم كان انفجار مفاجيء من فوروشيلوف ، فذكر في نفس واحد - وكاد يختنق من إسرافه على رئتيه - أسماء درابر ، وفرتشو ، وشلجونوف ، وبيتشات ، وهلمهولتز ، وشتار ، وسنت رايموند ، وجوهان ميلر الفسيولوجي ، وجوهان ملر المؤرخ - وكان واضحاً أنه يخلط بينهما - وتين ، ورينان ، وشتشابوف ثم توماس ناش ، وبيل ، وجرين .. فتمتم بمبايف حائراً : « من هؤلاء يا ترى ؟ » فأجابه فوروشيلوف منتهراً : « أنهم أسلاف شكسبير ، وهو بينهم كالجبل الأبيض بين سلاسل الألب . » وواصل الحديث عن مستقبل روسيا . وتحدث بمبايف أيضاً عن مستقبل روسيا ، وأضفى عليه ألواناً زاهية ، وابتهج بخاصة عندما ذكر الموسيقى الروسية ، فقد كان يراها « آه ! رائعة حقاً ! » ولكي يؤيد ذلك

جعل يترنم بأغنية لفارلاموف ، ولكنه قوطع بصيحة إجماعية : « إنه يغنى الميزيريرى ، من التروفاتورى ، وغناؤه يصك الأسماع . » وبين هذه الضجة كان ضابط صغير يذم الأدب الروسى ، وآخر ينشد قصيدة من « اسكرا »^(١) ، وتطرف بنداسوف فأعلن أن هؤلاء المخادعين جميعاً يجب أن تهشم أسنانهم ، وهذا كل ما هنالك .. ولكنه لم يعين من هم المخادعون الذين يعينهم . وأصبح دخان السجائر خائناً ، وأحس الجميع الحر والإعياء ، وبحث الأصوات ، وغامت العيون ، ولعت قطرات العرق على كل وجه ، وأحضرت زجاجات الجعة فأقرغت فى الحال ، وسأل أحدهم : ماذا كنت أقول ؟ وسأل آخر : من كنت أناقش وفيما كنت أناقش ؟ وبين الضوضاء والدخان كان جوباريوف يسير كدأبه بلا ونى ، وهو يترجح من ناحية إلى ناحية ، ويجذب لحيته ، ومرة يصغى إلى مناقشة ، ومرة يلقي بكلمة ، وكل إنسان لا يملك إلا أن يشعر أنه هو - جوباريوف - مصدر هذا كله ، وأنه سيد المكان وأبرز الحاضرين ..

وكان لتفينوف قد بدأ حول الساعة العاشرة يحس بدوار فظيع . فانسل خارجاً دون أن يشعر به أحد ، منتهزاً فرصة احتدام عام حين تذكرت مدام زوها نتشيكوف مثلاً جديداً على ظلم الأمير بارنولوف . إذ كاد يأمر بقرض أذننى أحد الناس .

وغمر هواء الليل النقى وجه لتفينوف المحرور ، ورطبت أنفاس النسيم العطر شفتيه الجافتين ، ففكر وهو يقطع الشارع المظلم : « ما هذا الذى كنت أشهد ؟ فيم كان اجتماعهم ؟ وفيما كان صياحهم وضجيجهم ؟ فيما كل هذا ؟ » وهز لتفينوف كتفيه وعرج على قهوة فيبر فتناول صحيفة وطلب مثلجة . فكانت الصحيفة مشحونة بالحديث عن المسألة الإيطالية كما كانت المثلجة كريهة المذاق . وكان يهم بالعودة إلى فندقه عندما اقترب منه فجأة شخص مجهول يلبس قبعة عريضة ، وجلس إلى منضدته قائلاً بالروسية : « لعلى لا أزعجك » . وأطال لتفينوف النظر إلى ذلك الغريب قبل أن يعرف أنه السيد الضخم الذى كان متوارياً فى ركن عند جوباريوف ، والذى حذق فيه بانتباه بالغ عندما دار الحديث حول الآراء السياسية . أن ذلك السيد لم يفتح فاه قط طيلة المساء .. وها هو ذا قد جلس على مقربة من لتفينوف ، وخلع قبعته وهو ينظر إليه متودداً فى شئ من الارتباك .

(١) « الشرارة » مجلة ثورية .

بدأ ذلك الغريب حديثه قائلاً :

- إن السيد جوباريوف الذى تشرفت بمقابلتك فى داره اليوم لم يعن بتعريفك بى . فاسمح لى أن أعرفك بنفسى . أنا أدعى بوتوجين ، وكنت موظفاً فى وزارة المالية بسنت بطرسبرج . أرجو ألا تدهش .. فليس من عادتى أن أصادق الناس بهذه السرعة .. ولكن معك ...

وهنا انعقد لسانه ، فسأل النادل أن يحضر له كأساً صغيرة من « الكرشفاسر » وأضاف مبتسماً : « لكى أتشجع » .

ونظر لتفينوف فى اهتمام مضاعف إلى آخر من قسم له أن يعرفهم فى يومه ذاك من الغرباء . وكان أول ما خطر بباله : « أنه لا يشبه الآخرين » .

إنه لا يشبههم ما فى ذلك ريب . فقد كان هذا الجالس أمامه ينقر على حافة المنضدة بأصابع ناعمة ، رجلاً عريض المنكبين ، ممتلىء الجذع ، قصير الساقين ، منحنى الرأس ، جعد الشعر مشعثه ، له عينان واعيتان حزينتان يظللهما حاجبان كثيفان ، وفم غليظ حسن القطع متراكب الثنايا ، وأنف من تلك الأنوف الروسية الصميمة التى يشبهونها بالبطاطس . رجلاً يبدو فى مسلكه عسر ونبو عن المألوف ، وأقل ما يقال فيه أنه لم يكن من طراز عادى بين الناس . وكان هندامه مهماً ، فسترته العتيقة الطراز معلقة عليه كالزكبية ، ورباط رقبته ملفوت . ولم يضق لتفينوف بإقدامه المفاجئ ولم يحسبه تطفلاً ، بل أحس له شيئاً من الزهو الخفى ، فقد كان من الجلى أن ذلك الرجل لم يآلف التقرب إلى الغرباء . وقد أثر فى لتفينوف تأثيراً عجيباً ، وأثار فيه حباً واحتراماً وعطفاً صادقا .

كرر فى صوت رقيق فيه شىء من الخدر والضعف ، صوت كان متسقاً اتساقاً غريباً مع شخصيته كلها :

- إذن فأنا لا أضايك ؟

فأجابه لتفينوف :

- البتة . بل إننى جد سعيد .

- حقاً ؟ إذن فأننا سعيد أيضاً . لقد سمعت عنك الكثير ، وعرفت أعمالك ومشروعاتك . إنه لخير ما عزمت عليه ، فلا عجب أن بقيت الليلة صامتاً .

فأجابها لتفينوف :

- نعم . وأراك أيضاً لم تتكلم إلا قليلاً .

فتنهده بوتوجين :

- لقد قال الآخرون ما يكفي وزيادة . كنت أستمع لهم .

ثم عقب بعد لحظة وهو يرفع حاجبيه مازحاً :

- هل أعجبك برج بابل الذي كنا فيه !

- برج بابل ! لقد أحسنت التعبير . طالما وددت أن أسأل أولئك السادة لماذا يثيرون كل هذه الضجة .

فتنهده بوتوجين مرة أخرى :

- الحق أنهم هم أنفسهم لا يعلمون . وقد كان يقال عن أمثالهم قديماً : « إنهم آلات مسخرة بين يدي قوة قاهرة » ، ولكن لدينا الآن أوصافاً أكثر وضوحاً . ولا أقول ذلك رغبة في انتقادهم ، بل إنني لأغلو فأقول أنهم كلهم من خيار الناس . فمدام زوها تتشيكوف - مثلاً - أعلم عنها خيراً كثيراً ، فقد منحت آخر ما تبقى من ثروتها لقريبتين فقيرتين . حتى أن قلنا أنها لم تخل من تأثير التظاهر والرغبة في الظفر بإعجاب الناس فقد كان عملها على أى حال تضحية رائعة من امرأة ليست في نعمة كبيرة ! وناهيك بالسيد بشتشالكن ! فسيأتى يوم يقدم إليه فيه فلاحو إقليمه كأساً من الفضة على شكل القرعة ، أو أيقونة لقديسه الراعى ، وسيقول لهم في خطبة الشكر أنه لا يستحق هذا الشرف ، ولكنه لن يكون صادقاً في ذلك ، فإنه يستحقه ولا ريب . وصديقك السيد بمبايف قلب من ذهب ، وإن كان أمره كأمر الشاعر يازيكوف الذي نكروا أنه كان يتغنى بمديح باخوس وهو جالس إلى كتاب يرشف الماء ! .. فحماسه ليس لها هدف محدود ، ولكنها حماسة على كل حال . والسيد فوروشيلوف من أطيب خلق الله نفساً ، وهو كسائر انداده من أصحاب « لوحة الشرف » يعد نفسه « أركان حرب » للعلم والحضارة ، وهو كثير الجعجة ، ولكنه صغير السن كما ترى . نعم نعم ، إنهم جميعاً من خيار الناس ، ولكنك إذا حققت النتائج لم تخرج بشيء . المواد كلها من الطراز الأول أما الطبخة فكريهة المذاق !

أصغى لتفينوف إلى بوتوجين ملياً . وكان حديثه المطمئن الواثق ينبىء بأنه ممن يحسنون الكلام ويلذونه . أجل . إن بوتوجين كان يحب الكلام ويحسنه . ولكنه كان رجلاً ذهب بخيالاته تجارب الحياة . فهو ينتظر فى هدوء فلسفى حتى تسنح له فرصة اللقاء مع روح يوافق روحه .

تابع حديثه بنبرته الحزينة التى لا تشوبها مرارة :

- أجل ، إن هذا كله جد غريب . وأمر آخر أود أن تلاحظه : إذا اجتمع عشرة من الإنجليز مثلاً فإنهم سرعان ما يتحدثون عن التلغراف البحرى ، أو عن ضريبة الورق ، أو عن طريقة لدبغ جلود الفيران - أى عن شىء واقعى محدد . وإذا اجتمع عشرة من الألمان فثمة الحديث عن شلر فنج هولشتين ووحدة ألمانيا . فإذا اجتمع عشرة من الفرنسيين فالحديث دائر - مهما تحاول أن تغير مجراه - حول أحاديث الغرام . أما إذا اجتمع عشرة من الروس فسرعان ما يتناقسون - كما رأيت هذا المساء - فى عظمة روسيا ومستقبلها فيتحدثون بعبارات غامضة كل الغموض ، بادئين مع بدء الخليقة ، غير مستندين إلى حقائق ولا منتهين إلى نتائج . بل إنهم يبدئون ويعيدون فى ذلك الحديث المجوج كما يلوك الأطفال قطعة من المطاط لا تسمن ولا تغنى من جوع . ثم يأتى موضوع الغرب المتعفن لينال نصيبه . وعجيب أمر هذا الغرب ! فنحن نعلن أنه متعفن مع أنه يفوقنا فى كل شىء . وبإلينا نحتقره حقاً ! ولكن الأمر لا يعدو الدجل والتهويز . ومهما نذم فإننا لا نقدر سوى رأى الغرب ، أعنى رأى صعاليك باريس .. أعرف رجلاً من الفضلاء - رب أسرة جاوز طور الشباب - لازمه الحزن عدة أيام لأنه صاح فى مطعم فرنسى يطلب une portion de bifetx aux pommes de terre ثم إذا برجل فرنسى أصيل ينادى : garçon, bifetx pommes فمئذ ذلك الحين أخذ ينادى فى كل مكان bifetx pommes وعلم رفاقه أن ينادوا مثله . بل أن بنات الهوى ليعجبن لتلك الرهبة التى تغشى شبابنا الأجلاف حين يدخلون مخادعهن المنكودة ، وكأنهم يقولون لأنفسهم :

« يا لله ! أحقاً إنى هنا مع أنا ديليون نفسها ! » .

فسأله لتفينوف :

- وإلى أى شىء تعزو نفوذ جوباريوف الظاهر على كل من حوله ؟ أهى موهبته ؟ أهى ملكاته ؟

- لا لا . لا شىء فيه ما تقول .

- أتراها شخصيته !

- ولا ذلك أيضاً . إنما هي قوة إرادته . قوة الإرادة سلعة نادرة عندنا نحن الصقالبة ، ولهذا نخشع أمامها خشوعاً . إن جوباريوف يريد أن يكون سيداً فيسلم له الجميع بذلك . ماذا تظن ؟ لقد حررتنا الحكومة - وهي مشكورة - من ربة العبودية ، ولكن عادات العبودية ما زالت متأصلة في نفوسنا بحيث لا نستطيع أن نتخلص منها . إننا نريد سيداً قى كل شيء وفي كل مكان . وهذا السيد قد يكون شخصاً حياً وقد يكون «اتجاهاً» يسيطر علينا .. فنحن في هذه الأيام مثلاً عبيد أرقاء للعلوم الطبيعية . أما لماذا نقبل على أنفسنا هذا النوع من الرق فأمر لا يسهل فهمه ، ولكنه يبدو أنه بعض طبيعتنا . وأهم شيء على كل حال هو أن يكون لنا سيد . فإذا كان بيننا هذا السيد فمعنى ذلك أنه لنا ، ولا علينا بعد ذلك من شيء ! عبيد ! وكبرياؤنا كبرياء العبيد ، وخضوعنا خضوع العبيد .. فإذا ظهر سيد جديد فقد انتهى أمر السيد القديم . كان زيداً ثم أصبح عمراً ، فنحن نلکم زيداً ونسجد لعمره ! تذكر كم مرة لعبت فينا هذه اللعبة ! ونحن نزعّم أن الشريك هو خصيصتنا الأصلية ، ولكننا حتى عندما نشك لا نكون كمحارب يقاتل بسيفه بل كخادم يضرب بقبضته ، ولعله إنما يفعل ذلك طاعة لأمر سيده . ثم أننا شعب لين العريكة ، وليس من العسير أن نبقي ملجمين . وهكذا أصبح السيد جوباريوف قوة بيننا . لقد ظل يدق في موضع واحد حتى نفذ منه . الناس يرون رجلاً معتداً بشخصيته ، يؤمن بنفسه ويلقى الأوامر - وهذا أهم ما في الأمر ، إنه يلقي الأوامر ! - فلا بد إذن أن يكون على صواب ، ولا بد أن نطيعه . هكذا نشأت الفرق الدينية عندنا ، الأونفريون والاكولينيون وغيرهم . من أمسك العصا فهو القائد .

كان بوتوجين غائم العينين ، مشتعل الوجنتين ، ولكن العجيب أن حديثه على قسوته وعنفه لم يكن فيه شيء من المرارة ، بل كان يشف عن حزن صادق عميق .

سأله لتفينوف :

- كيف عرفت جوباريوف ؟

- عرفته منذ زمن طويل .. إليك خاصة أخرى من خصائصنا : الكاتب الذي أمضى حياته كلها يحارب المسكرات بالشعر والنثر ، ويهاجم شركات الخمر بحرارة وعنف ، هذا الكاتب لا جناح عليه أن يشتري معملين للتقطير وافتتح مائة حانة ! ولو فعلها رجل غيره لمحي من وجه الأرض ، أما هذا فلا يلومه ولا يعتب عليه أحد ! وكذلك السيد جوباريوف فهو سلافوفيل وديموقراطي واشتراكي وما شئت فسمه ، ولكنه كان

- وما زال - يكل إدارة ممتلكاته لأخيه ، وهو سيد من طراز السادة الأقدمين الذين يلقبون « بالجلادين » . ومع ذلك فمدام زوها نتشيكوف تعفر رأسها في التراب عند قدمي جوباريوف ، وهي التي طربت لأن مسز بيتشر ستو صفتت تتلief على خده ! وما ذاك إلا لأن جوباريوف يوهم الناس أنه يقرأ كتباً قيمة ! هذا كل ما له من فضل ! لقد رأيت بعينيك اليوم مبلغ قدرته على التعبير والحمد لله على قلة كلامه وانطوائه على نفسه . فهو حين يتبسط وينطلق لا يطيقه أحد ولو كان صبوراً مثلى . إنه يسترسل فى النكات الغليظة والنوادر البذيئة .. أجل ، إن السيد جوباريوف المبجل يروى نوادر مكشوفة ويقهقه قهقهة صاخبة وهو يرويها .

قال لتفينوف :

- أصبور أنت ! لقد كان يخيل إلى عكس ذلك . ولكن اسمح لى أن أسألك عن اسمك .

فرشف بوتوجين قليلاً من الكرشفاسر .

- اسمى سوزونت .. سوزونت إيفانتش . وقد سمونى بهذا الاسم تيمناً بقريب لى أرشمندريت ^(١) لا أدين له بغيره . وأنا من بيت دين إن جاز لى أن أقول هذا . أما شكك فى صبرى فلا أساس له . فأنا جد صبور . وقد خدمت الدولة اثنتين وعشرين سنة . وكنت مرعوساً لعمى . وهو الآن مستشار . واسمه أيرينار بوتوجين . هل تعرفه ؟

- لا .

- إذن أهنتك . أجل . إننى صبور . ولنعد إلى الأصل - كما كان يقول منذ بضعة قرون زميلى المطران يواقيم ^(٢) الذى أحرق فى عهد القيصر تيودور . إننى أعجب يا سيدي لأبناء وطنى . فكلهم شديدا الكابة يمشون ناكسى الرعوس . وهم مع ذلك مفعمون بالأمل . فما أسرع ما تطيش عقولهم وإذا هم ينتفضون حماساً ! انظر إلى السلافوفيل الذين يعد جوباريوف نفس واحداً منهم . إنهم من خيار الناس . ولكن فيهم هذا المزاج نفسه من اليأس والاندفاع . ولهذا تراهم يعيشون فى الزمن المستقبل . كل شئ سوف يكون . وإياك أن تنسى أنه سوف يكون ! أما عن الحاضر فإننا لم نعمل

(١) الارشمندريت فى الكنيسة الروسية شيخ دير أو مجموعة من الأديرة . وقد اضطهدوا اضطهاداً عظيماً ، ونفى كثيرون منهم إلى سيبيريا ، واشتهروا بجدهم وتقواهم وتقشفهم .

(٢) شيخ « السلفيين » Raskolnik فى القرن السابع عشر ، وكانوا فرقة رفضت الإصلاحات الدينية التى أدخلها بطرك الكنيسة الروسية نيكون (١٦٠٥ - ١٦٨١) .

شيئاً . ولم تخلق روسيا شيئاً من إنتاجها الشخصى ، لا فى السياسة ولا فى القانون، ولا فى الفن . بل ولا فى الصناعة اليدوية ! .. ولكن مهلاً مهلاً . والصبر الصبر . فكل شيء سوف يكون . ولماذا ! اسمحوا لى أن أسألكم هذا السؤال !

عجباً ! لأننا نحن المثقفين لا خير فينا . أما الشعب .. أه ! الشعب العظيم . رأيت إلى قميص هذا الفلاح ؟ إنه المنبع الذى سيصدر عنه كل شيء . لقد تحطمت كل الأصنام الأخرى ، فعلياً أن نؤمن بالقميص . حسناً ! فماذا إذا أخلف القميص ظننا .. ! كلا ، إنه لن يخلف الظن . اقرأ مدام كوهانوفسكا وارفع عينيك إلى السماء ! حقاً لو كنت رساماً لرسمت صورة كهذه : رجل مثقف راكع أمام فلاح وهو يقول له : اشفنى يا سيدى الفلاح ، فإن المرض يفتك بى ، وفلاح راكع بدوره أمام الرجل المثقف وهو يقول له : علمنى يا سيدى الشريف ، فإن الجهل يفتك بى .. كلاهما باق - طبعاً - حيث هو . إن واجبنا هو أن نستشعر شيئاً من التواضع - فعلاً لا قولاً - وأن نستعير من أخوتنا الكبار ما ابتكروه قبلنا وأتقنوه أكثر منا ! Kollner, noch ein glaschen kirsch^(١) لا تظن أنى سكير ، ولكن الخمر تطلق لسانى .

فقال لتفينوف مبتسماً :

- لا حاجة بى - بعد ما قلته لى الآن - إلى سؤال عن الفريق الذى تنتمى إليه ، ولا عن رأيك فى أوربا . ولكن دعنى أوجه إليك ملاحظة واحدة تقول : إننا يجب أن نستعير من أخوتنا الكبار . ولكن كيف نستطيع أن نستعير بغير أن نراعى ظروف المناخ والأرض ، وخصائص البيئة والأمة ؟ أذكر أن أبى اشترى من « بوتنوب » مكنة للدراس من الحديد الصب - مكنة مشهورة وممتازة فى الحقيقة . أتدرى ما الذى حدث؟ لقد بقيت فى الجرن خمس سنوات طوالاً بلا فائدة حتى استبدلت بها أخرى أمريكية مصنوعة من الخشب ، وأقرب إلى أساليبنا وعاداتنا كأكثر المكينات الأمريكية . لا فائدة من أن نستعير دون تدبر ياسوزونت ايفانتش .

فرفع بوتوجين رأسه ، وبقي لحظة صامتاً ، ثم قال :

- لم أكن أتوقع مثل هذا النقد منك يا عزيزى جريجورى ميهالوفتش . ما الذى يدعوك أن تستعير شيئاً ما بدون تدبر ؟ أنت تأخذ ما ليس لك لا لأنه ملك لغيرك ، بل لأنه يناسبك . وإذن فأنت تراعى وتختار . أما عن النتائج فلا نعلم أنفسنا ، فسوف يكون لها حظ كاف من الأصالة بفضل تلك الظروف والبيئة المناخية وغيرها مما

(١) « جرسون ! كأساً أخرى من الكرش ! » .

ذكرته أنت . ما عليك إلا أن تضع أمام المعدة الطبيعية غذاءً طيباً فتَهضمه بطريقتها الخاصة ، وعندما يمر الزمن ويزداد الكيان قوة يمنحه من عنده لوناً جديداً . خذ لغتنا نفسها مثلاً . لقد غمرها بطرس الأكبر بسيل من آلاف الكلمات الأجنبية ، من هولندية ، وفرنسية ، وألمانية ، وكانت تلك الكلمات تدل على أفكار يجب أن يألفها الشعب الروسى؛ فصحبها بطرس علينا بلا تردد ولا تلطف . وكما التناج الأول بالطبع نتاجاً هجيناً مختلطاً . ثم بدأت عملية الهضم التى أشرت إليها . لقد ثبتت الأفكار وهضمت ، فتبخرت الصيغ الأجنبية بالتدريج ، ووجدت اللغة فى نفسها ما يغنى عن هذه الصيغ . والآن يستطيع أى كاتب عادى أن يترجم لك أية صفحة تريد من هيجل - أجل ، من هيجل نفسه ! - دون أن يستعين بكلمة واحدة غير صقلبية . وما حدث فى اللغة يجب أن نأمل حدوثه فى النواحي الأخرى : فمرد الأمر كله إلى سؤال واحد : أنا طبيعة ذات حيوية قوية ؟ .. حسناً ، إننى أقول إن طبيعتنا .. حسناً ، إنها سوف تثبت للتجربة ، فقد اجتازت محناً أعظم من هذه . إنما تخشى على سلامتها واستقلالها الأمم الضعيفة المنحلة ، وإنما يتباهى « بالأصالة الروسية » صُعفاء العقول منا . فقد يكون المرء معنياً كل العناية بصحته ولكن ذلك لا يحمله على أن يتحمس فى الحديث عنها ، ولو فعل ذلك لحق له أن يخجل من نفسه .

- هذا كله صواب محض ياسوزونت ايفانتش . ولكن لماذا لا نعفى أنفسنا من التعرض لمثل هذه التجارب ! أنت نفسك تقول أن التناج الأول كان هجيناً مختلطاً ! فماذا لو بقى ذلك التناج الهجين ! لقد بقى بالفعل كما تعلم أنت نفسك .

- ولكنه لم يبق فى اللغة - وليس هذا بالشىء القليل ! ثم إن الشعب هو الذى استبقاه لا أنا ، فلست ملوماً إذا كان مقدوراً على هذا الشعب أن يتبع مثل هذا النظام . يصيح السلافوفيل : « لقد تطور الألمان تطوراً عادياً ! » ولكن أنى لنا ذلك إذا كانت أول خطوة خطاها جنسنا - أعنى استدعاء أمير من وراء البحار ليحكمهم - خطوة شاذة غير عادية ، لا تزال تتكرر إلى اليوم فى كل امرئ منا ! كل منا بلا ريب قد قال لشىء أجنبى - ولو مرة واحدة فى حياته - « تعال ، احكمنى وسدنى ! » أنا بالطبع على استعداد لأن أسلم لك بأننا حين نضع مادة أجنبية فى جسمنا لا نستطيع أن نحكم حكم اليقين أى مادة تلك التى نضعها فيه ، أدمم أم سم . ولكن من المعروف أن الانتقال من السيئ إلى الحسن لا يكون بشىء أحسن نسبياً ، بل بشىء أسوأ . والسم نفسه ينفع فى الطب . لا يجدر بغير البله أو اللئام أن يحتجوا بفقر الفلاحين بعد التحرير ، أو بانتشار السكر منذ إلغاء احتكار الخمر ، فالقاعدة دائماً : من الأسوأ إلى الأحسن ..

مرر بوتوجين يده على وجهه ، واستطرد قائلاً :

- سألتني عن رأيي في أوروبا . وأقول لك : إنني معجب بها ، ومناصر لمبادئها إلى أبعد حد ، ولا أرى حاجة إلى إخفاء هذه الحقيقة . لقد تعلمت من زمن طويل - لا ، ليس من زمن طويل - لقد تعلمت من زمن ألا أهاب التعبير عن معتقداتي بجلاء . وقد رأيته أنت أيضاً لا تتردد في اطلاع جوباريوف على طريقته الخاصة في التفكير . إنني أحمده الله على أنني لم أعد أعياً بآراء الرجل الذي أحادثه ولا بوجهات نظره ولا بعباداته . والحق أنني لا أعلم شيئاً أقبح من هذا الجبن الذي لا داعي له - هذه الرغبة في الإرضاء التي تنبعث عن الملق ، وتجعلك ترى أحياناً رجلاً من ذوي الشأن بينما يحاول أن يتحجب إلى طالب صغير ليس بشيء في عينيه ، فيهبط معه إلى نوع من العبث الفكري ، ويلجأ إلى الخداع والحيلة . هب أن ذوي الشأن قد يلجئون إلى ذلك رغبة في الشهرة ، ولكن مال الذي يجبرنا نحن العاديين من الناس على أن نتزحزح عن آرائنا ، وننزل عن كرامتنا ؟ أجل ، أجل ، إنني غريب أدين بالولاء لأوروبا . ومعنى ذلك - إذا شئت التحديد - أنني أدين بالولاء للحضارة . تلك الحضارة التي يهزأ بها أصحابنا الآن هزأً شنيعاً . معنى ذلك أنني أدين بالولاء للمدنية . أجل ، للمدنية ، فهذه كلمة أفضل . وأناى أحبها وأومن بها من صميم قلبي ، وأناى لا أومن ولن أومن بشيء سواها . هذه الكلمة « المدنية » (ونطق بوتوجين بكل مقطع في جزم وتأكيد) كلمة واضحة نقية مقدسة ، وكل ما عداها من المثل كالقومية والمجد وما إليهما - كل هذه المثل تنبعث منها رائحة الدم .. سحقاً لتلك المثل !

- هذا حسن . ولكن ألا تحب روسيا - وطنك - ياسوزونت إيفانتش !

فمرر بوتوجين يده على وجهه قائلاً :

- إنني أحبها حباً عنيفاً وأكرهها كرهاً عنيفاً .

فهز لتفينوف كتفيه مردداً :

- هذه عبارة قديمة يا سوزونت إيفانتش . هذه عبارة مبتذلة .

- وأي شيء في ذلك ؟ أترأه يخيفك ؟ عبارة مبتذلة ! إنني أعرف كثيراً من العبارات المبتذلة الرائعة . « النظام والحرية » مثلاً . هذه عبارة مبتذلة جد معروفة ، فهل تظن أننا لسنا بحاجة إليها مع ما نحن فيه من تحلل من القوانين ، ومن استبداد بيروقراطي ؟ ألا تجد أن كل العبارات تدير رعوساً كثيرة شابة ، من مثل « البورجوازية

العفنة « و » سيادة الشعب « و » حق العمل « - ألا تجد أن هذه العبارات أيضاً عبارات مبتذلة ؟ أما الحب الذي لا يمكن أن يتفصل عن الكره ...
فقاطعه لتفينوف قائلاً :

- بيرولزم .. رومانتيكية العقد الرابع .

- معذرة إذا قلت أنك مخطيء . إن مثل هذه الانفعالات المختلطة قد سبق إلى الإشارة إليها كانكس - الشاعر الرومانى كانكس - منذ ألفى سنة . وقد قرأت ما كتبه فى ذلك ، فإننى أعرف شيئاً من اللاتينية بفضل دراستى الدينية . أجل ، إننى أحب روسيا وأكرهها فى وقت واحد . روسيا ، بلادى الغربية الحلوة الكريهة العزيزة ! لقد غادرتها منذ قليل لأنى بحاجة إلى شىء من الهواء النقى بعد أن جلست عشرين عاماً على كرسي كاتب فى إدارة حكومية . لقد غادرت روسيا وإنى لأحمد المقام هنا ، ولكننى أشعر أنى سأعود إليها عما قريب . هذه الأرض طيبة للحدائق ، ولكنها لا تصلح لثمارنا البرية .

قال لتفينوف :

- أنت تحمد المقام ، وأنا أيضاً أحب هذه البلاد ، وقد جئت إليها لأتعلم ، ولكن ذلك لا يمنعنى أن أرى مثل هذه الأشياء ...

وأشار إلى فتاتين من بائعات الهوى تسيران وقد أحاطت بهما ثلة من أعضاء نادى الفروسية وهم يحاولون أن يتكلموا الفرنسية بلهجة باريس ، وإلى بهو القمار وقد غص بالناس على الرغم من تقدم الليل .

فقاطعه بوتوجين قائلاً :

- وما أدراك أنى لا أرى هذه الأشياء ؟ معذرة إذا قلت لك أن ملاحظتك تذكرنى بتهليل صحفيينا المساكين أثناء حرب القرم كلما وصفت جريدة التيمس سيئة من سيئات مجلس الحرب الإنجليزى . أنا نفسى لست متقائلاً . أن البشرية كلها ، وحياتنا كلها ، وهذه المهزلة كلها بخواتيمها المحزنة ، لا تبدو أمام ناظرى فى ألوان وردية . ولكن لماذا نلصق بالغرب ما لعله أن يكون متأسلاً فى طبيعتنا البشرية نفسها ؟ إن كان بهو القمار هذا يقذى العين فهل تراك تجد مقامرينا الوطنيين أحسن منظراً ؟ لا يا عزيزى جريجورى ميهالوفتش . يجب علينا أن نتواضع قليلاً ، ونتراجع قليلاً . إن التلميذ النجيب يرى أخطاء أستاذه ولكنه يلزم الصمت إزاءها لأنه يحترم هذا الأستاذ .

وهذه الأخطاء نفسها تتفقه وترشده إلى الطريق السوى . إما إن أبيت إلا أن تسلق الغرب بلسانك ، فهذا هو الأمير كوكو يعنو إلى بهو القمار عدواً ، ولعله سيخسر على المائدة الخضراء فى ربع ساعة الإيجار الذى انتزع من مائة وخمسين أسرة شقيت فى كسبه . إن أعصابه ثائرة ، فقد رأيتَه اليوم فى قهوة ماركس يتصفح رسالة لفايو (١) ... ستجده خير مخلوق نتحدث معه !

فأسرع لتفينوف يقول حين رأى بوتوجين ينهض من مكانه :

– لا لا . معذرة . أنا لا أكاد أعرف الأمير كوكو . ثم إنى أفضل أن أتحدث معك.

فقاطعه بوتوجين وهو ينهض وينحنى :

– أشكرك كثيراً . ولكننا تحدثنا طويلاً ، أعنى إننى تحدثت وحدى فى الحقيقة . ولعلك لاحظت من قبل أن المرء يعتريه دائماً شبه خجل وارتباك حين يجد أنه تكلم وحده، وخصوصاً إذا كان ذلك فى مقابلة أولى ، فكأنه يريد أن يظهر براعته لصاحبه . إلى لقاء قريب . وأكرر لك أنى سعيد جداً بمعرفتك .

– لحظة واحدة يا سوزونت إيفانتش . أخبرنى على الأقل أين تسكن ، وهل تنوى أن تبقى كثيراً ؟

فبدا على بوتوجين شىء من الارتباك :

– سابقى نحو أسبوع فى بادن . نستطيع أن نلتقى هنا على كل حال . فى قهوة فيبر أو فى قهوة ماركس . وقد أزورك .

– أريد عنوانك على كل حال .

– إننى أعيش وحيداً .

فسأله لتفينوف بغتة :

– أمتزوج أنت ؟

– لا . معاذ الله من ذلك ! ولكن معى بنتاً ...

– أه !

(١) ليرى فايو (١٨١٢ – ١٨٨٢) كاتب وصحفى فرنسى ، عرف بتعصبه الشديد للكاتوليكية وعدائه العنيف لكل ألوان التفكير الحر .

وكان فى نبرة لتفينوف معنى الاعتذار ، وفى ملامحه تأدب مقصود ، فمضى
بوتوجين يقول :

- إن عمرها لا يتجاوز ست سنوات . إنها يتيمة ... أبنة سيده ... صديقة حميمة
لى . يحسن بنا إذن أن نلتقى هنا . وداعاً .

وكبس قبعته على رأسه الجعد الشعر واختفى سريعاً . ولح لتفينوف شبحة مرتين
تحت فوانيس الطريق المعتم المؤدى إلى طريق لختنتالر .

- رجل غريب ! يجب أن أبحث عنه !

هذا ما جال بخاطر لتفينوف وهو عائد إلى فندقه . ودخل حجرته فاستوقفت نظره رسالة على المنضدة . فقال في نفسه : « آه ! تانيا ! » واستخفه الفرح ، ولكن الرسالة كانت من بلده - من أبيه . وفض لتفينوف الخاتم العائلي السميكة ، وكاد يبدأ في قراءة الرسالة عندما نبهه شذا قوى ممتع مألوف لديه ، ورأى في النافذة طاقة كبيرة من الهليوتروب الغض في كوب ماء . فانحنى عليها بشيء من الدهشة ، وشمها ... وكأنما نبض في ذاكرته شيء سحيق البعد ... ولكن أى شيء هو ؟ لم يستطع أن يعرف . فدق الجرس يدعو الخادم ، وسأله من أين جاءت هذه الأزهار . فأجابه الرجل أن سيدة أحضرتها وأبت أن تذكر اسمها ، وقالت : إن « الهرتسليتتهوف » سيعرفها من هذه الأزهار . وعاد ذلك الشيء ينبض في ذاكرة لتفينوف . وسأل الرجل كيف كان شكل السيدة ، فأخبره أنها كانت فارعة الطول رائعة الملبس تسدل على وجهها نقاباً . وأضاف : « لعلها كونتة روسية » . فسأله لتفينوف :

- لماذا تظن ذلك ؟

فأجابه الخادم باسمه عن نواجذه :

- لأنها أعطتني جلدين .

وصرف لتفينوف الخادم ، وظل واقفاً أمام النافذة وقد غرق في تفكير عميق ، ثم لوح بيده وانصرف ثانية إلى الخطاب الآتى من الريف . كان أبوه يصب عليه شكواه المعتادة ، مؤكداً له أن القمح قد بار إذ لم يرض أحد أن يأخذه ولو بغير ثمن ، وأن الناس قد خرجوا تماماً عن حدود الطاعة ، وأن نهاية العالم ربما كانت وشيكة الوقوع . جاء في رسالته : « أتذكر سائقى الأخير - ذلك الفتى الكالموكى ؟ لقد أصيب بمس من الجنون وأشرف على الموت المحقق ، وكدت أصبح بلا سائق لولا لطف الله . فقد أشار على بعض أولى الخير أن أرسل الفتى المريض إلى ريزان حيث يقيم قس مشهور ببراعته فى إفساد السحر ، فنجع علاجه على قدر الإمكان . وإليك رسالة الأب الطيب تأييداً لما أقول وتذكيراً لهذا الحادث . » وأجال لتفينوف بصره فى تلك الوثيقة العجيبة فوجد فيها : « أن الخادم نيكافور ديمتريف قد أصابته علة لا ينفع فيها طب ،

وكانت هذه العلة من فعل أناس أشرار ، ولكنه هو نفسه ، أى نيكافور ، كان السبب فيها ، إذ حثت فى وعده فتاة معينة ، فاستعانت بغيرها حتى جعلته لا يصلح لشيء ، ولو لم أظهر أنا لمساعدته فى هذه الحال لقضى عليه بأن يهلك كما تهلك الديدان ، ولكنى بإيمانى العميق بالعين المطلعة على كل شيء كنت سبباً لامتداد أجله . ولست فى جل من البوح بالطريقة التى سلكتها لشفائه ، ولكنى أسأل سعادتك ألا تعطفوا على هذه الفتاة الماكرة ، بل إنه لا ضرر من انتهارها حتى لا تعود إلى إصابته بأذى .

شرد ذهن لتفينوف فى هذه الوثيقة . فقد حمل إليه نفحة من الصبحراء ، من المروج ، من الظلمة العمياء التى تخيم على الحياة المتعقبة هناك . وبدا له غريباً أن يقرأ مثل هذه الرسالة فى بادن دون غيرها من المدن . وكان الليل قد جاوز منتصفه بكثير فأوى إلى فراشه وأطفأ النور . ولكنه لم يستطع نوماً . فقد ظلت الوجوه التى رآها والأحاديث التى سمعها تتوارد عليه وتثور وقد تشابكت واختلطت اختلاطاً غريباً فى رأسه الملتهب المصدع من أدخنة التبغ . فمرة كان يخيل إليه أنه يسمع جوباريوف يهمهم ، ويرى عينيه مثبتتين على أرض الغرفة بتحديقهما البليد العنيد . ثم إذا بهاتين العينين تلمعان وتقفزان وإذا هو يرى وجه مدام زوها نتشيكوف ويسمع صوتها الحاد ، فيردد هامساً دون وعى : « أجل ، أجل ، لقد صفعته على وجهه » ثم يمر أمامه وجه بوتوجين المتنافر الملامح ، ويسترجع للمرة العشرين كل كلمة قالها . ويقفز فوروشيلوف كعفريت العلبة ، فى سترته الأنيقة المحبوكة كأنها حلة عسكرية جديدة . ويومئ بشتشالكن - فى جد ورزانة - برأسه المشذب الذى لا يفكر إلا فى الخير ، ويجأر بنداسوف ويقسم ويبكى بمبايف من شدة الطرب ... وفوق كل شيء هذا العطر ... هذا العطر الملح الثقيل لم يترك له راحة ، بل أخذ يقوى ويقوى فى الظلام ، مذكراً إياه فى دأب بشيء ما زال يند عن ذاكرته .. وخطر لتفينوف أن رائحة الأزهار فى حجرة النوم يمكن أن تضربه ، فنهض وأخذ يتلمس طريقة إلى الطاقة حتى نقله إلى الغرفة الأخرى . ولكن الشذا المتهاك ظل ينفذ من هناك إلى وسادته ، وتحت ملاعته ، وهو يتقلب على جنبه فى ألم . وبدأت تستولى عليه أحلام محمومة ، فاعترض طريقه مرتين ذلك القس « المشهور ببراعته فى إفساد السحر » على هيئة أرنب لعب له لحية وذيل كذيل الخنزير . وغرد فوروشيلوف أمامه وهو جالس فى قبعة جنرال بريشة ضخمة ، وكأنه بلبل فى شجيرة ... وفجأة قفز من سريره وصاح وهو يضرب يداً بيد : « أمعقول أنها هى ؟ .. غير معقول ! » .

ولكى نوضح صيحة لتفينوف هذه يجب أن نسأل القارئ السمع أن يكر معنا بضع سنوات إلى الوراء .

فى أوائل العقد الخامس كانت أسرة الأميرين أوزينين تعيش فى موسكو بأفرادها العديدين ، فى ضيق يقرب من الفقر . وكانوا أمراء روسيين أصلاء من نسل روريك الخلف لا من تتر جورجيا ، واسمهم يرد فى التواريخ القديمة التى ترجع إلى عهد أمراء موسكو الكبار الأول الذين ضموا أطراف الأراضى الروسية . وقد ملكوا إقطاعات وراثية واسعة ، وكوفئوا مرات كثيرة على « بلائهم وحسبهم وتضحياتهم » ، وجلسوا فى مجلس البويار ^(١) . بل إن أحدهم أبيع له أن يستعمل اسمه كاملاً طبقاً لسلسلة النسب . ولكن أعداءهم نسبوا إليهم « استعمال السحر والرقى المؤذية » ، فحلت عليهم لعنة الامبراطورية ، ونكبوا « نكبة مروعة لم يستطيعوا النهوض منها » . وجردوا من رتبهم ، ونفوا إلى جهات نائية . لقد هوى آل أوزينين ثم لم يرتفعوا ثانية . وقد رفعت عنهم اللعنة بعد أزمان ، وردت إليهم ممتلكاتهم المصادرة ، وتبأوا منزلهم القديم فى موسكو . ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئاً . فقد افترقت أسرتهن ، ونضبت مواردها ، ولم تنتعش فى عهد بطرس ولا فى عهد كاترين ، وما زالت تضمحل وتنحدر حتى أصبح من بين أعضائها رؤساء خدم فى المنازل الكبيرة ، ومديرو حانات ومفتشو بوليس .

وكانت الأسرة التى أسلفنا ذكرها زوجاً وزوجة وخمسة أبناء . وكانوا يعيشون قرب « ساحة الكلاب » فى منزل خشبى صغير ذى طبقة واحدة ، له مدخل منقوش مطل على الشارع ، وأسود خضر على البوابات ، إلى آخر ما هنالك من شعائر النبيل ، على الرغم من أنهم كانوا لا يستطيعون تدبير معاشهم إلا بجهد شديد ، وكانوا دائماً مدينين للخضرى ، وربما أعوزهم الشمع والوقود فى الشتاء . وكان الأمير نفسه رجلاً غيباً خاملاً ، كانت له فى شبابه شهرة بالغندرة والأناقة ثم انحدرت به الحال حتى منح وظيفة من وظائف موسكو العتيقة ذات الراتب الصغير والاسم الطنان ، والتى لا عمل فيها على الإطلاق . وكانت هذه المنحة تقديراً لزوجته - التى كانت وصيفة شرف - أكثر مما كانت تكريماً لاسمه .. ولم يكن الأمير يشغل نفسه بشئ ، ولم يكن له عمل إلا أن يجلس متدثراً بمعطفه ويدخن ويزفر بشدة من الصباح إلى المساء . وكانت

(١) « البويار » لقب كان يطلق منذ أقدم عصور التاريخ الروسى على السادة المقربين من أمراء روسيا ، وكانوا أصدقاء الأمير ومستشاريه وقادة حرسه ، والأعضاء البارزين فى مجلسه الاستشارى ، وقد تطوروا حتى أصبحوا طبقة أرستقراطية لها حق امتلاك الأراضى والرقى .

زوجته امرأة عليلة حادة الطبع ، دائمة الاهتمام بتوافه البيت ، وبإدخال أولادها المدارس الأميرية ، والمحافظة على صلاتها فى بطرسبرج . ولم تستطع قط أن تألف حياتها . ولا بعدها عن البلاط .

وكان والد لتفينوف قد عرف آل أوزينين فى أثناء إقامته بموسكو ، وأتيح له أن يسدى إليهم بعض الخدمات ، وأقرضهم مرة ثلاثمائة روبل . وكان ابنه يتردد عليهم وهو طالب ، وقد اتفق أن مسكنه لم يكن بعيداً عن منزلهم . ولكن الذى اجتذبه لم يكن قرب دارهم ، ولا خشونة معيشتهم ، إنما أخذ يكثر من زيارتهم بعد أن أغرم بابنتهم الكبرى إيرينا .

كانت وقتئذ فى السابعة عشرة من عمرها ، حديثة عهد بالمدرسة الداخلية الأرستقراطية التى أخرجتها منها أمها لسخطها على المديرية . وكان منشأ هذا السخط أن إيرينا اختيرت فى الحلقة السنوية لتلقى أبياتاً بالفرنسية فى تكريم المراقب ، وقبيل الاحتفال أحلت محلها فتاة أخرى كان أبوها من كبار موردى الخمر ، ولم تستطع الأميرة أن تسكت على هذه الإهانة . والحقيقة أن إيرينا نفسها لم تغتفر للمديرية قط هذا الظلم ، فقد كانت تحلم كيف أنها ستقف أمام الجميع لتلقى أشعارها ، فتتعلق بها الأنظار ، ثم تتحدث عنها موسكو ... والحق أنها كانت جديرة أن تتحدث موسكو عنها . فقد كانت فارعة رشيقة ، ذات صدر لم يكد يمتلىء ، وكتفين ضيقتين لما تستديرا ، وبشرة بيضاء مرمرية نادرة فى مثل سنها ، صافية ملساء كالقاشانى ، وشعر أثيث أشقر تتخلله خصل داكنة تمنحه طرافة عجيبة . وكانت قسماتها الرائعة الدقة - إلى حد الكمال المفرط - لم تكد تفقد سذاجة الصبا ، ولكن استدارة جيدها البديع ، وابتسامتها الحاملة الشاردة ، كانا يحدثان عن سيدة شابة حادة المزاج . وكان فى تقويس هاتين الشفتين اللتين لا تكادان تتفرجان بالابتسام ، وفى ذلك الأنف الصغير الأقنى الأقرب إلى الضيق ، شىء من العناد والاندفاع يوشك أن يوردها وغيرها الموارد . وعيناها كانتا رائعتين ، ناعستين حالمتين ، لوزيتين كعيني آلهة مصرية ، رماديتين فى خضرة ، وطفاوين مقرونتى الحاجبين وكان لتينك العينين تعبير غريب ، كأنما تتأملان بانتباه من عمق بعيد مجهول .

وكان المشهور عن إيرينا فى المدرسة أنها من أذكى الطالبات وأقدرهن ، ولكنها متقلبة المزاج ، مشغوفة بالسلطة ، متشبثة برأيها ، وقد تنبأت لها إحدى مدرساتها بأن عواطفها ستكون سبباً فى شقائها (Vos passions vous Perd Eront) على حين

عابتها مدرسة أخرى ببرود الطبع وجمود الإحساس ، ووصفتها بأنها « فتاة بلا قلب » . وكانت أترابها يرينها متكبرة منقبضة ، وأخوتها يكادون يرهبونها ، وأمها لا تثق بها ، وأبوها يجزع حين تثبت عليه نظراتها الغامضة . ولكن أباهما وأمها كليهما كانا يشعران نحوها شعوراً غير إرادى بالاحترام ، لا لشخصيتها بل لآمال غريبة مبهمة كانت تبعثها في نفسيهما .

قال الأمير الشيخ يوماً وهو يخرج غليونه من قمه :

- سوف ترين يابراسكوفيا دانيلوفنا أن صغيرتنا إيرينا سترفعنا من هذا الحضيض .

فغضبت الأميرة وقالت لزوجها إن له (des expressions insupportables) (١) ، ولكنها أخذت تحلم بكلماته بعد ذلك ، وتمتعت بين أسنانها : أه ! ليتنا نرتفع حقاً من هذا الحضيض !

وكانت إيرينا في بيت أبويها لا يكاد يحد من حرقتها شيء . لم يكونا يدللانيها بل لعلهما كانا يتجنبانها شيئاً ما ، ولكنهما كانا لا يعترضان سبيلها ، ولم تكن تريد غير هذا . وعندما كان يحدث أمر شديد الإذلال ، كأن يأتي أحد الباعة ويظل يصيح ليسمعه أهل الفناء كله ، قائلاً إنه مل المجيء للمطالبة بنقوده ، أو يبدأ الخدم أنفسهم يغلفون القول لسادتهم « إنكم أمراء مدهشون حقاً ، يمكنكم أن تصفقوا في طلب العشاء وتذهبوا جوعاً إلى الفراش » ... كانت إيرينا تلزم كرسيها دون أن تحرك ساكناً ، ولكن وجهها العابس تنزلق عليه بسمة شريرة أمر على أبويها من كل تأنيب . كانا يشعران بأنهما مذنبان - وإن لم يذنبوا - نحو هذه الإنسانية التي وهبها مولدها وحده الحق في الثراء والترف والتكريم .

وقد أحب لتفينوف إيرينا من النظرة الأولى . ولم يكن يكبرها إلا بثلاث سنوات . ولكنه لبث مدة طويلة عاجزاً عن الفوز بحبها بل عن جذب انتباهها . وكان في سلوكها نحوه شيء من العداوة ، وكأنما أمانها فانطوت على الجرح إلا أنها لم تستطع أن تغفر أبداً وكان في ذلك الوقت أصغر سناً وأكثر تواضعاً من أن يفهم ما قد يمكن تحت هذه الجفوة التي تشبه الازدراء .. وربما نسي محاضراته وواجباته وبقى جالساً في صالون آل أوزينين الكئيب ، يرقب إيرينا خلصة وقلبه يدق دقاً بطيئاً مؤلماً يكاد يخنقه . فكان يبدو عليها حينذاك شيء كالغضب ، فتغادر مجلسها وتتمشى وتتنظر إليه نظرات

(١) « ألفاظاً لا تحتمل » .

باردة وكأته منضدة أو كرسى ، ثم تهز كتفها وتشبك ذراعيها . وربما تجنبت النظر إليه أيضاً طول المساء ، حتى عندما يتحادثان ، فكأنها تحرمه حتى نعمة النظر ! .. وربما عمدت إلى كتاب تحقق فيه دون أن تقرأ ، وقد زرت حاجبها وعضت على شفيتها ، ثم تسأل أباها أو أخاها فجأة بصوت مرتفع : « ما معنى الصبر بالألمانية ؟ » وحاول أن ينتزع نفسه من الدائرة المسحورة التي كان يضطرب فيها عاجزاً معذباً كطائر فى فخ ، وغاب عن موسكو أسبوعاً حتى كاد يجن من الشوق والألم . ثم عاد إلى منزل آل أوزنين نحيلاً مريضاً .. والعجيب أن إيرينا كانت قد نحلت هى الأخرى تحولاً ظاهراً خلال تلك الأيام ، وشحب وجهها وذبل خداه .. ولكنها قابلته بمزيد من البرود ، وإهمال يكاد ينطوى على البغض ، وكأته نكأ ذلك الجرح الخفى الذى طعنه فى كبريائها .. وهكذا عذبتة شهرين . ثم انقلب الحال كله فى يوم واحد . اشتعل الحب كالنار ، انقض عليهما كالصاعقة . كان جالساً - لقد ظل يذكر هذا اليوم سنين - فى صالون آل أوزنين قرب النافذة ، ينظر إلى الشارع ولا يعي ، وقلبه يعتلج فيه الغيظ والسأم ولكنه لا يستطيع أن يتحرك من مكانه .. وفكر أن لو كان يجرى تحت النافذة نهر لرمى نفسه فيه برعشة خوف ، لكن بغير ندم . وكانت إيرينا جالسة غير بعيدة منه فى صمت وسكون غريبين . وكانت قد لبثت أياماً عدة لا تكلمه بل لا تكلم أحداً ما . ظلت جالسة معتمدة برأسها على يدها وكأنها فى حيرة ، وهى تنتظر حولها ببطء بين الفينة والفينة . وأخيراً أصبح هذا العذاب البارد أعظم مما يستطيع لتفينوف أن يحتمل . فنهض ، وبدأ يبحث عن قبعة دون أن يسلم . وإذا بصوت رقيق يهمس : « ابق » .

وخفق قلب لتفينوف ، ولم يعرف لتوه صوت إيرينا ، فقد كانت فى تلك الكلمة الواحدة رنة لم تكن فيه من قبل . ورفع رأسه فذهل ... لقد كانت إيرينا تنظر إليه بشغف ، أجل بشغف ! ورددت قولها : « ابق ، لا تذهب ، أود أن أكون معك » وأردفت وقد زاد صوتها انخفاضاً : « لا تذهب . إني أريد ذلك » . اقترب منها دون أن يفهم شيئاً ، ومد إليها يديه وهو لا يكاد يعي ما يفعل ... فأسلمته يديها ، ثم التفتت باسمته وقد أحمر وجهها احمراراً شديداً وخرجت من الحجرة وهى لا تزال تبتسم . وعادت بعد دقائق قليلة مع أختها الصغرى ، ونظرت إليه مرة أخرى تلك النظرة الطويلة الحنون ، وأجلسته بجانبها .. ولم تستطع أول الأمر أن تقول شيئاً ، بل ظلت تتنهد ووجهها يحمر خجلاً ، ثم تشجعت فأخذت تسأله عدة مرات أن يصفح عنها لأنها لم تنصفه فيما مضى ، وأكدت له أنها قد تغيرت تماماً ، وأدهشته إذ تحمست فجأة للنظام الجمهورى (وكان فى ذلك الوقت يعبد رويسبير عبادة ، ولا يستبيح لنفسه أن يجاهر

بانتقاد ماراً) . ولم يعرف أنها تحبه إلا بعد أسبوع . نعم ، لقد ظل يذكر ذلك اليوم الأول طويلاً ... ولكنه لم ينس الأيام التي تلتها أيضاً ، تلك الأيام التي رأى فيها - وهو لا يزال يقهر نفسه على الشك وينودها عن اليقين - رأى فيها بجلاء وفي نشوة من الحبور تكاد تمازجها نشوة الخوف ، تلك النعمة التي يؤس منها تبعث إلى الحياة ، وتركو وتجرف كل شيء أمامها حتى تصل إليه . ثم جاءت لحظات الحب الأول ببهجتها وإشراقها . لحظات لا تتكرر في حياة واحدة ، ولا ينبغي لها أن تتكرر . أصبحت إيرينا على غير انتظار هادئة كالحمل ، ناعمة كالحرير ، عطوفاً كل العطف . أخذت تعطى أخوتها الصغار دروساً في الفرنسية والإنجليزية إلا البيان فإنها لم تكن موسيقية - وكانت تقرأ معهم كتبهم المنزلية ، وتعنى معهم بشئون المنزل . كانت تجد في كل شيء طرافة ومنتعة ، وكانت إما تثرثر بلا انقطاع وإما تسبح في حنان صامت . وكانت تفكر في شتى الخطط ، وتهيم في الحلم بما سوف عمله عندما تتزوج لتفينوف (لم يرتابا قط في أن زواجهما سيتم يوماً) ، وكيف أنهما معاً سوف ... فيقول لتفينوف مسرعاً : « نعمل ؟ » فتردد إيرينا : « أجل نعمل ، ونقرأ ، ولكن السفر أولاً » وكانت شديدة الرغبة في أن تغادر موسكو بأسرع ما يمكن . وعندما كان لتفينوف يذكرها بأنه لم يتم دراسته في الجامعة بعد ، كانت تجيبه دائماً بعد تفكير قصير : إنه من الممكن جداً أن يتم دراسته في برلين أو .. في مكان ما . وكانت إيرينا قليلة التحفظ في التعبير عن مشاعرها ، فلم تخف علاقتها بتفينوف طويلاً على الأمير والأميرة ، اللذين وإن لم يفرحا - فإنهما حين قدراً جميع الظروف لم يجدا ضرورة لبتها . فقد كانت ثروة لتفينوف جسيمة .

- ولكن ، أسرته ، أسرته !

هكذا كانت تحتج الأميرة فيجيبها الأمير : « نعم ، أسرته بالطبع ولكنه من النبلاء على كل حال . وأهم ما في الأمر أن إيرينا لن تصفى إلينا كما تعلمين . ومتى لم تعمل كما تهوى ؟! ...

(١) Vous connaissez sa violence وبعد فلم يتحدد شيء بعد « هكذا كان الأمير يجادل ، ولكنه كان يتبع ذلك في سره : « مدام لتفينوف - أهذا كل شيء ؟ لقد كنت أتوقع شيئاً آخر » . وقد سيطرت إيرينا على خطيبها المستقبل سيطرة تامة ، والحق أنه هو نفسه انقاد لها راضياً وكأنه سقط في دوامة ، ولم يعد يملك نفسه ...

(١) « أنت تعرفين استبدادها » .

كان ذلك رهيباً وحلواً ، لم يكن ثمة ما يندم عليه ، ولم يكن ثمة ما يضمن به . لم يستطع أن يفكر فى معنى الزواج ومسئوليته ، أو يقرر هل يستطيع رجل خاضع كل هذا الخضوع أن يكون زوجاً صالحاً ، وأى طراز من الزوجات سوف تصبح إيرينا ، وهل يقف كل منهما فى الموضع الذى ينبغى أن يقفه من صاحبه ؟ .. كان أسير هواه ، كل ما يعلمه أنه يحب أن يتبعها ، أن يكون معها - هكذا دائماً - وليكن ما يكون !

ولكنه ، وإن لم يبد مقاومة ، وإن فاضت إيرينا حناناً دافقاً ، فإن علاقتهما لم تخل من سوء تفاهم ونزاع . فذات يوم ذهب إليها توأ بعد خروجه من الجامعة وعليه سترة بالية ، ويداه ملطختان بالحبر ، وأسرعت لالتقاء بترحابها المألوف ، وإذا بها توقف فجأة، وتقول بغير تمهيد :

- أين قفازك ؟ .. ثم أضافت مسرعة : يا للخجل ! إنك لا تختلف عن أى - طالب!

فقال لتفينوف :

- أنت تسرفين يا إيرينا ..

فكررت :

- إنك لا تختلف - عن أى طالب (١) . Vous n'ête pas distingué. وأولته ظهرها وخرجت من الحجرة .. إلا أنها استغفرته بعد ساعة . وكانت سريعاً ما تندم وتسأله أن يسامحها ، ولكن العجيب أنها كثيراً ما كانت تتهم نفسها بشرور لا أصل لها إلا فى خيالها ، وتنكر بعناد نقائصها الحقيقة . ومرة أخرى وجدها تبكى ، ورأسها بين يديها وشعرها مشعث ، وعندما سألها فى اضطراب عن سبب حزنها ، أشارت بأصبعها إلى صدرها ولم تتكلم ، فلمعت فى ذهنه كلمة « السل ! » وأمسك بيدها ، وغغم بصوت مرتعش :

- أنت مريضة يا إيرينا ؟ (وكانا قد اعتادا أن ينادى الواحد منهما الآخر باسمه الأول فى المناسبات الكبرى .) سأذهب حالاً لأحضر الطبيب .

ولكن إيرينا لم تدعه يكمل ، بل دقت الأرض بقدمها فى غيظ :

- إنتى بصحة تامة .. ولكن هذا الثوب .. ألا تفهم ؟

فردد فى حيرة :

- ماذا ؟ .. هذا الثوب ؟ ..

(١) « أنت غير أنيق » .

- ماذا؟ ماذا؟ أنا لا أملك غيره ، وهو قديم كريحه ! ولا بد لي أن ألبسه كل يوم ...
حتى عندما تأتي أنت يا جريشا - يا جريجورى - إلى هنا ... ستزهد فى حبي أخيراً
حين تجدنى بهذه الرثاثة !

- يا الله ! ماذا تقولين يا إيرينا ؟ إن هذا الثوب ظريف جداً ... وهو عزيز لدى
أيضاً لأننى رأيتك فيه أول مرة يا حبيبتي ...
فاحمر وجهها خجلاً :

- أرجوك ألا تذكرنى يا جريجورى ميهالوفتش بأتى لم يكن لدى ثوب غيره حتى
فى ذلك الحين .

- ولكنى أؤكد لك يا إيرينا بأقلوفنا أنه جميل عليك جداً !

- لا ، أنه كريحه ، كريحه .. وألحت فى قولها وهى تشد خصلات شعرها الطويلة
الناعمة بحدة عصبية - أف ! هذا الفقر ! هذا الفقر وهذه القذارة ! كيف يهرب
الإنسان منه ؟ كيف ينجو الإنسان من هذا المستنقع !
ولم يدر لتفينوف ماذا يقول ، وتحول عنها قليلاً .

وفجأة وثبت إيرينا من مقعدها ، ووضعت كلتا يديها على كتفيه ، وتمتمت وهى
تقرب وجهها منه ، وعيناها اللتان مازالتا مليئتين بالدموع تلمعان بنور السعادة :

- ولكنك تحبنى يا جريشا ؟ أنت تحبنى ؟ أنت تحبنى أيها العزيز حتى فى هذا
الثوب الكريحه ؟ ..

فركع لتفينوف عند قدميها . فهمست وهى تتحنى عليه :

- آه . أحببى يا جميلى ! يا منقذى !

وهكذا كانت الأيام تعدو ، والأسابيع تمر . ولم يعلن شىء رسمى . وظل لتفينوف
يؤجل طلب يده . ولم تكن تلك رغبته طبعاً ، ولكنه كان ينتظر ما تشير به إيرينا (فقد
كانت تلاحظ أحياناً أنهما كليهما صغيران إلى درجة مضحكة ، وأنهما يجب أن يزيدا
على الأقل بضعة أسابيع على سنيهما) إلا أن كل شىء كان يتجه إلى خاتمة ، وكان
المستقبل فى اقترابه يزداد وضوحاً وتحديداً ، عندما حدث فجأة حادث بعثر كل
أحلامهما وخططهما كأنها غبار الطريق .

فى ذلك الشتاء زار البلاط موسكو ، وتتابع الاحتفالات تترى ، حتى جاء دور الحفلة الراقصة التقليدية الكبرى فى بهو النبلاء . ووصل نبأ تلك الحفلة إلى المنزل الصغير فى ساحة الكلاب وإن لم يصل إليه إلا عن طريق إعلان فى « الجريدة الرسمية » . وكان الأمير أول من أثاره النبأ ، فقرر على الفور أنهما يجب أن يذهبا ومعهما إيرينا ، وأن من الإثم ألا ينتهز هذه الفرصة لرؤية مليكتهما وأن هذا ليس إلا نوعاً من الواجب على أبناء الأسر العريقة . ودافع عن رأيه فى حرارة ظاهرة غير مألوفة منه ، ووافقته الأميرة إلى حد ما ، ولم يكن ضجرها إلا حسرة على ما يقتضيه ذلك من نفقات ، ولكن إيرينا أظهرت معارضة شديدة ، وأجابت على كل حجج والديها بأن « لا ضرورة للذهاب ، وأنها لن تذهب » وبلغ عنادها حداً جعل الأمير يقرر آخر الأمر أن يرجو لتفينوف ليحاول هو إقناعها ، بأن يذكرها - بين ما يسوقه من الأسباب - إنه لا يحسن بفتاة صغيرة أن تتجنب المجتمع ، وأنها ينبغي أن « تمر بهذه التجربة » ، وأن أحداً لم يرها قط فى أى مكان - وكان هذا صحيحاً . وأخذ لتفينوف على نفسه أن يعرض عليها « الحيشيات » فنظرت إليه إيرينا نظرة ثابتة فاحصة جعلته يرتبك . ثم قالت بهدوء وهى تعبت بطرفى زنارها :

- أتريد أنت ذلك ؟

فأجاب لتفينوف متردداً :

- نعم . أظن هذا . إنى أوافق أباك ... حقاً لماذا لا تذهبين ؟ . وضحك ضحكة قصيرة وأضاف : لترى الناس ، ويروك ... فكررت ببطء :

- يرونى ؟ حسن جداً . سأذهب إذن ... ولكن تذكر أنك أنت الذى أردت ذلك .

- إننى ...

- إنك أنت الذى أردت ذلك . وهاك شرطاً آخر : يجب أن تعدنى بألا تحضر هذه الحفلة .

- لماذا ؟

- إنى أرغب فى ذلك .

فرقع لتفینوف یدیه :

- سمعاً وطاعة ... ولكنى أعترف بأنى كنت أود أن أستمتع برؤيتك فى كامل بهائك ، وملاحظة الإعجاب الذى لابد أنك ستثيرينه ..

وأضاف وهو يتتهد :

- وإن كن كنت أفخر بك ...

فابتسمت إيرينا :

- إن كامل البهاء لن يكون إلا ثوباً أبيض . أما الإعجاب ... حسناً ، لا أريد أن تكون هناك على كل حال .

- إيرينا أيتها الحبيبة ، كائنك غاضبة !

فابتسمت ثانية :

- أوه ، لا ، لست غاضبة . ولكن يا جريشا (وثبتت عينيها عليه ، وظن أنه لم ير قط مثل هذا التعبير فيهما ، وأضافت هامسة) .. لعله لابد أن يكون ..

- ولكنك تحبيننى يا إيرينا ، يا عزيزتى ؟

فأجابت فى جد يوشك أن يكون حزيناً ، وشدت على يده بقوة كائنها رجل :

- إنى أحبك !

وظلت إيرينا طيلة الأيام التالية منصرفة إلى ثوبها وتزيين شعرها . وفى اليوم السابق للحفلة أحست بوعكة ، ولم تستطع أن تستقر وانفجرت بالبكاء مرتين فى وحدتها ، أما أمام لتفینوف فقد تكلفت تلك الابتسامة التى لا تتغير ... لم يتبدل حنانها المعهود ، ولكنها كانت شاردة اللب ، دائمة النظر إلى نفسها فى المرآة . وفى يوم الحفلة ظلت صامتة شاحبة ، ولكنها كانت مالكة زمام نفسها . وجاء لتفینوف فى الساعة التاسعة مساءً ليراها ، فلما أتت لتقابله فى ثوب من حرير أبيض شف ، وفى شعرها المرفوع قليلاً عنقود أزهار صغيرة زرقاء ، كادت تبدر منه صيحة ، فقد بدت أجمل وأروع من سنّها كثيراً ، وقال فى نفسه : «أجل ، إنها كبرت منذ الصباح ! وكم تبدو شامخة ! هذا ما تصنعه الوراثة !» ووقفت إيرينا أمامه ، ويداه مسترخيتان ، لا تبتسم ولا تتصنع ، وهى تنظر فى ثبات يشبه التحدى ، لا إليه بل إلى الفضاء البعيد أمامها .

قال لتفينوف أخيراً :

- لكأنك أميرة فى كتاب قصص . أنت تشبهين محارباً قبل المعركة ، قبل النصر ... واستمر فى قوله وهى لا تزال واقفة بغير حراك ، وكأنها تصغى ... لا إليه بل إلى صوت آخر فى أعماق نفسها : إنك لم تسمحى لى بأن أذهب إلى هذه الحفلة ، ولكن لعلك تقبلين هذه الأزهار وتأخذينها معك ؟

وأهدى إليها طاقة من الهيلوتروب ، فلحظته لحظة سريعا ، وأمسكت فجأة طرف العنقود الذى كان يزين شعرها ، وقالت :

- أتريدنى أن أبقى ؟ قلها فأمرق هذا كله ، وأبقى فى المنزل ! وخيل إلى لتفينوف أن قلبه ينشق . وكانت يد إيرينا قد سبقت إلى انتزاع العنقود ...

فبادر يقول مسرعا ، فى فيض من الكرم والسماحة :

- لا ، لا . لماذا؟ أنا لست أناانيا ... لماذا أحبس حريتك ، فى حين أعلم أن قلبك ..
فقال مسرعة :

- حسناً ، لا تقترب منى وإلا كسرت ثوبى .

واضطرب لتفينوف ، وسأل :

- ولكنك ستأخذين الزهور ؟

- طبعاً . إنها جميلة جداً . وأنا أحب هذه الرائحة . شكراً . سأحفظها ذكرى ...

- فحفلتك الأولى . لانتصارك الأول .

ونظرت إيرينا من فوق كتفها إلى نفسها فى المرآة ، وهى تثنى قوامها ولا تكاد .

- وهل أبدو جميلة حقاً ؟ ألا تغالى ؟

فأفاض لتفينوف فى الثناء الحار بينما كانت إيرينا غير منصتة إليه ، وقد قربت الأزهار من وجهها وجعلت تنظر مرة أخرى إلى الفضاء البعيد بعينين غريبتين كأنما زادت دكنة وسعة . وارتفع شريطاها الرقيقان خلفها قليلاً وقد حركهما تيار خفيف من الهواء فكانا أشبه بجناحين .

وظهر الأمير فى رباط عنق أبيض وسترة سهرة سوداء باهتة ، وقد صفف شعره ووضع وسام النبالة على شريط فلاديمير فى عروة سترته . وجاءت الأميرة بعده فى فستان حرير صينى عتيق الطراز ، وبذلك الصرامة القلقة التى تحاول الأمهات أن

تخفين بها اضطرابهن أصلحت هيئة ابنتها من خلف ، بأن هزت ثنيات ثوبها دونما ضرورة . وزحفت عرية أجرة مقفلة عتيقة بأربعة مقاعد ، يجرها حصانان هرمان أشعثان ، إلى مدخل الدار ، على الأكوام المتجمدة من الثلج المتراكم . وأطل من باب الصالون سائس عجوز في حلة غريبة الشكل ، وأعلن بنوع من المخاطرة أن العربية معدة .. وبعد أن إستودع الأميران الله أبناءهما الباقيين بالمنزل إلى الصباح ، لبسا معطفيهما وخرجا إلى الدرج . وتبعتهما إيرينا وقد التفت بحرمة شديدة الرقة شديدة القصر - كم كرهت هذه الحرمة الصغيرة في تلك اللحظة ! - وصحبها لتفینوف إلى الخارج طامعاً في نظرة أخيرة من إيرينا ، ولكنها جلست في مقعدها من العربية بغير أن تلتفت .

وحول منتصف الليل سار تحت نوافذ بهو النبلاء . وكانت أضواء لا تحصي من شمعدانات ضخمة تبدو من خلال الستائر الحمراء أشبه شيء بوشى معدنى لامع ، وأنغام فالس لشتراوس تطير مرحة فاضحة متحدية فوق الميدان الذى ازدحم بالعربات.

وفي الساعة الواحدة من اليوم التالى ذهب لتفینوف إلى منزل آل أوزينين . فلم يجد فى المنزل أحداً سوى الأمير ، الذى أخبره على الفور بأن إيرينا أصابها صداع واعتكفت فى سريرها ، وأنها لن تغادره حتى المساء ، لكن مثل هذه الوعة غير مستغربة بعد أول مرة تذهب فيها الفتاة إلى حفلة راقصة . ودهش لتفینوف حين أرفد الأمير بالفرنسية :

(١) C'est très naturel, vous savez, dans les jeunes filles

ولاحظ فى الوقت نفسه أنه لا يرتدى ثوب المنزل كعادته ، بل يلبس سترة رسمية . وأضاف الأمير :

- ثم إنها كانت مضطربة قليلاً بعد أحداث البارحة !

فتمتم لتفینوف :

- أحداث ؟

- أجل ، أجل ، أحداث ، أحداث des vrais événements إنك لا تستطيع أن تتخيل يا جريجورى ميهالوفتش quel suceés

(٢) elle a eu لقد أسترعت أنظار البلاط كله ! وقال الأمير ألكسندر فيدوروفتش

(١) « هذا طبيعى جداً عند الفتيات كما تعلم » .

(٢) « أى نجاح نالته ! » .

أن مكانها ليس هنا ، وأنها تذكره بالكونتة ديفنشير^(١) : أنت تعرف ... هذه ... السيدة المشهورة ... وأعلن بلازنكراميف العجوز على مسمع من الجميع أن إيرينا هي ملكة الحفلة ، ورغب في أن يقدم إليها . وقدم نفسه إلى . أعنى قال لي أنه يذكرني عندما كنت في سلاح الفرسان ، وسألتني : ماذا تعمل الآن ؟ .. أنه ظريف جداً ذلك الكونت ... ياله من^(٢) ! adonateur du beau sexe . ولم يكتفوا بي ... زوجتي أيضاً لم يتركوها في حالها - لقد تحشت معها نتاليا نيكتشنا نفسها .. هل كنا نطمع في أكثر من ذلك ؟ لقد رقصت إيرينا^(٣) ! avec tous les meilleurs cavaliers كانوا يحضرونهم إلى باستمرار . لم أستطع في الحقيقة أن أنكر عددهم . أتصدق؟ لقد كانوا جميعاً يتزاحمون حولنا . وأرادوا كلهم أن يرقصوا معها المازوركا . وعندما سمع أحد الدبلوماسيين الأجانب أنها فتاة من موسكو قال للقيصر : Sire, dé- cide ment c'est^(٤) Moscou qui est le centre de votre empire وأضاف دبلوماسي آخر^(٥) , C'est une vrais revolution, sire, لعله قال :^(٦) révolution أو^(٧) revolution . شيئاً كهذا . أجل . أجل . لقد كانت ... لقد كانت فوق التصور !

سأل لتفينوف وقد سرت برودة في يديه وقدميه لسماع حديث الأمير :

- حسناً : وإيرينا بافلوفنا نفسها ؟ هل استمتعت بالحفلة ؟ هل كان يبدو عليه السرور ؟

- طبعاً استمتعت بالحفلة . السرور ؟ ! لا بد أنها كانت مسرورة ! ولكنك تعرفها ... لا يمكنك أن تعرف دخيلة نفسها . ! لقد كان كل إنسان يقول لي البارحة « هذا عجيب Jamais on ne dirait que

(١) بوقة ديفونشير (١٧٥٧ - ١٨٠٦) انجليزية كانت من أجمل وأذكى نساء عصرها وكان لها جيش من المعجبين وصالون يتردد عليه مشاهير العصر ، وكانت تقول الشعر وتشتغل بالسياسة .

(٢) « عابد للجنس اللطيف » .

(٣) « مع كل الفرسان البارزين » .

(٤) « مولاي ! لا شك أن موسكو هي قلب إمبراطوريتكم ! » .

(٥) « هذه ثورة حقاً يا مولاي ! » .

(٦) إلهام .

(٧) ثورة .

(١) » mademoiselle votre fille est á son premier bal .

الكونت ريزنباخ مثلاً .. أظنك تعرفه ؟

- لا . لا أعرفه مطلقاً . ولم أره فى حياتى .

- من أقرباء زوجتى .

- إنى لا أعرفه .

- رجل ثرى . من أمناء القصر . يعيش فى بطرسبرج . فى ذروة السلطان وهو الحاكم بأمره فى ليفونيا . لم يكن يهتم بنا قبل اليوم .. ولكن لا تظن أنى حائق عليه لهذا . (٢) . J'ai l'humeur facile, comme vous savez. حسناً ، هذا هو الرجل . لقد جلس بجانب إيرينا وكلمها ربع ساعة لا أكثر ، وبعد ذلك قال لأميرتى : (٣) ma cousine. votre fille est une perle, c'est une perfection . « إن كل امرئ يهنئنى بقرابتها ... » وبعد ذلك رأيت يذهب إلى ... إلى شخصية عظيمة جداً ، ويكلمه وهو ينظر إلى إيرينا ... وكان الآخر ينظر إليها أيضاً ...

فسأل لتفينوف مرة أخرى :

- وإذن فلن تظهر إيرينا بافلوفنا طول اليوم ؟

- بالضبط . فهى تعاني صداً شديداً . وقد سألتنى أن أبلغك تحيتها ، وأن أشكر على أزهارك (٤) qu'on a trouvé charmants . إنها بحاجة إلى الراحة ... لقد خرجت الأميرة لتؤدى بعض الزيارات ... وأنا أيضاً ... كما ترى ...

وتتحنح الأمير ، وأخذ يتململ فى مجلسه كأنه لا يدرى ماذا يقول بعد الذى قاله . فتناول لتفينوف قبعته وخرج ، قائلاً : إنه لا يريد إزعاج الأمير ، وأنه سيأتى مرة أخرى ليسأل عن صحة إيرينا .

(١) « من يقول أن هذه أول حفلة راقصة تذهب إليها الأنسة كريمتمك ! » .

(٢) « إننى طيب القلب كما تعلم » .

(٣) « يا عزيزتى ، إن ابنتك جوهرة ، إنها تحفة » .

(٤) « التى لقيت الاستحسان » .

وعلى مسيرة خطوات من منزل آل أوزينين رأى عربة أنيقة ذات مقعدين واقفة أمام كشك رجل الشرطة . وكان سائس في حلة أنيقة أيضاً ينحني بتراخ ويسأل الشرطي الفنلندي عن مسكن الأمير بافل فاسيليفتش أوزينين . ورمق لتفينوف العربة . كان يجلس بداخلها رجل متوسط العمر ، مترهل الجلد ، نوجه مغضن شامخ وأنف مقوس وفم قاس ، متدثر بفراء ثمين ، تدل جميع المظاهر على أنه حقاً رجل عظيم جداً.

لم يف لتفينوف بوعده أن يعود فيما بعد ، فقد فكر أن يؤجل زيارته إلى اليوم التالي . وعندما ذهب في الساعة الثانية عشرة إلى الصالون الماكوف وجد هناك الأميرتين الصغيرتين فكتورنكا وكليوباترنكا . فحياهما ، وسأل : هل تحسنت حال إيرينا بافلوفنا ، وهل يستطيع أن يراها ؟

فأجابته فكتورنكا ، وكانت على الرغم من لثقتها أسرع جواباً من أختها :
- إيرينوتشكا ذهبت مع مامى .

فردد لتفينوف :

- ذهبت ؟ كيف ؟ - وأحس في قرارة قلبه شبه رعشة حبيسة - أليست .. أليست تعطيكما دروساً في مثل هذا الوقت ؟

فأجابت فكتورنكا :

- إيرينوتشكا لن تدرس لنا بعد الآن .

وكررت كليوباترنكا بعدها :

- لن تدرس لنا بعد الآن .

فسأل لتفينوف :

- هل بابا في المنزل ؟

فمضت فكتورنكا تقول :

- بابا ليس في المنزل . وأيرنيوتشكا مريضة . طول الليل هي تبكى ، تبكى ...

- تبكى ؟

- نعم تبكى . هكذا أخبرنى يجوروفنا . وعيناها حمراوان جداً . إنهما مل .. مل .. تهبتان جداً .

ومشى لتفينوف فى الغرفة جيئة وذهاباً مرتين ، وهو يرتجف كأنما أصابه برد ، ثم عاد إلى منزله ، وخالجه إحساس كذلك الذى يملك الناظر من برج عال . تهاقت كل شىء فى باطنه ، واستولى عليه دوار بطنى ممرض . حيرة خرساء ، وأفكار تركض كالفيران ، وفزع مبهم ، وتوقع أشل ، ودهشة غريبة توشك أن تكون وحشية . وفى حلقه مرارة الدموع المحتبسة ، وعلى شفثيه بسمة فارغة مغتصبة . ثم دعاء ضارع بغير معنى ، لغير أحد ... آه ، ما أقسى وما أذل وما أفظع ! « إيرينا لا تريد أن ترانى » - كانت هذه هى الفكرة التى ظلت تدور فى رأسه . « هذا واضح . ولكن ما سببه ؟ ليت شعرى ماذا حدث فى تلك الحلقة المشنومة ؟ وكيف يمكن أن يتم هذا التحول فجأة ... فجأة هكذا ؟ » إن الناس يرون الموت يأتى دائماً فجأة ، ولكنهم لا يمكن أن يألّفوا مفاجآته ، بل يجدون هذه المفاجأة شيئاً لا يقبله العقل . « إنها لم تكتب إلى . لم تفسر لى شيئاً ! » .

وسمع لتفينوف صوتاً مرتفعاً يناديه بالقرب من أذنه : « جريجورى ميهالتش ! » فانتفض ، ورأى أمامه الخادم وفى يده ورقة . وتبين فيها خط إيرينا . وأحس قبل أن يفض الخاتم بالويل المحيق ، وثنى رأسه على صدره وحذب كتفيه كأنه يتقى الضربة النازلة .

ثم استجمع شجاعته أخيراً ، وفض الغلاف ، فوجد على قصاصة صغيرة من الورق هذه الأسطر :

« سامحنى يا جريجورى ميهالتش . لقد انتهى كل شىء بيننا . سأذهب لأعيش فى بطرسبرج . إننى شديدة التعاسة - ولكن المسألة كلها مقررة الآن . يبدو أن هذا هو القدر المكتوب على ... ولكن لا . أنا لا أريد أن أبرئ نفسى . لقد تحققت مخاوفى . سامحنى ، وانسنى . إننى غير جديرة بك . كن كريماً لا تحاول أن ترانى . « إيرينا » .

قرأ لتفينوف هذه الأسطر وتهاقت على الأريكة كأن أحداً صك صدره . وسقطت منه الورقة ، والتقطها وقراها مرة أخرى ، وتمتم : « فى بطرسبرج » ثم سقطت منه ثانية . وانتهى الأمر . بل قد هبط عليه شعور بالسلام . بل إنه سوى يديه المنطرحتين خلفه الوسادة التى تحت رأسه . وقال فى نفسه : « من يطعن طعنة الموت لا يترنح . كما جاءت ذهبت . كل هذا طبيعى . لقد كنت أتوقعه دائماً (كان يكذب على نفسه ، فإنه لم يتوقع قط شيئاً كهذا .) تبكى ؟ .. ! هى كانت تبكى ؟ .. علام ؟ إنها لم تكن تحبنى ! ولكن هذا كله مفهوم ، متفق مع شخصيتها ... هى - هى غير جديرة بى ...

أجل أجل (وضحك بمرارة) إنها لم تكن تعلم القوة الكامنة فى نفسها ، ولكنها تبينت تأثيرها فى الحفلة ، فهل يعقل أن تبقى مع طالب متواضع ؟ .. كل هذا طبيعى . ، ولكنه لم يلبث أن تذكر ألقاظها الرقيقة ، وتلك البسمة وتلك العينين ، العينين اللتين لن ينساهما ، العينين اللتين لن يراهما أبداً ، العينين اللتين كانتا تسطعان وتنوبان كلما قابلتا عينيه ! وتذكر قبلة واحدة سريعة وجلة مشتعلة ... وإذا هو ينتحب ، ينتحب انتحاباً متشنجاً عنيفاً حانقاً . ثم انقلب على وجهه يكاد يخنقه انفعاله المجنون ، كأنه يود لو يمزق نفسه وكل ما حوله إرباً ، ودس وجهه المحرور فى وسادة الأريكة وراح يعضها بأسنانه .

يا حسرتاه ! إن السيد الذى رآه لتفينوف بالأمس فى العربية لم يكن إلا قريب الأميرة أوزينين ، أمين القصر الكونت ريزنباخ . فإن الكونت لما رأى الإعجاب العظيم الذى أثارته إيرينا فى شخصيات عليا ، فكر لساعته فى المزايا التى يمكن الظفر بها من ذلك^(١) mit etwas akkuratessse . وكان رجلاً سريع التصرف يعرف من أين تؤكل الكتف ، فوضع خطته من فوره ، وصمم على أن يعمل عملاً نابليونياً خاطفاً ، قال لنفسه : « سأخذ هذه الفتاة النادرة إلى منزلى فى بترسبرج ، يا للشيطان ! سأجعلها وريثتى ، بل وريثتى الوحيدة ، فليس لى ولد . إنها قريبتى وقرينتى الكونتة تعيش فى وحدة مملة ... الأفضل على كل حال أن يكون فى صالون المرء وجه جميل . نعم ، نعم ... هذا هو الصواب !^(٢) Est ist eine Idee, Est ist eine Idee . المهم أن ينبهر الأبوان ويذهلان فيسلما أمرهما . وتابع الكونت تفكيره وهو فى العربية فى طريقه إلى ساحة الكلاب . « إنهما يعيشان عيش الكفاف ، وما أظنهما يتشددان . ثم إنهما من طراز لا يمتاز بحنانه المفرط . ويمكننى أن أعطيهم فى الصفقة مقداراً من المال . وهى ؟ أنها ستوافق . الشهد حلو . وقد ذقت طعمه فى الليلة الماضية . لعلها نزوة منى ، فليستغلوها ... هؤلاء الحمقى ! سأدخل عليهم من كل باب ... ويجب أن يقرروا ، وإلا فإنى أتبنى فتاة أخرى - يتيمة ، لعل هذا أفضل . نعم أو لا . ولكم أربع وعشرون ساعة لتفكروا ،^(٣) und damit Punctum

وقابل الكونت الأمير وهذه الكلمات نفسها على شفثيه ، وكان قد أعلمه بزيارته فى الليلة الماضية أثناء الحفلة . ونحن فى غنى عن إطالة القول فى نتائج هذه الزيارة .

(١) « بشىء من المهارة » - بالألمانية .

(٢) « إنها فكرة ! فكرة ! » .

(٣) « ولا كلام بعد ذلك »

فإن الكونت لم يكن مخطئاً في تنبؤاته ، وقد كان الأمير والأميرة حقاً غير عنيدين ، وقبلأ مبلغاً من المال ، ووافقت إيرينا قبل أن تنتهي الأربع والعشرون ساعة . ولم يكن يسيراً عليها أن تقطع ما بينها وبين لتفينوف ، فقد كانت تحبه ، وبعد أن أرسلت إليه كلمتها كادت تمرض ، ولزمت فراشها معظم الوقت وظلت تبكى ، ونحلت وشحبت . ورغم هذا كله فقد رافقتها الأميرة بعد شهر إلى بطرسبرج ، واستودعتها منزل الكونت، وولكتها إلى عناية الكونتة ، وهى امرأة فى غاية الطيبة ، ولكن لها مخ دجاجة ، وشكل دجاجة أيضاً .

وانقطع لتفينوف عن الجامعة . وعاد إلى أبيه فى الريف . وأخذ جرحه يندمل رويداً رويداً . ولم تكن تصل إليه أنباء عن إيرينا فى أول الأمر ، وكان فى الحقيقة يتحاشى كل حديث عن بطرسبرج ومجتمع بطرسبرج . ثم أخذت تنتشر حولها الإشاعات - إشاعات لا نقول إنها فاضحة ولكنها غريبة على كل حال ، واشتغلت الألسن بالحديث عنها ، وأخذ اسم الأميرة أوزينين الشابة يتردد بكثرة متزايدة حتى فى مجتمعات الأقاليم ، حيث كان ينطق فى شغف واحترام وحسد ، وقد أحاطت به هالة غريبة من المجد ، كما كان اسم الأميرة فوروتنسكى فى يوم من الأيام . وأخيراً جاء نبأ زواجها . ولكن لتفينوف لم يكد يهتم بهذا النبأ الأخير ، إذ كانت خطبته لتاتيانا قد تمت .

والآن يستطيع القارئ بلا شك أن يفهم بسهولة وعلى وجه الدقة ما تذكره لتفينوف حين صاح : « أيمكن أن تكون هى ؟ » .

إلى بادن إذن لنصل ما انقطع من قصتنا !

نام لتفينوف متأخراً ، ولم تطل نومته ، فحين استيقظ كانت الشمس قد أشرقت ولا تكد ، وكانت قمم الجبال السود التى تبدو من نوافذ حجرته ترتسم وردية باهتة على صفحة السماء الصافية . فقال فى نفسه : « لا شك أن الجو لطيف هناك تحت الأشجار . » ولبس على عجل ، ونظر بلا اهتمام إلى الطاقة التى ازدادت تفتحاً أثناء الليل ، ثم تناول عصا وبدأ السير قاصداً إلى « القلعة القديمة » على « الجبال » الشهيرة . واحتواه الصباح فى أحضانه اللطيفة المنشطة . وتنفس أنفاساً طويلة ، وأخذ يخطو بحماسة ، وكل عرق من عروقه يتنزى بقوة الشباب ، وكأن الأرض نفسها تميد تحت خطواته الخفيفة . وكانت كل خطوة تزيده مرحاً وسعادة وسار فى الظل المطلول على حصباء الدروب الصغيرة ، بجانب أشجار الشربين التى زهت أطراف أغصانها ببراعم الربيع الناشئة . وظل يكرر لنفسه : « ما أبدع وما أروع ! » وفجأة سمع نبرات مألوفة ونظر أمامه فرأى فوروشيلوف وبمبايف قادمين نحوه . فأنزعجه مرأهما ، وابتعد مسرعاً كتلميذ صغير يتحاشى رؤية معلمه ، واختبأ خلف شجيرة ... ودعا فى سره : « اللهم برحمتك أبعد عني بنى وطنى ! » وهان عليه أن يدفع أى مقدار من المال ولا يرياه ... وكان الله رحيماً به فمر مواطناه دون أن ينتبها إليه . وكان فوروشيلوف يحاضر بمبايف بصوته الصبيانى المعجب بنفسه عن « الأطوار » المختلفة لفن العمارة القوطية ، وبمبايف يكتفى بأن يزمجر مستحسناً ، وكان واضحاً أن فوروشيلوف قد أمتعته طويلاً بالحديث عن هذه الأطوار ، حتى بدأ المتحمس الطيب القلب يشعر بالملل . وأنصت لتفينوف برهة طويلة إلى وقع خطاهما المبتعدة ، وقد زم شفتيه ومد عنقه . وظلت الأنغام الحلقية والأنفية من محاضرة فوروشيلوف تصل إلى أذنيه مدة ، ولكن السكون عاد فشمل كل شيء . وتنهذ لتفينوف مرتاحاً ، وغادر مخبأه ، وواصل المشى . وظل يتجول بين الجبال ثلاث ساعات . وكان يبتعد عن الدرب أحياناً ويثب من صخرة إلى صخرة ، منزلقاً بين الحين والحين على الطحلب الناعم ، أو يجلس على نتوء من الجبل تحت سنديانة أو زانة ، ويسبح فى خيالات لذيذة ، على خيرير الجداول التى حنا عليها نبات السرخس ، وحفيف الأوراق اللطيف ، وأنغام ضحلة يهتف بها شحرور وحيد . وأخذ يتسلل إليه نعاس خفيف لذيذ ، وكأنه يقترب منه ملاطفاً ، ثم غلبه النوم ... ولكنه ابتسم فجأة ونظر حواليه ، فداعب عينيه ذهب الغابة وخضرتها ، وأوراق الشجر المتحركة ، فأغمضهما ثانية وهو لا يزال يبتسم . وأخيراً

شعر بالرغبة فى الإفطار ، فقصد إلى القلعة القديمة حيث يستطيع ببضع «كرويتزرات» أن يحصل على كوب من اللبن الجيد والقهوة . ولكنه لم يكد يستقر على إحدى الموائد البيضاء الصغيرة فى الشرفة أمام القلعة حتى سمع وقع حوافر جيار ، أقبلت ثلاث عربات مكشوفة ، نزلت منها جماعة كبيرة من السيدات والسادة .. وعرف لتفينوف الحال أنهم روس ، وإن كانوا كلهم يتكلمون الفرنسية ... بل لأنهم كانوا كلهم يتكلمون الفرنسية . وكانت ملابس السيدات تمتاز بأناقة مسرفة ، أما السادة فكانوا يلبسون سترات محبوكة مخصرة غير مألوفة فى هذه الأيام ، وسراويل رمادية منقطة ، وقبعات مدنية صقيلة . وكان رباط عنق أسود منخفض يقبض بشدة على عنق كل واحد من هؤلاء السادة ، وشئ عسكرى يبدو فى هيئتهم وتصرفاتهم كلها . والحقيقة أنهم كانوا رجالاً عسكريين . لقد التقى لتفينوف بصحبة من الجنرالات الشبان نوى المكانة العالية فى المجتمع ، والنفوذ البارز فى الحكومة . وكانت أهميتهم تنجلي فى كل شئ . فى مرحهم المتحفظ ، وتهافتهم الساحر ، ونظراتهم الشاردة المتكلفة واهتزازات أكتفاهم الصغيرة المختثة ، وطريقتهم فى تحديق أجسامهم وثنى ركبهم . وكانت تنجلي فى نبرات أصواتهم نفسها ، فكأنهم يشكرون فى تطف متكلف جمهوراً ذليلاً من الناس . كان هؤلاء المحاربون كلهم ملمعين محققين مضمخين بعطر النبلاء والحرس الأصيل - وهو مزيج من دخان أفخر أنواع السيجار وأجمل عطور الباتشولى . وكلهم كانت لهم أيدي النبلاء أيضاً - أيد بيضاء كبيرة ، ذات أظافر صلبة كالعاج ، وكلهم كان لهم شوارب مصقولة ، وأسنان لامعة ، وبشرات رقيقة ، وردية على الخدود ، زرقاوية على الذقون . وكان بعض الجنرالات الشبان ممراحاً ، وبعضهم جاداً ، ولكن ظابع الأدب العالى كان مرتسماً عليهم جميعاً . كان كل واحد كأنما هو شاعر شعوراً عميقاً بكرامة شخصه ، وبأهمية الدور الذى سيلعبه فى الحكومة فى المستقبل ، وكان يمازج هذا الإيمان شئ من النزق والاستهتار اللذين يتعودهما المرء بالضرورة خلال تجواله فى بلاد أجنبية . وبعد أن جلسوا بكثير من الضوضاء والأبهة نابوا النذل الذين بادروا إلى تلبية أوامرهم . وأفرغ لتفينوف كوب لبنه ، ودفع ثمنه ، ولبس قبعته ، وبينما كان ماراً بجماعة الجنرالات سمع صوت امرأة تناديه :

- جريجورى ميهالتش ... ألا تعرفنى ؟

فوقف بلا وعى . ذلك الصوت ... ذلك الصوت كثيراً جداً ما خفق له قلبه فى الأيام الخالية ... والتفت حوله ورأى إيرينا . كانت جالسة إلى مائدة ، معتمدة يديها على ظهر كرسي قد قربته منها ، تنتظر إليه وهى تبتسم ورأسها مائل إلى ناحيته .. نظرات فيها حنان يكاد يكون فرحاً بلاقائه .

عرفها لتفينوف من أول نظرة ، وإن كانت تغيرت منذ رآها للمرة الأخيرة قبل عشر سنين ، واستحالت من فتاة إلى امرأة . كان قوامها النحيل قد امتلأ وتفتح ، وكتفها اللتان كانتا ضيقتين تذكرانك الآن بصور الآلهات على سقوف القصور الإيطالية القديمة . ولكن عينيها بقيتا كسابق عهده بهما .. وخيل إلى لتفينوف أنهما تنظران إليه تماماً كما كانتا تنظران قديماً في ذلك المنزل الصغير في موسكو .

قال في تردد :

– إيرينا بافلوفنا ...

– هل عرفتني ؟ ما أسعدني ! ما أسعدني ! ..

وصمتت فجأة ، واحمر وجهها قليلاً ، واعتذلت في جلستها واستمرت تقول ، ولكن بالفرنسية :

– إننى سعيدة بلقائك . دعنى أقدمك إلى زوجى . فاليريان ! هذا هو السيد لتفينوف ، صديق من أصدقاء الطفولة . فاليريان فلاديميروفتش راتميروف ، زوجى .

ونفض أحد الجنرالات الشبان من مقعده – ولعله كان أشدهم تأثقاً – وانحنى للتفينوف بأدب بالغ ، بينما زوى بقية رفاقه حواجبهم ، أو بالأحرى انكمش كل واحد منهم لحظة في نفسه ، وكأنه يحتج مقدماً على أى اتصال بمدنى غريب . ورأت السيدات الأخريات المشتركات في النزهة أن يخزنن عيونهن قليلاً ويبتسمن ببلاهة ، بل يتكلفن مظاهر الحيرة والدهشة .

سأل الجنرال راتميروف وهو يتقصع بحركات غير روسية مطلقاً – وكان بينا أنه لم يدر فيم يتحدث مع صديق طفولة زوجته :

– أ ... أنت في بادن من زمن طويل ؟

فأجابه لتفينوف :

– لا ، ليس من زمن طويل .

فاستمر الجنرال المذهب سائلاً :

– وهل تنوى البقاء طويلاً ؟

– لم أفكر في الأمر بعد .

– آه ! جميل . جميل جداً ...

وسكت الجنرال . ولم يجد لتفينوف هو الآخر ما يقوله . وكان كلاهما ممسكاً قبعته في يده ، منحنيّاً إلى الأمام بابتسامة ، يحدق في قمة رأس صاحبه .

وبدأ أحد الجنرالات ينددن – بتغم مضطرب طبعاً ، ولم ترق قط نبيلاً روسياً إلا ينددن بتغم مضطرب :

(١) « I say, Velerien, give me som fire »

وكان أرمد العينين أصفر الوجه ، ينم تعبير وجهه عن حنق دائم ، كأنه لا يستطيع أن يغتفر لنفسه سوء منظره . وكان ممتازاً عن رفاقه جميعاً بأن بشرته لا تشبه الوردية.

وأخيراً قالت إيرينا :

– لماذا لا تجلس يا جريجورى ميهالتش ؟

فأطاع لتفينوف وجلس .

وقال جنرال آخر بالإنجليزية (٢) « I say, Velerien, give me som fire » وكان هذا الجنرال صغير السن أيضاً ، وإن ظهرت عليه البدانة قبل الأوان ، وكانت عيناه ثابتتين كأنهما تحمقان في الهواء ، وعارضاه غزيرين ناعمين كالحرير يدس فيهما ببطء أصابعه الناصعة البياض .

وأعطاه راتميروف علبة كبريت فضية .

وسألت إحدى السيدات :

– Avez vous des papiros ?

وكانت تلتغ الرائ كالنطق الباريسى .

– (٣) « Des vrais papelitos, contesse »

وبدندن الجنرال الأرمد العينين مرة أخرى بغيظ شديد :

Deux gendarmes un beau dimanche

(١) « كان شرطيان ذات يوم أحد » .

(٢) « بالله يا فاليريان أعطني شعلة » – وتلاحظ ركافة العبارة الإنجليزية .

(٣) سوء تفاهم حول اسم نوع الكبريت أو اللفائف لا تمكن ترجمته .

وكانت إيرينا تقول للتقينوف فى الوقت نفسه :

- يجب أن تأتى لتزورنا ، نحن نقيم فى فندق أوربا . وأنا فى المنزل دائماً من الساعة الرابعة إلى السادسة . إننا لم نتقابل من زمن طويل .

ونظر لتقينوف إلى إيرينا ، قلم تغض بصرها .

- أجل يا إيرينا بافلوفنا . إنه لزمن طويل ، مذ كنا فى موسكو .

فردت باختصار :

- فى موسكو . نعم ، فى موسكو . تعال . سنتكلم ونتذاكر الأيام الخالية ، أتدرى يا جريجورى ميهالتش أنك لم تتغير كثيراً ؟

- حقاً ؟ ولكنك أنت تغيرت يا إيرينا بافلوفنا .

- لقد كبرت .

- لا ، لم أعن هذا .

- « إيرين ؟ » نادتها سيدة ذات قبعة صفراء وشعر أصفر ، بعد أن مهدت لذلك بهمس وضحك مع الضابط الجالس بجانبها . وكان فى صوتها نبرة الاستفهام .

- إيرين ؟

ومضت إيرينا تقول بغير أن تجيب السيدة :

- إننى أكبر مما كنت ، ولكنى لم أتغير . لا ، إنى لم أتغير فى شىء .

- « Deux gendarmes un beau dimanche »

سمع اللحن مرة أخرى . وكان الجنرال الضيق الصدر لا يذكر غير السطر الأول من الأغنية المشهورة .

« إنها لا تزال تخز قليلاً يا صاحب السعادة . » قالها الجنرال السمين نو العارضين ، فى نبرات عالية ممطولة ، مستعيداً - على ما يظهر - عبارة من قصة مسلية ، معروفة فى « المجتمع الراقى » بأسره . ثم ضحك ضحكة قصيرة جافة وعاد يحدق فى الهواء من جديد . وضحك سائر الجماعة أيضاً . وقال راتميروف هامساً : « يالك من جرو حزين يا بوريس ! » وكان يتكلم بالإنجليزية ، ونطق اسم بوريس نفسه كأنه اسم انجليزى .

قالت السيدة ذات القبعة الصفراء مستفهمة للمرة الثالثة :

- إيرين ؟

فالتفت إليها إيرينا بحدة :

- (١) Eh bien ? quoi ? que me voulez-vous ?

فأجابات السيدة ، وهي تعبت بالحروف وتتغامز :

- (٢) Je vous le dirai plus tard.

وكانت تلك السيدة على قبحها لا تزال تتعابث وتتغامز . كانت تغامز الهواء ، كما قال عنها أحد الظرفاء .

وقطبت إيرينا جبينها وهزت كتفها بصبر نافذ . وصاحت إحدى السيدات بتلك النبرة المملوطة التي اختص بها أهل روسيا الكبرى ، والتي لا تكاد تطيقها الآن الفرنسية :

- (٣) Mais que fait donc monsieur Verdier? Pourquoi ne vient-il pas ?

فزفرت سيدة أخرى ، كان مسقط رأسها أرزاماس :

(٤) Ah wooi, ah wooi, M'sieur Verdier, M'sieur Verdier

وتدخل راتميروف في حديثهما قائلاً :

Tranquillisez-vous, mesdames, Monsieur Verdier ma promis de venir se mettre à vos pieds (٥)

- هي هي هي !

وحركت السيدات مراوحن .

(١) « حسناً ، ماذا ؟ ماذا تريد مني ؟ » .

(٢) « سأقول لك فيما بعد » .

(٣) « ترى ماذا يفعل مسيو فردييه ؟ لماذا لا يأتي ؟ » .

(٤) « آه نعم ، آه نعم ، مسيو فردييه ، مسيو فردييه » .

(٥) « صبراً يا سيداتي ، لقد وعدني مسيو فردييه بأن يأتي ليرتمي عند أقدامكن » .

وأحضر النادل بضعة أكواب من البيرة ، فسأل الجنرال ذو العارضين ، مصطنعاً صوتاً أجش :
Baierisch-Bier ? guten morgen ! (١) -

وسأل جنرال شاب جنرالاً آخر فى برود وتراخ :

- حسناً ، ألا يزال الكونت بافل هناك ؟

فأجابه الآخر بمثل ربوده :

- نعم . (٢) . Mais c'est provisoire . يقولون أن سرج سوف يحل محله .

فنفت الأول من بين أسنانه :

- آها !

ونفت الثانى :

- آه . نعم ..

وبدأ الجنرال الذى كان يدندن بالأغنية يقول :

- إنى لا أفهم ما الذى جرى لعقل بول ، لماذا يحاول تبرئة نفسه ، ويحتج بشتى الأسباب ؟ صحيح أنه كان قاسياً على التاجر (٣) Li lui a fait rendre gorge ولكن أى بأس فى ذلك ؟ لعل له بواقعه الخاصة .

فتمتم واحد منهم :

- لقد خاف ... أن تتحدث عنه الصحف .

فاحتد الجنرال الحق :

- لم يبق إلا هذا ! الصحف ! تتحدث عنه ! لو كان الأمر بيدى لما تركت شيئاً يطبع فى هذه الصحف إلا الضرائب على اللحم والخبز ، والإعلانات عن بيع الفراء والأحذية .

(١) « بيرة بافاريا ! صباح الخير ! » (بالألمانية) .

(٢) « لكن هذا مؤقت » .

(٣) « وطفحة النمل » .

فأضاف راتميروف :

– وممتلكات النبلاء المعروضة في المزاد .

– نعم ، ربما ، في هذه الأوقات .. ولكن هذا ليس موضوعاً نتكلم فيه في بادن ،
(١) au vieux château

فأجابت السيدة ذات القبعة الصفراء :

Jadore les questions Politiques أنتى Mais pas du Pas du tout ! –
tons politiques

وزاد جنرال آخر نوجه طلق أشبه بوجوه الفتيات :

– (٢) Madame a raison . لماذا نتجنب هذه الموضوعات ... وإن كنا في
بادن؟ (ونظر إلى لتفينوف متلفظاً وابتسم في تسامح ، إن الرجل الشريف يجب ألا
ينكر معتقداته مهما تكن الظروف . ألا ترى ذلك ؟

فأجاب الجنرال الحنق ، وهو يرمى لتفينوف بنظرة ، وكأ أنه يهاجمه من طريق
خفى :

– طبعاً . ولكنى لا أجد ضرورة ...

فقاطعه الجنرال المتسامح بتلك الرقة عينها :

– لا لا . إن صديقك فاليريان فلاديميروفتش قد أشار منذ برهة إلى بيع ضياع
النبلاء . أليست هذه حقيقة واقعة ؟

فصاح الجنرال الحنق :

– ولكنها لا تباع في هذه الأيام . فلا أحد يرغب فيها !

– ربما ... ربما . هذا أدعى إلى أن نقرر الحقيقة – المحزنة – في كل مناسبة .
إننا نفتقر ، نعم ، وتضيع هيبتنا ، هذا لا شك فيه ، ولكننا ، نحن الملاك الكبار . نمثل
مبدأ : un principe وواجبنا هو أن نحافظ على هذا المبدأ . Pardon, Madame

(١) «أبدأ أبداً . إنتى أعبد الموضوعات السياسية» .

(٢) «السيدة على حق» .

أظن أن منديك وقع . عندما تشتبه الأمور على أكبر العقول يجب علينا - بوصفنا مواطنين - أن نشير في تواضع إلى الهاوية التي ينحدر إليها كل شيء (وأشار الجنرال بأصبعه) . يجب أن نقول في أدب وحزم : « ارجعوا ، ارجعوا ... » هذا ما يجب أن نقوله .

فقال لتفينوف ساهماً :

- ولكنك تعلم أن الرجوع مستحيل .

فلم يزد الجنرال المتسامح على أن أبتسم وقال :

الرجوع ، الرجوع ، (١) mon très cher وكلما رجعنا وجدناه خيراً .

ونظر الجنرال مرة أخرى إلى لتفينوف متلطفاً . فنقد صبر لتفينوف .

- أترى سعادتك أن نتراجع حتى البويار السبعة ؟

- لم لا ؟ إننى أقول رأى بصراحة تامة . كل ما عمل يجب ، نعم ، يجب إلغاؤه .

- و ١٩ فبراير ؟ (٢)

- و ١٩ فبراير - كلما أمكن (٣). On est patriote ou on ne l'est pas.

.تسألوننى : « والحرية ؟ » ولكن هل تظنون أن الشعب يقدر هذه الحرية ؟ سلوهم ...

فقاطعه لتفينوف :

- حاولوا إذن أن تنتزعوا تلك الحرية مرة أخرى !

فهمس الجنرال مخاطباً راتميروف :

Comment nommez-vous ce monsieur ? (٤)

وانطلق الجنرال السمين فجأة يقول :

(١) « يا عزيزى » .

(٢) صدر مرسوم تحرير الأرقاء فى ١٩ فبراير سنة ١٨٦١ .

(٣) « إما أن يكون المرء وطنياً أو لا يكون » .

(٤) « ما اسم هذا السيد ؟ » .

- فيم تتناقشون هنا ؟ - وكان جلياً أنه يمثل بين أصدقائه دور الطفل المدلل - أكل هذا عن الصحف ؟ عن الجرنالجية ؟ سأخبركم بحكاية لى مع كاتب صغير - لذيذ جداً . قيل لى أنه كتب يشهر بى . أمرت بشده حالاً . فشده . قلت له : « كيف حدث أنك شهرت بى ؟ هل حتمت عليك الوطنية هذا ؟ » قال : « نعم . » قلت له : « والنقود يا حضرة الجرنالجي ؟ هل تحبها ؟ » قال : « نعم . » عند ذلك يا سادتى الأعزاء وضعت مقبض عصاى تحت أنفه ، وقلت له : « وهل تحب هذا يا ملاكى ؟ » قال : « لا ، إنى لا أحب هذا . » قلت له : « شمه جيداً . إن يدي نظيفتان . » فما قدر إلا أنه كرر : « لا ، إنى لا أحبه . » قلت : « أما أنا فأحبه جداً يا عزيزى . ولكنى لا أحبه لنفسى . أتفهم هذا المثل يا كنزى ؟ » قال : « نعم . » قلت : « إذن فاعمل على أن تكون غلاماً طيباً فى المستقبل . والآن هاك رويلا فضياً جميلاً من أجلك . اذهب وسبح بحمدى أثناء الليل وأطراف النهار . » وهكذا ذهب الجرنالجي .

وانفجر الجنرال ضاحكاً . وحذا الباكون حذوه مرة أخرى ، إلا إيرينا فإنها لم تبتسم بل نظرت إلى المتكلم نظرة سوداء .

وضرب الجنرال المتسامح بيده كتف بوريس :

- هذا كله من خيالك يا صديقى العزيز ... أأنت تهدد أى إنسان بعصا ؟ بل أنت لا تحمل عصا (١). *est pour faire rire ces dames* إنما تريد أن تروى قصة مسلية. ولكن ليس هذا هو المهم . لقد قلت منذ برهة أننا يجب أن نرجع إلى الوراء تماماً . افهمنى . إئننى لست عدواً لما يسمى التقدم . ولكن كل هذه الجامعات والمعاهد والمدارس - كل هؤلاء الطلاب أبناء القسس والعوام ، كل هذا الفقس الصغير ، *se fond du sac, la petite propriété pire que la proletariat* (نطق الجنرال هذه العبارة بصوت متراخ يكاد يكون متهاكاً) (٢) *Voilà ce qui meffraie* . هنا يجب على المرء أن يقف ، ويضع حداً فاصلاً . (ونظر إلى لتفينوف مرة أخرى نظرة لطيفة .) نعم ، يجب أن نضع الحد الفاصل - تذكروا أننا لا نريد شيئاً . ليست لنا أى مطالب . الحكم الذاتى مثلاً - من يطلبه ؟ أتطلبه أنت ، أو أنت ، أو أنت ، أو أنتن ياسيداتى ؟ إنكن لا تحكمن أنفسكن فقط ، بل تحكمننا جميعاً أيضاً . (وأشرق وجه الجنرال بابتسامة رضا.) إذن لماذا نجامل يا أصدقائى الأعزاء ؟ إن الديمقراطية

(١) « إنما أردت أن تضحك السيدات » .

(٢) « كل هذه الحثالة : صفار الملاك الذين هم شر ممن لا يملكون - هذا ما يزعجنى » .

ترحب بكم ، إنها تتملقكم ، إنها مستعدة لتحقيق أهدافكم ... ولكنها سلاح ذو حدين .
خير من هذا أن نعود إلى طريقنا القديم ، طريقنا المجرب .. إنه أكثر أمناً . لا تتركوا
الغوغاء يجترئون عليكم ، بل ثقوا بالآرستقراطية ، ففيها وحدها القوة ... لا شك أن
هذا أفضل . أما التقدم .. فأنا لا أعارضه في الحقيقة بشرط ألا تعطونا محامين
ومحلفين وموظفين منتخبين .. بشرط ألا تمسوا النظام . النظام قبل كل شيء .
تستطيعون أن تبنوا الجسور ، والأرصقة ، والمستشفيات ، ولا بأس أيضاً بأن تضيقوا
الشوارع بالغاز ...

فتنحنح الجنرال الحق :

– إنهم يضرمون الحرائق في بطرسبرج من كل ناحية . هذا هو التقدم الذي
تحدث عنه !

وقال الجنرال السمين ، وهو يترجح في كرسيه ببلادة :

– أنت شديد المرارة . هذا واضح . يجب أن يجعلوك نائباً عاماً ، ولكنى أعتقد أن
Avec (Orphée aux enfers) le progrès a dit son dernier mot. (١)

فقلت السيدة التي من أرزاماس ضاحكة :

Vous dites toujours des bêtises. (٢)

فأظهر الجنرال الغضب :

Je ne suis plus serieux, madame, que quand je dis dee bêtises. (٣)

فقلت إيرينا بصوت خفيض :

– لقد قال السيد فردييه هذه العبارة نفسها عدة مرات من قبل .

وصاح الجنرال السمين :

De la poigne et des formes, de la poigne surtout. –

(١) التقدم قال كلمته الأخيرة عندما ظهرت « أورفي في الجحيم » (أوبرا هرابة للموسيقى الألماني
أوفنباخ – ١٨٥٨) .

(٢) « أنت دائماً تهزل » .

(٣) « أنا أكثر ما أكون جدياً يا سيدتي عندما أهزل » .

أو بالروسية : « كن مؤدياً لكن استعمل قبضتيك . »

فقاطعه الجنرال المتسامح :

.. أه . أنت شيطان ، شيطان خبيث . سيداتي ، لا تستمعن إليه . إن الكلب النابح لا يعرض : إنه لا يهتم بشيء سوى الغزل .

ويدأ راتميروف يقول ، بعد أن تبادل مع زوجته نظرة :

– أنت مخطيء يا بوريس . لا بأس بأن تكون ماجناً ، ولكنك تبالغ كثيراً . إن التقدم ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية ، وهذا ما لا يجب أن ننساه . إنه بادرة يجب علينا أن نراقبها .

فأجاب الجنرال السمين مجدداً أنفه :

– حسناً . نحن جميعاً نعلم أنك طامع في الوزارة .

– كلا ، مطلقاً ! تقول الوزارة ! ولكن المرء لا يسعه أن يغمر عينيه عن الحقيقة .

ودس بوريس أصابعه في عارضيه مرة أخرى ، وحدث في الهواء .

– .. الحياة الاجتماعية مهمة جداً . في تطور الشعب ، وفي مصائر البلاد إن صح التعبير ...

فقاطعه بوريس مؤنباً :

– (١) Valerien, il y a des dames ici. لم أكن أتوقع هذا منك . أم أنت تريد أن تصبح عضواً في لجنة ؟

فعلق الجنرال الحنق على ذلك قائلاً :

– ولكن هذه اللجان حلت كلها الآن والحمد لله .

وأخذ يندندن مرة أخرى :

Deux gendarmes un beau dimanche

(١) « فاليريان ، هنا سيدات ! » .

ورفع راتميروف من الكتان الكبرى الرقيق إلى أنفه وانسحب من المناقشة . واستمر الجنرال المتسامح يكرر : « شيطان ! شيطان ! » ولكن بوريس التفت إلى السيدة التي « تغامر الهواء » ، ويغير أن يخفض صوته أو يغير تعبير وجهه ، أخذ يلح عليها بالسؤال « متى تقدر إخلاصه » ، لأنه يحبها ، ويقاسى العذاب من جراء ذلك .

وفى أثناء هذا الحديث كان لتفينوف يزداد ضيقاً فى كل لحظة وثارت كبرياؤه ، كبرياؤه الشعبية النظيفة ، ثورة بالغة . فى أى شىء يشارك هو ، ابن الموظف البسيط ، أولئك الأرستقراطيين العسكريين من بطرسبرج ؟ إنه يحب كل ما يكرهون ، ويكره كل ما يحبون . وإن شعوره بذلك لقوى حاد ، يحسه فى كل جزء من كيانه . إنه يجد نكاتهم سمجة ، ونبراتهم ممجوجة ، وكل إشارة من إشاراتهم كاذبة مصطنعة . وحتى نعومة حديثهم كان يجد فيها نبرة احتقار تثير كراهيته . ولكنه كان كالخجل أمامهم ! أمام هذه المخلوقات ، هؤلاء الأعداء ! « أف ! يا للخرى ! إن وجودى يضايقهم . إنهم يروننى أضحوكة . » كانت هذه هى الفكرة التى ظلت تدور برأسه . لماذا أبقى ؟ فلاذهب ، فلأنج الآن ! « وما كان وجود إيرينا ليستبقيه ، فإنها هى أيضاً كانت تثير فيه انفعالات سوداوية . فنهض عن مقعده وبدأ يستأذن فى الانصراف . فقالت إيرينا :

– أذهب الآن ؟

ولكنها بعد قليل من التفكير لم تلح عليه فى البقاء ، بل انتزعت منه وعداً بأن يزورها . وودعه الجنرال راتميروف بتلفه البالغ ، وصافحه ورافقه إلى نهاية الشرفة .. ولكن لتفينوف لم يكد يعرج فى أول منحنى من منحنيات الطريق حتى سمع ضحكاً صاخباً خلفه . ولم يكن لهذا الضحك صلة به ، بل أثاره مقدم السيد فردييه المرتقب ، وقد ظهر فجأة على الشرفة ، لابساً قبعة تيروالية وجلباباً أزرق ، وراكباً حماراً . ولكن الدم اندفع إلى خدى لتفينوف اندفاعاً ، وأحس بمرارة فظيعة ، وانطبقت شفاته كأنه تجرع علقماً . وتمتم : « مخلوقات سافلة حقيرة » ، ولم يفكر أن الدقائق القليلة التى أمضاها فى صحبتهم غير كافية لأن يصدر عليهم مثل هذا الحكم القاسى . هذه هى الدنيا التى سقطت فيها إيرينا ! إيرينا التى كانت له فى يوم من الأيام ... فى هذه الدنيا كانت تتحرك ، وتعيش ، وتحكم . لأجلها ضحكت بكرامة نفسها ، وأنبل مشاعر قلبها ... هذا بلا ريب ما كان يجب أن يكون . لاشك أنها ما كانت تستحق مصيراً أفضل ! ما أسعده لأنها لم تسأله عما ينتويه ! لعله كان يفتح قلبه

«أمامهم» ، « فى محضرهم » ... وتمتم لتفينوف وهو يستشق أنفاساً عميقة من الهواء النقى ، ويهبط فى الطريق المنحدر إلى بادن يكاد يعدو : « لا يمكن ! أبداً ! أبداً ! » وفكر فى خطيبته .. فى تاتيانا الحلوة الطيبة النقية ، وفى طهرها ونبلها وصدقها ، فبأى حنان صادق تمثل ملامحها وكلماتها وعاداتها ، وبأى شوق تمنى عودتها !

وهذا المجهود السريع آثار أعصابه . فلما عاد إلى مسكنه جلس إلى منضدته وتناول كتاباً ، وفجأة تركه يسقط ، وقد أصابته رعدة ! ماذا جرى له ؟ لا شيء ، ولكن إيرينا ... إيرينا ... وعلى حين غرة بدا له لقاءه وإياها شيئاً مدهشاً ، غريباً - غير عادى . أهذا ممكن ؟ لقد رأى إيرينا نفسها ... لقد تحدث معها ... وكيف لم يجد فيه أثراً من تلك الدنيوية البغيضة التى كانت تتجلى فى كل أولئك الآخرين ؟ لماذا خيل إليه أنها كالضجرة أو كالحزينة أو كالساخطة على ما يحيط بها ؟ إنها فى معسكرهم ، ولكنها ليست يعدو . وماذا يجبرهم على أن تبش له وتدعوه لزيارتها ؟

وذعر لتفينوف ، وصاح بحرارة : « تانيا ! تانيا ! أنت وحدك ملاكى الحارس - ملاكى الطاهر ، إنى أحبك وسأحبك دائماً . وإن أذهب إليها ... سأنساها نسياناً .. ! فلتسل نفسها مع جنراتها ! » .

وعاد لتفينوف إلى كتابه .

تناول لتفينوف كتابه ثانية ، ولكنه لم يستطع أن يقرأ ، فغادر المنزل ، وسار قليلاً ، واستمع إلى الموسيقى ، وشاهد القمار ، وعاد مرة أخرى إلى غرفته ، وحاول أن يقرأ ، فلم يفلح في هذه المرة أيضاً . كان الزمن يمر متثاقلاً كثيباً . وجاء بشتشا لكن - قاضى التحكيم الطيب - وجلس ثلاث ساعات كاملة . وكان يتكلم ويجادل ، ويثير مسائل ، ويحاضر من حين إلى حين . وكانت محاضراته في موضوعات فكرية عالية أول الأمر ثم في موضوعات عملية بعد ذلك . وقد نجح في أن يشيع حوله جواً من الملل الفظيع ، حتى أن لتفينوف المسكين كاد يصرخ . كان بشتشا لكن لا يجارى في قدرته على أن يرفع الإملال - الإملال المؤلم المروع المونس - إلى فن جميل ، ولم يكن له نظير في ذلك حتى بين نوى الأخلاق الممتازة أنفسهم ، وهم أساتذة ذائع الصيت في هذا الباب . وكان مرأى رأسه المشذب يبعث في النفس قنوطاً لا فكاك منه ، ونبرات صوته الوثيدة الكسلانة كأنها لم تخلق إلا لتقرر في يقين وجلاء حقائق من طراز أن اثنين في اثنين تساوي أربعة لا خمسة أو ثلاثة ، وأن الماء سائل ، وأن العفو من شيم الكرام ، وأن نظام الائتمان ضروري في المعاملات المالية - ضروري للدولة كضرورته للأفراد ، وضروري للأفراد كضرورته للدولة . وكان على الرغم من هذا كله رجلاً من خيار الناس ! ولكن هذا هو ما حكمت به الأقدار على روسيا . أن خيار الناس أغبياء .

وأخيراً ذهب بشتشا لكن وجاء بنداسوف ، وسأل لتفينوف من فوره - بصفاقة غريبة - أن يقرضه مائة جلد . وأعطاه لتفينوف ما طلب ، مع أنه لم يكن يميل إلى بنداسوف ، بل كان يبغضه ويحتقره ، وكان واثقاً أنه لن يرى نقوده ثانياً ، وكان هو نفسه في حاجة إليها . وسوف يسأل القارئ : فما الذي جعله يعطيه النقود إذن ؟ الشيطان وحده يعلم ! فهذه ناحية قد برز فيها الروس أيضاً . وليضع القارئ يده على قلبه وليتذكر كم عملاً أتاه هو نفسه في حياته بلا سبب ما . لم يعن بنداسوف حتى بأن يشكر لتفينوف بل طلب كوباً من الافتتالر (نبيذ بادن الأحمر) ، وانصرف دون أن يمسح شفتيه ، وهو يدق الأرض بقدميه دقاً عالياً مثيراً . وما كان أشد سخط لتفينوف على نفسه وهو ينظر إلى قفا البلطجي الغليظ الأحمر وهو خارج !

وقبل المساء تلقى لتفينوف رسالة من تاتيانا تخبره فيها بأن عمتها مريضة ، وأنهما لا تستطيعان الحضور إلى بادن إلا بعد خمسة أيام أو ستة . وكان لهذا النبأ

أثر سىء فى نفس لتفينوف ، فزاد غيظه ، وأوى إلى سريريه مبكراً وهو ضيق الصدر . ولم يكن اليوم التالى خيراً من سابقه ، بل لعله كان شراً منه . فقد امتلات حجرة لتفينوف من الصباح الباكر بأبناء وطنه : بمبايف ، وفورشيلوف وبشتشالكن ، والضابطين ، والطالبين من هيدلبرج ، تكاثروا عليه جميعاً دفعة واحدة ، ولم ينصرفوا إلا وقت العشاء ، مع أنهم كانوا قد أفرغوا سريعاً ما عندهم من حديث وبدأ عليهم الملل .

والحقيقة أنهم كانوا لا يعلمون ماذا يصنعون بأنفسهم ، فلما وجدوا فى مسكن لتفينوف « لزقوا » فيه كما يقولون . تكلموا أولاً عن عودة جوباريوف إلى هيدلبرج ، وضرورة رحيلهم فى أثره . ثم تفلسفوا قليلاً ، وذكروا المسألة البولندية ، ثم عرجوا على القمار وبنات الهوى ، واستطردوا إلى نوادر فاحشة . وأخيراً هبطوا إلى حكايات « الدباغين » ونوى القوة المفرطة . فتذكروا أولاً كل ما كان يروى عن لوكيه ، وعن ذلك الشماس الذى التهم فى رهان أكثر من ثلاث وثلاثين « رنجة » ، وعن الأولانى أزيدينوف المشهور بفراط بدانته ، وعن ذلك الضابط الذى كسر عظمة ساق على جبهته . ثم تلا ذلك كذب صراح . فروى بشتشالكن نفسه وهو يتثأب أنه عرف امرأة فلاحه فى روسيا الصغرى ، وجد عند وفاتها أن وزنها أكثر من نصف طن ، وعينا أفطر بثلاث وزات وسمكة ضخمة . وتحمس بمبايف فجأة وأعلن أنه يستطيع أن يأكل شاة كاملة - بشرط أن تكون « متبلة » طبعاً . وانفجر فوروشيلوف يروى شيئاً عن رفيق له فى المدرسة شديد الأيد ، وكانت روايته مختلطة اختلاطاً ألزمهم الصمت ، وبعد برهة نظر بعضهم إلى بعض وتناولوا قبعاتهم وانصرفوا .

وحين فرغ لتفينوف لنفسه حاول أن يعمل ، ولكنه أحس كأن رأسه ملئ بأبخرة متكاثفة ، فلم يستطع أن يعمل شيئاً ، وضاعت منه الليلة كما ضاع النهار . وفى صبيحة اليوم التالى لم يكذب يتأهب لتناول فطوره حتى طرق بابه ، فقال لتفينوف فى نفسه : يا الله ! إنه واحد من أصدقاء الأمس أيضاً . ونطق بشيء من الوجمل :

Herein ! (١) .

فانفتح الباب ببطء ودخل بوتوجين . وسر لتفينوف برؤيته سروراً عظيماً ، وجعل يقول وهو يشد بحرارة على يد ضيفه غير المنتظر :

— أهلاً أهلاً ! لقد أحسنت صنعاً بمجيئك ، كنت أود أن أذهب إليك ، ولكنك لم تشأ أن تخبرنى بمثواك . تفضل بالجلوس . ضع قبعتك . اجلس .

(١) « انخل ! » (بالألمانية) .

ولم يجب بوتوجين على ترحاب لتفينوف الحار ، وظل واقفاً وسط الغرفة وهو يبذل ساقيه ، ولم يزد على أن ابتسم وهز رأسه ، وكان جلياً أن استقبال لتفينوف الحفى قد مس قلبه ، ولكن تعبير وجهه نم بشىء من الارتباك .

بدأ يقول فى تردد :

- هناك ...: سوء تفاهم بسيط . طبعاً .. يسرنى دائماً أن أراك . ولكن الحقيقة ...
أنى رسول إليك .

- أتعنى أنك ما كنت لتأتى إلى هنا من تلقاء نفسك ؟

- بلى ! ولكنى ... لا أظننى كنت أقدم على أن أتطفل عليك اليوم ، لولا أنى سئلت
المجىء إليك . أجل ، إنتى أحمل رسالة إليك .

- أستطيع أن أعلم مرسلها ؟

- شخص تعرفه . إنها من إيرينا بافلوفنا راتميروف . لقد وعدتها منذ ثلاثة أيام
أن تزورها ولم تفعل .

فحدق لتفينوف فى بوتوجين دهشاً :

- أتعرف مدام راتميروف ؟

- كما ترى .

- وتعرفها جيداً ؟

- يمكننى أن أقول إنى صديق لها .

وصمت لتفينوف برهة . وأخيراً قال :

- اسمح لى أن أسألك : هل تعلم لماذا تريد إيرينا بافلوفنا أن ترانى ؟

فمضى بوتوجين إلى النافذة :

- إلى حد ما . لقد سرت برويتك سروراً عظيماً على ما يبدو لى . وهى تريد أن
تجدد علاقتها القديمة بك .

فردد لتفينوف :

- تجدد ... معذرة إذا أثقلت عليك . ولكن اسمح لى أن أسألك سؤالاً آخر : أتعلم
أنت ماذا كانت طبيعة تلك العلاقة ؟

- لا ... لا أعلم فى الحقيقة .. وأضاف بوتوجين وهو يلتفت إلى لتفينوف فجأة وينظر إليه بعطف : ولكنى أظنها كانت علاقة وثيقة . لقد أثنت عليك إيرينا بافلوفنا ثناء عظيماً ، واضطرت أن أعدها بإحضارك . فهل تأتى ؟

- متى ؟

- الآن . حالياً .

فرع لتفينوف يديه دهشاً . وأضاف بوتوجين :

- إن إيرينا بافلوفنا تظن أن الـ ... لا أرى ماذا أقول ... إن الملابس التى صادفتها فيها أول أمس ما كانت تسر كثيراً . ولكنها كلفتنى : إن أقول لك إن الشيطان ليس حالك السواد كما يصورونه .

- م - م ... أهذا القول عن الملابس ذاتها ؟

- نعم .. وعلى العموم أيضاً .

- م - م ... حسناً ، وما رأيك أنت فى الشيطان ياسوزونت إيفانتش ؟

- أظن يا جوريجورى ميهالتش أنه ليس كما يصورونه على أية حال .

- أهو خير مما يصورونه ؟

- لا أدرى إن كان خيراً أو شراً ، ولكنه مختلف . حسناً . هل نذهب ؟

- أرجو أن تجلس قليلاً أولاً . يجب أن أعترف بأن الأمر ما زال يبدو غريباً .

- أى غرابة ، إن جاز لى أن أسأل ؟

- كيف أمكن أن تصبح صديقاً لإيرينا بافلوفنا ؟

فأخذ بوتوجين يفحص نفسه بنظرة . ثم قال :

- حقاً إن الأمر يبدو بعيد التصديق بالنسبة إلى منظرى ومنزلتى فى المجتمع ولكنك تعلم أن شكسبير قال : إن فى السماء والأرض ياهوراشيو ... إلخ . ليست الحياة سهلة . وإليك هذا المثل : هذه شجرة قائمة أمامك والريح ساكنة ، فكيف تتلقى ورقة من غصن منحط مع ورقة من غصن عال ؟ هذا محال . ولكن العاصفة تهب ، فيتغير كل شيء ، وتتلقى الورقتان .

– أليه ؟ إذن فقد كانت ثمة عواصف ؟

– كيف لا ؟ هل تمر الحياة بغير عواصف ؟ ولكن كفانا فلسفة فقد آن أن نذهب .

وكان لتفينوف لا يزال متردداً ، فصاح بوتوجين وقد جعد وجهه ليثير الضحك :

– يا الله ! ماذا جرى للشبان فى هذه الأيام ؟ سيدة رائعة الجمال تدعوهم إلى زيارتها ، وتبعث إليهم الرسل ، وهم يتهيّبون ويترددون ! يجب أن تخجل يا سيدى العزيز . يجب أن تخجل . هذه قبعتك . خذها و « إلى الامام » كما يقول أصدقائنا الألمان المتحمسون !

وطال تردد لتفينوف برهة أخرى ولكنه تناول قبعته أخيراً وخرج من الحجرة مع بوتوجين .

ذهبا إلى أحد الفنادق الكبرى في يادن وسأل عن مدام راتميروف . وسألها الحارس أولاً عن اسميهما ، ثم أجاب على الفور أن « الأميرة بالمنزل » ، وصعد هو نفسه الدرج معهما ، وطرق باب المسكن ، وأنبأ بحضورهما ، فخفت الأميرة إلى استقباليهما . وكانت متفردة ، فقد سافر زوجها إلى كارلسروهة ليقابل شخصية رسمية كبيرة كان ماراً بتلك المدينة .

وكانت إيرينا جالسة إلى منضدة صغيرة تطرز حين عبر بوتوجين ولتفينوف عتبة الباب . فألقت بسرعة ما كانت تطرزها ، وأزاحت المنضدة الصغيرة ونهضت وقد غمر وجهها سرور صادق . وكانت تلبس رداء صباحياً مرتفعاً عند العنق ، يشف نسيجه الرقيق عن تعاريج كتفيها وذراعيها . . وكان شعرها المعقوص بغير اعتناء قد تهدل على جيدها النحيل . ورمقت إيرينا بوتوجين بنظرة سريعة وتمتمت : Merci ، ومدت يدها إلى لتفينوف وهي تؤنبه برقة على نسيانه .

وأضافت :

- وأنت صديق قديم !

وبدا لتفينوف يعتذر . فأسرعت تقول C'est bien, c'est bien (١) وأخذت منه قبعبته وألحت عليه بلطف حتى جلس . وكان بوتوجين قد جلس أيضاً . ولكنه نهض مسرعاً ، واستأذن في الذهاب قائلاً أنه على موعد لا يستطيع تأجيله وأنه سيأتي ثانية بعد الغداء . ورمقته إيرينا مرة أخرى بنظرة سريعة ، وأومأت إليه برقة ، ولكنها لم تحاول أن تستيقه وما كاد يختفي خلف ستر الباب حتى ألتفتت بتلهف نحو لتفينوف ، وقالت : بالروسية في صوتها الموسيقي الرقيق :

- ها قد أصبحنا وحيدين أخيراً . وأستطيع أن أقول لك كم أنا مسرورة برؤيتك . لأنها ... لأنها تمنحني فرصة ... (وثبتت إيرينا عينيها بغير اضطراب) لأن أسالك المغفرة . واجفل لتفينوف على الرغم منه . أنه ما كان يتوقع مثل هذا الهجوم السريع ما كان يتوقع أن تدير هي نفسها الحديث على الأيام الخالية . فتمتم :

- المغفرة ... عمه ؟

(١) « حسن ، حسن » .

فاحمر وجه إيرينا . وقالت :

- عمه ؟ أنت تدري عمه - وأشاحت بوجهها قليلاً - لقد أسأت إليك يا جريجورى ميهالتش ، وإن كان ذلك قدراً كتب على (وتذكر لتفينوف رسالتها) ولست أسفة على شيء ... وعلى كل حال فقد فات أوان الأسف . ولكنى حين التقيت بك ذلك اللقاء المفاجيء ، قلت لأنفسى أننا يجب أن نصبح صديقين ، لا بد من ذلك ... وسوف أتألم كثيراً إن لم يتم ... ويبدو لى أن أول ما يجب هو أن تفسر مافات ، ولا تؤجل ذلك ولا تترك شيئاً لما بعد ، حتى لا يكون هناك أى ... gêne ... أى ارتباك ... يجب أن نفرغ من ذلك سريعاً يا جريجورى ميهالتش ، ويجب أن تقول أنك عفوت عنى ، وإلا خلعتك تحس ... de la rancune Voila (١) . لعله غرور منى ، ولعلك نسيت كل شيء منذ زمن طويل جداً ، ولكن لا بأس قل لى أنك عفوت عنى .

نطقت إيرينا بهذا الحديث كله دون أن تتوقف ، واستطاع لتفينوف أن يرى دموعاً تلمع فى عينيها ... أجل ، دموعاً . فأخذ يقول مسرعاً :

- كيف هذا يا إيرينا بافلوفنا ؟ كيف تسألينتى العفو والغفران ؟ إن كل هذا قد مضى وانقضى ، وإنى لا أملك إلا أن أدهش حين أراك - فى كل ما يحيط بك من مظاهر البذخ - مازلت تذكرين رفاق شبابك الخاملين ...

فقال إيرينا برقة :

- أيدمشك هذا ؟

فأضاف لتفينوف :

- إنه يهزنى . لأنى ما كنت أظن ...

فقاطعته إيرينا :

- ولكنك لم تقل لى أنك عفوت عنى ...

- إنى مسرور بسعادتك سروراً صادقاً يا إيرينا بافلوفنا . وإنى لأتمنى لك من صميم قلبى كل خير ...

- ولن تذكرنى بشر ؟

(١) بعض المودة . هذا هو ! .

- لن أذكر شيئاً إلا اللحظات السعيدة التى كنت مديناً لك بها فى وقت من الأوقات .

ومدت إيرينا إليه كلتا يديها ، فقبض عليهما بحرارة ، وأبقاهما بين يديه زمناً ... وكأنما تحرك فى قلبه لتلك الملامسة الرقيقة شىء لم يحس به منذ زمن طويل . وكانت إيرينا مثبتة عينيها على وجهه مرة أخرى ، ولكنها كانت تبتسم هذه المرة ... ونظر هو إليها للمرة الأولى نظرة طويلة فاحصة ... فعرف ثانية تلك القسمات التى كانت عزيزة عليه زمناً ، العينين العميقتين بأهدابهما الرائعة ، الشامة الصغيرة على خدها ، منبت شعرها العجيب على جبينها ، عاداتها فى عقد حاجبيها ولى شفتيها بطريقة فاتنة بديعة .. كل ذلك عرفه . ولكن أى جمال ! أى سحر أنثوى وأى حميا شباب فى جسمها الفتى ! ولا طلاء ولا مساحيق على الوجه النضر النقى ... نعم ، إن هذه امرأة جميلة . وغمرت لتفينوف موجة من التفكير ... ظل ينظر إليها ، ولكن أفكاره كانت بعيدة ... ولاحظت إيرينا ذلك ، فقالت بصوت مرتفع :

- حسناً . هذا جميل جداً . الآن استراح ضميرى . ويمكننى أن أَرْضَى تطلعى . فرد لتفينوف شبه حائر :

- تطلعك ؟

- أجل ، أجل . إنى أود قبل كل شىء أن أعرف ماذا كنت تعمل كل هذا الوقت ، وماذا تريد أن تعمل فى المستقبل ، أريد أن أعرف كل شىء . كيف وماذا ومتى ... كل شىء . وحذار أن تخفى عنى الحقيقة ، فإن أخبارك لم تنقطع عنى ... بقدر استطاعتي ...

- أخبارى لم تنقطع عنك . أنت .. هناك .. فى بطرسبرج ؟

- بين مظاهر البذخ التى تحيط بى ، كما قلت منذ برهة أجل ، إنها لم تنقطع عنى فى الحقيقة . أما ذلك البذخ فسوف نتحدث عنه فيما بعد ، ولكنك يجب أن تخبرنى الآن بكل ما عندك ، وأن تطيل ، ولا تختصر ، فلن يقطع أحد علينا حديثنا .

ثم أضافت إيرينا وهى تجلس فرحة مستروحة فوق كرسي كبير :

- ما أحلى هذا الحديث ! هات ما عندك !

فبدأ لتفينوف قائلاً :

- قبل أن أروى قصتي يجب أن أشكرك .

- علام ؟

- على طاقة الزهر التي وجدتتها فى غرفتى .

- أية طاقة ؟ إننى لا أعرف شيئاً عنها .

- ماذا ؟

- أقول لك : إننى لا أعرف شيئاً عنها ... ولكنى منتظرة ... منتظرة سماع قصتك ... ما أكرم بوتوجين إذ جاء بك إلى هنا !

وأرهم لتفينوف أذنيه . وسأل :

- هل عرفت هذا السيد بوتوجين منذ وقت طويل ؟

- أجل ، منذ وقت طويل ... ولكن أخبرنى بقصتك .

- وهل تعرفينه جيداً ؟

فقتهدت إيرينا وقالت :

- أجل ! لأسباب خاصة ... لقد سمعت بالطبع عن اليزابيلسكى .. التى ماتت منذ عامين تلك الميته المروعة ؟ .. آه ، كلا ، لقد نسيت أنك لست عالماً بكل فضائحنا ... هذه نعمة ! أوه ! quelle chance (١) أخيراً ، أخيراً ألتقى بإنسان ، بإنسان حقيقى لا يعلم شيئاً عنا ! وأتكم معه بالروسية ... ولو أنها روسية رديئة ، بدلاً من هذه الفرنسية البطرجية الكريهة الباهتة المملة !

- تقولين : إن بوتوجين كان على اتصال بـ ...

فقاطعته إيرينا قائلة :

- إن مجرد الإشارة إلى هذه القصة يؤلنى . لقد كانت اليزا صديقتى الحميمة فى المدرسة ، وكنا نتزاور دائماً بعد ذلك فى بطرسبرج . وكانت تفضى إلى بكل أسرارها ، فقد كانت شقية معذبة . وبوتوجين كان شهماً حقاً فى مسلكه نحو المسألة كلها . لقد ضحى بنفسه ، ولم أقدره إلا منذ ذلك الحين .

(١) « ياله من حظ سعيد ! » .

ولكننا ابتعدنا عن موضوعنا مرة أخرى . إننى منتظرة قصتك يا جريجورى
ميهالتش .

– ولكن قصتى لا تشوقك البتة يا إيرينا بافلوفنا .

– هذا لا يعنك .

– تذكرى يا إيرينا بافلوفنا أننا لم نتقابل منذ عشر سنوات . عشر سنوات كاملة.
ما أكثر ما فعل الزمن فى هذه السنوات العشر !

– ولهذا أريد أن أسمع حديثك .

– ثم إننى لا أدري من أين أبدأ .

– من البداية . منذ ... منذ رحلت إلى بطرسبرج . لقد غادرت أنت موسكو بعدئذ.
أتدري أنى لم أعد قط إلى موسكو منذ ذلك الحين ؟
– حقاً ؟

– كان ذلك مستحيلاً فى أول الأمر . ثم لما تزوجت ...

– هل تزوجت منذ زمن طويل ؟

– منذ أربع سنوات .

– أليس لك أبناء ؟

– فأجابت بخشونة :

– لا .

وصمت لتفينوف برهة .

– وهل مكثت عند ذلك ... الكونت ريزنباخ حتى تزوجت ؟ فنظرت إليه إيرينا نظرة
ثابتة ، كأنها تريد أن تعلم لماذا سأل هذا السؤال . وأخيراً أجابت :
– لا .

– أظن أبويك .. معذرة ، أنى لم أسأل عنهما . أهما ...

– إنهما كليهما بخير .

- ويعيشان فى موسكو كما مضى ؟

- ويعيشان فى موسكو كما مضى .

- وأخوتك وأخواتك ؟

- كلهم بخير . وأنا أراهم جميعاً .

فقال لتفینوف وهو يرمق إيرينا من طرف خفى :

- آه ؟ لست أنا الذى يجب أن أروى قصتى ، بل أنت . لو .. وارتبك فجأة وصمت . ورفعت إيرينا كفيها إلى وجهها وأخذت تدير خاتم الزواج فى أصبعها . وأخيراً قالت :

- حسناً . لن أرفض ذلك . ربما .. فى يوم من الأيام ... ولكن ابداً أنت ، فإننى لا أكاد أعلم شيئاً عنك ، مع أنى حاولت أن ألتبّع أخبارك . أما أنا فقد سمعت عنى كثيراً . أليس كذلك ؟

ألم تسمع عنى ؟

- إنك يا إيرينا بافلوفنا قد شغلت مكاناً ظاهراً فى المجتمع ، فهل كان يمكن ألا يتحدث الناس عنك . خصوصاً فى الريف ، حيث كنت أعيش ، وحيث كل شائعة تصدق ؟

- وهل تصدق الشائعات ؟ وما نوع هذه الشائعات ؟

- إن أردت الحقيقة يا إيرينا بافلوفنا فإن هذه الشائعات كانت نادراً ما تصلنى . لقد كنت أحيا فى عزلة تامة .

- كيف هذا ؟ ألم تكن فى القرم ؟ وفى الجيش ؟

- أتعلمين هذا أيضاً ؟

- كما ترى . لقد قلت لك أنك كنت مراقباً .

فأحس لتفینوف بالحيرة مرة أخرى . وقال هامساً :

- ولا أخبرك بما تعرفينه من قبل ؟

– لماذا ؟ لأننى أسألك . ألا ترى أنى أسألك هذا منك يا جريجورى ميهالتش ؟

فحنى لتفينوف رأسه ويدا ... بدأ يقص على إيرينا فى أسلوب مضطرب مجمل مغامراته التى لا تشوق . بل إنه كان كثيراً ما يقف وينظر إلى إيرينا مستقهماً ، كأنه يسأل هل اكتفت بما روى ، ولكنها ألحت عليه ليتم قصته ، وبدت وهى تنحى شعرها خلف أذنيها ، وتعتمد بمرفقيها على ذراع كرسيها ، كأنما هى تلتقط كل كلمة فى انتباه شديد . ولعلك لو نظرت إليها من جانب وتابعت تعبير وجهها لخل إليك أنها لا تسمع شيئاً مما يقوله لتفينوف ، ولكنها غارقة فى تأملها . بيد أنها لم تكن تتأمل لتفينوف ، وإن أطالت إليه النظر حتى اضطرب واحمر وجهه . لقد كانت تتمثل أمامها حياة بأسرها ، حياة مخالفة جد المخالفة لما كانت تسمع ، حياتها هى لا حياته .

لم يتم لتفينوف قصته ، بل قطعها وقد خامره إحساس بالضيق . ولم تقل له إيرينا شيئاً فى هذه المرة ، ولم تحثه على المضى فى قصته ، بل ضغطت راحتها على عينيها كأنما هى متعبة ، واضطجعت فى الكرسي ببطء ، وظلت بغير حراك . وانتظر لتفينوف قليلاً ، ثم تذكر أن زيارته قد دامت أكثر من ساعتين ، فمد يده يريد قبعته ، وإذا بصوت حذاء من جلد الماعز ينبعث من الحجرة المجاورة ، وقاليريان فلاديميروفتش راتميروف يدخل مسبقاً بعطره الأرستقراطى البديع .

ونفض لتفينوف ، وتبادل الانحناء مع الجنرال الوسيم ، بينما رفعت إيرينا يدها عن وجهها فى غير عجلة . وقالت بالفرنسية وهى تنظر إلى زوجها نظرة باردة :

– آه ، لقد عدت ! ولكن كم الساعة الآن ؟

فأجابها الجنرال :

– نحو الرابعة يا عزيزتى – وأنت لم تلبسى بعد . إن الأميرة تنتظرنا .

وحنى قوامه المحبوك نحو لتفينوف انحناءة رشيقة ، وقال بنبرته العابثة المتهاكمة التى تكاد تكون أنثوية :

– الظاهر أن ضيفك العزيز أنساك الوقت .

وليسمح لنا القارئ عند هذه النقطة أن نحدثه بشيء عن الجنرال راتميروف . لقد كان أبوه ابناً غير شرعى لشخصية ممتازة فى عصر ألكسندر الأول ، من ممثلة فرنسية صغيرة حلوة . وقد مهد ذلك الشخص الممتاز لابنه طريقاً فى الحياة ، ولكنه لم

يترك له مالا ، ولم يتسع الوقت للابن (والد بطلنا) حتى يجمع ثروة ، بل مات قبل أن يجاوز رتبة كولونيل فى البوليس . وكان قد تزوج قبل وفاته بعام أرملة شابة حسنة ، اتفق أن استظلت برعايته . وأدخلت « الواسطة » أبنهما فاليريان ألكسندرو فتش المدرسة الثانوية العسكرية ، وهناك لم يجتذب انتباه الرؤساء إليه بنجاحه فى العلوم ، بقدر ما أجتذبه بهندامه وأدابه وحسن سلوكه (وإن تعرض لكل ما لم ينبج منه تلاميذ المدارس الحربية فى تلك الأيام) . ثم عين فى الحرس . ووصل فيه إلى مركز ممتاز بفضل تودده المؤدب ، ومهارته فى الرقص ، وحسن جلسته على ظهر الجواد فى الاستعراضات (وكان غالباً يستعير الجواد الذى يركبه) وقبل هذا كله براعة خاصة فى رفع الكفة مع الرؤساء دون غض من أقدارهم ، ونوع من الملق اللطيف المذهب تمازجه مسحة من التحرر باهتة خفيفة كالهواء .. إلا أن هذا التحرر لم يمنعه من أن يجلد خمسين فلاحاً فى قرية من روسيا البيضاء بعث إليها ليخمد ثورة وكان جذاب المظهر ، زاهر الشباب ، مورد الخدين ، ناعماً خفيفاً لعباً ، فوق أعظم التوفيق مع النساء ، وجنت به السيدات الأرستقراطيات الناضجات . وكان الحذر له عادة ، والصمت ذريعة ، فراح يتنقل بين أرقى الأوساط كحلة نشيطة تجمع العسل حتى من أتفه الأزهار . وكان بلا خلق ولا علم ، ولكن كانت له شهرة رجل عملى ، وحاسة فى معرفة الناس ، ومقدرة على فهم الظروف ، وكان له قبل ذلك كله عزم لا يتزعزع على منفعة نفسه ، فتفتحت له الأبواب كلها آخر الأمر .

ابتسم لتفينوف ابتسامة مغتصبة ، بينما لم تزد إيرينا على أن هزت كتفها ، وقالت دون أن يزايلها برودها :

– حسناً ، هل رأيت الكونت ؟

– نعم رأيته . وقد أمرنى أن أبلغك تحيته .

– أه ! ألا يزال نصيرك هذا غيباً كما كان ؟

فلم يجب الجنرال راتميروف ، ولكنه ضحك ضحكة صغيرة من أنفه ، كأنه يتجاوز عما فى حكم امرأة من تسرع . كانت ضحكته هى تلك التى يجيب بها الكبار الطيبون على نزوات الأطفال . واستمرت إيرينا تقول :

– نعم ، إن غباء صديقك الكونت لشيء عجيب . وما أكثر ما رأيت من أعاجيب !

فتمتم الجنرال بين أسنانه :

- أنت التى أرسلتلى إليه .

التفت إلى لتفينوف وسأله بالروسية هل يعالج نفسه بمياه بادن ؟

فأجاب لتفينوف :

- إنى بصحة تامة والحمد لله .

فمضى الجنرال يقول وهو يبتسم ابتسامة تودد :

- هذه أعظم نعمة . الحق أن الناس لا يأتون إلى بادن عادة طلباً للمياه ، ولكن المياه هنا طيبة الأثر je veu dire efficace وكل من يعانى سعالاً عصبياً مثلى ...

فنهضت إيرينا مسرعة ، وقطعت بازدياء حديث زوجها قائلة بالفرنسية :

- نتقابل مرة أخرى يا جريجورى مهالتش ، وأرجو أن يكون ذلك قريباً ولكنى يجب أن أستعد للخروج الآن . إن تلك الأميرة لا تطاق بحفلاتها الدائمة التى لا تبعث إلا الملل .

فتمتم زوجها وهو يذلف إلى الحجرة المجاورة :

- أنت قاسية على كل إنسان اليوم .

وكان لتفينوف متجهاً إلى الباب ... فاستوقفته إيرينا قائلة :

- لقد أفضيت إلى بكل شيء ، ولكنك أخفيت عنى أهم شيء .

- وما ذاك ؟

- ألسنت خاطباً ؟ لقد سمعت ذلك .

فاحمر لتفينوف حتى أذنيه ... والحق أنه تعمد ألا يشير إلى تاتيانا ، ولكنه أحس بغضب شديد لأن إيرينا كانت عالمة بزواجه ، ثم لأنها اتهمته بالرغبة فى إخفاء الأمر عنها . ودار فيما يقول ، بينما لم ترفع إيرينا عينها عنه . وأخيراً قال :

- نعم ، إنى خاطب .

وانصرف على الفور .

وعاد راتميروف إلى الحجرة وسأل :

– حسناً . لماذا لم تلبسي ؟

– اذهب وحدك . إنني أحس صداعاً .

– ولكن الأميرة ...

فقاست إيرينا زوجها من رأسه إلى قدمه بنظرة واحدة ، وأولته ظهرها ، وذهبت إلى مخدعها .

سخط لتفينوف على نفسه سخطا شديدا ، كأنه خسر فى الروليت أو أخلف وعدا . قال له صوت فى باطنه أنه ما كان يجوز له ، وهو على عتبة الزواج ، وهو رجل رزين لا صبى حدث ، أن يخضع لنوازع التطلع أو إغراء الذكريات . قال فى نفسه : « ما كان أغنانى عن الذهاب ! الأمر من جانبها لا يعدو أن يكون نزوة طارئة . إنها ملول إنها ضجرة بكل شيء . لقد اشتاقت إلى كمن أتخمته أطايب الطعام فهو يتوق فجأة إلى الخبز الأسود ... حسنا ، إن هذا طبيعى جداً ... ولكن لماذا ذهبت إليها ؟ إننى لا أستطيع أن أحس نحوها شيئا .. سوى الاحتقار ! لم يستطع أن يفوه بهذه العبارة - حتى فى خياله - إلا بجهد ... وتابع أفكاره : ليس هناك أدنى خطورة بالطبع ، ولا يمكن أن تكون . إننى أعرف من أواجه ، غير أن المرء يجب ألا يلعب بالنار ... لن أضع قدمى فى منزلها ثانية . ولم يجرؤ لتفينوف أو لم يستطع حتى ذلك الحين أن يعترف لنفسه كم بدت له إيرينا جميلة ، وكم أحس أنه منجذب إليها .

ومضى اليوم مرة أخرى ثقيلًا كئيبيًا . واتفق أن جلس لتفينوف على الغداء بجانب رجل أنيق مصبوغ الشارب ، لم ينبس بكلمة ، بل ظل يلهث ويدير عينيه فى محجريهما . ثم أخذه الفواق فاذا هو روسى مثل لتفينوف ، فقد صاح بالروسية فى حرارة : « أه ! ما كان يجب لى أن أكل الشمام ! » ولم يحدث فى المساء أيضا ما يعوض اليوم المفقود . وربع بنداسوف ، أمام عيني لتفينوف ، أربعة أضعاف ما اقترضه منه ، لكنه - بدلا من أن يرد إليه دينه - حذق فى وجهه تحديقا فيه شيء من الوعيد ، كأنه مستعد لأن يقترض منه أكثر مما اقترض ، لا لشيء إلا لأنه رآه يربع . وفى اليوم التالى غزاه مرة أخرى جحفل من مواطنيه . وتخلص لتفينوف منهم بصعوبة ، وانطلق إلى الجبال .

التقى أولا بإيرينا ، فتجاهلها ومر بها مسرعا . ثم التقى ببوتوجين . وكان موشكا أن يبدأ بالحديث ، لولا أن بوتوجين لم ينشط لإجابته ، وكان ممسكا بيد طفلة أنيقة اللبس ، ذات خصل خفيفة ناعمة تكاد تكون بيضاء اللون ، وعينين سوداوين واسعتين ، ووجه صغير مدنف ، عليه طابع الإصرار ونفاد الصبر الذى يتسم به الأطفال المدللون . وأمضى لتفينوف ساعتين فى الجبال ، ثم سار فى طريق لختنتال عائدا إلى مسكنه ... وإذا هو بسيدة جالسة على مقعد ، وعلى وجهها نقاب أزرق ، تنهض مسرعة وتقبل نحوه . وعرف فيها إيرينا .

قالت فى ذلك الصوت المضطرب الذى يدل على انفعال كظيم :

- لماذا تتجنبنى يا جريجورى ميهالتش ؟

فأجفل لتفينوف :

- أنا أتجنبك يا إيرينا بافلوفنا ؟

- أجل . أنت ... أنت ...

وكانت إيرينا تبدو ثائرة إلى حد الغضب :

- أؤكد لك أنك مخطئة .

- لا . لست مخطئة . أتظننى لم أعرف هذا الصباح - حين التقينا - أنك عرفتنى ،
أم تريد أن تقول أنك لم تعرفنى ؟ أخبرنى !

- حقا ... يا إيرينا بافلوفنا ...

- جريجورى ميهالتش ؟ أنت رجل صريح . لقد كنت صادقا معى دائما . أخبرنى .
أخبرنى . ألم تعرفنى ؟ ألم تدرك وجهك عامدا ؟

ونظر لتفينوف إلى إيرينا . كانت عيناها تلمعان ببريق غريب ، بينما كان خذاها
وشفتاها شاحبة شحوب الموت تحت قناعها الكثيف . وكان فى تعبير وجهها ، وفى
همسها المتقطع ، شىء حزين ضارع لا سبيل إلى مقاومته ... فلم يستطع لتفينوف أن
يمضى فى ادعائه . قال بجهد :

- نعم ... عرفتك .

ارتجفت إيرينا رجفة خفيفة ، وأرخت ذراعيها ، وهمست :

- لماذا لم تأت إلى ؟

- لماذا ؟ لماذا ؟

ومال لتفينوف إلى جانب الطريق ، وتبعته إيرينا صامتة . وردد مرة أخرى «لماذا !»
وانتقد وجهه فجأة ، وشد على قلبه وحلقه غضب مريع .

- أتسألين بعد كل ما حدث بيننا ! لا أعنى الآن بالطبع ، لا أعنى الآن ، بل
هناك ... هناك ... فى موسكو .

وبدأت إيرينا تقول :

- ولكننا اتفقنا ... لقد وعدتني ...

- لم أعدك بشيء ! معذرة إذا تكلمت بخشونة ، فإنك تريدان الحقيقة . احكمي أنت نفسك : كيف أفسر ... لست أدري ماذا أسميه ! كيف أفسر إلحاحك إلا أن يكون لعباً لا أفهمه ، رغبة في أن تختبرى مقدار سلطانك الباقي على ؟ لقد سار كل منا في طريق . لقد نسيت كل شيء . لقد قاسيت هذه المحنة كلها منذ عهد بعيد . لقد أصبحت رجلاً آخر . وأنت متزوجة ، وسعيدة في الظاهر على الأقل ، تشغلين مكاناً مرموقاً في المجتمع ، فما الغاية وما الفائدة من لقائنا ؟ ما أنا عندك ؟ وما أنت عندي ؟ إننا لا نستطيع حتى أن نتفاهم الآن . لا شيء مشترك بيننا الآن ، لا من الماضي ولا من الحاضر ! وخصوصاً ... وخصوصاً الماضي !

قال لتفينوف هذا كله سريعاً متقطعاً ، لم يلتفت أثناء كلامه ، ولم تبد إيرينا حراكاً ، إلا أنها مدت يديها نحوه بضعف . كانت كأنها تضرع إليه أن يسكت ويستمع إليها ، رُكبتها عضت شفتها السفلى عضاً خفيفاً عندما سمعت كلماته الأخيرة ، وكأنها تريد أن تصمد لألم جرح حاد سريع .

وأخيراً بدأت تقول في صوت أهدأ ، وهي تزداد ابتعاداً عن الجادة ، حيث كان المارة يعبرون من حين إلى حين :

- جريجورى ميهالتش !

وتبعها لتفينوف بدوره :

- جريجورى ميهالتش ! صدقنى ! إننى لو كنت أتوهم أن لى ذرة من السلطان عليك ، لكنت أول من يتجنبك . فإن كنت لم أصنع ذلك ، إن كنت قد جرؤت على أن أجدد معرفتى بك ، رغم ... رغم الإساءة التى قدمتها إليك فى الماضى ، فما ذلك إلا لأن ... لأن ...

فسأل لتفينوف بشيء من الفظاظة :

- لأن ماذا ... ؟

فمضت إيرينا تقول بحدة مفاجئة :

- لأننى لم أعد أحتمل ، لأننى أختنق فى هذا « المجتمع » ، فى هذه المكانة المرموقة التى تتحدث عنها . لأننى إذ ألقاك أجد رجلا حيا بعد كل هؤلاء الدمى - لقد رأيت نماذج منهم منذ ثلاثة أيام فى القلعة القديمة - فأسعد بك كائنك واحة فى الصحراء ، بينما أنت تظننى أغازل ، وتحقرنى وتصدنى محتجا بأنى أسأت إليك ! لقد أسأت إليك حقا ، ولكنى أسأت إلى نفسى أكثر مما أسأت إليك !

فقال لتفينوف مرة أخرى ، وبغير أن يلتفت أيضا :

-لقد اخترت مصيرك بنفسك يا إيرينا بافلوفنا .

فقالت إيرينا مسرعة ، وكأنها تجد عزاء خفيفا فى خشونة لتفينوف :

- أجل ، لقد اخترته بنفسى ، وأنا لا أشكو ، ولا يحق لى أن أشكو . أنا أعلم أنك لابد أن تظن بى السوء ، ولن أبرئ نفسى . إننى لا أريد إلا أن أوضح لك إحساسى . أريد أن أقنعك أنى لست بحيث أغازل الآن ... أنا أغازلك ! كيف ! إن هذا غير معقول ! عندما رأيتك انبعث كل ما كان شابا ونبىلا فى ... ذلك الزمن حين لم أكن بعد قد اخترت مصيرى ، كل ما فى تلك الفترة المشرقة التى اختفت وراء هذه الأعوام العشرة ...

- مهلا يا إيرينا بافلوفنا ! إن مبلغ علمى أن إشراق حياتك يبدأ بالضبط منذ افترقنا ...

فوضعت إيرينا منديلها على شفيتها :

- إن ما تقوله شديد القسوة يا جريجورى ميهالتش ، ولكنى لا أستطيع أن أحس حنقا عليك . كلا . لم يكن ذلك العهد مشرقا . إننى لم أرحل عن موسكو لأعدو سعيدة ، بل لم أعرف لحظة واحدة من السعادة ... صدقتى ، مهما قيل لك . لو كنت سعيدة لما حدثتك كما أحدثك الآن ... أؤكد لك أنك لا تدري حقيقة هؤلاء الناس ... إنهم لا يفهمون شيئا ولا يعطفون على شيء . حتى الذكاء ليس عندهم ^(١) ni esprit ni intelligence لا شيء إلا ^(٢) faire savoir . والخبث . وفى باطنهم لايبالون بموسيقى ولا برسم ولا بشعر ... سوف تقول إننى أنا أيضا لم أكن أبالى بشيء من ذلك ، ولكن ليس إلى هذه الدرجة يا جريجورى ميهالتش ... ليس إلى هذه الدرجة ! إن هذه التى تقف أمامك

(١) « لا روح ولا عقل » .

(٢) « المكر » .

الآن ليست سيدة صالون ، ما عليك إلا أن تنتظر لتري - ليست « نجمة مجتمع » -
أظنهم يلقبوننا بهذا الاسم - لكن مخلوقة مسكينة مسكينة ، تستحق الرثاء حقا . لا
تعجب لكلماتي ... فكبريائي لاتعنيني الآن ! إني أمد يدي إليك كشحاذة ... إني أسألك
الصدقة ..

وأضافت باندفاع وقد عجزت عن كبح نفسها :

- إني أسألك الصدقة ، وأنت ...

وتهدج صوتها . ورفع لتفينوف رأسه ونظر إلى إيرينا . كانت أنفاسها تتلاحق ،
وشفتاها ترتعشان . ودق قلبه سريعا وسكت عنه الغضب .

ومضت إيرينا تقول :

- تقول إن كلا منا سار في طريق . وأعلم أنك على وشك الزواج عن حب ، وأنت
رسمت خطة حياتك . هذا كله صحيح . ولكننا لم نصبح غريبين كلا عن الآخر
يا جريجوري ميهالتش . ما زلنا نستطيع أن نتفاهم . أم تظن أنني تفهت تماما ، أنني
غرقت في الوحل إلى أذني ؟ كلا ! أرجوك ألا تظن هذا ! أرحني قليلا من هذه الحياة -
أضرع إليك بحق الأيام القديمة نفسها ، إن كنت لا تريد أن تنساها . افعل هذا ، حتى
لا يمر لقاؤنا وكأنه ما كان فهذا مرير ، ولن يطول لقاؤنا على كل حال ... لست أدري
كيف أوضح ... ولكنك ستفهمني ، لأنني أريد شيئا قليلا ، شيئا قليلا جدا ... لا أريد
غير قليل من العطف . أريد ألا تصدني وأن تدعني أتنفس ...

وكفت إيرينا عن الكلام ، وكان صوتها دامعا . تنهدت ، ونظرت إلى لتفينوف نظرة
باحثة شبه مختلسة ، ومدت يدها إليه ... فأخذ لتفينوف اليد وضغط عليها ضغطة
خفيفة .

وهمست إيرينا :

- لنكن صديقين .

فردد لتفينوف حالما :

- صديقين .

- نعم صديقين . أما إن كان هذا إسرافا في الطلب ، فليكن بيننا على الأقل شيء
من الود لنكن كأن لم يحدث بيننا شيء من قبل .

فردد لتفینوف مرة أخرى :

- كأن لم يحدث بیننا شیء من قبل لقد قلت يا إيرينا بافلوفنا منذ برهة إنى لا أريد أن أنسى الأيام الماضية ... فما قولك إن كنت لا أستطيع أن أنساها ؟

فعبرت وجه إيرينا بسمة سعادة اختفت على الفور ، وتلاها تعبير من الألم يوشك أن يكون رعبا .

- كن مثلى يا جريجورى ميهالتش . تذكر الطيب منها . وعدنى قبل كل شیء ... عدنى بشرفك ...

- ماذا ؟

- ألا تتجنبنى . ألا تؤذینى من غير داع . أتعد ؟ قل !

- نعم .

- وستبعد من عقلك كل فكرة سيئة عنى ؟

- نعم ... أما فهمك - فلن أحاوله .

- لا ضرورة لذلك ... على أنك بعد قليل ستفهم . أتعد ؟

- لقد وعدتك فعلا .

- شكرا . لقد اعتدت أن أصدقك . سأتترك اليوم وغدا . لن أخرج من المنزل . والآن يجب أن أتركك . إن عظمة الدوقة مقبلة على الطريق ... لقد لمحتنى ، ولا بد أن أذهب لأكلهما ... وداعا حتى نلتقى ... هات يدك ! vite, vite ^(١) . إلى اللقاء .

وبعد أن ضغطت إيرينا على يد لتفینوف بحرارة ، سارت نحو سيدة وقور فى منتصف العمر ، تتهاذى على الممر المغطى بالحصى ، وفى صحبتها سيدتان أخريان وخادم جليل المنظر فى بزة رسمية .

قالت السيدة عندما انحنى إيرينا باحترام :
(٢) Eh bonjour, chère Madame. Comment allez-vous aujourd'hui? Venez un peu avec moi.

فسمع صوت إيرينا يجيبها متملقا :
(٣) votre altesse a trop de bonté

(١) « أسرع ، أسرع ! » .

(٢) « صباح الخير ياسيدتى العزیزة . كيف أنت اليوم ؟ تعالى معى قليلا »

(٣) « هذا عطف كبير من عظمتك » .

انتظر لتفينوف حتى غابت الدوقة وحاشيتها عن نظره ، ثم سار منحدرًا في الطريق هو أيضا ، ولم يستطع أن يتبين مشاعره ، فقد كان خجلا بل خائفا ، وكان يحس مع ذلك زهوا ... لقد أخذه حديث إيرينا على غرة ، وغرق من كلماتها السريعة المندفعة في سيل عاصف ، وقال لنفسه : ما أعجب نساء المجتمع هؤلاء ! متقلبات ... ما أشد ما تفسد عن البيئة التي يعشن فيها ، والتي يشعرون هن أنفسهن بفظاعتها ! ... وكان في الحقيقة لا يفكر في شيء من ذلك ، ولكنه كان يكرر هذه العبارات المحفوظة تكراراً ألياً ، وكأنه يريد أن يدفع عن نفسه أفكاراً أخرى أشد إيلاماً ! أحس أنه يجب ألا يفكر الآن بجذ فيندم ، فجعل يمشى بخطى متثاقلة ، يكاد يضطر نفسه إلى الانتباه لكل ما يصادفه ... وفجأة رأى نفسه أمام مقعد ، ولح أمامه قدمين ، فصعد بصره فوجدهما لرجل جالس على المقعد يقرأ صحيفة . ووجد ذلك الرجل بوتوجين . وبدرت من لتفينوف نبرة تعجب خافتة . فألقى بوتوجين . الصحيفة على ركبتيه ونظر إلى لتفينوف بانتباه ويغير أن يبتسم ، ونظر لتفينوف إليه أيضا بانتباه ويغير أن يبتسم .

وسأل أخيرا :

- أسمح لي أن أجلس بجانبك ؟

- بكل سرور . ولكنى أرجو ألا تغضب منى إذا حدثتني ، فإنى اليوم منقبض المزاج ، ساخط على البشرية ، يبدو لي كل شيء فى أسوأ صورة .

فأجاب لتفينوف وهو يهبط على مقعده :

- هذا حسن ياسوزونت إيفاتش . الواقع أن هذا المزاج يناسبنى جدا . ولكن ما الذى أوصلك إليه ؟

فأخذ بوتوجين يقول :

- فى الحقيقة يجب ألا أسخط ، فقد قرأت فى الصحيفة منذ برهة مشروعا لإصلاح المحاكم فى روسيا . وقد سررت جدا لأن قادتنا سلكوا السبيل الصحيح أخيرا ، فأبوا أن يضيفوا إلى المنطق الأوربى الواضح المستقيم ذيلا من عندياتنا ، متعللين بالأصالة

أو الوطنية ، بل أخذوا شيئاً طيباً بكل حذاقيره ، وإن كان أجنبياً . يكفى أننا تسامحنا
فى موضوع الأراضى الزراعية ، فليس من السهل أن تلغى الملكية المشاعية ! أجل ،
أجل ، لا يحق لى أن أسخط ، ولكنى وقعت لسوء حظى على أحد « نوى المواهب ،
الفطرية » وتحدثت معه ، ويا ولى من نوى المواهب الفطرية ، هؤلاء الذين علموا
أنفسهم ! أنهم سيجعلوننى أتململ فى قبرى !

فسال لتفينوف :

– من تعنى ؟

– أوه ! هنا رجل يتسكع ويتوهم أنه موسيقى عبقرى . يقول لك : طبعاً أنا لست
شيئاً ، أنا صفر ، لأنى لم أتعلم ، ولكن فى رأسى أنغاماً وأفكاراً أكثر مما عند مايربير .
وأنا أقول : أولاً ، إذا لم تتعلم ؟ وثانياً : دعنا من مايربير ، إن أحقر نافخ ناي ألمانى ،
يؤدى دوره فى أحقر أوركسترا ألمانية ، لديه من الأفكار أكثر عشرين مرة مما لدى
«نوى المواهب الفطرية» مجتمعين . إلا أن عازف الناي يحتفظ بأفكاره لنفسه ، ولا يهمل
لها فى بلاد مليئة بأمثال موزار وهايدن ، أما صاحبنا الموهبة الفطرية ، فما أن يعزف
فالسأ أو أغنية عزفاً مخلخلاً حتى يضع يديه فى جيبى بنطلونه وبسمة ازدراء على
شفتيه – إنه عبقرى ! وهكذا الحال فى الرسم وفى كل شىء آخر . أه من هذه المواهب
الفطرية ! كم أبغضهم ! كائن الناس جميعاً لا يعلمون أن هذه الهوشة الفنية والعلمية
لا توجد إلا حيث لا فن حقيقى أصيل ولا علم حقيقى عميق الجنور . لقد حان الوقت
لنطرح هذا التهويش ، بل هذا الهراء السخيف ، مع تلك العبارات الممجوجة من مثل
قولهم : لا أحد يموت جوعاً فى روسيا ... السفر البحرى فى روسيا أسرع منه فى أى
بلد آخر ... نحن الروس لا أحد يستطيع أن يغلبنا ... إنتى أسمع دائماً عن غنى الفطرة
الروسية ، وعن غريزة الروس التى لا تخطئ ، وعن كوليبين ... ولكن ما هذه الفطرة
الفنية ياسادة ؟ إنها ككلام النائم ، أو كحكمة الحيوان . الغريزة ! أى فخر ! خذ نحلة
فى الغابة وضعها على مسافة ميل من بيتها ، فستهتدى إليه . إن الإنسان لا يستطيع
أن يصنع شيئاً كهذا ، ولكن هل تقول إنه أحقر من النحلة ؟ إن الغريزة لاتليق
بالإنسان ، ولو أصابت دائماً . العقل ، العقل السليم البسيط المستقيم هذا هو تراثنا
وفخارنا . إن العقل لا يأتى بمثل هذه الغرائب ، ولكنه عماد كل شىء . أما كوليبين
الذى توصل إلى صنع ساعات بالغة الرداءة دون أن يعلم شيئاً عن الميكانيكا ، فأعتقد
أن ساعاته يجب أن تعرض على الملأ مع هذه العبارة : انظروا ! هكذا يجب ألا تصنع

.. الساعات . ليس لأحد أن يلوم كوليبيين نفسه ، ولكن عمله لا خير فيه . ولا بأس بأن نعجب بجرأة تياوشكين ، وبراءته إذ تسلق برج وزارة البحرية ، ولكن لا حاجة بنا أن نصيح بأنه أظهر جهل المهندسين الألمان ، وأن كل ما يعملونه هو سرقة أموالنا... فإنه لم يظهر جهلهم مطلقا ، لأنه البرج احتاج إلى إصلاح فلم يكن بد من رفع سقالة حوله وترميمه بالطريقة المعروفة . بالله لا تشجعوا قولهم فى روسيا إن كل شىء يمكن عمله بلا تعلم ! كلا . قد يكون لك عقل سليم ، ولكنك يجب أن تدرس ، وأن تبدأ من ألف باء . وإلا فالجمل لسانك واصمت وتواضع ! أف ! إن هذا يجعلنى أغلى ! ونزع بوتوجين قبعته وجعل يروح عن نفسه بمنديله . ثم عاد يقول :

- الفن الروسى ! الفن الروسى حقا !.. إننى أعرف الغرور الروسى ، والعجز الروسى ، أما الفن الروسى فاسمح لى أن أقول لك إنى لم أعثر عليه قط . لقد مكثوا عشرين سنة يمجدون ذلك النكرة الهزيل بريولوف ، ويتوهمون أننا أنشأنا مدرسة فى التصوير خاصة بنا ، بل إن هذه المدرسة لا تقاس بها جميع المدارس الأخرى ... الفن الروسى ! ها ها ها ! هو هو هو !

فعقب لتفيتوف :

- معذرة ياسوزونت ايفانتش . أتأبى الاعتراف بفضل جلنكا أيضا ؟

- إن الشاذ كما تعلم يثبت القاعدة . على أننا لا نستغنى عن التفتج حتى فى أمر جلنكا . ولو قلنا مثلا أن جلنكا موسيقار ممتاز حقا ، وأنه لولا ظروف خارجة عنه وأخرى خاصة به لكان منشئ الأوبرا الروسية ، لو قلنا ذلك لما جادلنا فيه أحد ولكن لا ! إننا لا يمكن أن نكتفى بهذا . بل يجب أن نرفعه فورا إلى رتبة القائد الأعلى فى الموسيقى . يجب أن نلزم الشعوب الأخرى حدها ، فليس عندهم من يضارعه . وسيؤيدنا فى ذلك عبقرى وطنى عجيب ، لا تعدو ألحانه الكبرى أن تكون تقليدا للموسيقين الأجانب من الطبقة الثانية لأن تقليدهم أسهل . ليس عندهم من يضارعه ! حقا ! يا لكم من برايرة بلهاء مساكين لا يقدررون الفن ، بل يرون الفنانين أشبه شىء ببطلنا رابو ! فهم يقولون إن العملاق الأجنبى يستطيع أن يرفع مائة رطل بيد واحدة ، أما رجلنا فيستطيع أن يرفع أربع مائة ! ليس عندهم من يضارعه ! إننى أخبرك بشىء أذكره ولا أستطيع نسيانه : فى الربيع الماضى زرت قصر البلور قرب لندن ، وفى ذلك القصر كما تعلم شبه معرض لكل ما ابتكرته عبقرية الإنسان ، أو إن شئت دائرة معارف للإنسانية . جعلت أسير ذهابا وجيئة بين المكتات والآلات وتماثيل عظماء الرجال ، وقلت لنفسى : لو حكم بأن الأمة التى تختفى عن وجه الأرض يختفى معها

كل مالها فى قصر البلور من مخترعات لكان لأمتنا روسيا المقدسة أن تختبئ فى أعماق الأرض بغير أن ينقل مسمار واحد من المكان . كل شىء يمكنه أن يستقر حيث هو . حتى السماور وأحذية الليف والشكيمة والسوط - منتجاتنا الشهيرة - لسنا نحن مخترعيها . ولكنك لا تستطيع أن تجرى هذه التجربة حتى مع سكان جزر ساندوتش ، فهؤلاء الجزريون قد صنعوا قوارب ومزاريق خاصة بهم ، فسوف يلاحظ زوار المعرض غيابهم . إنها معرة ! لعلك تقول أن هذه قسوة . ولكنى أجيبك أولاً أنى لا أستطيع أن أهذل مثل الحمام وأنا أنظر إلى هذه العيوب ، وثانياً أن الشيطان ليس هو وحده الذى يخاف المرء أن ينظر إلى وجهه ، فما من أحد يجرؤ أن ينظر إلى نفسه ، ولا الأطفال وحدهم هم الذين يهددون حتى يناموا . لقد جاعتنا مخترعاتنا القديمة من الشرق ، واستعرنا مخترعاتنا الحديثة من الغرب ، وكدنا نفسدها بينما نصر على الحديث عن استقلال الفن الروسى . بل لقد اكتشف بعض الاجرياء علما روسيا أصيلا . إن اثنين فى اثنين تساوى أربعة عندنا كما هى عند سوانا ، لكن يظهر أننا وصلنا إلى هذه النتيجة ببراعة أعظم !

فصاح لتفينوف :

- ولكن مهلا ياسوزونت ايفانتش ! أرجو أن تنظر دقيقة ! فأنت تعلم أننا نرسل بعض الأشياء إلى المعارض العالمية . كما أن أوروبا تستورد منا أشياء .

- نعم . الخامات . ولا تنس ياسيدى العزيز أن خاماتنا الجيدة يرجع الفضل فى جودتها إلى أشياء أخرى رديئة . فالشعر الذى نصدره مثلاً كبير وقوى لأن خنازيرنا هزيلة . والجلود قوية وسميكة لأن أبقارنا نحيلة ، والشحم دسم لأنه أغلى مع نصف اللحم ... ولكن لماذا أطيل عليك فى هذا الكلام ؟ لقد درست التكنولوجيا ، ولاريب أنك تعرف هذا كله خيراً منى . إنهم يحدثوننى عن قدرتنا على الابتكار ! قدرة الروس على الابتكار ! هؤلاء فلاحونا يشكون من الشكوى ويعانون الخسائر الفادحة لأنهم لا يجدون آله صالحة لتجفيف القمح ، تغنيهم عن وضع حزمهم فى حجرة الفرن كما كانوا يفعلون أيام روريك . إن هذه الأفران عظيمة الضرر - مثلها فى ذلك مثل أحذية الليف والحصر الروسية - وكثيراً ما تسبب الحرائق . والفلاحون يشكون ، وليس هناك ما يبشر بآلة تجفيف لم لا تظهر آلات التجفيف ؟ لأن الفلاح الألماني لا يحتاج إليها . لأنه يستطيع أن يدرس قمحه كما هو ، فلا حاجة به إلى اختراع مثل هذه الآلة . ونحن ... نحن لا نستطيع أن نخترعها مهما نحاول . سأقول منذ اليوم كلما قابلت أحد هذه المواهب الفطرية ، هؤلاء العباقرة الذين علموا أنفسهم بأنفسهم : « مهلا يا صديقى

الفاضل ! أين آلة التجفيف ، نريد أن نراها ! » ولكن أنى لهم هذا ! إننا قادرون أن نلتقط حذاء أطرحه سان سيمون أوفورييه^(١) منذ أجيال ، فنضعه فوق رءوسنا ونعده أثراً مقدساً ، وقادرون على أن نلحق مقالاً عن الدور الذى لعبته البروليتاريا فى مدن فرنسا الكبرى قديماً وحديثاً ، ولكنى سألت مرة كاتباً وعالماً اقتصادياً من هذا النوع - أشبه بصديقك السيد فوروشيلوف - أن يسمى عشرين مدينة فى فرنسا ، فماذا تظنه فعل ؟ لقد ألجأه اليأس إلى ذكر مونت فرمى على أنها مدينة فرنسية ، ولعله تذكرها من قصة لبول دى كوك . وهذا يذكرنى بقصة حدثت لى . كنت أجوس ذات يوم خلال غابة ومعى كلب وبندقية ...

فسأل لتفينوف :

- أنت من هواة الصيد ؟

- إننى أخرج للصيد أحياناً . فذات يوم كنت أبحث عن مستنقع - أطنب لى هواة الصيد فى وصفه - لاصطياد الشناقب ، وبينما كنت ماراً فى فرحة من الغابة رأيت شاباً ظريفاً جالساً أمام كوخ أحد تجار الخشب - ولا بد أنه كان كاتب حساباته - وكان يبتسم لسبب لم أعلمه . فسألته : أين المستنقع ، وهل فيه كثير من الشناقب ؟ فانطلق مرحباً وقد بدا عليه السرور كأنى منحته روبلاً : « أى خدمة . المستنقع من الطراز الأول ، أما الطيور البرية بأنواعها . ياسلام ! إنها كما تريد كثرة » . فانطلقت ، غير إنى لم أجد شيئاً من الطيور البرية . وكان المستنقع نفسه جافاً منذ زمن طويل . خبرنى الآن بربك : لماذا كان الروسى كذاباً ؟ لماذا يكذب عالم الاقتصاد ، ولماذا الكذب على الطيور البرية أيضاً ؟

فلم يجب لتفينوف ، بل تنهد موافقاً ، واستمر بوتوجين فى حديثه :

- أما إذا حدثت هذا الاقتصادى نفسه عن أدق مشاكل علم الاجتماع ، دون أن تتجاوز حدود النظرية ، أو تتناول الحقائق ، فإنه يحلق كالطائر بل كالنسر . على أنى نجحت مرة فى اقتناص أحد هذه الطيور . وكان الفخ الذى استعملته فخاً بديعاً ، وإن يكن ظاهراً ، كما سترى . كنت أتحدث مع واحد من شبابنا المتحرر فى مختلف « المشاكل » كما يقولون ، فتحمس كعادتهم دائماً ، وانطلق يهاجم فى حرارة صبيانية حققة ، وكان من بين ما هاجمه نظام الزواج . وأوردت عليه الحجة بعد الحجة ... فكأنى أحدث جداراً . ورأيت أنى لن أغلبه بهذه الوسيلة ، فخطرت لى فكرة موفقة ! قلت له : « اسمع لى بملاحظة ياسيدى - ولا بد أن تكون رسمياً دائماً حين تكلم هؤلاء الشباب

(١) فيلسوفان اشتراكيان فرنسيان ، من أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر .

المتحررين - إننى لأعجب منك حقاً ، فأنت تدرس العلوم الطبيعية ، ومع ذلك غاب عنك أن جميع الحيوانات الجارحة وآكلة اللحوم ، سواء أكانت وحوشاً أم طيوراً ، لابد لها أن تخرج باحثة عن الفريسة وأن تجتهد فى الحصول على طعام حيوانى لها ولأولادها ... أظنك تعد الإنسان من جنس هذه الحيوانات ؟ « فقال « الشاب المتحرر » : « أجل إننى أعد الإنسان من جنسها ، ليس الإنسان الا أكل لحم . » فزدت : « وجارحا ؟ » فصرح : « وجارحا . » قلت : « حسناً . فكيف إذن لم تلاحظ أن هذه الحيوانات تعيش أزواجا ؟ » فانتفض « الشاب المتحرر » : « كيف هذا ؟ » قلت : « هو هذا . انظر إلى الأسد ، والذئب ، والثعلب ، والنسر ، والصقر ... الواقع أنها لا يمكن أن تكون غير ذلك . فبالكاد يستطيع الأبوان أن يعولا صغارهما . » ففكر الشاب ، ثم قال : « حسناً . يجب إذن إلا نقيس الإنسان على الحيوان . » وهنا قلت له أنه مثالى ، ففزع وكاد يبكى . واضطرت أن أطمئنه ، بأن وعدته ألا أخبر أصدقائه ، فليس من الهين أن يستحق المرء أن يدعى مثالياً ! ولكن أهم نقطة يضل عندها شبابنا هى أنهم يتوهمون أن العمل السرى المتواضع القديم قد مضى أوانه ، وأن أباءهم الشيوخ لم يكن أمامهم إلا أن يحفروا فى باطن الأرض كالخلد ، أما هم فلا يليق بهم مثل هذا العمل ، فهم يقولون : سنعمل فى وضع النهار ! سننزل الميدان ! يا أصدقائى المساكين حتى أبناؤكم لن ينزلوا إلى الميدان ، فلماذا لا ترجعون إلى الحفر فى بطن الأرض لتواصلوا عمل الأسلاف ؟

وساد صمت قصير ، ثم عاد بوتوجين يقول :

- أعتقد ياسيدى العزيز أننا لسنا مدينين للمدنية بالعلم والفن والقانون فحسب ، بل إن الإحساس بالجمال والشعر يتطور أيضا ويقوى بتأثير تلك المدنية نفسها ، وأن ما يسمى بالخلق الفطرى الشعبى إن هو إلا سخف وهذيان حتى هوميروس نجد فيه آثار مدنية رافهة متنوعة ، حتى الحب يزداد بالمدنية غنى وعمقا . لو لم يكن السلافوفيل أناسا طبيى القلوب لشنقونى على هذا الكفر ، ولكنى لن أغير رأى ، ومهما يقدموا لى من مدام كوهانوفسكى و« عش النحل » فإننى لا أستطيع أن أحتمل رائحة مايسمونه الـ Triple extrait de moujik Russe ^(١) ، لأننى لست من الطبقة الراقية التى تحتاج أن تطمئن نفسها من حين إلى حين إلى أنها لم تعد فرنسية خالصة ، والتى لم يصنع ذلك الأدب En cuir de Russie ^(٢) إلا لفائدتها . حاول أن تقرأ أمتع وأذيع القطع من « العش » على فلاح حقيقى ، فسيظن أنك تقرأ عليه تعويذة تدفع شر الحمى وتذهب داء السكر ، أعود فأقول : أنه بغير المدنية لا يوجد شىء حتى ولا الشعر .

(١) « روح الفلاح الروسى » .

(٢) « نو الجلد الروسى » .

وإذا أردت أن تظفر بفكرة واضحة عن المثل الأعلى الشعري للروسي غير المتمدن فارجع إلى أغانينا وأساطيرنا . لن أطيل القول في أن الحب يصور كأنه نتيجة للأشربة السحرية والتعاويذ ، وأنه يسمى كهانة و « عملا » ، ولا في أن ما يسمى بأدب الملاحم عندنا هو الأدب الوحيد في الشرق والغرب – الأدب الوحيد – الذي لم يصور قط حبيبين نموذجيين ، إلا إذا كنت تصد فانكا وتانكا ^(١) من هذا الطراز ، ولا في أن فارس روسيا المقدسة إنما يبدأ معرفته بعروسه المقبلة بأن يضربها على جسمها الأبيض « بسوطه المجنول » ، « لأنه يجعل جنس النساء لينات كالحرير » . سأتترك هذا كله ، لأنبهك إلى الصورة الفنية للبطل الشاب ، « للجان بروميه » كما رسمه خيال الصقلي الساذج غير المتمدن . انظر إليه . ها هو « الجان بروميه » مقبلا ، « عليه معطف من السنجاب صنعه لنفسه ، وأتقن خياطته ، وألحم غرزه وحزام من سبعة أدرج من الحرير عقده بأناقة على صدره ، وأصابه مخفية في كمية الطويلين الجميلين ، وياقته مرفوعة فوق رأسه تحجب وجهه المشرب بحمرة ، وكذلك رقبتة الطويلة البيضاء وقد أمال قبعته الصغيرة على جنب ، ولبس في قدميه حذاء من الجلد البديع ، له طرفان مدبيان مقوسان وكعبان عاليان ، بحيث يمكنك أن تدبر بيضة حول الطرفين ويمكن أن يطير عصفور بين الكعب والنعل . » وهذا الشاب الجميل يمشى بخطوات قصيرة سريعة مثل الكيبيادنا ^(٢) – تشوريلو بلنكوفتش – الذي كان لمشيته المتصنعة تأثير عجيب أشبه بالدواء في قلوب العجائز والفتيات . وما زال نزل الفنادق عندنا يمشون هذه المشية ، فيخيل إليك حين يثبون بخطا صغيرة أن كل مفاصلهم محلولة . وهذه المشية هي زبدة الغندرة الروسية وزهرتها ، غاية ما يتمناه النوق الروسي . أنا لا أهزل . جمال الزكائب هذا مثل فنى . ما رأيك في هذا النموذج ؟ أتراه نموذجا طيبا ؟ إتراه يقدم مادة جيدة للرسم والنحت ؟ وتلك الحسناء التي تطلب لب البطل الشاب ، ذات « الوجه الأحمر كدم الأرنب » ؟ أظنك غير مصنع إلى .

وانتبه لتفينوف ، فإنه لم يسمع في الحقيقة ما قاله بوتوجين . لقد كان يفكر تفكيرا مستمرا ملحا في إيرينا ، وفي لقائه الأخير بها .

وبدأ يقول :

(١) « إشارة إلى أغنية شعبية » .

(٢) الكيياس قائد أثيني (٤٥٠ – ٤٠٤ ق . م) اشتهر بجماله وثراته وذكائه المفرط ، وقدرته الحربية

النابرة ، ولكنه لم يكن يثبت على مبدأ ، وكان شديد المهارة مع هواه ، فلم يطمئن إليه الايكتيون وانتهت حياته بالقتل .

- معذرة ياسوزونت ايفانتش، ولكنى سأنتقل عليك مرة أخرى بسؤالى السابق عن ...
عن مدام راتميروف .

فطوى بوتوجين صحيفته ووضعها فى جيبه .

- أتريد أن تعلم مرة أخرى كيف عرفتھا ؟

- لا . ليس هذا ما أعنيه بالضبط . إني أود أن أسمع رأيك .. فى الدور الذى كانت
تلعبه فى بطرسبرج . ماذا كان ذلك الدور فى الحقيقة ؟

- لا أدري ماذا أقول لك يا جريجورى ميهالتش . لقد اتصلت بـ مدام راتميروف
اتصالا وثيقا ... غير أن ذلك الاتصال كان مصادفة محضة ، ولم يدم طويلا . ولم أطلع
قط على عالمھا ، بل ظل ما يحدث فيه مجهولا لدى . وقد سمعت شيئا من القيل والقال ،
ولكن الغيبة عندنا - كما تعلم - لا تسود الأوساط الديموقراطية وحدها . ثم إني لم
أكن أسأل . وأضاف بعد صمت قصير :

- ولكنى أراك مهتما بها .

- نعم . لقد تحدثت معها مرتين بكثير من الصراحة ، إلا أنى لا أزال أتساءل :
أهى صادقة ؟ فخفض بوتوجين بصره :

- إنها ككل امرأة عاطفية ، تصدق حين يغلبها وجدانها . ثم إن الكبرياء كثيرا ما
تمنعها من الكذب .

- أهى متكبرة ؟ أغلب ظنى أنها عنيدة .

- بل متكبرة كالشيطان . ولكن هذا لا يعيبھا .

- يخيل إلی أنها تبالغ أحيانا ...

- ليس هذا بشيء أيضا . إنها صادقة مع ذلك . ويعد فأين تجد الحرص على
الحقيقة ؟ إن خير نساء المجتمع هؤلاء عففات حتى نخاع عظامهن .

- ألا تذكر ياسوزونت ايفانتش أنك سميت نفسك صديقھا ؟ ألم تجبرنى إجبارا
على زيارتها !

- وماذا فى ذلك ؟ لقد سألتنى أن أجيء بك . فلم أر بأسا بذلك . ثم إني صديقھا
حقا . إنها لا تخلو من خير ، فهى كريمة ، أعنى انها تسخو على غيرها بما لا تحتاج
هى إليه . ولكنك بلا ريب تعرفھا قدر ما أعرفھا على الأقل .

- كنت أعرف إيرينا بافلوفنا منذ عشر سنين . ولكن منذ ذلك الحين ...

- أه ! ماذا تقول يا جريجورى ميهالتش ، أتظن أن أخلاق الإنسان تتغير ؟ كما يكون المرء فى المهد يكون فى اللحد . أم لعلك (وهنا بالغ لتفينوف خفض رأسه) ... أم لعلك خائف أن تقع فى شباكها ؟ لاشك أن هذا ... ولكن المرء لابد له بطبيعة الحال أن يقع فى شباك امرأة ما .

- فضحك لتفينوف ضحكة مغتصبة :

- أتظن ذلك ؟

- لا مفر من هذا . الرجل ضعيف ، والمرأة قوية ، والمصادقة قادرة على كل شيء ، واحتمال حياة لا مسرة بها أمر عسير ، ونسيان المرء نفسه جد مستحيل ... وفى أحد الجانبين ، الجمال والعطف والدفء والنور ، فكيف يستطيع المرء أن يقاوم ؟ إن المرء ليسرع إليها كما يسرع الطفل إلى حاضنته . حقا إنه يجيء بعد ذلك البرد والظلام والفراغ ... فى دورها الطبيعى . وينتهى الأمر بأن تصبح غريبا عن كل شيء . فى أول الأمر لا تفهم كيف يمكن أن تحب ، وفى آخر الأمر لا تفهم كيف يمكن أن تعيش .

نظر لتفينوف إلى بوتوجين ، وراعه أنه لم ير من قبل رجلا يشبهه فى وحدته ووحشته ... وشقائه . فى هذه المرة لم يكن خجولا ولا جامدا ، بل كان يجلس مطأطئ الرأس شاحبا ، ورأسه على صدره ، ويداه على ركبتيه ، وهو لا يتحرك بل يبتسم ابتسامته الحزينة . وأحس لتفينوف بالأسى لذلك الرجل السوادوى الغريب .

بدأ لتفينوف يقول بصوت خفيض :

- لقد ذكرت إيرينا بافلوفنا فى أثناء حديثها صديقة حميمة لها ، أظنها - إن لم تخنى الذاكرة - تسمى بيلسكى .. أو بولسكى .

فرفع بوتوجين عينيه الصغيرتين الحزينتين ونظر إلى لتفينوف ثم عقب متثاقلا :

- أه ! لقد ذكرت ... حسنا ، وماذا عنها ؟

ثم أضاف وهو يتصنع التأوب :

- أن أن أعود إلى مسكنى للعشاء . فى أمان الله .

وترك المقعد فجأة ، ومضى قبل أن يستطيع لتفينوف النطق بكلمة . فاستحال عطفه سخطا ، سخطا على نفسه طبعاً ، فما كان التطفل من أخلاقه ، ولكنه أراد أن يعبر عن عطفه نحو بوتوجين ، فإذا به يلمزه لمرأ غير رقيق . فعاد إلى فندقه معذب الضمير .

وبعد قليل كان يقول لنفسه : « عفنة حتى نخاع عظامها ... ولكنها متكبرة كالشيطان ! هـى - تلك المرأة التى تكاد تركع أمامى - متكبرة وليست عنيدة ؟ »

وحاول أن يطرد من رأسه صورة إيرينا فلم يفلح . ولهذا السبب نفسه تعمد ألا يفكر فى خطيئته . فقد شعر أن تلك الصورة التى سكنت مخيلته لن تزول منها اليوم . فعزم على أن ينتظر انجلاء هذا « الأمر الغريب » دون أن يزيد نفسه قلقاً .

لم يكن هذا الجلاء ليتأخر طويلاً ، ولم يدرك لتفينوف أدنى شك فى أنه سيأتى بلا عناء ولا افتسار . هكذا كان يحدث نفسه ، بينما ظلت صورة إيرينا ماثلة أمامه ، وكل كلمة قالتها تعود - فى دورها - إلى ذاكرته .

وأحضر إليه خادم الفندق بطاقة ، وكانت هى أيضاً من إيرينا : « إن لم يكن لديك ما عمله هذا المساء ، فأرجو أن تأتى . لن أكون وحيدة . سيكون لدى ضيوف . وستنظر من قرب إلى أصحابنا ، إلى مجتمعنا . إنى شديدة الرغبة فى أن تطلع عليهم ، وأتوقع أنهم سيظهرون بكامل روعتهم . يجب أن تعلم أى جو ذلك الذى أتنفس فيه . تعال . ستسعدنى رؤيتك ، أما أنت فلن تشعر بالضجر (أخطأت إيرينا فى كتابة هذه الكلمة الروسية الأخيرة) . أثبت لى أن حديثنا اليوم قد جعل كل خصام بيننا مستحيلاً إلى الأبد . المخلصة . أ . »

لبس لتفينوف سترة سهرة ورباط عنق أبيض ، وانطلق إلى مسكن إيرينا . وكان يردد فى نفسه وهو ذاهب : « لا ضرر ... النظر إليهم ... لماذا لا أنظر إليهم مرة ؟ إنه مشهد مسل . » مع أن هؤلاء الناس أنفسهم أثاروا فيه منذ أيام قلائل شعوراً آخر ، لقد أثاروا فيه السخط والكراهية .

سار بخطا حثيثة وقد أنزل قبعته على عينيه ، واغتصب ابتسامة على شفثيه ، بينما كان بمبايف جالسا أمام ندى فيير يشير إليه من بعيد ليراه فوروشيلوف وبشتشالكن ، ويصيح بحماسة : « أترون هذا الرجل ؟ إنه حجر ! إنه صخر ! إنه صوان ! » .

وجد لتفينوف عند إيرينا ضيوفا غير قليلين . فكان ثلاثة من الجنرالات الذين رآهم يوم النزهة ، وهم الجنرال السمين ، والجنرال الحنق ، والجنرال المتسامح جالسين إلى منضدة للعب الورق فى أحد الأركان ، يلعبون « البشكة » . وليس فى لغة الإنسان كلمات تعبر عن وقارهم وهن يرمون الورق ، ويدبرون الخطط ، ويؤلفون بين البسطونى والكومى ... لاشك الآن فى كونهم من رجال الدولة ! فهم يتركون للعوام - للبورجوا - تلك العبارات والإشارات الصغيرة التى تتردد عادة فى أثناء اللعب ، ولا ينطقون إلا بما لا غنى عنه من المقاطع ، وأن أباح الجنرال السمين لنفسه أن يقول بحرارة بين رمتين : *ce satané a de pique* ^(١) وعرف لتفينوف من بين الزوار سيدات كن فى النزهة ، ولكن كان هناك أيضا سيدات أخريات لم يرهن من قبل . وكانت إحداهن عريقة فى القدم حتى لتبدو كل لحظة وكأنها توشك أن تتداعى . وكانت تهز كتفيها العاريتين السمرأوين القاتمتين المخيفتين ، وتحجب فمها بمروحتها ، وترمق راتميروف بعينيها اللتين تماثلان عيون الموتى . وعنى بها راتميروف عناية كبيرة ، فقد كانت ذات مكانة عظيمة فى المجتمع الراقى ، لأنها آخر من بقى من وصيفات الشرف للامبراطورة كاترين . وكانت الكونتس « س » ملكة الضبايير تجلس عند النافذة متتكرة فى زى راعية ، وقد أحاط بها الشبان . وكان المليونير الشهير فينيكوف الجميل ظاهرا بينهم بمسلكه المترفع ، وجمجمته المسطحة ، وتعبير وجهه الوحشى الذى لا يرحم ، كأنه وجه خان من بخارى أو هليوجابال من روما ^(٢) . وكانت سيدة أخرى - هى أيضا كونته ، وتعرف تدليلا باسم « ليز » - تتحدث إلى محضر أرواح شاحب أشقر الشعر مرسله ، وقد وقف بجانبها سيد شاحب مرسل الشعر أيضا ، لايزال يضحك ضحك من يعنى شيئا ما . وكان هذا السيد أيضا يؤمن بمخاطبة الأرواح ، ولكنه جمع إلى ذلك هواية التنبؤ ، فكان يستخرج من التلمود ورسائل القديس يوحنا نبوءات شتى عن أحداث عجيبة . ولم يتحقق حدث واحد من هذه الأحداث ، ولكن هذه الحقيقة ما كانت لتزعجه قط ، بل ظل مثابرا على تنبؤاته . وكان الموسيقى العبقري صاحب المواهب الفطرية ، الذى أثار فى بوتوجين ذلك الحنق الشديد ، جالسا إلى البيان يضرب على أوتاره بغير اعتناء *d'une main distraite* ^(٣) وهو يديم التحديق فيما حوله تحديقاً زائغا مبهما .

(١) « هذا الشيطان معه الاسياتى ! »

(٢) امبراطور رومانى ، حكم من ٢١٨ إلى ٢٢٢ ، كان مشهورا بجماله وقسوته وعمره .

(٣) « بيد ذاهلة » .

وكانت إيرينا جالسة على أريكة بين الأمير كوكو ومدام س ، وهى سيدة اشتهرت قديما بجمالها البارع وفكاقتها الحاضرة ، واستحالت منذ أزمان الى كماء ذابلة تفوح منها رائحة زيت الصيام وبخار السم . وحين وقع نظر إيرينا على لتفينوف احمر وجهها ونهضت من مقعدها ، وأقبل عليها فصافحته بحرارة ، وكانت تلبس ثوبا من الحرير الرقيق الأسود يزينه وشى ذهبى لا يكاد يلحظ ، وكانت كتفاها بيضاوين كاللؤلؤ ، أما وجهها الذى بدا شاحبا تحت فيض حمرة الوقتية فكان يتألق بزهو الجمال ، بل بأكثر من الجمال . كان سرور خفى - يكاد يكون ساخرا - يلمع فى عينيها المسبلتين ، ويرتعث حول شفتيها ومارنها .

تقدم راتميروف من لتفينوف ، وبعد أن تبادل وإياه التحيات المألوفة ، دون أن يصحبها بتدله المألوف ، قدمه إلى سيدتين أو ثلاث : الطلل البالى ، وملكة الضباير ، والكونتس ليز .. وقد رحبن به ترحيبا جميلا ، فقد كان لتفينوف - وإن لم ينتم إلى مجتمعهن - على حظ كبير من الوسامة ، واجتذبهن وجه الشاب المعبر ، إلا أنه لم يعرف كيف يستبقى هذا الاهتمام ، فقد كان قليل الخبرة بالمجتمعات ، وكان يشعر بشىء من الخجل ، وزاده اضطرابا أن الجنرال السمين ظل يحدق فيه تحديقا ملحا ، وكأنما كانت نظرتة الثقيلة الثابتة تقول : « آها ! أهذا أنت أيها الثائر ؟ أيها المفكر الحر ؟ إذن فقد جئت وقبعتك فى يدك لتقدم فروض الولاء ! » وأنقذت إيرينا لتفينوف فسهلت له أن ينتقل إلى ركن قرب الباب ، خلقها بقليل . فكانت تضطر كلما خاطبته أن تلتفت إليه ، فسهره انثناء حيدها الرائع ، ويعب من شذا شعرها الخفى . ولم يفارق وجهها قط تعبير من الشكر رقيق عميق : أنه الشكر ولا شىء غيره ما كانت تنم به تلك البسمات والنظرات . اضطر لتفينوف أن يعترف بذلك ، فتوهج فيه مثل هذا الشعور ، وامتلأ قلبه بالندم والسرور والخوف..

وكانت تبدو فى الوقت نفسه وكأنها تريد أن تسأله : « حسنا ، ما رأيك فيهم ؟ » وكان هذا السؤال غير المنطوق يزداد وضوحا فى سمع لتفينوف كلما لفظ واحد من الأضياف كلمة سخيفة أو أتى عملا مزريا . وقد حدث ذلك غير مرة فى أثناء المساء . وذات مرة لم تستطع إيرينا إخفاء شعورها ، فضحكت ضحكا عاليا .

وكانت الكونتس ليز تؤمن بالخرافات ، وتميل إلى الغرائب . فبعد أن شبع من الحديث مع محضر الأرواح عن هوم ، والموائد التى تنور ، والأكورديون الذى يعزف بلا عازف ، وما إلى ذلك ، انتهت إلى سؤاله : هل ثم حيوانات يؤثر فيها التنويم المغناطيسى ؟

فقال الأمير كوكو من بعد :

- هناك على كل حال حيوان واحد بهذا الوصف . أتعرفين ملفانوفسكى ؟ لقد
نوموه أمامى . وشد ما كان يشخر !

- أنت خبيث جدا يا أميرى . إنى أتحدث عن الحيوانات الحقيقية .

(١) Je parle des bêtes.

(٢) Mais moi aussi, madame, je parle d'une bête...

قال الروحانى :

- بعض الحيوانات الحقيقية يتفق له ذلك . جراد البحر مثلا . فأعصابه شديدة
الحساسية . ومن السهل جعله فى حالة همود تام .

فدهشت الكونتس دهشة عظيمة :

- ماذا ! جراد البحر حقا ؟ أوه ! هذا ظريف جدا ! أود أن أراه ! وأردفت تخاطب
شابا ذا وجه حجرى كوجه دمية جديدة ، وعليه ياقة حجرية أيضا (وكان يفخر بأنه قد
ندى الوجه السالف الذكر برشاش نياجرا والنيل النوبى ، وإن كان لا يذكر شيئا من
أسفاره ، ولا يعنى بغير النكات الروسية ..)

قالت الكونتس تخاطب هذا الشاب :

- مسيو لوزهين . هل تسمح بأن تحضر جراد بحر سريعا ؟

فابتسم المسيو لوزهين ابتسامة مصطنعة ، وسأل :

- أوجب أن يكون جراد البحر سريعا أم أحضره سريعا ؟

فلم تفهم الكونتة ما قاله . وكررت :

- Mais oui ، جراد بحر ، une écrevissu

فقاطعتهما الكونتس « س » بخشونة :

- آه ؟ ماذا جراد بحر ؟ جراد بحر ؟

وكانت ضجرة لغياب السيد فردييه ، وأنكرت أن تغفل إيرينا دعوة هذا الفرنسى
الذى لا نظير له فى الظرف والخلابة . أما « الطلل البالى » فقد استبهم عليها كل شىء
منذ زمن طويل ، ثم إنها كانت صماء ، فاكتفت بهز رأسها .

(١) « إنى أتحدث عن الحيوانات » .

(٢) « وأنا أيضا يا سيدتى أتحدث عن حيوان » .

– oui , oui,vous allez voir .^(١) أرجوك يامسيو لوزهين ... فأنحنى الرحالة الشاب وذهب ثم عاد مسرعا . وكان يسير خلفه نادل يبتسم ابتسامة عريضة ويحمل طبقا يرى عليه جراد بحر كبير أسود :

صاح لوزهين .

– Voici madame^(٢) الآن نستطيع أن نبدأ عملية جراد البحر ! ها ها ها !
(الروس هم دائما أول من يضحك لنكاتهم) .

– هي هي هي !

بهذه الضحكة أدى الكونت كو كو واجبه متواضعا كوطنى مخلص يشجع كل المنتجات الوطنية (ونرجو القارئ ألا يدهش ويغضب . فمن ذا الذى يستطيع أن يزعم أنه لم يصفق لنكات أبرد من هذه ، وهو جالس على مقعد بمسرح ألكسندر وقد أعداه الجو المحيط به ؟)

قالت الكونتس : -Merci, merci . Allons, allons, monsieur Fox, montrez- nous ça^(٣) ووضع النادل الطبق على منضدة مستديرة. وجرت حركة خفيفة بين الضيوف ، وأشرأبت بعض الأعناق ، إلا أن الجنرالات الجالسين إلى منضدة اللعب ظلوا محافظين على وقار جلستهم . ونفش الروحاني شعره ، وعبس ويسر ، ثم اقترب من المنضدة وأخذ يحرك يديه فى الهواء ، فتمطى جراد البحر ، ورقد على ظهره ، ورفع مخالفه . وكرر الروحاني حركاته وأسرع فيها ، وجراد البحر لا يزال يتمطى .

فسألت الكونتس .

– mais que doit-elle donc faire?^(٤)

فأجابها المستر فوكس بفرنسية تغلب عليها نبرة أمريكية بيئة :

– يجب أن يبقى ساكنا ويقف على ذيله .

وحرك أصابعه فوق الطبق بجهد تشنجي ، ولكن التنويم لم يفلح ، وظل جراد البحر يتحرك . وأعلن الروحاني أنه ليس فى حال من التهيو النفسى تساعد على العمل . وابتعد عن المنضدة فى سخط ظاهر . وأخذت الكونتة تعزيه مؤكدة أن مثل هذا

(١) « نعم – نعم ، سترون » .

(٢) « إليك ياسيدتى » .

(٣) « شكرا ، شكرا . هيا يامسيو فوكس . أرنا » .

(٤) « ولكن ماذا يجب أن يعمل ؟ » .

الفشل يتفق أحيانا للمستتر هوم نفسه ... وأمن الأمير كوكو على ماذكرته . وتسأل أستاذ التلمود ورسائل القديس يوحنا إلى المنضدة ، وأخذ يحرك أصابعه حركات سريعة عنيفة صوب جراد البحر ، مجربا حظه هو أيضا ، ولكن بدون فائدة ، ، إذ لم يظهر على جراد البحر أية علامة من علامات الهمود . عندئذ نودى النادل ، وأمر أن يأخذ جراد البحر ، ففعل ذلك وهو يبتسم ابتسامته العريضة . وسمع ينفجر ضاحكا خارج الباب ... وتلا ذلك ضحك كثير فى المطبخ *uber diese Russen* (١) . وكان العبقرى الذى علم نفسه قد بدأ يعزف أثناء التجارب على جراد البحر ، ملتزما نغمات حزينة ، زعما بأن للموسيقى تأثيرا لايمكن معرفته أو التكهّن به . فلما انتهت هذه التجارب عزف فالسه الذى لا يتغير ، وقوبل باستحسان عظيم طبعاً . ولذعت الغيرة الكونت هـ . الهاوى الذى لا يبارى (انظر الفصل الأول) ، فغنى أغنية صغيرة من تلحينه ، سرقتها جملة من أوفنباخ . وكانت كل السيدات تقريبا يحركن رعوسهن يمنة ويسرة مع جوابها المرح (*quel oeuf, quel boeuf*) (٢) . ويبلغ الطرب بإحداهن أنها تنهدت برقة . وكانت الكلمة التى لا بد منها ! *charmant ! charman!* .. تتردد على كل شفة ، وتبادلت إيرينا نظرة مع لتفينوف ، واختلج على شفيتها مرة أخرى ذلك المعنى الساخر المستتر .. ولكنه لم يلبث أن صرح بل مازجه شىء من التشفى عندما بدا للأمير كوكو ، ممثل مصالح النبلاء وراعيها ، أن يبسط آراءه لمحضر الأرواح ، فأعاد بالطبع عبارته المشهورة عن تزعزع مبدأ الملكية ، وأردفها طعنا شديدا فى الديموقراطيين . وثار الدم الأمريكى فى عروق محضر الأرواح ، وأخذ يجادل ، فجعل الأمير يصيح كعادته بأعلى صوته ، ويستعيز عن كل نقاش بأن يكرر دون انقطاع *C'est absurde ! Cela n'as pes le ens commun* (٣) وبدأ المليونير فينيكوف يقذف بالفاظ السباب ، دون أن يبالي من نصيب ، وأصبح صوت التلمودى صغيرا ، وصوت الكونتس « س » صريرا ... نعم ، لقد ثارت ضجة متنافرة لا معنى لها كتلك التى ثارت عند جورباريوف ، ولم يكن ثمة فارق إلا انعدام البيرة ودخان التبغ ، وأن الناس هنا أحسن ملبسا ممن عند جورباريوف . وحاول راتميروف

(١) « من هؤلاء الروس » .

(٢) « أى بيضة ، أى بقرة » .

(٣) « هذا مضحك ! هذا غير معقول » .

أن يعيد السلام (فقد أظهر الجنرالات استياءهم ، وصاح بوريس .
(^(١) encore cette satanépolitique) لكن جهوده لم تنجح . وضمن لها الفشل أن أحد
الحاضرين ، وكان موظفا كبيرا من ذلك الطراز المتسلل المتطفل ، أخذ على نفسه أن
يعرض le resumé en peu de mots (^(٢) - فجعل يطن وينبح ، ويبدئ ويعيد ، وكان
عاجزا بينا عن سماع الاعتراضات الموجهة إليه أو فهمها ، قاصرا قصورا واضحا عن
إدراك لب « المسألة » la question ، فانتهت وساطته كما ينبغي أن تنتهى . وزاد
الأمر سوءاً أن إيرينا كانت تستثير المتجادلين بخبث ، تغرى بعضهم ببعض ، بينما هي
تتبادل النظرات والإشارات السريعة مع لتفينوف ... ولكنه كان جالسا كأنما انعقد
لسانه ، لا يسمع شيئا ، ولا ينتظر شيئا ، إلا أن تلمع هاتان العينان الرائعتان مرة
أخرى ، وأن يضىء عليه ذلك الوجه الشاحب الرقيق العابت البديع مرة أخرى ...
وانتهى الأمر بأن ضجرت السيدات ورجون أن ينقطع الجدل ... وسأل راتميروف
الهاوى أن يعيد أغنيته ، وعزف العبقري العصامي فالسه مرة ثانية ..

بقى لتفينوف حتى جاوز الليل منتصفه ، وكان آخر من ودع ، ودار الحديث فى أثناء
الليل حول عدد من الموضوعات ، أخلت بعناية من كل ما يثير الاهتمام . ويعد أن
انتهى الجنرالات من لعبتهم الدمية ، اشتركوا فى الحديث ببهاء . وسرعان ما ظهر نفوذ
هؤلاء الكبراء ، فقد دار الحديث حول بنات الهوى الباريسييات الشهيرات . اللواتى بدا
كل امرئ عليهما بأسمائهن ومواهبهن ، وحول مسرحية ساردو الأخيرة ، وقصة لآبو ،
ويأتى فى « الترافيانا » واقترح أحد الحاضرين لعبة السكرتير au secretaire ، ولكن
اللعبة لم تنجح ، فقد كانت الإجابات فاترة ولم تخل أحيانا من غلطات نحوية ، وروى
الجنرال السمين أنه سئل مرة :

Qu'est-ce que l'amour? (^(٣) فاجاب :

Une colique remontée au coeur, (^(٤) . وانطلق يضحك ضحكته الجافة ،
فضربته الطلل البالى بمروحتها على يده ، فسقطت قطعة من الجص عن جبينها لهذا
الاندفاع . وبدأت الحيزبون تذكر الإمارات الصقلبية ، وضرورة نشر الدعاية

(١) « هذه السياسة اللعنية مرة أخرى » .

(٢) « الخلاصة فى قليل من الكلمات » .

(٣) « ما الحب ؟ » .

(٤) « إمساك فى القلب » .

الارثوذكسية فى وادى الدانوب ، ولكنها لم تلق جوابا فصفرت وسكتت . وقد تحدثوا فى الحقيقة عن هوم أكثر مما تحدثوا عن أى شىء سواء ، ووصفت ملكة الضبايير كيف رأت هى نفسها يدين تزحقان عليها ، وكيف وضعت خاتمها فى أصبع إحدى اليدين .

لقد انتصرت إيرينا أى انتصار . وحتى لو أعار لتفينوف ما يقال حوله اهتماما أكبر، لما استطاع أن يلتقط من خلال ثرثرتهم المتقطعة الخامة جملة واحدة صادقة ، ولا فكرة واحدة ناصحة ، ولا حقيقية واحدة طريفة . حتى صيحاتهم لم يكن فيها انفعال صادق ، وهجومهم لم تكن فيه حدة صادقة . إلا أنك كنت تسمع بين الحين والحين صرخة عدااء تلفت من تحت قناع الحمية الوطنية ، أو الكبرياء المتألهة ، معبرة عن خوفهم من الخسارة المالية ، ويضعة أسماء لن تنساها الأجيال القادمة ينطقونها بين صرير الأنياب .. ولا تجد تحت كل هذه الضوضاء وهذا الهراء قطرة واحدة من ماء الحياة ! يا للعبث السخيف ، يا للتفاهات المجوجة التى تمتص كل تلك الرعوس والقلوب ، لا فى ذلك المساء حده ، ولا حين يجتمعون فقط ، بل فى بيوتهم أيضا ، فى كل ساعة وفى كل يوم ، فى طول وجودهم وعرضه ! ويا لجهلهم إذا قالوا كل ما لديهم ! ما أعجزهم عن فهم كل ما بنيت عليه الحياة الإنسانية ، كل ما به جمال الحياة !

وحين ودعت إيرينا لتفينوف شدت على يده مرة أخرى وهمست معرضة :

- حسنا . أيكفيك ما رأيت ؟ إنه بديع ، أليس كذلك ؟

فلم يجبها ، ولم يزد على أن انحنى انحناء كبيرة صامته .

وبقيت إيرينا وحيدة مع زوجها . وكانت تهم بالذهاب إلى حجرة نومها حين استوقفها قائلاً وهو يستند على رف المدفأة ويدخن لفيفة :

Je vous ai beaucoup admirée ce soir, madame, vous vous êtes parfaitement moquée de nous tous ^(١)

فأجابت دون مبالاة :

pas plus cette fois que les autres. ^(٢)

فسألها راتميروف :

- ماذا أفهم مما تقولين ؟

(١) « لقد أعجبت بك الليلة ياسيدتى - إنك سخرت منا جميعا سخيرة بارعة » .

(٢) « لم زكن أكثر سخيرة من المرات الأخرى » .

– لك أن تفهم ما تريد .

– مم .. C'est clair ^(١) .

ونفض راتميروف رماد اللقيفة بطرف ظفر خنصره الطويل ، فى عناية أشبه بحركات القط . ومضى يقول :

– على فكرة ! صديقك الجديد هذا – ما اسمه ؟ – السيد لتفينوف ... لعله معروف بذكائه الشديد ؟

والتفتت إيرينا مسرعة عندما سمعت اسم لتفينوف :

– ما الذى تعنيه ؟

فابتسم الجنرال :

– إنه يلتزم الصمت ... وواضح أنه يخشى أن يتورط إذا تكلم . فابتسمت إيرينا أيضا . ولكن ابتسامتها لم تكن كابتسامة زوجها .

– الصمت خير من الكلام ... كما يتكلم بعض الناس .

فأجاب راتميروف وهو يتظاهر بالاستسلام :

– Attrapé! ^(٢) ولكنه – دون مزاح – نوجه جذاب . وجه يبدو عليه الجد ... وسلوكه عامة ... أجل – وأصلح الجنرال رباط عنقه ، وألقى برأسه إلى الخلف متأملا شاربه – أخاله جمهوريا كصديقك الآخر بوتوجين . وهذا أيضا أحد أصدقائك البكم الأذكياء .

وارتفع حاجبا إيرينا ببطء فوق عينيها الشاخصتين الصافيتين ، وزمت شفيتها زمة خفيفة ، وقالت فى عطف ساخر :

– ما غرضك من هذا القول يا فاليريان فلاديميروفيتش ؟ إنك تطيش سهامك ... لسنا فى روسيا ، ولا أحد هنا يسمعك .

وكأنما لسع راتميروف . فبدأ يقول وقد انقلب صوته عاليا خشنا :

(١) «هذا جلى» .

(٢) «وقعت!» .

- ليس هذا رأى فحسب يا إيرينا بافلوفنا . غيرى يلاحظون أيضا أن لهذا السيد مظهر المتأمرين .

- حقا ؟ ومن هؤلاء ؟

- حسنا ... بوريس مثلا ...

- ماذا ؟ أهذا أيضا له رأى ؟

وهزت إيرينا كتفها كأنما لدغتها نسمة باردة ، وأمرت أصابعها فى بطء عليهما .

- هذا أيضا ؟ نعم هذا أيضا . اسمحى لى يا إيرينا بافلوفنا أن ألاحظ أنك غاضبة ، وتعلمين أن الغضب ...

- أنا غاضبة ، أوه ، له ؟

- لا أدرى . لعلك استأت مما قلته عن ...

فكرت إيرينا مستفهمة :

- عن ... دعك من السخرية ولا تطل ، فأنا متعبة ونعسانة .

وتناولت شمعة من فوق المائدة :

- عن ... ؟

- حسنا . عن هذا السيد لتفينوف ، فلا شك الآن أنك مهتمة به اهتماما كبيرا .

فرفعت إيرينا اليد التى كانت تمسك بها حامل الشمعة حتى وازى اللهب وجه زوجها ، ونظرت فى عينيه مليا وكأنها تتعجب ، وفجأة انفجرت ضاحكة .

فسأل راتميروف متجهما :

- ماذا ؟

واستمرت إيرينا تضحك . فكرر : « حسنا ، ما الأمر ؟ » ودق الأرض بقدمه . كان يحس أنه طعن واهين ، وكان مع ذلك مأخوذا بجمال هذه المرأة التى تواجهه فى هذه الخفة والجسارة ... لقد كانت تعذبه . رآها كلها . كل مفاتنها ، حتى ظل أظافرها الوردى على أطراف أناملها المرفهة وهى قابضة على ريز الحامل القاتم . أجل ، حتى هذا لم يفته ، بينما كانت الإهانة تنفذ فى قلبه عميقة عميقة ، وإيرينا لا تزال تضحك :

وأخيرا نطقت بهذه الكلمات :

- ماذا ؟ أنت ؟ أنت تغار ؟

وأولت الزوج ظهرها وخرجت من الحجرة ، وسمع صوتها من وراء الباب «إنه يغار!»
وأتاه مرة أخرى رنين ضحكها .

لقد أتبعها راتميروف عينيه فى شرود ، ومرة أخرى لم يستطع ألا أن يرى فتنة
قوامها وحركاتها ، فحطم لفيفته على رخامة المدفأة بضربة عنيفة وألقاها بعيدا ،
وشحب خداه فجأة ، ومرت على أسفل وجهه رعدة متشنجة ، وجالت عيناه حول أرض
الحجرة تحمقان فى غباء حيوانى وكأنهما تبحثان عن شىء ... لقد اختفت من وجهه
كل مظاهر الرقة ، ولا بد أن هذا كان منظره حين جلد فلاحى روسيا البيضاء .

وكان لتفينوف قد عاد إلى مسكنه وظل جالسا إلى المنضدة بلا حراك ورأسه بين
كفيه . وأخيرا نهض وفتح صندوقا وأخرج منه حافظة استل من أحد جيوبها الداخلية
صورة شمسية لتاتيانا . وشخص إليه وجهها بحزن ، وقد بدا قبيحا هرما كما تبدو
الصورة الشمسية عادة . كانت خطيبة لتفينوف فتاة روسية صميمة شقراء أقرب إلى
الامتلاء، فى ملامح وجهها بعض الغلظ ، ولكن لها عينين عسليتين صافيتين تفيضان
طيبة وحنوا ، وجبينها أبيض نقيا كأنما استقر عليه شعاع من الشمس . ولبت لتفينوف
برهة طويلة لا يحول نظره عن الصورة ، ثم أراحها برفق وأمسك رأسه بيديه مرة
أخرى ، وأخيرا همس :

- كل شىء قد انتهى يا إيرينا ! إيرينا !

وفى هذه اللحظة وحدها أدرك أنه كان يحبها حبا لا يعرف معنى العقل ، وأنه
أحبها منذ ذلك اليوم الذى لقيها فيه للمرة الأولى عند القلعة القديمة ، وأنه لم ينس
حبها قط . ومع هذا فكم كان يدهش ويستنكر لو قيل له ذلك قبل ساعات قليلة !

« ولكن تانيا ، تانيا ! رياه ! تانيا ، تانيا ! » هكذا راح يردد فى ندم ، بينما تمثل له
شبح إيرينا فى ردائها الأسود الذى يشبه ثوب الحداد ، وقد تألق على وجهها المرمى
هدوء النصر .

لم يتم لتفينوف ليلته ، ولم يخلع ثيابه ، وكان شديد الهم ، فقد كان أمينا صريحا ، يعرف سلطان العهود ، وقداسة الواجب ، ويخجل أن يغالط نفسه فينكر ضعفه وسقوطه . وأستحوذ عليه أول الأمر نوع من البلادة ، فاستسلم لشعور مبهم لم يكدر يستوضحه . ثم تملكه الفزع حين فكر أن مستقبله الذي كاد ينقاد له قد عاد فانزلق إلى الظلام ، وأن بيته الركين الذي لم يكدر يرفعه قد أخذ يتداعى من حوله ... وراح يلوم نفسه لوما عنيفا ، ولكنه ما لبث أن تماسك ، وقال : « هذا ضعف منى . ليس هذا وقت اللوم والندم بل وقت العمل . تانيا هي خطيبتى ، وهى واثقة بحبى وشرفى ، وقد ارتبطنا مدى الحياة ، ولا يمكن أن تنفصل ، بل يجب ألا تنفصل . » وتمثل كل فضائل تانيا ، وأطنب فيها ، وأحصاها بعقله ، وهو يحاول أن يوقظ فى نفسه الرقة والحنان . وفكر مرة أخرى : « لم يبق لى الا شىء واحد : أن أرحل من فورى ولا أنتظر عودتها ، إن أسرع إلى لقائها . وقد أتاكم ، وقد أكون شقيا مع تانيا - وإن كنت أستبعد هذا - ولكننى على كل حال يجب ألا أفكر فيه . يجب أن أؤدى واجبى ولو مت فى سبيله ! » فهمس صوت آخر فى أعماق نفسه : « ولكن لا يجرى بك أن تخذعها ، ليس من حقك أن تخفى عنها اختلاف مشاعرك . ألا يجوز أن تأبى الزواج منك حين تعلم أنك تحب امرأة أخرى ؟ » فيجيب : « كلام فارغ ! كلام فارغ ! ما هذه إلا سفسطة ، مغالطة مخجلة ، فضيلة كاذبة . لا يحق لى أن أحنث فى كلمتى ، هذا ما لا شك فيه . حسنا ، إذن فلأرحل من هنا دون أن أرى الأخرى ... »

ولكن قلبه خفق خفقا أليما حين قال ذلك ، واعتراه برد ، وأخذته رعدة ، واصطكت أسنانه بضعف . وتمدد وتتأعب كأنه فى حمى . ولم يصر على فكرته الأخيرة بل كتبها وراغ منها . إنما راح يتعجب ويتساءل كيف استطاع مرة أخرى أن يحب تلك المخلوقة الدنيوية المنحلة ، التى كان يجد كل ما حولها بغیضا منفرا . وحاول أن يواجه نفسه بهذا السؤال : « ولكن حدثنى : أنحبها حقا ؟ » فما استطاع إلا أن يطرد السؤال على الفور بإشارة من يده . وكان لا يزال يتعجب ويتساءل بينما تصعد أمامه من مثل الضباب الناعم العبق صورة ساحرة ، وترتفع أهداب طويلة حريرية ، فتضرب العينان الرائعتان فى قلبه بنعومة نافذة ، ويرن الصوت رنينه الحلو ، وتموج الكفتان المتألفتان ، ككتفى ملكة ، بأنفاس الفتوة والشهوة الناعسة .

* * *

حينما اقترب الصباح ، كان قد انعقد فى عقل لتفينوف عزم . لقد قرر أن يرحل فى ذلك اليوم ليقابل تاتيانا ، وأن يرى إيرينا للمرة الأخيرة ويخبرها بالحقيقة كلها ، إذا لم يكن من ذلك بد ، ثم يفارقها فراق الأبد .

فرتب أمتعته وحزم حقائبه ، وانتظر حتى الساعة الثانية عشرة ، ثم ذهب إليها . ولكنه حين رأى نوافذها يستأثرها المسيلة خاتمه قبله ... ولم يستطع أن يستجمع شجاعته ليدخل الفندق . فذرع شارع لختتال مرة أو مرتين ذهابا وجيئة ، وفجأة سمع صوتا ساخرا ينادى من فوق عربة خفيفة مسرعة : « أهلا وسهلا بالسيد لتفينوف ! » ورفع لتفينوف عينيه ورأى الجنرال راتميروف جالسا بجانب الأمير م . ، وهو رياضى شهير مشغوف بالعربات والخياد الإنجليزية . وكان الأمير يقود العربة ، والجنرال منحنيا إلى الأمام وقد مال إلى ناحية ، وهو يبدى نواجذه مبتسما ، ويرفع قبعته عالية فوق رأسه . وانحنى له لتفينوف ، وهرع من فوره إلى مسكن إيرينا وكأنه يطيع أمرا خفيا .

كانت هناك . وبعث باسمه ، فأدخل على الفور . ووجدها واقفة وسط الغرفة فى رداء صباحى واسع الكمين ، ووجهها الشاحب كالبارحة ، فى غير نضرة البارحة ، يبدو عليه التعب والإعياء واستقبلت إيرينا زائرها ببسمة وانية زادت ذلك التعبير وضوحا ، ومدت إليه يدها فى ود مازجه شرود .

بدأت تقول بصوت شاك وهى تغوص فى كرسى منخفض :

– أشكرك على مجيئك . لست بخير هذا الصباح ، فقد قضيت ليلة سيئة . حسنا ، ما قولك فيما رأيته البارحة ، ألم أكن على صواب ؟

فجلس لتفينوف وبدأ حديثه قائلا :

– لقد جئت إليك يا إيرينا بافلوفنا ...

فاعتذلت فى جلستها فجأة ، والتفتت إليه ، وأثبتته عيناها ، ثم قالت فى دهشة :

– ما بك ؟ إنك شاحب كالأموات . إنك مريض . ماذا بك ؟

فاضطرب لتفينوف :

– ماذا بى ؟

- هل بلغك خبر سبي؟ هل حدث مكروه؟ أخبرني . أخبرني .
ونظر لتفينوف بدوره إلى إيرينا . وأخيرا قال فى جهد :
- لم تبلغنى أخباراً سيئة . ولكن مكروها حدث . مكروه فظيع .. وهو ما جاء بى إليك .
- مكروه؟ ما هو؟
- هو ... أن ...
وحاول لتفينوف أن يستمر فى حديثه ... فلم يستطع . ولم يزد على أن عقد يديه
حتى طقطقت أصابعه . وكانت إيرينا منحنية إلى الأمام وكأنها استحوالت حجرا .
وأخيرا ندت من صدر لتفينوف أنه خافته :
- أوه ! إني أحبك !
والتفت كأنه يريد أن يخفى وجهه .
- ماذا ؟ أنت يا جريجورى ميهالتش ...
ولم تستطع إيرينا أن تتم جملتها أيضا ، وضعت كلتا يديها على عينيها .
أنت .. تحبنى ؟
فردد فى مرارة وهو يشيح بوجهه قليلا قليلا :
- أجل .. أجل .. أجل ..
كان كل شيء فى الغرفة ساكنا ، وثمة فراشة شاردة ترفرف بجناحيها ، وتجاهد
بين الستارة والنافذة .
واستأنف لتفينوف الحديث قائلا:
- هذا يا إيرينا بافلوفنا ... هذا هو المكروه الذى ... حل بى ، والذى كان
يجب أن أتوقعه وأحاذره ، لولا أنه دهمنى فجأة كما حدث فى أيام موسكو . كأن
القدر يحلو له أن يضطرني مرة أخرى إلى مقاساة العذاب بسببك . عذاب ما كنت
أظن أنه يتكرر ... كان العقل يدعونى إلى المقاومة ... وحاولت أن أقاوم . ولكن لا
مفر من القدر ، وأنا أخبرك بكل هذا لأقطع فورا هذه ... وأضاف بمزيد من الغضب
والخجل - هذه المهزلة الأليمة .

ثم عاد لتفينوف إلى الصمت، وكانت الفراشة لاتزال تجاهد وترفرف . ولم ترفع إيرينا يديها عن وجهها، وجاء همسها من تحت هاتين اليدين البيضاوين كأنما خلتا من الدم :

-أواثق أنت أنك لست مخطئا ؟

فأجاب لتفينوف بصوت باهت :

- لست مخطئا . أنا أحبك ، ومثل هذا الحب لم أحبيه غيرك قط . لا أريد أن ألومك ، هذه حماقة ، ولا أن أكرر لك أنك لو كنت عاملتني معاملة أخرى لما جرى من هذا شيء حقا ، إنني أنا وحدي الملوم، جئت على ثقتي بنفسى ، هذا هو الجزاء الذى أستحقه . وما كان لك أن تقدرى ما سيكون لم يخطر ببالك طبعاً أنه كان أسلم لى لو لم تشعرى أنك أسأت إلى - كما تتخيلين - ولو لم تحاولى الإصلاح ولكن ما كان كان . إنى لم أرد إلا أن أوضح لك موقفى ، ولا حاجة بنا أن نزيد الأمر قسوة . على أنه لن يكون بيننا شيء من سوء التفاهم كما تسمينه ، وسوف تخفف صراحة اعترافى مما لابد أن تحسبه من أذى .

وكان لتفينوف يتكلم دون أن يرفع عينيه . على أنه لو نظر إلى إيرينا لما رأى شيئاً مما يمر على وجهها ، فقد أبقت يديها على عينيها كما كانتا . ولكن ما مر على وجهها ربما كان خليقا أن يذهل لتفينوف ، لقد ارتسم عليه الخوف والسرور ونوع من البهر اللذيذ ، ولعت عيناها لمعانا خفيفا تحت أجفانها المسبلة، وكانت أنفاسها البطيئة المضطربة بردا على شفتيها المنفرجتين الملسوعتين .

صمت لتفينوف ينتظر جوابا أو نأمة ولا شيء . فبدأ يقول مرة أخرى :

- لم يبق إلا حل واحد ، وهو أن أرحل . وقد جئت لأودعك .

فألقت إيرينا يديها ببطء على ركبتيها ، وبدأت تقول :

- ولكنى أذكر يا جريجورى ميهالتش أن . . الشخص الذى حدثنى عنه سيأتى إلى هنا ؟ أأستتظرها ؟

- أجل . ولكنى ساكتب إليها لتتتظر فى بعض الطريق ... فى هيدلبرج مثلا .

- أه هيدلبرج ... أجل ... بلدة جميلة . ولكن هذا كله ينقص خططك بلا شك . أنت على ثقة من أنك لا تبالغ التقدير يا جريجورى ميهالتش ،
(^١)et que ce n, est pas une fausse alarme?

(١) «وأن هذه ليست صيحة كاذبة ؟» .

كانت إيرينا تتكلم بهدوء يوشك أن يكون يروياً . وهي تتوقف وقفات قصيرة ، وتتنظر نحو النافذة . ولم يجب لتفينوف على سؤالها الأخير . فاستمرت تقول :

- ولكن لماذا تتحدث عن الأذى ؟ إنى لست متأذية ... كلا !

وإذا كان أحدنا ملوما فلست أنت الملوم على كل حال ، لست الملوم وحدك ... تذكر محاوراتنا الأخيرة ، وسوف نتأكد أنك لست الملوم .

وتمتم لتفينوف بين أسنانه :

- إنى لم أشك قط فى كرمك ، ولكن أود أن أعلم هل تقريننى على عزمى ؟

- على الرحيل ؟

- أجل .

واستمرت إيرينا تنظر بعيدا .

- لقد بدا لى أولا أن فى قرارك شيئاً من العجلة ، ولكنى فكرت الآن فيما قلته ... وإذا لم تكن مخطئاً فأظن أنه ينبغى أن ترحل . هذا خير ... لكينا .

وكان صوت إيرينا قد أخذ يخفض وينخفض ، وكلماتها تبطئ وتبطئ . وبدأ لتفينوف يقول :

- حقا ... قد يلاحظ الجنرال راتميروف ..

ونكست إيرينا بصرها مرة أخرى ، وارتعش على شففتيها بريق غريب ... لحظة : اختفى . وقاطعته قائلة :

- لا . إنك لم تفهمنى . لم أكن أفكر فى زوجى . لم أفكر فيه ؟ ليس هناك شئ يلاحظ . ولكن أفكر أن القراق ضرورى لكينا .

والتقط لتفينوف قبعته التى سقطت على الأرض وفكر : « لقد انتهى كل شئ » . يجب أن أذهب ... « ثم قال بصوت مرتفع :

- إذن لم يبق لى إلا أن أقول لك وداعا يا إيرينا بافلوفنا .

.. وفجأة أحس بوخزة وكأنه يتأهب لينطق بحكم الإعدام على نفسه - لم يبق لى إلا أن أمل ألا تذكرينى بشر ، و ... وأتأ لو فقاطعته إيرينا مرة أخرى :

- صبرا يا جريجورى ميهالتش . لا تودعنى الآن . هذه مفاجأة غير مستحبة
وبدا أن شيئاً فى لتفينوف يوشك أن يضعف ، ولكن الألم المحرق انفجر فى قلبه
مرة أخرى بعنف مضاعف . صاح .
- ولكنى لا أستطيع البقاء ! لم أبقى ؟ لم أطيل هذا العذاب ،
فرددت إيرينا :

- لا تودعنى الآن . يجب أن أراك ثانية . فراق أخرس آخر كفراقدا فى موسكو ؟
كلا ، إنى لا أريد ذلك . تستطيع أن تذهب الآن . ولكن يجب أن تعدنى - تعدنى
بشرفك أنك لن تذهب إلا بعد أن تزودنى مرة أخرى
- أتريدى هذا ؟

--إنى مصرة عليه . إذا ذهبت دون أن تودعنى فنن أسامحك . أسمع ' لن أسامحك أبدا!
ثم أردفت وكأنها تتخاطب نفسها

- غريب ! لا أستطيع أن أقنع نفسى أنى فى بادن .. لا أحس إلا أنى فى موسكو .
اذهب الآن !

فنهض لتفينوف قائلاً .

- إيرينا بافلوفنا ! هاتى يدك !

فهزت إيرينا رأسها :

- قلت لك لا أريد أن أودعك ...

- لا أريدها لوداع ...

وكادت إيرينا تمد يدها ، ولكنها نظرت إلى لتفينوف للمرة الأولى منذ اعترافه ،
فسحبته وهى تهمس :

- لا لا . لن أعطيك يدى . لا ... لا . يجب أن تذهب .

فانحنى لتفينوف وخرج . ولم يستطع أن يعرف لم أبت عليه إيرينا هذه المصافحة
الآخيرة ... لم يستطع أن يعرف ماذا كانت تخاف .

ذهب وغاصت إيرينا فى كرسيها ثانية ، وغطت وجهها ثانية .

لم يعد لتفينوف إلى مسكنه ، بل ذهب إلى الجبال ، وانتشى إلى خميلة ، فانبطح على الأرض ، وبقي هناك ساعة . لم يكن يخاصم نفسه ، ولم يكن يبكي ، بل كان كمن يغيب عن وعيه في بلاء مؤلم . لم يعرف قط مثل هذا الشعور . لقد كان فراغا مرهقا يأكل نفسه أكلا : فراغ في نفسه وخارج نفسه ، في كل ما يحيط به . فلم يفكر في إيرينا ولا في تاتيانا ، إنما أحس بشيء واحد : أحس أن الضربة وقعت فانقطعت الحياة كالحرير ، وحملته قوة باردة غريبة ، كان يخيّل إليه أحيانا أن إعصارا انقض عليه ، وكان يحس عصفه ، وخفق أجنحته السوداء . ولكن عزمه لم يتزعزع . البقاء في بادن ... هذا ما لا يمكن التفكير فيه . لقد رحل بالخاطر فعلا ، وإنه لجالس في عربة صاخبة دخنة ، يسرع ويسرع في البعد الآخرس الميت ونهض أخيرا ، واعتمد برأسه على شجيرة ، ولبت دون حراك ، إلا أنه مد يده بلا وعى إلى العقدة العلية من شجرة سرخس ، وراح يهزها هزات متناغمة .

ونبهه من همومه وقع أقدام مقترية : كان خطابان ينحدران في شعب الجبل وعلى ظهريهما زكيتان كبيرتان . فهمس لتفينوف : « حان الوقت ! » وتبع الخطابين إلى المدينة ، ومال إلى المحطة ، فأرسل برقية إلى كاييتولينا ماركوفنا عمة تاتيانا . وفي هذه البرقية أخبرها أنه راحل من فورهِ ، وعين الملتقى في فندق شرادر بهيرلبرج .

كان يقول لنفسه : « أسرع . أسرع بإنهاء الأمر . لا فائدة من تأجيله إلى الغد . » ودخل بهو القمار ، وحدق بتطلع بليد في وجوه بعض المقامرين ، ورأى عن بعد منظرا خلفيا لرأس بنداسوف الكريه ، ورأى وجهه بشتشالكن الواضح وبعد أن انتظر قليلا في بهو الأعمدة ، ذهب إلى إيرينا وقد استجمع عزمه . لم يدفعه إليها دافع فجائي قاهر ، ولكنه حين قرر أن يرحل قرر أيضا أن يبر بوعده ، وأن يذهب ليراها مرة أخرى . ولم يلحظه البواب حين دخل ، ولم يصادفه أحد على السلم ، ولم يطرق الباب بل دفعه بحريه إليه ودخل .

كانت إيرينا جالسة على نفس الكرسي ، بنفس الثوب ، في نفس الوضع كما تركها منذ ثلاث ساعات ... وكان جليا إنها لم تغادر مكانها ، ولم تأت بحركة طوال ذلك الوقت . رفعت رأسها ببطء ، فلما رأت لتفينوف ارتعد جسمها كله ، وقبضت على ذراع الكرسي ، وهمست :

- أفزعتنى .

ونظر إليها لتفينوف بدهشة صامتة ، فقد راعه تعبير وجهها وانطفاء عينيها .

وابتسمت إيرينا ابتسامة مقتصبة ، وسوت شعرها المشعث :

- لا ترع ... أنا لا أدري فى الحقيقة ... لابد أنى نمت هنا .

فقال لتفينوف :

- عفوا يا إيرينا بافلوفنا ، لقد دخلت دون استئذان ... أردت أن أعمل ما بدا لك أن

تطلبه منى ، وبما أنى راحل اليوم ...

- اليوم ؟ ولكنى أظنك قلت أنك ستكتب خطابا ...

- لقد أرسلت برقية .

- أه ! رأيت أن تسرع . ومتى تذهب ؟ أعنى فى أية ساعة ؟

- الساعة السابعة مساء .

- أه ! الساعة السابعة ! وقد جئت تودعنى ؟

- نعم يا إيرينا بافلوفنا . جئت أودعك .

وصمتت إيرينا برهة .

- يجب على أن أشكرك يا جريجورى ميهالتش . لعل قدومك إلى هنا لم يكن هينا عليك .

- نعم يا إيرينا بافلوفنا . إنه لم يكن هينا .

- الحياة كلها غير هينة يا جريجورى ميهالتش . ألا ترى ذلك ؟

- هذا يتوقف على أمور كثيرة يا إيرينا بافلوفنا .

وصمتت إيرينا مرة أخرى ، وكأنها غرقت فى التفكير ، وأخيرا قالت :

- أنت أثبت صدق عاطفتك نحوى بقدومك . شكرا لك . إننى أوافقك تماما على

قرارك بإنهاء الأمر كله فى أقرب وقت ... لأن كل تأجيل ... لأنى أنا ... حتى أنا التى

اتهمتنى بأنى ملاعبة ، وسميتنى ممثلة ... أظن هذه هى الكلمة التى قلتها ؟

ونَهَضت إيرينا مسرعة ، وجلست على كرسي آخر ، وانحنى إلى الأمام وضغطت
وجهها وذراعيها على حافة المنضدة . وهمست بين أصابعها المطبقة :

- لأنى أحبك ...

وترنح لتفينوف كأن أحدا صكه على صدره . وحولت إيرينا رأسها عنه بحزن ،
كأنها تريد بدورها أن تخفى وجهها عنه ، ووضعت على المنضدة .

- أجل . إنى أحبك ... إنى أحبك ... وأنت تعلم ذلك .

قال لتفينوف أخيرا :

- أنا ؟ أنا أعلم ؟ أنا ؟

فمضت إيرينا تقول :

- حسنا . الآن ترى أنك يجب أن تذهب حقا ، وأن التأجيل محال . لا أنا ولا أنت
نستطيع ذلك . إنه خطر ، إنه مروع ... وداعا ! - وأضافت باندفاع وهى تنهض عن
كرسيها : وداعا !

وسارت بضع خطوات نحو باب مخدعها ، ووضعت يدها وراء ظهرها ، وحركتها
حركة سريعة فى الهواء وكأنها تريد أن تلاقى يد لتفينوف وتضغط عليها ، ولكنه وقف
عن بعد كعمود من الحجر فقالت مرة أخرى :

- وداعا . انسنى .

وذهبت مسرعة دون أن تلتفت .

بقى لتفينوف وحيدا ، ولكنه لم يستطع أن يثوب إلى نفسه . وأخيرا جمع حواسه
وذهب إلى باب المخدع ، ونطق باسم إيرينا مرة ومرة ومرة ... وكانت يده على القفل ...
وارتفع من درج الفندق صوت راتميروف الأغن ... فجذب لتفينوف قبعته على عينيه .
وخرج إلى الدرج . كان الجنرال الأنيق واقفا أمام مدخل البواب السويسرى ، يبين له
بألمانية ركيكة أنه يريد استئجار عربة طول اليوم . فلما وقع نظره على لتفينوف عاد
فرفع قبعته عالية فوق رأسه و« رحب » به ترحيبا شديدا . وكان جليا أنه يهزأ به ،
ولكن لتفينوف كان فى شغل عنه ، فلم يكدر يرد تحيته ، ومضى إلى مسكنه حيث وقف
أمام حقيبته المعدة المغلقة ، ورأسه يدور ، وقلبه يتذبذب كوتر قيثارة . ماذا يعمل الآن ؟
وهل كان يستطيع أن يتوقع ذلك ؟

أجل ، إنه كان يتوقع ذلك وإن لم يستطع تصديقه . لقد فاجأه كالمصاعقة ، ولكنه كان يتوقعه ، ولم يجسر على الاعتراف به لنفسه . ومع ذلك فإنه الآن غير واثق من شيء . كان كل شيء فيه يغلى ويضطرب . وانقطع حبل أفكاره . وتذكر موسكو ، وتذكر كيف فاجأه « ذلك » من قبل كما تفاجأ العاصفة السفين . وانبهرت أنفاسه ، وعربدت في قلبه نشوة يائسة مضنية كادت تختنقه . لا شيء في العالم كان يساوى عنده تلك الكلمات التي نطقت بها إيرينا ... ولكن ماذا بعدها ؟ إن تلك الكلمات ما كانت برغم كل هذا لتغير عزمه ، بل ظل ثابتا كما كان راسخا كأنه المرساة . لقد انقطع خيط أفكاره .. نعم ، ولكن بقيت له إرادته واقتاد نفسه كما لو كانت رجلا آخر يعتمد عليه . فطلب خادم الفندق ، وسأله عن حسابه ، وحجز مكانا في سيارة المساء . لقد تعمد أن يقطع على نفسه كل طريق للهرب ، وصاح : « ولو مت في سبيله ! » كما صاح في الليلة السابقة المسهدة ، وكأنما أعجبت تلك العبارة .. وراح يردد وهو يقبل ويدبر في غرفته : « ولو مت في سبيله ! » ولكن كلمات إيرينا كانت تعود مرة بعد مرة فتغزو قلبه وتحرقه بمثل النار ، فيغمض عينيه بلا إرادة ، ويحبس أنفاسه ، ويقول لنفسه : « لا أحسبك تحب مرتين . حياة أخرى تأتي إليك ، وتدعها تمتزج بحياتك ، فلا تخلص أبدا من ذلك السم ، ولا تحطم أبدا تلك القيود ! أجل ، ولكن ما معنى هذا ؟

السعادة ؟ .. أهى ممكنة ؟ أنت تحبها ، فلنسلم بذلك ... وهى ... هى تحبك .. »

ولكنه هنا يعود فيستجمع قوته . وكما يرى المدلج في الليل البهيم ضوءاً أمامه فلا يحول عينيه عنه لحظة واحدة حتى لا يضل الطريق ، كذلك وجه لتفينوف قوة انتباهه كلها نحو نقطة واحدة ، نحو غرض واحد : أن يصل إلى خطيبته ، وليس إلى خطيبته بالدقة (فقد كان يحاول ألا يفكر فيها) بل إلى غرفة في فندق هيدلبرج . ذلك ما كان يلوح له النور الهادئ . أما ما يكون من بعد فلم يكن يعلمه ، ولا يريد أن يعلمه ... كان هناك شيء واحد لا يرتقى إليه الشك : إنه لن يعود . وردد للمرة العاشرة : « ولو مت ! » ونظر الى ساعته . السادسة والربع ! ما أطول الانتظار ! وذرع الغرفة مرة أخرى مقبلا ومدبرا . كانت الشمس على وشك المغيب ، والسماء حمراء قانية فوق الأشجار ، والشفق الوردى يسيل من النوافذ الضيقة الى حجرته المغطشة . وفجأة خيل للتفينوف أن الباب قد فتح وراءه في هدوء وسرعة ، وأغلق في هدوء وسرعة كذلك ... فالتفت ، وإذا بامرأة في شملة سوداء تقف عند الباب ... فصاح وهو يصفق بيديه في ذهول :

- إيرينا !

فرفعت رأسها ، وهوت على صدره .

وبعد ساعتين كان جالسا على أريكة في غرفته ، وقد انزوى صندوقه في ركن مفتوحا فارغا ، وعلى المائدة بين ما نثر عليها من الأشياء رسالة من تاتيانا تلقاها منذ برهة ، تقول فيها إنها عازمت على أن تعجل بالرحيل عن درسدن ، إذ أن عمتها عوفيت تماما ؛ فإن لم يَعُقْها شيء فسوف يكونان في بادن في الساعة الثانية عشرة من اليوم التالي . ورجت أن يقابلهما على المحطة . وكان لتفينوف قد استأجر لهما حجرة في فندقه .

وفى نفس المساء بعث بكلمة إلى إيرينا ، فتلقى منها هذا الجواب في الصباح التالي :

« كان لابد أن يحدث ذلك إن قريبا وإن بعيدا . أكرر لك ما قلته البارحة : إن حياتي بين يديك ، فافعل بي ما تشاء . أنا لا أريد أن أحد حريتك ، ولكنى أقول لك إنى سأرمى كل شيء وأتبعك إلى آخر الدنيا إذا اقتضى الأمر . سنلتقى غدا بالطبع ... حبيبتيك إيرينا » .

وكانت الكلمتان الأخيرتان مكتوبتين بخط كبير ثابت قوى .

:

كان لتفينوف بين المجتمعين على رصيف محطة السكة الحديدية فى الثامن عشر من أغسطس عند الساعة الثانية عشرة . وكان قد رأى إيرينا منذ برهة ... رآها جالسة فى عربة مكشوفة ومعها زوجها وسيد آخر متقدم فى السن . ووقع نظرها على لتفينوف ، فلاحظ أن انفعالا غامضا لمع فى عينيها ، ولكنها سرعان ما تورات منه خلف مظلتها .

كان قد حل به انقلاب غريب منذ اليوم السابق - انقلاب شامل فى مظهره وتعبير وجهه ، وكان يحس حقيقة أنه رجل غير الذى كان . لقد تلاشت ثقته بنفسه ، كما تلاشى هدوء ذهنه ، واحترامه لذاته . لم يبق من حالته النفسية السابقة شئ ، وإذا طغت تجارب حديثة لا تنسى على كل ماعداها ، واستولى عليه إحساس قوى حلو خبيث لم يعهده قط من قبل ، ونفذ ضيف غامض إلى محرابه الأقدس فاستحوذ عليه ، وورقده فيه صامتا إلا أنه متبجح كالمالك فى بيت جديد . لم يعد لتفينوف يشعر بالخجل ، ولكنه كان خائفا ، وكانت تتملكه مع ذلك شجاعة يائسة . الأسرى والمهزومون يعرفون مثل هذا الخليط من إحساسات متناقضة ، كما يعرفه اللص بعد سرقة الأولى . وقد هزم لتفينوف فجأة ... أين أمانته ؟

تأخر القطار خمس دقائق فاستحال قلق لتفينوف إلى عذاب أليم ، ولم يستطع أن يقر فى مكان ، بل ظل يتحرك فى الزحام حركة ثقيلة مدفعة وهو يحدث نفسه : « رباه ! لو كان أمامى أربع وعشرون ساعة أخرى ! » ... أول نظرة إلى تانيا ، وأول نظرة من تانيا . هذا ما ملأه خوفا ... هذا ما أراد أن يخلص منه سريعا .. ثم ماذا ؟ ثم ... ليكن ما يكون ! .. لقد كف الآن عن التقرير والتدمير ، لأن نفسه لم تعد ملكا له . وومضت فى ذهنه صيحة الأمس وميضاً مؤلماً ... هكذا يلقي تانيا ! ..

وأخيرا سمع صفير ممطوط ، وكركرة ثقيلة تشتد كل لحظة ، ولاح القطار ينثنى فى ببطء عند منحنى من منحنيات الطريق . وأسرع الجمهور لاستقباله ، وتبعهم لتفينوف يجر قدميه كرجل حكم عليه بالموت . وأخذت تظهر من العربات وجوه وقبعات سيدات ، ورفرف من إحدى النوافذ منديل أبيض ... كانت كاييتولينا ماركوفنا تلوح له ... انتهى الأمر . لقد بصرت به وعرفها . ووقف القطار ، وأسرع لتفينوف إلى باب العربة وفتحه . كانت تاتيانا واقفة قرب عمتها ، تبسم بسملة مشرقة ، وتمد إليه يدها .

وأعانهما كليهما على النزول ، ورحب بهما بكلمات تافهة مختلطة ثم جعل يضطرب هنا وهناك : يتناول تذكرتيهما وحقائب سفرهما وملاحفهما ، ينطلق ليبحث عن حمال ، ينادى ليستأجر مركبة . وكان سائر الناس من حوله فى هرج ، وكان مسرورا بوجودهم وضجيجهم وصياحهم . وابتعدت تاتيانا قليلا ، وانتظرت حتى يفرغ من تدابير السريعة وهى لا تزال تبسم . أما كاييتولينا ماركونا فكانت لا تستطيع قرارا وكأنها لا تصدق أنها أصبحت أخيرا فى بادن .

صاحت فجأة :

– المظلتان ! تانيا ! أين المظلتان ؟ – ولم تلاحظ أنها كانت قابضة عليهما بشدة تحت إبطها . ثم أخذت تودع سيدة صادفتها فى الطريق من هيدلبرج إلى بادن وداعا صاخبا طويلا .

ولم تكن هذه السيدة إلا صاحبتنا مدام زوهانتشيكوف ، وقد ذهبت إلى هيدلبرج لتقدم ولاعها إلى جوباريوف وعادت تحمل « توجيهاته » . وكانت كاييتولينا ماركونا تلبس شملة مخططة غريبة الشكل ، وقبعة سفر يشبه شكلها شكل الكماة ، وينفر من تحتها شعرها الأبيض الخفيف . وكانت قصيرة نحيلة ، يعلو وجهها احمرار السفر ، وتتكلم الروسية بصوت منغم يخرق الآن ... فسرعان ما أخذ الناس ينظرون إليها .

وأخيرا أجلسها لتفينوف مع تاتيانا فى عربة ، وأجلس نفسه ازاكما . وانطلقت الجياد ، وأعقبها الاستفسار والمصافحة وتبادل البسمات والتحيات ... وتنفس لتفينوف الصعداء . لقد مرت اللحظة الأولى بسلام ، ولم يزعج تاتيانا منه شيء ولا أرابها شيء ، فقد كانت تبسم بسمتها الوضيئة الواثقة ، وتحمر احمرارها الفاتن ، وتضحك ضحكها السمع وأخيرا فرض على نفسه أن ينظر إليها نظرة صريحة مباشرة لا سارقة عابرة – وكانت عيناه لا تطاوعانه على النظر إليها – فحقق قلبه بانفعال لا إرادى : لقد بعث فيه ذلك السلام الذى كان يلوح على وجهها الصريح الأمين لذعة تأنيب مرير ، فقال فى نفسه : « إذن فقد جئت يابنيتى المسكينة ، يا من كنت أستعجلها وأتشوق إليها ، وأريد أن أقضى معها العمر كله ! لقد جئت . لقد وثقت بى .. وأنا .. وأنا .. » وأطرق لتفينوف ، ولكن كاييتولينا ماركونا لم تمنحه وقتا للتأمل ، بل أخذت تمطره بالأسئلة :

– ما هذا البناء ذو الأعمدة ؟ أين يلعبون القمار ؟ من هذه المقبلة ؟ تانيا ! أنظرى ياتانيا ! ما أعجب هذه الرافعات ! وهذه من عساها تكون ؟ أظن أكثر هذه المخلوقات من باريس؟ يالله ! أى قبعة هذه ! اتجدون كل شيء فى الحوانيت هنا كما فى باريس ؟

ولكن لابد أن الأشياء باهظة الثمن ! هه ؟ يا لها من سيدة ذكية نادرة هذه التى تعرفت بها فى القطار ! أنت تعرفها يا جريجورى ميهالتش . وقد وعدت أن تزورنا . ما أروعها حين تنتقد هؤلاء الارستقراطيين ! من هذا السيد ذو الشارب الأشيب ؟ ملك بروسيا ؟ تانيا ، تانيا ، انظرى ! ملك بروسيا ! لا ؟ ليس ملك بروسيا ! سفير هولندا ؟ أنا لا أسمع ! العجلات تكركر كركرة ! آه ! ما أجمل الأشجار !

فوافقتها تاتيانا قائلة :

- نعم جميلة يا عمى ، وما أبهج كل شىء هنا وما أنضره ! أليس كذلك يا جريجورى ميهالتش ؟

فأجاب من بين أسنانه :

- نعم ، بهيجة جدا .

ووقفت العربية أخيرا أمام الفندق ، وقاد لتفينوف المسافرتين إلى الحجرة التى أعدت لهما . ووعد أن يعود قبل ساعة .. وذهب إلى حجرتة . وما كاد يدخلها حتى استولى عليه من جديد ذلك السحر الذى نام لحظة . هنا فى هذه الحجرة كان عرش إيرينا وتاجها منذ يوم ، كان كل شىء يحدث عنها بلسان فصيح ، والهواء نفسه كأنما علق أثارا خفية منها ... وأحس لتفينوف مرة أخرى أنه عبدها . أبرز منديلها الذى أخفاه فى صدره ، وضمه إلى شفتيه ففاضت فى عروقه الذكريات اللاهية كالسم الوحى . وعرف أن لا نكوص ولا خيرة الآن . لقد ذاب من نفسه العطف الحزين الذى أثارته تاتيانا كما يذوب الثلج فى النار ، وخبا الندم ... خبا حتى اطمأن قلبه ، ولم تعد فكرة الخديعة تثير اشمئزازه ... الحب ، حب إيرينا .. ذلك هو حقيقته الآن ، هو قانونه ، هو ضميره .. ولم يتمهل لتفينوف العاقل الحريص ليفكر فى النجاة من موقف كان شعوره بفضاعته وشناعته لا يتجاوز الخطرة العابرة ، وكأنه أمر لا يعنيه .

وما كادت الساعة تمر حتى جاءه خادم الفندق رسولا من النزيلتين الجديدتين . كانتا تسألان أن يلحق بهما فى بهو الفندق . فتبع الرسول ووجدهما فى ملابس الخروج وقبعاتهما على رأسيهما . وأبدت كلتاهما الرغبة فى الخروج على الفور لتريا بادن ، لأن الطقس كان جميلا ، وكانت كاييتولينا ماركوفنا على الخصوص لا تطيق صبرا ، وحزنت حين علمت أن الساعة المختارة للنزهة أمام بهو السمر لم تحن بعد . وأعارها لتفينوف ذراعه ، وانطلقوا للفرجة . وكانت تاتيانا تسير بجانب عمته وهى تنظر حوالىها بتطلع هادىء ، وكاييتولينا ماركوفنا ماضية فى أسئلتها . وكان مرأى

الروليت ، والكروبييه ذوى المهابة الذين لو أبصرتهم فى أى مكان آخر لحسبتهم وزراء ،
والعصى السريعة الحركة ، وأكوام الذهب والفضة على القماش الأخضر ، والعجائز
المقامرات ، والغوانى المتبرجات - كان مرأى ذلك كله باعثاً لذهولها الأيكم . فنسيت كل
النسيان أنها ينبغى أن تثور على ما تراه من فساد ، ولم تستطع إلا أن تحديق وتحديق ،
وهى تنتفض دهشة لكل منظر جديد .. وكان أزيز العجلة العاجية فى قاع الروليت يبعث
الرعدة فى نخاع عظامها ، وإنما استعادت قوتها حين خرجت إلى الهواء الطلق ،
وتنفست نفساً طويلاً ، فوصفت القمار بأنه اختراع فاسد من مخترعات الأرستقراطية ،
وارتسمت على شففى لتفينوف ابتسامة جامدة باردة . وكان يتكلم ببطء واختصار ،
وكأنه ضجر أو مغيظ ... ولكن خجلاً خفياً اعتراه حين التفت إلى تاتيانا . كانت تنتظر
إليه ملياً وكأنها تسأل نفسها ماذا ترى فيه بالتحديد . وأوماً إليها مسرعاً ، فأجابته
بمثل إيماعته ، وعادات فنظرت إليه متسائلة ، فى شىء من الجهد ، وكأنه واقف فى
مكان أبعد مما كان فيه فى الواقع . وانصرف لتفينوف برفقته من بهو السمر ، ومر
«بالشجرة الروسية» وقد جلست تحتها سيدتان روسيتان ، واتجه إلى شارع لختنتالر .
فما كادوا يشرفون على الطريق حتى رأى إيرينا على بعد .

كانت تسير نحوه مع زوجها وبوتوجين . فاستحال لتفينوف أبيض كالقرطاس ، على
أنه لم يبطئ فى مشيته ، وانحنى فى صمت حين قابلها ، وانحنى له بدورها فى أدب
يمارجه البرود ، وانسابت عابرة وهى تشمل تاتيانا بنظرة سريعة ... ورفع راتميروف
قبعته عالية ، وغمغم بوتوجين بشىء .

سألت تاتيانا فجأة ، ولعلها لم تكن قد فتحت شففىها قبل تلك اللحظة :

- من هذه السيدة ؟

فردد لتفينوف :

- هذه السيدة ؟ إنها تدعى مدام راتميروف .

- أهى روسية ؟

- أجل .

- هل عرفتها هنا ؟

- لا . إنى أعرفها من زمن طويل .

- ما أجملها !
- فأالت كابيتولينا ماركوفنا :
- هل لا حظت ثيابها ؟ إن ثمن الوشى وحده يكفى عشر أسر سنة كاملة .
- ثم سألت وهى تلتفت إلى لتفينوف :
- أهذا الذى معها زوجها ؟
- نعم .
- أترأه فاحش الثراء ؟
- لا أدرى فى الحقيقة . لا أظن ذلك .
- مارتبته ؟
- إنه جنرال .
- ولاحظت تاتيانا :
- ما أجمل عينيها ! وما أغرب تعبيرهما ! حالماتان نافذتان فى وقت واحد ... لم أر قط مثل هاتين العينين .
- فلم يجب لتفينوف . وخيل إليه أنه أحس نظرة تاتيانا المتسائلة مصوبة إلى وجهه ، ولكنه كان مخطئا ، فقد كانت تنظر إلى رمل الممر تحت قدميها .
- وصاحت كابيتولينا ماركوفنا فجأة :
- ياالله ! من هذه الغول ؟
- وأشارت إلى عربة خفيفة ، تتمرغ فيها بقحة امرأة حمراء الشعر ، قطساء الأنف ، نافجة المنخرين ، فى ملابس فاخرة ، وجوب وردى اللون .
- هذه الغول ! إن هذه هى المدموازيل كورا الشهيرة .
- من ؟
- المدموازيل كورا ... باريسية ... مشهورة .
- ماذا ؟ هذا الكلب الصينى ؟ كيف ؟ إنها فظيعة !

- يظهر أن هذا ليس بعائق .

فلم تستطع كابيتولينا ماركوفنا إلا أن ترفع يديها فى دهشة ... وأخيرا قالت :

- حسنا . إن هذه البادن تستحق الفرجة ! هل يمكننا الجلوس على هذا المقعد ؟
إنى أحس بعض التعب .

- طبعا يمكنك يا كابيتولينا ماركوفنا . هذا ما وضعت المقاعد من أجله .

- وكيف أعلم ؟ يقولون إن باريس فيها مقاعد على طول الطريق أيضا ، ولكن لا يليق أن تجلس عليها .

فلم يجب لتفينوف . وفى هذه اللحظة أدرك أن المكان الذى قابل فيه إيرينا مقابلتهما الحاسمة لا يبعد عنه إلا خطوتين . ثم تذكر أنه لاحظ منذ قليل بقعة وردية صغيرة على خدها ...

وتهاكت كابيتولينا ماركوفنا على المقعد ، وجلست تاتيانا بجانبها ، وظل لتفينوف واقفا فى الممر . وبدأ له - أو لعله توهم - أن شيئا ما قد حدث بينه وبين تاتيانا ... حدث تدريجيا ودون أن يحس .

صاحت كابيتولينا ماركوفنا وهى تهز رأسها بحسرة :

- يا للقردة الحمقاء ! هذه ثمن ملابسها لا تكفى عشر أسر فقط ، بل مائة .
هل لاحظت الماسات فى شعرها الأحمر تحت قبعتها ؟ يا للعجب ! ماسات فى وضح النهار !
فعلق لتفينوف على ملاحظتها قائلا :

- ليس شعرها أحمر . إنها تصبغه أحمر ، وهذا هو البدع الآن ...

فلم يسع كابيتولينا ماركوفنا إلا أن ترفع يديها مرة أخرى وقد عقلت الدهشة لسانها . وأخيرا قالت :

- مثل هذه الفضائح لا توجد عندنا فى درسدن ، والسبب أنها أبعد عن باريس قليلا . ألا تظن ذلك يا جريجورى ميهالتش - هه ؟

فأجاب لتفينوف : « أنا ؟ مؤكد . طبعا . » بينما كان يقول لنفسه : « ترى عن أى شيء نتكلم ؟ »

وفى تلك اللحظة جاء وقع أقدام بطيئة ، واقترب بوتوجين من المقعد ، وبدأ الكلام وهو يومئ مبتسما :

- كيف أنت باجريجورى ميهالتش ...

فأمسك لتفينوف بيده على الفور :

- كيف أنت ، كيف أنت ياسوزونت إيفانتش ؟ ألم أقابلك منذ برهة مع ... منذ برهة فى الطريق ؟

- أجل هو أنا ..

وانحنى بوتوجين باحترام للسيدتين الجالستين على المقعد .

- اسمح لى أن أقدمك للسيدتين ياسوزونت إيفانتش . صديقتان قديمتان وقريبتان لى ، وصلتا إلى بادن منذ قليل . سوزونت إيفانتش بوتوجين ، مواطن لنا يزور بادن أيضا .

فنهضت السيدتان عن الكرسي قليلا ، وانحنى بوتوجين ثانية . ثم بدأت كابيتولينا ماركوفنا تقول بصوت رفيع ، وكانت السيدة العجوز الطيبة شديدة الخجل ، ولكنها حاولت أن تصطنع العظمة بأية وسيلة :

هذا المكان أشبه بـ réunion^(١) . كل واحد يرى النزول فى بادن واجبا لذيذا . فأجاب بوتوجين وهو يلحظ تاتيانا عن عرض :

- إن بادن مكان طيب بلا ريب . بادن بلد طيب جدا .

- نعم . ولكنها فى الحقيقة شديدة الفخامة على قدر ما أستطيع أن أحكم . لقد عشنا فى درسدن مدة طويلة ، وهى بلدة لطيفة جدا . أما هنا فالمدينة فى الحقيقة أشبه بـ réunion

فقال بوتوجين فى نفسه : « إنها معجبة بهذه الكلمة » ، ثم رفع صوته قائلا :

- هذه ملاحظة صائبة . ولكن المناظر هنا بديعة ، والموقع قليل النظير . لا شك أن رفيقتك بخاصة سوف تعجب به .

(١) « اجتماع ، احتفال » .

وأردف موجهها الحديث إلى تاتيانا هذه المرة :

- أليس كذلك ياسيديتى ؟

فرفعت تاتيانا عينيها الكبيرتين الصافيتين إلى بوتوجين ، وبدت كأنها تسأل نفسها .
ماذا يطلب منا ، ولماذا قدمها لتفينوف من أول وصولها إلى ذلك الرجل الغريب ، وإن
كان وجهه ينم بطيبة وذكاء ، ونظراته تعبر عن ود وترحيب ، وأخيرا قالت :

- نعم . إن المكان جميل .

وتابع بوتوجين حديثه قائلاً :

- يجب أن تزورى القلعة القديمة . وأوصيك برحلة السيارة إلى ايبرج .

فبدأت كابيتولينا ماركوفنا تقول :

- سويسرا السكسونية ...

وحينئذ رنت فى أرجاء الشارع أصوات آلات النفخ النحاسية ، فقد كانت فرقة
راشقات الموسيقى العسكرية تبدأ حفلاتها الموسيقية الأسبوعية فى كشك المدينة
(وفى سنة ١٨٦٢ كانت راشقات لاتزال قلعة للحلفاء) .

فنهضت كابيتولينا ماركوفنا قائلة :

- الموسيقى الموسيقى ! á la Conversation ^(١) . يجب أن نذهب إلى هناك .
الساعة بعد الثالثة الآن ... أليس كذلك ؟ أهى الساعة التى يلتقى فيها المجتمع ؟

فأجاب بوتوجين :

- نعم ، هذا هو الوقت المفضل عندهم ، والموسيقى هناك ممتازة .

- حسنا . إذن فلا نضيع وقتا . تعالى ياتانينا !

فسأل بوتوجين :

- أسمحون لى بمرافقتكم ؟

(١) « إلى بهو السمر » .

فدهش لتفينوف جدا ، ولم يخطر بباله قط أن بوتوجين كان مبعوثا من إيرينا .

وابتسمت كاييتولينا ماركوفنا بأدب .

– بكل سرور يامسيو ... مسيو ...

فأكمل : بوتوجين . وقدم لها ذراعه . وقدم لتفينوف ذراعه لتاتيانا . وقصد الزوجان بهو السمر .

واسترسل بوتوجين فى حديثه مع كاييتولينا ماركوفنا . أما لتفينوف فسار دون أن ينبس بكلمة ، إلا أنه ابتسم مرة أو مرتين بلا داع ، وضغط على ذراع تاتيانا ضغطا خفيفا . ولم تجب تاتيانا على هذه النبضات الكاذبة ، وشعر لتفينوف بكذبه ، فلم تكن تلك النبضات – كما كانت فى الأيام الخالية – تأكيدا للرباط الوثيق بين قلبين متحابين ، بل بديلا وقتيا لكلمات لم يستطع أن يجدها . إن هذا الشيء الصامت الذى حدث بينهما قد نما وازداد قوة . وعادت تاتيانا تنتظر إليه مليا حتى كأنها تتفحصه .

واستمرت هذه الحال حتى جلس الأربعة حول مائدة صغيرة فى بهو السمر مع فارق واحد، وهو أن صمت لتفينوف بدا شبه عادى فى ضجة الزحام ورنين الموسيقى . وبلغ نشاط كاييتولينا ماركوفنا قمة حديثه بحيث لم يستطع بوتوجين أن يلاحق أسئلتها أو يرضى تطلعها . ثم أسعفه الحظ فجأة بأن ظهر بين الزحام شبح مدام زوهانتشيكوف النحيل بعينيها اللامعتين الوثابتين ، فعرفتها كاييتولينا ماركوفنا على الفور ، ونادتها وأجلستها على مائدتهم ، وهامت عاصفة من الكلام .

والتفت بوتوجين إلى تاتيانا ، وبدأ يحادثها بصوت ناعم خفيض ، وهو منحن نحوها قليلا ، وعلى وجهه تعبير لطيف وود، وكانت هى تجيبه بسهولة وطلاقة دهشت لهما ... كانت سعيدة بأن تتحدث إلى ذلك الأجنبى الذى لا تعرفه بينما جلس لتفينوف ساكتا كما كان ، وعلى شفثيه تلك الابتسامة الجامدة الباردة ؟

وأخيرا حان وقت العشاء . وانقطعت الموسيقى ، وقل الزحام . وودعت كاييتولينا ماركوفنا مدام زوهانتشيكوف وداعا حارا ، فقد شعرت نحوها باحترام عظيم ، وإن قالت فيما بعد لابنة أخيها : «إن هذه السيدة شديدة التعصب حقا ، ولكنها تعرف كل

شيء عن كل إنسان . وصحيح أن النساء يجب أن يحصلن على مكنتات الخياطة على أثر الزفاف . »

وودعهم بوتوجين ، ورافق لتفينوف السيدتين في عودتهما . وبينما هم يدخلون الفندق سلمت إليه رقعة ، فانتحى ناحية وفض الغلاف مسرعا ، فرأى على قصاصة صغيرة من الورق هذه الكلمات بالقلم الرصاص : «تعالى إلى هذا المساء فى الساعة السابعة . دقيقة واحدة - أرجوك. إيرينا.» فدس لتفينوف الورقة فى جيبه ، والتقت وقد اصطنع مرة أخرى تلك الابتسامة ... لمن ؟ لماذا ؟ لقد كانت تاتيانا واقفة وظهرها إليه . وتعشوا على مائدة الفندق العامة ، وكان لتفينوف جالسا بين كابيتولينا ماركوفنا وتاتيانا ، وفجأة تملكه مرح غريب فانطلق يثرثر ويحكى الحكايات ، ويصب النبيذ لنفسه والسيدتين . وأغرى مرجه ضابطا فرنسيا كان يجلس أمامه ، له شارب ولحية على طريقة نابليون الثالث ، وقد قدم من ستراسبورج ، فلم يتحرج من الاشتراك فى الحديث ، بل وصل الى أن اقترح نخباً *à la santé Des belles moscovites* ^(١) ولما انتهى العشاء صحب لتفينوف السيدتين إلى حجرتهما ووقف عند النافذة عابس الوجه بضع دقائق ، ثم أعلن فجأة أنه مضطر إلى الخروج فترة قصيرة لبعض الأعمال ، ولكنه لابد سيعود قبل المساء .

ولم تقل تاتيانا شيئا ، ولكنها شحبت ونكست بصرها . وكان من عادة كابيتولينا ماركوفنا أن تنام قليلا بعد العشاء ، وكانت تاتيانا تعلم حق العلم أن لتفينوف يعرف هذه العادة من عمتها ، وتتوقع أن ينتهز هذه الفرصة ليبقى معها فإنه لم ينفرد بها ولا تطلق فى الحديث معها منذ مجيئها . ولكنه ذاهب ! ما معنى هذا ؟ الحق أن سلوكه طول اليوم ...

وانصرف لتفينوف مسرعا قبل أن يسمع اعتراضا ، ورقدت كابيتولينا ماركوفنا على الأريكة ، وبعد أن زفرت زفرتين ، وأنت أنتين ، سبحت فى نوم هادىء مهيب . بينما انتحت تاتيانا ركنا ، وجلست على كرسي واطىء ، وقد شبكت ذراعيها على صدرها .

(١) « فى صحة المسكوفيتين الحسنات » .

صعد لتفينوف درج « فندق أوروبا » مسرعا ، فأوقفته بنت صغيرة فى الثالثة عشرة ، ذات وجه صغير مكر وسحنة كلموكية ، وقالت له بالروسية: « تفضل من هذا الطريق . إيرينا بافلوفنا ستكون هنا حالا . » ونظر إليها فى حيرة فابتسمت وكررت : « تفضل . تفضل . » وقادته إلى حجرة صغيرة مواجهة لمخدع إيرينا ، غاصة بصناديق المتاع وحقائب السفر ، ثم اختفت لتوها وهى تغلق الباب بخفة . ولم يكد لتفينوف ينظر حوله حتى فتح الباب ووقفت إيرينا أمامه فى ثوب سهرة وردى اللون ، وحول جيدها وفى شعرها لآلى . اندفعت نحوه اندفاعا ، وقبضت عليه بكلتا اليدين ، وبقيت لحظات لا تستطيع كلاما ، وعيناها تلمعان ، وصدرها يعلو ويهبط كأنها صعدت جبلا وهى تجرى . بدأت تقول فى همس معجل :

- لم أستطع أن أستقبلك ... هناك . نحن ذاهبان بعد قليل الى حفلة عشاء ولكنى أردت قبل كل شئ أن أراك ... أظن تلك التى قابلتها معك اليوم خطيبتك ؟

فأجاب لتفينوف :

- أجل ، إنها كانت خطيبتى .

وضغط على كلمة « كانت » .

- لقد أردت أن أراك دقيقة واحدة لأخبرك أنك يجب أن تعد نفسك مطلق الحرية ، وأن ما حدث البارحة يجب ألا يؤثر فى خططك .

- إيرينا ! لم تقولين هذا ؟

لفظ هذه الكلمات بصوت عال ، وكانت فيها رنة عاطفة غشوم . فأغمضت إيرينا عينيها دقيقة بحركة لا إرادية ، ومضت تقول وقد زاد همسها خفوتا ، كما زاد انفعالها جموحا :

- آه يا حبيبى ! إنك لا تدري كم أحبك ، ولكنى لم أزد أمس على أن أديت دينى ، ومحوت إثم الماضى ... آه ! لم استطع أن أمنحك شبابى كما كنت أتمنى ، ولكنى لم ألزمك بشئ ، ولم أكلفك وعدا أيها الغالى ! افعل ما بدالك ، أنت طليق كالهواء ، لا شئ يقيدك ، لا شئ مطلقا ، أريد أن تعلم ذلك !

فقاطعها لتفينوف هامسا هذه المرة :

- ولكنى لا أستطيع أن أحيا بدونك يا إيرينا ، أنا لك أبدا ، منذ أمس ... لا أستطيع أن أتنفس إلا عند قدميك ...

وانحنى يقبل يديها وقد شملته رعدة . وحدقت إيرينا فى رأسه المنحنى . قالت :

- إذن فاعلم أنتى أيضا على استعداد لكل شيء . إننى أيضا لن أبالى بأحد ولا بشيء . كل ما تراه نافذ . أنا أيضا لك إلى الأبد ... لك .

ونقر على الباب نقرة حذرة . وانحنت إيرينا وهمست مرة أخرى « وداعا ! » .

وأحس لتفينوف مر أنفاسها ومس شفيتها على شعره . وحين وقف كانت قد غادرت الحجرة ، إلا أن ثوبها كان يحف فى الدهليز ، وجاء صوت راتميروف من بعد :
Eh bien, Vous ne venez pas^(١) جلس لتفينوف على صندوق مرتفع وغطى وجهه بيديه ، واستنشق عطرا أنتويا خفيا نديا ... لقد أمسكت إيرينا يده بين يديها . وقال فى نفسه : « هذا كثير ، هذا كثير » ، ودخلت البنت الصغيرة الحجرة ، وابتسمت مرة أخرى جوابا على نظرتة القلقة ، وقالت :

- تفضل بالمجيء معى الآن ...

فنهض وخرج من الفندق . وكان عبثا أن يفكر فى العودة إلى مسكنه وهو فى حاجة الى أن يتماسك أولا ، وكان قلبه يدق دقا عنيفا مضطربا ، والأرض كأنها تميد تحت قدميه . وعاد لتفينوف يمشى فى شارع لختنتالر ، وأدرك أن اللحظة الحاسمة قد حانت ولم يعد فى مقدوره أن يرجئ الأمور ، وأن يروغ من نفسه ويتعامى عن الواقع . كان لابد من جلاء الأمر مع تاتيانا . وتخيلها جالسة هناك لا تبدر منها نأمة ، وهى تنتظر عودته ... وتخيل ماسيقوله لها ، ولكن كيف يقول ، وكيف يستطيع أن يبدأ ؟ لقد طرح مستقبله الشريف الرزين المنظم وراء ظهره ، وكان يعلم أنه يلقي بنفسه إلى هاوية يجزع المرء من مجرد النظر إليها ... ولكنه لم يكن يبالي بذلك ، فقد قرره وانتهى منه ، إنما الباقى : كيف يواجه قاضيه؟ ويا ليت كان قاضيا ! ليت كان ملاكا بسيف من نار ،

(١) « حسنا ، ألا تأتين ؟ » .

فذلك أهون على القلب المذنب ... ولكن كان عليه هو أن يغمد السكين فى ...
يا للشناعة ! هل يرجع ويتخلى عن الثانية ، هل يستغل الحرية التى منحها إياه ،
واعتبرتها حقه ؟ .. لا ! الموت خير من ذلك ! لا ، إنه لا يريد هذه الحرية البغيضة ...
بل يمرغ نفسه فى التراب راضيا فى سبيل نظرة حب من هاتين العينين وقال
صوت حزين :

- جريجورى ميهالتش !

وحطت يد ثقيلة على كتف لتفينوف . فالتفت وراءه بشيء من الفزع ، وعرف بوتوجين .
وبدأ هذا يقول بحيائه المالكوف :

- معذرة يا جريجورى ميهالتش ، أخشى أن يضايك ، ولكنى رأيتك من بعد ،
ففكرت ... أما أن كنت لا تريدنى ...

فتمتم لتفينوف من بين أسنانه :

- على العكس ، أنا سعيد برؤيتك ..

فسار بوتوجين بجانبه وبدأ يقول :

- مساء جميل . هذا الدفء ! هل سرت طويلا ؟

- لا ..

- ما كان أغنانى عن السؤال ! لقد رأيتك منذ قليل خارجا من « فندق أوروبا » .

- إذن فقد كنت تتبعنى ؟

- أجل .

- الديق ما تريد أن تقوله لى ؟

- فكرر بوتوجين بصوت لا يكاد يبين :

- نعم ..

ووقف لتفينوف . ونظر إلى رفيقه الذى جاء بلا دعوة . كان وجهه شاحبا ، وعيناه
زائغتين ، وملامحه المتقلصة كأنما ران عليها حزن مقيم .

قال لتفينوف ببطء وهو يتقدم :

– ما الذى تريد قوله بالضبط ؟

– اسمح لى ... سأخبرك بعد لحظة . لنجلس على هذا الكرسي . إن لم يكن عندك مانع . هذا أروح .

فقال لتفينوف وهو يجلس بجانبه :

– هل فى الأمر سر ؟ إنك تبدو مضطربا ياسوزونت إيفانتش .

– لا ، أنا بخير ، وليس فى الأمر سر أيضا . إنما أردت أن أخبرك ... برأى فى خطيبتك ... أظنها مخطوبة لك ؟ .. على كل حال ، أنا أعنى الشابة التى قدمتنى إليها اليوم . الحق أنى لم أر فى حياتى إنسانة أجدر منها بالحب . قلب من ذهب . ملاك كريم .

نطق بوتوجين بكل هذه الكلمات دون أن تفارقه مرارته وحزنه ، حتى أن لتفينوف نفسه راعه التناقض الغريب بين سيماه وكلامه .

وبدأ لتفينوف يقول :

– إنك مصيب فيما قلته عن تاتيانا بטרوفنا . ولكن يجب أن أقول لك أنى دهش لمعرفة الرابطة التى بينى وبينها ، ثم لاستطاعتك أن تفهمها بهذه السرعة . حقا إنها ملك كريم . ولكن اسمح لى أن أسالك : أهذا ما أردت أن تبحثه معى ؟

فمضى بوتوجين يقول وكأنه يتجنب السؤال الأخير :

– كل من رآها لابد أن يفهمها . حسب المرء أن ينظر إلى عينيها . إنها جديرة بكل سعادة ، وسعيد ذلك الرجل الذى قسم له أن يسعدها ! ليته يثبت أنه جدير بمثل هذا الحظ العظيم .

فعبس لتفينوف قليلا وقال :

– معذرة ياسوزونت إيفانتش . إن محادثتنا تبدو لى غريبة فريدة ... أود أن أعلم هل تعينى بما قلته الآن ؟

فلم يجب بوتوجين على الفور ، وكان جليا أنه يجاهد نفسه وأخيرا بدأ يقول :

- جريجورى ميهالتش ! إما أنى مخطيء كل الخطأ فى تقديرى ، وإما أنك قادر على أن تسمع الحق من أى إنسان جاء ، وفى أى صورة كريهة ظهر . لقد أخبرتك الآن أنى رأيت من أين قدمت .

- أجل . من فندق أوروبا . وأى بأس فى ذلك ؟

- إنى أعلم من كنت تزور .

- ماذا ؟

- لقد كنت عند مدام راتميروف .

- حسنا ، لقد كنت عندها . ثم ماذا ؟

- ثم ماذا ؟ .. أنت خطيب تاتيانا بتروفنا . وقد كنت عند مدام راتميروف ، التى تحبها ... وتحبك .

فانتفض لتفينوف واقفا ، واندفع الدم إلى رأسه ، وأخيرا قال بصوت كظيم :

- ما هذا ؟ مزاح سخيف ؟ تجسس ؟ أرجو أن توضح لى أمرى !

فحول إليه بوتوجين نظرة ضعيفة :

- آه ! لا تغضب يا جريجورى ميهالتش . أنا لن أغضب مهما ثقل . إنى لم أبدأك بالحديث من أجل هذا ، وليست لى رغبة فى المزاح .

- ربما ، ربما . أنا مستعد أن أثق بحسن نيتك . ولكنى أسألك : بأى حق تقحم نفسك فى دخائل رجل آخر، وعلى أى أساس تتقدم واثقا... باختراعى على أنه حقيقة ؟

- اختراعى ! لو كنت اخترعته لما أثار حنقك . أما حقى فأنى لم أسمع من قبل أن الرجل ينبغى أن يسائل نفسه عن حقه فى أن يمد يده إلى غريق .

فصاح لتفينوف باندفاع :

- أنا شاكر وممتن لعنايتك . ولكنى لست بحاجة إليها مطلقا . وكل ما يقال عن الشباك التى تنصبها نساء المجتمع للشبان الأغرار وعن انحلال المجتمع الراقى . إلخ - كل هذا أراه مجرد كلام ، كلام تافه غث ، ولهذا أتوسل إليك أن تريح ذراعك المنقذة ، وأن تدعنى أغرق فى سلام .

فرجع بوتوجين عينيه مرة أخرى إلى لتفينوف ، وحشرجت أنفاسه ، وارتعدت شفتاه ، وأخيرا انفجر صائحا وهو يصك صدره :

– انظر إلى أيها الشاب . هل ترانى أشبه أخلاقيا أو واعظا عاديا راضيا عن نفسه ؟ ألا تفهم أن اهتمامى بك ، مهما يكن عظيما ، ما كان ليدفعنى إلى أنطق بكلمة واحدة تجعل لك الحق فى أن تتهمنى بشر ما أكره : بالتطفل والفضولية ؟ ألا ترى أن الأمر مختلف جدا ، وأن أمامك رجلا حطمته – بل محتته محوا – تلك العاطفة التى يريد أن ينقذك من عواقبها ... نحو المرأة نفسها ؟

فتراجع لتفينوف خطوة :

– أهذا ممكن ؟ ماذا قلت ؟ .. أنت ... أنت ... ياسوزونت إيفانتش ؟ ولكن مدام بيلسكى ... ذلك الطفل ؟

– أه. لا تستجوبنى ! .. بل صدقنى ! إنها قصة سوداء مروعة ، وإن أخبرك بها . إنى لم أكد أعرف مدام بيلسكى ، وهذه الطفلة ليست بنتى ، ولكنى حملت المسئولية كلها ... لأن ... لأنها هى أرادت ذلك ، لأنه كان ضروريا لها هى . لماذا أنا هنا فى هذه البلدة الكريهة ؟ هل تظن – هل تستطيع أن تتخيل لحظة أنى كنت أجروء على إنذارك لمجرد العطف عليك ؟ إنى أسف لتلك الفتاة الطيبة الحلوة ، خطيبتك ، ولكن ما شأنى بمستقبلكما ، ما شأنى بكما معا ؟ .. إنما أخاف عليها ... عليها هى .

– أنت تسدى إلى شرفا عظيما ياسيد بوتوجين . ولكن مادامت حالك من حالى ، كما تقول ، فلماذا لا توجه مثل هذا النصيح إلى نفسك ؟ ألا أنسب مخاوفك إلى شعور آخر ؟

– أتعنى الغيرة ؟ أه أيها الشاب ، أيها الشاب ، ألا تخجل أن تراوغ وتغالط ، ألا تخجل إذ تجهل أى حزن مرير يكلمك الآن من شفتى ! لا ، ليست حالى من حالك ! أنا رجل هرم مضحك ، شيخ أبله لا يؤبه له – أما أنت ! ولكن ما حاجتنا إلى الحديث عن ذلك ؟ إنك لاتقبل لحظة واحدة أن تشغل المكان الذى أشغله شاكرأ ! الغيرة ! لا يغار من لم يحظ قط بقطرة من أمل . ولو كنت أغار لما كانت هذه أول أسباب الغيرة . لست خائفا إلا ... إلا عليها . أعلم ذلك . وهل كان بوسعى أن أتوقع – حين أرسلتني إليك – إن شعورها بالذنب نحوك – وقد اعترفت لى به – سوف يذهب بها إلى هذا المدى ؟

– ولكن معذرة ياسوزونت إيفانتش ، يبدو أنك تعلم ...

- أنا لا أعلم شيئاً ، وأعلم كل شيء ! - وزاد وهو يلتفت : أنا أعلم أين كانت ليلة أمس . إنها لن يكبح لها جماح منذ اليوم . إنها كحجر تدحرج ، فلا بد أن يتدحرج حتى القرار . وأنى لأحمق إن تخيلت أن كلماتي سوف تردك على الفور ... أنت ، حين تكون امرأة كهذه ... لكن دعنا من هذا . إني لم أملك نفسي ، وهذا كل عذري . ولكن من يدري ؟ وماذا تضر المحاولة ؟ لعلك تفكر في الأمر مرة أخرى . لعل كلمة من كلماتي تنفذ إلى قلبك ، فتتثنى عن تحطيمها ، وتحطيم نفسك ، وتحطيم هذه المخلوقة البريئة الحلوة .. أه ! لا تغضب ، ولا تدق الأرض بقدمك ! ماذا أخاف ؟ ولماذا أحتشم ؟ ليست الغيرة هي التي تتكلم في ، لا ، ولا الغضب ... إني على استعداد لأن أركع عند قدميك ، لأن أتضرع إليك . لكن وداعاً . لا حاجة بك إلى القلق ، فسيبقى هذا كله سرا . ما أردت لك إلا الخير .

وخطا بوتوجين خطوات واسعة على الطريق اللاحبة ، واختفى في الظلام المغطش ، ولم يستبقه لتفينوف .

« قصة سوداء مروعة ، هكذا قال بوتوجين للتفينوف ، ولكنه أبى أن يخبره بالقصة ... فلنعرج عليها ببضع كلمات فحسب :

حدث منذ ثماني سنوات أن ندبته مصلحته للعمل مع الكونت ريزنباخ . وكان ذلك في الصيف ، واعتاد بوتوجين أن يركب عربة إلى الكرمة الريفية ومعه الأوراق ، ويمكث هناك أياماً كاملة متعاقبة ، وكانت إيرينا تعيش إذ ذاك بمنزل الكونت ، ولم تكن تترفع عمن دونها ، أو على الأقل لم تكن تزديهم ، وقد أخذتها الكونتة غير مرة على تبسطها المسكوفى المفرط . فسرعان ما استكشفت إيرينا في الكاتب المتواضع رجلاً ذكياً مخبأً في السترة المحكمة التي كانت بزته الرسمية . واعتادت أن تجاذبه الحديث في حماسة وانطلاق ، وأما هو ... فقد أحبها ... أحبها حباً قوياً عميقاً مكتوماً .. مكتوماً ! هذا ما كان يظنه هو . ومضى الصيف ، واستغنى الكونت عن معونته ، وغابت إيرينا عن عيني بوتوجين ، ولكنه لم يستطع أن ينساها . وبعد ثلاث سنوات تلقى على غير انتظار دعوة من سيدة من الطبقة الوسطى لم تكن له بها إلا معرفة يسيرة ، واضطربت السيدة أول الأمر وهي تشرح له الغرض من دعوتها ، ولكنها بعد أن استحلفته الألبوج بشيء مما سيسمعه ، عرضت عليه ... أن يتزوج فتاة ، كانت لها في المجتمع مكانة مرموقة ، ولم يكن لها بد من الزواج . ولم تكد السيدة تجرؤ على الإشارة إلى الرجل الذي كان محور القصة . ثم وعدت بوتوجين بمال ... بمقدار جسيم

من المال . ولم يثر بوتوجين ، فقد خنقت الدهشة في نفسه كل شعور ، ولكنه رفض رفضا باتا . وعندئذ ناولته السيدة كلمة مكتوبة - من إيرينا . وإذا فيها : « أنت رجل نبيل كريم ، وأنا أعلم أنك ترضى بأن تفعل أى شىء من أجلى . إنى أسألك هذه التضحية . ستنقذ شخصا عزيزا على جدا . وبإنقاذك إياها ستنقذنى أيضا ... لا تسلىنى كيف . لم أكن لأتوجه بهذا إلى أحد غيرك ، ولكنى أمد يدي إليك وأقول افعل هذا من أجلى » وفكر بوتوجين ثم قال إنه حقا على استعداد لأن يفعل أشياء كثيرة من أجل إيرينا بافلوفنا ، ولكنه يود أن يسمع رغبتها من بين شففتيها . وكان اللقاء فى المساء نفسه ، ولم يسم طويلا ، ولم يعرف به أحد إلا تلك السيدة نفسها ، ولم تكن إيرينا تقيم إذ ذاك فى منزل الكونت ريزنباخ

سأها بوتوجين .

- ما الذى حداك إلى التفكير فى أنا ، دون الناس جميعا ؟

فبدأت تفيض فى الثناء على صفاته النبيلة ، ولكنها توقفت فجأة ... وقالت :

- كلا . يجب أن تعلم الحقيقة . أنا أعرف. انك تحبني ، هذا ما جعلنى أقرر

ثم أخبرته بكل شىء .

لقد كانت اليزا بيلسكى يتيمة ، كان أقاربها يكرهونها . ويطمعون فى ميراثها ... وكانت فى محنة ، وبإنقاذها أرادت إيرينا أن تخدم الرجل الذى كان سببا فى محنتها والذى أصبحت له الآن علاقة وثيقة بإيرينا نفسها ... ونظر بوتوجين إلى إيرينا نظرة طويلة ، ولم يتكلم ، ووافق ، فبكت ، وانطرحت على عنقه ودموعها تنهمر . وبكى هو أيضا ... ولكن دموعها كانت جد مختلفة . وكان كل شىء قد أعد للزواج المكتم . كانت يد قوية تزيج كل العقبات ... ولكن جاء المرض ... ثم ولدت طفلة . وإذا بالأم بعد ذلك ... تشرب السم . فماذا يكون من أمر الطفلة ؟ لقد كفلها بوتوجين ، بعد أن تلقاها من اليدين نفسيهما ، يدى إيرينا .

قصة مروعة سوداء ... فلنعد عنها أيها القراء ، فلنعد عنها !

مضى أكثر من ساعة قبل أن يحمل لتفينوف نفسه على العودة إلى فندقه .. ولما قاربه سمع من خلفه وقع خطا ، وخيل إليه أنها تتبعه بإلحاح ، وتسرع كلما أسرع ، فلما مر لتفينوف تحت عمود مصابيح التفت ورائه وعرف الجنرال راتميروف .

وكان راتميروف عائداً وحده من الحفلة ، ومعطفه مفتوح ، وعلى صدره رباط عنق أبيض وعدد من النجوم ، والصلبان في سلسلة ذهبية معلقة بعروة سترته . وثبت عينيه على لتفينوف ببغض واحتقار ، وبدأ في مظهره كله تحد واستفزاز حتى اضطر لتفينوف أن يتقدم ليلقاه ويواجه « انفضيحة » وإن كره . لكن وجه الجنرال تغير فجأة حين حاذاه لتفينوف ، وعادته رفته الالعبة المألوفة ، ولوحت يده في قفازها ذي اللون الأصفر الخزامي ، رافعة قبعته الصغيرة في الهواء . فرفع لتفينوف قبعته صامتاً ، ومضى كل في طريقه .

وفكر لتفينوف : « لاشك انه لاحظ شيئاً . . »

وفكر الجنرال : « ليه على الأقل كن . . شخصاً آخر . . »

وكانت تاتيانا تنعب الورق مع عمئها حين دخل لتفينوف حجرتها ، فصاحت كاييتولينا ماركوفنا وهي تلتقي بأوراقها .

- والله إنك شاب ضريف ! أول يوم ، ونعيب صور المساء . لقد انتظرنا و انتظرنا
وقلنا فيك وأعدنا .

فعقبت تاتيانا

- أنا لم أقل شيئاً يا عمتي .

- أوه ، إنك الطيبة نفسها ، كلنا نعلم ذلك ! يجب أن تخجل ياسيدي ! هل نسيت أنك خطيب ؟

وانتحل لتفينوف ما استطاع من أعذار ، وجلس إلى المنضدة .

قال بعد صمت قصير :

- لماذا قطعتما اللعب ؟

- سؤال ظريف ! إننا كنا نلعب من السأم ، ولم يكن لدينا ما نعمله .. أما الآن فأنت هنا .

فقال لتفينوف :

- إذا كنتما تحبان الاستماع إلى موسيقى المساء فإنه يسعدني أن أذهب معكما .

فنظرت كاييتولينا ماركوفنا الى ابنة أخيها . قالت تاتيانا :

- نذهب ياعمى . أنا مستعدة . لكن ... أليس الأفضل أن نبقى هنا ؟
- من غير شك ! نشرب شاينا المسكوفى ، شاي السماور ، ونتكلم حتى نشبع ،
فإننا لم نكد نتحدث .

وطلب لتفينوف شايا . إلا أن الحديث المشبع لم يتيسر ، لقد كان لتفينوف معذب
الضمير ، كلما تكلم خيل إليه أنه يكذب ، وأن تاتيانا تفضح كذبه . ولكنها لم يبد عليها
تغير ما ، بل كان سلوكها عاديا لا تكلف فيه ولا تحفظ ... ولو أن عينيها لم
تثبتا على لتفينوف قط ، بل كانتا تنزلقان عنه فى تسامح خائف ، ووجهها كان
يعلوه شحوب غير عادى . فسألتها كابيتولينا ماركوفنا هل تشعر بصدا ع ؟
وهمت تاتيانا بأن تقول لا ، ولكنها قالت بعد تفكير قصير :

- نعم ، قليلا .

فقال لتفينوف .

- إنها الرحلة .

واحمر وجهه خجلا .

ورددت تاتيانا :

- نعم ، الرحلة .. وانزلقت عيناها عنه مرة أخرى .

- يجدر بك أن تستريحى يا حبيبتى تانيا .

- نعم . سأنام بعد قليل ياعمى .

وكان على المنضدة نسخة من Guide des Voyageurs ^(١) . فأخذ
لتفينوف يقرأ فيه بصوت مرتفع وصف ضواحي بادن . وقاطعته كابيتولينا ماركوفنا
قائلة :

- تماما . ولكن يجب ألا ننسى شيئا : لقد سمعت أن نسيج الكتان هنا رخيص
جدا ، فيجب أن نشترى شيئا منه للجهاز .
وغضت تاتيانا بصرها .

(١) « دليل السياح » .

- الوقت واسع يا عمتي . إنك لا تفكرين في نفسك أبدا . يجب أن تشتري لك بعض الملابس . أنت ترين أناقة الناس هنا .

- يا حبيبتي ! ما فائدة ذلك ؟ الأناقة ليست مطلبي . قد يختلف الحال لو كنت حسناء كصديقتك يا جريجورى ميهالتش . ما اسمها ؟

- أية صديقة ؟

- التى قابلناها اليوم .

فقال لتفينوف وهو يتصنع عدم الاكتراث :

- أوه ، هذه !

وشعر بالتقرز والخجل مرة أخرى ، وقال لنفسه « لا ، لا يمكن أن تستمر هذه الحال . لقد كان جالسا بجانب خطيبته ، وفى جيبه - على قيد بوصات منها منديل إيرينا . وغابت كابيتولينا ماركوفنا لحظة فى الحجرة الأخرى ، فقال لتفينوف بجهد :

- تانيا ...

وكانت أول مرة يناديها باسمها فى ذلك اليوم ، فالتفتت إليه :

- أنا ... لدى شىء هام أريد أن أقوله لك .

- أوه ! حقا ؟ متى ؟ الآن ؟

- لا . غدا .

- غدا . حسن جدا .

وفاض قلب لتفينوف بحنو لا حد له . وتناول يد تانيا وقبلها بخشوع كأنه آثم . فانقبض قلبها ولم تفرح بقبلته .

ورفعت كابيتولينا ماركوفنا رأسها فجأة فى الساعة الثانية ليلا ، وأنصتت ، وكانت تنام مع أبنه أخيها فى حجرة واحدة . قالت :

- تانيا ! أتبيكين ؟

فلم تجب تانيا على الفور . ثم ارتفع صوتها اللطيف :

- لا يا عمتي . لقد أصابنى برد .

سأل لتفينوف نفسه صباح اليوم التالى ، وهو جالس أمام نافذة حجرته : « لماذا قلت لها ذلك ؟ » وهز كتفيه بحنق . إنه قال ذلك لتاتيانا ليقطع على نفسه كل سبيل للتراجع . وكانت على النافذة ورقة من إيرينا تسأله فيها أن يزورها فى الساعة الثانية عشرة ، وكانت كلمات بوتوجين لا تزال تساوره ، وكأنها تصل إليه بصوت خافت منحوس ، كصوت قرقررة تحت الأرض . وكان ساخطا على نفسه ، ولم يستطع أن يتخلص من هذه الكلمات . وطرق الباب . فسأل لتفينوف :
- wer da? (١) .

فسمع صوت بنداسوف الأجش :

- أه ! أنت هنا ! افتح !

وصرت أكرة الباب . وابيض لون لتفينوف من الغضب . صاح بحدة :
- لست هنا .

- لست هنا ! يالها من دعاية ظريفة !

- أقول لك أنى لست هنا ، انصرف !

فزمجر بنداسوف :

- ما أكرمك ! لقدجئت أسألك قرضا صغيراً .

على أنه مشى يدق الأرض بكعبه كعادته .

وكاد لتفينوف يعدو خلفه ، فقد تاق توقا إلى أن يخنق ذلك الصعلوك البغيض . كانت حوادث الأيام القليلة الماضية قد أوهنت أعصابه ، ولم يكن بينه وبين البكاء إلا القليل . وشرب كوب ماء بارد ، وأغلق كل درج فى الغرفة دون أن يعلم لم يفعل ذلك ، ثم ذهب إلى تاتيانا .

وجدها وحيدة ، فقد ذهبت كاييتولينا ماركوفنا إلى السوق . وكانت تاتيانا جالسة على الأريكة ، ممسكة بكلتا يديها كتابا ، ولم تكن تقرأ فيه ، ولا تعرف أى كتاب هو . لم تتحرك ، ولكن قلبها دق فى صدرها دقا سريعا ، وارتعشت الياقة البيضاء حول عنقها ارتعاشا ظاهرا منتظما .

(١) « من هناك ؟ » .

واضطرب لتفينوف ... ولكنه جلس بجانبها وقال : « صباح الخير » ، وابتسم ، وابتسمت له أيضا بلا كلام . وكانت قد انحنت له حين دخل ، انحنت له فى أدب وكأنه غريب ، ولم تنظر إليه ، ومد إليها يده فأسلمته أصابعها الباردة ، ولكنها سحبتها بسرعة ، وأمسكت الكتاب ثانية . وشعر لتفينوف أنه إن بدأ الحديث فى موضوعات تافهة كان ذلك إهانة لتاتيانا . أما هى فلم تطالبه بشيء كعادتها ، ولكن كل ما فيها كان يقول بجلاء : « إنى منتظرة ، إنى منتظرة » ... عليه أن ينجز وعده ، إلا أنه - وإن قضى أكثر الليل يفكر فى هذا الأمر دون غيره - لم يكن قد أعد ما يقول ، حتى ولا الكلمات الممهدة الأولى ، فلم يدر كيف يقطع ذلك الصمت القاسى :

وأخيرا بدأ يقول :

- تانيا . لقد أخبرتك أمس بأن لدى شيئا هاما أريد أن أقوله لك ، وأنى على استعداد لذلك ، ولكنى أسالك أولا ألا تغضبى على ، وأن تؤمنى بأن مشاعرى نحوك .. وتوقف ليلتقط أنفاسه ، وظلت تاتيانا ساكنة لا تنظر إليه ، ولم تزد على أن شدت قبضتها على الكتاب .

ومضى لتفينوف يقول دون أن يتم الجملة التى بدأها :

- لقد كانت بيننا دائما صراحة تامة. إن إجلالى لك أعمق من أن أستطيع خداعك . أريد أن أبرهن لك على تقديرى لنبلك وشجاعتك ومع أننى ... مع أننى طبعاً ... فبدأت تاتيانا تتكلم بصوت متزن ، بينما غشى وجهها كله شحوب كشحوب الموت : - هأنذى أساعدك يا جريجورى ميهالتش : إنك لم تعد تحببى ، ولا تدرى كيف تخبرنى بذلك .

فانتفض لتفينوف . قال وهو لا يكاد يبين :

- لماذا ؟ .. لماذا تظنين ؟ ... أنا فى الحقيقة لا أفهم ...

- ماذا ، أليس هذا حقا ؟ - أخبرنى ، أخبرنى . ودارت تاتيانا إلى لتفينوف حتى واجهته ، وكان شعرها مرسلا إلى الخلف ، فكاد وجهها يلامس وجهه ، وبدت عيناها - اللتان لم تنظرا إليه منذ أمد - وكأنهما تتسيران عينية . وأعادت :

- أليس هذا حقا ؟

فلم يقل شيئا ، ولم ينبس بصوت . ولو علم أنها ستصدقه وأن كذبه سينقذها
لما استطاع أن يكذب فى هذه اللحظة . بل إنه لم يستطع أن يواجه عينيها المثبتتين
عليه . لم يقل لتفينوف شيئا ، ولكنها لم تحتج إلى جواب ، لقد قرأت الجواب فى صمته ،
فى تلك العينين المذنبتين الذيلتين . وارتدت فى كرسيها ، وتركت الكتاب يسقط من
يدها ... لقد كانت تشك إلى هذه اللحظة ، وكان لتفينوف يفهم ذلك ، كان يفهم أنها
غير موقنة - ويا لبشاعة ما عمل ، يا لبشاعة ما عمل !

انطرح على ركبتيه أمامها مناديا :

- تانيا ! ليترك تعلمين مقدار تعاستى وأنا أراك هكذا ... مقدار فزعى حين أفكر
أننى أنا ... الذى فعلت هذا ! إن قلبى يتمزق. وأنا لا أعرف نفسى . لقد فقدت نفسى ،
وفقدتك ، فقدت كل شيء ... لقد ضاع كل شيء يا تانيا ، كل شيء ! هل كنت أظن
أنى أنا ... أنى أنا سأسىء إليك هذه الإساءة ، يا أعز صديق ، يا ملاكى الحارس ...؟
هل كنت أظن أننا سنلتقى مثل هذا اللقاء ، وسنقضى يوما مثل أمس ! ...
وهمت تانيا بأن تنهض وتذهب ، فأمسك بحاشية ثوبها .

- لا . أصغى إلى دقيقة أخرى . هأنذا راكع على ركبتي أمامك ، ولكنى
لم أت لأسألك المغفرة ، فإنك لا تستطيعين أن تغفرى لى ، ولا ينبغي أن تغفرى لى . لقد
جئت أخبرك أن صديقك ضاع ، أنه يسقط فى الهاوية ولا يريد أن يجرك معه ... ولا
أمل فى إنقاذى ! حتى أنت لا تستطيعين إنقاذى ، ولو حاولت لدفعت بك بعيدا . لقد
ضعت ياتانيا لقد ضعت وانتهيت !

نظرت تانيا إلى لتفينوف ورددت وكأنها لم تحسن الفهم :

- ضعت ؟ ضعت ؟

- أجل ضعت ياتانيا . كل ما ضى ، كل ما أحببته ، كل ما عشت من أجله حتى
الآن - كل ذلك ضاع . كل شيء تحطم وخرب ، ولا أدري ماذا ينتظرنى . لقد قلت الآن
إنى لم أعد أحبك ... لا ياتانيا ، أنا ما زلت أحبك ، ولكن عاطفة غير هذه ، عاطفة
قاهرة مخيفة - جرفتني كالشلال .. لقد حاربتها جهد استطاعتي ...

فنهضت تاتيانا وقد انعقد حاجباها وأريد وجهها الشاحب . ووقف لتفينوف أيضا .
بدأت تقول :

- أنت تحب امرأة أخرى ، وأنا أحس من هى ... لقد قابلناها أمس . أليس كذلك !
حسنا ، إنى أعلم الآن ماذا يمكننى عمله . ما دمت أنت نفسك تقول أن هذه العاطفة

لا يمكن أن تتغير (وتوقفت تاتيانا لحظة ، ولعلها كانت لا تزال تأمل ألا يدع لتفينوف هذه الكلمة الأخيرة تمر دون اعتراض ، ولكنه لم يقل شيئاً) إنن فليس لى إلا أن أرد اليك ... كلمتك .

فحنى لتفينوف رأسه ، وكأنه يتلقى فى خضوع ضربة يستحقها كل الاستحقاق .
قال :

– لك كل الحق أن تغضبى على . لك كل الحق أن تؤنبينى على ضعفى ...
وخداعى ...

فنظرت إليه تاتيانا مرة أخرى .

– أنا لم أؤنبك يالتفينوف ، واست أتهمك . إنى أوافقك ، فالحقيقة ، مهما تكن مرة ، أهون مما كان بالأمس . أية حياة كانت تصير حياتنا الآن ؟

فارتد الصدى حزينا فى نفس لتفينوف :

– أية حياة تصير حياتى الآن !

وذهبت تاتيانا نحو باب المخدع :

– أسألك أن تتركنى وحدى قليلا يا جريجورى ميهاليتش . سوف نتقابل مرة أخرى . سوف نتحدث مرة أخرى . لقد كان هذا كله غير متوقع . يجب أن أتمالك ...
أتركنى ... أبق على كبريائى ... سوف نتقابل مرة أخرى .

وتراجعت تاتيانا مسرعة وهى تنطق بهذه الكلمات ، وأغلقت الباب خلفها . وخرج لتفينوف إلى الشارع ذاهلا مشدوها . كان شىء أسود مر يكمن فى أعماق أعماق فؤاده – ولابد أن هذا هو ما يحسه الإنسان الذى ذبح إنسانا – وكان يشعر فى الوقت نفسه براحة ، وكأنه ألقى عن عاتقه عبئا فظيما . لقد سحقه نبل تاتيانا ، وشعر فى جلاء بكل ما فقده ... ولكن ندمه كان يمازجة سخط . وكان يتوق إلى رؤية إيرينا التى أصبحت ملجأ الوحيد ، ولكنه كان فى الوقت نفسه غاضبا عليها . لقد ظلت مشاعر لتفينوف تعنف وتتعدد فى هذه الأيام القليلة الأخيرة حتى عذبه هذا التعقد وأخنقه .

وشعر أنه ضائع فيه . كان ظامئاً إلى شىء واحد ، أن يخرج أخيراً إلى طريق ، أى طريق ، حتى لا يدور ويدور فى هذه العتمة المستغلقة – ومن كان عملياً مثل لتفينوف فلا ينبغي أن تستحوذ عليه العاطفة ، لأنها تحطم فيه معنى الحياة نفسه .

ولكن الطبيعة لا تبالى بالمنطق – منطقنا الإنسانى – لأن لها منطقها الذى لا نفهمه ولا نعترف به حتى نسحق تحت عجلته .

حين فارق لتفينوف تاتيانا لم تكن فى رأسه إلا فكرة واحدة : أن يرى إيرينا . فانطلق ليراها . ولكن الجنرال كان فى البيت ، أو على الأقل هذا ما أخبره به البواب – فلم ينشط لتفينوف للدخول ، إذ لم يجد فى نفسه القدرة على النفاق ، واتجه فى بطن نحو بهو السمر ، فقابل فوروشيلوف ويشتشالكين ، وعرف كلاهما كم كان لتفينوف عاجزاً عن النفاق فى ذلك اليوم ، فقد صارع الأول بأنه فارغ كالبطل ، والثانى بأنه ثقيل يزهد الروح . وكان من حسن الحظ أن بنداسوف لم يظهر فتحدث grosser scandal^(١) وأرتاع كلا الشابين ، بل إن فوروشيلوف سأل نفسه ، أليس من الواجب أن يدعو لتفينوف إلى المباراة حرصاً على شرفه العسكرى ؟ ولكنه كان كالضابط بتروجوف فى إحدى روايات جوجول ، فهدأ أعصابه ببضع سندوتشات فى قهوة . وأبصر لتفينوف كاييتولينا ماركوفنا على بعد وهى تجرى فى نشاط من دكان إلى دكان ، وعليها شملتها المخططة ... فلذعه ضميره لرأى السيدة العجوز الطيبة المضحكة الكريمة . ثم تذكر بوتوجين وحديثهما بالأمس ... وفجأة نبهته نفحة عجيبة : شىء لا يلمس ولكن لا يخطئه الحس ، فلو أن ظلاً كان شذى لما كان أرق ولا أخفى منه . وشعر لتوه أن إيرينا تقترب . وظهرت حقاً على قيد خطوات منه ، وذراعها فى ذراع سيدة أخرى . وسرعان ما التقت عيناهما . ولعل إيرينا لاحظت أمراً شاذاً على سيمااء لتفينوف فوقفت أمام دكان عرضت فيه ساعات حائط خشبية صغيرة مما يصنع فى الغابة السوداء ، وأومأت إليه تستدنيه ، فأشارت إلى إحدى هذه الساعات البديعة التى يعلوها ديك ملون ، وبينما كانت تدعو إلى تأمل جمالها قالت فى غير همس بل فى صوتها الطبيعى وكأنها تتم عبارة بدأتها – فذلك أجدر ألا يلفت انتباه الغرباء :

(١) « فضيحة كبيرة » .

– تعال بعد ساعة ، ساكون وحدى .

ولكن زير النساء الشهير المسيو فردييه هجم عليها فى تلك اللحظة ، وراح يثنى على لون ثوبها الأصفر *feuille-morte* ، وعلى قبعتها الأسبانية القصيرة التى تكاد تمسى حاجبها .. واختفى لتقينوف فى الزحام .

كانت إيرينا تقول له بعد ساعتين ، وهي تجلس على الأريكة ، وتضع كلتا يديها على كتفيه :

- جريجورى ! ما يشغلك ؟ أخبرنى الآن سريعا ، ونحن وحيدان .
قال لتفينوف :

- ما يشغلنى ؟ أنا سعيد سعيد . هذا ما يشغلنى .

فغضت إيرينا بصرها ، وابتسمت ، وتنهدت .

- ليس هذا جوابا على سؤالى أيها الحبيب .

ففكر لتفينوف مليا :

- حسنا ، فلاخبرك إذن ... ما دمت تصرين على ذلك (فتحت إيرينا عينيها وارتعشت رعشة خفيفة) لقد أخبرت خطيبتى أمس بكل شيء .

- ماذا - كل شيء ؟ أخبرتها باسمى ؟

فرفع لتفينوف يديه مستنكرا :

- يالاه ! كيف يمكن أن تخطر لك هذه الفكرة يا إيرينا ؟ أنا ..

- معذرة ... معذرة . ماذا قلت ؟

- قلت لها أنى لم أعد أحبها .

- وهل سألتك عن السبب ؟

- لم أخف عنها أنى أحب امرأة أخرى . وإننا يجب أن نفترق .

- آه ! وماذا فعلت ؟ هل وافقت ؟

- أوه يا إيرينا ! يا لها من فتاة ! إنها عين التضحية والنبل !

- لا أشك فى ذلك ، لا أشك فى ذلك ... وإن كانت لا تملك غير هذا .

- ولا كلمة تائب ، ولا كلمة واحدة مرة ، مع أنى أفسدت حياتها كلها ، وخذعتها ،
ونبذتها بلا رحمة ...

وكانت إيرينا تتأمل أظافرها .

- خبرنى يا جريجورى ... أكانت تحبك ؟

- أجل يا إيرينا ، إنها كانت تحبنى .

وصمتت إيرينا دقيقة ، وشدت ثوبها . ثم قالت :

- إنى لا أفهم لماذا قررت فجأة أن تصارحها بالأمر ؟

- لماذا ؟ لا أظنك كنت تفضلين أن أكذب عليها وأخدعها ، وهى الطيبة البريئة .
أم كنت تظنين ...

فقاطعته إيرينا :

- لم أكن أظن شيئاً . يجب أن أعترف لك بأننى لم أفكر فيها الا قليلا .
أنا لا أحسن التفكير فى شخصين معا .

- تعنين أن ...

فقاطعته إيرينا مرة أخرى :

- حسنا . ثم ماذا ؟ هل ترحل هذه الطيبة البريئة ؟

فأجاب لتفينوف :

- لا أعلم . يجب أن أراها ثانية . ولكنها لن تقيم .

آه ! مع السلامة !

- إنها لن تقيم . ولكنى لا أفكر فيها الآن ، بل أفكر فيما قلته لى ، فيما وعدتني به .

فرمقته إيرينا من بين أجفانها :

- أيها الرجل الجاحد ! ألم تقنع بعد !

- لا يا إيرينا أنا غير قانع . لقد أذقتنى طعم الهناء ، ولكنى غير قانع . وأنت
تعرفين ما أعنيه .

– هذا ، إنتى ...

– نعم ، أنت تعرفين ما أعنيه . تذكرى كلماتك ، تذكرى ما كتبته إلى ، أنا لا أستطيع أن أقتسمك مع غيرى . لا ، لا ، لن أَلعب هذا الدور الوضيع ، دور العشيق المتلصص . أنا لم أَلق عند قدميك بحياتى وحدها ، بل بحياة أخرى معها ، لقد تخلت عن كل شىء ، ولكنى واثق – مؤمن كل الإيمان بأنك إزاء هذا ستبرين بوعدك ، وتوحدين بين حظى وحظك إلى الأبد .

– أتريد أن أفر معك ؟ إنى على استعداد ... (وراح لتقينوف يقبل يديها فى نشوة الفرح) إنى على استعداد . لن أرجع فى كلمتى . ولكن هل فكرت أنت فى كل الصعوبات ، هل أعددت كل الوسائل ؟

– أنا ؟ إنى لم أجد وقتا بعد للتفكير فى شىء ، أو لإعداد شىء . لكن قولى نعم ، دعينى أعمل ، فلا يمر شهر ...

– شهر ! سنرحل إلى إيطاليا بعد أسبوعين .

أذن يكفينى أسبوعان . أوه يا إيرينا ! إنك تقابلين اقتراحى ببرود ، ولعلك تظنينه خياليا ، ولكنى لست صبيبا ، ولم أتعود أن أتلهى بالأحلام . وأنا أعلم أنها خطوة خطيرة ، أنا أعلم أى مسئولية سأتحملها ، ولكنى لا أرى طريقا آخر . فكرى فى الأمر .

يجب أن أقطع كل صلة بالماضى ، ولو لم يكن لهذا من سبب إلا كراهة أن أبدو كذابا حقيرا فى عيني الفتاة التى ضحيتها من أجلك !

فانتفضت إيرينا فجأة وقد مضت عيناها :

– أوه ، أما هذا فلا ياجريجورى ميهالتش ! إذا قررت هذا – إذا قررت حقا فسأفر مع رجل يفعل ذلك من أجلى ، من أجلى أنا وحدى ، لا كراهة أن يسقط من عيني فتاة راكدة الطبع ، يجرى فى عروقها اللبن والماء بدل الدم ! وسأخبرك بشىء آخر : أعترف أن هذه هى أول مرة أسمع فيها أن الرجل الذى شرفته بنظراتى جدير بالإشفاق ، وأنه يلعب دورا وضيعا ! أنا أعرف دورا أوضح منه . دور الرجل الذى لا يدرى بما يدور فى قلبه !

فانتفض لتقينوف بدوره ، وبدأ يقول :

– إيرينا ...

ولكنها دقت جبينها فجأة بكلتا يديها ، وألقت بنفسها على صدره فى حركة تشنجية ، وراحت تعانقه بأشد من قوة الأنثى ، وتقول بصوت مرتعش :

- سامحنى ، سامحنى ، سامحنى يا جريجورى ! رأيت كم أنا فاسدة ، غيور ، حاقدة ، شرسة ! رأيت كم أحتاج إلى عونك وتسامحك ! نعم ، أنقذنى ، أخرجنى من هذا المستنقع قبل أن أضيع فيه ! نعم ، تعال نفر ، نفر من هؤلاء الناس ، من هذا المجتمع ، إلى بلاد بعيدة جميلة حرة ! لعل حبيبك إيرينا تكون جديرة آخر الأمر بما تضحى من أجلها ! لا تغضب على ، اعف عنى أيها الحبيب ، اعلم أنى سأفعل كل ما تأمرنى به ، سأذهب حيث تريد !

واصطخب قلب لتفينوف ، وازدادت إيرينا التصاقا به ، بجسمها الفتى اللدن ، فانحنى على شعرها العبق الذى انسدل ، ولم يكد يجرؤ وهو فى نشوة السعادة والشكر أن يداعبه بيده ، أو يمسه بشفتيه .

ردد :

- إيرينا ، إيرينا . ياملاكى ...

فرفعت رأسها فجأة ، وأنصتت ... ثم همست :

- إنها خطأ زوجى ... لقد دخل حجرته . ثم عبرت الغرفة إلى كرسي آخر . وهم لتفينوف أن يقوم لينصرف ، فاستمرت تقول هامسة :

- أين تذهب ؟ إبق . إنه يرتاب فيك من الآن . أم أنت تخافه ؟ - ولم ترفع عينيها عن الباب - نعم ، إنه هو . سيدخل بعد قليل . قل لى شيئا ، تحدث إلى - ولم يستطع لتفينوف أن يفكر فى شيء ، فبقى صامتا . قالت بصوت عال . « ألسنت ذاهبا إلى المسرح غدا ؟ إنهم يمثلون La verre d'eau ، رواية قديمة ، وبليسى متكلفة إلى درجة فظيعة . » وأضافت وهى تخفض صوتها : « نحن أشبه بمحمومين . لا فائدة ، يجب أن نفكر جيدا . كان يجب أن أنذرك بأن نقودى كلها بين يديه « mais j'ai mes bijoux ^(١) لنذهب إلى أسبانيا ، ما رأيك ؟ » وعادت فرفعت صوتها : « لماذا تصبح كل الممثلات بديئات ؟ مادلين بروهان مثلا ... تكلم ، لا تجلس هكذا صامتا . إن رأسى يدور . ولكن ، ولكن يجب ألا تشك فى ... سأخبرك أين تأتى غدا . إلا أنك أخطأت بإخبار تلك الفتاة ... وصاحت فجأة : Ah, mais ... c'est charmant ^(٢) » - ومزقت حاشية منديلها وهى تضحك ضحكة عصبية .

(١) « ولكن عندى الحلى » .

(٢) « آه ، ببيع ! » .

سأل راتميروف من الحجرة الأخرى :

– أدخل ؟

– نعم ... نعم .

فتح الباب . وظهر الجنرال على عتبته . وحين رأى لتفينوف عبس قليلا ، ولكنه انحنى له ، أى ثنى القسم الأعلى من شخصه الكريم .

قال :

– لم أكن أعلم أن معك ضيفا : - je vous demande pardon de mon indiscretion^(١) إذن فما زلت تستطيب الإقامة فى بادن يا مسيو – لتفينوف ؟

– لتفينوف ؟

كان راتميروف ينطق بلقب لتفينوف فى شىء من التردد دائما ، وكأنه ينساه كل مرة ، ولا يستطيع أن يتذكره على الفور ... وبهذه الطريقة ، وكذلك برفع قبعته حين يحييه ، كان يحاول أن يجرح كبرياءه .

– أنى لا أشعر بالملل هنا : M sieu de général^(٢)

– حقا ؟ أما أنا فأجد بادن مملة الى حد الفظاعة . إننا سنرحل قريبا ، أليس كذلك يا إيرينا بافلوفنا ؟ assez de Bade indiscretion^(٣) مع أنى ربحت لك اليوم خمسمائة فرنك .

فمدت إيرينا يدها بدلال :

– أين هى ؟ هاتها من فضلك .. لمصروفى ..

– سأعطيك إياها ، سأعطيك إياها ... أخرج هكذا سريعا يامسيو – لتفينوف ؟

– نعم ، كما ترى .

وثنى راتميروف جسمه مرة أخرى .

– يسرنى أن أراك ثانيا !

(١) « معذرة على تسرعى » .

(٢) « يا سيدى الجنرال » .

(٣) « شعبنا من بادن » .

قالت إيرينا :

– وداعا يا جريجورى ميهالتش . سأبر بوعدى .

فسأل زوجها :

– أى وعد ؟ هل لى أن أتطفل ؟

فابتسمت إيرينا :

– لا ، إنه شىء كنا نتحدث عنه : c'est a' propos du voyage ou il vous plaira^(١) أتعرف كتاب ستايل ؟

– آه ! آه ! بلا شك . صور رائعة .

وبدا راتميروف على أتم وفاق مع زوجته .

(١) « موضوع السفر .. الأماكن المحبة » .

ردد لتفينوف وهو ينحدر فى الشارع بخطا واسعة ، وقد أحس أن الضجة الباطنة تنور فيه من جديد : « الأفضل ألا أفكر الآن : لقد تقرر الأمر ، ستفى بوعدها ، وما على إلا أن أرتب الخطوات اللازمة .. ولكنها تبدو مترددة .. » وهز رأسه ، ولاحت له مشروعاته ، هو نفسه ، فى ضوء غريب : لقد كان فيها شيء مصطنع غير حقيقى .

إن المرء لا يستطيع أن يطيل التأمل فى أفكار بعينها إلا إلى حد محدود . فهى تتحرك تدريجيا كقطع الزجاج فى كاليديوسكوب ... وبينما ينظر المرء يجد الأفكار التى أمام عينيه قد تغيرت تغيرا تاما . وهكذا هبط على لتفينوف إحساس بالكلال .. لو استطاع أن يستريح ساعة واحدة قصيرة ! ولكن تانيا ! وأيقظ نفسه ، وبغير مزيد من التفكير انقلب الى مسكنه خاضعا . كان كل ماخطر فى ذهنه أنه ظل طوال اليوم يتقاذف الكرة بين الواحدة والأخرى ... لا بأس ، فليضع للأمر حدا . وعاد إلى فندقه وذهب ليرى تانيا ، لم يتردد ولم يسوف ، وهو على حالة تلك من الخضوع والخدر .

وقابلته كابينتولينا ماركوفنا . فعرف من أول نظرة أنها علمت بكل شيء . كانت عينا العانس المسكينة ورمتين من البكاء ، ووجهها المحمر الذى أحاطت به خصلها البيض المشعثة يعبر عن جزع وغضب وحزن وذهول . اندفعت إلى لتفينوف ، ولكنها تماسكت على الفور ، ونظرت إليه وهى تعض على شفتيها المرتعدتين ، وكأنها تريد أن تضرع إليه ، وتريد مع ذلك أن تقتله ، ثم تؤكد لنفسها أن الأمر كله كان جنونا ، حلما ، محالا ... أليس كذلك ؟

بدأت تقول :

— إنى فقد جئت ، جئت ...

وسرعان ما فتح باب الغرفة المجاورة ودخلت تاتيانا بخطا خفيفة ، شاحبة يكاد جلدها يشف ، ولكنها على أتم الهدوء . فأحاطت عمتها بذراعها فى رقة وأجلستها بجانبها ، وقالت للتفينوف الذى كان واقفا عند الباب كمن لا يجد نفسه :

— اجلس أنت يا جريجورى ميهاليتش . يسرنى أن أراك مرة أخرى . لقد أخبرت عمتى بعزمك ، بل بعزمنا المشترك . وهى تشاطرنا إياه وتقرنا عليه كل الإقرار ... لا سعادة بغير الحب المتبادل ، أما الاحترام المتبادل فلا يكفى وحده (وغض لتفينوف بصره بلا إرادة حين سمع كلمة الاحترام) . وخير أن نفترق الآن من أن نندم غدا . أليس كذلك يا عمتى ؟

فبدأت كابيتولينا ماركوفنا تقول :

- نعم ، طبعاً يا حبيبتي تانيا . الرجل الذى لا يستطيع أن يقدرك ... الذى يبلغ به الأمر ...

فقاطعتها تاتيانا :

- عمتى ! عمتى ! تذكرى وعدك لى . لقد كنت تقولين لى دائماً : الحقيقة ياتانيا ، الحقيقة والحرية . حسناً ، إن الحقيقة ليست حلوة دائماً ، وكذلك الحرية ، وإلا ففيم فضيلتهما ؟

وقبلت كابيتولينا ماركوفنا على شعرها الأبيض ، والتفتت إلى لتفينوف ومضت تقول :

- إنى أفكر أنا وعمتى فى الرحيل عن بادن ... ولعل هذا أوفق لنا جميعاً .

فقال لتفينوف بصوت باهت :

- ومتى تفكران فى الرحيل ؟

وتذكر أن إيرينا سألته هذا السؤال نفسه منذ قليل .

وتحركت كابيتولينا ماركوفنا نحوه ، ولكن تاتيانا ردتها بلمسة عطوف على كتفها :

- قريباً ، قريباً جداً .

وسأل لتفينوف بنفس الصوت :

- وهل تسمحين لى أن أسأل أين تنويان الذهاب ؟

- إلى درسدن أولاً ، ثم لعلنا نذهب بعد ذلك إلى روسيا .

فصاحت كابيتولينا ماركوفنا :

- ولكن ما حاجتك الآن إلى معرفة ذلك يا جريجورى ميهالتش ؟

فقاطعتها تاتيانا مرة أخرى :

- عمتى ! عمتى !

وساد صمت قصير ، ثم بدأ لتفينوف يقول :

- تاتيانا بتروفنا ، أنت تعلمين ما عسى أن تكون مشاعري اللحظة إيلاما
ومرارة ...

فنهضت تاتيانا قائلة :

- جريجورى ميهاليتش ، لن نتحدث عن ذلك ... أرجوك ، أرجوك من أجلي ، إن لم
يكن من أجلك أنت . لقد عرفتك منذ زمن طويل ، وإنى لقادرة على تصور ما تشعر به
الآن . ولكن ماجدوى الكلام ؟ ماجدوى مس جرح (وأمسكت ، وكان جليا أنها تريد أن
تكبح انفعالا مهاجما ، وأن تزبد دموعا ثائرة . وقد أفلحت) لماذا ننكأ جرحا لا نملك
نواحه؟ دع ذلك للزمن . والآن أريد منك شيئا يا جريجورى ميهاليتش: سأعطيك خطابا ،
فلعلك تتكرم بوضعه فى البريد بنفسك ، لأنه هام ، وأنا مشغولة الآن مع عمى ...
أكون شاكرة ... انتظر دقيقة ... سأحضره حالا .

وعند عتبة الباب التفتت تاتيانا فى قلق إلى كاييتولينا ماركوفنا ، ولكنها كانت
جالسة فى وقار وكبرياء ، وكان على حاجبيها المعقودين وشفتيها المزمومتين تعبير
صارم ، فاكتفت تاتيانا بأن أومأت إليها إيماءة ذات معنى ، وذهبت .

غير أن الباب ماكاد يغلّق خلفها حتى تلاشت من وجه كاييتولينا ماركوفنا كل آثار
الوقار والصرامة . فنهضت وأسرعت على أطراف أصابعها إلى لتفينوف ، وبدأت تقول
فى همس مرتعش باك ، وقد تحدثت وحاولت أن تنظر إلى وجهه :

- بالله يا جريجورى ميهاليتش ، ما معنى هذا ؟ أهو حلم أم ماذا؟ أنت تهجر تانيا ،
أنت تملها ، أنت ترجع فى كلمتك ! أنت تفعل هذا يا جريجورى ميهاليتش ، يا من كنا
كلنا نثق فيه ثقة عمياء أنت ؟ أنت ؟ أنت يا جريشا ؟ - وتوقفت كاييتولينا ماركوفنا ،
ثم مضت تقول دون أن تنتظر جوابا ، ودموعها تجرى قطرات رقيقة على خديها : كيف !
إنك تقتلها يا جريجورى ميهاليتش . لا تحكم عليها بمسلكها الآن ، فأنت تعلم أخلاقها !
إنها لا تشكو أبدا ، إنها لا تشفق على نفسها . فيجب أن يشفق عليها الآخرون ! إنها لا
تزال تقول لى : « يجب أن نحفظ بكبريائنا يا عمى ! » ولكن ماذا تكون الكبرياء حين
أرى أمامنا الموت ... نعم ، الموت ... (وقرقع كرسي تاتيانا فى الغرفة المجاورة ،
ومضت السيدة العجوز تقول بصوت أشد انخفاضا) : نعم ، إنى أرى الموت . كيف
أمكن أن يحدث شئ كهذا ؟ أهو سحر أم ماذا ؟ لم يمض زمن طويل منذ كنت تكتب
إليها أرق الرسائل . الحق ، هل يستطيع رجل شريف أن يسلك هذ المسلك ؟ إننى كما

تعرفنى امرأة متحررة غير جامدة ، esprit fort ، وقد رببت تانيا هذه التربية نفسها ،
فهى أيضا حرة الفكر ...

وجاء صوت تاتيانا من الغرفة المجاورة :

- عمتى !

- ... ولكن كلمة الشرف واجب يا جريجورى ميهاليتش ، وخصوصا عند من يؤمنون
بمبادئك - بمبادئنا ! إن لم نعتزف بالواجب فماذا يبقى لنا ؟ لا يمكنك أن تحنث فى
وعدك هكذا - مجرد نزوة - نون أن تنظر إلى ما يصيب غيرك ! إن هذا مخالف لكل
مبدأ ... نعم ، إنها جريمة ... نوع غريب من الحرية !

وسمع مرة أخرى :

- عمتى ، أسمحين بالمجئ هنا ؟

- أنا آتية يا حبيبتى ، أنا آتية ... وأمسكت كاييتولينا ماركوفنا بيد لتفينوف - أرى
أنك غاضب يا جريجورى ميهاليتش ... (وأراد أن يقول : أنا ! أنا غاضب ؟ ولكن
لسانه خرس) أنا لا أريد أغضابك - بل على العكس ! أريد أن أتوسل إليك ... فكر
قبل أن يفوت الأوان ، لا تحطمها ، ولا تحطم سعادتك أنت ، أنها مازالت تريد أن تثق
فيك . جريشا ! إنها ستصدقك ، لم يضع شئ بعد . كيف ! إنها تحبك حبا لن يمنحك
أحد مثله !

ارحل عن بادن - بادن الكريهة هذه ، لنرحل جميعا ، ما عليك إلا أن تنفض عن
نفسك هذا السحر ، والمهم . أشفق ، أشفق ... ونادت تاتيانا بشئ من الضجر :

- عمتى !

ولكن كاييتولينا ماركوفنا لم تسمعها .

- ما عليك إلا أن تقول نعم ، وأنا أرتب كل شئ ... ما عليك إلا أن تومئ لى إيماءة
كهذه أيها العزيز ... إيماءة واحدة !

وشعر لتفينوف أن الموت حبيب إليه فى تلك اللحظة ، ولكنه لم ينطق كلمة « نعم » ،
ولم يومئ .

وعادت تاتيانا ب خطاب فى يدها . فأسرعت كاييتولينا ماركوفنا مبتعدة عن لتفينوف ،
وحولت وجهها منحنية على المنضدة ، وكأنها تنتظر فيما عليها من كشوف وأوراق .

وتقدمت تاتيانا إلى لتفينوف . قالت :

– هناك الخطاب الذى تكلمت عنه ... هل تذهب به إلى البريد على الفور ؟

فرجع لتفينوف عينيه .. حقا لقد كان قاضيه ماثلا أمامه . وبدأت له تاتيانا أطول مما هى وأشد نحولا ، وكان وجهها ، الذى أشرق بجمال غير مألوف ، عظيما عظمة تمثال من الحجر ، ظل صدرها ساكنا ، وكان رداؤها ذو اللون الواحد ، المعتدل كشملة إغريقية قديمة ، يسقط ثنيات طويلة مستوية كثيات الرخام على قدميها المختلفتين تحته . وكانت تاتيانا تنظر أمامها نظرة مستقيمة ، كانت تنظر إلى لتفينوف وحده ، وفى نظرتها برود وهدوء . كأنها أيضا نظرة تمثال . وقرأ لتفينوف فيها الحكم عليه ، فأنحنى ، وتناول الخطاب من اليد التى امتدت إليه بثبات ، واتصرف صامتا .

وأسرعت كاييتولينا ماركوفنا إلى تاتيانا . ولكن هذه صدت عناقها وغضت بصرها ، وغشى وجهها احمرار ، ومضت إلى مخدعها وهى تقول : « يجب أن نسرع الآن » وتبعها كاييتولينا ماركوفنا مطرقة الرأس .

كانت الرسالة التى عهدت بها تاتيانا إلى لتفينوف موجهة إلى إحدى صديقاتها فى درسدن ، وهى سيدة ألمانية تؤجر مساكن مفروشة وألقى لتفينوف الرسالة فى صندوق البريد ، وخيل إليه أنه يلقى مع هذه القصاصة الصغيرة ماضيه كله ، بل حياته كلها – إلى المقبرة . فخرج إلى ظاهر المدينة ، وظل يتجول فى ممرات ضيقة بين بساتين الكروم ، ولم يستطع أن يتخلص من شعور باحتقار النفس كان يلح عليه كطنين ذبابة صيف . لقد كان الدور الذى مثله فى هذا اللقاء الأخير دورا لا يحسد عليه ... ولما عاد إلى فندقه ، وسأل بعد قليل عن السيدتين ، قيل له إنهما أمرتا ساعة خروجه بمركبة نقلهما الى محطة السكة الحديدية ، ورحلتا فى قطار البريد إلى وجهة غير معلومة . وكانت أمتعتهما معدة منذ الصباح ، وتذكراتهما مدفوعة ، وكان جليا أن تاتيانا سألت لتفينوف أن يحمل خطابهما إلى البريد لكى تبعده عن سبيلهما . وتجاسر على سؤال البواب : هل تركت له السيدتان أى خطاب ؟ فأجابه بالنفى ، وأظهر الدهشة ، فقد بدا له هذا الرحيل المفاجئ ، بعد استئجار المسكن أسبوعا ، أمراً غريبا يدعو إلى الريبة . فأولاه لتفينوف ظهره ، واعتكف فى حجرته .

ولم يغادرها حتى اليوم التالى ، وقضى معظم الليل جالسا إلى المنضدة يكتب ، ويمزق ما كتب ... وكان الفجر قد بدا يلوح حين فرغ من عمله – كان خطابا إلى إيرينا .

وهذا ما كان فى خطابہ إلى إيرينا :

« لقد رحلت خطيبتى أمس ، وإن تلتقى بعد الآن ... بل إنى لا أعلم علم اليقين أين تعيش بعد اليوم . لقد أخذت معها كل ما كان عزيزا لى حتى الآن . لقد ذهبت معها كل أفكارى وخططى وحياتى السابقة ، لقد ضاعت جهودى ، وانتهى عمل السنين إلى لا شىء ، ولم يعد لكل ما سعيت إليه معنى ولا فائدة . مات كل ذلك . نفسى ، ذاتى القديمة دفنت منذ أمس . إنى أشعر بذلك وأراه وأحسه فى وضوح ... ولست أسفا عليه ، ولست أقول لك هذا شاكيا .. وكيف أشكو وأنت تحبيننى يا إيرينا ! إنما أردت أن أخبرك بأنه لم يبق من كل هذا الماضى الميت ، من كل هذه الآمال والجهود التى أصبحت دخانا ورمادا - لم يبق حيا قاهرا إلا حبى لك . لم يبق لى شىء سوى ذلك الحب : وقليل أن أقول أنه كنزى الوحيد . فإن كيانى كله فى ذلك الحب . إن ذلك الحب هو كل وجودى . إن فيه مستقبلى . وعملى . وبلادى . وكل مقدس عندى ! أنت تعرفيننى يا إيرينا . أنت تعرفين أنى لا أحسن الكلام المنمق ، بل أكرهه . فمهما تكن قوية تلك الكلمات التى أحاول التعبير بها عن شعورى فلا ترتابى فى صدقها ، ولا تحسبى أن فيها شيئا من المبالغة . لست صبيبا يتمتم أمامك فى فورة النشوة الطارئة بعهود لا يعى معناها ، ولكنى رجل ناضج السن يخبرك فى بساطة ووضوح - بل فى زعر - بما عرف أنه الحقيقة التى لامناص منها . أجل ، إن حبك قد حل عندى محل كل شىء - كل شىء ، كل شىء ! فاحكمى أنت : أأستطيع أن أدع كلى هذا بين يدى رجل آخر ؟ أنت - ستكونين ملكه . كل وجودى ودم قلبى سيكون ملكه - وأنا ... أين أنا ؟ ما أنا ؟ غريب متفرج ... أتفرج على حياتى نفسها ! كلا إن هذا محال . محال ! أأقتسم فى الخفاء ذلك الذى تغدو الحياة بدونه عبثا ومحالا ... هذا هو الغش والموت . أنا أعلم عظم التضحية التى أسألك إياها بغير حق ، وما الذى يمنح المرء حقا فى التضحية ؟ ولكنى لست أناانيا حين أفعل ذلك . فالإنانى يرى الأسهل والأسلم ألا يثير هذه المسألة على الإطلاق . أجل . إنى مطالبى باهظة ، ولن أدهش إذا أخافتك . فأنت تكرهين الناس الذين تعاشرينهم مضطرة ، وأنت قد سئمت المجتمع ، ولكن هل لديك من القوة ما يمكنك أن تطرحى هذا المجتمع ، أن تدوسى تحت قدميك الفوز الذى توجك به ، أن تثيرى عليك الرأى العام - رأى هؤلاء القوم الذين تكرهينهم ؟ سلى نفسك يا إيرينا . لا تحملى نفسك عبثا أعظم مما تطيقين . أنا لا أريد أن أبكتك . ولكن تذكرى أنك

عجزت مرة عن الصمود للإغراء . أنا لا أستطيع أن أقدم إليك إزاء كل ما تفقدينه سوى القليل . اسمعى كلمتى الأخيرة : إن كنت لا تجددين من نفسك القدرة غدا - بل اليوم - على أن تتركى كل شىء وتتبعينى - أنت ترين جسارتى فى التعبير ، وإصرارى فى الطلب - أن كنت تخشين المستقبل المزعزع ، إن كنت تخشين الغربة ، والوحشة ، واحتقار الناس ، إن لم تكونى واثقة من نفسك - فصارحينى بذلك ولا تمهلى صارحينى فأرحل عنك . سأرحل بقلب كسير ولكنى سأباركك لصدقك . أما إن كنت يامليكتى الجميلة الباهرة تحبين حقا هذا الرجل الخامل المتواضع ، وترغبين حقا أن تشاركيه فى حظه ، فهاتى يدك إذن ، وهيا ننطلق سويا فى رحلتنا الشاقة ! ولكن اعملى أن عزمى لن يتغير . فإما كل شىء وإما لا شىء . إنه جنون .. ولكنى لا أستطيع غيره - لا أستطيع يا إيرينا ! حبى لك فوق ذاك .

حبيبك « ج . ل »

لم يرض لتفينوف كثيرا عن هذه الرسالة . فإنها لم تصور ما أراد أن يقوله تصويرا صادقا كل الصدق ، ولا دقيقا كل الدقة . وكانت فيها عبارات قلقة ، أشبه بما فى الكتب ، أو أقرب إلى المبالغة . وكانت - بلا شك - لا تفضل كثيرا من الرسائل التى مزقتها ، ولكنها كانت آخر هذه الرسائل ، وكانت النقطة الأساسية مقررة فيها تقرير واضحا على كل حال ، ولم يشعر لتفينوف وهو فى ألمه وإعيائه بمقدرة على اقتلاع شىء آخر من رأسه ، ثم إنه لم يكن يملك القدرة على وضع أفكاره فى صورة أدبية ، وكان - ككل من لا يمارسون الكتابة - يحتفل كثيرا للأسلوب . ولعل رسالته الأولى .. كانت أحسن رسائله ، إذ كانت صادرة من قلبه وعلى كل حال فقد بعث لتفينوف برسالته إلى إيرينا .

وأجابت بكلمة قصيرة :

« تعال إلى اليوم . إنه سيغيب طول النهار . لقد أزعجنى خطابك جدا . إنى أفكر وأفكر ... ورأسى يدور من التفكير . إنى فى هم شديد ولكنك تحببى . وأنا سعيدة ... تعال . »

حبيبك « أ »

كانت جالسة فى مخدعها حين دخل لتفينوف . قادتة إليه البنت الصغيرة ذات الثلاثة عشر عاما ، تلك التى ترقبته فى اليوم السابق على الدرج . وكان على المنضدة

المواجهة لايرينا صندوق من الورق المقوى شبه دائرى فيه وشى . وكانت تلف الوشى بإحدى يديها فى غير عناية ، وتمسك بالأخرى خطاب لتفينوف . وكانت قد كفت عن البكاء ولما تكد ، فأهدابها مخضلة ، وأجفانها ورمة ، وعلى خديها آثار الدموع لم تكفكف . ووقف لتفينوف ساكنا بالباب فلم تلاحظ دخوله .

قال متعجبا :

– أتبكين ؟

فريعت . وأمرت يدها على شعرها . وابتسمت .

وأعاد لتفينوف :

– لماذا تبكين ؟

فأشارت إلى الرسالة فى صمت . فنطق متلعثما :

– إذن فقد كنت ... لتلك ...

قال :

– تعال . اجلس . هات يدك . أجل . لقد كنت أبكى . مم تعجب ؟ أهذا قليل ؟

وأشارت إلى الرسالة ثانية .

وجلست لتفينوف :

– أعلم أن الأمر غير يسير يا إيرينا . وأنا أقول هذا فى رسالتى أنى أفهم موقفك . ولكن إن كنت تعرفين ما يعنيه حبك لى ، إن كانت كلماتى قد أقنعتك ، فلا بد أنك تفهمين أيضا ما أشعر به الآن لمراى دموعك . لقد جئت إلى هنا كرجل يساق إلى المحكمة ، وإنى أنتظر قضائى : الموت أم الحياة ؟ إن جوابك يقرر كل شىء . لكن لا تنظرى إلى بهاتين العينين ... إنهما تذكراى بالعينين اللتين رأيتهما قديما فى موسكو .

فاحمر وجه إيرينا فجأة ، والتفتت ، وكأنها شعرت هى نفسها بنذير شؤم فى نظرتها .

– لماذا تقول ذلك يا جريجورى ؟ واخجلتاه ! تريد أن تعلم جوابى ... أتعنى أنك تستطيع أن ترتاب فيه ؟ تزعجك دموعى ... ولكنك لا تفهمها . إن رسالتك – يا أعز

عزيز - جعلتني أفكر . هأت تقول إن حبي شغل كل مكان عندك ، حتى دراساتك السابقة لن تكون لها فائدة بعد الآن ، ولكني أسألك نفسي : أيستطيع الرجل أن يعيش للحب وحده ؟ ألا يمل الحب آخر الأمر ، ألا يتوق إلى العمل ، ويلوم ذلك الذي انتزعه منه ؟ هذه هي الفكرة التي تفرزني ، هذا هو ما أخافه ، لا ذلك الذي كنت تتخيله .

وأطال لتقينوف النظر إلى إيرينا ، وأطالت النظر إليه ، كئن كلا منهما يريد أن ينفذ إلى أغوار نفس صاحبه ، إلى أغوار لا تصل إليها الكلم ، ولا تتم بها الكلم .

ثم بدأ لتقينوف يقول :

- أنت مخطئة إذ تخافين ذلك . لابد أني أسأت التعبير ، الملل ؟ الخمول ؟ مع القوة الجديدة التي يبعثها في حبك ؟ أوه يا إيرينا ، إنني أجد حبك عالماً بأسره ، ولا أستطيع أنا نفسي أن أتنبأ بما يكمن فيه .

وفكرت إيرينا ، ثم همست :

- أين تذهب ؟

- أين ؟ ستتحدث عن ذلك فيما بعد . ولكنك إذن ... إذن توافقين ؟ أتوافقين يا إيرينا ؟

فنظرت إليه :

- وتكون سعيداً ؟

- أوه يا إيرينا !

- ولا تأسف على شيء ؟ أبداً ؟

وانحنى على صندوق الورق ، وبدأت تنظر مرة أخرى إلى ما فيه من وشى . قالت :

- لا تغضب يا حبيبي لأنني أشغل نفسي بهذه التوافه في مثل هذه اللحظة ... إنني مضطرة لأن أذهب الليلة إلى حفلة رقص في منزل سيدة من السيدات ، وقد جاعتنى هذه الزيوق ، وعلى أن أختار شيئاً منها اليوم .

وصاحت فجأة :

- آه ، ما أتعسني !

ووضعت رأسها على حافة الصندوق . وجلعت الدموع تتحدر من عينيها ثانية ... فالتفتت ، قد تفسد الوشى الدموع .

وبدا لتفينوف يقول فى قلق :

- إيرينا ! أتبكين ثانية ؟

- فقاطعته إيرينا بسرعة :

- أجل ثانية . أوه يا جريجورى ! لا تعذبني . لا تعذب نفسك ! لنكن أحرارا !
لم لا أبكى ؟ وهل أعلم أنا فى الحقيقة لماذا تسيل دموعي ؟ أنت تعرف قرارى . لقد
سمعتة . وأنت تعلم أنه لن يتغير . إنى أوافق على ... كيف قلت ؟ إما كل شيء
أو لا شيء ... ماذا تريد أكثر من هذا ؟ فلنكن أحرارا ! لماذا تضع القيود حولنا ؟ نحن
وحيدان الآن . وأنت تحبني . وأنا أحبك . فهلا نجد لنا شغلا خيرا من التفتيش فى
ضماننا ؟ انظر إلى . أنا لا أريد أن أتحدث عن نفسى أنا ما أشرت بكلمة واحدة إلى
أنه ربما لم يكن سهلا على أن أدوس على واجبي كزوجة ... ولا أخدع نفسى . فأنا
أعلم أنى مجرمة . وأنه يحق له أن يقتلنى . ولكنى لا أبالى . فلنكن أحرارا . العمر يوم ...
ونفضت عن كرسيها . ونظرت إلى لتفينوف من عل ، وهى تبتسم ابتسامة خفيفة ،
وتضيق عينيها ، بينما كانت تزيح عن وجهها ، بذراع عارية حتى الكوع ، خصلة طويلة
لمعت عليها عبرات قليلة . وانزلق عن المنضدة وشاح ثمين . وسقط على الأرض عند
قدمي إيرينا . فداسته باحتقار .

- أم أنت لا تحبني اليوم ؟ هل أصبحت قبيحة منذ أمس ؟ خبرنى : أرأيت أجمل
من هذا الذراع ؟ وهذا الشعر ؟ خبرنى : أتحبني ؟

وضمته بكلتا ذراعيها . وضغطت رأسه على صدرها . وسقط مشطها يرن . وغطاء
شعرها المتهدل كموجة ناعمة فواحة .

كان لتفينوف يقبل ويدبر فى غرفته بالفندق وهو مطرق يفكر . أصبح الواجب أن ينتقل من النظرية إلى التطبيق ، وأن يدبر الطرق والوسائل للهرب والرحيل إلى بلاد مجهولة . ولكن العجيب أنه لم يكن يفكر فى الطرق والوسائل بقدر ما كان يفكر هل وصل حقا وبلا أدنى ريب إلى القرار الذى أصر عليه ذلك الإصرار ؟ هل قيلت الكلمة الأخيرة التى لا يمكن أن تسترد ؟ لاشك أن إيرينا قالت له حين فارقتة : « رتب كل شىء . ومتى أصبحت مستعدا فما عليك إلا أن تخبرنى » . إذن فالأمر مقرر . ولا محل للشك ! إذن فعليه أن يبدأ فى مهمته . وقد بدأ لتفينوف مهمته بالتفكير المنظم . أولا النقود . وقد وجد لتفينوف أن بيده من النقود ١٣٢٨ جلدأ ، أى ٢٨٥٥ فرنكا بالعملة الفرنسية . وهو مبلغ صغير ، ولكنه يكفى حاجتهما الأولى . ثم عليه أن يكتب إلى أبيه ليرسل إليه كل ما يستطيع . فليبع الغابة وجزءا من الأرض . ما عسى أن تكون حجتة ؟ حسنا . سيجد حجة مناسبة . لقد أشارت إيرينا إلى حلها . هذا صحيح ولكن هذه الحلى لا ينبغى أن تدخل فى حسابه مهما تكن الأسباب . فمن يدري ؟ قد تنفع فى أزمة . وكانت له غير ذلك ساعة سويسرية جيدة ، يمكنه أن يأخذ فيها ... لنقل ٤٠٠ فرنك .

وذهب لتفينوف إلى مصرفى وسأله - بعد لف ووران - هل يمكنه أن يقرض نقودا ؟ ولكن الصيارفة فى بادن ثعالب مسنة حذرة . فهم يجيبون على هذه المداورات بأن يتظاهروا على الفور بالذبول والأسى كزهرة برية حزها المنجل . وبعضهم يضحك فى وجهك دون مداورة ، وكأنما أعجبتة هذه الدعابة البريئة منك .

ويا لخزى لتفينوف إذ جرب حظه على الروليت . حتى الروليت . يا للعار ! فوضع تالرا على رقم ثلاثين ، وهو الرقم الذى يوافق عمره . وكان يريد أن يزيد رأس ماله و « يقفله » . ومع أنه لم يزد رأس ماله فقد « أقفله » حقا إذ فقد الثمانية والعشرين جلدا الزائدة .

وكانت المسألة الثانية الهامة هى مسألة جواز السفر . ولكن جواز السفر للمرأة لم يكن ضرورة لا يمكن التجاوز عنها . وكانت هناك بلاد لا تحتاج إليه مطلقا مثل بلجيكا وإنجلترا . ثم أن من المستطاع الحصول على جواز غير روسى . فكر لتفينوف فى ذلك كله تفكيراً عميقاً ، وكان عزمه ثابتاً لا يتزعزع ، على أن شيئا أقرب إلى الهزل منه إلى

الجد كان لا ينفك يتسلل إلى أفكاره ، وكأن الأمر كله مهزلة ، وكأن أحدا لم يفر مع أحد قط في الواقع ، بل في التمثيليات والقصص ، أو ربما في أعماق الريف ، في مجاهل روسيا ، حيث يمرض الناس من السأم وحده كما روى بعض المسافرين . وتذكر لتفينوف كيف هرب أحد أصدقائه - باتسوف - وكان ضابطا متقاعدا من سلاح الفرسان - مع ابنة أحد التجار في عربة بريد بأجراس وترويكاً ^(١) ، بعد أن مهد لذلك بأسكار أبويها ، واتباع الخطة نفسها مع العروس ، وكيف ظهر فيما بعد أنه هو الذي خدع ، وكاد يضرب فوق ذلك . وضاق لتفينوف بنفسه ضيقا شديدا لهذه الخواطر النابية ، وتذكر تاتيانا ، ورحيلها المفاجئ ، وكل ذلك الحزن والبلاء والخزي ، فشعر شعورا أليما بأن الأمر الذي يستعد له أمر جدى فظيع ، وبأنه كان محقا حين أخبر إيرينا بأن الشرف نفسه لا يدع له سبيلا آخر ... وإذا به مرة أخرى يلتف على قلبه شيء كالنار لمجرد ذكر اسمها ، ثم يسكن تاركا فيه ألما حلوا .

وسمع وقع حوافر جياد من ورائه ... فانتحى ناحية . وأدركته إيرينا على ظهر جواد ، وقد ركب بجانبها الجنرال السمين . فعرفت لتفينوف ، وأومات إليه ، وألهبت حصانها بضربة من سوطها على جنبه ، فعدا قليلا ثم مرق فجأة في سرعة خاطفة ، وهفهم نقابها الأسود مع الريح .

وصاح الجنرال :

- Pas si vite, nom de Dieu ! pas si vite ! ^(٢)

وركض خلفها .

(١) ثلاثة من الخيل في صف .

(٢) « لا تسرعى هكذا ! لا تسرعى هكذا بحق الله ! » .

فى الصبح التالى كان لتفينوف عائدا من عند المصرفى ، بعد أن تحدث معه مرة أخرى عن تقلقل سعر عملتنا فى السوق الدولية ، وخير الوسائل لإرسال النقود إلى الخارج ، فسلمه بواب الفندق خطايا . وعرف لتفينوف خط إيرينا ، فذهب إلى حجرته دون أن يفض الخاتم . وقد وقع فى نفسه - لسبب لا يعلمه إلا الله - أن ليس وراء هذا الخطاب خير . وكان هذا ما قرأه (كان الخطاب بالفرنسية) :

« يا أعز حبيب ، لقد أمضيت الليل كله أفكر فى خطتك ... أنى لا أريد أن أخدعك . لقد كنت صريحا معى ، فلاكن صريحة معك . إنى لا أستطيع الفرار معك . ليست لدى القوة لأفعل ذلك . إنى أشعر بعمق إساعى إليك - أن إثمى فى الثانية لكبر من إثمى فى الأولى - إنى أحتقر نفسى ، وجبى ، وأؤنب نفسى بمرارة ، ولكنى لا أستطيع أن أغير طبيعتى . عبثا أقول لنفسى إنى حطمت سعادتك ، وأنتك محق الآن فى أن تعدنى لعوبا ذات نزوات ، وأنى أنا التى منيتك ووعدتك أوثق الوعود .. إنى ميلئة رعبا وكراهية لنفسى ، ولكنى لا أستطيع أن أفعل غير ما أفعله ، لا أستطيع ، لا أستطيع . أن أبرئ نفسى ، لن أقول لك أنى أنا أيضا كنت مدفوعة بعاطفتى ... فهذا كله لا قيمة له ، ولكنى أريد أن أقول لك ، وأكرر مرة بعد مرة ، إنى لك ، لك إلى الأبد ، فافعل بى ما شئت ، متى شئت ، بلا شروط ، ولا قيود ! أنى لك ... أما أن أفر ، وأرمى كل شىء ... فلا ! لا ! لا ! لقد توسلت إليك أن تنقذنى . لقد رجوت أن أمحو كل شىء ، أن ألقى الماضى فى النار . ولكنى لا أرى لى خلاصا . إنى أرى السم قد بلغ أعماقى ، إنى أرى الإنسان لا يستطيع أن يتنفس فى هذا الجو سنوات دون أن يتلوث به . لقد ترددت طويلا قبل أن أكتب إليك هذه الرسالة ، فأنا أخاف قرارك ، ولا أعتمد إلا على حبك لى . ولكنى رأيت من الخيانة أن أخفى عنك الحقيقة - وبخاصة أن لعلك بدأت تعمل لتنفيذ خطتك . أه لقد كانت حلوة ، ولكنها مستحيلة ! أوه يا حبيبى ! اعتبرنى امرأة ضعيفة نزرقة ، احتقرنى ، ولكن لاتهجرنى ، لا تهجر حبيبك إيرينا ! ... ليست لى القوة على أن أفارق هذه الحياة ، ولا القدرة على أن أعيشها بدونك ! سنعود بعد قليل إلى بطرسبرج ، فتعال هناك ، عش هناك ، سنجد لك عملا ، ولن تضيع جهودك الماضية ، ستجد لها مجالا مفيدا .. ولكن عش بقربى ، أحببى كما أنا ، بكل ضعفى وردائلى . وثق أنك لن تجد قلبا يخلص لك أو يحنو عليك حنو حبيبك إيرينا ! تعال إلى بأسرع ما تستطيع ! لن أجد لحظة راحة حتى أراك - حبيبك ، حبيبك : « ١ »

اندفع الدم إلى رأس لتفينوف بضربات مطرقة ، ثم غاص إلى قلبه بطيئاً ثقيلاً ، وبقي هناك كصخرة لا تتقلقل . قرأ رسالة إيرينا ثانية ، وكما حدث تلك المرة في موسكو ، انطرح على الأريكة ذاهب القوة . وظل راقدا بدون حراك ، وكأنما انفجرت حوله فجأة هوة مظلمة ، فراح يحدق في ذلك الظلام بذهول وقنوط . هكذا مرة أخرى ... الخديعة مرة أخرى ، بل شر من الخديعة : الخيانة والضعة .. حياته تحطمت ، وكل شيء اجث من جذوره ، والشيء الوحيد الذى استطاع أن يتعلق به ، ذلك السند الأخير قد تفتت أيضا ! جعل يردد بضحكة مرة : « تعال وراعى إلى بطرسبرج . سنجد لك عملا ... يعينوننى رئيس كتبة مثلا ؟ ومن (هم) الذين سيجدون لى عملا ؟ هاهنا ماضيها طافيا إلى السطح ، ذلك الماضى الخفى المروع الذى لا أعلمه ، والذى كانت تحاول أن تمحوه ، وأن تلقى به فى النار . هاهنا عالم المؤامرات ، والعلاقات السرية ، والقصص السوداء عن بيلسكى وبولسكى .. وأى مستقبل ! أى دور رائع ينتظرنى ! أن أعيش بقربها ، وأزورها ، وأشاطرها كآبة الانحلال ، كآبة سيدة المجتمع التى تضجر بالمجتمع وتسأمه ، ولكنها لا تستطيع أن تعيش خارج دائرته . وأصبح صديق الأسرة . وطبعاً صديق سعادته ... إلى ... إلى أن تتغير النزوة ، ويفقد العشيق الشعبى طعمه الحريف ، فيحل محله الجنرال السمين أو السيد فييكوف - هذا ممكن ، وممتع ، ولعله مفيد أيضا ... إنها تتحدث عن « المجال المفيد » لكفاءتى ! أما الخطة الأخرى فهى مستحيلة ! مستحيلة ! »

وهبت فى نفس لتفينوف لفحات دفيئة من الغضب ، كأنها الأنواء قبل العاصفة .. أحنقته كل عبارة فى رسالة إيرينا . حتى تأكيدها لعواطفها الدائمة غاظه وأضجره . وأخيراً صاح :

.. - لن يمر الأمر هكذا ! لن تلعب بحياتى هكذا دون رحمة !

ووثب لتفينوف واختطف قبعته . ولكن ماذا يجب عليه إن يفعل ؟ يهرع إليها ؟ يجب على خطابها ؟ توقف ، واسترخت يداها : أجل ، ماذا يجب عليه أن يعمل ؟

ألم يعرض عليها ، هو نفسه ، ذلك الاختيار الفاصل ؟ إن الأمر لم ينته كما أحب ، وهذا خطر كل اختيار . لقد غيرت رأيها ، هذا حق ، لقد أعلنت هى نفسها أول الأمر أنها تود أن تترك كل شيء وتتبعه ، هذا حق أيضاً ، ولكنها لم تنكر خطأها ، بل زعمت أنها امرأة ضعيفة ، لم ترد أن تخدعه ، ولكنها خدعت فى نفسها .. فأى جواب يقال لمثل هذا الكلام ؟ إنها لم تتافقه على كل حال ، لم تخدعه .. بل كانت صريحة ، صريحة

بلا حرج . لم تكن مضطرة إلى مكاشفته على الفور ، ولم يكن ثمة ما يمنعها من تعليقه بالوعود ، وإرجاء الأمور ، وتركه فى الظلام إلى يوم رحيلها .. رحيلها هى زوجها إلى إيطاليا . ولكنها حطمت حياته ، حطمت حياتين .. حسنا ، ليس هذا بالأمر الغريب .

وليسست هى التى ظلمت تاتيانا . لقد كان هو الظالم ، هو لتفينوف وحده ، ولا يحق له أن يتملص من المسئولية التى ألقاها إثمه على كاهله نيرا من حديد ... هذا كله حق ، ولكن ماذا بقى له أن يفعل الآن ؟

وارتمى على الأريكة ثانية ، وعادت اللحظات تتراكم فى سرعة نهمة ، مظلمة لامعنى لها غير تاركة وراءها أثرا .

وومض فى ذهنه : « لم أفعل ما تقول ؟ إنها تحبنى ، إنها لى . أليس ثمة شيء محتوم لا يقاوم ، كآته القانون الطبيعى ، فى اندفاع كل منا إلى الآخر ، فى هذه العاطفة الشديدة التى اشتعلت بعد سنين كثيرة ، وفرضت سلطانها بقوة قاهرة ؟ أعيش فى بطرسبرج .. لن أكون الأول فى هذا الوضع ، ثم أين كان يمكننا أن نجد وطننا أنا وهى ؟ .. »

وسبح فى الأحلام ، وتمثلت له صورة إيرينا كما انطبعت فى ذاكرته إلى الأبد خلال هذه الأيام القليلة ... ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فسرعان ما أفاق لنفسه ، وبفورة جديدة من الغضب طرد الذكرى من مخيلته ، ومع الذكرى صورتها الساحرة .

صاح : أنت تقدمين إلى تلك الكأس الذهبية لأشرب منها ، ولكن فى هذه الجرعة سما ، وجناحاك الأبيضان ملطخان بالوحل اغربى عنى ! أبقى معك هنا بعد أن .. بعد أن طردت خطيبتى .. ياللعار ! ياللعار ! وعصر فى سورة الألم يديه ، وأنبعث من الأعماق وجه آخر قد انطبعت على ملامحه الهادئة سيماء الألم . ويدا فى عينيه المودعتين تأنيب أبكم .

وتحمل لتفينوف هذا البلاء طويلا . ظل فكره المعذب يتقلب من جنب لجنب كالمحموم .. حتى هدا ، واستقر على عزم . لقد كان يشعر منذ اللحظة الأولى ماذا سيكون قراره .. لقد بدأ له أول الأمر نقطة نائية لا تكاد تبين وسط نومة مظلمة من صراعه الباطنى ، ثم لم تزل النقطة تقترب وتقترب حتى شقت قلبه بنصل بارد كالثلج .

جر لتفينوف صندوقه من الركن مرة أخرى ، وجمع متاعه فى غير عجلة - بل فى نوع من العناية البليدة - ثم طلب خادم الفندق ودفع حسابه ، وأرسل إلى إيرينا ورقة بالروسية هذا مضمونها :

« لست أدري أتسيئين إلى اليوم إساءة أعظم من إساءاتك الأولى ، ولكنى أدري أن هذه الضربة لا تقاس شدتها بتلك ... إنها النهاية . تقولين لى : « أنا لا أستطيع ... » وأكرر لك أنا لا أستطيع ... فأفعل ما تشائين . أنا لا أستطيع ولا أريد . لاتجيبينى . إنك عاجزة عن أن تقدمى إلى الجواب الوحيد الذى أرضاه . سأرحل صباح الغد بأول قطار . وداعاً ، وسعدت ! لا أظن أننا سنلتقى مرة أخرى .»

ولم يغادر لتفينوف حجرته حتى هبط الليل ، ولعله كان ينتظر شيئاً . الله وحده يعلم . وحوالى الساعة السابعة مساءً اقتربت من درج فندقه سيده فى شملة سوداء وعلى وجهها نقاب . اقتربت من الدرج مرتين . ثم ابتعدت بضع خطوات وبعد أن حددت برهة فى الفضاء لوحت بيدها فى عزم ، واتجهت للمرة الثالثة إلى الدرج .

وإذا بصوت مشدود ينطق خلفها :

– أين تذهبين يا إيرينا بافلوفنا ؟

فالتفت بسرعة عصبية .. كان بوتوجين مسرعاً إليها .

فوقفت وفكرت لحظة . ثم اندفعت إليه ممسكة بذراعه ، وشدته وهى تردد مبهورة الأنفاس :

– خذنى بعيداً . خذنى بعيداً !

فتمتم فى دهشة :

– ماذا أصابك يا إيرينا بافلوفنا ؟

فكررت بقوة مضاعفة :

– خذنى بعيداً ، إن كنت لا تريد أن أبقى إلى الأبد .. هناك !

فحنى بوتوجين رأسه طائفاً . وأسرعاً مبتعدين معا .

وفى بكرة اليوم التالى كان لتفينوف على أهبة الرحيل حين دخل إلى حجرته ... بوتوجين .

اقترب منه فى صمت . وفى صمت صافحه ، ولم يتكلم لتفينوف أيضاً : كان كلاهما يحاول عبثاً أن يبتسم .

وأخيرا أخرج بوتوجين من فمه :

- إنى جئت أتمنى لك رحلة طيبة .

فسأل لتفينوف :

- وكيف علمت أنى راحل اليوم ؟

ونظر بوتوجين إلى أرض الحجرة حوله ...

- عندى علم بذلك ... كما ترى . إن محادثتنا الأخيرة قد اتجهت وجهة غريبة عند النهاية .. فلم أرد أن أفارقك دون أن أعبر عن شعورى الطيب الصادق نحوك .

- أهذا شعورك الآن ... وأنا راحل ؟

فنظر بوتوجين إلى لتفينوف بجنون وبدأ يقول بزفرة قصيرة :

- أه يا جريجورى ميهالتش ! لم يبق وقت للمداورة والمحاورة . إنى لم أرك تعنى كثيرا بأدبنا القومى ، ولعلك لم تسمع عن فاسكابوسلايف ؟ ...

- عمن ؟

- عن فاسكابوسلايف بطل نوفجورود - فى مجموعة كرشا دانيلوف .

فقال لتفينوف وقد شعر ببعض الحيرة لذلك الاتجاه المفاجئ فى الحديث :

- من بوسلايف ؟ أنا لا أعرف عنه شيئا .

- لا بأس . هذا ما أردت أن أنبهك إليه : بعد أن رحل فاسكابوسلايف باتباعه من أهل نوفجورود حاجين إلى بيت المقدس ، وروعهم بأنه لا يؤمن بالفعال ولا الرؤيا ولا الزجر - تسلق هذا المنطقى فاسكابوسلايف جبل طابور . وكان على قمة ذلك الجبل صخرة عظيمة ، حاول الناس من كل جنس أن يثبوا فوقها ... وأراد فاسكا أن يجرب حظه أيضا . فصادف فى طريقه رأس ميت - جمجمة آدمية - فرفسها بقدمه . فقالت له الجمجمة : « لم ترفسنى ؟ لقد عرفت كيف أعيش . وأنى لأعرف كيف أتلحرج فى التراب - وسوف يصيبك ما أصابنى . » ثم وثب فاسكا فوق الصخرة . ولما كاد يعبرها . عثرت قدمه ، وتهشمت جمجمته ... بهذه المناسبة يجب أن أشير إلى أن أصدقاءنا السلافوفيل ، المغرمين برفس الرؤوس الميتة والقوميات التى دب فيها الفناء ، يجدر بهم أن يفكروا فى تلك الأسطورة .

فقاطعه لتفينوف بصبر نافد :

- ولكن ما الذى ترمى إليه ؟ معذرة . لقد حان الوقت ... فأجاب بوتوجين وقه
التمعت عيناه بعطف شديد لم يكن لتفينوف يتوقعه منه :

- كيف ؟ الذى أرمى إليه هو ألا ترفس رأس إنسان ميت ، لعل طيبة قلبك تيسرك
للوثوب فوق الصخرة القاتلة . لن أستبقيك أكثر من هذا . ولكن دعنى أعانقك قبل
رحيلك .

فقال لتفينوف وهو يقبل بوتوجين القبلات الثلاث التقليدية :

- بل لن أحاول الوثوب !

وذابت لحظة تلك الإحساسات المرة التى كانت تغمر قلبه فى شفقة على الرجل
الشقى الوحيد .

- ولكن يجب أن أذهب الآن . يجب أن أذهب ...

وأخذ يدور فى الحجرة . فتطوع بوتوجين قائلاً :

- هل أحمل عنك شيئاً ؟

- لا . شكراً لك . لا تتعب نفسك . يمكننى ...

- ولبس قبعته ، وحمل حقيبته . وسأل وهو يقف بالباب :

- أتقول أنك رأيته ؟

- نعم رأيته .

- حسناً ... كيف هى ؟

فصمت بوتوجين لحظة .

- لقد كانت تنتظرك أمس ، وسوف تنتظرك اليوم .

- آه ! قل لها ... لا ، لا ضرورة ... لا ضرورة لأن تقول شيئاً ...

وداعاً ... وداعاً !

- وداعا يا جريجورى ميهالتش .. دعنى أقول لك كلمة واحدة أخيرة . مازال لديك بعض الوقت لتسمعنى ، فقطارك لن يتحرك قبل نصف ساعة . إنك عائد إلى روسيا ... وستعمل هناك .. عندما يؤن الأوان . فاسمح لثرتار عجوز - فلسست مع الأسف إلا ثرتارا - كى يقدم إليك نصيحة قبل ذهابك . كلما شرعت فى عمل جديد فاسأل نفسك : هل تخدم بهذا العمل قضية المدنية بالمعنى الدقيق الصحيح لهذه الكلمة ؟ هل تسعى لتحقيق مبدأ من مبادئ المدنية ؟ وهل لنشاطك تلك الصبغة الأوربية المتتورة التى لا ينفعنا غيرها الآن ؟ فإن كان كذلك فسر على بركة الله ! ثم احمد الله لأنك لست وحدك الآن . لن تكون « باذرا فى الصحراء » . فبيننا الآن كثير من العاملين ... من البرواد ... ولكنك يجب أن تسرع الآن . وداعا ، لا تنسنى !

هبط لتفينوف الدرج مسرعا ، وارتمى فى عربة ، وقصد إلى المحطة دون أن يلتفت مرة واحدة إلى المدينة التى ترك فيها شطرا كبيرا من حياته ومن نفسه . كان كرجل أسلم نفسه إلى موجة عالية فاخترطفته وحملته وهو عازم كل العزم ألا يقاومها ، مضرب عن كل محاولة أخرى لإثبات إرادته .

وبينما كان يهم بدخول عربة القطار سمع من خلفه همسة ضارعة :

- جريجورى ميهالتش ... جريجورى ...

وانتفض ... أيمكن أن تكون إيرينا ؟ .. أجل ، إنها هى . كانت واقفة على الرصيف تنظر إليه بعينين خابيتين ، وقد تلفعت بشال خادمته ، ووضعت على شعرها المشعث قبعة سفر .

كانت العينان تقولان : عد ، عد ، لقد جئت من أجلك . وأى وعود كانتا تعدان ! لم تتحرك ، ولم تقو على أن تزيد كلمة واحدة ، ولكن كل ما فيها ، حتى ثيابها المهوشة ، بدا وكأنه يدعو مسترحما ...

وكاد لتفينوف ينهزم . وبلاى ما استطاع أن يمنع نفسه من الاندفاع إليها ... ولكن الموجة التى أسلم نفسه إليها استعادت سلطانها . فقفز إلى داخل العربة ، والتفت مشيرا لإيرينا إلى الكرسي بجانبه . وفهمت . لم يفت الوقت . خطوة واحدة ، حركة واحدة ، وإذا بحياتين ، وحدتا إلى الأبد ، تغيبان فى البعد المجهول وبينما هى فى ترددتها ارتفع صفير عال ، وتحرك القطار . وتداعى لتفينوف على مقعده ، بينما سارت إيرينا مترنحة إلى كرسي ، فتهاكت عليه . ورأها موظف دبلوماسى صغير كان يتسكع

فى المحطة ، فذهل ... كان يعرف إيرينا معرفة جد عابرة ، ولكنه كان شديد الإعجاب بها ، ولما رآها مستلقية كالمغشى عليها ظنّها أصيبت *une attaque de nerfs* ^(١) ، ومن ثم رأى واجبا عليه باعتباره *un galant chevalier* ^(٢) أن يخف لنجدتها ، لكن دهشته تضاعفت حين هبت لأول كلمة وجهها إلهيا . ودفعت ذراعه التى قدمها لها ، وخرجت إلى الشارع لا تلوى على شيء . ولم تلبث أن اختفت فى ضبابة بيضاء كثيفة من ذلك الضباب الذى يميز جو الغابة السوداء فى مطلع الخريف .

(١) « نوبة عصبية » .

(٢) « فارسا شهما » .

اتفق لنا مرة أن دخلنا كوخ امرأة فلاحه فقدت منذ قليل وحيدها الحبيب ، وشد ما دهشنا حين رأيناها هادئة كل الهدوء ، تكاد تكون فرحة . فقال لنا زوجها حين لاحظ دهشتنا : « دعوها ، فهي الآن لا تحس » . وهكذا فقد لتفينوف إحساسه ، فهبط عليه ذلك الهدوء الميت أثناء الساعات الأولى من رحلته . لقد كان محطم النفس ، شديد البؤس ، ولكنه كان يستريح . كان يستريح بعد عذابات الأسبوع الماضي ووساوسه ، والضربات التي توالى على رأسه ، وضاعف من شدتها عليه أنه لم يكن مستعدا بطبعه لمثل هذه العواصف . إنه الآن لا يرجو شيئا فى الواقع ، ولكنه يحاول أن ينسى الماضي . أن ينسى الماضي ، هذا هو المهم . إنه ذاهب إلى روسيا . فلا بد أن يذهب إلى مكان ما ، ولكنه لم يعد يرسم لنفسه خطة ، فهو لا يعرف نفسه ، ولا يفهم أفعاله ، وكأنما فقد نفسه الحقيقية ، والحق أنه أصبح قليل الاهتمام بهذه النفس . وكان يخيل إليه أحيانا أنه من المحال أن يسمح رجل (رجل !) لنفسه بأن يخضع هذا الخضوع للمرأة ، للحب... فيتمتم : « يا للضعف المزرى ! » وينفض معطفه ، ويعتدل فى جلسته ، وكأنه يقول : إن الماضي قد انتهى ، فلنبداً من جديد ... وما هى إلا لحظة واحدة حتى يتسهم ابتسامة مرة ، ويتعجب من حاله .

وجعل ينظر من نافذة القطار .. كان الجو أغبر رطباً ، لا مطر فيه ، ولكن الضباب لا ينكشف ، والسحب الدانية تحجب السماء وهبت الريح فى مواجهة القطار ، فاندفع أمام النافذة التى جلس إليها لتفينوف موكب متلاحق من أمواج البخار البيضاء ، بعضها خالص وبعضها ممتزج بسحب الدخان القاتمة . وأخذ لتفينوف يرقب هذا البخار والدخان . كانت السحب تمر بعد السحب ، ولا تزال تصعد ، وتعلو وتهبط ، وتتلوى وتتعلق بالأعشاب والشجيرات ، وكأنها تلعب فى إحدى المساهر . ثم تتعدد وتنوب فى الفضاء ... كانت تتبدل دائماً وهى لا تزال كما هى .. لعبة سريعة سخيفة مكررة ! وكانت الريح تتغير حين ينحرف الخط يمناً أو يسرة ، فيتلاشى الرعيل كله فجأة ، وسرعان ما يبدو مرة أخرى من النافذة المقابلة . ثم ينتشر الذيل الضخم مرة أخرى فيحجب عن بصر لتفينوف سهل الرين القسيح . حذق وحذق ، واستولى عليه شرود غريب ... كان وحيداً فى المقصورة ، لم يكن هناك من يزعجه ، فردد مرات عديدة : دخان و دخان . وفجأة بدا له كل شيء دخاناً - كل شيء : حياته هو ، والحياة الروسية ، وكل ما هو بشرى ، وعلى الخصوص كل ما هو روسى . الكل دخان وبخار - هكذا قال لنفسه - كل شيء يبدو دائماً التغير فى كل مكان أشكال جديدة ، أحداث بعد

أحداث ، وكل شيء كما هو في الصميم. كل شيء يسرع طائرا إلى وجهة ما ، وكل شيء يتلاشى دون أن يترك أثرا أو يبلغ أمرا . وتتغير الريح ، فيسرع كل شيء في الاتجاه المضاد ، وهنا تبدأ نفس اللعبة المستمرة القلقة العقيمة . وتذكر كثيرا مما شاهده بنفسه في السنوات الأخيرة من أحداث أحيطت بالضجيج والتهريج ، فهمس : دخان . دخان . وتذكر الجدل العنيف والصياح والتقاش عند جوباريوف ، وعند أناس آخرين منهم الشبان والشيوخ ، والبسطاء والعظماء ، والتقدميون والرجعيون . فردد : دخان بخار ودخان . وتذكر أخيرا تلك النزهة الأنيقة ، وتذكر خطبا وتصريحات لأشخاص آخرين يعدون أنفسهم لكبرى المناصب - حتى كل مواعظ بوتوجين ... دخان ، دخان ، لا شيء أكثر من دخان وجهوده وعواطفه وآلامه وأحلامه ؟ لم يستطع لتفينوف إلا أن يلوح بيده في قنوط .

هذا والقطار ينساب وينساب . وقد خلف راشات وكارلسروه وبروكسال منذ زمن طويل ، وانفرجت الجبال عن يمين الخط ، وتراجعت إلى الفضاء البعيد ، ثم اقتربت ثانية ، ولكنها كانت أقل ارتفاعا ، والغابات التي تكسوها أقل كثافة .. وانثنى القطار في المحطة المسقوفة وإذا بأصوات باعة الجرائد يحملون كل أنواع الصحف حتى الروسية . وأخذ المسافرون يتحركون في مقاعدهم ويهبطون إلى الرصيف ، ولكن لتفينوف لم يغادر ركنه ، بل ظل جالسا فيه مطرق الرأس . وفجأة ناداه شخص باسمه ، فرفع بصره . كان بنداسوف يطل بمحياء الكريه من النافذة ، وكانت وراءه - أم كان يحلم ؟ كلا ، بل كان كل من وراءه وجوها مألوفة من بادن : مدام زوها نتشيكوف ، وفورو شيلوف ، ويمبايف . وكانوا كلهم يتحركون نحوه ، بينما زعق بنداسوف :

- أين بشتشالكن ؟ لقد كنا ننتظره . سيان على كل حال . نط يا زواغ نحن ذاهبون جميعا إلى جوباريوف .

وقال بمبايف مؤكدا وهو يشق طريقه إليه :

- نعم يابنى ، نعم . إن جوباريوف ينتظرنا . نط !

ولولا حمل ثقيل على قلب لتفينوف لاستشاط غضبا . ولكنه نظر إلى بنداسوف وأشاح بوجهه دون أن يتكلم .

فصرخت مدام زوها نتشيكوف وعيناها تقفران من رأسها قفزا :

- ألا تسمع ؟ إن جوباريوف هنا !

فلم يحرك لتفينوف ساكنا .

وبدا بمبايف يقول أخيرا :

- أستمع - بالله - يا لتفينوف ! ليس جوباريوف وحده هنا . إن هنا فرقة كاملة من ألمع الشبان الروس وأذكاهم - وكلهم يدرسون العلوم الطبيعية ، وكلهم شرفاء مخلصون ! حقا يجب أن تعرج على هذا المكان ، ولو من أجل هؤلاء . هنا مثلا شخص يدعى .. ياسلام ! نسيت اسمه . ولكنه عبقري ، عبقري !

فقاطعت مدام زوها نتشيكوف :

- أوه ، دعه دعه ياروستيسلاف أورداليونوفتش . دعه ! أنت ترى أى مخلوق هو ، وأسرته كلها مثله . له عمة كنت أظنها أول الأمر سيدة عاقلة ، ولكنى سافرت معها أول أمس - كانت حضرت إلى بادن منذ قليل ، وفى غمضة عين رجعت - المهم ، كنا فى القطار معا وبدأت أسالها ... فهل تصدقون أنى لم استطع الفوز بكلمة من ذلك الجماد ؟ أرسقراطية فظعة !

كابيتولينا ماركوفنا المسكينة أرسقراطية ! أكان يمكنها أن تتوقع مثل هذه الإهانة ؟

ولكن لتفينوف ظل صامتا ، وأشاح بوجهه عن الجماعة ، وجذب قبعته على عينيه . وأخيرا تحرك القطار . فصاح بمبايف :

- طيب ، قل شيئا على سبيل الوداع ، يا حجر ، الناس لا يتصرفون هكذا !

وصرخ بنداسوف :

- طفل ! أبله !

وازدادت سرعة القطار ، فأطلق بنداسوف شتائمه آمنا من العقاب :

- بخيل ! عفن ! مدود !

وسواء اخترع بنداسوف هذا اللقب الأخير عفوا أم كان قد تعلمه من أحد ، فقد أعجب اثنين من الشبان الشرفاء الذين يدرسون العلوم الطبيعية ، وكانا واقفين على قرب ، فظهر بعد أيام فى الوريقة الدورية التى كانت تنشر آنذاك فى هيدلبرج ، بعنوان : A tout venant. je crache أو « لايهمنى » . (١)

(١) هذه حقيقة تاريخية .

وأخذ لتفيتوف يردد مرة أخرى : « دخان ، دخان ، دخان ! » وقال فى نفسه : فى هيدلبرج الآن أكثر من مائة طالب روسى ، كلهم يدرسون الكيمياء والطبيعة ووظائف الأعضاء - ولا يكادون يطيقون أن يذكر أمامهم شىء آخر ... وبعد خمس سنوات أو ست لن يوجد خمسة عشر طالبا يستمعون إلى محاضرات الأساتذة المشهورين أنفسهم . ستتغير الريح .. ويهب الدخان .. فى اتجاه آخر ... دخان . دخان ... !

ومر قرب المساء بكاسل . وانقض عليه الألم مع الظلام كما ينقض العقاب ، وبكى وهو يدفن نفسه فى ركن العربة ، فاضت دموعه طويلا ، لم تغسل قلبه ، بل زادت على عذابه ألما مرا حارقاً . وفى الوقت نفسه كانت تاتيانا راقدة فى أحد فنادق كاسل ، وقد وقذتها الحمى ، وكابيتولين ماركوفنا جالسة بجانبها تقول :

- تانيا ؛ بالله دعيني أبرق إلى جريجورى ميهالتش ؛ دعيني أفعل يا تانيا ؛

فتجيب :

- لا ياعمتى ، يجب ألا تفعلى . لا تخافى ، أعطيني قليلا من الماء ، سأشفى بعد قليل .

وكان بعد أسبوع أنها تماثلت للشفاء ، فواصلت الصديقتان رحلتهما .

عاد لتفينوف إلى ضيعته دون أن يعرج على بطرسبرج أو موسكو . وفزع حين رأى أباه ، فقد كان ضعيفا متداعيا . أما الشيخ ففرح بعودة فتاه ، كما يفرح رجل في أخريات أيامه ، وأسلم إليه من فوره إدارة الضيعة . وكانت في حال سيئة ، وامتدت حياته بضعة أسابيع أخرى . ثم فارق هذا الكوكب الأرضي . وبقي لتفينوف وحيدا في داره الصغيرة القديمة ، وبدأ زراعته بقلب مثقل ، وبلا رجاء ولا حماس ولا مال . والزراعة - كما يعلم الكثيرون - عمل لا بهجة فيه ، فلن نطيل القول عما لقيه لتفينوف فيها من عناء . أما الإصلاحات والابتكارات فلم يكن ثمة مجال للتفكير فيها ، ولم يكن بد من إرجاء التطبيق العملي لما حصله في الخارج إلى أجل غير محدود ، واضطره الفقر إلى أن يتحایل على الأيام ، ويتسامح في كثير من الأمور المادية والمعنوية . كانت المبادئ الجديدة لم ترسخ أصولها بعد ، والمبادئ القديمة قد فقدت كل قوة . كان الجهل يرتطم بالخيانة ، ونظام الحياة الذي اهتز من أساسه يضطرب كوحل زلق ، ولم تكن هناك إلا كلمة واحدة عظيمة ترف كروح الله على الماء : كلمة الحرية . لم يكن بد من الصبر أولا ، الصبر في غير سلبية بل إيجابية مثابرة ، لا تخلو من مكر وحيلة . وضاعفت حالة لتفينوف النفسية صعوبة الأمور . لم يبق فيه إلا قليل من إرادة الحياة... فأين له بإرادة العمل والجهاد ؟

لكن مضى عام بعده عام ، وبدأ عام ثالث . وكانت الفكرة العظيمة (١) تتحقق رويدا رويدا ، وتكتسب لحما ودما ، كان الشطء قد نبت من الحب المبثور ، ولم يعد أعداؤه الظاهرون أو المستترون بقادريين على أن يطئوه بالأقدام . ومع أن لتفينوف انتهى بتأجير القسم الأكبر من الأرض للفلاحين على نظام المزارعة - أي عاد إلى الطرق البدائية الفقيرة - فقد نجح في بعض مشروعاته : فتح المصنع من جديد ، وبدأ مزرعة صغيرة بخمسة عمال - وقد جرب أربعين حتى اختار هؤلاء الخمسة - وسدد ديونه الخاصة الكبرى ... وتماسكت نفسه حتى استعاد مشابه من لتفينوف القديم . صحيح أن كآبة دفينة لم تفارقه قط ، وأنه كان أهدأ من سنة ، وأنه حبس نفسه في دائرة ضيقة ، وقطع كل علاقاته القديمة ... ولكن تلك الاستهانة الميئة ذهبت ، وعاد يتحرك ويعمل كرجل حي بين الأحياء ، وذهبت آخر آثار ذلك السحر الذي أحاط به ، وبدأ له كل ما حدث في بادن غائما كالحلم ... وإيرينا ؟ حتى هي شحبت واختفت ، إلا إحساسا غامضا بالخطر كان يشعر به لتفينوف تحت الضبابية التي أخذت تكتنف صورتها . وكانت تصل إليه في الحين بعد الحين أخبار عن تاتيانا . فعلم أنها تعيش

(١) فكرة تحرير الفلاحين .

مع عمتها فى ضيعتها التى تبعد عنه بمائة وستين ميلاد ، وأنها تحيا حياة جد هادئة ، ولا تخرج إلا قليلا ، ولا تكاد تستقبل ضيوفا - ولكنها بخير وعافية .

وفى يوم جميل من أيام مايو كان جالسا فى مكتبه ينتظر بغير اهتمام فى صفحات العدد الأخير من مجلة بطرجية ، حين نخل خادمه يعلن قدوم عم عجوز . كان هذا العم قريبا لكابيتولينا ماركوفنا ، وقد زارها حديثا ، وكان قد اشترى ضيعة قريبة من ضيعة لتفينوف ، فمر عليه فى طريقه . ولبث مع ابن أخيه يوما كاملا ، وحدثه طويلا عن معيشة تاتيانا . فلما رحل فى اليوم التالى أرسل إليها لتفينوف رسالة كانت الأولى منذ فراقهما . سألها أن تأتن له فى تجديد تعارفهما ولو بالمراسلة ، كما رغب أن تخبره أن كانت يجب عليه ألا يفكر فى رؤيتها ثانية . ولم يكن انتظاره للجواب خاليا من قلق واضطراب ... وأخيرا جاء الجواب . لقد رحبت تاتيانا بطلبه ، وختمت رسالتها بقولها : إذا كنت ترغب فى زيارتنا فمرحبا بك ، أنت تعلم المثل : « الشركة خير حتى فى البلوى » . كما كتبت إليه كابيتولينا ماركوفنا تحييه . وأصبح لتفينوف سعيدا كالطفل ، فما خفق قلبه منذ زمن طويل فرحا لشيء كما فرح الآن . أحس فجأة بالبهجة والمرح ... كذا الشمس لا تكاد تشرق وتجلى . وظلمة الليل حتى يرف على وجه الأرض المنتعشة نسيم لطيف . وظل لتفينوف يبتسم طول النهار حتى وهو فى مزرعته يلقى أوامره . وأخذ يستعد من فوره للرحلة . وبعد أسبوعين كان فى طريقه إلى تاتيانا .

سار بعريته مبطنًا ، فى طرق جانبية ، دون مغامرات . وحدث مرة أن انكسر إطار إحدى العجلتين الخلفيتين ، فأخذ الحداد يطرقة ويلحمه وقتًا طويلا ، وهو يلعن الإطار ويلعن نفسه معا ، ثم انتهى بأن يئس منه . ولحسن الحظ ظهر أن المرء فى بلادنا يستطيع أن يسافر دون عناء بإطار مكسور ، وخصوصا إذا كان مسافرا «على لين» ، أى على الطين . على أن لتفينوف التقى فى رحلته هذه بأناس ما كان يتوقع لقاءهم . فشهد بعد مرحلة من الطريق جلسة «لقضاة التحكيم» وكان يرأسهم بشتشالكن الذى بدا له أشبه بصولون أو سليمان الحكيم ، إذ كانت عباراته موسومة بطابع الحكم الغوالى ، وكان ملاك الأرض والفلاحون على السواء يظهرون له غاية التبجيل ... وحتى منظره بدا أشبه بحكماء الأقدمين ، فقد انجرد شعره عن يافوخه ، وانتفش وجهه حتى بدأ كخميرة من الفضائل الراقية ... وقد رحب بمقدم لتفينوف «إلى إقليمى ، إن جاز لى أن أستعمل مثل هذا التعبير الجرىء .» ثم غرق فى الصمت ، كأنما أخذته نوبة من المشاعر الطيبة . على أنه نجح فى أن ينهى إليه خبرا . وكان هذا الخبر عن فوروشيلوف ، فقد عاد بطل اللوحة الذهبية للخدمة العسكرية ، وتمكن فعلا من إلقاء محاضرة بين ضباط كتيبته فى موضوع «البودزم» - أو «الدينامزم» - لم يستطع بشتشالكن أن يجزم بأيهما . وانتظر لتفينوف فى المحطة الثانية طويلا حتى تسرج الخيل . وكان الوقت سحرا ، والنعاس يخامره وهو جالس فى عربته ، حين أيقظه صوت بدا له مألوفًا ، وفتح عينيه ... يا للسماء ! أليس هذا هو جوباريوف فى سترة شهباء كالتى يلبسها البحارة ، وسراويل نوم فضفاض ، واقفا على درج المحطة ، يسب ويلعن ؟ .. لا ، إنه لم يكن جوباريوف .. ولكن ما أتم الشبه بينهما ! .. لولا أن هذا السيد كان أضخم فكا ، وأبرز نواجذ ، وكانت نظرات عينيه الكابيتين أشد توحشا ، كما كان أنفه أكبر ، ولحيته أكث ، ووجهه كله أغلظ وأشد تنفيرا .

جار ببطء وحنق ، ، فاغرا فاه الذى يشبه فم الذئب :

- حيوانات ! حيوانات فلاحون بهائم ! .. هذه هى الحرية التى تتباهون بها .. الخيل لا نستطيع أن نجدها ..

- حيوانات ، حيوانات !

انبعث هذا الصوت الآخر من وراء الباب ، وفى الوقت نفسه ظهر على الدرج فى سترة شهباء كالتى يلبسها البحارة وسراويل فضفاض أيضا - جوباريوف الحقيقى

هذه المرة ، جوباريوف نفسه ، ستيبان نيكولايفتش جوباريوف ، لا شك فى ذلك .
استمر يقول مقلدا أخاه (وقد ظهر أن السيد الأول كان أخاه الأكبر ، رجل المدرسة
القديمة المشهورة بعنف قبضتيه ، والذي كان يدير ضيعة) :

- بهائم ! دواؤهم الجلد ، اسمع كلامى . لكمة أو لكمتان فى الأنف ، هذه هى
الحرية التى تلائمهم ... قال « رئيس الفولوست » قال ^(١) ... والله عال . سأعرفكم من
رئيس الفولوست .

ولكن أين هذا المسيو روستون ؟ .. ماذا دهاه ؟ .. هذا عمله .. الصعلوك
الكسلان ... كيف لا يجنبنا هذه المضايقات ؟

فبدأ جوباريوف الأكبر يقول :

- يا أخى ألم أقل لك دائما أنه لاينفع ؟ صعلوك كسلان ، هكذا هو ! ولكن من أجل
أفكارك القديمة ... موسيو روستون ! موسيو روستون ! أين ذهبت - عليك اللعنة !

وجار الأصغر ، جوباريوف العظيم :

- روستون ! روستون ! ازعق عليه زعقة طيبة ياأخى دوريميديونت نيكولايتش !

- حسنا ، إنى أصبح به ياستييان نيكولايتش ! مسيو روستون !

فسمع صوت معجل :

- هأنذا ! هأنذا !

ومن خلف ركن المحطة وثب ... بمبايف .

فكتم لتفينوف شهقة . كان المتحمس المسكين يضطرب اضطرابا محزنا فى سترة
مطرزة بالية ممزقة الكمين ، أما ملامحه فلم تتغير على التحقيق ولكنها امتطت والتوت ،
وكانت عيناه الصغيرتان اللتان استولى عليهما القلق تعبران عن وجل ذليل وخضوع
جائع ، ولم يزل شاربه المصبوغ يبرز كسابق عهده فوق شفتيه المنتفختين . ما كاد
يظهر حتى أخذ الشقيقان يعنفانه معا من أعلى الدرج . فتوقف دونهما فى الطين وقد
حنى ظهره فى ضراعة ، وحاول أن يتملقهما بابتسامة صغيرة عصبية ، وهو يعجن
قبعته بين أصابعه الحمراء ، ويداول بين قدميه ، ويتمتم أن الخيل ستحضر بعد قليل ...

(١) « الفولوست » فى روسيا قبل الثورة ، صورة من صور الحكومة اللامركزية تشبه المجلس المحلى
فى مصر .

ولكن الأخوين لم يسكنا حتى وقع بصر أصغرهما على لتفينوف ، وسواء أعرف لتفينوف أم أحس بالخجل أمام أجنبي ، فقد دار على عقبيه مسرعا كالدب ، ودخل المحطة وهو يقرض على لحيته ، وأمسك أخوه عن الكلام من فوره ، وتبعه وهو يدور كالدب أيضا . إن جوباريوف العظيم لم يفقد سلطانه حتى فى وطنه .

وهم بمبايف أن يتبع الأخوين ... فناداه لتفينوف باسمه . قالتفت ، ورفع رأسه ، وعرف لتفينوف ، قطار إليه طيرانا وقد بسط ذراعيه . ولكنه حين وصل إلى العربة أمسك بيابها وسند صدره عليه وانفجر باكيا بدموع غزيرة .

فقال لتفينوف وهو ينحنى عليه ويريت على كتفه :

– هون عليك يا بمبايف !

لكنه استمر فى البكاء ، وتمتم بين شهقاته :

– أنت ترى ... أنت ترى ... إلى أى ...

وزأر الأخوان فى السقيفة :

– بمبايف !

فرفع بمبايف رأسه ، ومسح دموعه عجلا وهمس :

– مرحبا ، مرحبا أيها الحبيب ، ووداعا ! .. أنت سامع ، إنهما يناديانى .

فسال لتفينوف :

– ولكن أى مصادفة جاءت بك إلى هنا ؟ وما معنى هذا كله ؟ لقد ظننتهما يناديان رجلا فرنسيا .

فأجاب بمبايف وهو يشير إلى السقيفة :

– إننى ... مدير منزلهما ... رئيس الخدم . وقد أصبحت فرنسيا على سبيل

المزاح . ماذا كنت أستطيع عمله يا أخى ؟ لم أجد ما أكله . أضعت آخر فلس .

هكذا يضطر المرء أن يضع رأسه فى النير . نزلت عن كبريائى لأعيش .

– وهو ... أهو فى روسيا منذ وقت طويل ؟ وكيف ترك رفاقه ؟

– أه يا بنى ! هذا كله راح وانتهى ... الريح تغيرت – كما ترى . مدام

زوهانتشيكوف ... ماتروناسميونوفتا ... طردها شر طردة . فسافرت حزينة

إلى البرتغال .

- البرتغال ؟ غريبة !
- نعم يا أخى : إلى البرتغال ، مع اثنين من الماتروفين .
- مع من ؟
- الماتروفين . هذا اسم أعضاء حزبها .
- هل لماترونا سميونوفتا حزب ؟ حزب كبير ؟
- حسنا . إنه مؤلف من هذين العضوين بالتحديد . أما هو فله هنا ما يقرب من ستة أشهر . غيره اعتقلوا ، ولكنه لم يصب بسوء . إنه يعيش فى الريف مع أخيه ، ويا ليتك سمعته الآن ..
- بمبايف !
- حاضرياستيان نيكولايتش ، حاضر . وأنت أيها العجوز ! مستريح ؟ مبسوط ؟ الحمد لله على ذلك ! أين تذهب الآن ؟ .. ياسلام ! .. ولا كان على البال ... أتذكر بادن ؟ أه ! كانت أيام ! وبالمناسبة : تذكر بنداسوف أيضا ؟ مات .. تصدق ؟ .. وجد وظيفة فى مصلحة الدمغة ، وكان فى إحدى الحانات فدخل فى عركة ، وشجوا رأسه بعصا بليارد . نعم ، نعم ، كذا حال الدنيا ! ولكنى سأقول دائما : روسيا ! يالها من بلد ! انظر إلى هاتين الأورتين ! ليس فى أوربا كلها ما يشبههما ! أورتان ماسيتان أصيلتان !
- وبعد أن أدى بمبايف ما يجب عليه لتحمسه الذى لا يفتر ، أسرع إلى المحطة حيث كان اسمه ينادى مرة أخرى بنعوت بذينة .
- وعند الأصيل شارف لتفينوف ضيعة تاتيانا . وكان المنزل الصغير الذى تقيم به خطيبته السابقة رابضا على سفح جبل يجرى من تحته جدول صغير ، وتحيط به حديقة حديثة الغرس . وكان المنزل حديث البناء أيضا ، يرى من مسافة بعيدة عبر النهر والخلاء . وقع نظر لتفينوف عليه من بعد يزيد عن ميل ونصف ، بزواياه المستقيمة ، ونوافذه المتوازية الصغيرة التى كانت تلمع حمراء فى شمس الأصيل . وكان قد أحس بقلق خفى حين غادر المحطة الأخيرة ، والآن ملأه الاضطراب ، جاشت نفسه بفرحة مازجها خوف . سأل نفسه : كيف يقابلانى ؟ وكيف أقترب منها ؟ ولكى يشغل نفسه أخذ يتحدث مع سائقه ، وكان فلاحا رزينا أشيب اللحية ، طلب منه - على الرغم من شبابه ورزاقته - أجر خمسة وعشرين ميلا مع أن المسافة كانت عشرين .. سأل : أيعرف جامعة شستوف ؟

- جماعة شستوف ؟ نعم ، سيدتان طيبتان ، نعم الناس ! تطيباننا أيضا . أى والله ، إنهما طيبتان ! الناس يذهبون إليهما من المنطقة كلها . أى والله ، ناس مالها عدد . مثلا إذا واحد مرض ، أو جرح ، أو أى شىء ، يذهب إليهما توا ، فيعطيانه شرابا أو مساحيق أو لزقة ، ويطيب . الدوا ينفع . ولا تأخذان أى نقود . تقولان : نحن لا نفعل هذا من أجل النقود ... وعندهما مدرسة أيضا ... لكن ما فائدة المدرسة ؟ ولم يرفع لتفينوف عينيه عن المنزل بينما كان السائق يتكلم . وبرزت إلى الشرفة امرأة فى ثياب بيض ، وقفت قليلا ، ثم اختفت ... ألم تكن هذه إياها ؟ كاد قلبه يطفر ، وصاح بالسائق .

- أسرع ، أسرع !

واستحث السائق الجواد . وبعد لحظات أخرى ... دخلت العجلة من البوابة المفتوحة ... كانت كابيتولينا ماركوفنا واقفة على الدرج ، تصفق بيديها وتصيح وهى تكاد تطير فرحا : « أنا عرفته . عرفته قبلك ! هو ! هو ! .. عرفته ! » قفز لتفينوف من العربة قبل أن يستطيع الغلام المقبل فتح بابها ، وعانق كابيتولينا ماركوفنا مسرعا ، واندفع إلى المنزل ، وعبر البهو ، ودخل حجرة الطعام ... كانت تاتيانا واقفة أمامه ، وقد تورد وجهها خجلا . نظرت إليه بعينيهما الحنونين اللطيفتين (كانت أكثر نحولا ، ولكن ذلك زادها جمالا) ، ومدت إليه يدها . لكنه لم يتناول يدها ، بل سقط على ركبتيه أمامها . ولم تكن تتوقع هذا ، فلم تدر ماذا تقول أو تفعل .. واغرورقت عيناها بالدموع . لقد ذعرت ، ولكن وجهها كله كان يتألق بشرا .. قالت : « جريجورى ميهاليتش ! ما هذا يا جريجورى ميهاليتش ؟ » وهو لا يزال يقبل طرف رداؤها ... وتذكر فى غمرة من حنان أنه ركع على ركبتيه أمامها فى بادن كما يركع الآن ... أنذاك - والآن ! شتان ما بين المرتين !

ردد :

- تانيا ! تانيا ! هل عفوت عني يا تانيا ؟

فصاحت تانيا ملتفتة إلى كابيتولينا ماركوفنا وقد دخلت الحجرة :

- عمتى ، عمتى ، ما هذا ؟

فأجابت السيدة العجوز الطيبة :

- لاتمنعيه يا تانيا . لا تمنعيه . إنه جاء تائبا !

وبعد ، فقد آن لنا أن نختم قصتنا ، والحق أن ليس هناك شيء يزداد . يستطيع القارئ أن يحدس الباقي بنفسه ... ولكن ماذا عن إيرينا ؟
إنها لاتزال فاتنة رغم أعوامها الثلاثين ، يشغف بها شباب لا يحصون عددا ، وكان يمكن أن تشغف آخرين لو ... لو ... أيها القارئ ، ألا تعرج معنا دقائق على بطرسبرج ، لتدخل منزلا من أجمل المنازل هناك ؟ انظر ، إن أمامك بهوا فسيحا ، ولا نقول إنه فاخر الرياش ، فذلك تعبير يقصر عن وصفه ، ولكن نقول إنه رائع بارع مهيب . أتعرون هزة من الخضوع ؟ إذن فأعلم أنك . دخلت معبدا ، معبدا كرس للسلوك النبيل ، ، والنبيل المحسن ، أو باختصار : لصفات عليين ... أن سكونا « كاتما للأسرار » يحتويك : فالسجف المخملية على الأبواب ، والستر المخملية على النوافذ ، والبسط الوثيرة على الأرض - كل شيء كأنه قدر تقديرا ليخفت كل صوت خشن ، ويلطف كل إحساس عنيف . والمصابيح المهندسة الضوء توحى بعواطف هادئة وقور . والهواء المحبوس يتخلله أريج مهذب . حتى السماور على المائدة يئز أزيزا مكتما خجلا . إن سيدة الدار - وهي شخصية هامة في مجتمع بطرسبرج - تتحدث حديثا لا يكار يسمع ، فهي دائما تتكلم وكأن في الحجرة مريضا مدنفا يكاد يحتضر . والسيدات الأخريات يقلدنّها فلا يكن يهمسن ، بينما تحرك أختها شفيتها - وهي تصب الشاي - حركات لا صوت لها ، حتى يحار الشاب الجالس أمامها ، وقد ألقته المصادفة في معبد الآداب ، فهو عاجز عن فهم ما تريده منه ، بينما هي تنفث للمرة السادسة :

(١) Voulez - vous une tasse de thé

وفي الأركان شبان عليهم وسامة ، عيونهم تلمع بتذلل رقيق ، وسيماهم متعلقة في وداعة وجلال ، وصدورهم يلمع عليها - بلطف - عدد من النجوم والصلبان . والحديث دائما لطيف يدور حول موضوعات دينية ووطنية : « النقطة الصوفية » لف . ن . جلنكا ، بعثتنا التبشيرية في الشرق ، الأديرة والإخوان في روسيا البيضاء . أحيانا يتحرك خدم في حلل رسمية ، يخطون خطوا ملثما على البسط اللينة ، وكلما خطوا ارتعشت - بلا صوت - ريلاتهم الضخمة التي غلفت بجوارب حريرية ضيقة ، فيزيد ارتعاش الهيبة في العضلات الصلاب ما يقع في النفس من احتشام المكان ووقاره وقديسيته . إنه معبد ، معبد !

(١) « هل تريد قدحا من الشاي ؟ » .

سألت إحدى السيدات العظيمات برقة :
– هل رأيت مدام راتميروف اليوم ؟
فأجابت ربة الدار بنغم أثيرى كأرغن عوليس :
– لقيتها اليوم عند ليز . إنى أسفة لها . فهي مرة الروح .

(١) Elle n'a pas la foi .

– أجل ، أجل . أذكر أن هذا ما قاله عنها بيوتر ايفانتش . وإنه لحق ...
qu'elle set. quelle est (٢) مرة الروح .
فانبعث صوت ربة الدار كأنه البخور :
– Elle n'a pas la foi, C'est une ame égarée. (٣) . أنها مرة الروح .
فتردد أختها بشفقتها فقط : إنها مر الروح .

لهذا لم يقع الشبان جميعا بغير استثناء فى هوى إيرينا ... فهم يخافونها ...
يخافون روحها المرة ... وهذه هى القالة الشائعة عنها . وفيها ، كما فى كل قالة ،
نصيب من الصحة . ولا يخافها الشبان وحدهم ، بل الناضجون فى السن ، ذوو
المناصب العالية ، وحتى « الشخصيات » الكبيرة أيضا ، فلا أحد يضارعا فى قدرتها
النافذة على أن تلمح الجانب المضحك أو الوضع فى نفسية شخص ما ، ولا أحد
غيرها يستطيع أن يدمغه – فى غير رحمة – بالكلمة التى لاتنسى ... وأن لاذع هذه
الكلمة ليزداد حدة إذ تخرج من بين شفتين عاطرتين جميلتين ... عسير أن تقول ماذا
يجرى فى قلبها ، ولكن الأراجيف لا تثبت بين عشاقها الكثيرين حبيبا تعزه .
زوج إيرينا يتنقل مسرعا فى ذلك الطريق الذى يسميه الفرنسيون طريق المجد .
وقد سبقه الجنرال السمين وتخلف عنه الجنرال المتسامح . ويعيش فى المدينة التى
تعيش فيها إيرينا صديقا سوزونت بوتوجين ، ولا يراها إلا نادرا ، فليس ثمة ضرورة
معينة تلزمها الإبقاء على صلتها ... لأن البنت الصغيرة التى كانت فى رعايته قد
ماتت منذ زمن غير بعيد .

(تمت)

(١) « فاقدة الإيمان » .

(٢) « أنها .. أنها .. » .

(٣) « إنها فاقدة الإيمان ، روح ضالة » .

المحتويات

- الكتاب الأول : نصوص مختارة من توالستوى 1
- الكتاب الثاني : المقامر 115
- الكتاب الثالث : اعتراف منتصف الليل 251
- الكتاب الرابع : بخان 359

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز

الإشراف الفنى : حسن كامل



إبداع تولستوي

نصوص مختارة من تولستوي
المقامر: دكتوريفسكي
اعتراف منتصف الليل: جورج ديهامل
دخان: إيثان تورجينيف

يضم هذا المجلد أربعة أعمال إبداعية مختلفة هي: "نصوص مختارة من تولستوي"، و"المقامر" لفيدور دستويفسكي، و"اعتراف منتصف الليل" لجورج ديهامل، و"دخان" لإيثان تورجينيف.

ففي العمل الأول نجد تولستوي باحثاً عن الحقيقة وفيلسوفاً، لا عن لذة فطرية في التأمل ولا عن حب استطلاع فكر، ولكن من أجل المحافظة على النفس ونتيجة لليأس؛ فتفكيره كتفكير بسكال، فلسفة على حافة الهاوية أو خارجة منها؛ لقد كان يبحث عن الحياة في خوفه من الموت والعدم.

أما رواية "اعتراف منتصف الليل" فقد حلل فيها ديهامل عناصر التناقض بين الفرد ومجتمعه، وبين واقع الفرد وآماله، وبين أفكاره وأعماله، وصور ذلك كله منعكساً على ذهن سلاخان فهو لا يقص أحداثاً، بل أفكاراً بلغت من قوتها وتمكنها مبلغ الأحداث،

فهى أحداث بالنسبة لصاحبها، وهى مغامرات حقة تمسك أنفاسك وأنت تقرؤها وتأتى فى النهاية رواية "دخان" حيث صور تورجينيف فيها جماعات من المغرورين

الروس فى مصيف ألماني، فصور المجتمع الارستقراطي بأناقته وتفاهاته وفراغه وانحطاطه كما صور مننديات أكثر شعبية، مننديات أدعياء التحرر بمناقشاتهم العقيمة وخضوعهم للأعمى لشعار أو قائد. والتقط عيوب هؤلاء وأولئك بعين نافذة خبيرة، وصورهم حفار، فجعلها نماذج رائعة للهجاء الواقعي. على أن هذه الصور ليست مجرد سياسي، بل إن وراءها إحساساً مرأ، إحساساً تراجيدياً بضيايع الجهد الإنساني واضطراب الفكر الإنساني وغموض المصير الإنساني.

Bibliotheca Alexandrina



0749492